المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية بالرياض
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

آيات العقيدة في سورة الأنعام

"دراسة بلاغية تحليلية"

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد الطالبة:
مريم بنت سليمان بن عبد الله العُبيد
إشراف الدكتور:
ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين
"الأستاذ المساعد بالقسم"

العام الجامعي
١٤٢٤هـ - ١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:١٠٢].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[النساء:١].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب:٧٠ـ ٧١].

أما بعد:

فإنه لا يخفى ما للبلاغة في الكلام من قدرة على إيصال المعنى المراد إلى المتلقي ، والتأثير فيه؛ بأجود عبارة..، وأفضل وجه..، وكلما ارتفع شأن المتكلم في البلاغة ، كانت قدرته على إيصال المعاني ، والتأثير في المتلقي أعلى . والناظر في القرآن الكريم ، يجد أن المعاني في نظمه العظيم ، قد نقلت إلى المتلقي ببلاغة بلغت حد الإعجاز والتحدي..!، ومن أعظم المعاني التي نزل القرآن لإثباتها ؛ عقيدة لا إله إلا الله والشهادة بأن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ لأنها أصل الإسلام وأساس الملة ، ولا تقبل الأعمال والأقوال في الإسلام ، ولا تصح إلا إذا صدرت عن عقيدة صحيحة؛ كما قال تعالى:(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر:٦٥]، وقال ـ أيضاً ـ:(ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام: ٨٨].

وحين ابتعدت فئة من المسلمين عن القرآن الكريم ، تزعزعت العقيدة في نفوسهم، فضلوا وأضلوا، وظهرت بينهم البدع، وانتشرت فيهم المعتقدات الباطلة، ولو عادوا إلى القرآن العظيم ، وتدبروا آياته ، وأسرار نظمه ؛ لاهتدوا؛ إذ تكفل الله ـ جلَّ وعلا ـ لمن قرأه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

ومما دفعني لاختيار هذا الموضوع ؛ أهمية العقيدة في حياة المسلمين، ووجوب تصحيحها، فأقبلت على كتاب الله ـ تعالى ـ؛ لأستقي العقيدة من مصدرها الأول ، وأسعى لتدبر آيا ا؛ للوقوف على شيء من أسرار نظمها، ولطائف بلاغتها..؛ رجاء أن تكون هذه الدراسة وسيلة لتقوية الإيمان في القلوب، وترسيخ العقيدة الصحيحة فيها..، وتقوية صلتها بالله ـ تعالى ـ؛ بما يتجلى للمتلقي من بدائع النظم القرآني في عرضه لمعاني العقيدة. وقد حفزني على ذلك وجود سورة موضوعها الرئيس الدعوة إلى الإيمان بالله وما يستلزم ذلك من إيمان ببقية أركان الإيمان؛ تلك هي سورة الأنعام، يضاف إلى ما سبق أن آيات العقيدة في هذه السورة لم تفرد ـ فيما أعلم ـ بدراسة بلاغية متخصصة؛ تجلي حقائقها، وتبرز سما ا، وتظهر لطائف البيان فيها؛ من خلال فنون البلاغة ومسائلها؛ فتوجه عزمي إلى هذه السورة العظيمة لتكون موضوع رسالتي في مرحلة الماجستير في حقل الدراسات البلاغية المتخصصة .

وقد سلكت في هذه الدراسة التي بعنوان:"آيات العقيدة في سورة الأنعام دراسة بلاغية تحليلية" سبيل التحليل النظمي المتكامل للآيات؛ وفيه أجتهد من أجل إبراز ما في الآية من فنون بلاغية إضافة إلى الشاهد البلاغي الذي استدل بالآية عليه، وذلك لتسلم الآية من التقطيع، والتنقيل بين مباحث الفصول، ومما قد يقع من إغفال لما تزخر به من لطائف بلاغية، ولتقدم للمتلقي متكاملة المعاني العقدية والدلالات البلاغية، ولعل هذا من كمال الأدب مع كلام الله ـ تعالى ـ وهو مقصد شرعي وبلاغي .

وقد مهدت لكل فن بلاغي بتعريف موجز، ثم أوردت ما يناسبه مما تيسر من آيات العقيدة في السورة، مشيرة إلى مناسبة الآية لما قبلها، وإن تعذر هذا أشير إلى صلتها بالسياق ـ إن أمكن ـ مع محاولة التركيز على الشاهد البلاغي في المبحث الذي سيقت الآية من أجله ـ قدر المستطاع ـ وهذا هو المنهج العام.

وأما خطة البحث فقد خرجت في مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة، وذلك على النحو التالي:

التمهيد:

وفيه تحدثت عن أمرين:

الأول: العقيدة : وتناولت مفهومها وتحديد المراد ا. ومجمل معتقد أهل السنة والجماعة.

الثاني: التعريف بسورة الأنعام: وما ورد في فضلها وسبب نزولها. ثم أوجزت أبرز الموضوعات التي عرضتها آيات السورة.

الفصل الأول: خصائص اللفظة؛ واشتمل على ما يلي:

- الجرس.
- الإيحاء.
- الإفراد والجمع.
- التذكير والتأنيث.
- التنكير والتعريف.

الفصل الثاني: خصائص الجملة؛ واشتمل على ما يلي:

- الخبرية والإنشائية.
- الاسمية والفعلية.
- التقديم والتأخير.
- الإطلاق والتقييد.
- القصر.

الفصل الثالث: خصائص الجمل؛ واشتمل على ما يلي:

- الفصل والوصل.
- الجملة الحالية.
- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.
- الإيجاز.
- الإطناب.

الفصل الرابع: خصائص التصوير البياني؛ واشتمل على ما يلي:

- التشبيه.
- المجاز: أ ـ المجاز العقلي.

ب ـ المجاز اللغوي؛ وتناول:

١ ـ المجاز المرسل.

٢ ـ الاستعارة.

- الكناية والتعريض.

الفصل الخامس: خصائص البديع؛ واشتمل على ما يلي:

- البديع المعنوي؛ وتناول:
  - الطباق.
  - المقابلة.
  - مراعاة النظير.
  - المشاكلة.
  - التقسيم.
- البديع اللفظي؛ وتناول:
  - الجناس.
  - رد العجز على الصدر.
- الفاصلة القرآنية.

الفصل السادس: التناسب والسياق وأثره في إبراز العقيدة؛ واشتمل على ما يلي:

- الاستفتاح ودلالاته.
- المقصود الكلي للسورة.
- النظم الترتيبي لآيات السورة.
- علاقة الخاتمة بالسورة.

وفي الخاتمة أجملت أبرز ما وصل إليه البحث من نتائج . ثم ذيلت الرسالة بفهرس للآيات القرآنية ، وآخر للأحاديث النبوية ، وثالث للمصادر والمراجع ، وكان آخر الفهارس فهرساً تحليلياً للمحتويات العلمية للرسالة .

ومن العقبات التي واجهتني في أثناء سيري في هذا البحث طول آيات السورة، إضافة إلى أن الخطة العلمية ـ المقررة من القسم ـ تعتمد التقسيم البلاغي للفصول ، والسير على هذا المنهج يفضي إلى إبراز الشاهد القرآني للمبحث البلاغي فقط، ويغفل ما تعمر به الآية من لطائف وأسرار، كما يؤدي إلى تنقيل أجزاء الآية وتقطيعها وترحيل بعضها إلى مباحث أخر، وهذا ضرب من التكرار الذي هو آفة البحث العلمي، بل إن فيه شيئاً من العبث بكلام الله ـ تعالى ـ لمصلحة المبحث البلاغي ؛ فكأنه هو الأصل، والآية وسيلة إليه تنقل له وترحل من أجله، بينما العكس هو الصحيح منطقاً وعلماً وأدباً؛ لذا تشاورت مع المشرف على البحث، ودار نقاش معه في ذلك ؛ وكانت نتيجة المناقشة أن أبدأ بعرض الشاهد البلاغي ـ بعد ذكر مناسبة الآية لما قبلها إن أمكن ـ، ثم أتبعه بما يتيسر من أسرار بيانية ولطائف بلاغية تضمنتها الآية، و ـذا تسلم الآية من التجزئة والتنقيل بين مباحث الرسالة ويتحقق موضع الشاهد وزيادة. إلا أنه تعذر علي في بعض المباحث الأخذ ـذه الطريقة؛ لقوة الصلة بين الشاهد البلاغي وبين ما قبله أو ما بعده، أو لأن بلاغة هذا الشاهد لا تظهر للمتلقي إلا بالنظر إليه في سياقه .

وقد حرصت في رسالتي ـ قدر المستطاع ـ على الاعتماد ـ بعد عون الله تعالى ـ على القرآن الكريم، ثم على الأمهات من كتب التفسير والبلاغة، والعقيدة ، والإعجاز البلاغي للقرآن، ومعاجم العربية ..وغيرها

ولا يفوتني في هذا المقام أن أزجي الشكر للمشرف على بحثي الدكتور: ناصر بن عبدالرحمن الخنين على ما أسداه لي من توجيه، ونصح، وإرشاد..فجزاه الله عني خير الجزاء، وجعل ما قدمه في ميزان حسناته.

والشكر موصول لأهل الفضل في كلية اللغة العربية بالرياض عامة، وفي قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي خاصة.

كما أشكر كل من أعانني على إتمام هذا البحث، وأسأل المولى ـ جل وعلا ـ أن يثيبهم ويجزيهم خير الجزاء.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أشير إلى أني قد اجتهدت قدر وسعي للاستشهاد بأكبر عدد من آيات العقيدة في السورة، ولست أزعم أني أحصيتها كلها، ولا أني أحطت بأسرار بلاغتها، وحسبي أن مابين يدي كلام الله ـ تعالى ـ الذي تعجز العقول عن الإحاطة بدقائق بلاغته. وأسأل الله العظيم أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

ويشتمل على :

(١) العقيدة :

أ- مفهومها وتحديد المراد بها .

ب- مجمل معتقد أهل السنة والجماعة .

(٢) التعريف بسورة الأنعام :

أ- ما ورد في فضلها وسبب نزولها .

ب- أبرز الموضوعات التي عرضتها آيات السورة .

العقيدة

أ- مفهومها وتحديد المراد بها :

في اللغة :

العقد: نقيض الحل، يقال: عقدت الحبل، فهو معقود، وكذلك العهد . و"عقَد" العهد واليمين يعقدهما عقْداً وعقد وعقدهما: أكدهما. قال تعالى:(وَالَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَانُكُمۡ **)[النساء:٣٣]،وقال:(**وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيۡمَانَ**)[المائدة:٨٩].و"العقود" : أوثق العهود، ومنه قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوۡفُواْ بِالۡعُقُودِ**)[المائدة :١]. و"اعتقد" الشيء : اشتد وصلب يقال: اعتقد الإخاء بينهما: صدق بينهما: صدق وثبت و- الحبل ونحوه: عقده و- فلان الأمر: صدق وعقد عليه قلبه وضميره. والعقيدة ما يقصد به الاعتقاد .**[١]

في الاصطلاح :

الاعتقاد : هو "حكم الذهن الجازم"[٢] **ويوضح الشيخ ابن عثيمين هذا التعريف بقوله: "يقال اعتقد كذا، يعني: جزمت به في قلبي؛ فهو حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع، فصحيح، وإن خالف الواقع. ففاسد، فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل لأنه مخالف للواقع .**

ووجه ارتباطه بالمعنى اللغوي ظاهر؛ لأن هذا الذي حكم في قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لايتفلت منه "[٣].

والعقيدة ليست مختصة بالإسلام ، بل كل ديانة أو مذهب لابد لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حيا م . والعقيدة الصحيحـة اليوم لا توجد إلا في الإسلام ؛

---

(١) ينظر : لسان العرب، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط مادة (عقد) .
(٢) شرح العقيدة الواسطية. (١/٥٠) .
(٣) المرجع السابق (١/٥٠) .

لأنه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه [١]، قال تعالى:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:٩] .

وفي الإسلام العقيدة تقابل الشريعة ، إذ الإسلام عقيدة وشريعة . فالشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء ا الإسلام في العبادات والمعاملات . أما العقيدة فهي أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قبله [٢].

وحتى يصبح ما يؤمن به المسلم عقيدة... لا بد له من أن يصدق تصديقاً جازماً لاريب فيه ولا مراء بما أخبر به الرسول -عليه الصلاة والسلام- . عن ربه في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة... كما دلت النصوص على ذلك، فالله تعالى يقول:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)[الحجرات : ١٥] .

وعلم العقيدة من أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر... وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة؛ لأن بـه حياة القلوب، فلا نعيم، ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقر ا إليه دون غيره من سائر الخلق [٣] .

"ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة الله العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين ولمن أجا م مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعو م وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها"[٤].

---

(١) ينظر : العقيدة في الله (١١) .

(٢) المرجع السابق. (١٠) بتصرف .

(٣) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية . (٦٠٥/١) .

(٤) المرجع السابق (٦/١) .

وعلى ذلك فإن الاعتقاد يؤخذ عن الله - سبحانه وتعالى - **ورسوله** - صلى الله عليه وسلم - **وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، كذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة** [١].

---

(١) **مجموعة الفتاوى (٦٠١/٢) بتصرف .**

ب - مجمل معتقدات أهل السنة والجماعة :

تحديد المراد بأهل السنة والجماعة :

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن معاوية أبي سفيان أنه قال:إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به"[١] والجماعة التي في الحديث هي"الفرقة الناجية" وأصحابها هم أهل السنة والجماعة؛ لأنهم مجتمعون عليها[٢] .

ومعتقد أهل السنة والجماعة أصله لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث جبريل - عليه السلام - المشهور في كتب السنة. وهو حديث عظيم الشأن، جامع نافع، سمى النبي - عليه الصلاة والسلام - ما احتوى عليه "الدين"، قال: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" [٣]. والحديث كما رواه البخاري : "عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان ؟ قال "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث" . قال : ما الإسلام ؟. قال : "الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان". قال: ما لاحسان ؟ قال:" أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . قال: متى الساعة ؟ قال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل،وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمــة ربتها،وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لايعلمهن إلاّ الله . ثم تلا

---

(١) مسند الإمام أحمد . (١٢١٦) حديث رقم (١٧٠٦).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (٥٢/١) بتصرف .

(٣) ينظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٣/٢) .

النبي - صلى الله عليه وسلم - :(إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)[لقمان:٣٤] الآية، ثم أدبر، فقال: "ردوه". فلم يروا شيئاً: فقال:"هذا جبريل، جاء يعلم الناس أمور دينهم"[١].

وفي رواية لمسلم: "قال : فأخبرني عن الإيمان !."أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خـيره وشره "[٢].

ولقد دل على هذه الأصول آيات عدة منها :

قول الله تعالى:(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)[البقرة :١٧٧]. وقوله سبحانه:(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[البقرة :٢٨٥]. وقوله:(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر :٤٩].

أصول الإيمان السنة :

توطئة :

الإيمان في اللغة : ضد الكفر . والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب . وحد الزجاج الإيمان فقال: "الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولاشاك"[٣].

وفي الاصطلاح :

---

(١) صحيح البخاري .كتاب الإيمان . باب : سؤال جبريل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .(٣٣) . حديث رقم(٥٠) .

(٢) صحيح مسلم كتاب : الإيمان .باب : الإيمان والإسلام والإحسان وجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبريء ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه (٢١-٢٢) حديث رقم ١ .

(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (آمن)

"الإيمان قول وعمل، قول باللسان وهو الإقرار، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، مع الإخلاص بالنية الصادقة..."(١) والإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي(٢).

الأصل الأول: الإيمان بالله:

وهو الاعتقاد الجازم بوجود الله، وبأنه رب كل شيء، ومليكه، وأنه الخالق المدبر للكون كله، وأنه الذي يستحق العبادة وحـده لا شريك له، وأن كل معبود سواه فهو باطل وعبادته باطلة، قال تعالى:(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)**[الحج :٦٢] وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منـزه عن كل نقص وعيب وهذا هو التوحيد بأنواعه الثلاثة، توحيـد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات(٣).**

التوحيد وأقسامه:

التوحيد لغة: قال: "وحد" فلان "يوحد" أي بقى وحده... "أوحد" لله جانبه أي بقي وحده .و"يوحد" برأية: تفرد به . و"الوحدة" : الانفراد. و"التوحيد": الإيمان بالله "وحده" لا شريك له. والله الواحد الأحد (٤).

في الاصطلاح:

"إفراد الله بالعبادة"(٥) . وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو : "إفراد الله - سبحانه وتعالى - **بما يختص به "(٦) .**

أقسام التوحيد:

---

(١) مجموعة الفتاوى .(٢٠٦/٧) .
(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها . بتصرف.
(٣) ينظر : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد . (١٦) بتصرف .
(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (وحد) .
(٥) حاشية ثلاثة أصول. (٢٣) .
(٦) مجموعة فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين . (١٥/٧) .

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

١- توحيد الربوبية .

٢- توحيد الألوهية .

٣- توحيد الأسماء والصفات .

وقد اجتمعت في قوله تعالى:(رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم :٦٥] .

١ ـ توحيد الربوبية :

وهو إفراد الله -عزوجل- بأفعاله التي لا يملك فعلها إلا هو كالخلق، والملك ، والتدبير... وغير ذلك[١]. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى:(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:٥٤] وقوله (وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[آل عمران :٨٩] وقوله أيضاً: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)[يونس:٣١-٣٢].

وتوحيد الربوبية أقر به المشركون الذين بعث فيهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) [الزخرف:٩] وقال: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) [المؤمنون:٨٦-٨٧] .

٢-توحيد الألوهية :

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد. (١١/١) بتصرف .

وهو "إفراد الله تعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبده كما يعبد الله أو يتقرب إليه كما يتقرب إلى الله تعالى"[١].

وهذا القسم كفر به أكثر الخلق وجحدوه، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب...[٢]، قال تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[الأنبياء :٢٥] .

"ومن أخلَّ بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات"[٣].

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات :

وهو "إفراد الله - سبحانه وتعالى - بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسول - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك بإثبات ما أثبته ونفي ما نفاه من غير تحريف، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف، ولا تمثيل [٤]".

قال تعالى:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[الشورى:١١] فهذه الآية دلت على أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين، فهي وإن اشتركت في أصل المعنى، لكن تختلف في حقيقة الحال ، فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه ، فهو معطل ، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون ، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهاً للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ومن اثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين [٥].

وقال تعالى:(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[الأعراف:١٨٠] قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "وذروا الذين يلحدون في أسمائه" :"قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى:(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله ، وقال ابن جريج عن مجاهد : ... اشتقوا

---

(١) مجموعة فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين . (١٦/٧) .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد . (١٧/١) بتصرف .

(٣) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين .(١٦/٧) .

(٤) المرجع السابق. (١٦/٧) .

(٥) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد .(١٨/١-١٩) .

اللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقال قتادة : يلحدون يشركون في أسمائه . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحراف إلى جهة القبلة عن سمت الحفر"[١].

الإلحاد أنواع :[٢]

الأول : إلحاد المشركين، وهو ما ذكره ابن عباس وابن جريج ومجاهد من عدولهم بأسمائه الله تعالى عما هي عليه، وتسميتهم أوثا م ا مضاهاة لله - عز وجل - ومشاقة له ولرسوله - عليه الصلاة والسلام - .

الثاني : أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، كما سماه الفلاسفة: علة فاعلة، وسماه النصاري: أبا، وعيسى: الابن... فمن سمى الله بأي اسم لم يسم به نفسه، فهو ملحد في أسماء الله، ووجه ذلك أن ألفاظ أسماء الله - عز وجل - توقيفية، فلا يمكن أن تثبت له إلا ما ثبت بالنص .

الثالث : أن ينكر شيئاً من أسمائه، سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التي تثبت لله؛ فإذا أنكرها، فقد ألحد فيها. ووجه الإلحاد فيها: أنه لما أثبتها الله لنفسه... وجب علينا أن نثبتها له، فإذا نفيناها، كان إلحاداً وميلاً ا عما يجب فيها. ومنهم من صرح بنفي الأسماء وما تدل عليه من المعاني، ووصفوا الله تعالى بالعدم المحض الذي لا اسم له، ولا صفة .

الرابع : أن ينكر ما دلت عليه من الصفات ؛ فهو يثبت الاسم ؛ لكن ينكر الصفة التي تضمنها هذا الاسم ، فقالوا: رحمن بلا رحمة ، وعليم بلا علم ، وحكيم بلا حكمة ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم .(٢٥٨/٢) .

(٢) ينظر : شرح العقيدة الواسطية (١١٩/١-١٢٣) . وبدائع الفوائد. (١٦٩/١) وما بعدها . ومعارج القبول (٧٩/١-٨٠) .

وقادر بلا قدرة وسميع بلا سمع... وجعلوا ذلك مطرداً في أسماء الله الحسنى هكذا؛ فعطلوها عن معانيها وما تقتضيه وتتضمنه من صفات الكمال والجلال لله تعالى .

وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها ، فكلاهما ملحد في أسمائه؛ وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله - عليه الصلاة والسلام - فقد ألحد في ذلك فليستقل أو يستكثر[١].

الخامس : أن يثبت الأسماء لله والصفات، لكن يجعلها داله على التمثيل، أي دالة على بصر كبصرنا، وعلم كعلمنا، ومغفرة كمغفرتنا ... وما أشبه ذلك ، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، "فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة ، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها ، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت م طرقه ، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك..."[٢].

وهذا القسم من التوحيد ـ كما مر بنا ـ هو الذي ضلت فيه طوائف من الأمة الإسلامية، وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة. فالواجب أن نؤمن بما وصف الله به نفسه أو سمى به ذاته في كتابه، وعلى لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يثبت عنه من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف، والتمثيل في الصفة، إلا أن التمثيل أخص من التكييف، فكل ممثل مكيف، ولا عكس. فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة [٣].

الأصل الثاني : الإيمان بالملائكة :

والملائكة: جمع ملك وملك تخفيف الملاك، واجتمعوا على حذف همزه، وهو مفْعلُ من الألوك، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل ملأك؛ ثم تركت همزته

---

(١) بدائع الفوائد. (١٦٩/١) بتصرف .
(٢) بدائع الفوائد .(١٧٠/١) .
(٣) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (١٩/١-٢٠) .

لكثرة الاستعمال فقيل: ملك ، فلما جمعوه ردوها إليه، فقالوا ملائكة وملائك[1]. قال تعالى:(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ) [فاطر :١] .

كيف يكون الإيمان بالملائكة ؟!.

"نؤمن بأنهم عالم غيبي لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبي، مخلوقون من نور، مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات، وهم خاضعون لله - عز وجل - أتم الخضوع..."[2] قال تعالى:(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم:٦] . كذلك نؤمن بأسمائهم، ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم، ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما علمنا. وهم أجسـاد خلافاً لمن قال: إنهم أرواح؛ بدليل قوله تعالى:(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ)[فاطر:١]. وإذا قال قائل: هل لهم عقول؟!. يقال له: هل لك عقل ؟! ؛ فالله تعالى يقول:(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم :٦]؛ فهل يثني عليهم هذا الثنـاء وليس لهم عقول؟!: (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)[الأنبياء :٢٠]؛ أيقال: هؤلاء ليس لهم عقول[3]؟!.

الأصل الثالث : الإيمان بالكتب :

أي "الإيمان بالكتب المنـزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والأنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلاّ الله تعالى..."[4]، قال تعالى:(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ)[الحديد :٢٥].

أما الإيمان بالقرآن فيكون بالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. وعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء[5].

الأصل الرابع : الإيمان بالرسل :

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (ملك) .
(٢) شرح العقيدة الواسطية (٦٤/١) .
(٣) ينظر : شرح العقيدة الواسطية .(٦٤/١) .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية .(٤٢٤/٢-٤٢٥) .
(٥) المرجع السابق .(٤٢٥/٢) بتصرف .

أي: رسل الله، وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع، وأمرهم بتبليغها وأولهم نوح، وآخرهم محمد - صلى الله عليه وسلم - **... والدليل على أن أولهم نوح، قوله تعالى: (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ **)[النساء :١٦٣] ومما يدل على أن محمداً** – عليه الصلاة والسلام – **آخرهم، قوله تعالى :(**وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**)[الأحزاب :٤٠]**[١].

فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من المرسلين ،والإيمان بأن الله أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى، الذي أرسلهم. نؤمن بهم جملة لأنه لم يأت في عددهم نص وقد قال تعالى:(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ **)[النساء :١٦٤] .**

كما علينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل له خلافه، قال تعالى:) فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)[النحل:٣٥]، وقال:(**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**)[التغابن :١٢] .**

وأما الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - **، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.**[٢].

الأصل الخامس : الإيمان باليوم الآخر :

"الإيمان باليوم الأخر معناه: أن تصدق بكل ما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمة، والبعث بعد ذلك، والحساب والميزان، والثواب والعقاب، والجنة والنار... وبكل ما وصف الله به يوم القيامة."[٣].

---

(١) ينظر : شرح العقيدة الواسطية . (٦٥/١-٦٦) .
(٢) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية .(٤٢٣/٢-٤٢٤) .
(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (١٩٤) .

وسـمى باليوم الأخر لتأخره عن الدنيا... وله أسماء كثيرة... جاء ذكرها في القرآن الكريم[١] .

ومن أسماء هذا اليوم "يوم البعث"، لأن فيه البعث والحياة بعد الموت، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل إجماع اليهود والنصارى، فهم يقرون بأن هناك يوماً يبعث الناس فيه ويجازون .

دليل ذلك من القرآن: قوله تعالى:(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)**[التغابن :٧]،وقال تعالى:**(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) **[المؤمنون :١٥-١٦] .**

وأما في السنة، فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - **في ذلك.**

وأجمع المسلمون على هذا إجماعاً قطعياً، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، يلاقون ر م، ويجازون بأعمالهم. قـال تعالى:(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) **[الزلزلة : ٧-٨]**[٢].

الأصل السادس : الإيمان بالقضاء والقدر :

القضاء : الحكم[٣]**. القدر**[٤]**: التقدير، والله سبحانه مقدر كل شيء، وقاضيه . قال تعالى:**(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)**[القمر :٤٩]. فإذا قيـل: "هذا قدر الله، فهو شامل لقضاء، أما إذا ذكرا جميعاً، فلكل واحد منهما معنى. فالتقدير: هو ما قدره الله في الأزل أن يكون في خلقه .**

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (١٩٤) بتصرف .
(٢) ينظر : شرح العقيدة الواسطية .(٦٨/١) .
(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (قضي) .
(٤) ينظر : المرجع السابق . مادة (قدر) .

وأما القضاء: فهو ما قضى به الله - سبحانه وتعالى - في **خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقاً"**[١].

ومذهب أهل السنة والجماعة هو الإيمان بالقدر خيره وشره، أما وصف القدر بالخير، فالأمر فيه ظاهر. ،أما وصف القدر بالشـر، فالمراد به أنه شر بالنسبة لمقدور الله، لا شر بالنسبة إلى فعل الله وتقديره، لأن تقدير الله، كله خير وحكمة، لكن الشـر في **مفعولاته ومقدوراته، والدليل قول الرسول** - صلى الله عليه وسلم - **"والشر ليس إليك".** ثم **إن الشر الذي** في **المقدور ليس شراً محضاً، بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هي خير، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمراً إضافياً** [٢].

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات [٣]:

الأولى: **الإيمان بعلم الله الأزلي بكل شيء، قبل وجوده ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها.**

الثانية: **الإيمان بأن الله كتب ذلك** في **اللوح المحفوظ. ومن أدلة المرتبة الأولى والثانية: قوله تعالى:(**أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ **)[الحج:٧] .**

الثالثة: **الإيمان بمشيئة الله الشاملة لكل حادث وقدرته التامة عليه ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى:(**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**) [التكوير :٢٩].**

الرابعة: **الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات وأنه الخالق وحده وما سواه مخلوق. قال تعالى:(**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍ**) [الزمر:٦٢].**

---

(١) **شرح العقيدة الواسطية (١٨٨/٢) .**

(٢) ينظر: شرح العقيدة الواسطية .(١/٧٠-٧٢) .

(٣) ينظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد .(٢٢٦- ٢٢٧)

(٢) التعريف بسورة الأنعام :

أ- ما ورد في فضلهما وسبب نزولها .
ب- أبرز الموضوعات التي عرضتها آيات السورة .

أ.ما ورد في فضلها وسبب نزولها .

سورة "الأنعام" سورة مكية، نزلت بعد "الحجر" وقبل "الصافات[١]". وهي من السبع الطول و"السبع الطول أولها البقرة وآخرهـا براءة، لأ م كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة، ولذلك لم يفصلوا بينهما؛ لأ ا نزلتا جميعاً في مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسميت طُولاً لطولها"[٢].

وعدد آيا ا مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكي، ومائة وخمس وستون في العدد الكوفي وعليه قراءة حفص عن عاصم وهو الذي سأسير عليه في هذا البحث ـ بإذن الله ـ، ومائة وأربع وستون في الشامي والمصري[٣] . وسميت السورة بـ "الأنعام" لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى:(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا...)[الأنعام :١٤٢] إلى قوله:(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء)[الأنعام :١٤٤] لم يرد في غيرها [٤].

وفي الخبر أ ا نزلت جملة واحدة، وشيعها سبعون ألف ملك، مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك، وهي :(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)[الأنعام :٥٩]،

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن . (١٩٣/١) .
(٢) المرجع السابق (٢٤٤/١) .
(٣) ينظر: التحرير التنوير. (١٢٣/٦)
(٤) ينظر :المرجع السابق. الصفحة نفسها.

نزلوا ا ليلاً لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الكتاب فكتبوها من ليلتهم(١).

والذي يغلب على الظن أن نزول سورة الأنعام كان في السنة الرابعة من البعثة النبوية الشريفة؛ وذلك لأن سورة "الحجر" التي نزلت قبلها فيها آية تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يجهر بدعوته(٢). وهي قوله تعالى(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر :٩٤].

يقول ابن قيم الجوزية: "وأقام - صلى الله عليه وسلم - ... ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثم نزل عليه (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر :٩٤] فأعلن - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتـــد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن الله لهم بالهجرتين(٣) ".

ومما لا شك فيه أن تلك الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام، كانت فترة عنيفة، اشتد الصراع فيها بين الحق والباطل، والمشركون المكذبون مكابرون معاندون... وفي غيهم غارقون، وبتحديهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - يجاهرون فهم الذين قال الله تعالى حكاية عن قولهم :

(وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام :٨].

(وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) [الأنعام : ٢٩].

(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) [الأنعام :٣٧].

والله - سبحانه وتعالى - يرد عليهم ويذكر لهم الحجج والأدلة الدامغة على وحدانيته - جل وعلا - وعلى صدق رسوله - عليه السلام - وهم يرون الحق حقاً ولا يتبعونه، بل تمادوا كثيراً (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ)[الأنعام :٩١] فكأن هذا الظرف، وتلك الأوضاع سبب لنـــزولها، لمعالجتها وتأسيسها أصول

---

(١) ينظر :الجامع لأحكام القرآن . (٣٨٣/٦) .
(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم . (٥/٥) بتصرف .
(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد . (٨٦/١) .

الدين في الأذهان ؛ فكانت هذه السورة، وكان نزولها جملة واحدة، مشيعة بالملائكة، لعظم فضلها ونالت سورة "الانعام" ذلك الفضل؛ لاشتمالها على دلائل التوحيد والنبوة ، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، وهذا يدل على شرف علم الأصول[١]. يقول القرطبي في تفسيره :"قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين، وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور؛ وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة، لأ ا في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين، لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية"[٢].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير . (٤٧١/٤) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٨٣/٦) .

ب : أبرز الموضوعات التي عرضتها السورة :

إن الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة في آيا ا من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع "العقيدة"... فهذه السورة تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات والأرض تلحظ فيه الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم... وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة والجارية فيها، وتقف ا على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح ا في ظلمــات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي والميت، والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطف المستكنة في ظلمات الرحم. ثم تموج بالجن والأنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار ... [١].

إن القارئ لسورة "الأنعام " يجدها قد عرضت الأدلة الدامغة على وحدانية الله - عز وجل - من خلال الكون، والإنسان، والنبات، والحيوان...والقارئ ـ أيضاً ـ يلحظ أن "الموضوع الرئيس، الذي تعالجه متصل، فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع، كل مقطع منها يعالج جانباً من الموضوع... إنما هي موجات... وكل موجه تتفق مع التي قبلها..."[٢].

لكني من خلال الأسطر التالية ـ بإذن الله ـ سأحاول عرض أبرز الموضوعات التي تناولتها الآيات بإيجاز، أما التفصيل فلعله يكون في أثناء تحليل الآيات تحليلاً بلاغياً بعون الله.

تبدأ السورة بخطاب المشركين المعاندين المكذبين...، تواجههم في مطلعها بحقيقة الألوهية... حين تفتتح بحمد الله والثناء عليه، تعرفهم بر م الذي خلق السموات العلا وجعل الأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لهم في ليلهم و ارهم. وأنه هــو - جل وعلا - الإله الذي يعلم السر والجهر، ويعلم جميع أعمال العباد خيرها وشرها... وأن المشركين المعاندين كلما أتتهم دلالة ومعجزة وحجة على وحدانية الله وصدق رسله، فإ م يعرضون عنهــا، و ا يشكون ...، وبه يشركون .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن . (١٠١٦/٢) .
(٢) المرجع السابق (١٠٢٢/٢) .

ثم تنتقل الآيات لوعظ هؤلاء المعاندين المكذبين...، وتحذرهم من أن يصيبهم من العذاب، الذي حل بالأمم السابقة .

بعدها تعرض الآيات لمواقف المفاصلة،التي كانت بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقومه. وفيها يعرفهم بحقيقة الألوهية في أجل صورها، وإنـذاره لهم من عاقبة التكذيب والضلال... وتبرؤه - صلى الله عليه وسلم - من شركهم... وإعلانه التوحيد في مواجهتهم .

وتقف بنا الآيات بعد ذلك أمام مشهد من مشاهد يوم الحشر وفيه يقف المشركون المكذبون للمساءلة... عن شركهم، فينكـرون. وتصور لنا حالهم وهم موقوفون على النار والحسرة تقطع قلو م ... وهكذا تمضي الآيات في تصوير حالتهم . وخسارة المكذبين بلقاء الله، وتفاهة الدنيا أمام نعيم الدار الآخرة المدخر للذين يتقون .

وأمام إصرار المشركين على ما هم عليه ... وتماديهم في الغي والضلال... فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحزن... فتأتيه "السلوى" ببعض الآيات من ربه - عزوجل - لتخفف عنه ما يحزنه من تكذيب قومه. ويأمره - عزوجل - بالصبر كما صبر الرسل الذين من قبله... حين كذب م قومهم، وآذاوهم...، وأنه مهما فعلت ـ يا محمد ـ في سبيل هداية قومك فإن سنة الله لا تتبدل فلا تستعجل... وأن مشيئته - جل وعلا - في خلقه اقتضت أن الهداية مخصوصة بمن يسمع كلام الله سماع استجابة، أما موتى القلوب فلا يستجيبون، وأمرهم إلى ر م الذي إليه سيرجعون.

ثم أخبر سبحانه أن المشركين يطالبون بآية خارقة من ربه حتى يؤمنوا... وأنه تعالى قادر على ذلك، ولكن سبب تأخر الآيات علمه تعالى بأ م لو أعطوا الآيات ما أمنوا... وبذلك يستوجبون العذاب. ثم يبين ـ عزوجل ـ كماله وشمول علمه، وعظيم قدرته... بتعدد الأمم على الأرض، وتنوع أجناسها...، والكل خاضع لتدبيره ـ سبحانه وتعالى ـ .

كما أخبر ـ سبحانه ـ أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه يحكم ولا معقب لحكمه. ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك

له، الذي إذا سئل يجيب ولمن يشاء. وأن العباد مفتقرون إليه في سمعهم وأبصارهم وقلوبهم... وفي كل حياتهم... وهذا يوجب عليهم عبادته وحده لا شريك له .

ويظل المشركون يقترحون على رسول الله – عليه الصلاة السلام – الآيات التي ينـزلها إليهم من ربه...!، فيأتي أمر الله – عز وجل – لرسوله – عليه الصلاة السلام – بأن يرد عليهم، بأنه لا يملك خزائن الله، التي فيها الأرزاق حتى يعطيهم ما يطلبون، ولا هو يعلم الغيب حتى يخبرهم بموعد العذاب، الذي ينتظرهم، ولا هو ملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر، وإنما هو بشر يوحى إليه الخبر من ربه فيخبر به، ويعمل به، ويدعو إليه .

ومن لطفه – سبحانه وتعالى – ورحمته بعباده أن أرشد رسوله – عليه الصلاة السلام – وكل داع إليه إلى الطريقة المثلى في الدعوة إليه، بعد أن نهاه عن الطريقة التي همّ بها، وهي طرد المؤمنين في مجلسه، ليجلس الكافرون رجاء هدايتهم. وتعود الآيات لتقرير حقيقة الألوهية من خلال التعريف بإحاطة الله تعالى بالغيوب، والأسرار، والأنفاس والأعمال، مع القدرة والقهر، والسيطرة في البر والبحر، والنهار والليل، والدنيا والآخرة، والحياة والممات .

ثم تبين الآيات بأنه لا منجي من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلاّ الله تعالى . ولا برهان أعظم على بطلان الشرك من أن المشركين أنفسهم يخلصون الدعاء لله تعالى في الشدة.

وتعرض الآيات توجيهاً إلهياً منه – جل وعلا – لنبيه – عليه الصلاة السلام –، بالإعراض عن أولئك المكذبين العادلين بربهم أوثانـاً... حين يخوضون في آيات الله... طعناً وسخرية .

وتصور لنا بأقوى الصور... قبح الردة وسوء عاقبتها، وحرمة إجابة أهل الباطل لما يدعون إليه من باطل. ويثبت فيها أنه لا دين إلاّ الإسلام؛ ولا هدى إلاّ هدى الله .

وتتجلى حقيقة الألوهية كذلك في موقف شهادة الفطرة، واهتدائها الذاتي إلى ربها الحـق –بإذنه تعالى–، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى في آفاق الكون، التي تخاطب الفطرة بلسان الحال... يظهر ذلك كله في قصة إبراهيـم – عليه السلام – مع أبيه وقومه.

وبعدها يذكر الله تعالى ما وهبه ـ سبحانه وتعالى ـ لمن شاء من عباده من هدايات وكمالات لا يقدر على عطائها إلا هو ـ عزوجل ـ .

ومع ذلك كله فإن المكذبين ا ادلين ما قدروا الله حق قدره...ويرد الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم ويبين لهم علة إنزال الكتاب وهي الإيمان به، وإنذار المكذبين والمشركين. كما تبين قبح الكذب على الله تعالى في أي شكل وأن صاحبه لا أظلم منه قط وفيـ ـه ـ أعني السياق ـ تقرير عذاب القبر، وسكرات الموت وشد ا. وتقرير عقيدة البعث والجزاء، وانعدام شفعاء المشركين يوم القيامة. وتتقرر حقيقة الألوهية ـ مرة أخرى ـ وتثبت ألوهيته... في مشاهد الحياة النابضة كمشهد الإصباح والإمساء، ومشهد النجوم والظلمات، والبر والبحر، والماء الهاطل، والزرع النامي، والثمر اليانع... وفيه ينطق كل ما سبق بوحدانية الخالق بلا شريك، المبدع بلا شبيه... وأمام هذا كله تغدو دعاوى المشركين متهافتة باتخاذ الشركاء، وخرق البنين والبنات لله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ .

ثم ينبّئ الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكل داع إلى الله بأنه ما من نبي ولا داع إلاّ وله أعداء من الجن والإنس يحاربونه... حتى ينصره الله عليهم. ويبين الله - سبحانه وتعالى - بعد ذلك حرمة وبطلان التحاكم إلى غير الوحي الإلهي، وأن ميزة القرآن الكريم: أن أخباره كلها صادقة، وأحكامها كلها عادلة. وأن اتباع أكثر الناس يؤدي إلى الضلال، لذا لا يتّبع إلا أهل العلم الراسخون فيه .

ومن أبرز الموضوعات التي عرضتها الآيات، تزيين الشياطين لأوليائهم تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم... وذلك في قضية "الذبائح" ماذُكي منها ومالم يذك... وتفصيل الحرام منها والحلال .

وتعرض الآيات مشهد المكذبين المعاندين من الثقلين يوم القيامة، ووقوفهم في ذلك اليوم للمساءلة والحساب .

وعودة أخرى لتلك القضية المتعلقة بالعقيدة "قضية التحريم والتحليل" والإشهاد عليها. وبيان عظم حرمة الابتداع في الدين، والتشريع المنافي لشرع الله. ثم ترد الآيات على ترهات وأباطيل العادلين بر م المشركين في إلوهيته سواه .

ثم **تذكر الآيات الوصايا العشر** التي **عليها مدار الإسلام، وسعادة الإنسان** في **الدارين؛** تحريم **الشرك، الإحسان** إلى **الوالدين،** تحريم **قتل الأولاد، و**تحريم **الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأكل مال اليتيم ، وبخس الكيل والميزان، وقول الزور وشهادة الزور، ونكث العهد وخلف الوعد، والردة عن الإسلام، واتباع المذاهب الباطلة، والطرق الضالة.**

وفي اية المطاف تختم **الآيات ــ كما بدأت ــ بتقرير حقيقة الألوهية، من خلال الابتهال والإنابة إلى** الله **وحده لا شريك له، والتجرد له صلاة ونسكاً، ومحيا ومماتاً، واستنكار ابتغاء غيره رباً وهو رب كل شيء، ورد الأمر إليه** في **الدنيا** في **أمر الاستخلاف والابتلاء، وفي الآخرة** في **الحساب والجزاء** [1].

وهكذا وبعد هذا العرض السريع لأبرز ما عرضته السورة من موضوعات، لعله يلحظ أن هذه السورة في **جملتها... تعرض "حقيقــة الألوهية" .**

تعرضها من خلال مجالات شتى، في **مجال الكون والحياة، ومجال النفس والضمير، عالم هذا الكون وذلك الغيب، وفي مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون بآفاقه والحياة بأحداثها وكر ا...، وكما تعرضها** في **مظاهر قدرة الله ــ تعالى ــ البادية** في **حياة البشر الظاهرة والمستكنة .**

...وأخيراً تعرضها في **مشاهد القيامة، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ر ا** [2].

---

(١) في **كل ما سبق يراجع ما ورد** في **تفسير السورة** في **: تفسير القرآن العظيم . (ج/٢) . روح المعاني** في **تفــسير القرآن الكريم والسبع المثاني . (م/٤).** في **ظلال القرآن (ج/٢).أيسر التفاسير لكلام العلي القدير . (ج/٢) .**

(٢) **يراجع :** في **ظلال القرآن (٢/١٠١٦)**

الفصل الأول

خصائص اللفظة

١- الجرس

٢- الإيحاء

٣- الإفراد والجمع

٤- التذكير والتأنيث

٥- التنكير والتعريف

المبحث الأول

الجرس

الجرس

الجرس: الصوت. وقيل: الجرس الصوت الخفي. ويقال: سمعت جرس الطير إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وجرس الحرف نغمته [(١)].

وأجراس الحروف تختلف بحسب اختلاف مخارجها[(٢)]؛ ومخارج الحرف عند الخليل سبعة عشر مخرجاً، يحصرها الحلق، واللسان، والشفتان، ويعمها الفم[(٣)].

قال ابن جني: "ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك. ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإن انتقلت منه راجعاً عنه، أو متجاوزاً له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف؛ فإنك إذا نطقت ا سمعت هناك صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين"[(٤)].

وكما يؤثر اختلاف مخارج الحروف على جرسها[(٥)]، فكذا تؤثر صفا ا عليه؛ من جهر وهمس، شدة ورخاوة، إطباق وانفتاح، استعلاء واستيفال، صفير وقلقلة، تفخيم وترقيق... وغيرها[(٦)].

فيجد السامع لذلك أن بعض الكلمات يبدو خافتاً، وبعضها يظهر مجلجلاً، وبعضها خفيف التموجات يجري كالماء، وبعضها يحس فيه صلابة، وأخرى فيها لين ورخاوة، وبعضها يسمع له ما يشبه الحفيف، أو الخرير... وغير ذلك مما تتركه الكلمات بمخارجها وصفا ا من أثر جرسي في نفس المتلقي[(٧)].

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة، و: لسان العرب. مادة (جرس) .

(٢) ينظر : سر صناعة الإعراب (٦/١)، و: التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي (٢١٥).

(٣) التمهيد في علم التجويد (١٠٥) بتصرف .

(٤) سر صناعة الإعراب (٦/١) .

(٥) ينظر : التناسب البياني في القرآن (٢١٥) .

(٦) ينظر : التمهيد في علم التجويد (٨٦) وما بعدها .

(٧) ينظر : التناسب البياني في القرآن (٢١٥) .

ومن الخصائص التي تميز ا أسلوب القرآن الكريم جمال نظامه الصوتي؛ باتساق نظمه وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاتة .. اتساقاً بديعاً، وائتلافاً رائعاً[١].

وقد انتبه العلماء لهذا، فتلقفوا ما يرجع إلى الجرس، وجعلوه من وجوه الإعجاز، فكان مكملاً لجوانب الأسلوب المعجز[٢].

ومما يدل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمات هو من الإعجاز أن الله ـ جل وعلا ـ أمر بترتيل القرآن، لا أن يكتفى بمجرد القراءة؛ قال تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)[المزمل:٤]، وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن ترتيل القرآن كان بتعليم منه ـ جل وعلا ـ؛ قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان:٣٢][٣].

والترتيل: التحقيق، والتبيين، والتمكين في قراءة القرآن. والتبيين لا يتم بأن يعجل في القراءة، إنما يتم بأن يبين القارئ جميع الحروف ويوفيها حقها من الإشباع[٤].

فالحروف إذا خرجت من مخارجها الصحيحة، ووفاها القارئ حقها .. وجد السامع في نظمها، ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها لذة عجيبة؛ فهذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ي لق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس ... وهكذا، فيرى الجمال اللغوي ماثلاً أمامه في مجموعة مؤتلفة .. لا تناكر ولا تنافر[٥].

فلا عجب بعد هذا أن يكون أول ما استدعى أسماع العرب في نظم القرآن هو جرسه وتناسب نظامه الصوتي، والذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، وفي تضاعيفه وزعت حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به، و ادي النفس فيه آنا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى،

---

(١) ينظر : مناهل العرفان في علوم القرآن. (٣٣١-٣٣٢) .

(٢) ينظر : الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم .(٣٢٨) .

(٣) ينظر : المعجزة الكبرى القرآن . (٢٨١) .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (رتل) .

(٥) ينظر : النبأ العظيم (١٠٣-١٠٤) .

فيجد عندها راحته العظمى فنسبوه للشعر؛ لأ م وجدوا في توقيعه هزة لا يجدون شيئاً منها إلا في الشعر [١].

وما محاولات مسيلمة التي عمد فيها إلى معارضة القرآن إلا خير شاهد على ذلك؛ فقد جنح فيها إلى ما حسبه نظماً جرسياً أو باباً منه، وغفل عما وراء ذلك من التصرف في اللغة، وأساليبها، ومحاسنها، ودقائق التراكيب البيانية ..، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات، وأجراس الحروف.. دون ما عداها[٢].

لكن العرب حين رجعوا إلى أنفسهم، علموا أن ذلك النظم بجرسه وتناغمه ليس من الشعر، وإن علا على أعلى ما فيه، بل هو ليس من نوع كلامهم البليغ، وإن كان من جنسه، وأن ذلك التأليف في النغم والجرس مع علو المغزى والمعنى، وإحكام التعبير، ودقة الأحكام، لا يمكن أن يصل إليه أحد[٣].

وفي هذا المبحث سأحاول الوقوف على جرس بعض الكلمات فيما بين يدي من آيات .. مع الاجتهاد ـ ما استطعت ـ في معرفة أثرها في التعبير عن المعنى المراد، غير أني لن أعمد إلى انتزاع تلك الكلمات من سياقها في الآية والبدء بتحليلها؛ لتعذر ذلك، إنما سأبدأ بتحليل الآية تحليلاً نظمياً، مبينة بعض ما يتيسر مما فيها من لطائف بلاغية، حتى إذا وصلت إلى شاهد هذا المبحث ذكرت ما فيه من جرس ودلالته ... وهكذا إلى أن أختم الآية .

ومن شواهد هذا المبحث؛ آية أتت في سياق عالج الموضوع الأساسي للسورة؛ وهو بناء العقيدة على قاعدة التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية .. بأسلوب قصصي؛ وهذا الأسلوب مغاير لما جرى عليه السياق القرآني منذ أول السورة. وفيه عرض لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه..، وكيف اطمأن قلبه ـ عليه السلام ـ للإيمان بربه الذي هداه، وشرح صدره للتوحيد [٤]؛ قال تعالى :

---

(١) ينظر : النبأ العظيم (١٠٣)، و: المعجزة الكبرى (٢٨١) .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٠٨) .

(٣) ينظر : المعجزة الكبرى القرآن . (٢٨١) .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣٧/٢) .

(وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ)[الأنعام: ٨٠].

والقارئ للآية يجد أنها قد عمرت بجملة من اللطائف البلاغية؛ كما يحس بأن كلماتها قد أسهمت بجرسها وإيقاعها في أداء المعنى المراد. وسيتم ـ بإذن الله تعالى ـ الوقوف على بعض ما في النظم القرآني من لطائف بلاغية، وتحليلها تحليلاً بلاغياً، وفي أثناء ذلك ستكون هناك وقفة ـ أيضاً ـ مع بعض الكلمات؛ لبيان الأثر الذي تركته في نفس المتلقي بجرسها وإيقاعها، وكيف أسهم الجرس والإيقاع في تعزيز المعنى المراد .

في مناسبة الآية لما قبلها ذكر البقاعي ـ ما معناه ـ : أنه لما عرض إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه ما يدل على بطلان عبادة الكواكب، والقمر، والشمس.. بأدلة هي الشمس وضوحاً .. عطف عليه قوله تعالى: (وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ)[1]؛ للإخبار بموقف قومه منه ـ عليه السلام ـ بعد إعلانه لبراءته مما يعبدون؛ إذ إنهم لم يرجعوا عن ضلالهم وغيهم، بل جادلوه في توحيد الله، وفي تبرئه من الأصنام، كما أنهم خوفوه من آلهتهم أن تناله بسوء إن استمر على ما هو عليه [2].

وعطفت الجملة بالواو دون الفاء، ولعل ذلك لتستقل بالأخبار بمضمونها[3].

ومعنى (وَحَآجَّهُ)؛ خاصمه وجادله[4]. والمحاجة: مفاعلة تقع بين طرفين مختلفين في حكم ما، يأتي فيها كل منها بحجة تثبت صحة دعواه[5]. وتطلق "الحجة" على ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه، أو رد دعوى خصمه[6].

---

(١) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦٣/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٨/٥)، و: نظم الدرر (١٦٣/٧) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٥/٧) .

(٤) ينظر : معالم التنزيل (١١١/٢) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٦٩/٤) .

(٦) تفسير المنار (٥٧٤/٧) بتصرف .

وهذا الجدال من وسائل الشيطان لصدهم عن الحق؛ بدلالة قوله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ)[الأنعام:١٢١].

وقد أسهمت كلمة (وَحَآجَّهُ) ببنائها وجرسها القوي في بيان ما هم عليه من شدة في جدالهم، وخصامهم له ـ عليه السلام ـ؛ فالألف الممدودة ـ التي يطال بالصوت عند النطق ا [(١)] ـ توحي بطول ذلك الجدال؛ كما توحي برفعهم لأصوا م فيه .. كأ م يريدون ذا الرفع أن يعلو على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجة!.

وبعد ذلك المد ينحبس جريان النفَس عند النطق بحرف "الجيم" ـ الذي أعقب حرف المد ـ ؛ لقوته، وقوة الاعتماد على مخرجه؛ لما يتصف به هذا الحرف من جهر، وسبب تسمية هذه الصفة بالجهر؛ لأن الجهر هو الصوت الشديد القوي، فلما كان في خروجه كذلك وصف بالجهر؛ لأن الصوت يجهر به لقوته[(٢)]. كما منع ـ أيضاً ـ الصوت من الجريان معه عند النطق به؛ لما اتصف به من شدة [(٣)].

فاجتمعت في حرف الجيم صفتا الجهر والشدة؛ وهما علامات قوة الحرف[(٤)]. وزيدت الجيم قوة إلى قو ا عندما أتي ا مشددة؛ وهذا يعني تكرار صفتي الجهر والشدة فيه عند النطق به؛ ولعل هذا الجرس القوي الشديد يوحي بجهرهم لأصوا م في جدالهم؛ وبقوة إصرارهم على الجدال، الذي يعكس شدة ردهم للحق الذي أتاهم به إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه .

ويلحظ حذف متعلق "حاجة" من الكلام؛ لدلالة المقام، ودلالة ما بعده عليه من قوله تعالى: (أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ)[(٥)].

---

(١) ينظر : غاية المريد في علم التجويد (٩١) .
(٢) ينظر : التمهيد في علم التجويد (٨٧) .
(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٤) ينظر : المرجع السابق . (٨٨) .
(٥) التحرير والتنوير (٣٢٦/٧) بتصرف .

كما طويت محاجتهم له ـ عليه السلام ـ، ولعل هذا لأنه من المعلوم أن محاجتهم له بعد الأدلة الواضحة التي سيقت لهم، كانت في غاية الانحطاط والتدني..، فـ ه المقام عن ذكرها؛ إشارة إلى أ ا شيء لا يستحق الذكر[١].

ومن المفسرين من حاول تتبع حججهم في مواضع من القرآن الكريم[٢]؛ فذكروا منها:

ما حكى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم:(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ) [الأنبياء:٥٣]، وقوله تعالى:(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)[الشعراء:٧٤]؛ فهم تمسكوا باقتفاء آثار آبائهم تقليداً، فأجيب عن تلك الحجة بقوله تعالى:(أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ) .

وفصلت الجملة عما قبلها؛ وعلل لذلك بوقوعها استئنافاً بيانياً؛ فقد حملت جواباً لسؤال تضمنته الجملة السابقة؛ تقديره: بم رد عليهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ، أو ماذا كان جواب محاجتهم له؟![٣]. فأتى الجواب بقوله تعالى: (قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ)، وهذا الفصل الواقع بين الجملتين فيه إيجاز يستدعيه المقام؛ إذ إن ذكر السؤال يطيل الكلام، ويقطعه مما يفقده شيئاً من قوة بنائه، وتماسكه، وتأثيره.

وخرج الاستفهام في قوله تعالى: (أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ) عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فهم من السياق؛ وهو الإنكار والتوبيخ[٤]؛ فإبراهيم ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم إقدامهم على محاجته وجدالهم إياه في الله بالباطل مع ما في ذلك من توبيخ .

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٦٣/٧) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٤٧/٥)، و: البحر المحيط (١٦٩/٤)، و: نظم الدرر (١٦٣/٧)، و: تفـسير المنـار (٥٧٤/٧) ... وغيرها .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٧/٧) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٦٣/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٢٧/٧) .

ولئن كانت كلمة (وَحَآجَّهُ) قد أسهمت ـ كما ذكر آنفاً ـ ببنائها، وجرسها القوي بدعم المعنى المراد، فكذا أسهمت كلمة (أَتُحَاجُّونِّى)؛ وبيان ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أنه أستفهم إنكارياً بالهمزة، وقد يكون هذا لما اتصفت به الهمزة من "جرس" قوي أدى إلى وصفها بـ "الحرف الجرسي"، ومع أن الحروف كلها يصوت عند النطق بها إلا أن الهمزة لها مزية زائدة في ذلك؛ فالصوت يعلو بها عند النطق بها، ولذا استثقل الجمع بين همزتين في كلمة، ولم تكن أكثر العرب تجمع بينهما في كلمة؛ لأن الصوت حينئذ يتكرر بتكلف شديد بغير واسطة بين الهمزتين ..، فلما كان في الصوت بها زيادة على الصوت في سائر الحروف، نسبت الهمزة إلى تلك الزيادة؛ فقيل: الحرف الجرسي[(١)]. فهذا الحرف الجرسي القوي، الذي يخرج من أقصى الحلق[(٢)]، يوحي بشدة إنكاره ـ عليه السلام ـ لمحاجتهم إياه في إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة .

أما الضمة الثقيلة التي أعقبت الهمزة، والحاء التي خرجت من وسط الحلق[(٣)]، والألف الممدودة التي يطال بالصوت عند النطق بها بمقدار ست حركات، والجيم بجرسها القوي الذي قواه تكرار صفتي الجهر والشدة فيها؛ لتشديدها، إضافة إلى تحريكها بالضم. ثم الواو الممدودة التي يطال بالصوت عند النطق بها بمقدار ست حركات، والنون المتوسطة القوة؛ التي اتصفت بالجهر والتوسط بين الشدة والرخاوة[(٤)]..، وزادها قوة تشديدها المكسور، وأخيراً الياء بجهرها ورخاوتها[(٥)]. فهذه الحروف بما فيها من صفات قوة، وبما فيها من حركات ثقيلة توحي ـ أيضاً ـ بشدة إنكاره ـ عليه السلام ـ لهذه المحاجة الداحضة، بما فيها من محاولتهم للتغلب عليه؛ بإطالة الصوت الذي يوحيه حرفا المد؛ وبإنكاره لإصرارهم على الباطل، ومجاهرتهم به، وجهرهم لأصواتهم في رد الحق

---

(١) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة . (١٣٣- ١٣٤) .

(٢) ينظر : التمهيد في علم التجويد (١٠٦) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها . .

(٤) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (١٩٣) .

(٥) ينظر : التمهيد في علم التجويد (١٥٠) .

الذي لا أقوى، ولا أظهر منه ..، وهذا مما يستوحى من جهر الحروف وقوة بعضها في كلمة (أَتُحَاجُّونِّى).

وقرأ نافع وابن عامر (أَتُحَاجُّونِّى) بتخفيف النون؛ لأنه لما اجتمع مثلان متحركان في الفعل؛ الأولى نون الرفع، والثانية نون الوقاية تنوب إحداهما عن لفظ الأخرى ..، أسقطت الثانية؛ للثقل الواقع باجتماعهما؛ وللتضعيف في الجيم ..؛ بقصد التخفيف عند النطق بالكلمة (١).

وقرأ الباقون بالتشديد؛ سكنوا النون الأولى، ثم ادغموها في الثانية؛ للعلة السابقة، وهي ثقل اجتماع مثلين في الفعل، فكان التشديد للتخفيف. ولمنع التقاء الساكنين؛ الواو، وأول الحرف المشدد مدت الواو، فأطيل بالصوت عند النطق بها بمقدار ست حركات لتفصل بين التقائهما(٢) .

وفي التصريح باسم الجلالة "الله" في قوله تعالى: (أَتُحَاجُّونِّى فِى اللّهِ) دقيقة بلاغية؛ لعلها لزيادة الإنكار عليهم، واستعظام فعلتهم؛ لأن اسم الجلالة "الله" هو أعظم الأسماء الحسنى(٣)؛ لدلالته على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا؛ فهو يدل على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه (٤).

وصفات الإلهية؛ هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص؛ ولذا يضيف الله ـ جل وعلا ـ سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: (وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)[الأعراف:١٨٠]، ويقال: الرحمن، والرحيم، والسلام من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ... وهكذا(٥).

---

(١) ينظر : الحجة في القراءات السبع (١٤٣)، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها (٤٣٦/١) .

(٢) ينظر : الحجة في القراءات السبع (١٤٣)، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها (٤٣٦/١-٤٣٧) .

(٣) ينظر : فتح الرحيم الملك العلاّم في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (٢٢) .

(٤) ينظر : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٧/١-٤٨) .

(٥) المرجع السابق . (٤٨/١) بتصرف .

و"الله" الاسم العظيم دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة، وتعظيماً، وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب[١].

ولما سلّم بأن الله ذو الألوهية، التي هي وصفه العظيم، الذي استحق أن يكون به إلهاً، بل استحق ألا يشاركه في هذا الوصف العظيم مشارك[٢]؛ فكيف بعد ذلك يتجرأون ويحاجون في توحيد الله؛ منكرين إفراده ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة، نافين انتفاء الشركاء عنه ـ جلّ وعلا ـ ..؟!. إن هذا لأمر عظيم، فكان التصريح باسم الجلالة "الله" العظيم؛ لزيادة الإنكار عليهم، واستعظام ما أقدموا عليه، فتقابل عظمة هذا الاسم عظم ما أقدموا عليه ـ والله تعالى أعلم ـ .

ولم يكن التعبير عن إنكاره ـ عليه السلام ـ لمحاجتهم إياه مقتصراً على ما سبق، بل زيد بقوله تعالى: (وَقَدۡ هَدَانِۚ)؛ فقد عبر عن هداية الله ـ تعالى ـ له ـ عليه السلام ـ إلى معرفة واحدانيته ـ سبحانه ـ، ومعرفة الطريق الحق بالجملة الحالية التي أفادت تأكيد الإنكار الحاصل بالجملة السابقة [٣].

"وشأن الحال المؤكدة للإنكار أن يكون اتصاف صاحبها ا معروفاً عند المخاطب. فالظاهر أن إبراهيم [عليه السلام] نزلهم في خطابه م لة من يعلم أنّ الله هداه كناية عن ظهور دلائل الهداية"[٤].

وإن كونه ـ عليه السلام ـ مهديا، والله ـ تعالى ـ هو من هداه وأيده بتأييد من عنده؛ لهو مما يوجب استحالة محاجته ـ عليه السلام ـ ؛ والمعنى: أتجادلونني في وحدانية الله ـ تعالى ـ والحال أنه ـ سبحانه ـ قد هداني إلى الحق ..؟![٥].

---

(١) مدارج السالكين (٤٨/١) بتصرف .

(٢) ينظر : فتح الرحيم الملك العلام (٢٣) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٦٩/٤)، و: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (١٥٤/٣).

(٤) التحرير والتنوير (٣٢٧/٧) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٤/٣) .

وهذا من أحسن الكلام؛ لأن فائدة المحاجة طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار. وقول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه:(أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ) فُهم منه: أن مجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك ..؛ كيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادة الله، وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد ..؟![1]. إذاً لا جدوى من هذه المحاجة..!. وكأن في هذا تيئيساً لقومه من رجوعه ـ عليه السلام ـ عن دينه، والأخذ بما هم عليه من معتقد باطل [2].

وفي الآية دلالة على أن كل من حاج في عبادة الله ـ جل وعلا ـ وحده فحجته داحضة[3].

وافتتحت الجملة الحالية بما يوحي بالقوة وذلك بـ "قد" المؤكدة، بجرسها القوي؛ فالقاف حرف متمكن قوي لما اتصف به من جهر، وشدة، واستعلاء[4]. والدال ـ أيضاً ـ من الحروف القوية؛ لما اتصف به من جهر، وشدة، وقلقلة[5]، ولعل القارئ يستوحي من هذه القوة .. قوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في تمسكه بدينه؛ وشدة اعتزازه به؛ و هداية الله ـ تعالى ـ له ـ عليه السلام ـ .

ومن اللطائف البلاغية في الآية ـ غير ما تقدم ـ :

قوله تعالى: (وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا)؛ رد منه ـ عليه السلام ـ على حجتهم الثانية؛ وهي تخويفهم إياه من آلهتهم أن تمسه بسوء جزاء إعراضه عن عبادتها[6]. والذي دل على ذلك أنه لا مناسبة ـ والله تعالى أعلم ـ بين إنكار

---

(١) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٤٠/٣) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٧/٧) .
(٣) الضوء المنير على التفسير (٤٠/٣) بتصرف .
(٤) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (١٧١) .
(٥) ينظر : المرجع السابق (٢٠١) .
(٦) ينظر : التفسير الكبير (٤٨/٥)، و: البحر المحيط (١٦٩/٤) .

محاجتهم إياه، وبين نفي خوفه من آلهتهم، ولا بين هدي الله ـ تعالى ـ إياه، وبين نفي خوفه آلهتهم، فتعين أ م خوفوه مكر آلهتهم [١].

والخوف: "توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة"[٢]، وقيل:" الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف"[٣]. والخوف الذي نفاه إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن نفسه في الآية؛ هو خوف السر، وهو أن يخاف المرء من غير الله أن يصيبه بما لا يقدر عليه إلا الله ـ تعالى ـ؛ كأن يصيبه بمرض، أو فقر، أو موت .. ونحو ذلك. وهذا النوع من الخوف لا يجوز صرفه لغير الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ـ تعالى ـ نداً يخافه هذا الخوف، فهو مشرك كافر[٤].

والتعريف بـ "ما" الموصولة عائد على الأصنام التي جعلوها شركاء لله ـ تعالى ـ في الألوهية [٥]. ولعل الدلالة التي وضعت لها "ما" الموصولة تكشف للقارئ السر في تعريف الأصنام ذا الاسم؛ فـ "ما" تدل على غير العاقل، وفي تعريفها به تقليل من شأ ا، وأ ا مهما بلغت من العظمة في نفوس عبادها، فهي لن تتجاوز قدرها الذي لا يخفى؛ فما هي إلا جمادات صماء .. نحتت من أشجار وأحجار ..، لا تقدر على شيء من نفع ولا ضر لنفسها، فكيف لغيرها ..؟!.

ثم استدرك بقوله تعالى:(إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئًا)؛أي: لكن خوفي من الله ـ تعالى ـ الذي خلقني، وخلق السموات والأرض، فهو وحده القادر على إصابتي في نفسي، أو مالي بما شاء من ضر أو نفع[٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٨/٧) .

(٢) المفردات (١٦١) .

(٣) مدارج السالكين (٤٩٨/١) .

(٤) ينظر : تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٤٢٦)، و: حاشية ثلاثة الأصول (٣٧) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٨/٧) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٨/٥) .

ولعل في هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنه يخشى ربه المستحق للخشية[١] .

ونفي إبراهيم ـ عليه السلام ـ خوفه من الأصنام، وتعليقه بالله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه دلالة واضحة على قوة إيمانه ـ عليه السلام ـ بالله؛ هذا لأنه عرف الله ـ جل وعلا ـ حق المعرفة؛ عرف أنه ـ تعالى ـ هو وحده الضار النافع، المانع المعطي، المحيي المميت، بيده ملكوت السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير ..، آمن بذلك قلبه، وصدقت به جوارحه، فلم يخش إلا إياه قولاً، وعملاً .

وفي الخبر تنبيه إلى أن الخوف نوع من أنواع العبادة، وأن صرفه لا يكون إلا لله ـ جل وعلا ـ وحده؛ لأنه هو الرب القادر، وما سواه مربوب ضعيف .

وتعرض إبراهيم ـ عليه السلام ـ لمقام الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه السلام ـ بقوله: (رَبِّى) فيه إظهار لانقياده ـ عليه السلام ـ لحكمه ـ سبحانه وتعالى ـ، واستسلامه لأمره، واعتراف بكونه تحت ملكوته، وربوبيته ـ جل وعلا ـ [٢].

ومن أسرار النظم القرآني في الآية؛ فصل جملة: (وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) عما قبلها؛ لوقوعها استئنافاً بيانياً؛ لأنه قد يتبادر إلى أذهان قومه سؤال تقديره: كيف يشاء ربك شيئاً تخافه؟!، ففصلت لذلك؛ أي: إنما لم آمن إرادة الله ـ تعالى ـ بي ضراً، وإن كنت عبده وناصر دينه؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بحكمة إلحاق الضر، أو النفع بمن يشاء من عباده. وهذا مقام أدب مع الله ـ جل وعلا ـ إذ إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون [٣].

وأعيدت كلمة "ربي" هنا، وجاءت ـ أيضاً ـ على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ويلحظ أن تكرارها قد ترك جرساً وإيقاعاً تتلقاه الأذن، فتحس ببراعة تناسقه مع الجو

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٩/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٩/٧) .

العام للآية؛ ولعل إعادتها وتكرارها لما في حروف هذه الكلمة من قوة؛ فالراء حرف قوي؛ لما فيه من جهر، وتوسط بين الشدة والرخاوة؛ وهو قوي - أيضاً - لصفة انفرادها على سائر الحروف، وهي التكرير؛ ولذا يسمى "الحرف المكرر"؛ سمي بذلك لأنه يتكرر على اللسان عند النطق به، كأن طرف اللسان يرتعد به، وبتفخيمه ضارع الحروف المستعلية[1]. والباء من الحروف القوية للجهر، والشدة التي فيها، وهي تخرج مما بين الشفتين مع تلاصقهما [2].

فذلك الاهتزاز والارتعاد الذي يحدث للسان، والالتصاق الذي يحدث للشفتين عند النطق بكلمة "ربي"، وتلك القوة التي اتصفت بها "الراء"، و"الباء"، والرخاوة في "الياء" .. كل ذلك يوحي بما يتردد في صدر إبراهيم - عليه السلام - من خشية، وخضوع، وتسليم .. لا يدانى ..!؛ خشية مؤمن قوي ..، عز بإيمانه وإسلامه، خضع، وسلم أمره للملك القوي العزيز، من بيده ملكوت السموات والأرض، للباري الذي خلقه، فسواه، وبنعمه رباه.

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

التعريض؛ تعريض من إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام التي يعبدها قومه؛ فالله - سبحانه وتعالى - أحاط بعلمه كل شيء، فلا تخفى عليه خافية، ليس كآلهتهم التي لا تدرك، ولا هي تنفع، ولا تضر .. ما هي إلا أخشاب وأحجار صنعتها أيدي عبادها ..، وليست بصانعة ..![3].

(١) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (١٣٠-١٣١)، و: التمهيد في علـم التجويـد (١٢٤-١٢٥). والحروف المستعلية هي التي يعلو الصوت عند النطق بها إلى الحنك، فينطق الصوت مستعليا بـالريح. ينظر : الرعاية (١٢٣)، وقيل سميت مستعلية لخروج صوتها من جهة العلو . وهي من الصفات القوية ينظـر : غاية المريد في علم التجويد (١٤١) .

(٢) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (٢٢٩) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٨/٥)، و: معالم التنزيل (١١٢/٢) .

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾، والجملة معطوفة على جملة: "أتحاجوني في الله وقد هدان"(١)؛ وهي تنبيه لهم على غفلتهم، وإظهار لموضع التقصير منهم؛ حين أشركوا بالله ـ تعالى ـ، وعبدوا ما لا يضر ولا ينفع (٢).

والمعنى: أفلا تعتبرون بأن تعقلوا أن ما أنتم مقيمون عليه من عبادة هذه الأصنام، وترككم عبادة خالقكم القادر الذي بيده الخير، وهو بكل شيء عليم ..، لهو من الضلال المبين(٣) .

وخرج الاستفهام عن معناه الأصلي في قوله: ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى معنى آخر فهم من السياق؛ وهو الإنكار(٤)، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ ينكر على قومه عدم تذكرهم مع وضوح دلائل التذكر(٥)، التي أقامها ـ عليه السلام ـ على عدم صلاحية أصنامهم المعبودة للربوبية (٦).

ويلحظ في الآية إيثار "التذكر" على التفكر ونظائره (٧)..، فلم كان هذا الإيثار؟!. إن هذا لهو من سمات البلاغة القرآنية، ولعله يحس قبل بيان سر هذا الاصطفاء؛ معرفة المراد بالتذكر هنا، وفي ذلك ذكر ابن عاشور ـ ما معناه ـ : التذكر في فاعلية آلهتهم من صفات منافية لمقام الألوهية، وفي صفات الإله الحق الذي دلت عليه مصنوعاته(٨). وعليه فقد يكون ذلك الإيثار إشارة إلى أن أمر أصنامهم، وبطلان ألوهيتها مركوز في العقول .. لا يتوقف إلا على التذكر(٩) .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢٩/٧) بتصرف .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (٩٥/٦)، و: البحر المحيط (١٧٠/٤) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٨/٥) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٦٥/٧) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٢٩/٧) بتصرف .

(٦) البحر المحيط (١٧٠/٤) بتصرف .

(٧) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٨) التحرير والتنوير (٣٢٩/٧) بتصرف .

(٩) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

وقيل: (تَتَذَكَّرُونَ)، ولم يكن التعبير ـ في غير القرآن ـ : "تذكرون"؛ ولعل ذلك يعود للجرس الذي يتركه حرف "التاء"، فهو حرف مهموس[1]، بينما "الذال" حرف مجهور[2]، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين أنكر على قومه ـ بالجملة الاستفهامية ـ عدم تذكرهم، حمل إنكاره شيئاً آخر، طرق السمع بجرسه؛ فالهمس في (تَتَذَكَّرُونَ) يطرق سمعهم ابتداءً، ويعقبه همس آخر، بعده يكون الجهر، وكأن ذلك الهمس المتتابع همسة حانية منه ـ عليه السلام ـ، تنساب إلى قلو م؛ همسة ناصح مشفق، تدعوهم إلى التذكر، بل إلى تكراره، وتجديد العهد به؛ تذكراً بعد تذكر .. إلى أن تطمئن قلو م إلى الإله الحق، ويرسخ فيها الإيمان به ..، لا أن يعرضوا عن الحق الذي جاءهم به، ويقبلوا على محاجته محاجة باطلة ـ والله تعالى أعلم ـ .

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) [الأنعام:٤٢].

ومناسبة الآية لما قبلها؛ أنه لما أنذر المشركون بتوقع العذاب، أعقب الإنذار بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم قبلهم؛ ليعلم هؤلاء أن العقاب بعد التبليغ والإنذار سنة الله ـ جل وعلا ـ في الذين ظلموا أنفسهم بالشرك [3].

والكلام مستأنف سيق لبيان أن من الكفار من لا يدعو الله ـ جل وعلا ـ حتى عند إتيان العذاب؛ لتماديهم في الغي والضلال؛ فهم لا يتأثرون بزواجر كونية، ولا بزواجر ت يلية[4].

---

(١) ينظر : التمهيد في علم التجويد (١١١) .

(٢) ينظر : المرجع السابق (١٢٣) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير . (٢٢٦/٦) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٣/٣) .

وفي هذا تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ لئلا تذهب نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حسرات جراء إعراض قومه[١] .

والجملة خبرية صدرت باللام الموطئة للقسم، و"قد"[٢]؛ لتوكيد مضمون الجملة؛ وهو المفرع بالفاء في قوله: (فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء)[٣].

وإذا كان تصدير الجملة بالقسم، و"قد" قد أفاد توكيد مضمو ا ..، فهو مع هذا ألقى في نفس المتلقي شيئاً آخر؛ ألقاه إيقاع ذلك الجرس الذي هز بقوته الجنان . فالقاف بجهرها، وشد ا، واستعلائها. والدال بجهرها، وشد ا، وقلقلتها ـ والقلقلة: شدة الصوت، فكأن الصوت يشتد عند الوقف عليه [٤]ـ حملت ـ بما فيها من قوة ـ هول وشدة الخبر الذي سيلقى على أسماعهم ..، وهذا يورثهم تحفزاً ورهبة لما سيتلقونه ـ والله تعالى أعلم ـ .

ومن الدقة في التعبير في النظم القرآني؛ التعبير عمن أرسل الله ـ تعالى ـ إليهم رسله، وأخذهم بالعذاب؛ بكلمة "أمم" دون غيرها مما يحمل معنى الجماعة؛ ولعل ذلك لما تؤديه هذه الكلمة من معنى. فـ"أمم" جمع أمة؛ أي أناس يؤم بعضهم بعضا، وهم أهل لأن يقصدهم القاصدون؛ لكثر م وعظمهم[٥]. ولعل في ذلك دلالة على أن عظمهم، وكثر م ما كانت لتغني عنهم من الله شيئا حين استكبروا وعصوا الله ـ تعالى ـ ورسله ـ عليهم السلام ـ، فكأن فيه تحذيراً للسامعين من مغبة إعراضهم، وتماديهم في غيهم.

ومن الدقة ـ أيضاً ـ الإتيان بحرف الجر "من" في قوله تعالى: (مِّن قَبْلِكَ)، وربما تبادر إلى الذهن من أول وهلة أنه من الممكن الاستغناء عن حرف الجر في الجملة دون أن يكون لذلك أثر في المعنى، فيقال ـ في غير القرآن ـ : " ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك "،

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن . (٤٢٤/٦) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٣/٣) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير . (٢٢٧/٦) .

(٤) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة . (١٢٥) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (١١٣/٧) .

لكن هذا ـ وإن استقام بناء ـ فلن يستقيم معنى؛ لأن في ذكر حرف الجر هنا لطيفة بلاغية؛ كشفت عن معنى دقيق ما كان ليتضح بحذفها؛ فالمراد هنا ـ والله تعالى أعلم ـ الإشارة إلى بعض الأمم المرسل إليها، لا كلها، وهي التي أراد الله ـ جل وعلا ـ قص أخبارها، وهي التي عاقبها ـ سبحانه وتعالى ـ على تكذيبها[١]. ولعل القارئ يستشعر من هذه الدقة في التعبير عدل الله ـ تباركت أسماؤه ـ، فهو ـ جل وعلا ـ لم يجمع بين من آمن من عباده ومن كفر في التعبير، لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ قال: (إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ)؛ ليتمحض الكلام فيمن كفر منهم، وهذا من عدله ـ تعالى ـ، وأنه ما كان ليضيع إيمان من آمن .

ومن البلاغة في الآية حذف مفعول: "أرسلنا"؛ وتقدير: رسلاً، وحسن؛ لدلالة الكلام عليه[٢]. وفي الآية حذف آخر، دل عليه الكلام ـ أيضاً ـ؛ تقدير: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً، فكذبوهم فأخذناهم؛ وقُدر المحذوف على نحو ما ذكر؛ لأن سبب أخذه ـ سبحانه وتعالى ـ إياهم تكذيبهم الرسل، ومخالفة أمره، وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف، والذي سوغه علم السامع به، ودلالة الكلام عليه [٣].

وقيدت جملة "فأخذناهم" بالعطف بالفاء دون "ثم"؛ ولعل ذلك للإشارة إلى أن أخذهم بالبأساء والضراء كان مقارنا لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم، وفي هذا تنبيه إلى أن ذلك الأخذ كان بمرأى رسلهم، وقبل رحيلهم عن الدنيا؛ ليكون إشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ أيد رسله ونصرهم في حيا م، وهذا إيذان بأن الله ـ تعالى ـناصر نبيه محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ على مكذبيه، ففيه تكريم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووعيد لمن كذب به[٤] .

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١١٣/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥)، و: نظم الدرر (١١٣/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥)، و: التفسير الكبير (٥٣٣/٤)، و: تفسير الخازن (١٣٣/٢)، و: مجمع البيان (٤٦٦/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٧/٦) .

ومن اللطائف البلاغية في الآية المجاز في قوله تعالى: (فَأَخَذۡنَاهُمۡ)؛ والأخذ الإمساك بقوة، وبطش وقهر، وهو هنا مجاز عن متابعة العقوبة والملازمة [(١)].

وإذا كان الأخذ الإمساك بقوة ..، فإن قوة هذا الأخذ ستكون أكثر تمكناً؛ لأنه أخذ من قوي عزيز، وهذا مما دل عليه اتصال الفعل بـ "نا" الدالة على الفاعلين .

وذكر متعلق الأخذ؛ وهو قوله تعالى: (بِٱلۡبَأۡسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ)؛ ولعل ذلك لأنه أخذ بشيء خاص، بخلاف الآتي بعده؛ وهو قوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَابَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَاهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ) [الأنعام:٤٤] [(٢)].

و(البأساء) "شدة الفقر، والضيق في المعيشة." [(٣)] و(الضراء) "الأسقام والعلل العارضة في الأجسام" [(٤)]. وهذا قول أكثر المفسرين، وقيل: قد يوضع أحدهما مكان الآخر [(٥)].

وعلى كل فإن كلمتي (البأساء) و (الضراء) فيهما من الجرس والإيقاع ما يوحي بعنف ما أخذوا به وهوله ..؛ فالتصاق الشفتين الذي يكون عند النطق بالباء في (البأساء) مع ما فيها من جهر وشدة، وخروج "الهمزة" من أقصى الحلق مع جرسها القوي الذي يتردد صداه في الكلمة مرتين ..،كل ذلك يوحي بالشدة، أياً كان نوعها؛ كالفقر بشدته..، حتى كأ م التصقوا بالتراب من تمكنها؛ بنقص في الأموال، والثمرات، وحبس الأمطار ..، وكالمرض، والحروب، والذلة والمسكنة بشد ا ... وغير ذلك. أما "السين" المهموسة، الرخوة [(٦)]، فهي توحي بالضعف والانكسار.

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٣٠/٤) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٧/٦) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥) .

(٤) المرجع السابق . الصفحة نفسها.

(٥) المحرر الوجيز (٥١/٦) بتصرف .

(٦) للوقوف على صفات السين ينظر : الرعاية لتجويد لقراءة وتحقيق لفظ التلاوة (٢١١) .

أما القوة في جرس (الضراء)، فالقارئ يجدها في "الضاد"؛ لما فيها من جهر، وإطباق، واستعلاء، واستطالة .. وكلها من صفات قوة الحرف، ثم هي أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدها صعوبة على اللافظ[١]، وزيدت قوة بتشديدها. ويجدها ـ أيضاً ـ في "الراء" هذا الحرف المكرر القوي، الذي يرتعد طرف اللسان ويضطرب عند النطق به .. مع ما فيه من جهر، وانحراف .. وهذه من صفات قوة الحرف[٢]، وزاده قوة تشديده .. وأخيراً "الهمزة" التي يقف الناطق بالكلمة عندها، فيتردد صدى جرسها القوي في الأذن ..، ولعل ذلك مما يوحى بالمشقة، والاضطراب، والتعثر .

وذكر في القرآن الكريم أنموذج لتلك الأمم، وللبأساء والضراء التي أخذوا ا؛ قال تعالى في شأن فرعون وملئه [٣]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ۝ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ۝ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٣].

وأتت فاصلة الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، بفصل الجملة عما قبلها؛ لوقوعها استئنافا بيانياً، فقد جعل التضرع علة لابتداء أخذهم بالبأساء والضراء قبل الاستئصال[٤].

وقيدت الجملة بـ "لعل" التي تفيد الترجي، وهي تحمل مع الرجاء الشك؛ لأن معنى الترجي يقتضي عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم، فللشك جانب في معناها. فعلى هذا فهي لا تفيد هذا المعنى هنا، لأ ا أتت في هذا المقام من كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ،

---

(١) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (١٨٤-١٨٥) .

(٢) ينظر : المرجع السابق (١٩٥) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٨٩/٢) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٧/٦) .

فمعناها لا يناسب علم الله ـ تعالى ـ العالم بأحوال الأشياء قبل وقوعها، ولأ ا قد وردت في أخبار مع عدم حصول المرجو كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى:(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) [الأعراف :١٣٠] ، فآل فرعون لم يتذكروا كما بينته الآيات من بعد [١].

وقد اجتهد المفسرون في تأويل "لعل" بما يتناسب وكلام الله ـ تعالى ـ، فأُولت في هذا المقام ـ على ما وقفت عليه ـ على معنيين :

الأول: أ ا بمعنى التعليل؛ والمعنى: فعلنا م ذلك ليتضرعوا إلي، ويخلصوا العبادة لي، ويفردوا رغبتهم إلي دون غيري[٢] .

الثاني: أن الترجي في هذه الآية إنما هو على معتقد البشر؛ أي لو أن أحداً رأى ما حل م من عذاب لرجا تضرعهم، وابتهالهم إلى الله ـ تعالى ـ ليكشف ما م من سوء [٣].

وقوله:(يَتَضَرَّعُونَ) التضرع تفعل من "الضراعة"؛ وهي الذلة، والاستكانة، والتخشع .. بمعنى الانقياد وترك التمرد[٤]. وجاء في معجم مقاييس اللغة: أن "الضاد، والراء، والعين أصل صحيح يدل على لين في الشيء "[٥].

ويلحظ شيء من الثقل في جرس هذه الكلمة؛ لأمور منها: عدم إدغام تاء التفعل في فاء الكلمة. وقوة بعض حروفها؛ "الضاد، والراء". والتشديد في حرف "الراء" ثم يخف لضعف "العين"، و"الواو"، و"الياء". ولعل ذلك مما يوحى بشدة التذلل، والخضوع، والتخشع..، ولا يكمل ذلك إلا بصدق الانطراح بين يدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ،

(١) ينظر : التحرير والتنوير . مؤسسة التاريخ ـ بيروت (٣٢٣/١) .
(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز (٥١/٦)، و: البحر المحيط (١٣٠/٤) .
(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل (١٩١/٥)، و: التفسير الكبير (٥٣٣/٤) .
(٥) معجم مقاييس اللغة . مادة (ضرع) .

وصدق اللجأ إليه، بإخلاص الدعاء له وحده، مع إنكسار القلب، وتمريغ الجبين تذللاً له. والإلحاح بالدعاء مرة بعد أخرى.. علّه ـ سبحانه ـ أن يغفر، ويرحم، ويتوب عليهم.

ولربما تساءل القارئ عن السر في الإتيان بفعل التضرع هنا بفك إدغامه، بينما أتي به في سورة الأعراف مدغماً؛ قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) [الأعراف:٩٤]. مع اتحاد المقصد ـ في الظاهر ـ في الآيتين .

والجواب ـ والله تعالى أعلم ـ : أن العرب كانت تراعي مجاورة الألفاظ، فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية، وإن اختلف المعنى. وماضي الفعل من الضراعة لا إدغام فيه؛ يقال: تضرع. فلا حرف مضارعة فيه يسوغ الإدغام؛ فلما ورد الماضي فيما جاور هذه الكلمة، وهو قوله تعالى:(فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ)[الأنعام:٤٣] ، ورد الأول مفكوكاً غير مدغم؛ فقيل: (يَتَضَرَّعُونَ) رعياً للمناسبة. أما آية الأعراف فلم يرد فيها ما يستدعي هذه المناسبة، فجاء مدغماً على الوجه الأخف، إذ لا داعي لخلافه[1].

وثمة تعليل آخر، لا يلغي سابقه، إنما يضاف إليه؛ وهو أن "الأمم أكثر من القرية، وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ. فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطولُ بناءً فقال: (يَتَضَرَّعُونَ). ولما كان الإرسالُ في الأعراف إلى قرية [قيل:] (يَضَّرَّعُونَ). فجاء بما هو أقصر في البناء."[2].

وقوله تعالى:

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ) [الأنعام:١١٣].

---

(١) ينظر : البرهان في متشابه القرآن (١٧١)، و: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل (٤٥٥/١-٤٥٦) .

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٤٣) .

والآية تتصل بما قبلها اتصالاً وثيقاً؛ قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[الأنعام:١١٢]؛ إشارة إلى أن ذلك القول الباطل، الذي يوحي به شياطين الإنس بعضهم لبعض، إنما زخرفه هؤلاء الشياطين وزينوه؛ ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء، فيردوهم عن دينهم ..؛ ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة [(١)].

والواو في قوله: (وَلِتَصْغَى) عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: (غُرُورًا)[(٢)] .

و"تصغي" من: "صغوت تصغى وتضغو، والتي يل جاء بـ"تصغى"، "صغواً، وصغواً"، وبعض العرب يقول: صغيت بالياء."[(٣)] ويقال: أصل يصغى، يصغى ـ بكسر الغين ـ لكن حرف الحلق رده إلى الفتح[(٤)]. "والصاد، والغين، والحرف المعتل أصل صحيح يدل على الميل"[(٥)] والمعنى: تميل. يقال: "صغوي معك" إذا كان هواك معه وميلك. ويقال: أصغيت الإناء، إذا أملته ليجتمع ما فيه. ويقال للقمر إذا مال للغيوب: صغا وأصغى[(٦)] .

ومما سبق أطلق أصغى بمعنى استمع؛ لأن أصله أمال سمعه، أو أذنه، ثم حذف المفعول من الكلام؛ لكثرة الاستعمال. وهو هنا مجاز في الاتباع، وقبول القول [(٧)].

والذين لا يؤمنون بالآخرة؛ هم المشركون، وتعريفهم ـذه الصلة ـ عدم إيما ـم بالآخرة ـ إيماء بأسوء أثار وحي الشياطين لهم، فهذا الوصف أعظم ما أضرهم، فبسببه تجرأوا على ما تجرأوا عليه؛ من شرك بالله ـ تعالى ـ، وتكذيب بالنبي ـ عليه الصلاة

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٦/٥)، و: التفسير القرآني للقرآن (م٢٩٨/٢) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (٢٠٨/٤) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٦/٥) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز (١٣٣/٦) .

(٥) معجم مقاييس اللغة . مادة (صغوى) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٦/٥-٣١٧) .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (١٢/٨) .

والسلام ـ **وإيذاء له** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **وللمؤمنين؛ لأن كفرهم باليوم الآخرة اقتضى كفرهم بالبعث، والحشر، والحساب، فهم لا يترقبون جزاءً عن الخير والشر**(١) .

ومن اللطائف البلاغية في **الآية: تقييد** جملة **"وليرضوه" بالعطف بالواو دون الفاء، وكان مقتضى الظاهر أن تقيد بالعطف بالفاء، لكن خولف مقتضى الظاهر؛ للدلالة على استقلال الجملة بالتعليل. ومن مقتضى الظاهر ـ أيضاً ـ عدم تكرار لام التعليل، ولعل تكرارها لتأكيد الاستقلال، فيدل على أن صغي أفئد م إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأ م رضوه**(٢) .

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ)**، والجملة معطوفة على قوله تعالى:** (وَلِيَرۡضَوۡهُ) **كعطف "وليرضوه" على "لتصغى"**(٣).

و"الاقتراف" بمعنى **الاكتساب. حكي عن العرب: "خرج يقترف لأهله"** بمعنى **يكسب لهم، ومنه قيل: "قارف فلان هذا الأمر" إذا واقعه وعمله**(٤)**. وأكثر ما تستعمل فيه هذه الكلمة** في **اكتساب الذنوب والآثام**(٥)**؛ قال تعالى:** (وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ) **[الأنعام:١٢٠].**

والمعنى: وليكتسبوا من الأعمال؛ من شرك وكفر، وما يزين به الكفر ما هم مكتسبون (٦).

ومن البراعة في **النظم القرآني؛ ترتيب الأفعال الواردة** في **الآية ترتيباً بلغ غاية الفصاحة، إذ كان كل فعل منها سبباً عما قبله؛ وبيان ذلك أن الخداع يكون أولاً، ويليه الميل، وبعده يكون الرضا، فيقع الفعل وهو الاقتراف**(٧) .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢/٨) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : السابق . نفسها .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٧/٥) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٣٣/٦) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٧/٥)، و: التفسير القرآني للقرآن (م٢٩٨/٢) .

(٧) ينظر : البحر المحيط (٢٠٨/٤) .

و"ما" في قوله: (وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ) اسم موصول بمعنى "الذي"، ولعل إيثار التعبير ا هنا؛ لتعظيم أعمالهم المقترفة، وتبشيعها[١]. وهذا التبشيع يترك أثراً سيئاً في نفس المتلقي تجاه تلك الأعمال، ومقترفيها؛ فينفر منها ومن أهلها. كما أن عظمة الفعل تقابله عظمة في الجزاء؛ فكأن فيه وعيداً، وإنذاراً لأولئك الذين لا يؤمنون باليوم الآخر .

وقد تركت هذه الجملة: (وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ) جرساً مؤثراً، يجده القارئ جلياً في نطقه لها، وفي سمعه. فصيغة "الافتعال" توحي بالثقل فكأن ما يفعلونه من أمور زينها الشرك، هي أمور ثقيلة على الفطر السليمة. وأ م مع ذلك يبذلون فيها جدهم، ومنتهى طاقا م. وكما توحي بالثقل، فهي ـ أيضاً ـ توحي بالاستهجان؛ يوحيه جرس حروفها. فالقاف بخروجها من أقصى اللسان مما يلي الحلق[٢]، توحي بعدم تقبل النفس لأفعالهم المشينة. والتاء التي تخرج من رأس اللسان وأصول الثنيتين العليين[٣]، توحي بالازدراء حتى لكأن اللسان يريد لفظ الكلمة قبل إتمامها. والراء هذا الحرف المكرر، الذي يخرج من رأس اللسان[٤]، يوحي بتكرار ذاك الازدراء، وتأكيد رفض النفس لأفعالهم. أما الفاء، فالقارئ عندما يصل إليها يكون قد بلغ في استهجانه غايته، فالفاء بخروجها من طرفي الشفتين، وباطن الشفة السفلى[٥]، كأ ا توحي بأن إخراج الكلمة بلفظها من الفم لفظاً .. كشيء كريه ..، لهو من أدق الوسائل في التعبير عن استهجان أفعالهم واستبشاعها .

ومن اللطائف البلاغية في الآية ـ غير ما تقدم ـ : مجيء صلة الموصول جملة اسمية (مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ)، ولعل ذلك للدلالة على تمكنهم في الاقتراف، وثبا م فيه[٦] وقد يكون في هذا مزيد تنفير منهم .

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٢٠٨/٤) .

(٢) ينظر : التمهيد في علم التجويد . (١٠٦) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : السابق . نفسها .

(٥) ينظر : السابق . نفسها .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (١٣/٨) .

وفي سياق المفاصلة بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه الذين يعدلون بر م، ويتخذون من دونه أرباباً يشرعون لهم [1]..، يقول تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) [الأنعام:١٥٩] .

والجملة استئناف جيء به بعد قوله تعالى:(قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) [الأنعام:١٥٨] كالنتيجة ؛ لأن الله ـ تعالى ـ لما قال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) أعقب ذلك الوعيد بأن الفريقين متباينان متجافيان في مدة الانتظار[2] .

والآية إخبار من الله ـ جلَّ وعلا ـ لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه بريء ممن فارقوا دينهم الحق، وفرقوه، وكانوا فيه فرقاً وشيعاً، فلا هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ منهم، ولا هم منه؛ لأن دينه الذي بعث به هو الإسلام، الدين القيم، ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، فكل مشرك وثني، وكل يهودي ونصراني، وكل متحنف مبتدع ابتدع في الدين ما ضل به عن صراط الإسلام المستقيم ..؛ داخل في عموم قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)؛ وهو بريء من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بريء منه[3].

والقارئ للآية يجد أن لصيغة التعبير، بما فيها من دقة الاختيار، وقوة السبك، وجمال التناسق .. أثراً بيانياً في إحداث الإيقاع في العبارة [4].

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٣٥/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٩١/٨) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٤/٥) .

(٤) ينظر : الإعجاز الفني في القرآن (٢٤٠) .

فهو إذا قرأ قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا)؛ يجد أن كلمة (فَرَّقُوا) بجرسها القوي، ودقة تصويرها قد شخصت الصورة المرادة ببراعة فائقة ..، فإذا ما وصل إلى كلمة (شِيَعًا) يحس بجمال التناسق وإحكامه بين إيقاعيهما .

فـ(فَرَّقُوا) تحمل نغمة قوية .. مؤذنة بالمعنى المراد، لعلها تعود لقوة جرس "الراء" و"القاف". وإلى الدقة في اختيار صيغة الكلمة؛ فقد أتت بتكرير العين، وهذا مما يزيدها قوة إلى قو ا. وتكرير العين شائع في العربية؛ لقصد تقوية المعنى؛ قال ابن جني في ذلك: "... جعلوا تكرير العين في المثال[يعني البناء][1] دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا: كسر، وقطع، وفتح، وغلق. وذلك أ م لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأ ا واسطة لهما، مكنوفة ما؛ فصارا كأ ما سياج لها، ومبذولان للعوارض دو ا"[2]. فتكرير العين يدل على أن أولئك فرقوا دينهم مراراً وتكراراً؛ تفريقاً بعد تفريق، شتاتاً بعد جمع ..!. وفي هذا استبشاع لفعلتهم، واستعظام لها .

يضاف لما سبق قوة التصوير؛ فمجيء (فَرَّقُوا) من "فرق" ـ بالتشديد ـ فيه ت يل للدين م لة المادي، المحسوس، القوي، المتماسك[3]؛ لأن "فرق" تكون بين الأجسام، و"فَرَق" بين الكلام[4]. ولعل سر ت يل الدين هذه الم لة هو خلو أصوله وقيمة من التجافي والتنافر، وتنويه بسلامته من الخلل والاضطراب[5] .

وقرئت (فَرَّقُوا) بإثبات الألف، وتخفيف الراء ؛ "فارقوا"، وحجة من أثبتها أنه أراد: تركوه، وانصرفوا عنه[6]. وفي هذا ذم لهم .

---

(١) الخصائص . الهامش . (١٥٥/٢) .

(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في "توظيف اللغة". (٧٦) .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (فرق) .

(٥) ينظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن . (٧٦) .

(٦) ينظر : الحجة في القراءات السبع . (١٥٢) .

أما من قرأها بتشديد "الراء"، فحجته أنه أراد: جعلوه فرقاً، ودليله قوله تعالى: (وَكَانُواْ شِيَعًا)؛ أي أحزاباً[١] ـ أشير فيما سبق إلى بلاغة هذه القراءة ـ .

(وَكَانُواْ شِيَعًا)، عطفت على ما سبق؛ لاتفاقهما في الخبرية، فكلاهما خبر عن الذين كفروا؛ الأولى إخبار عنهم بأ م فرقوا دينهم، والثانية إخبار عنهم بأن تفريقهم لدينهم فرقهم، فكانوا بسببه أحزاباً وشيعاً .

"والشيع جمع شيعة؛ وهي الفرقة"[٢]؛ وكل قوم اجتمعوا على أمر يقال لهم: شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع [٣].

وجرس كلمة (شِيَعًا) يتمازج مع جرس كلمة (فَرَّقُواْ) حتى كأنه ينطق بالمعنى المراد. فالشين بما اتصفت به من تفشي ـ والتفشي، هو الانتشار، وفي نطق الحرف كثرة انتشار خروج الهواء بين اللسان والحنك، وانبساطه في الخروج عند النطق ا[٤] ـ ؛ كأ ا توحي بانتشار تلك الفرق وكثر ا. أما "الياء" و"العين" بضعفهما ـ لكثرة صفات الضعف فيهما[٥] ـ؛ فلعلهما توحيان بما يكون عليه الأحزاب والفرق من ضعف، ولين في الدين .

ووصف المشركين بأ م فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً يؤذن بأنه وصف شنيع، ومستبشع؛ لأن الله ـ تعالى ـ ما وصفهم به إلا في سياق الذم. وفي ذلك تحذير للمسلمين من أن يكونوا في دينهم كما كان المشركون في دينهم [٦].

ومن اللطائف البلاغية في الآية ـ غير ما تقدم ـ :

صدرت الجملة بـ "إن"؛ لإفادة تأكيد الخبر. كما عرف المسند إليه بالموصولية؛ ولعل ذلك لقصد تحقيق معنى الصلة في المشركين؛ للتنفير منهم، ومن الاتصال م، ومن

---

(١) ينظر : الحجة في القراءات السبع . (١٥٢) .
(٢) المحرر الوجيز (١٨٩/٦) .
(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (شيع) .
(٤) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة (١٣٥) .
(٥) ينظر : غاية المريد في علم التجويد (١٥٣) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٣/٨) .

سلوك مسلكهم؛ لأن شأن الدين أن يكون عقيدة واحدة، وأعمالاً واحدة، والتفرق في أصوله ينافي وحدته[١].

وفي إضافة الدين إلى ضمير المشركين، بقوله تعالى: (دِينَهُمْ) إشارة إلى شدة رغبتهم فيه، ومقاتلتهم عليه [٢].

وذكر الجار والمجرور "في شيء" من قوله تعالى: (لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ)؛ فيه غاية الحث على الاجتماع، وغاية التوعد من الافتراق[٣].

ومن أسرار النظم القرآني في الآية؛ فصل جملة (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ) عما قبلها؛ لوقوعها استئنافاً بيانياً؛ لأنه لما خفف عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتبرئه من المشركين كان الكلام مثار سؤال؛ تقديره: فما جزاؤهم، أو ما مصيرهم ..؟!. فاستؤنف بقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ)[٤]. بمعنى: إما بعقابهم إن أقاموا على ضلالهم، وإما بالعفو عنهم بالتوبة عليهم تفضلاً مني[٥] .

وعبر عن إحالة أمرهم إلى الله ـ تعالى ـ بصيغة القصر، باستخدام "إنما"؛ فأمر الذين فرقوا دينهم مقصور على الله، لا على غيره. والغرض منه ـ والله تعالى أعلم ـ التعيين؛ فالجملة السابقة "لست منهم في شيء" قد أثارت تساؤلاً في نفس السامع ـ كما سبق بيانه ـ، ولعل هذا التساؤل يوحي بتردد السائل، أو شكه؛ فأتت الجملة لتعين للسائل المتردد أن أمرهم وجزاءهم على الله ـ جل وعلا ـ لا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا إلى غيره[٦]. وفي هذا إنذار، ووعيد شديد لمن فرق دينه [٧].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٩١/٨) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣٣٤/٧) .

(٣) ينظر : المرجع السابق (٣٣٥/٧) .

(٤) ينظر : السابق . نفسها، و: التحرير والتنوير (١٩٢/٨) .

(٥) ينظر : جامع البيان (٤١٥/٥) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٢/٨)، ونص ابن عاشور على أن صيغة القصر في هذا الشاهد "لقلب اعتقاد السائل المتردد"، والمتردد لا اعتقاد جازم له حتى يقلب؛ إنما يعين له الحكم؛ لتردده وشكه .

(٧) ينظر : المحرر الوجيز (١٨٩/٦)، و: التحرير والتنوير (١٩٢/٨) .

وقُيد قوله تعالى: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) بالعطف بـ"ثم"؛ وقد يكون السر في هذا تراخي الحشر عن زمان التكليف، فنبه إلى ذلك بـ"ثم" التي تفيد مع العطف الترتيب والتراخي. أي: يبقى أمرهم إلى الله ـ تعالى ـ مدة، وذلك هو الإمهال والإملاء لهم. وبعد استيفاء ما ضرب لهم من الآجال يكون الحشر، وما فيه من حساب وجزاء [١].

ولكن ما السر في مجيء التعبير عن إظهار ما كانوا يفعلون بالتنبئة ..؟! والجواب ـ والله تعالى أعلم ـ أنه عبر به لما بينهما من الملابسة في أ ـما سببان للعلم؛ تنبيهاً على أ ـم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته؛ أي يظهر لهم على رؤوس الأشهاد، ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يفعلونه[٢]، فهي تنبئة عظيمة جليلة مستقصاة[٣]؛ ولعل ذلك إشارة لعظم شأن الدين، ومغبة تفريقه .

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٣٥/٧)، و: التحرير والتنوير (١٩٣/٨) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٦/٣) .

(٣) نظم الدرر (٣٣٥/٧) بتصرف .

المبحث الثاني

الإتحاء

الإيحاء

الوحي: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان. وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً، وكذلك الإشارة والإيماء، يقال: أوحيت إلى فلان أوحي إيحاء إذا أشرت إليه، وأومأت[١]. وذكر الأصفهاني: أن "أصل الوحي الإشارة السريعة."[٢].

وإيحاء الكلمة يطلق على المعاني التي يشير إليها مدلول لفظها إشارة سريعة مجملة[٣].

وإن يء الإيحاء في كلام ما أثراً لا يخفى، فهو يكسبه تميزاً خلاّباً؛ لأنه يبعث الحركة فيه، يجعل العبارة تزخر بالحياة، والمعنى غزيراً خصباً، أما الصورة فيظللها بظلال من الحياة. فيصيب القارئ منه لذة ومتعة حين تأمله فيه [٤].

فكيف إذا كان ذلك الإيحاء في ألفاظ القرآن، والحال أن الإيحاء فيه صفة ملازمة لألفاظه ..؟!. إن القارئ له يستطيع ـ بحكم ما تملكه لفظة القرآن من قوة الإيحاء ـ أن يغوص في معانيها، ويستخرج منها شيئاً مما تخفيه من أسرار ومعان دقيقة، وحينئذ يدرك مزية الإيحاء اللفظي في القرآن [٥].

وسأحاول في هذا المبحث ـ بإذن الله ـ أن أتلمس ـ في الشواهد المختارة ـ شيئا مما توحيه بعض الكلمات فيها منفردة، أو منتظمة في جملة؛ بإبرازها، وعرضها مع ما يتضح من إيحاءات في مطلع التحليل. إلا أنه قد يتعذر علي معالجة بعضها في المطلع؛ لصعوبة إفرادها؛ لانتظامها في سلسة محكمة، تتصل كل كلمة بما قبلها، أو بما بعدها ..

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة . مادة (وحي)، و: لسان العرب . المادة نفسها .

(٢) المفردات في غريب القرآن . (٥١٥) .

(٣) النظم القرآني في آيات الجهاد . (٣٩) بتصرف .

(٤) ينظر : الإعجاز الفني في القرآن . (١١٤-١١٥) .

(٥) ينظر : المرجع السابق (٩٨) .

فعندها يكون من الملائم للنظم القرآني تحليلها وفق ما انتظمت عليه في الآية؛ لتكون على المعاني أدل .

وأولى الآيات التي سأقف معها في هذا المبحث؛ آية أتت حكاية لبعض آخر من شبهات منكري نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأباطيلهم[١]؛ وهي قوله تعالى: (وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)[الأنعام:٣٧] .

والآية عود على ما جاء في أول السورة من ذكر إعراضهم عن آيات الله ـ عز وجل ـ بقوله: (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام:٤]، ثم ذكر ما تفننوا به من معاذير كقوله ـ تعالى ـ حكاية عن قولهم: (لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام:٨] [٢].

فأولئك المكذبون يقولون: هلاّ أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية مغايرة للآيات القرآنية؛ تثبت صدق ما يدعيه ـ على زعمهم ـ بأنه رسول مبعوث من رب العالمين . فأمره ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرد عليهم بأن الله قادر على إنزال آية، ولكن أكثرهم لا يعملون ما وجه ترك إنزالها، ولو علموا ما سألوا شيئاً منها [٣].

ومن شواهد الإيحاء في الآية: ما توحيه كلمة (نُزِّلَ) من قوله تعالى: (وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ). فلقد اختيرت هذه الكلمة دون ما سواها مما يفيد معنى الإتيان والوقوع؛ ولهذا الاختيار إيحاءاته؛ فمادة "نزل" تدل على هبوط شيء ووقوعه[٤]، والهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، فعلى هذا فإن التعبير عن إتيان الآية بفعل الـ ول فيه إشارة إلى أن الآية المطلوبة هي من قبيل ما يأتي من السماء[٥]. كما أن فيه

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥٢٢/٤)، و: إرشاد العقل السليم (١٣٠/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٩/٦) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٥/٥) .

(٤) ينظر : معجم مقاييس اللغة . مادة (نزل) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٩/٦) .

إشارة إلى أ م يريدو ا آية حسية، تتحرك بين الناس، ويتحرك الناس بين يديها[١]. فإتيا ا على هذا النحو المذكور ـ أي باا ول وكو ا حسية ـ، ستكون شيئاً عظيماً، و ـذا فهي ستنطق بصدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ لأ ا أتت من الله العظيم، الـذي خلـق السموات بعظمتها، والذي يزعم ـ في نظرهم ـ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه مبعوث إليهم منه. وهذا هو شرطهم ـ كما يدعون ـ لقبول ما جاءهم به ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وللتأكيد على صدق رغبتهم في وقوع الفعل أتوا بالفعل (تُنَزِّل) مضعفاً[٢]؛ لإزالة ما قد يطرأ من شك تجاه نيا م. غير أن كلمة (تُنَزِّلَ) كشفت للقارئ خبايا نفوسهم المريضة بإيحاء بديع؛ إذا أوحت من خلال ما سبق ما هم عليه من كبر، وعناد، ومماطلة في قبول الحق الذي لا أظهر منه ..!.

ومن الآيات الم لة التي طلبوها، والتي تؤيد ما سبق، ما حكاه الله عنـهم في قولـه تعالى: (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ)[الأنعام:٨]، وقوله تعـالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً)[الإسراء:٩٠-٩٣] .

وجاء في الخبر الذي أورده ابن هشام في سيرته أن جمعاً من زعماء قريش اجتمعـوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد، فكلمـوه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلمـوك، فا م؛ فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سريعاً ...[٣]. ومما جاء في الخـبر أ ـم

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (م٢/٢٠٩) .

(٢) ينظر : ملاك التأويل (٤٥١/١) .

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٣٢٤/١-٣٢٥) .

قالوا: "يا محمد ... إنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألنك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم - صلوات الله وسلامه عليه - : "ما بهذا بعثت إليكم من الله، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم "، قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سلْ ربك لك جنانا وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك به عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم [1]... إلخ الخبر .

وفي مقابل ما طلبوه رد الله - عز وجل - عليهم بقوله: (قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)، فكلمة (يُنَزِّلَ) أكدت - بتضعيفها - قدرة الله - تعالى - على تنزيل الآية. وأوحت مع هذا بالتكثير؛ أي أنه - عز وجل - قادر على أن ينزل الكثير من الآيات المعجزات، وليس ثمة ما يحول بينه وبين ما يريد، لكنه - سبحانه - لحكمته لم يفعل،وهو الذي كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه. فلو أنه نزل عليهم ما طلبوه، ثم لم يؤمنوا لحق عليهم سخطه وعذابه. ومما فيها - أيضاً - من إيحاء أن هذا القرآن الذي ينزل عليهم متدرجاً هو آية تطرق بتنزلها المتكرر آذانهم، فتهز بقوتها وعظمتها من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فتكفيه دليلاً على صدق دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي بعث بها. ثم هي - أيضاً - تدعوهم في كل حين إلى المبارزة، وتتحداهم ببلاغتها وإعجازها[2] ..، فما من منكر إلا وهامة

---

(١) السيرة النبوية (٣٢٥/١) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (١٠٣/٧) .

بلاغته تتقازم أمام عظمة آيات القرآن .. أفلم تكفهم هذه الآية التي تتلى عليهم ليلاً ونهاراً..؟!. بلى، والله إنها لتكفي، لكن موقف أولئك الأقوام لا يتغير؛ إنه الكبر، والعناد، والإعراض!. ومن ذلك – مثلاً – ما حكي عن عتبة بن ربيعة من أنه ذهب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وعرض عليه الدنيا وما فيها على أن يترك هذا الدين والدعوة إليه ..، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع منه، قال: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟"، قال: نعم؛ قال: "فاسمع مني"، قال: أفعل، فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (حم۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ)[فصلت:١- ٥]، ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك ".

وعندما عاد عتبة لأصحابه، قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ...، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه !؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم (١).

فكانت المماطلة في قبول الحق، واشتراط الشروط لذلك..!.

ومن أسرار النظم القرآني في الآية – غير ما تقدم – :

افتتاح مقولة الكفار بكلمة "لولا"، وهي حرف تحضيض بمعنى "هلاّ"، وتجري في كلام العرب عندما يرى المتكلم أن كلامه أهم في مقصود ما، أو أتم في مطلب ما.. ونحو

---

(١) ينظر : السيرة النبوية (٣٢٢/١) وما بعدها .

ذلك[١]. وقد ذكرت قبل هذه الآية دلائل على توحيد الله من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والتنبيه بحال من كذب وعاند .. إلى ما تبع ذلك من آيات يحتاج فيها إلى النظر، وإعمال الفكر، والاعتبار ..، فما كان من أولئك المكذبين إلا أن طلبوا آية تبهرهم، ولا ترهقهم بكثير نظر وتأمل ..! فافتحوا مطلبهم – فيما ذكر عنهم – بأداة "لولا" التحضيضية؛ لإظهار الحرص والاهتمام بمطلبهم [٢].

ثم أتوا بالفعل "نزل" – كما قيل آنفاً – مشدداً؛ للتأكيد. وقالوا: (آيَةٌ) بالإفراد، ولعل ذلك للدلالة على أن آية واحدة مما طلبوا منه – عليه الصلاة والسلام – لو أنزلت عليهم، فستكفيهم؛ من تفجير الأرض ينبوعاً، أو إنزال ملك، أو أن تكون له – صلى الله عليه وسلم – جنة ... إلى غير ذلك[٣]؛ فالإفراد أفاد التعميم .

لكن هل كان أولئك الكفار جادين حقاً فيما طلبوه ..؟!. إن ذلك الحرص الذي حاولوا إظهاره بكلمة "لولا"، والتأكيد في كلمة (نُزِّلَ)، والرضى بأي معجزة كانت، والذي دلت عليه كلمة (آيَةٌ) كل ذلك لا يمكنه بحال من الأحوال أن ينسف سجلاً سودوه بالدسائس والفتن في محاولاتهم للقضاء على نبي الإسلام – عليه الصلاة والسلام –، ووأد دعوته في مهدها..!. كل ما هنالك أنهم أرادوا أن يلتمسوا لأنفسهم عذراً؛ يرفعونه في وجه كل من ينكر عليهم إصرارهم على الشرك، وإعراضهم عن الإيمان بالله – تعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .

وفي إضافة كلمة "رب" إلى ضميره – صلى الله عليه وسلم – ما ينطق بإنكارهم لنبوته – عليه الصلاة والسلام –؛ إذ فهم منها أنهم يريدون آية من المحسن إليه على حد ما يزعم..![٤]. ثم إن إيحاءها يكشف ما تكنه صدورهم من عميق غل، وحسد، وحقد على النبي – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) ينظر : ملاك التأويل (٤٥٠/١) .
(٢) ينظر : المرجع السابق (٤٥١/١) .
(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٤) ينظر : نظم الدرر (١٠٣/٧) .

إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما يتردد في صدورهم، ويعلم موقفهم من الآية لو نزلت، ويعلم أي عقاب ينتظرهم إن هم كذبوا ا؛ لذا قال ـ سبحانه ـ مؤكـداً في الجواب على قدرته :

(قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)، فأكدت الجملة بـ "إن" المشددة، وبالجملة الاسمية، التي تدل على الاستمرار والثبات، وبالاتيان بفعـل "يـ ل" بتشديده الذي أفاد ـ كما ذكر آنفاً ـ التأكيد، والتكثير. أمـا تـنكير (آيَةً)؛ فلتهويل شأ ا وتفخيمه[1]، والتصريح باسم الجلالة "الله" ؛ لتربية المهابة في الصدور، مع ما فيه من إشعار بعظم القدرة الإلهية الباهرة [2].

فكل كلمة وجملة مما سبق تتآزر؛ لتؤكد الحقيقة التي لا ينكرها إلا مكابر، أضله الله، وأعمى بصره؛ وهي قدرة الله ـ عزوجل ـ على تـ يل ما يشاء مـن الآيـات، ولا راد لقدرته .

وفي الاستدراك بقوله تعالى: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) تنبيه إلى أن أكثر الذين يطلبون آية خارقة لم يفطنوا إلى حكمه الله ـ عزوجل ـ في عدم مجيئها، ولا إلى سـنته في تعجيل العقوبة بمن كذب ا، كما فعل ـ سبحانه ـ بالأمم السابقه، التي سألت نبيها آية، ولم تؤمن، قال تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً)[الإسراء:٥٩]. فهـو ـ سبحانه ـ يعلم أن هؤلاء ـ أعني قوم نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيكذبون ا بعـد وقوعها ـ كما فعل من قبلهم ـ، فيحق عليهم الهلاك، بينما يريد الله ـ ـ تعالى ـ أن يمهلهم ليؤمن من يؤمن، ومن لم يؤمن استخرج ـ عزوجل ـ من صلبه ذريـة مؤمنـة؛ لا تشرك بالله شيئاً[3] .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٠/٣) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٢)، و: في ظلال القرآن (١٠٧٩/٢) .

وفي الآية إشارة إلى أن منهم من يعلم ذلك إلا أنه يكابر لعلة في نفسه، ويظهر أن الاستدلال بصدق نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتم عنده إلا على نحو ما اقترحوه[١].

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام:١٢] .

لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تصريفه فيمن أهلكهم ؛ لتكذيبهم رسله ـ عليهم السلام ـ ، أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يسأل قومه المكذبين به: (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) الآية؛ فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم[٢] .

والغرض من الآية؛ هو تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد، وتقرير النبوة [٣].

وفي افتتاح الآية الكريمة بكلمة "قل" بجرسها القوي إيحاء بعلية هذا الأمر ؛ وبأهمية ما بعده[٤]. فحين أنكر كفار مكة التوحيد، والبعث، والنبوة؛ أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يذكر لهم ما يدل على حقية هذه المطالب الثلاثة بحجة ساطعة، وبرهان قطعي، لا مدافعة له عندهم، و بذا تقوم الحجة عليهم[٥]، وقد أتى ذلك بصيغة الاستفهام؛ قال تعالى: (لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) ؟!.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٢/٦) .
(٢) ينظر : البحر المحيط (٨١/٤) .
(٣) التفسير الكبير (٤٧٨/٤) بتصرف .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٠/٦) .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٢/٦)، و: حاشية زادة (١٥٤/٢) .

والاستفهام هنا للتقرير والتبكيت[1]؛ والتقرير هو: "حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه"[2]. فالمراد تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال ما يعتقدونه من شرك بالله[3]، عن طريق الاحتجاج عليهم بما يؤمنون به؛ وفي ذلك يقول تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[لقمان:٢٥]، ويقول - أيضاً- : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [العنكبوت:٦١] .

فهذا السؤال: "لمن ما في السموات والأرض"؛ سؤال لا يسعهم أن يجيبوا عنه إلاّ بالإقرار، والاعتراف بأن جميع ذلك "لله"، وتحت تصرفه وقدرته. والاعتراف بذلك يستلزم الاعتراف بوحدانية الصانع الحكيم القادر، والاعتراف به يستلزم الاعتراف بصحة الإعادة بعد الموت؛ لأن من قدر على الإبداء .. قادر على الإعادة. ومن خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى. كما أنه يستلزم الاعتراف بحقية إرسال الرسل؛ لأن الصانع الحكيم لا يصدر عنه مثل هذه المصنوعات عظيمة الشأن إلا لحكمة وعاقبة، وذلك يستدعي أن يبتلي عباده، ويكلفهم بالأوامر والنواهي؛ ليظهر المطيع من العاصي، ويجازي كلاً بما يستحق. وهذا التكليف لا يكون إلا بمبلغ يبلغ أحكامه إلى عباده، فدل ذلك على أن إرسال الرسل مما تقتضيه الحكمة. فالاعتراف بأن ما في السموات والأرض لله يستلزم الاعتراف بحقية تلك المطالب الثلاثة [4].

ومن أسرار النظم القرآني في الآية :

تقدم المعمول في قوله تعالى: (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)؛ ولعل ذلك اهتماماً بالمعبود ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظيماً لشأنه[5] .

---

(١) ينظر : الكشاف (٥/٢)، و: البحر المحيط (٨١/٤) .

(٢) شرح السعد على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص (٢٩٤/٢) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٠/٦) .

(٤) ينظر : حاشية زادة (١٥٤/٢) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (٣٠/٧) .

وفيها إيجاز لطيف؛ فباسم الموصول "ما" تم احتواء جميع ما في السموات وما في الأرض من كائنات؛ من العقلاء وغيرهم (١).

ومن لطائف التعبير في الآية أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل قومه، ثم أمره ـ سبحانه ـ أن يجيب عن ذلك السؤال دون أن ينتظر منهم رداً عليه. ولعل هذا مما يدفع القارئ لئن يتساءل عن السر في هذا ..!.

وأجاب بعض المفسرين عن ذلك، ومما قالوه :

١- أن الله ـ عز وجل ـ أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجواب عقيب السؤال؛ ليكون هذا أبلغ في التأكيد، وآكد في الحجة (٢).

٢- لأن الجواب بلغ الغاية في الظهور، فلا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع (٣).

٣- أن أمره ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه للتصدي للإجابة؛ ليكون هذا أول من بادر إلى الاعتراف بتلك الحقيقة(٤). وفي هذا إيحاء بانقياده ـ عليه الصلاة والسلام ـ لله بالطاعة، وخلوصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الشرك وأهله .

واللام في قوله تعالى : (لِلَّهِ) للملك؛ وقد أشارت إلى أن عبودية الناس "لله" دون غيره؛ وإلى أن غير الله ـ تعالى ـ ليس أهلاً للإلهية؛ لأن غيره ـ جل وعلا ـ لا يملك ما في السموات والأرض؛ لأن ملك ما فيهن لمن خلقهن، وفي هذا إنذار بعظيم غضبه ـ عز وجل ـ على من أشرك به(٥) .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٥/٣) .

(٢) ينظر : معالم التنزيل (٨٧/٢) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٨/٤) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٨١/٤) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٦) .

ثم إنه ـ تعالى ـ لما حقق كمال ألوهيته، وقرر أمر النبوة، والمعـاد أردف بـذكر كمال رحمته بخلقه[(١)]؛ فقال:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)، والجملة مستقلة داخلة تحت الأمر[(٢)]، وقد تكون معترضة بين جملة الجواب وما بعدها؛ وهـي قولـه: (ليجمعنكم ليوم لا ريب فيه)[(٣)].

وعلى كُل فإن لورود هذه الجملة إيحاءات؛ منها :

١- لما كان ما بعد هذه الجملة مشعراً بالإنذار والوعيد؛ أشير إلى رحمة الله ـ تعالى ـ ؛ استعطافاً منه ـ جل وعلا ـ للمعرضين عنه، وتأنيساً لهم، وإزالة يأسهم من رحمة الله ـ تعالى ـ ، فباب التوبة ما زال مفتوحاً أمام التائبين من الشرك، ومما لا يرضاه الله من معاصي[(٤)] .

٢- أن قوله تعالى: (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ) فيه تمهيد لما في جملة: "ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه" من وعد، ووعيد ..؛ فكان في ذكر رحمة الله ـ تعالى ـ تعجيل بشارة للمؤمنين[(٥)] .

٣- أن فيها إيماء إلى أن الله ـ عزوجل ـ قد نجى الأمة المحمدية من عذاب الاستئصال، الذي عذب به الأمم المكذبة برسلها من قبل، وذلك ببركة نبي الرحمة المهداة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ إذ جعله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[الأنبياء:١٠٧]، وهذا يستدعي مزيد شكر وحمد لله. ومما أنه ـ سبحانه ـ قد قدر أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان كان من حكمته ـ سبحانه ـ إمهال المعاندين له والجاحدين[(٦)].

---

(١) حاشية زادة (١٥٤/٢) بتصرف .

(٢) إرشاد العقل السليم (١١٥/٣) بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير (١٥١/٦) بتصرف .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٥/٥)، و: المحرر الوجيز (١٣/٦)، و: التحرير والتنوير (١٥١/٦).

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٦) .

(٦) ينظر : المرجع السابق (١٥٢/٦) .

والمعنى (كتب) عند المفسرين عدة معان؛ منها:

١- أن (كتب) هنا بمعنى قضى؛ أي أنه ـ عز وجل ـ قد قضى في خلقه أن رحمته وسعت كل شيء[١].

٢- أنها بمعنى الوعد، فهو ـ جل وعلا ـ وعد وعداً هو كالمكتوب الذي ختم وأكد غاية التأكيد[٢].

٣- أن المعنى أوجبها على ذاتة المقدسة بطريق التفضل والإحسان [٣].

٤- أن (كتب) هنا على ظاهرها وحقيقتها؛ بمعنى أنه ـ تعالى ـ كتب على نفسه كتاباً " أن رحمته تغلب غضبه"[٤]. وفي صحيح البخاري ما يؤيد هذا القول؛ فعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: "لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه . وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش؛ إن رحمتي تغلب غضبي"[٥]. وهذا يعني أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لكرمه، وفضله، وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعلها سابقة لغضبه؛ قال تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ)[فاطر:٤٥]، لكنه برحمته وحلمه قضى أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى[٦]. وفي هذا "رد على المعتزلة القائلين بأن الرحمة واجبة عقلاً على الله يستحيل تخلفها، إذ هو نقض، والنقض عليه محال."[٧].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٥/٥)، و: معالم التنزيل (٨٧/٢)، و: المحرر الوجيز (١٢/٦) .

(٢) نظم الدرر (٣٠/٧) بتصرف .

(٣) إرشاد العقل السليم (١١٥/٣) بتصرف .

(٤) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٧٨/٣) .

(٥) صحيح البخاري . كتاب: التوحيد . باب: قول الله تعالى: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) [آل عمران:٢٨]. (١٤١٠) حديث رقم (٧٤٠٤) .

(٦) ينظر : شرح العقيدة الواسطية (٢٥١/١) .

(٧) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦/٢) .

ومن دقائق التعبير القرآني؛ عدم ذكر متعلق الرحمة مما أفاد التعميم؛ فتكون رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عامة تعم المحسن والمسيء [١].

فالرحمة صفة ثابتة لله ـ تعالى ـ في الكتاب والسنة، ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، أو وصفه نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سنته من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل؛ وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ، وممن خالفهم في ذلك بعض الأشاعرة .. وغيرهم؛ فأنكروا أن يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ متصفاً بالرحمة؛ وحجتهم في ذلك: أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة، وتألم على المرحوم؛ لذا قالوا: المراد برحمة الله: إرادة الإحسان، أو الإحسان نفسه[٢]. وهذا باطل من وجوه؛ منها :

الأول: أن الضعف والخور مذمومان من الآدميين، بينما الرحمة ممدوحة؛ فالله ـ جل وعلا ـ يقول: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)[البلد:١٧]، وفي المقابل ي ـ سبحانه وتعالى ـ عباده عن الوهن والحزن؛ فقال: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[آل عمران:١٣٩]، وند م إلى الرحمة. فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في الحديث الصحيح: "لا ت ع الرحمة إلا من شقي"[٣]. وقال: "من لا يرحم لا يرحم"[٤]. ومحال أن يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لا ي ع الضعف والخور إلا من شقي. لكن لما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور ـ كما في رحمة كثير من النساء .. ونحو ذلك ـ ظن الغالط أ ا كذلك مطلقاً..![٥].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٨١/٤) .

(٢) ينظر : شرح العقيدة الواسطية (٢٥٦/١) .

(٣) رواه أبو داود في سننه . كتاب: الأدب . باب: في الرحمة . (٧٤٧) حديث رقم (٤٩٤٢) . والحديث حسنه الألباني؛ ينظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته . (١٢٤٣/٢) حديث رقم (٧٤٦٧) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه . كتاب: الأدب . باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته . (١١٦٢) حديث رقم (٥٩٩٧) .

(٥) ينظر : مجموعة الفتاوى (٦٩/٦) .

الثاني: لو قدر أ ا في حق المخلوقين مستلزمة الضعف ..، لم يجب أن تكون في حق الله ـ تعالى ـ مستلزمة لذلك؛ لأ ا صفة؛ وهي في كل موصوف بحسبه؛ فإن كان الموصوف حيواناً ـ مثلاً ـ فرحمته من جنسه، وإن كان ملكاً فرحمته تناسب ذاته، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة، لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق ..، وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم، والقدرة، و السمع..إلخ، فلو نظر ذلك المنكر للعلم، أو القدرة، أو السمع أو البصر، أو الكلام ... لوجدها فينا تستلزم من النقص والحاجة ما يجب تـ يه الله ـ تعالى ـ عنه، فكذلك الرحمة إذا قدر أ ا في حقنا ملازمة للحاجة والضعف ..، لم يجب أن تكون في حق الله ـ تعالى ـ ملازمة لذلك[1] .

الثالث: أن قول القائل: الرحمة إرادة الإحسان؛ يلزم منه أن إرادته ـ سبحانه وتعالى ـ الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم، فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها، وهو إرادة الإحسان[2]. فالرحمة صفة ثابتة لله ـ جل وعلا ـ في الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل ومن حرفها، أو عطلها، أو كيفها، أو مثلها فقد خالف صحيح النقل، والعقل[3].

ومن رحمته ـ جل وعلا ـ بعباده أنه لم يتركهم هملاً، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، بل بعث إليهم رسله ـ عليهم السلام ـ مبشرين ومنذرين، وأنزل كتباً مبنية لأحكام الدين، وختم الرسالات بالإسلام، والأنبياء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وحين قبضه إليه، ترك في أمته ما إن تمسكت به لن تضل أبداً كتاب الله، وسنة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ومن رحمته إمهال العاصي والكافر حتى يتوب، ومن رحمته وعدله نصب

---

(١) ينظر : مجموعة الفتاوى (٦٩/٦-٧٠)، ومختصر الصواعق المرسلة (٢٩٩/٢) .

(٢) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة (٣٠٣/٢) .

(٣) وللاستزادة ينظر : المرجع السابق (٢٩٤/٢)، وما بعدها، و: شرح العقيدة الواسطية (٢٤٨/١) وما بعدها، و: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢٢٠/١) وما بعدها .

الموازين مازة المحسن من عباده والمسيء؛ لذا أردف ـ تعالى ـ بعد ذكر رحمته، بذكر يوم القيامة؛ فقال: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) .

والجملة استئناف مسوق للوعيد والترهيب بعد الترغيب؛ أي إن هو ـ تعالى ـ أمهلكم برحمته، فهو مجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم يوم جمعكم [(١)].

وقيل: هي استئناف بياني؛ كأنه قيل: وما مقتضى هذه الرحمة وما موقعها من موضوع دعوة الرسالة؟، فقيل: ليجمعنكم إلى اليوم الذي كذبتم به للحساب والجزاء[(٢)].

واللام في (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) موطئة لقسم محذوف؛ تقديره: والله ليجمعنكم[(٣)]. ولأن المشركين كانوا ينكرون يوم القيامة أيما إنكار أكدت هذه الجملة بالقسم، ونون التوكيد الثقيلة؛ لإثبات يوم القيامة، وأن وقوعه كائن لا محالة، وفي هذا تحقيق للوعيد[(٤)] .

ومما آزر جملة القسم ونون التوكيد الثقيلة في تأكيد ما سبق أسلوب الالتفات ببلاغته؛ فوروده في الآية أفاد ـ أيضاً ـ تأكيد الوعيد والتهديد؛ فالكلام في قوله تعالى: (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلّهِ) انتظم في الآية بلفظ الغيبة، و: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) انتظم على سبيل المخاطبة، فكأنه قيل: لما علمتم أن كل ما في السموات والأرض لله وملكه، وقد علمتم أن الملك الرحيم لا يهمل أمر رعيته، ولا يسوي بين المطيع والعاصي، فهلاّ علمتم أنه يقيم القيامة، ويحضر الخلائق يحاسبهم على كل ما قدموه ..؟![(٥)].

ومن الإيحاء في الجملة ما توحيه كلمة (لَيَجْمَعَنَّكُمْ)، و(الْقِيَامَةِ)؛ إذ تجعلان الخيال ينطلق محلقاً في سمائها، ويتنقل في فضاءا ما الرحبة ..، مستوح من خلال ذلك إيحاءات

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٥/٣)، و: فتح القدير (١٠٣/٢) .

(٢) ينظر : فتح القدير (١٠٣/٢) و: تفسير القرآن الحكيم (٣٢٧/٧) .

(٣) ينظر : معالم التنزيل (٨٧/٥)، و: حاشية الصاوي (٦/٢) .

(٤) ينظر : معالم التنزيل (٨٧/٥)، و: حاشية الصاوي (٦/٢) . و: التحرير والتنوير (١٥٣/٦) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٤٩٠/٤) .

مؤثرة ..!. فهذا مشهد الأمم جمعاء؛ من شتى بقاع الدنيا، وهي تقوم لرب العالمين، تجمع أجزاؤها المتفرقة جزءاً جزءا، وتساق إلى أرض المحشر أفواجا ..؛ كأ م جراد منتشر، أو كالفراش المبثوث .. وكل ذلك مما يوحي بما عليه الخلق يومئذ من انتشار، واضطراب، وازدحام ..؛ كما يوحي بعظمة ذلك اليوم وهوله؛ وبعظمة الله ـ عز وجل ـ الذي جمع؛ وبقدرته التامة ..، وهذه العظمة والقدرة توحيان بضآلة هذا الإنسان الذي طغى وتجبر، وبارز الله العظيم بالذنوب، التي أعظمها الشرك به ـ تعالى ـ فأين المفر من هذا اليوم أيها المنكرون ..؟!؛ يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، وجوه يومئذ خاشعة؛ عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية، ووجوه ناعمة ، لسعيها راضية، هي في جنة عالية.. .

وأكدت جملة "ليجمعنكم إلى يوم القيامة" بقوله تعالى: (لاَ رَيْبَ فِيهِ)؛ والضمير في "فيه" عائد على يوم القيامة، أو على فعل الجمع[1]، والذي يظهر عوده على يوم القيامة؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأن الإيمان ـذا اليوم يقتضي الإيمان بما فيه من نشر، وحشر، وحساب، وجزاء .. .

ومعنى (لاَ رَيْبَ فِيهِ)؛ أي: لا شك فيه، فالريب هو الشك، بل إن ابن تيمية اقترب أكثر من هذه الكلمة، ودقق في معناها؛ فقال: "الريب؛ حركة النفس للشك"[2].

وربما يثير قوله تعالى: (لاَ رَيْبَ فِيهِ) بمعناه الدقيق سؤال سائل؛ وهو كيف قيل: إن يوم القيامة لا ريب فيه مع أن الكافرين لم يكونوا يؤمنون به جملة وتفصيلا؛ بدلالة انغماسهم في ملذات الدنيا الفانية، وركو م لهذه الحياة، وإعراضهم عن قبول دين الإسلام ..؟!.

الجواب عن ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن الحق حق وإن ارتاب فيه المرتابون، وإن جحده الجاحدون، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقل: (لاَ رَيْبَ فِيهِ) إلا لأنه ـ عز وجل ـ قد أقام من البراهين والحجج الدامغة ما يجعله حق اليقين؛ براهين تدفع أدنى درجات الشك، فما الظن بالشك نفسه، فضلاً على التكذيب ..؟!، وهي مبثوثة في الكون؛ وهي

---

(١) ينظر : فتح القدير (١٠٣/٢) .

(٢) مجموعة الفتاوى (٣٣٨/٥) .

أكثر من أن تحصى ..، تخرق أعين المكذبين صبحاً ومساء ..، لكن أبى الظالمون إلا جحوداً ..![1].

ثم إن إنكارهم لقدرة الله ـ جل وعلا ـ على بعث الخلائق بعد الموت كلفهم شيئاً عظيماً؛ وهو الخسارة؛ خسروا دنياهم وآخرتهم؛ قال تعالى خاتماً الآية: (ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ) .

والجملة تذييل لما سبق؛ سيقت لتقبيح حالهم، والجملة غير داخلة تحت الأمر[2] .

والذين خسروا أنفسهم؛ هم العادلون بربهم الأصنام، والمعنى: إنهم أضاعوا فطرهم التي فطروا عليها، وأضاعوا عقولهم السليمة [3].

ومن دقائق التعبير في النظم القرآني؛ عدم تقييد إيمانهم في قوله: (فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ) بشيء، بل أطلق؛ ليشمل كل أركان الإيمان بتفاصيلها؛ من إيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر بخيره وشره.

ومن اللطائف البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ) إذ إن أصل الخسار الغبن، يقال: خسر الرجل في البيع، إذا غبن[4]؛ فهم أضاعوا أنفسهم كما يضيع التاجر رأس ماله، فالخسران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع، وهؤلاء عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم؛ من عقل سليم وفطر سليمة، وذلك باتخاذهم الأصنام آلهة، وإشراكهم بالله ـ جل وعلا ـ، وإعراضهم عن التدبر في صحة ما دعوا إليه من إيمان بالله ورسوله، فأضاعوا أنفسهم، وحرموا بذلك الفوز بالعاجل والآجل[5]. وهذه الخسارة توحي بالحرمان، والشقاء، والحزن، والتحسر، والهم .. الذي ينال تلك النفوس التي سلبت كل ما يسمو به أهل الإيمان .

---

(١) ينظر : مجمع البيان (٤٣١/٤)، و: تيسير الكريم الرحمن (٣٧٨/٣) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٥/٢) .

(٣) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣٩٥/٢) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٧/٥) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٤/٦) .

وللإيحاء شواهد في قوله تعالى :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)**[الأنعام:٧٠] .**

والآية معطوفة على جملة: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)**[الأنعام:٦٨]، أو على جملة:** (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ)**[الأنعام:٦٩]، وهذا حكم آخر غير حكم الإعراض عن الخائضين في آيات الله؛ ولذلك عطفت عليه [١].**

وقيل إن قوله تعالى: (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) **توكيد للأمر الذي أمر به النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ**، من اجتناب المشركين بقوله تعالى:** (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) **[الأنعام:٦٨][٢] .**

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ **أمر نبيه** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **أن يترك من كان موصوفاً بصفتين[٣]؛ هما :**

الأولى: **أن يكون من صفتهم أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً؛ قال تعالى:** (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا)**؛ فمن الإيحاء ما توحيه كلمة** (اتَّخَذُواْ)**؛ فإتيانها على صيغة الافتعال، بما توحيه هذه الصيغة من تكلف وثقل، أوحى للقارئ بأن أولئك الذين اتخذوا**

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٤/٧) .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢١٢/٢) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٢٣/٥) وما بعدها .

دينهم لعباً ولهوا قد كلفوا أنفسهم، وشقوا عليها حين خالفوا بفعلتهم تلك فطرهم التي فطرهم الله ـ جل وعلا ـ عليها، كما خالفوا عقولهم السليمة [١].

وفيها إيحاء آخر؛ فوصفهم بأ م اتخذوا الدين الذي هو فطرة راسخة في النفس، وهو أشرف ما عند الإنسان؛ بأ م اتخذوه لعباً فيه إيحاء بضلالهم، وغفلتهم، وقلة شأ م، ودنو همتهم، مع ما فيه من ذم شنيع لهم؛ لأن اللعب ضد الدين؛ إذ لا شيء أسرع من انقضائه، ولا أوهى من بنائه، ولا أحق للمروءة منه. كما أن فيها إيحاء بأ م بدلوا مقصود هذه السورة العظيم، الذي هو الاستدلال بالفطر والعقول على التوحيد، الذي لا أشرف منه مطلقا، بدلوا به ما هو أدنى وهو اللعب .. فحالوا بين أنفسهم وبين أنوار الهداية بطمسهم لبصائرهم والله ـ تعالى ـ أعلم[٢] .

ولكن أما كان من الممكن الاكتفاء بذكر "اللعب" دون "اللهو" في قوله: (اتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبًا وَلَهۡوًا) للدلالة على المراد؟!.

والجواب ـ والله تعالى أعلم ـ أن في ذكرهما معاً مزيد ذم لهم؛ إذ إن كلمة "اللهو" توحي بأ م كلما ملوا اللعب بعثوا النفوس إليه باللهو؛ فالكلمتان تشيران إلى أ م في لعب مستمر[٣]، وهذا لتمكن الضلال منهم.

أما كيفية اتخاذهم لدينهم لعبا ولهوا؛ فلهذا صورتان، قد تكون إحداهما هي المقصودة في الآية، أو كلاهما؛ وهما[٤]:

١- أن تكون عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم السوائب والبحائر ... وغير ذلك من قبيل اللعب واللهو، واتباع هوى النفس، والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل لا الجد .

٢- أ م اتخذوا دينهم الذي كلفوه، ودعوا إليه؛ وهو دين الإسلام لعبا ولهوا بالسخرية والاستهزاء به .

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٤٧/٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . (١٤٨/٧) .

(٣) ينظر : السابق . نفسها .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢٨/٥)، و: الكشاف (٢١/٢) .

والصفة الثانية: **هي الاغترار بالدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. وذكر ﴿الْحَيَاة﴾ أوحى أن همهم وغاية مرادهم من هذه الدنيا هو الحياة فيها، والتمتع بملذا ا الزائلة، والركون إليها، لا الحرص على اكتساب الخيرات، التي تحصل ا سعاد م في الدنيا والآخرة[(١)]، فأنكروا بركو م إليها البعث، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩][(٢)] .**

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي ذكر بالقرآن الكريم[(٣)]، فالهاء في "به" عائدة على القرآن؛ لدلالة المقال؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥]؛ ولدلالة الحال لأنه هو الذكر الذي بعث به الرسول المذكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ **[(٤)].**

ومن أسرار النظم القرآني في الآية :

الإيجاز بالحذف؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ﴾؛ فقد حذفت "لا" من الجملة؛ لدلالة الكلام عليها؛ والتقدير: "أن لا تبسل" ـ أولئلا ـ ؛ كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، والمعنى هنا: وذكرهم به ليؤمنوا بما جاء من عند الله من الحق، فلا تبسل أنفسهم بما كسبت من الأوزار[(٥)] .

وتعددت تأويلات أهل التفسير لكلمة ﴿تُبْسَلَ﴾ في هذه الآية؛ وذلك يعود لثراء معاني هذه الكلمة؛ فمما قيل في معناها[(٦)] :

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٦/٧) .

(٢) ينظر : فتح القدير (١٢٩/٢) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢٨/٥) بتصرف.

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥١٩/٧) .

(٥) ينظر : .جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢٨/٥) .

(٦) ينظر : المرجع السابق (٢٢٨/٥-٢٢٩) .

أ ا بمعنى أن تسلم. وقال آخرون: بل معناها: أن تحبس. وقيل: أن تفضح. وقيل: أن تجزى .

وهذه الأقوال تكاد تكون متقاربة، ثم هي صالحة لهذا المقام؛ فهي توحي بأن كل من غرته دنياه ولم يستجب لداعي الإيمان، سيسلم للهلكة، ويحبس عن الخير، وير ن عن إدراك المطلوب، ويفتضح على رؤوس الخلائق، ويجازي بما اقترفت يداه من سوء[١] .

ومن اللطائف البلاغية الإتيان بكلمة "نفس" نكرة في سياق الإثبات، فأفاد هذا العموم؛ أي كل نفس؛ بقرينه مقام الموعظة[٢] .

وقوله تعالى: (لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ اللّٰهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٍ لاَّ يُؤۡخَذۡ مِنۡهَا) جمع فيها جميع ما تعارف الناس عليه في الجاهلية مما يتخلص به من القهر والغلب؛ وما هي؟. هي الناصر، والشفيع، والفدية[٣].

وفي الآية دلالة على أن كل نفس تأتيه ذلك اليوم، وهو تعالى عنها غير راض، فإ ا مبسلة بما كسبت من سيء أعمالها[٤]. وهذا فيه تحذير من الاستمرار في الشرك، والاغترار بالدنيا؛ وفيه تيئيس لكل مشرك من خلاصه من العذاب يوم القيامة .

وعطفت جملة "وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها" على جملة "ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع"[٥]؛ لما بينهما من تناسب؛ إذ كلاهما خبرية .

وقيدت الجملة بالشرط؛ باستخدام "إن" التي تفيد عدم تحقق حصول الشرط، ولعل السر في هذا أن الشرط المقيد بـ"إن" وهو "أن تفدى كل فداء"[٦] مفروض كما يفرض المحال[٧].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٢) .

(٢) ينظر : روح المعاني (١٧٦/٤)، و: التحرير والتنوير (٢٩٧/٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٩٨/٧) بتصرف .

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٢٠/٧) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٩٨/٧) بتصرف .

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣٠/٥) .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٨/٧) .

وفي الآية إبطال لأصل من أصول الوثنية، وهو تعليق النجاة في الآخرة ـ كما في الدنيا ـ بتقديم الفدية، أو بشفاعة الشافعين، أو بنصرة الناصرين ..، وتقرير أصل الدين الإلهي؛ وهو أن النجاة في الآخرة والظفر برضوان الله ـ تعالى ـ لا ينال إلا بالإيمان به ـ سبحانه وتعالى ـ رباً، وبإخلاص العبادة له وحده، واتباع ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1].

وأشير إلى "الذين إن فدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة كل فداء لم يؤخذ منهم"[2] بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ وكلمة "أولئك" يشار بها للبعيد؛ ولعل في التعبير بها في هذا المقام إيحاء بأن هؤلاء هم من المبعدين عن رحمة الله ـ تعالى ـ وعن مغفرته، وما أبعدوا ظلماً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ إنما هم الذين أوقعوا أنفسهم في هذا الإبعاد بإشراكهم بالله ـ عز وجل ـ .

ومن الوجوه البلاغية في الآية: القصر بتعريف الطرفين بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْۖ﴾؛ أي أولئك هم المبسلون لا غيرهم، فقصرت صفة الإبسال عليهم؛ وهو قصر حقيقي للمبالغة؛ لأن إبسالهم هو أشد إبسال يقع فيه الناس، فجعل ما عداه كالمعدوم[3].

و: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ استئناف بياني؛ فالجملة حملت جواباً لسؤال تضمنته الجملة السابقة؛ تقديره: ما جزاء أولئك؟! أو كيف يكون حالهم؟!؛ فقيل: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾؛ فلذا فصلت عما قبلها[4]؛ لما بينهما من شبه كمال اتصال .

وقد يكون السر في فصلها عما قبلها؛ لما بينهما من كمال اتصال؛ فتكون هذه الجملة بياناً لمعنى "الإبسال"، أو بدل اشتمال من معنى الإبسال [5].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٢١/٧) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣٠/٥) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٨/٧) .

(٤) ينظر : فتح القدير (١٢٩/٢)، و: تفسير القرآن الحكيم (٥٢١/٧) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٩/٧) .

ومن أسرار النظم القرآني في الآية؛ الإطناب بذكر العام بعد الخاص بقوله تعالى: (لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ) مما أفاد العموم؛ أي عموم العذاب الواقع عليهم وتنوعه، مع العناية بالخاص المذكور؛ وهو " لهم شراب من حميم" بذكره مرتين، الأولى منفرداً، والثانية مندرجاً تحت العام؛ وهو "وعذاب أليم" . وقبل بيان السر في العناية بذكر الخاص هنا، تحسن الإشارة إلى معنى قوله تعالى: (شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ)؛ فالحميم: "هو الحار في كلام العرب"[١]، والشراب الحميم: هو الماء الحار .. أحمي حتى انتهى غليانه[٢] .

أما السر في إفراد الشراب الحميم بالذكر؛ فلعل ذلك لأن الحار من الماء لا يروي من عطش، فكان أن أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أ م إذا استغاثوا للشراب في جهنم لم يغاثوا بماء يرويهم، ولكن بما يزيدهم عطشاً على ما م من عطش[٣]، يشوي من حرارته وجوههم، إلا أن العطش الشديد يلح عليهم، ويدفعهم قصراً لشربه، فيقطع به ما في بطو م ..[٤] .

ولهم العذاب الأليم بكل أشكاله، والهوان المقيم، بما كان من كفرهم بالله ـ جل وعلا ـ في دنياهم؛ وإنكارهم توحيده، وعباد م معه ـ تعالى ـ آلهة أخرى[٥] .

وعبر عن كفرهم بتقييد الجملة بـ "كان" الناسخة؛ ليدل على تمكن الكفر منهم واستمرارهم عليه[٦]، حتى أفسد عليهم فطر م، ولم يبق فيهم أي ميل ـ ولو يسير ـ للحق، فكان هلاكهم ووقوعهم في هذا العذاب الأليم[٧]. ففيه تحذير من التمادي في الكفر والشرك على شتى صوره؛ فالله ـ جل وعلا ـ وإن كان هو الغفور الرحيم، إلا أنه لا يغفر أن يشرك به شيئاً .

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣١/٥) .
(٢) ينظر : مجمع البيان (٤٩١/٤) .
(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣١/٥) .
(٤) ينظر : فتح الرحيم الملك العلاّم . (٨٤) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣١/٥) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩٩/٧) .
(٧) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٥١/٧-٥٥٢) .

ومن شواهد الإتحاء؛ قوله تعالى :

(لَهُمۡ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمۡ وَهُوَ وَلِيُّهُمۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) [الأنعام:١٢٧] .

ذكر الفخر الرازي في مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًا قَدۡ فَصَّلۡنَا الآيَاتِ لِقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ) [الأنعام:١٢٦] : "اعلم أنه تعالى لما بين عظيم نعمه في الصراط المستقيم،...، بين الفائدة الشريفة التي تحصل من التمسك بذلك الصراط المستقيم، فقال: (لَهُمۡ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمۡ)"[١] .

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن ما قبلها تثير في ذهن السامع سؤالاً تقديره: ما الأثر المترتب على تذكرهم بالآيات؟!؛ فقيل: "لهم دار السلام"[٢]؛ ففصلت عما قبلها لما بينهما من شبه كمال اتصال .

وللمفسرين في معنى "دار السلام" ـ فيما اطلعت عليه ـ قولان، لكل منهما إيحاءاته؛ وهما :

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبري عن السدي: "أن الله هو السلام، والدار الجنة"[٣]، وأكثر المفسرين على هذا القول [٤].

فالسلام اسم من أسماء الله ـ جل وعلا ـ؛ وهو بمعنى السلامة، والله ـ تعالى ـ أحق به من كل ما سواه؛ لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فله ـ سبحانه ـ الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك. والسلام يتضمن أموراً؛ منها :

- سلامة أفعاله من العبث، والظلم، وما يضاد الحكمة .
- سلامة صفاته من مشا ة صفات المخلوقين .
- سلامة ذاته من كل نقص وعيب .

---

(١) التفسير الكبير (١٤٦/٥) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٦٣/٨) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٢/٥) .

(٤) ينظر : معالم الت يل (١٣٠/٢) .

- **سلامة أسمائه من كل ذم .**

ومن بعض تفاصيل ذلك: أنه الحي الذي سلمت حياته من الموت، والسنة، والنوم، والتغير . القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب، والتعب، والإعياء، والعجز عما يريد . العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال ذرة، أو يغيب عنه معلوم من المعلومات .. وهكذا يقال في سائر صفاته. فاسم "السلام" يتضمن إثبات جميع الكمالات له ـ سبحانه وتعالى ـ، وسلب جميع النقائص عنه، وهذا معنى "سبحان الله ، والحمد لله". كما يتضمن إفراده بالألوهية، وإفراده بالتعظيم، وهذا معنى "لا إله إلا الله "، والله أكبر"؛ فانتظم في اسم "السلام" الباقيات الصالحات التي يثنى ا على الرب ـ جل جلاله ـ [١].

ففي إضافة الجنة لهذا الاسم تعظيم لها وتشريف[٢]؛ فجنة أضيفت إلى "السلام"؛ السالم من كل نقص وعيب وذم، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه؛ هذا ـ حتماً ـ مما يوحي بأن لهذه الجنة نصيباً وافراً من هذه الصفة؛ فهي سالمة من المنغصات والمكاره، وأهلها سالمون من كل ما يكره .

وفيها ـ أيضاً ـ إيحاء بأن عطاءه ومنعه ـ تباركت أسماؤه ـ سلام أن يقع في غير موقعه؛ وبأن مغفرته سلام أن تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة الناس، وإيحاء بأن رحمته وإحسانه، ورأفته وبره وجوده، وموالاته لأوليائه سلام أن يكون لحاجة منه إليهم، أو لتعزز م، أو تكثر؛ لأنه ـ تعالى ـ هو السلام من كل ما ينافي كماله المقدس بوجه من الوجوه[٣] .

٢ـ وقيل معنى "دار السلام"؛ أي: دار السلامة من الآفات؛ وهي الجنة[٤]؛ وفي سبب تسميتها بـ "دار السلام"؛ لأن جميع حالا ا مقرونة بالسلام؛ ففي ابتداء دخول

---

(١) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٩٥/٣) .

(٢) ينظر : الكشاف (٣٨/٢) .

(٣) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٩٦/٣) .

(٤) معالم التن يل (١٣٠/٢) بتصرف .

أهلها فيها، يقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾[الحجر:٤٦]، : ﴿وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ۞ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾[الرعد:٢٣-٢٤]. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا۞ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[الواقعة:٢٥-٢٦]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾[إبراهيم:٢٣]، وقال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨][(١)] .

وفي تسمية الجنة بـ "دار السلام" إشارة إلى أن السلامة الحق، والأمان الكامل فيها؛ فهي قرار أمن من كل مكروه للنفس[(٢)]. وفيها إيحاء بسلامة من دخلها من البلايا والرزايا [(٣)].

وذكر ابن القيم ـ ما معناه ـ : أنه لا تنافي أو تعارض بين تلك المعاني[(٤)]. إلا أنه قد يكون من التأدب مع الله ـ تعالى ـ الأخذ بالقول الأول؛ لأن الله ـ كما قيل سابقاً ـ هو "السلام"، وهو أحق ذا الاسم من كل ما سواه؛ ولأن القول الأول أبلغ في وصف الجنة، كما أن الجنة ـ والله تعالى أعلم ـ لن تفقد شيئاً من صفا ا لو أخذ به .

ومعتقد أهل السنة والجماعة في الجنة أ ا مخلوقة، وموجودة الآن، وأنكرت القدرية والمعتزلة ذلك، وقالت: بل الله ينشئها يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد القائل بالتحسين والتقبيح، والذي وضعوا به شريعةً لما يفعله الله ـ تعالى ـ؛ من أنه ينبغي له أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوا أفعاله على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهه في الأفعال، ودخل التهجم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ فإ ا تصير معطلة مدداً متطاولة ليس فيها سكا ا. فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب، أو حرفوها عن مواضعها وضللوا، أو بدعوا من خالفهم فيها [(٥)].

---

(١) ينظر : معالم التنـ يل (١٣٠/٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٦٤/٨) .

(٣) ينظر : معالم التنـ يل (١٣٠/٢) .

(٤) الضوء المنير على التفسير (٩٧/٣) بتصرف .

(٥) ينظر : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . (٣٧-٣٨) .

ومن النصوص التي أخذ منها أهل السنة والجماعة معتقدهم؛ قوله تعالى عن الجنة: (أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ)[آل عمران:١٣٣]، وقوله: (أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) [الحديد:٢١]، وقال تعالى: (وَلَقَدۡ رَآهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ۝ عِندَ سِدۡرَةِ الۡمُنۡتَهَىٰ۝ عِندَهَا جَنَّةُ الۡمَأۡوَىٰ)[النجم:١٣-١٥]؛ فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رأى سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى .

ومنها الحديث الذي رواه أنس بن مالك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قصة الإسراء، وفي آخره: "ثم انطلق بي [يعني جبريل ـ عليه السلام ـ] حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك"[١].

وحديث عبدالله بن عمر الذي جاء فيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: "إذا مات أحدكم، فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار." [٢] .

ومن اللطائف البلاغية في الآية؛ القصر في قوله تعالى: (لَهُمۡ دَارُ السَّلَامِ)؛ فتقديم الجار والمجرور أفاد الاختصاص؛ أي لهم دار السلام لا لغيرهم[٣]، والضمير في "لهم" عائد على القوم الذين يعتبرون بآيات الله ـ تعالى ـ، ويوقنون بما دلت عليه من توحيد الله ومن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ... وغير ذلك، ويصدقون بها[٤]. وفي هذا سوق بشارة للمتذكرين .

---

(١) صحيح البخاري . كتاب: الصلاة . باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء. (٩٠) . حديث رقم (٣٤٩) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب: بدء الخلق . باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة . (٦٢٢) حديث رقم (٣٢٤٠) . وللاستزادة ينظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤٤) وما بعدها، و: شرح العقيدة الطحاوية (٦١٥/٢) وما بعدها .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٤٦/٥)، و: التحرير والتنوير (٦٣/٨) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٢/٥) .

ومن بدائع النظم القرآني العدول عن إضافة كلمة "عند" لضمير المتكلم، وإضافتها إلى الاسم الظاهر؛ وفي هذا تشريف لهم بأن هذه عطية ممن هو مولاهم، فهي مناسبة لفضله وبره م ورضاه عنهم [(١)].

وتلحظ الدقة في اصطفاء الكلمة القرآنية؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ قال:(عِندَ رَبِّهِمۡ)، ولم يكن التعبير ـ في غير القرآن ـ: "عند الله" ولعل ذلك لمناسبة كلمة الرب للمقام؛ فهي توحي بمزيد تفضله ـ جل وعلا ـ وإنعامه عليهم، فهو الذي رباهم، وأحسن إليهم، "فوفقهم للإيمان به، والقيام بعبوديته، وغذاهم بمعرفته، ونمى ذلك بالإنابة إليه، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ويسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى "[(٢)].

وجملة "عند ر م" تشعر بأن هذه الجنة موصوفة بالقرب من الله ـ تعالى ـ، لكن الملاحظ على بعض المفسرين نفي القرب المكاني، وإثبات علو الشرف والرتبة؛ لأ م ينفون علو الذات عن الله ـ جل وعلا ـ، ويثبتون له علو القدر، وعلو القهر؛ فهذا الفخر الرازي يقول: "قوله: (عِندَ رَبِّهِمۡ) يشعر بأن ذلك الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله تعالى، وهذا القرب لا يكون بالمكان والجهة، فوجب كونه بالشرف والعلو والرتبة، وذلك يدل على أن ذلك الشيء بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يعرف كنهه إلا الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: (فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّا أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ)[السجدة:١٧]" [(٣)].

ثم أتى بعده ابن عاشور وألبس كلامه ثوباً بلاغياً؛ لاصطدام معتقده مع النص القرآني؛ فقال: "و(عند) مستعارة للقرب الاعتباري؛ أريد به تشريف الرتبة كما دل عليه قوله عقبه: (وَهُوَ وَلِيُّهُمۡ)، ويجوز أن تكون مستعارة للحفظ لأن الشيء النفيس يجعل في مكان قريب من صاحبه ليحفظه. فيكون المعنى تحقيق ذلك لهم، وأنه وعد كالشيء المحفوظ المدخر. كما يقال: إن فعلت كذا فلك عندي كذا تحقيقاً للوعد."[(٤)].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٨/٦٤) .
(٢) فتح الرحيم (٥٧) .
(٣) التفسير الكبير (٥/١٤٦) .
(٤) التحرير والتنوير (٨/٦٤) .

والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله ـ جل وعلا ـ قد "خلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن ـ عز وجل ـ فوق الماء، وأن الله ـ عز وجل ـ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع، وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحر،...، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نار، ونور، وظلمة، وما هو أعلم بها..."[١]. ذلك علو ذات الله، أما الجنة فسقفها عرش الرحمن؛ ودليل هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفيه قال: "إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ـ أراه ـ فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة"[٢] وفي رواية:"وفوقه عرش الرحمن"[٣].

ونقل ابن القيم عن بعض السلف ما نصه:

"قال صالح بن عبد الكريم، قال لنا فضيل بن عياض: "أتدرون لم حسنت الجنة؟؛ لأن عرش رب العالمين سقفها.".

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: "نور مساكنكم نور عرشه". وقال بكر عن أشعث عن الحسن: "إنما سميت عدن؛ لأن فوقها العرش، ومنها تفجر أنهار الجنة..."."[٤].

---

(١) **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٨٠) . وسيأتي ـ بإذن الله ـ الحديث عن علو الله ـ تعالى ـ المطلق بشيء من التفصيل في الفصل الثاني في مبحث الاسمية والفعلية من هذا البحث، ينظر:(٢٠٩ـ ٢١٥) .**

(٢) (٣) **صحيح البخاري . كتاب: الجهاد والسير . باب: درجات المجاهدين في سبيل الله . (٥٣٩) حديث رقم (٢٧٩٠) .**

(٤) **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (١١٥) .**

فمن أنكر شيئاً مما سبق فقد خالف الكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة من قوله براء.

ومن أسرار النظم القرآني في الآية؛ عطف جملة "وهو وليهم" على "لهم دار السلام"[(١)]؛ لما بينهما من تناسب، فكلاهما خبرية، الأولى إخبار عما أعده الله ـ تعالى ـ للمتذّكرين بآياته؛ والثانية "إخبار بأنه تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا"[(٢)].

وجاء في "معالم التنـزيل" أن معنى "وهو وليهم"؛ أي: "يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والآخرة بالجزاء"[(٣)]. وإن "هذا التولي الخاص يقتضي عنايته ولطفه بعباده المؤمنين، وأن الله يربيهم تربية خاصة، يصلحون بها للقرب منه ومجاورته في جنات النعيم؛ فيوفقهم للإيمان به وبرسله، ثم يغذي هذا الإيمان في قلوبهم وينميه، وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى، ويغفر لهم في الآخرة والأولى، ويتولاهم برعايته وحفظه"[(٤)]. وفي هذا إشارة إلى تمام المنة والتفضل عليهم [(٥)].

وفي تعريف المسند بالإضافة في قوله: (وَلِيُّهُمْ) إعلام بأن الله ـ تعالى ـ ولي القوم المتذكرين؛ ليعلموا عظم هذه المنة، فيشكروها، وليعلم المشركون ذلك فيغيظهم[(٦)]. كما أن فيه تشريفاً للمتذكرين .

وإذا كان قوله تعالى: (عِندَ رَبِّهِمْ) فيه إشعار بقربهم من الله ـ جل وعلا ـ ، فإن قوله تعالى: (وَهُوَ وَلِيُّهُمْ) فيه إشعار بقرب الله ـ عز وجل ـ منهم؛ وهذا التشريف ثمرة من ثمار التوحيد المذكور في قوله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء)[الأنعام:١٢٥]؛ وهو من ثمار التذكر بآيات الله؛ فهؤلاء الأقوام قد عرفوا من هذه الآية ـ وغيرها ـ أن

---

(١) التحرير والتنوير (٦٤/٨) بتصرف.

(٢) التفسير الكبير (١٤٧/٥).

(٣) معالم التنـزيل (١٣٠/٢) .

(٤) فتح الرحيم (٧٠) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٦٤/٨) .

(٦) ينظر : المرجع السابق (٦٥/٨) .

المقدر هو الله، وأنه هو النافع والضار، وهو المسعد والمشقي .. فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه، فما كان رجاؤهم إلا إليه، وما كان توكلهم إلا عليه، وما كان أنسهم إلا به، وما كان خضوعهم إلا له، فلما صاروا بكليتهم متعلقين به ..، لا جرم قال: (وَهُوَ وَلِيُّهُمْ)[1] .

ومن بديع الإيحاء في الآية ما جاء في قوله تعالى: (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)؛ ففي إضافة العمل إليهم إيحاء قوي بعظم فضل الله ـ عزوجل ـ ، وبواسع رحمته بعباده المؤمنين؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي دعاهم إلى الإيمان، وأعا م عليه، فآمنوا ودعاهم إلى العمل، وجزاهم عليه؛ ليذوقوا ثمرة عملهم، الذي هو من فضل الله ـ تعالى ـ وتوفيقه [2].

وآخر شواهد الإيحاء، الذي أختم به هذا المبحث؛ قوله تعالى:

(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [الأنعام:١٤٢] .

لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية؛ في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ...) أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية؛ فقال: (وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا) [3].

فالواو في الجملة عاطفة؛ عطفت الجملة على ما تقدم من قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ)[الأنعام:١٤١]؛ والتقدير: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا[4]. فعطفها على بعضها حسن لما بينهما

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٤٧/٥) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٠٨/٢) .
(٣) التفسير الكبير (١٦٥/٥) بتصرف .
(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

من تناسب؛ إذ كلاهما خبرية؛ الأولى إخبار عن إنعامه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده بالمنافع النباتية، والثانية إخبار عن إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية .

وكان من وجوه البلاغة في هذا العطف انسحاب القصر الذي في المعطوف عليه على هذه الجملة؛ أي هو الذي أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا لا آلهة المشركين، وهذا من قبيل قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي، فالمشركون كانوا ظالمين في جعلهم لأصنامهم حقاً في الأنعام [(١)].

ومن جمال التعبير القرآني تقديم الجار والمجرور وكان حقه التأخير؛ في قوله تعالى: (وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا)؛ ولعل ذلك لتسليط الضوء على "الأنعام"؛ لأهميتها، فهي المقصود الأصلي من سياق الكلام؛ وهو إبطال تحريم بعضها، وإبطال جعل نصيب منها للأصنام، أما قوله: (حَمُولَةً وَفَرْشًا) فذكرهما امتنان أدمج في المقصود؛ لما لهذا الامتنان من أثر واضح في إبطال تحريم بعضها؛ لأن ذلك التحريم الذي لا أصل له تضييق في المنة ونبذ للنعمة[(٢)]. والمراد بالأنعام الإبل، والبقر، والشاء، والمعز[(٣)] .

وفي قوله تعالى: (حَمُولَةً وَفَرْشًا) إيحاء لطيف؛ وبيان ذلك: أن الحمولة هي "ما أطاق الحمل والعمل"[(٤)] من الأنعام كالإبل، والبقر ...إلخ [(٥)]. والهاء في "حمولة" أُتي به للمبالغة[(٦)]. فهذه الأنعام التي تطيق حمل الأثقال، والتنقل بها من بلد إلى آخر، توحي بما هي عليه من قوة وشدة وصلابة .. تمكنها من تحمل أعتى الشدائد والصعاب. كما توحي بأنها ـ وهي القوية ـ تكون بين يدي الإنسان ضعيفة، ذليلة، طيعة، مسخرة له. وفي هذا تذكير بفضل الله ـ تعالى ـ ومنته الذي أنشأ وسخر، وهذا يستدعي من عباده الشكر، لا الكفران والشرك .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٤/٨) .

(٢) ينظر : المرجع السابق (١٢٥/٨) .

(٣) السابق .نفسها . بتصرف .

(٤) معاني القرآن (٣٥٩/١) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٢/٥) .

(٦) المحرر الوجيز (١٦٥/٦) بتصرف .

أما كلمة (فَرْشًا) فالشأن معها عجيب؛ إذ إن الدقة في اختيارها تنطق ببلاغة التعبير القرآني؛ فلقد دلت على معانٍ موحية، كلها مناسبة للمقام؛ وتلك المعاني ـ بحسب ما وقفت عليه ـ أربعة؛ هي:

١- "الصغار"[١] من الأنعام كلها؛ فصغرها يوحي بقر ا من الأرض .. حتى كأ ا كالفرش [٢].

٢- "الفرش؛ صغار الإبل التي تدرك أن يحمل عليها"[٣]؛ فهي تركب كما يفرش الفرش[٤].

٣- ما يفرش على الأرض للذبح [٥].

٤- ما ينسج من وبره، وصوفه، وشعره الفرش[٦] .

"ولفظ "فرشا" صالح لهذه المعاني كلها، ومحامله كلها مناسبة للمقام، ...، وكأن لفظ الفرش لا يوازيه غيره في جمع هذه المعاني، هذا من إعجاز القرآن"[٧] وهذه الكلمة بما حملته من معان توحي بعظم فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وتعدد نعمه على عباده؛ فهذه "الفرش" فيها دفء، ومنافع، ومنها يأكلون، ولهم فيها جمال حين يريحون وحين يسرحون وهو ـ جل وعلا ـ الذي أنشأها، وهو الذي سخرها، فهو الذي يحكم فيها بما يشاء .

ولهذا قال بعدها: (كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ). وخرج الأمر في قوله: (كُلُواْ) عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فهم

(١) معاني القرآن (٣٥٩/١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٥/٨) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٢/٥) .

(٤) التحرير والتنوير (١٢٥/٨) بتصرف .

(٥) ينظر : الكشاف (٤٤/٢) .

(٦) المرجع السابق . الصفحة نفسها . بتصرف .

(٧) التحرير والتنوير (١٢٦/٨) .

من السياق؛ وهو الإباحة[١]. ومناسبة الأمر بالأكل بعد ذكر الأنعام: أنه لما كان قوله: (وَفَرْشًا) يحمل معنى الذبح ـ كما تقدم ـ، عقب بالإذن بأكل ما يصلح للأكل منها. وخص الأمر بالأكل؛ لأنه المقصود من السياق إبطالاً لتحريم ما حرموه على أنفسهم، وتمهيداً لقوله: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) [٢].

ومن أسرار النظم القرآني؛ العدول عن التعبير بالضمير بأن يقال ـ في غير القرآن ـ: كلوا منها، إلى الإتيان بالموصول؛ بقوله تعالى: (مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ)؛ لما في صلة الموصول من الإيحاء إلى تضليل الذين حرموا على أنفسهم، أو على بعضهم الأكل من بعضها، فعطلوا على أنفسهم بعضاً مما رزقهم الله ـ تعالى ـ [٣]. وفيها ـ أيضاً ـ إزالة لما سنه المشركون في التحريم والتحليل من البحيرة والسائبة ... وغير ذلك[٤] .

والنهي عن تتبع خطوات الشيطان في قوله تعالى: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)؛ ي عن الشرك؛ ومن خطوات الشيطان في طريق الشرك أن يسول للإنسان تحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ من طيب الرزق، فيطيعه، ويعصي الرحمن[٥] .

وفي هذا النهي إيحاء بديع؛ ففي قوله: (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) إيحاء بأن شريعة الشيطان ـ إن صحت التسمية ـ ؛ شريعة الاندراس والزوال؛ عمرها مثل عمر آثار الخطو على الرمال، وما ذاك إلا لبطلا ا في نفسها؛ إذ لا أمر من الله يحييها، ولا كتاب يبقيها ..!. كما توحي كلمة "تتبعوا" بأن إصرار الفسقة والجهل على اقتفاء خطى الشيطان، وتتبعها .. لحظة بلحظة، وخطوة بخطوة؛ بأن ذلك الإصرار ـ والله أعلم ـ يرسخها ويحييها؛ لذا ورد النهي عن تتبع خطوات الشيطان [٦].

---

(١) ينظر : معالم التنزيل (١٦٦/٦) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٦/٨) .
(٣) ينظر : المرجع السابق (١٢٦/٨-١٢٧) .
(٤) ينظر : معالم التنزيل (١٦٦/٦) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٤/٥)، و: التحرير والتنوير (١٢٧/٨) .
(٦) ينظر : نظم الدرر (٢٩٣/٧) .

وعلل النهي السابق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وافتتاح الجملة بـ"إن" للاهتمام بالخبر. والمعنى: إن الشيطان عدو يبغي هلاككم، وصدكم عن سبيل الله ـ تعالى ـ، وقد أبان هذه العداوة وأظهرها بمناصبة أبيكم بالعداوة.. حتى أخرجه وزحزحه من الجنة [(١)].

ففي كلمة "مبين" إيحاء بقدم عداوة الشيطان للإنسان، وبعمق ما يحمله من حقد، وحسد، وغل لبني الإنسان، من خلق آدم وإسكانه الجنة .. حتى يومنا هذا ..!. وفي التذكير بهذه العداوة إثارة لمشاعر السامعين، وتحفيزهم لدرس خطى الشيطان، ودفع وسوسته عنهم ـ والله أعلم بمراده ـ .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧٤/٥) .

المبحث الثالث

الإفراد والجمع

الإفراد والجمع

الأصل في الأسماء الإفراد؛ لأن الأصل في المعنى أن يكون مفرداً. فيأتي اللفظ الدال عليه مفرداً؛ لأن اللفظ قالب المعنى ولباسه، وعلى هذا فإن الجمع تابع للإفراد[١].

ويعرف الجمع بأنه "ضم شيء إلى أكثر منه"[٢]. والغرض منه الإيجاز والاختصار؛ فالتعبير باسم واحد أخف من الإتيان بأسماء متعددة، وربما تعذر إحصاء جميع آحاد ذلك الجمع وعطف أحدها على الآخر[٣] .

ولما كان اللفظ المفرد هو الأصل، وكان الجمع تابعاً له، جعل له في الاسم علامة تدل عليه، وجعلت آخره قضاء لحق الأصالة في المفرد، والتبعية في الجمع[٤].

والجمع على ضربين : [٥]

١- جمع تصحيح: ويقال له: "جمع سالم"؛ لسلامة لفظ مفرده من التغيير. وهو نوعان: جمع مذكر ومؤنث .

٢- جمع تكسير: وقيل له: "مكسر"؛ لتغير بنيته عما كان عليها مفرده، فكأنك فككت بناء مفرده، وبنيته للجمع بناء ثانياً، فهو مشبه بتكسير الأبنية؛ لتغير بنيتها عن حال الصحة.

والقارئ إذا أنعم نظره في ألفاظ القرآن وكيفية إتيا ا في النظم، سيجد أن التعبير القرآني يؤتى فيه باللفظ المفرد دون جمعه، وتارة أخرى بالجمع دون مفرده، ولو حاول القارئ التغيير، أو إحلال أحدهما محل الآخر، لفسد التعبير، وذهبت حلاوته، وغاب

---

(١) ينظر : بدائع الفوائد (١/١٠٨-١٠٩) .

(٢) شرح المفصل (٥/٢) .

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها . بتصرف .

(٤) ينظر : بدائع الفوائد (١/١٠٩) .

(٥) ينظر : شرح المفصل (٥/٢-٣-٦) .

حسنه. ولو أعمل فكره فيها وفق ما انتظمت عليه في الذكر الحكيم، لوقع على أسرار عظيمة، ولطائف بديعة [١].

وفي هذا المبحث أقف وقفة مع شواهد للإفراد والجمع في ألفاظ آيات العقيدة المختارة من سورة الأنعام، وأبين ما تيسر من لطائف إفرادها أو جمعها، مع الإشارة إلى بعض مما تزخر به الآيات من فنون بلاغية.. إتماماً للفائدة .

وأولى شواهد الإفراد والجمع فاتحة سورة الأنعام، التي يقول فيها ـ تعالى ـ مادحاً نفسه الكريمة، حامداً لها على خلقه السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم و نهارهم[٢]:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [الأنعام:١].

ففي الآية يلحظ أن التعبير القرآني أتى فيه بكلمة "السموات" جمعاً، وفي مقابلها أفردت كلمة "الأرض"، وكذا في كلمتي "الظلمات" و"النور"، فـ "الظلمات" أتت جمعاً، و"النور" مفردة. ولعل هذا يدفع القارئ للتساؤل عن السر في ذلك!.

إن الناظر في كتب التفسير.. وغيرها مما له صلة بدراسة أسرار التعبير القرآني، يجد أن هذا الإيثارات بجمع بعض الألفاظ أو إفرادها قد استرعت انتباه الكثير من العلماء، ثم إنهم اجتهدوا في الوقوف على أسرارها ولطائفها. ومما وصلوا إليه أن كلمة "السموات" تأتي جمعاً ومفردة، بينما كلمة "الأرض" مفردة دائماً، ولم تجمع في القرآن "مع أن الأراضين ـ أيضاً ـ كثيرة بدليل [قوله تعالى]: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) [الطلاق:١٢]"[٣]، والسبب يرجع لما تميز به النظم القرآني من دقة في اختيار الكلمة؛ فالإتيان بكلمة "السموات" جمعاً و"الأرض" مفردة له أسراره؛ منها اللفظي، ومنها المعنوي.

---

(١) ينظر : من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة (١٢١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١١٦/٢) بتصرف .

(٣) التفسير الكبير (٤٧٧/٤) .

فاللفظي يتضح في أن "الأرض" لو جمعت على قياس جموع التكسير؛ فقيل: "آرض" على قياس "أفلس" أو "آراض" على قياس "أجمال"، أو: "آروض" على قياس "فلوس"؛ لثقل هذا اللفظ، ونبا عنه السمع؛ إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ "السموات"؛ فلفظ "السموات" يلج السمع بلا استئذان ؛ لنصاعته وعذوبته، فللثقل المستكره في جمع لفظة "الأرض"؛ لم ترد هذه اللفظة مجموعة في القرآن متى أريد التعدد(١).

أما المعنوي فإنه إذا أريد التعبير عن "السماء" المحسوسة التي هي السقف، وقصد به ذا ا دون معنى الوصف صح جمعها، وتجمع على جمع المؤنث السالم؛ لقلة عددها، وجمع المؤنث السالم بالقليل أولى. وإذا أريد التعبير عن علوها ورفعتها أفردت. وأما "الأرض" فأكثر ما تجئ مقصوداً ا معنى التحت والسفل دون أن يقصد ذوا ا وأعدادها، وحيث جاءت مقصوداً ا الذات والعدد، أتي بلفظ يدل على العدد؛ قال تعالى: (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) [الطلاق:١٢](٢).

وعلى ما سبق فإن لفظة "السموات" في آية الأنعام قصد بجمعها الإشارة إلى ذات السماء وعددها، لكن ماذا عن "الأرض" هل قصد بإفرادها جهة السفل أو التحت..؟! لعله مما يستبعد في هذا المقام؛ لأن المعنى عندها سيخبو..! وهذا يعيد القارئ إلى السؤال السابق؛ لمَ أفردت "الأرض" هنا؟!. وهذا يسلمنا إلى اللطيفة المعنوية الثانية؛ وهي:

أن اللام في لفظة "الأرض" للجنس، فإفرادها في اللفظ بم لة جمعها(٣). ولعل في هذا إشارة أن "الأرض" لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء، فالأرض وإن تعددت واتسعت، فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل(٤). وفي المقابل فإن في جمع "السماء" تفخيماً لها؛ لأن الجمع يقتضي التفخيم(٥).

---

(١) ينظر : بدائع الفوائد (١/١١٤-١١٥) .

(٢) ينظر : المرجع السابق (١/١١٥) .

(٣) المحرر الوجيز (٢/٦) بتصرف .

(٤) ينظر : بدائع الفوائد (١/١١٥) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن . (١/٤٢٨) .

واللطيفة الثالثة في التعبير عن "الأرض" بالإفراد؛ أن الأرض هي دار الدنيا، والدنيا بالإضافة إلى الآخرة كما يدخل الإنسان أصبعه في اليم، فما تعلق ا هو مثالها من الآخرة، والله ـ عزوجل ـ لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها محقراً لشأ ا. أما السموات فليست من الدنيا، بل هي اسم للمكان ـ على أحد القولين في الدنيا ـ، فإن السموات مقر ملائكة الرب ـ تعالى ـ، ومحل دار جزائه، ومهبط ملائكته ووحيه، فإذا أريد التعبير عنها عبر عنها بلفظ الجمع [1].

فالتعبير القرآني عن "السموات" بلفظ الجمع يراد ـ والله تعالى أعلم ـ حيث يراد المقابلة بينها وبين الأرض، لا من حيث الوضع علواً وسفلاً، إنما من حيث البناء التركيبي لكل منهما، وأن السموات عوالم متعددة، والأرض بالنسبة لها أشبه بالمفرد بالنسبة للجمع، وأ ما إن اختلفتا اسماً، فقد اتفقتا صفة؛ بأ ما آيتان من آيات الله ـ جل وعلا ـ الدالة على قدرته، وحكمته، وعظمته [2].

ففي المقام الذي يراد فيه عرض عظمة الله ـ تعالى ـ، وقدرته وسعة ملكه تجمع "السموات"، وتفرد "الأرض"؛ ليكون في ذلك العرض ما يدعو إلى التأمل والنظر، وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الذي يعيش فيه من لا يمدون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم[3]. فجمع "السموات" وإفراد "الأرض" في آية الأنعام أتى وفق ما يناسب المقام؛ إذ إن المقام يعرض لما تفرد به الرب ـ سبحانه وتعالى ـ من صفات ألوهية، وكان التعبير بصيغتي الجمع والإفراد؛ للتنبيه على ذلك.

أما عن السر في جمع "الظلمات"، وإفراد "النور"، فقد قدر له الزمخشري سؤالاً وأجاب عنه؛ قال الزمخشري: "فإن قلت: لم أفرد النور. (قلت): للقصد إلى الجنس، كقوله: (وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا)، أو لأن الظلمات كثيرة؛ لأنه ما من جنس من أجناس

---

(١) ينظر : بدائع الفوائد (١١٥/١) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٢٠/٢) بتصرف .

(٣) ينظر : المرجع السابق (١٩٩/٢) .

الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور؛ فإنه من جنس واحد وهو النار."[١].

وعقب صاحب كتاب "الانتصاف" على القول السابق تعقيباً بديعاً؛ فيه أعاد صياغة ما ذهب إليه الزمخشري بعبارة بدت أكثر إحكاماً؛ فقال: "ولو قال الزمخشري: إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنها من أجناس الأجرام، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو النار لكان أولى والله أعلم"[٢].

ويقول ابن كثير ـ ما معناه ـ: إن جمع لفظ "الظلمات"، وإفراد لفظ "النور" لما للنور من شرف[٣].

ولجمع لفظ "الظلمات"، وإفراد لفظ "النور" نكتة لفظية؛ وهي أن لفظ "الظلمات" بالجمع أخف، ولفظ "النور" بالإفراد أخف[٤]؛ وهذه النكتة تضاف لما سبق ولا تلغيه ـ والله تعالى أعلم ـ .

ومن أسرار النظم القرآني في الآية :

في افتتاح الآية بالجملة الاسمية "الحمد لله"؛ إخبار بأن الحمد مستحق له استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أو كفروه؛ لما له ـ سبحانه وتعالى ـ من صفات الجلال والإكرام[٥] .

وخصت (السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) بالذكر؛ لأ ما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع لهم والأرزاق [٦].

وقدمت "السموات" على "الأرض" في الذكر؛ ولعل ذلك لشرفها وعلو مكا ا[٧]؛ ولأ ا على عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ أدل .

---

(١) الكشاف (٢/٢) .

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . حاشية الكشاف (٢/٢) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١١٦/٢) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٧/٦) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (٣/٧) .

(٦) ينظر : معالم الت يل (٨٣/٢)، والمحرر الوجيز (٢/٦) .

(٧) ينظر : أنوار الت يل وأسرار التأويل (٣٨٧/٢) .

وجاء في تفسير الطبري في معنى (ﭐلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ) : "الظلمات ظلمة الليل، والنور نور النهار"[١]. وفي معالم التنزيل نقل البغوي عن الواقدي قوله: " كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار."[٢]؛ فالمراد منهما الأمران المحسوسان بحاسة البصر، والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما. ثم إن هذين الأمرين إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض، فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان[٣].

وخصت (ﭐلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ) بالذكر؛ لاستواء جميع الناس في إدراكهما[٤]. وقدمت "الظلمات" على "النور" لتقدمها في الخلق والإيجاد[٥].

ويلحظ في الآية الكريمة أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى على نفسه على خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فأتى بالفعلين الدالين على قدرته وعظمته المحمودة متغايرين. ولربما تبادر إلى الذهن بما أن "الجعل بمعنى الخلق"[٦] أنه يصح التعبير عن إيجاد الظلمات والنور بالفعل "خلق"، فلماذا هذا التغاير إذاً ؟!.

والجواب ـ والله تعالى أعلم ـ أن ما وقع من تغاير بين الفعلين في اللفظ هو من دقائق التعبير في النظم القرآني؛ فإنه وإن كان "الجعل هو الإنشاء والإبداع كالخلق"[٧] إلا أن بينهما فرقاً دقيقاً؛ وهو: "أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان"[٨].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٣/٥) .

(٢) معالم التنزيل (٨٣/٢) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٨/٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٢٧/٦) بتصرف .

(٥) ينظر : تفسير القرآن (٤٢٨/١) .

(٦) معالم التنزيل (٨٣/٢) .

(٧) إرشاد العقل السليم (١٠٣/٣) .

(٨) الكشاف (٢/٢) .

وعلى ما سبق فإن الخلق "إيجاد غير الموجود، وإظهاره للوجود"[١]. ومنه قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)[الأنعام:١]، و:(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)[الرحمن:١٤-١٥]، وقوله:(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)[الفرقان:٢]؛ فهو إيجاد من عدم، وهذا مما انفرد به الله ـ عزوجل ـ ولهذا كان من صفاته الكريمة "الخالق"[٢] .

بينما الجعل إضافة تلحق المخلوق[٣]، فهو بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها، ونظامها أليق[٤]؛ ومنه قوله تعالى:(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)[الأعراف:١٨٩]، و:(وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)[الأنعام:١]، وقوله:(جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا)[الكهف:٧]، و: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا۝وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)[النبأ:٩-١١]، وقوله تعالى:(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) [النحل:٨١].

فالقارئ يجد أن الظلمات، وإن كانا مخلوقين لله، إلا أن الخلق ـ والله أعلم ـ غير مراد هنا، وإنما المراد وظيفة هذين المخلوقين، وإلقاء الضوء عليها؛ فهما الثوبان اللذان تخرج فيهما المخلوقات، أو يبدو فيه الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه، ونشهد آثارهما فيه[٥].

وختمت الآية بتعقيب بديع له وقعة الخاص؛ قال تعالى: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ)، والجملة معطوفة على جملة "الحمد لله"، أو على جملة "خلق السموات

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٢٣/٢) .
(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها . بتصرف .
(٤) التحرير والتنوير (١٢٧/٦) بتصرف .
(٥) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٢٤/٢) .

والأرض" بثم الدالة على الترتيب والتراخي[١]؛ ولعل عطفها بهذه الأداة دون ما سواها؛ لاستبعاد أن يعدل أولئك الكفار بربهم أصناماً بعد وضوح آيات قدرته[٢].

والجملة خبرية مسوقة للتعجيب[٣]؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعجب خلقه المؤمنين من كفرة عباده[٤]. وقيل: إن تحت قوله تعالى: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) معنى لطيفاً؛ وهو مثل ـ ولله المثل الأعلى ـ قول القائل: أنعمت عليكم بكذا وتفضلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بي وبنعمتي؟![٥].

وفي تعريف المنكرين باسم الموصول (الَّذِينَ كَفَرُواْ) تشنيع عليهم فعلتهم، فهم ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من دلائل وحدانية الله ـ عز وجل ـ المبثوثة في الكون، والتي منها خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور..، والتي لا تخفى دلالتها على من جرد نفسه من الهوى[٦].

وخرج الكلام في قوله: (الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: يعدلون به؛ ولعل التعبير بالاسم الظاهر فيه تعظيم له ـ سبحانه وتعالى ـ [٧]، كما فيه زيادة تقبيح وتشنيع عليهم؛ فهم أشركوا (بِرَبِّهِم) أي المحسن إليهم، الذي لا إحسان، ولا فضل إلا منه[٨].

وتقديم (بِرَبِّهِم) لمزيد الاهتمام به، وللمسارعة إلى تحقيق مدار الاستبعاد والتعجيب، وفيه ـ أيضاً ـ المحافظة على الفواصل[٩].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٢٩٥/٧) .
(٢) ينظر : الكشاف (٣/٢) .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٨/٦) .
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٤/٥) بتصرف .
(٥) ينظر : معالم التنزيل (٨٤/٢) .
(٦) ينظر : نظم الدرر (٤/٧) .
(٧) ينظر : الانتصاف . حاشية الكشاف (٣/٢) .
(٨) ينظر : نظم الدرر (٤/٧) .
(٩) إرشاد العقل السليم (١٠٥/٣) بتصرف .

ومعنى "يعدلون"؛ أي يسوون، يقال: "عدلت هذا بهذا" إذ ساويته به[١]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفرد بالخلق والإنعام وحده لا شريك له[٢]، ثم يأتي الذين كفروا فيجعلون له عدلاً يحبونه ويعبدونه كما يحبون الله ـ تعالى ـ ويعبدونه .. فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه [٣].

وكل من كفر بالله ـ جل وعلا ـ يدخل تحت هذه الآية؛ من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، وعباد الأوثان ... وغيرهم من سائر أصناف الكفار [٤].

ولعل دلالة التعبير عن عدلهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ بالجملة الفعلية لا تخفى؛ إذ أفادت تجدد هذا الفعل منهم وحدوثه شيئاً فشيئاً؛ فمع دوام إسباغ النعم عليهم ظاهرة وباطنة من هذا الرب المحسن العظيم، هم يكفرون به؛ ويعبدون من لم يخلق ومن لم ينعم عليهم بتلك النعم العظام، ويعظمون من جعلوه لله نداً، ويحبونه كحب الله، أو أشد حباً.. فأي نكران وكفر أعظم من هذا؟!.

وأطلق الفعل "يعدلون" ولم يقيد بمفعول، ولعل ذلك لظهوره[٥]، وعلم كل فريق من الذين كفروا ماذا عدل بالله ـ سبحانه وتعالى ـ [٦]. أو لعله لتوجيه الإنكار إلى الفعل نفسه؛ بتنزيله منزلة الفعل اللازم إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد، والتعجيب، والاستنكار لا خصوصية المفعول[٧] .

فسبحان الله ما أبلغها من حجة هذه التي تضمنتها الآية، وما أوجزها من عظمة لمن فكر فيها بعقل، وتدبرها بفهم..![٨].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٤/٥) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : بدائع التفسير (١٣٩/٢)، و: الضوء المنير على التفسير (٣/٣) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٥/٥) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٥/٣) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٨/٦) .

(٧) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٥/٣) .

(٨) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٤/٥) .

ومن الآيات التي للإفراد والجمع شاهد فيها؛ آية ذكر فيها ما يدل على وجود الصانع القادر الحكيم[١]؛ وهي قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦].

ومناسبة الآية لما قبلها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن ذكر فيما سبق من آيات؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام:٤٢]، إلى قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:٤٥] مصارع الذين ظلموا بعد مجيء رسل الله ـ تعالى ـ إليهم، وتكذيبهم م، وأخذهم بالبأساء والضراء.. أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يلقى مشركي قومه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ...﴾؟![٢].

والمعنى: أرأيتم أيها المشركون بالله إن أصمكم الله، وأعماكم، وختم على قلوبكم حتى لا تفقهوا قولاً ولا تبصروا حجة..، فأي إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يرد عليكم ما أذهبه الله منكم؛ من السمع والأبصار والأفهام.. فتعبدوه من دونه..؟!. ثم هم ومع تتابع الحجج عليهم عن الإدكار والاعتبار يعرضون[٣].

والشاهد في مجيء التعبير القرآني بإفراد لفظة "السمع"، وجمع ما بعدها؛ "الأبصار" و"القلوب". وفي إفراد الضمير في "به" من قوله تعالى: ﴿مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، وكان مقتضى الظاهر ـ في غير القرآن ـ الجمع. وفيما يلي ـ بإذن الله ـ سيتم الوقوف على شيء من أسرار هذا التعبير الذي ظهرت بلاغته في النظم القرآني .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٥/٥) .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٨٢/٢) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٥/٥) .

وكما استرعى إفراد "الأرض"، وجمع "السموات" في النظم القرآني انتباه كثير من العلماء، فكذا فعل إفراد "السمع"، وجمع "الأبصار"، و"القلوب". ومن الأسرار التي استخرجها العلماء لذلك؛ ما يلي :

ذكر الزمخشري في تفسيره ما نصه: "ووحد السمع، كما وحد البطن في قوله:"كلوا في بعض بطنكم تعفوا"، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس، فإذا لم يؤمن اللبس؛ كقولك: "فرسهم وثوبهم" وأنت تريد الجمع رفضوه. ولك أن تقول: السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع، فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله:(وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ) [فصلت:٥]. وأن تقدر مضافاً محذوفاً؛ أي وعلى حواس سمعهم."(١).

وثمة وقفة يسيرة مع اجتهادات الزمخشري السابقة؛ فآخرها القائل: بتقدير مضاف محذوف، لعل فيه بعداً؛ إذ إن تقدير محذوف هنا تكلف لا حاجة تدعو إليه، والأولى الاحتراز منه.

أما أولها القائل: بإفراده عند أمن اللبس، فقد رده أحد الباحثين المعاصرين بقوله: "والحقيقة أنا لا نطمئن لمثل تلك الآراء التي رددها مع الزمخشري كثير من المفسرين والتي لا تعدو أن تكون "محاولات" لتبرير إفراد السمع في الآية عن طريق إثبات نظائره في موروث اللغة،...، ولعلنا نتساءل: إذا كان السبب في إفراد السمع هو أمن اللبس فلماذا لم تفرد القلوب والأبصار لهذا السبب ذاته؟."(٢)،وسؤاله في محله!.

ولم تبق من اجتهادات الزمخشري إلا ثانيها؛ القائل: بأن السمع مصدر والمصادر لا تجمع .وهذا ـ كما يظهر ـ أقوى اجتهاداته؛ لارتكازه على أسس نحوية. وقد أضاف إليه ابن عاشور إضافة لطيفة؛ قال فيها ـ ما معناه ـ : .. وهو دال على الجنس، فكان في قوة الجمع، وقد عم بإضافته إلى ضمير المخاطبين ولا حاجة إلى جمعه (٣).

---

(١) الكشاف (٢٩/١) .

(٢) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (٨٩) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٤/٦) .

ومع وجاهة هذا التعليل إلا أنه لم يسلم ـ أيضاً ـ من الرد؛ فقد رده الباحث السابق بقوله: "وإذا كان مرد هذا الإفراد هو كون السمع مصدراً في الأصل فإن الأبصار أيضاً مصدر، فما سر المخالفة بينهما إفراداً وجمعاً إذن؟"[(١)].

ولهذا السؤال الوجيه إجابة فذة، جاد ا ابن عاشور في تفسيره حين أرجع إفراد السمع وجمع الأبصار لنكتة لفظية .. أقل ما يقال عنها إ ا جارية على ما يقتضيه تمام الفصاحة؛ من خفة أحد اللفظين مفرداً والآخر مجموعا عند اقترا ما، فإن لانتظام الحروف، والحركات، والسكنات في تنقل اللسان سراً عجيباً .. وهذا مما برزت براعته في التعبير القرآني[(٢)] .

ومن لطائف إفراد السمع في الآية ما أشار إليه البقاعي في نظم الدرر بقوله: "وأفرده [يعني السمع] لقلة المفاوتة فيه؛ لأنه أعظم الطرق لإدراك القلب الذي لا أعظم من المفاوتة فيه حتى للإنسان الواحد بالنسبة إلى الأحوال المختلفة "[(٣)].

فلتوحد مدركات السمع، وتعدد مدركات القلوب؛ أفرد السمع وجمعت القلوب.

ولعل ما ذهب إليه عبد الكريم الخطيب في تفسيره يوضح ما سبق؛ إذ علل إفراد السمع، وجمع الأبصار والقلوب ـ بما معناه ـ [(٤)]: أن من وظيفة السمع أن يتلقى الأصوات، ويميز بينها، ويمسك بالواضح منها، ولن يتحقق له هذا إلا إذا عزل الصوت الذي يريد استقباله عن كل ما يتصل به من أصوات مختلطة..، وهذا يعني أن السمع وإن اتسع لمئات الأصوات، فإنه لا يكاد يميز إلا واحداً منها، بالإصغاء إليه، وعزل ما سواه عنه، وإلا كان المسموع له مجرد أصوات غير مفهومة، إلا على أ ا دوي كدوي النحل ـ مثلاً ـ!. فكأن في إفراد السمع توجيهاً لوظيفة السمع؛ بأن يستعمل الإنسان سمعاً واحداً، ليكون لما يسمعه معقول، ومفهوم، وثمر!.

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (٨٩) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٤/٦) .

(٣) نظم الدرر (١١٨/٧) .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٨٣/٢-١٨٤) .

أما حاسة البصر، فهي على خلاف حاسة السمع؛ إذ إن العين تستطيع أن تضبط كثيراً من الصور المرئية بنظرة واحدة، كما أنها تستطيع أن تعاود النظر فيما ترى حتى تتحققه وتستيقنه.. ومن هنا كانت العين مجموعة من الأعين، بترددها على الشيء، ومعاودتها النظر إليه حالاً بعد حال، وليست كذلك الأذن التي إن أفلت منها الصوت الملقى إليها، لم يكن بإمكانها رده، فقد ذهب أدراج الرياح، ولا يمكن أن يعود، وإن أمكن استدعاء مثله من مصدره الذي جاء منه .

والقلب في تأثيره بالمحسوس هو أشبه بالعين؛ في قدرته على معاودة النظر والتأمل في الصور التي تلقيها الحواس إليه، فيعيش معها زمنا، على هيئة خواطر، ومشاعر .

وأختم تلك الأسرار المعللة لإفراد السمع وجمع الأبصار و القلوب؛ برأي رد صاحبه كل ما سبق من اجتهادات؛ ليرجح سراً علمياً؛ قال فيه: "... نرجح ـ والله أعلم بمراده ـ أن إفراد السمع وجمع الأبصار في القرآن الكريم لا يرجع إلى توحد مدركات السمع، وتعدد مدركات البصر ـ على فرض التسليم بذلك ـ بل إلى توحد وسيلة الإدراك في حاسة السمع، وتعددها في حاسة البصر..."[١]، ثم أخذ يعرض لما أثبته علماء التشريح في هذا المضمار[٢]. لكن أن يتم إثبات سبب عملي لإفراد السمع وجمع الأبصار؛ فهذا لا يعني بحال من الأحوال إبطال ما يتصل بأسرار ذلك في اللغة وإيحاءاتها؛ لأن كل ما في القرآن من أسرار تتآزر؛ لإثبات صفة الإعجاز لهذا القرآن الكريم.

والشاهد الآخر للإفراد والجمع في الآية؛ إفراد الضمير في "به" من قوله تعالى:(مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ)، وكان مقتضى الظاهر ـ في غير القرآن ـ الجمع نظراً لجمع ما قبله في قوله تعالى:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم)[٣]. ولهذا الإفراد توجيهاته؛ منها :

١- أن يكون الضمير في "به" عائداً على "سمعكم"، فلإفراد السمع أفرد الضمير[٤] .

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (٩٠) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٥/٥) .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

٢- أن يكون إفراده من قبيل إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة؛ أي: يأتيكم بذلك[١]، وقدر بـ "ذلك"؛ لأنه اسم الإشارة الذي كثر في الاستعمال التعبير به عن أشياء عدة[٢] .

٣- أن يكون عائداً على تقدير اسم موصول في الكلام؛ أي من إله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم وختم عليه[٣]، فيكون إفراد الضمير لإفراد "ما" [٤].

٤- أن يكون عائداً على المعنى؛ والتقدير: بالمأخوذ[٥]، أو بالمذكور وهذا استعمال قليل في الضمير إلا أنه فصيح[٦]. ولعل ما ذهب إليه الزمخشري من أن الضمير في الآية أجري مجرى اسم الإشارة "ذلك"، هو من أقوى تلك التوجيهات؛ لوجاهته وملائمته للمعنى.

ومن اللطائف البلاغية التي زخرت ا الآية؛ ما يلي :

في افتتاح الآية بالأمر بالقول اهتمام بالمقول[٧]. وقوله: (أَرَأَيْتُمْ) تركيب شهير الاستعمال، وقد زيد به الاهتمام بالمقول؛ لأنه تركيب يفتتح به الكلام الذي يراد تحقيقه والعناية به[٨]، وجيء به لقصد تأكيد الحجة عليهم [٩].

وقوله: (إِنْ أَخَذَ اللّهُ) أصل الأخذ حوز الشيء، وجبيه، وجمعه[١٠]. وهي تعني انتزاع الشيء وتناوله من مقره، فهي هنا مجاز في السلب والإعدام؛ لأن السلب من

---

(١) ينظر : الكشاف (١٤/٢) .

(٢) ينظر : روح المعاني (١٤٤/٤) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٥/٥)، و: الكشاف (١٤/٢) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٥/٥).

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٢٨/١) .

(٦) التحرير والتنوير (٢٣٥/٦) بتصرف .

(٧) ينظر : المرجع السابق (٢٢١/٦) .

(٨) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٩) ينظر : فتح القدير (١١٧/٢) .

(١٠) ينظر : معجم مقاييس اللغة . مادة (أخذ) .

لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ منه؛ وهذا المجاز مرسل[١] . وكلمة "أخذ" موحية؛ توحي بتمام القوة والقدرة على الاستئصال والذهاب بما ذكر من سمع وأبصار، وهذه القوة والقدرة لا تكون إلا لله ـ جل وعلا ـ .

وفي هذا دلالة على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفرد بالوحدانية والإلهية؛ لأنه هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها[٢] .

قوله: (وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم) الختم: الطبع على الشيء[٣]، ومعناه "التغطية على الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء"[٤]. فالله ـ عز وجل ـ يخبرهم بأنه قادر ـ ولا راد لقدرته ـ على الختم على قلوبهم حتى لا يفقهوا قولاً، فيكون هذا الختم، وذلك الصمم والعمى حائلاً بينهم وبين الإيمان والهدى[٥] .

ويرى الزمخشري أن إسناد الختم لله ـ تعالى ـ ليس حقيقاً؛ لأنه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً؛ لعلمه بقبحه وغناه عنه، وقد نص ـ سبحانه وتعالى ـ على تنزيه ذاته بقوله:(وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)[ق:٢٩]، وقوله:(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) [الزخرف:٧٦] فهذا الإسناد للإشارة إلى أن هذه الصفة قد صارت في تمكنها وقوة ثباتها كالخلقة التي خلق العبد عليها[٦] .

ومن قال بمثل هذا القول فقد خيل إليه أنه عظم الله ـ تعالى ـ من جهة، ولكنه أخل بتعظيمه من جهة أخرى؛ فقد عظمه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة، وأخل بتعظيمه من جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة، فهو لم يوف خالقه حقه، فإن الله

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٣/٦) .
(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٠٠/٢) .
(٣) ينظر : معجم مقاييس اللغة . مادة (ختم) .
(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١٦١) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٥/٥)، و: شفاء العليل (١٦٠) .
(٦) ينظر : الكشاف (٢٦/١-٢٧) .

ـ سبحانه وتعالى ـ إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره فأبى العبد إلا إعراضاً وكفراً، قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره وصده عن الإيمان به؛ فقد جعل ذلك عقوبةً له وجزاء على كفره، وإعراضه عن الحق بعد أن عرفه، كما قال تعالى:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [الصف:٥][(١)].

وجوز الزمخشري أن يكون إسناد الختم إلى الضمير العائد على اسم الجلالة "الله" على سبيل ا ااز، وهو في الوقت نفسه لغيره حقيقة، وبيان هذا أن الشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر، إلا أن الله ـ سبحانه ـ لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب [(٢)].

وهذا الكلام فيه حق وباطل؛ فالقول بأن الله ـ سبحانه ـ أقدر الكافر والشيطان على الطبع والختم كلام باطل، فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر، ولم يقدر على خلق ذلك في قلب العبد ألبتة، وهو أقل من ذلك وأعجز؛ فالشيطان ليس في مقدوره إلا أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وطبع عليه كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعقابه بالنار كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فعله، وتزينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله ـ عزوجل ـ .

وأما ما في هذا الكلام من الحق فهو أن الله ـ سبحانه ـ أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه، فلولا إقدار الله على ذلك لم يفعله[(٣)] .

ففي هذا الإسناد دلالة على أن كل ما سواه ـ تعالى ـ مخلوق له، داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته ولو لم يشأ لم يكن[(٤)] .

---

(١) ينظر : شفاء العليل (١٥٠-١٥١) .

(٢) ينظر : الكشاف (٢٨/١) .

(٣) شفاء العليل (١٥٤) بتصرف .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

وقوله: (مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۦ) خرج الاستفهام فيه عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فهم من السياق؛ وهو الإنكار والتوبيخ والنفي[١] .

وذهب ابن عاشور إلى أن الاستفهام هنا مستعمل في التقرير؛ القصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه، ليوقنوا أنه لا إله غير الله يأتيهم بذلك؛ لأنه هو الخالق[٢] .

وهذا موقف يتبين فيه عجزهم أمام بأس الله ـ عز وجل ـ من جانب، ويعري لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله ـ تعالى ـ في ساعة الجد من جانب آخر..، وهو موقف يهزهم من الأعماق..، فخالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يفعل بها هذا؛ قادر على أن يأخذ السمع والأبصار، وأن يختم على القلوب، وأنه ـ إذا فعل ذلك ـ فليس من إله غيره يرد بأسه[٣]، فإن لم يكن غير الله ـ عز وجل ـ يرد هذا البأس، ويأتي بذلك المأخوذ، فلم يعبدون من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله..؟، وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك[٤] .

ولما بلغت هذه الآيات في بيان وحدانية الله ـ تعالى ـ وبطلان كل معبود سواه أعلى المقامات نبه على ـ سبحانه ـ على ذلك بالأمر بالنظر فيها، وفي حالهم بعدها، دالاً على ما تقدم من أن المقترحات لا تنفع من أراد الله ـ سبحانه ـ شقاوته، فقال خاتماً الآية[٥]:

(ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ)، وقيل: (ٱنظُرۡ) للتعجيب؛ فهو ـ تعالى ـ يعجب أولاً من تتابع نعمه عليهم، وتنوع دلائله الناطقة بوحدانيته، ثم يعجب ثانياً من إعراضهم عنها[٦].

---

(١) ينظر : الفتوحات الإلهية (٣١/٢)، و: فتح القدير (١١٧/٢) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٤/٦) .
(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٩٢/٢) .
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤٠٠/٢) بتصرف .
(٥) ينظر : نظم الدرر (١١٨/٧) .
(٦) ينظر : مجمع البيان (٤٦٩/٤) .

وتصريف الآيات إيرادها على الوجوه المختلفة والمتعددة، ليساند كل واحد منها ما قبله ويقويه في الإيصال إلى المطلوب[(١)]؛ من ذلك المقدمات العقلية التي أتت في أول السورة؛ فقد دلت على وجود صانع قادر، مختار يفعل ما يشاء، ومنها الترغيب والترهيب؛ كما قال تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)[الأنعام:٥٤]، ومنها التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين؛ قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ۞ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام:٤٢-٤٣] [(٢)].

(ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) ومن الدقة في اختيار الحروف؛ استخدام "ثم" في هذا المقام؛ ولعل هذا لما لها من دلالة، التي يفهم منها أنه بعد هذا التقرير والإيضاح والبيان هم يعرضون عن النظر والتأمل[(٣)] .

ومن اللطائف البلاغية في الآية ا يء بالمسند في جملة (هُمْ يَصْدِفُونَ) فعلاً مضارعا؛ للدلالة على تجدد الإعراض منهم مع كل آية تعرض عليهم. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ـ والله أعلم ـ لتقوية الحكم [(٤)].

ومن شواهد الإفراد والجمع قوله تعالى :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ) [الأنعام:٦١] .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥/ ٥٣٦) .

(٢) ينظر : أنوار الت يل وأسرار التأويل (٤٠٩/٢)، و: حاشية الكازروني امش أنوار الت يل وأسـرار التأويـل (٤٠٩/٢) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١١٩/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٦/٦) .

في مناسبة الآية قال البقاعي ـ ما معناه ـ : لما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ بتمام علمه وقدرته، أعقب ذلك بالإخبار بعظيم جبروته وغالب سلطانه، وأن أفعاله هذه على سبيل القهر لا يستطاع مخالفتها[١] .

والشاهد في قوله: (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)؛ فقد جيء بكلمة "الرسل" جمعاً، ومعلوم أن الذي يقبض الأرواح ملك الموت، ومما دل على هذا قوله تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ) [السجدة:١١]، فما السر في جمع كلمة "الرسل" هنا؟![٢].

ومما جاء في توجيه هذا، ما يلي :

١ ـ جوز الطبري أن يكون ذلك من قبيل المجاز العقلي، لكنه لم ينص على هذا المصطلح، إلا أنه فهم من كلامه، الذي قال فيه: "جائز أن يكون الله ـ تعالى ذكره ـ أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون "التوفي" مضافاً ـ وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت ـ إلى ملك الموت إذ كان فعلهم ... ذلك بأمره، كما يضاف قتلُ من قتل أعوان السلطان، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده."[٣].

فإسناد التوفي إلى ملك الموت في قوله تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ)؛ لأنه ـ كما دل تحليل الطبري ـ سبب في وقوعه، وعلاقة هذا النوع من المجاز العقلي السببية [٤].

واستند الطبري على قول ابن عباس، الذي ذكره حين سئل عن قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)؛ وفيه قال: "إن لملك الموت أعواناً من الملائكة"[٥].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٣٩/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٥) .

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) للوقوف على هذا النوع من المجاز ينظر : أسرار البلاغة (٣٨٥) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٥) .

ومضى الطبري في إيراد ما شابه ذلك من أقوال، منها أن الرسل تتوفى الأنفس، ثم تدفعها إلى ملك الموت ليقبضها[١] .

وعلى هذا فإن وظيفة ملك الموت لا تقف عند الأمر بقبض الروح فقط، وإنما له دور في قبضها، فيكون جمع كلمة "الرسل" في قوله تعالى: (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) له ما يسوغه؛ وهو اشتراك ملائكة آخرين مع ملك الموت في قبض الروح.

٢ـ وقيل: إن المراد بكلمة "الرسل" في الآية ملك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع تعظيماً له[٢]. ولعل القول الأول أقوى؛ لأن التعظيم حاصل بإضافة كلمة "الرسل" إلى نون العظمة؛ ولورود نصوص جمعت فيها كلمتا "الرسل" و"الملائكة"؛ منها قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)[النساء:٩٧]، وقوله:(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ)[النحل:٣٢]، وقوله:(حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ)[الأعراف:٣٧] .

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

عطف قوله تعالى:(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) على قوله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ)[الأنعام:٦٠]؛ لما بينهما من تناسب، إذ إن كلتيهما خبرية؛ فالأولى إخبار بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي خلق النوم والموت، فغلبا شدة الإنسان كيفما بلغت. والثانية إخبار بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو القادر الغالب دون الأصنام، فهو الذي قهر بالنوم؛ لأن الإنسان ربما أراد ألا ينام فيغلبه النوم، وكذا قهر بالموت [٣].

وعبر عن قهره لعباده بالجملة الاسمية؛ لما لها من دلالة على الدوام والثبات، فمن علا على عباده بذاته، وقدره، وقهره هو ـ حتماً ـ المستحق للعبادة دون ما سواه، من أصنام وأوثان مقهورة .

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٥/٥) بتصرف .

(٢) ينظر : معالم التنزيل (١٠٣/٢)، و: البحر المحيط (١٤٨/٤) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٧/٧) .

(وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُم حَفَظَةً)؛ أي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحفظ عباده برسل يعقب بينها، يرسلهم إليهم لحفظهم وحفظ أعمالهم وإحصائها إلى أن يحضرهم الموت، وي ل م أمر الله ـ تعالى ـ [(١)].

ولعل دلالة الجملة الفعلية هنا لا تخفى؛ فهي تدل على تجدد ذلك الإرسال والتعقيب وحدوثه. وقد قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم. فيسألهم، وهو أعلم بكم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون "[(٢)].

وهذا الحفظ والتعاقب من وظائف بعض الملائكة، ومن الإيمان بالملائكة؛ الإيمان بوظائفهم، وبأ م خاضعون لله ـ عز وجل ـ أتم الخضوع،:(لَا يَعۡصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ) [التحريم:٦][(٣)].

ولربما تساءل القارئ عن السر في ذكر إرساله ـ سبحانه وتعالى ـ لهؤلاء الملائكة الحفظة في هذا المقام!.

والجواب ـ والله تعالى أعلم ـ أن ذكر الإرسال هنا للإشارة إلى أنه من جملة القهر الواقع على العباد من خالقهم. ثم إن المكلف إذا علم أن الملائكة موكلون به يحصون عليه أعماله، ويكتبو ا في صحف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة كان ذلك أزجر له عن القبائح. وفيه ـ أيضاً ـ إشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد[(٤)].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٥) .

(٢) صحيح البخاري . كتاب: التوحيد . باب: قوله تعالى:(تَعۡرُجُ الۡمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيۡهِ)[المعارج:٤] (١٤١٥). حديث رقم (٧٤٢٩).

(٣) ينظر : العقيدة الواسطية (٦٤/١) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٤/٥-١٥) .

ومن دقائق التعبير في النظم القرآني؛ تقديم المتعلق في قوله: (وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُم حَفَظَةً) على المعمول، ولعل ذلك للعناية بشأنه وأنه أمر حقيق بهذا الاهتمام؛ فهو أزجر لهم عن تعاطي المعاصي والقبائح، وللتشويق إلى المؤخر[١].

وقوله: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ)؛ أي إذا حل وقت الموت بانتهاء عمر الإنسان أدى رسل الله مهمتهم معه بقبض روحه دون تفريط أو تضييع في ذلك[٢].

ومن الأسرار في الآية؛ تقديم المفعول به في قوله:(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ) على فاعله؛ ولعل ذلك لبث الخوف في نفوس العباد[٣]، فالموت نازل بهم لا محالة، والواجب عليهم المسارعة إلى الإيمان بالله ـ عزوجل ـ والتطهر من الشرك .

وجملة (وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ) حالية جيء بها لتأكيد ما سبق، وقيل: استئنافية سيقت لبيان اعتناء الملائكة بما أمروا به [٤].

وثمة شاهد للإفراد والجمع فيما ولي هذه الآية؛ وهي قوله تعالى :

(ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ) [الأنعام:٦٢] .

فلما أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى قوته بالجنود التي تفوق الحصر ـ وإن كان عنهم غنياً بصفة القهر ـ أعقبه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته [٥].

والمعنى: ثم ردت الملائكة الذين قبضت أرواحهم إلى الله سيدهم الحق الذي له الحكم والقضاء دون من سواه من الخلق [٦].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٤/٣)، و: فتح القدير (١٢٤/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٤/٥)، و: التفسير القرآني للقرآن (٢٠٤/٢) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٤٠/٧) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٥/٣) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (١٤٠/٧) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٦/٥) .

والشاهد في **جمع الضمير** في **قوله تعالى: (ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ). وقبله قيل: (حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)، وهذا يدفع القارئ** إلى **أن يتساءل عن السر** في **هذا الجمع!.**

وقيل في ذلك :

١- **أن الظاهر عود الضمير على العباد من قوله تعالى:(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)[1]؛ ويكون** في **الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بقوله:(وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً)،** ثم **يعود التعبير لأسلوب الغيبة بقوله تعالى: (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)، و: (ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ)، أما السر** في **إفراد الضمير** في **(تَوَفَّتْه)؛ فلعله لأن الموت يقع على الانفراد،** بينما جمع **الضمير** في **(رُدُّوا)؛ لأن الرد يكون على الاجتماع؛ أي** ثم **ردوا بعد البعث والحشر[2] .**

٢- **ليس** المراد بـ **(أَحَدَكُمُ) ظاهره من الإفراد،** إنما **ما دل عليه من الجمع، وكأنه** قيل: **حتى إذا جاءكم الموت [3].**

ومن أسرار النظم القرآني في **الآية الكريمة :**

في **كلمة "ردوا" لطائف بلاغية؛ منها: الإتيان بفعل الرد مبيناً للمجهول؛ قال تعالى: (ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ)؛ ولعل ذلك لاستحضار عظمة الله** ـ عز وجل ـ **وجبروته، وكمال قدرته؛ أي ردهم راد منه** ـ عز وجل ـ **لا يستطيعون دفعه أصلاً[4] . وللدلالة على أنه** ـ جل شأنه ـ **له رسل آخرون يردون الأموات إليه بعد أن يبعثهم للحياة [5].**

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٩/٤) .

(٢) ينظر : السابق . الصفحة نفسها، و: إرشاد العقل السليم (١٤٥/٣) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٤٩/٤) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٤٠/٧) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٤٨٥/٧) .

كما خرج الكلام فيها على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر عن الرد بفعل الاستقبال؛ لأنه يكون بعد البعث فهو لم يقع بعد، إلاّ أن هذا الظاهر خولف، وعبر عن الرد بالفعل الماضي؛ لإفادة تحقق وقوعه، حتى كأنه وقع وانتهى[١]. وهذا من الأساليب التي جاءت في النظم القرآني لإثبات يوم القيامة؛ وإثبات ما يقع فيه .

وفي قوله تعالى: (مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) أضيفت كلمة "مولى" إلى الضمير العائد على المردودين؛ ورأى أبو حيان أن هذا للإشعار برحمته ـ تعالى ـ بهم[٢]. وقد يكون ذلك للتنبيه أو التذكير بأن ردهم إلى الله مولاهم الذي كانت تظهر آثار قدرته أمام أعينهم حين كانوا إليه يفزعون، وبه يستنصرون، أو التذكير بأنهم مردودون إلى مالكهم .

وقيدت الجملة بالوصف بقوله تعالى: (الْحَقِّ)، ومعنى "الحق"؛ أي: الثابت الولاية، ففيه إشارة إلى أن كل ولاية غير ولايته ـ تعالى ـ عدم[٣]. وفيه دلالة على أن ردهم إليه حتم واقع لا محالة؛ لأنه هو سيدهم الحق، الذي يتولى أمورهم، ويحكم ما يريد[٤] .

وقوله: (أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ) تذييل لما سبق[٥]. وافتتحت بـ "ألا"؛ للتنبيه على أهمية الخبر الذي تحمله، ولهز نفس السامع حتى تشرئب إلى متابعة الكلام دون أن يفوتها منه شيء[٦] .

وتقديم الجار والمجرور أفاد القصر[٧]، أي له الحكم لا لأحد غيره بأي وجه من الوجوه[٨]. وقد أكد القصر الخبر مع ما في جملته من إيجاز. أما نوع القصر فقد نظر ابن عاشور عند بيانه له إلى ما أفاده التعريف في كلمة "الحكم"؛ فقال ـ ما معناه ـ : إن

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٤٨٥/٧) وما بعدها .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٤٩/٤) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٤٠/٧) .

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٤٨٦/٧) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٩/٧) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٦٨/٦)، و: تفسير القرآن الحكيم (٤٨٦/٧)، و: التحرير والتنوير (٢٧٩/٧) .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٠/٧) .

(٨) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٥/٣) .

كان المراد من "الحكم" جنس الحكم، فقصره على الله ـ تعالى ـ إما حقيقي للمبالغة؛ لعدم الاعتداد بحكم غيره، أو إضافي للرد على المشركين؛ أي ليس لأصنامكم حكم معه. وإن كان المراد من "الحكم": الحكم المعهود يوم القيامة؛ أي الحساب، فالقصر حقيقي[١].

وأشار ابن عاشور إلى أنه ربما ترجح الاحتمال الأخير واستأنس بقوله تعالى بعده: (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)؛ أي ألا له الحساب، وهو أسرع من يحاسب فلا يتأخر جزاؤه[٢]. لكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن التعريف في "الحكم" "للجنس؛ أي جميع أنواع التصرفات في العباد"[٣]، وهذا يشمل الحساب والجزاء، فيكون القصر هنا حقيقياً؛ لأنه لا متصرف في شؤون العباد كلها إلا الله وحده.

وختمت الآية بقوله: (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) وفي هذه الجملة لطيفة بلاغية؛ إذ تضمن الكلام وعداً ووعيداً؛ لأنه لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أ م إليه يرجعون، وكان المخاطبون فريقين: فريق صالح وآخر كافر، والصالحون يطمعون بالجزاء، ولا يحبون المهلة، والكافرون بعكس حالهم عجلت المسرة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله: (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)[٤].

وفي الآية دلالة على أن حسابه ـ عز وجل ـ لعبيده صادر عن علمه م فهو ـ سبحانه ـ ليس بحاجة إلى أعداد ولا تكلف في العد[٥] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٠/٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) المحرر الوجيز (٦٨/٦) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٠/٧) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (٦٨/٦) .

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [الأنعام:٨٣].

بعد أن ذكر ما قام به إبراهيم ـ عليه السلام **ـ لإظهار حجة الله** في **التوحيد والذب عنها، أتبع ذلك بذكر إنعامه ـ** سبحانه وتعالى **ـ عليه وإحسانه إليه؛ بإثبات النبوة له ـ** عليه السلام **ـ بعد إثبات الوحدانية**[١] **.**

وشاهد الإفراد والجمع في **قوله تعالى: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء)؛ فأتي بكلمة "درجات" بصيغة الجمع، ولم يكن التعبير عنها بالإفراد ـ كما** في **غير القرآن ـ : نرفع درجة من نشاء، فما السر** في **إيثار صيغة الجمع** في **النظم القرآني؟!.**

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هذا الجمع أُتي به لصلاحية (مَّن نَّشَاء) لأفراد كثيرين متفاوتين في **الرفعة. أو لأن المفضل الواحد يتفاوت حاله** في **تزايد موجبات فضله**[٢] **.**

والأصل في **الدرجات أ ا مراقي السلم، ثم تستعمل** في **ارتفاع المنازل والمراتب**[٣]**.**

فرفع الدرجات هنا تمثيل لتفضيل الشأن؛ شبهت حالة المفضل على غيره بحال المرتقي في **سلم إذا ارتفع من درجة إلى أخرى، و**في **جميعها رفع. وكل أجزاء هذا التمثيل صالحة لتفريق التشبيه؛ فالتفضيل يشبه الرفع، والفضائل المتفاوته تشبه الدرجات، ووجه الشبه عزة حصول ذلك لأكثر الناس**[٤] **.**

ورفع الدرجات يكون بالعقل والفهم والعلم[٥]**، والحكمة، والنبوة والرسالة وهي أعلى الدرجات؛ لأ ا تشتمل على ما سبق وتزيد عليها، وكل ذلك متفاوت بفضل الله الذي فضل بعض البشر على بعض** [٦]**.**

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٦٨/٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٦/٧) بتصرف .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٥/٥) بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير (٣٣٥/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : معالم التـ يل (١١٢/٢) .

وفي قوله: (مَّن نَّشَاءُ) جملة من اللطائف؛ منها :

١- أن انتظامها في الجملة جاء مؤخراً؛ ولعل هذا للاعتناء بالمقدم، والتشويق لما أخر[١].

٢- فيها إيجاز بالحذف، فقد حذف مفعول المشيئة؛ والتقدير: من نشاء رفعه، للاختصار ولعلم السامع به[٢] .

٣- التعبير عن فعل المشيئة بصيغة الاستقبال؛ للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيما بين المصطفين الأخيار غير مختصة بإبراهيم ـ عليه السلام ـ [٣].

٤- فيها إيحاء بأن هذا التكريم لا يكون لكل أحد؛ لأنه لو كان حاصلاً لكل الناس لم يحصل الرفع ولا التفضيل[٤] .

ومن أسرار النظم القرآني في الآية :

في قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) الإشارة إلى الحجة بـ "تلك" تفخيم لشأنها، وللإشعار بعلو طبقتها وسمو منزلتها في الفضل، وهذا لما تضمنه اسم الإشارة من معنى البعد[٥]. وهي إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه؛ من قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) [الأنعام:٧٦]، إلى قوله: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:٨٢][٦].

---

(٦) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٨٣/٧) .
(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٧/٣) .
(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٣) ينظر : السابق .نفسها .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٦/٧) .
(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٦/٣) وما بعدها .
(٦) الكشاف (٢٥/٢) بتصرف .

وعظم الله ـ سبحانه وتعالى ـ تلك الحجة بإضافتها إلى نفسه الكريمة؛ بقوله: (حُجَّتُنَا) وكفى بحجة يكون الله ـ تعالى ـ ملقيها لخليله ـ عليه السلام ـ أن تكون قاطعة لموارد العناد، وقامعة لأهل الشرك والإلحاد [١].

وذكر ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه باللفظ الدال على العظمة؛ وهو كناية الجمع على وفق ما يقوله عظماء الملوك، وتعين بهذا أن تكون تلك العظمة عظمة كاملة رفيعة شريفة، ففيه دلالة على أن إيتاء الله ـ تعالى ـ تلك الحجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهو من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا[٢] .

ومن دقائق التعبير في النظم القرآني ؛ التعبير بحرف الجر "على" في قوله:(عَلَىٰ قَوْمِهِ)، وفي هذا تنبيه على ارتفاع شأن تلك الحجة[٣]. و"على" هنا للاستعلاء المجازي، وهو تشبيه الغالب بالمستعلي المتمكن من المغلوب[٤]؛ أي إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مستعل عليهم غالب لهم بالحجة التي نصبها عليهم [٥].

والمقصود من هذه الآية ـ والله أعلم ـ تعديد أنواع نعم الله ـ تعالى ـ على نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ جزاء قيامه بالذب عن دلائل التوحيد[٦]؛ فذكر ـ سبحانه وتعالى ـ إيتاءه الحجة على قومه، وأشار إلى رفع درجاته [٧].

وذيلت الآية بقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)؛ وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله[٨].والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن جملة: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء) تثير سؤالاً؛

---

(١) الضوء المنير على التفسير (٤٧/٣) بتصرف .
(٢) ينظر : التفسير الكبير (٥١/٥) .
(٣) ينظر : نظم الدرر (١٦٨/٧) .
(٤) التحرير والتنوير (٣٣٥/٧) بتصرف .
(٥) ينظر : نظم الدرر (١٦٨/٧) .
(٦) التفسير الكبير (٥١/٥) بتصرف .
(٧) البحر المحيط (١٧٢/٤) بتصرف .
(٨) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٨٣/٧) .

مفاده: لماذا يرفع ـ سبحانه وتعالى ـ بعض الناس دون بعض؟!، فأجيب بأن الله ـ تعالى ـ يعلم من يستحق ذلك، ومقدار استحقاقه[١]، ففصلت الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال اتصال .

وفيها خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ بإضافة كلمة الرب إلى ضمير الخطاب العائد على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ ولعل التعبير بهذا الأسلوب لإظهار مزيد لطف وعناية به ـ عليه الصلاة والسلام ـ [٢]؛ ولعل فيه ـ أيضاً ـ تذكيراً منه ـ سبحانه وتعالى ـ لخاتم رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفضله عليه، وتفضيله إياه؛ برفعه درجات على جميع رسل الله ـ عليهم السلام ـ [٣].

والمعنى: إن ربك ـ يا محمد ـ الذي رباك وآواك، وعلمك وهداك، ورفع ذكرك بجوده وكرمه، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه[٤]، "حكيم" في تصريفه لخلقه، وتلقينه لأنبيائه الحجج على أممهم الجاحدة توحيد ربها، المكذبة برسله... وفي غير ذلك من تدبيره ـ تعالى ـ . و"عليم" برسله والمرسل إليهم وبما يؤول إليه أمرهم من تكذيب أو إيمان بالله وحده، وتصديق رسله[٥] .

وفي الآية إثبات لصفتي الحكمة والعلم لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ويلحظ في التعبير القرآني تقديم الوصف بالحكمة على العلم؛ ولعل هذا لأن التفضيل يكون وفق ما تقتضيه الحكمة، ثم عقب بالعلم للإشارة إلى أن تلك الحكمة واقعة على أساس العلم [٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٦/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٧/٣) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٥٨٣/٧) بتصرف .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٥/٥) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٦/٧) .

وفي الخبر تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ودعوة له للتأسي بإبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ بالصبر على ما يلقاه من مكذبي قومه من أذى كما صبر إبراهيم ـ عليه السلام ـ على قومه [(١)].

وأختم شواهد هذا المبحث بقوله تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام:١٥٣] .

ومناسبة الآية لما قبلها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما بين ما وصى به في الآيتين المتقدمتين؛ وهما قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ...)، وقوله: (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) [الأنعام:١٥١-١٥٢]، أجمل في هذه الآية ما سبق بيانه؛ إجمالاً يقتضي دخول سائر الشريعة؛ فقال: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)[(٢)].

والشاهد في التعبير عن الصراط المستقيم؛ الذي أريد به الدين الذي ارتضاه الله ـ تعالى ـ لعباده وهو الإسلام[(٣)]، بالإفراد، وفي مقابله عبر عن سبل الباطل بالجمع؛ فقيل: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ) فما سر إفراد ما أفرد وجمع وما جمع..؟!.

إجابة عن ذلك قال ابن القيم ـ ما معناه ـ : إن إفراد الصراط المستقيم أتى لنكتة بديعة؛ وهي كون الحق واحداً لا تعدد فيه؛ إذ مرده إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملك الحق. بينما جمع طرق الباطل لتشعبها وتعددها، ومع هذا فإن على كل طريق منها شيطاناً يدعو إليه؛ من شياطين الجن والإنس وما أكثرهم[(٤)] .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٦/٥) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٨٥/٥) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٦/٥) .

(٤) ينظر : بدائع الفوائد (١١٩/١-١٢٠)، و: الضوء المنير على التفسير (١٠٩/٣-١١٠) .

ومن دقائق التعبير ـ أيضاً ـ التعبير عن سبيل الله ـ عزوجل ـ بكلمة "الصراط"، أما طرق الباطل فأتي التعبير عنها بكلمة "السبل"، ولعل في هذا إشارة إلى أن طريق الله ـ عزوجل ـ "صراط"؛ أي أنه طريق معد ومهيأ للسالكين، عليه تقوم منارات هدى، أما تلك السبل التي لا تستقيم على هذا الصراط فهي طرق بلا معالم، ولا دلالات عليها كبنيات الطريق، يركبها الراكب فيتخبط، ويتعثر، ويضل..(١) .

ولم تتوقف البلاغة القرآنية عند التعبير عن طريق الله الحق بالإتيان به مفرداً، واختيار كلمة "الصراط" للدلالة عليه فقط، إنما أضيف إلى ذلك أمران فيهما لطائف؛ هما:

الأول : إضافة "الصراط" إلى الضمير العائد على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: (صِرَاطِى)؛ وترجح عود الضمير إلى اسم الجلالة بدلالة قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)[الشورى:٥٢-٥٣]؛ و ذه الإضافة خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ وبيان ذلك أنه عدل بإضافة الصراط إلى ضمير المتكلم عن الطريق الذي جرى عليه الكلام ابتداء؛ وهو طريق الغيبة من قوله: (مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ) [الأنعام:١٥] إلى هذا الطريق؛ وهو طريق المتكلم بقوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا) وهذا ضرب من الالتفات؛ ولعل السر فيه للإيماء إلى عصمة هذا الصراط من الزلل؛ لأنه الطريق الذي وضعه رب العباد، الذي خلقهم، فهو العليم بما يصلح لهم، وبما تقوم عليه وبه حيا م في الدارين، فبما أنه صراط الله فهو كاف لإيصال سالكه إلى الفلاح والنجاح(٢) .

والثاني: تقييد كلمة "صراطي" بقوله: (مُسْتَقِيمًا)؛ ولعل هذا للتأكيد على أنه ومع كونه طريقاً واضحاً، لا أحد يضل فيه؛ فهو ـ مع ذلك ـ أيسر سلوكاً على السائرين فيه، وأسرع وصولاً م؛ لأنه طريق مستقيم لا اعوجاج فيه (٣).

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٤٨/٢) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٧٢/٨-١٧٣) .
(٣) ينظر : المرجع السابق (١٧٢/٨) .

ومع أن الحديث عن شاهد الإفراد والجمع قد انتهى إلا أن الآية ما زال فيها جملة من اللطائف البلاغية، التي تحسن الإشارة إليها من ذلك :

ت يل "الإسلام" م لة المشاهد، وذلك بالإشارة إليه باسم الإشارة "هذا" الموضوع لتعيين الذوات بطريق المشاهدة مع الإشارة؛ ولعل هذا لحضوره في أذهان المخاطبين من جراء تكرر نزول القرآن، وسماع أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى عرفوه وتبينوه؛ ف ل لذا م لة المشاهد [١].

وقوله: (وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ) جملة إنشائية طلبية، أتى النهي فيها ـ والله أعلم ـ لتأكيد الأمر باتباع الصراط المستقيم، إذ إن الأمر باتباعه بقوله: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) قد تضمن النهي عن اتباع غيره، فكان التصريح بالنهي تأكيداً للأمر[٢].

والمقصود بالسبل كل ما خالف الدين الإسلامي من ديانات كاليهودية، والنصرانية، وا وسية، وعبادة الأوثان... وغيرها من الملل المضللة[٣]؛ ومن ذنوب وشهوات محرمة، وأهواء وبدع مضلة[٤] .

وعلة ذلك النهي بينها قوله تعالى: (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)، فلما كان اتباع الصراط المستقيم والتمسك به هو الحق الموحد لأهله الجامع لكلمتهم المقوي لشوكتهم، كان اتباع السبل على عكسه؛ إذ فيه التشتت والتفرق، و ذا التفرق حل بأتباع الأنبياء ما حل من التخاذل، والتقاتل، والضعف والذلة. والمتأمل لواقع المسلمين اليوم يجد أ م حين أعرضوا عن الاهتداء بنور هذه التوجيهات الربانية..، وساروا مسالك الذين ظلموا أنفسهم، واتبعوا سننهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حل م ما حل بأولئك من الضعف

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٧٢/٨) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣٢١/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٦/٥) .

(٤) ينظر : تفسير الخازن (٢٠٠/٢) .

والهوان وضياع الحقوق.. ما يتألمون منه ويتململون[١]. ولو عادوا إلى الإسلام عودة حقيقية وتمسكوا بهذه الصراط المستقيم، لحصل لهم ما يتمنون من عزة، وقوة، وغلبة.

وذيلت الآية بقوله تعالى: (ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ)؛ أي لتتقوا الله ـ تعالى ـ في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروه فلا تسخطوه، فيحل بكم عذابه[٢] .

وقوله: (ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ) تأكيد لما سبق، وهذا أدعى لقبوله[٣].

وأتت فاصلة الآية بجعل الرجاء للتقوى؛ لأن هذه السبيل تتضمن ترك المحرمات، وتزيد بما تحتويه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين؛ أي الذين اتصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي، كقوله تعالى: (هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ) [البقرة:٢][٤]، ومن اتقى سخط الله ـ عز وجل ـ وعذابه باتباع الصراط المستقيم، نجاه النجاة الأبدية، وظفر بالسعادة السرمدية[٥] .

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (١٩٦/٨) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٦/٥) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٣٢١/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٧٤/٨-١٧٥) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٥٤/٤) .

المبحث الرابع

التذكير والتأنيث

التذكير والتأنيث

جاء في شرح المفصل أن الأصل في الأسماء التذكير، والتأنيث فرع عليـه [١]. ودل على ذلك أمران، هما [٢]:

الأول: **أن "شيء" اسم مذكر، ويندرج تحته المذكر والمؤنث، فبهذا هو أعم مـن المؤنث مطلقاً .**

الثاني: **أن المؤنث يفتقر إلى علامة تدل عليه، ولو كان أصلاً لم يفتقر إليها.**

فلفرعية التأنيث كان لا بد من علامة تدل عليه؛ وعلامات التأنيث ثلاث : التـاء، والألف، والياء [٣].

والاسم الذي لا تكون فيه علامة التأنيث إما أن يكون حقيقي التذكير، أو حقيقـي التأنيث أو مجازيهما. فإن كان مجازيهما فالأصل فيه التذكير؛ نحو: عـود وحـائط، ولا يؤنث شيء من ذلك إلا مقصوراً على السماع، وبابه اللغة؛ نحو: قدر، وشمس .

وإن كان حقيقي التذكير والتأنيث، فإما أن يمتاز فيه المذكر من المؤنث أو لا يمتـاز. فإن امتاز فيؤنث إن أريد المؤنث، ويذكر إن أريد المذكر؛ وذلك نحو: هند، وزيد. وإن لم يميز فيه المذكر من المؤنث، فإن الاسم إذ ذاك مذكر سواء أريد به المؤنـث أم المـذكر؛ وذلك نحو: برغوث [٤].

وذكر النحاة في هذا الباب فروقاً، وعللاً، وعلامات يطول باستعراضها الحديث [٥].

وأولى شواهد التذكير والتأنيث؛ آية أتت في سياق يعرض لمشهد من مشاهد الحشر؛ حين يواجه المشركون جميعاً بسؤالهم عن "الشركاء" أين هم...؟!؛ إذ لا أثر لهم، ولا هم

---

(١) ينظر : شرح المفصل (٨٨/٥) .

(٢) ينظر : السابق. الصفحة نفسها، و: شرح ألفية ابن معطي (١٢٢٢/٢) .

(٣) ينظر : شرح المفصل (٨٨/٥) .

(٤) ينظر : الأشباه والنظائر في النحو (٢٧٠/٣) .

(٥) للاستزادة ينظر : شرح المفصل(٨٨/٥) وما بعدها، و: شرح ألفية ابن معطي (١٢٢٣/٢) وما بعـدها، و: الأشباه والنظائر (٢٧١/٣) وما بعدها .

يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب...!. وهنا تستيقظ فطرهم مـن سـباتها العميـق، ويصيحون بما حكاه الله عنهم بقوله تعالى (١):

(ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ)[الأنعـام :٢٣].

والشاهد في قوله تعالى:(لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ)؛ فقد قرأ حمزة والكسائي "تكـن" بيـاء التذكير، وقرأها الباقون بتاء التأنيث. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص "فتنتهم" بالرفع، وقرأها الباقون بالنصب (٢).

أما علل ذلك التذكير والتأنيث؛ فبيانها على النحو التالي :

١- من قرأ كلمة "تكن" بالتاء، فحجته أنه أنث الفعل لتأنيث كلمة "الفتنة" وله على هذا في كلمة "فتنتهم" وجهان من الإعراب، هما :

الأول: الرفع على أنها اسم "تكن"؛ لأن التأنيث في الفعل دل على إسناد الفعـل للفتنة، والمصدر المؤول من "أن" والفعل في قوله تعـالى:(أَن قَالُواْ)خبرهـا، فـأتى بالكلام – في الإعراب – على رتبته من غير تقديم ولا تأخير(٣)، "والمعنى الإعرابي على ذلك: ثم لم تكن بينتهم التي ألزمتهم الحجة إلا أن قالوا: والله ربنا مـا كنـا مشركين (٤)" .

الثاني: النصب على أن "فتنتهم" خبر "تكن"، واسمها المـصدر المـؤول مـن "أن" والفعل؛ وتأويله "قولهم.."، فأبقي الفعل على تأنيثه مع تـذكير لفـظ "القـول"،

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٦٤/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٦٥/٥)، و: الكشف عن وجوه القـراءات الـسبع (٤٢٦/١)، و: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع (٢٥٥) .

(٣) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٢٦/١) .

(٤) التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم (١٤٢)، واستفاد الباحث من أبي حيان؛ ينظر : البحر المحـيط (٩٥/٤) .

والسؤال هنا كيف ساغ ذلك [١]؟!. والجواب ـ والله أعلم ـ " أن القول فتنة، والفتنة قول، فجاز أن يحل أحدهما محل الآخر . وأيضاً، فإن هذا المصدر قد يمكن أن يؤنث على معنى (المقالة)، ويذكر على معنى: (القول) [٢]" .فالشاهد هنا تأنيث المذكر على تأويله بمؤنث [٣].

٢- من قرأ "تكن" بالياء، فهذا أتى بلفظ التذكير؛ لتذكير "أن" وما بعدها في قوله:(أَن قَالُواْ) إذا نصب "فتنتهم" [٤]، وإن رفعها ـ مع تذكير الفعل ـ؛ فلأن الفتنة هي المعذورة، والمعذرة والعذر واحد، فذكر لتذكير العذر، ويجوز أن يكون ذكر لأن "الفتنة" هي "القول" في المعنى، فذكر لتذكير "القول"، إذ القول هو الفتنة[٥]. والشاهد هنا عكس سابقه؛ فهو هنا تذكير المؤنث على تأويله بمذكر، والله ـ تعالى ـ أعلم .

والمعنى: ثم لم يكن قيلهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله (إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) [٦]، فأتي بالخبر مؤكداً مضمونه بالقسم باسم الجلالة "الله"، وبكلمة "ربنا"؛ فللقسم اختير الاسم الدال على عظمة الإله، ثم أتبع بمؤكد له؛ وهو الوصف المذكر بالتربية، ودوام الإحسان، ليس ذلك فحسب، إنما أضيف الوصف إلى الضمير العائد عليهم "ربنا"؛ للإشعار بخصوصية هذا الوصف؛ أي: والله ربنا المحسن إلينا، المربي لنا "ما كنا مشركين"[٧] . وكل ما سبق ـ والله أعلم ـ للمبالغة في التبرؤ من الشرك يوم لا ينفع التبرؤ منه [٨].

---

(١) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٢٦/١)، و: التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم (١٤٢) .

(٢) الحجة في القراءات السبع (١٣٧) .

(٣) ينظر : التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم (١٤٣) .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٢٦/١) بتصرف .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٢٦/١) بتصرف .

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن (١٦٦/٥) بتصرف .

(٧) ينظر : نظم الدرر (٨١/٧) .

(٨) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٠/٣) .

وقد قيل: إ م إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله ـ جل وعلا ـ وتجاوزه عن أهل التوحيد، قالوا لبعضهم البعض: تعالوا نكتم الشرك؛ لعلنا ننجوا مع أهل التوحيد، فيقولون:(وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، فعندها يختم على أفواههم، وتشهد عليهم جوارحهم بكفرهم وإشراكهم [١].

ومن شواهد التذكير والتأنيث قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)[الأنعام :٥٥]

ومناسبة الآية لما قبلها أنه لما أتى في هذه السورة بما أتى من بدائع التفصيل بباهر الآيات البينات، وواضح الدلالات على صحة التوحيد، والنبوة، والمعاد، والقضاء والقدر قال هنا:(وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) [٢].

وللواو في قوله تعالى:(وَكَذَلِكَ) وجهان من التخريج؛ هما :

الأول: أن تكون عاطفة؛ عطفت الجملة على قوله تعالى:(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ)[الأنعام :٥٣]، وهو عطف للضد على ضده؛ لأن في الفتن والاختبار شيئاً من الخفاء؛ والمعنى: ومثل ذلك الفتن بإيراد بعض ما فيه من دقة وخفاء من بعض الوجوه؛ لنضل من نشاء، فيتميز الضال من المهتدي (نفَصِّلُ الآيَاتِ) [٣].

الثاني: أ ا قد تكون استئنافية، والجملة بعدها تذييل للكلام الذي مضى مبتدئاً بقوله تعالى:(وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)[الأنعام :٥١][٤].

---

(١) معالم التن يل (٢/٩٠) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٨/٥)، و: نظم الدرر (٧/١٣١) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٧/١٣١) .

(٤) التحرير والتنوير (٧/٢٦٠) بتصرف .

ومعنى الآية: وكما فصلنا في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها إلى هذا الموضع أدلتنا وحجتنا على المشركين من عبدة الأوثان ... وغيرهم، كذلك نفصل أدلتنا لبيان كل حق ينكره أهل الباطل من سائر الملل حتى يتبين الحق من الباطل، والصحيح من السقيم [1].

وشاهد التذكير والتأنيث في الآية؛ قوله تعالى:(وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ)؛ ففيها قراءتان إحداهما بتأنيث كلمة "سبيل"، والأخرى بتذكيرها. فقد قرأ أبو بكر وحمزة، والكسائي قوله:(وَلِتَسۡتَبِينَ) بالياء، ورفع "سبيل"، فهم أسندوا الفعل إلى "سبيل"، ورفعوا "سبيل" به؛ وذلك حملاً على تذكير السبيل .

وقرأ الباقون "ولتستبين" بالتاء على تأنيث السبيل، واسندوا الفعل إلى "سبيل"، ورفعوا "سبيل" به [2].

ومعنى الكلام عند هؤلاء وأولئك واحد؛ أي وكذلك نفصل الآيات، ولتتضح طريق المجرمين لك وللمؤمنين، أما الاختلاف بينهم ففي تذكير "السبيل" وتأنيثه [3].

وكلا القراءتين سواء، وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار؛ لأن من العرب من يذكر كلمة "السبيل"؛ وهم تميم وأهل نجد، ومنهم من يؤنثها؛ وهم أهل الحجاز فتذكر "السبيل" وتأنيثه لغتان مشهورتان من لغات العرب [4]، وقد جاء التنزيل بها مؤنثة ومذكرة، قال تعالى:(وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا)[الأعراف :١٤٦] فذكر. وقال ـ أيضاً ـ:(قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ)[يوسف :١٠٨] فأنث [5]. فلا خلاف إذاً بين قراءة "ولتستبين" بالتذكير أو التأنيث، ولا وجه

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٧/٥) .

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها وما بعدها، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٣٣/١) وما بعدها .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٨/٥) .

(٤) المرجع السابق. الصفحة نفسها بتصرف .

(٥) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٣٣/١) وما بعدها .

ـ أيضاً ـ لاختيار إحداهما على الأخرى [١]؛فعلى هذا يكون ذلك ضرباً من التفنن في التعبير..

وثمة قراءة ثالثة في الآية؛ وهي قراءة نافع؛ فقد قرأ "ولتستبين" بالتاء، ونصب "سبيل"، فجعل الخطاب فيها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأسند الفعل للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونصب "سبيل" على أ ا مفعول به [٢]، وكأن معنى الكلام عنده: ولتستبين أنت يا محمد سبيل ا رمين [٣].

قال الطبري: "وأولى القراءتين بالصواب عندي في السبيل الرفع"[٤]. وهذا الذي عليه أكثر القراء[٥]، والعلة في ذلك لأ ا أبين في المعنى؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ فصل آياته في كتابه المُنزل؛ ليتبين الحق من الباطل لجميع من خوطب ا، لا بعض منهم دون بعض، ومن قرأ "سبيل" بالنصب، فإنما جعل تبين ذلك محصوراً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٦].

ومن اللطائف البلاغية في قوله تعالى:(وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) إسناد فعل الاستبانه الذي هو بمعنى الظهور البين[٧]، إلى كلمة "سبيل وهذا من قبيل ا از العقلي، وقرينة هذا ا از أن هذه الاستبانه علة لفعل مقدر بيد الله ـ جل وعلا ـ؛ أي: ولتستبين سبيلُهم؛ يفعل الله ما يفعل من تفصيل الآيات[٨]، وكأن في إسناد الاستبانة للسبيل مبالغة في ظهور هذا الطريق وبيانه بياناً لا أوضح منه؛ إذ إن السبيل نفسه يظهر نفسه بنفسه .

وخص في النظم القرآني (سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) بالذكر دون سبيل المؤمنين؛ ولعل ذلك لأ م الأهم في هذا الموضع؛ إذ هم المقصود من هذه الآيات، وهي رد عليهم[٩]،

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٨/٥) .

(٢) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٣٤/١) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٧/٥) بتصرف .

(٤) المرجع السابق. (٢٠٨/٥) .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٣٤/١) بتصرف .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٨/٥)، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٣٤/١) .

(٧) ينظر : نظم الدرر (١٣١/٧) .

(٨) ينظر : التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم (١٨٤) .

(٩) ينظر : المحرر الوجيز (٦١/٦)، و: التحرير والتنوير (٢٦١/٧) .

ولإيضاح خفي أحوالهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعامة المسلمين [(١)]. ثم إن تبين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين[(٢)]؛ لأنه متى بانت خاصية أحد القسمين بانت خاصية القسم الآخر[(٣)]؛ ولأن دفع المفاسد مقدم وأهم [(٤)].

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)[الأنعام :٧٨].

والآية تأتي في سياق يعرض لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وتأملاته في ملكوت السموات والأرض بحثاً عن إلهه الحق؛ ورحلته في طريق الفطرة العميقة ... إلى اليقين الواعي بالإله الحق. وفي هذا الطريق سار إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فوجد الله ـ جل وعلا ـ الخالق المعبود بحق دون من سواه [(٥)].

وتدرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ في تأملاته، فلما لم ير في ملكوت الليل، وما بزغ فيه من نجم وقمر إلهه الذي ينشده شخص ببصره إلى ملكوت النهار، فرأى الشمس تبسط ضوءها، فَعلق ا نظره، واحتواها عقله وقلبه[(٦)]، ومع أن الشمس تطلع على إبراهيم ـ عليه السلام ـ كل يوم، إلا أ ا اليوم تبدو لعينيه ـ عليه السلام ـ كأ ا خلق جديد؛ لأنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى الإله الذي يطمئن به وإليه، وبعد التأمل والجهد الطويل استقر على قرار ثابت، نطق به على الملأ:(هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ) [(٧)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦١/٧) بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز (٦١/٦) بتصرف .

(٣) التفسير الكبير (٨/٥) بتصرف .

(٤) نظم الدرر (١٣١/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣٩/٢) .

(٦) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٢٥/٢) .

(٧) ينظر : في ظلال القرآن (١١٤٠/٢) .

وفي الإشارة إلى الشمس بقوله:(هَذَا رَبِّى) شاهد جلي على التذكير والتأنيث؛ وبيان ذلك أن كلمة "الشمس" مؤنثة، ومع هذا فقد أشير إليها بالاسم الموضوع للمذكر. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا؛ ما السر في إتيان التعبير القرآني بالإشارة للمؤنث بالاسم الموضوع للمذكر...؟.

ومما قيل في ذلك؛ ما يلي :

١- أن الإشارة في الآية ليست للشمس، إنما هي لمحذوف مذكر دل عليه الكلام؛ وتقديره: هذا الطالع ربي[١]، وعلى هذا يكون في الكلام إيجاز بالحذف، وصح لدلالة الكلام عليه .

٢- أن الإشارة حملت على معنى الكلام؛ أي هذا الضياء والنور، فأشار إلى الضياء؛ لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر؛قال تعالى:(هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء) [يونس :٥]، والضياء كلمة مذكرة؛ فلذا أُشير له بـ "هذا"[٢].

٣- أن المبتدأ في قوله:(هَذَا رَبِّى) جعل مثل الخبر؛ لكونهما عبارة عن شيء واحد، فذكر لذلك [٣].

٤- أن التعبير الذي أتي به في النظم القرآني قصد منه مراعاة الأدب مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ بترك التأنيث عند ذكر اللفظ الدال على الربوبية[٤]، واستدل الزمخشري على ذلك بقوله: "ألا تراهم قالوا في صفة الله علاّم، ولم يقولوا علاّمة، وإن كان العلاّمة أبلغ احترازاً من علامة التأنيث. "[٥].

٥- أن كلمة الشمس بلا علامة تأنيث تدل عليها، فلما أشبه لفظها لفظ المذكر، وكان تأويلها تأويل النور ساغ التذكير من هاتين الجهتين [٦].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٧/٥) .

(٢) ينظر : معالم التنزيل (١١١/٢)، و: التفسير الكبير (٤٦/٥)، و: البحر المحيط (١٦٧/٤) .

(٣) الكشاف (٢٥/٢) بتصرف .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: التفسير الكبير (٤٦/٥) .

(٥) الكشاف (٢٥/٢) .

(٦) ينظر : التفسير الكبير (٤٦/٥) .

٦- أن المشهور في كلمة "الشمس" أنها مؤنثة، وقيل: إنها تذكر وتؤنث، فأنثت أولاً في قوله:(بَازِغَةً) من قوله تعالى:(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً) على المشهور، ثم ذكرت في الإشارة إليها على اللغة القليلة؛ مراعاة ومناسبة للخبر، فرجحت لغة التذكير التي هي أقل على لغة التأنيث [١].

٧- قيل إن الإتيان بلفظ التذكير؛ لكون التأنيث في "الشمس" غير حقيقي[٢]. ولعل أقرب هذه الأقوال إلى الصحة أولها؛ لوجاهته، ولا يعني هذا بطلان ما سواه؛ أبداً؛ بل إنها قد تجتمع كلها، أو بعضها، مع غيرها لتثري النص باللطائف والتوجيهات، التي تدل على ثراء لغة القرآن وبلاغتها .

ومن أسرار النظم القرآني في الآية الكريمة ـ غير ما تقدم ـ :

في قوله تعالى:(هَذَا أَكْبَرُ) سيقت الجملة ـ والله أعلم ـ لبيان العلة في اختياره للشمس إلهاً[٣]، وهذا من المبالغة في إظهار مجاراته لقومه، وتمهيد قوي لإقامة الحجة عليهم، واستدراج لهم ليتمادوا في الاستماع له[٤]. والمعنى: إن هذا أكبر من القمر والكواكب قدراً، وهو أعظم ضياء ونوراً، إذاً هو أجدر منهما بالربوبية بما أن المدار فيها على التفاضل والخصوصية [٥].

(فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)، لكن الشمس ـ أيضاً ـ تغيب، وحين غابت ودعها ـ عليه السلام ـ غير آسف؛ لأن قلبه أشرق بنور الإله الحق؛ الإله الذي يسير هذه الكائنات، ويصرفها كيف شاء ...[٦].

---

(١) البحر المحيط (١٦٧/٤) بتصرف .

(٢) تفسير الخازن (١٥٣/٢) بتصرف .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٦١/٧) .

(٤) تفسير القرآن الحكيم (٥٦٢/٧) بتصرف .

(٥) المرجع السابق . الصفحة نفسها بتصرف .

(٦) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٢٥/٢) .

ولما كانت القلوب قد فرغت بما ألقى من هذا الكلام المعجب للحجة، و يأت النفوس لقبول الحق؛ ختم الآية بقوله:(إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ)[١]، فصرح ـ عليه السلام ـ بالنتيجة من ذلك التعريض، وهو التبرؤ من شرك قومه، الذي أظهر مجارا م عليه ابتداءً[٢].

وثمة لطيفة بديعة في اختيار كلمة "بريء"؛ إذ إن البراءة من الشيء التقصي منه والتنحي عنه لاستقباحه، والشرك من أعظم القبائح، والسلامة منه كالبرء من المرض[٣].

ويلحظ في الآية الكريمة تسمية عباد م للأصنام إشراكاً؛ والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن قومه ـ عليه السلام ـ كانوا يعترفون بالله، ثم هم يشركون معه في الإلهية غيره، كما كان إشراك العرب، وهو ظاهر آي القرآن الكريم؛ فقد ورد الاحتجاج عليهم بخالق السموات والأرض. فكان من المناسب في هذه السورة ضرب المثل لمشركي العرب بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه؛ لأخذ العظة والعبرة منها[٤].

(١) نظم الدرر (١٦١/٧) بتصرف .

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٦٢/٧) .

(٣) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢٣/٧) .

وأختتم شواهد التذكير والتأنيث بقوله تعالى:

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الأنعام : ١١٠].

والآية تأتي بعد قوله تعالى:(وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا) [الأنعام:١٠٩]، وهي عطفت على قوله تعالى:(أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[الأنعام :١٠٩][1]. وفيها يخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يحول بين أولئك الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وبين الإيمان؛ بتقليب أفئدتهم وأبصارهم كيف شاء، فلا ترى الحق ولا تعرف موضع الحجة ...، ولو جاءتهم الآية التي سألوا لا يؤمنون، كما لم يؤمنوا بما جاءهم ... قبل هذه المرة [2].

والشاهد في قوله تعالى:(كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)؛ فأتي بالضمير في "به" مذكراً، ولربما تساءل القارئ عن نكتة هذا التذكير، أو لم يكن من الملائم نظراً لقوله تعالى قبله:(وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[الأنعام :١٠٩]أن يؤنث الضمير..؟!.

والجواب ـ والله أعلم ـ أن الضمير في الآية يعود على ما فهم منها من معنى أي: كما لم يؤمنوا بتقليب الآيات أول مرة، فالضمير عائد على "التقليب" [3]. ومما قيل ـ أيضاً ـ أنه قد يكون عائداً على القرآن الكريم، أو على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [4].

ولعل أولى الأقوال بالأخذ عود الضمير على القرآن الكريم؛ ويقويه أن المشركين طلبوا ـ فيما سبق ـ آية غير القرآن الكريم الذي كذبوا به [5]، فعندما اختير في التعبير القرآني تذكير الضمير فذاك ـ والله تعالى أعلم ـ لعوده على القرآن المكذب به، لا

---

(١) ينظر : شفاء العليل (١٧٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٩/٥)، و: شفاء العليل (١٧٢) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٩/٥) .

(٤) التفسير الكبير (١١٦/٥) بتصرف .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٤٤٢/٧) .

على الآيات التي جاء م عامة، وهذا من دقائق النظم القرآني إذ خص هنا "القرآن الكريم" بالذكر دون سواه من الآيات التي جاء م؛ لما له من شرف وعظم بلغ به حد التحدي؛ فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لا يأتون، كما قال تعالى:(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[الإسراء :٨٨].

ومع ذلك كذب المشركون بالقرآن الكريم أعظم آية دلت على صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعلم من تكذيبهم به أن المكابرة والعناد لهم سجية [(١)]. فلتكذيبهم بتلك الآية العظيمة أول مرة عوقبوا بتقليب أفئد م وأبصارهم، وأُستشف هذا المعنى من "الكاف": من قوله تعالى:(كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ)، فكاف التشبيه تضمنت نوعاً من التعليل، وهو كقوله تعالى:(وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)[القصص:٧٧]، والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر[(٢)]، وفي هذا تظهر بلاغة التعبير بالحرف في النظم القرآني .

وفي الآية إشارة إلى أن من رد الحق لمخالفته هواه، فإنه يعاقب بتقليب قلبه [(٣)]. وفيها دلالة على أن الذين لا يؤمنوا بآيات الله ـ عز وجل ـ لا يهديهم الله، ولا هم بآياته ينتفعون؛كما قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) [النحل : ١٠٤ - ١٠٥]، ويبقى القرآن عليهم عمى ـ والعياذ بالله ـ ولا يستطيعون الاهتداء به، ولو أ م عظموا القرآن وقدروه حق قدره، وامتثلوا ما جاء فيه من أوامر، وتركوا ما فيه من منهيات، وصدقوا ما جاء فيه من الأخبار ... لاهتدوا [(٤)].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٤٤٢/٧).

(٢) ينظر : شفاء العليل (١٧٢) .

(٣) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٧٧/٣) .

(٤) ينظر : شرح العقيدة الواسطية (٤٤٦/١) وما بعدها .

وكما ذُكر الضمير في الآية، ذُكرت ـ أيضاً ـ كلمة "أول" مع أ ا أضيفت إلى "مرة" إضافية الصفة إلى الموصوف، ونكتة هذا التذكير ترجع ـ والله أعلم ـ إلى علة نحوية تنطق بفصاحة اللغة في النظم القرآني؛ إذ إن أصل كلمة "أول" اسم تفضيل، واسم التفضيل إذا أضيف إلى النكرة تعين فيه الإفراد والتذكير، كما يقال: خديجة أول النساء إيماناً، ولا يقال: أولى النساء [١].

ومن لطائف النظم في الآية :

قوله تعالى:(وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَارَهُمۡ) التقليب: "تحويل الشيء وتحريكه من وجهه إلى وجه آخر"[٢]، وفي كلمة "نقلب" إيحاء بما عليه أولئك المكذبون من حيرة، وتردد، واضطراب ... حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فكان الضياع، والتيه، والضلال [٣].

ويستدل من هذا أن الله ـ تعالى ـ يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن القلوب بيده والأبصار يقيم منها ما شاء ويزيغ ما شاء [٤]. وقد صح عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء". ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك"[٥]. وروي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أ ا قالت: "دعوات كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر [أن] يدعو ا: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت: فقلت يا رسول الله، إنك تكثر تدعو ذا الدعاء؟ فقال: إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ـ عز وجل ـ فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه"[٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٤٤٣/٧) .

(٢) تفسير الخازن (١٧٢/٢) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٢٠٣/٤) .

(٤) ينظر : تفسير الخازن (١٧٢/٢) .

(٥) رواه مسلم في صحيحه. كتاب: القدر. باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء. (١٤٢٧). حديث رقم : ٢٦٤٥

(٦) رواه أحمد في مسنده. (١٨٤١). حديث رقم :٢٥١١١

ومن وجوه البلاغة في الآية التقديم؛ فقد قدم ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار؛ ولعل هذا لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب، فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليها شاء أم أبى، وإذا حصلت الصوارف فيه انصرف البصر عنها، فهو وإن كان يبصرها في الظاهر إلا أن إبصاره ذاك لا يكون سبباً للوقوف على ما يراد منها من انتفاع؛ لانصراف القلب عنها (١).

وقوله:(وَنَذَرُهُمۡ فِى طُغۡيَانِهِمۡ يَعۡمَهُونَ) الطغيان هو الإفراط في الشر (٢). وفي إضافته إلى ضميرهم دلالة على تأصل الطغيان فيهم، ونشأ م عليه، وأ م حرموا رقة القلب ولينه التي تنشأ عنها الخشية والذكرى (٣).

والظرفية في قوله:(فِى طُغۡيَانِهِمۡ) مجازية، ولعل الإتيان ا للدلالة على التمكن والإحاطة، فالطغيان محيط م وبقلو م (٤).

وقوله:(يَعۡمَهُونَ) "العمة التردد والحيرة"(٥)، والتعبير بالجملة الفعلية أفاد تجدد حير م وترددهم ... مع كل آية ترد عليهم من عند ر م. وهي كلمة موحية توحي باضطراب أهل الشر والكفر، وحير م، وشتا م، وقلقهم النفسي العميق.

وفي الآية تنبيه على أن ما هم فيه من عمه ناشئ عن طغيا م، فما ظلمهم الله ـ تعالى ـ ولكن أنفسهم كانوا يظلمون (٦).

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١١٥/٥) .

(٢) المحرر الوجيز (١٣٠/٦) بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٤٤٤/٧) .

(٤) ينظر : المرجع . الصفحة نفسها .

(٥) المحرر الوجيز (١٣٠/٦) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٤٤٤/٧) .

المبحث الخامس

التنكير والتعريف

التنكير والتعريف

الناظر في كتب البلاغة يجد البلاغيين قد قدموا ذكر "التعريف" في المسند إليه على تنكيره، وفي المسند فعلوا العكس؛ والسبب ـ كما علل السعد في شرحه ـ لأن الأصل في المسند إليه التعريف، والأصل في المسند التنكير[١] .

وفيما يتعلق بالكلمة عامة فالتنكير هو الأصل فيها؛ لأنه مطلق، بينما التعريف يقيدها ويحصرها بأداة من أدوات التعريف[٢]، ومن المعلوم أن الإطلاق مقدم على التقييد.

ويراد بالنكرة واحد من أفراد الجنس، ويؤتى ا عند عدم تعين هذا الفرد، ولها معان عدة لم تفدها بطبيعتها، إنما استفاد ا من المقام الذي أتت فيه[٣] .

وليس للتنكير أي أداة إلا أن يجرد اللفظ من أدوات التعريف[٤] . وأدوات التعريف التي أوردها البلاغيون ست؛ وهي[٥] :

١- التعريف بالإضمار؛ أي الإتيان بالضمير في مقام التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة .
٢- التعريف بالعملية .
٣- التعريف بالموصولية .
٤- التعريف بالإشارة .
٥- التعريف بـ "ال".
٦- التعريف بالإضافة .

---

(١) ينظر : شرح السعد. ضمن شروح التلخيص (١/٢٨٧) .

(٢) ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل (٤٦) .

(٣) ينظر : من بلاغة القرآن (١٢٨) .

(٤) ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل (٤٦) .

(٥) ينظر : الإيضاح (٤١) وما بعدها، و: شروح التلخيص (١/٢٨٨) وما بعدها .

ويسهم المقام في الكشف عن الأغراض البلاغية لاستخدام هذه الأداة أو تلك. وتتسع ـ في الوقت نفسه ـ دلالات الأداة الواحدة وإيحاءاتها، وهذا مما يثري النصوص باللطائف البديعية .

وفي هذا المبحث سأعرض لشواهد هذا الأسلوب البليغ دون أن أعمد إلى تقديم أحدهما على الآخر بالذكر، أو إفراد شواهد كل قسم بالتحليل، إنما سأورد الآيات، ثم أبين طرفاً مما حضيت به من نكت التعريف أوالتنكير، مع الإشارة إلى ما يتيسر من أسرار النظم القرآني فيها.

وفاتحة الشواهد قوله تعالى:

(أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)**[الأنعام :٩٠].**

وجملة " أولئك الذين هدى الله" تكرار لمضمون ما قبلها، وهو قوله تعالى:(وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**[الأنعام :٨٧]، وقوله:**(أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ)**[الأنعام :٨٩]، وهي استئنافية فصلت عما قبلها لما بينهما من كمال اتصال؛ إذ إنها بمنزلة التوكيد لما سبق؛ وليبنى ـ أيضاً ـ على تلك المدائح التفريع في قوله تعالى:**(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[1]**.**

وأول ما يصافح عيني القارئ في الآية كلمة "أولئك"، والمعرف أنما هو من أشير إليهم بـ "أولئك" الأولى بقوله تعالى: (أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) **[الأنعام:٨٩]؛وهم الأنبياء الذين سبق ذكرهم في السياق[2] بقوله تعالى:** (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ۝وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٨٣/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٥٤/٧) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٧٥/٤) .

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٨٣ – ٨٧].

فتكرر اسم الإشارة "أولئك" فيه تأكيد لما سبق؛ وهو مدحهم، وفيه اهتمام بالخبر المسوق(١) .

فالمقام مقام مدح، لذا فإن لاختيار تعريفهم باسم الإشارة لطيفة لا تخفى؛ فقد قصد ـ والله أعلم ـ تمييزهم أكمل تمييز. وإيثار الاسم الذي يشار به للبعيد فيه إضفاء المزيد من التمييز؛ تمييز هم يستحقونه؛ إذ يؤذن "أولئك" بعلو مكانتهم، وبعد منزلتهم(٢).

ويلحظ ـ إضافة لما قيل ـ أن في تعريف من سبق من الأنبياء بـ "أولئك"؛ فيه إيجاز لطيف أغنى عن إعادة ذكر أسمائهم هنا .

وكما عرف المسند إليه عرف المسند، غير أن الأداة تغيرت، فُعرف المسند بالموصولية بقوله تعالى: (الَّذِينَ هَدَى اللّهُ)؛ ولعل تعريفهم بالاسم الموصول للتنبيه على أن مدلول الصلة هو الذي عليه مدار الحكم، والذي يراد تسليط الضوء عليه.

و "الهدى ضد الضلال، و... يطلق في مقام الدين على الطريق الموصول إلى الحق؛ وهو الصراط المستقيم الذي نطلبه في صلاتنا، وعلى سلوك ذلك الطريق والاستقامة في السير عليه"(٣).

والمعنى أن أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم فيما سبق من آيات، والذين وصفهم الله ـ تعالى ـ بأنه أتاهم الكتاب والحكم والنبوة هم الذين هداهم الله ـ جل وعلا ـ لدينه الحق، وصراطه المستقيم(٤).

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٨٣/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٥٥/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦٠/٣) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٥٩٥/٧) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦١/٥)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٠/٣)، و: تفسير القرآن الحكيم (٥٩٧/٧) .

وفي قوله: (هَدَىٰ اللّهُ) عدل عن تعريف المسند إليه بالإضمار ـ نظراً لما عليه السياق ـ إلى الإظهار باسم الجلالة "الله" الذي هو أعرف المعارف، وهذا العدول من أساليب الالتفات، ومن بلاغة الإتيان باسم الجلالة في هذا المقام؛ الإشعار بعلو شأن تلك الهداية وعظمها[١]، فهي من "الله" العظيم. وقرن هذا الخبر بالمهابة والجلالة[٢].

ومن براعة النظم القرآني في الآية ما أضفاه تعريف المسند والمسند إليه في قوله: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللّهُ) على الجملة من بلاغة؛ فقد أفاد تعريفها "قصر جنس الذين هداهم الله على المذكورين تفصيلاً وإجمالاً؛ لأن المهديين من البشر لا يعدون أن يكونوا أولئك المسمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، فإن من آبائهم آدم وهو الأب الجامع للبشر كلهم، فأريد بالهدى هدى البشر، أي الصرف عن الضلالة، فالقصر حقيقي"[٣].

(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)؛ أي بالهدى الذي هديناهم، والعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا اقتده ـ يا محمد ـ وخذ به؛ فهو عمل لله فيه رضى، ومنهاج من سلكه اهتدى[٤] .

وفي إضافة الهدى إلى الضمير العائد على من سبق ذكره من أنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ فيه ـ والله أعلم ـ تعظيم لشأنهم، وتشريف لهم؛ إذ أضيفت الهداية التي بلغت الذروة في العظمة عندما أشير إليهما، والتي اقترنت باسم الجلالة "الله" ـ كما مر ـ إلى ضميرهم ـ عليهم السلام ـ .

وفي الآية دلالة على أنه "...لا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقتدي به. ولما قاموا بحقيقته: علماً، وعملاً، ودعوة، وجهاداً جعلهم الله أئمة الخلائق"[٥].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦٠/٣) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٥٥/٧) بتصرف .
(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦١/٥) .
(٥) الضوء المنير على التفسير (٥٤/٣) .

ومن أسرار النظم هنا؛ تقديم الجار والمجرور "بهداهم" على عامله، ونظر الزمخشري في بلاغة هذا التقديم فوجدها إفادة القصر، وقال ـ ما نصه ـ: "فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم"[١]. ففيه قُصر اقتداؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هداهم ـ عليهم السلام ـ لا على هدى غيرهم.

ومن نظر ـ أيضاً ـ في بلاغة هذا التقديم ابن عاشور، وأشار إلى أنه قدم "بهداهم" للاهتمام بذلك الهدى؛ لأنه هو منزلة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجامعة للفضائل والمزايا، فلا يليق به ـ عليه الصلاة والسلام ـ الاقتداء بهدى هو دون هداهم [٢].

وفي جملة "فبهداهم اقتده" إيحاء لطيف؛ فهي توحي بالحكمة العليا لذكر قصص الأنبياء في القرآن عامة[٣]، وقصة إبراهيم في هذه السورة خاصة؛ لأن جملة من آياتها أتت معرفة بالعقيدة التي جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ربه؛ وذلك التعريف كان بعرض حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية وما بينهما من ارتباطات، فذكر قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هنا مهدت للأمر باقتدائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ به.

ومما يسترعي الانتباه في النظم ما كان فيه من إفراد لذكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ هنا دون ذكره مع الأنبياء المتقدمين، ولعل هذا للتنبيه إلى علو منزلته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنها منزلة جديرة بأن تفرد بالذكر[٤]؛ فمع أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ جاء بالحق، وصدق المرسلين، ولم يكن بدعاً منهم...، إلا أنه ـ مع ذلك ـ كان له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الفضائل والمناقب ما جعل له التميز؛ إذا علم أنه مهتد بهديهم كلهم، وبهذا كانت فضائله ومناقبه أعلى من جميع فضائلهم ومناقبهم؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اقتدى بها كلها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقاً فيهم إضافة إلى ما اختص به دونهم؛ ولذلك شهد الله ـ تعالى ـ له بما لم يشهد به لأحد منهم؛ فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم

---

(١) الكشاف (٢٦/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٥/٧) بتصرف .

(٣) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٩٨/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٥٥/٧) .

:٤]، ومن أعلى ما فضل به ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليهم عموم بعثته؛ فهي للناس كافة، وللجن والإنس. وختم النبوة والرسالة ا، وإنما كمال الأشياء في خواتيمها[١].

ومن التنكير في الآية تنكير كلمة "أجراً" من قوله: (قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا) وقد يكون تنكيرها للتحقير والتقليل؛ فهم إن كانوا يستثقلون الاستجابة لدعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لظنهم أنه سيسألهم أجراً على تبليغهم إياها، فهم واهمون؛ إذ ذاك الأجر الذي يترائى لهم لا يمكن أن يكون إلا شيئاً حقيراً تافهاً، يزداد ضآلة أمام إخلاص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصدقه، وعلو همته. ومع حقارة ذاك الأجر فهو ـ أيضاً ـ قليل لا يساوي أي شيء أمام ما يرجوه، وينتظره عند الله ـ تعالى ـ فهل يستبدل الأدنى بالذي هو خير؟!.

وفي جملة "إن هو إلا ذكرى للعالمين" اجتمع تعريف وتنكير؛ فالتعريف بالضمير "هو". ومعنى الكلام ـ كما ذكر الطبري ـ " لا أسألكم على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به عوضاً... وأجراً آخذه منكم، وما ذلك مني إلا تذكير لكم"[٢]، ففهم مما سبق أن الضمير يرجع إلى التذكير والتبليغ، هذا رأي، وثمة رأى أخر للقرطبي أرجع فيه الضمير إلى القرآن الكريم[٣]. ولعل هذا القول أقوى من سابقه، ويستأنس له بقوله تعالى في هذه السورة: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ)[الأنعام:١٩]، ثم في سياق آخر قال: (وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ) [الأنعام :٦٦]، فقد يكون ذكر القرآن أولاً ، ثم إعادة ضمائر الغائب عليه مما يفهم منه أنه هو المراد بضمير الغائب هنا، والله أعلم بمراده، ويستأنس ـ أيضاً ـ بقوله تعالى في سورة طه: (مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ)[طه :٢-٣].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٩٨/٧) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٢/٥) .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٦/٧) .

أما تعريفه بضمير الغائب فربما يكون لإثارة انتباه السامع وتثبيت ما يراد من معنى في ذهنه .

وتنكير "ذكرى" للتعظيم؛ تعظيم شأن القرآن، أو الغاية التي من أجلها أنزل.

وكان لانتظام كلمتي "هو" و "ذكرى" في جملة قصر عن طريق النفي بـ "إن" ـ التي بمعنى "ما" ـ والاستثناء بـ "إلا" أثره في تأكيد المعنى، مع ما في هذا الأسلوب وهذا الطريق على وجه الخصوص من قوة جعلته طريقاً يجابه المنكر به .

وفي الجملة دلالة على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبعوث إلى أهل الدنيا قاطبة لا إلى قوم دون قوم؛ فهي دليل على عموم بعثته [(١)].

ومن آيات العقيدة التي كان للتنكير والتعريف بأدواته دور في إثرائها باللطائف؛ قوله تعالى:

(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) [الأنعام :٩١].

ومناسبة الآية للسياق أن الله ـ تعالى ـ لما حكى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه وكيف أبطل الشرك وأثبت التوحيد، شرع بعد ذلك في إثبات النبوة، فقال: (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[(٢)].

ومعنى: (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)؛ أي ما عظموا الله حق تعظيمه، وما أجلوه حق جلاله [(٣)]، ولا عرفوه حق معرفته [(٤)].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥/٥٨) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٢٦٢) .

(٤) الكشاف (٢/٣٦) بتصرف .

ومن التعريف في الجملة؛ التعريف بالإضافة في كلمة "قدره"؛ فقد أضيفت الكلمة إلى الضمير العائد على أعرف المعارف؛ وهو اسم الجلالة "الله"؛ ولعل ذلك لتعظيم قدره؛ أي قدره العظيم، اللائق به ـ تعالى ـ وبعظمته. فوقع في هذه الجملة تعظيمه ـ سبحانه وتعالى ـ مرتين؛ الأولى: حين جيء بالاسم العظيم "الله"، والثانية: بإضافة القدر إلى الضمير العائد على اسم الجلالة "الله". ولعل هذا التعظيم مما يقتضيه المقام؛ إذا المقام مقام ذم وتشنيع للمنكرين ـ يهوداً كانوا أو مشركين ـ إنكارهم الرسالات والنبوات، فكان في إظهار ما يستحقه ـ سبحانه وتعالى ـ من عظمة وتعظيم؛ كان فيه مزيد تشنيع عليهم.

وهو تشنيع هم يستحقونه (إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ)، ومقولتهم هذه ضمت تكذيباً سافراً، وكفراً بواحاً؛ فكلمة "بشر" جيء ا نكرة في سياق النفي، وأفاد هذا العموم؛ أي جميع الناس، ولو أ ا لم تفد العموم لما كان قوله تعالى: (قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ) إبطالاً له، ونقضاً عليه، ولو لم يكن كذلك لفسد هذا الاستدلال، فتبين أن النكرة ـ كما هنا ـ في موضع النفي تعم[1]. ويعم مقالهم ـ أيضاً ـ جميع ما أنزل الله ـ تعالى ـ باقترانه بـ "من" في حيز النفي؛ للدلالة على استغراق الجنس. ويعم إنزال الله ـ تعالى ـ الوحي على البشر بنفي المعلق ذين العمومين[2].

فنفوا فيما قالوا أعظم منة امتنها الله ـ تعالى ـ على عباده، وهي الرسالة وهداية الناس بوساطة الرسل. وتحت هذا النفي ينطوي قدح لحكمته ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ بزعم أنه ـ تعالى ـ يترك عباده هملاً رعاعاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، وفيه ـ أيضاً ـ قدح لصفات أخرى لله ـ تعالى ـ غير صفة الحكمة، كالكلام، والرحمة، واللطف... فأي

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٦٢/٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٦٢/٧) بتصرف .

قدح أعظم من هذا، وكيف لا يشنع على من أنكر إرسال الرسل وإنزال الكتب من عند الله ـ جل وعلا ـ؟!(١).

ووبخهم، ونعى عليهم سوء جهلهم، وعظيم افترائهم، وشدة وقاحتهم، وعدم حيائهم.. بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٢)؟!.

وافتتحت الجملة بالأمر بالقول اهتماماً بمضمونها(٣). وفيها خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى آخر فهم من السياق؛ وهو التقرير على موضع الحجة، بقصد إفحام أولئك المنكرين، وتبكيتهم، وإلقامهم حجراً يسد أفواههم التي تقذف الكذب والبهتان(٤). وذاك لأن ما أُحتج عليهم به أمر لا يستطيعون جحده؛ لتواتره في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ـ عليه السلام ـ والكتاب الذي جاء به(٥). والله ـ سبحانه وتعالى ـ يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ـ كما هنا ـ، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك... وهذا في القرآن كثير(٦).

و "الكتاب" التوراة(٧). وعرفت الكلمة بأل، وتعريف الكتاب بهذه الأداة إما أن يكون للعهد، أي الكتاب الذي عرفتموه وهو التوراة. أو يكون للدلالة على كماله؛ أي الجامع للأحكام والمواعظ، وخيري الدنيا والآخرة(٨)، فهو كتاب نزل والكمال له صفة.. لكن اليهود حرفوه وألبسوه النقص ـ كما سيأتي ـ.

وعرف "الكتاب" أخرى بالموصولية؛ "الذي جاء به موسى"؛ ولعل هذا لتقرير الغرض الذي سيق له الكلام، وهو إثبات كمال الله، وإرساله الرسل، وإنزاله الكتب،

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (٢/٤٣٢)، و: التحرير والتنوير (٧/٣٦٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٧/١٨٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٣٦٢).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز (٦/١٠٤)، و: إرشاد العقل السليم (٣/١٦١).

(٥) التحرير والتنوير (٧/٣٦٢) بتصرف.

(٦) مدارج السالكين (٣/٤٠٦) بتصرف.

(٧) المحرر الوجيز (٦/١٠٤) بتصرف.

(٨) ينظر: نظم الدرر (٧/١٨٥).

فـ "الكتاب" الذي هو التوراة نص على مجيئه، فكيف بعد هذا يزعمون أن الله ما أنزل على بشر من شيء؟! ففي هذا التعريف زيادة التقريع وتشديد التبكيت(١).

وزيد تقريعهم وتبكيتهم بتقييد الجملة بالحال بقوله: (نُورًا وَهُدًى)(٢)، ومعنى "نوراً"؛ أي هو جلاء وضياء من ظلمة الضلالة، و "هدى" أي بياناً للناس يبين لهم به الحق من الباطل في أمور دينهم(٣). وتنكير "نوراً" و "هدى" للتعظيم... وهذا التعظيم مما يزيد تقريعهم وتبكيتهم، وفيه تمهيد لذمهم وتوبيخهم.

وقوله: (نُورًا) تشبيه للكتاب بالنور الذي يبين الطريق(٤). ورأى ابن عاشور أن "نوراً" هنا استعارة للوضوح والحق، فكما يشبه الباطل بالظلمة، فكذا يشبه الحق بالنور، ولذلك عطف عليه "هدى"، ونظيره قوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) [المائدة :٤٤]،ولو أطلق النور على سبب الهدى لصح لولا هذا العطف، كما قال تعالى: (وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)[الشورى :٥٢](٥). فإن كون الكتاب بيناً بنفسه، ومبيناً لغيره مما يؤكد الإلزام أي تأكيد(٦).

ومن التعريف في الجملة تعريف الناس في قوله: (وَهُدًى لِّلنَّاسِ)؛ وقد أفاد تعريفها الاستغراق العرفي؛ أي الناس الذين هم قومه؛ وهم بنو إسرائيل(٧).

ومن إيحاءات الجملة أن الاعتراف بإنزال التوراة يستلزم اعترافهم بإنزال القرآن قطعاً؛ لما في التوراة من الشواهد الناطقة به(٨) .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦١/٣) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٥/٥) بتصرف .

(٤) التفسير الكبير (٦٢/٥) بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير (٣٦٣/٧) وما بعدها بتصرف .

(٦) إرشاد العقل السليم (١٦١/٣) بتصرف .

(٧) التحرير والتنوير (٣٦٤/٧) بتصرف .

(٨) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦١/٣) .

(تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا)، وقرئت الآية بالتاء في الأفعال الثلاثة على الخطاب لليهود، وبالياء على الغيبة. وذهب الطبري إلى أن الخبر من أول السورة إلى هذا الموضع خبر عن مشركي قريش عبدة الأوثان، وقوله: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ) موصول به غير مفصول، فرجح لذلك قراءة الياء على المعنى: أن اليهود يجعلونه قراطيس يبدو ا ويخفون كثيرا[١].

أما قراءة الآية بالتاء ـ وهي التي عليها قراءة حفص عن عاصم ـ فيكون الكلام عليها قد خرج من مخاطبة كفار قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل، والغرض من هذا الخطاب توبيخهم وتوبيخ أفعالهم[٢]؛ فهو خطاب لذلك الجنس الذي فعلوا ما ذكر في الآية، بمعنى: تجعلونه ـ يا ما من أنزل عليه ـ على ذلك النحو[٣].

ولا فساد في نظم الآية على هذه القراءة؛ لأن كفار قريش وأهل الكتاب لما كانوا متشاركين في إنكار نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يبعد أن يكون الكلام الواحد وارداً بعضه خطاباً مع كفار مكة، وبعضه يكون خطاباً لأهل الكتاب[٤].

ومعنى (تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ)؛ "أي قطعاً تكتبو ا من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم"[٥]؛ ولعل الإتيان بكلمة "قراطيس" نكرة لتحقير شأ ا، والحط من قدرها، فذلك الكتاب العظيم البين المبين.. صيرتموه قراطيس مبعثرة.. لا قيمة لها ولا شأن.. فكيف دي الناس للحق وهي محرفة، وكيف تجمعهم عليه وهي متفرقة..؟!، فـ "فيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم"[٦].

ولربما قيل: إن كل كتاب لا بد من أن يودع في القراطيس، فما السبب إذاً في حكاية الله ـ تعالى ـ هذا المعنى في معرض الذم لهم...؟!.

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٤/٥) .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (١٠٥/٦) .

(٣) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٥٨/٣) .

(٤) التفسير الكبير (٦١/٥) بتصرف .

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٤٨/٢) .

(٦) إرشاد العقل السليم (١٦١/٣) .

والجواب: أن الذم لم يقع على هذا المعنى فقط، بل المراد أنهم لما جعلوه قراطيس، فرقوه وبعضوه، فتمكنوا بهذا الفعل إبداء بعضه وإخفاء كثير منه[١].

وتوبيخهم بصفة الإبداء والإخفاء؛ هو على إخفائهم للآيات الدالة على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٢]، فتلك الصفة لهم هي في محل الذم؛ لأن الله ـ تعالى ـ أنزل كتبه للهدى،والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلان ما فيها، فمن فرقها ليظهر بعضاً ويخفي بعضاً، فقد خالف مراد الله ـ تعالى ـ منها[٣].

(وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ)، والخطاب فيه لمن آمن من العرب، والغرض منه ذكر منة الله ـ تعالى ـ عليهم؛ بتعليمهم بالقرآن ما لم يكونوا به عالمين؛ من أخبار من قبلهم، ومن أنباء من بعدهم، وما هو كائن في معادهم يوم القيامة[٤].

ولعل اختيار "ما" الموصولة في هذا المقام لقصد تفخيم ذلك العلم الذي جاءهم من الله عن طريق نبيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ فهو علم من الفخامة بحيث لا تتسع العبارة لوصفه، ويضيق المقام عن ذكره، وتعجز أفهام البشر عن الإحاطة به. فأي علم ـ مثلاً ـ يوازي ما ورد في الآية من علم؛ وهو: "أن يخبر [صلى الله عليه وسلم] أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله"[٥].

وأكد الخبر بالضمير المنفصل "أنتم"، وبـ "لا" النافية التي أكدت النفي الحاصل بـ "لم" .

وتعريف كلمة "أباء" بالإضافة إلى الضمير العائد على المخاطبين منح المضاف خصوصية مع ما فيها من اختصار.

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٦٣/٥) .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (١٠٥/٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٦٥/٧) بتصرف .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٥/٥)، و: المحرر الوجيز (١٠٥/٦) .

(٥) الضوء المنير على التفسير (٥٨/٣) .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يجيب عما ورد في الآية من استفهام؛ وهو قوله: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى)، بقوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ)[١]، ومن لطائف هذا الأسلوب؛ الإشعار بأن الجواب متعين، ولا محيد عنه، وهو من الوضوح بمكان حتى إن المسئولين أنفسهم لا يستطيعون المكابرة وإنكاره[٢]؛ والتنبيه على أ م تتوا وأفحموا، فلم يقدروا على الكلام[٣].

وفي الجملة حذف؛ فإن كان التقدير: أنزله الله، فالمحذوف هو المسند الفعلي، وإن كان التقدير: الله أنزله، فالمحذوف المسند الاسمي، ولعل حذفه ـ فعلياً كان أو اسمياً ـ للتركيز على المسند إليه؛ وهو "الله"؛ ليقع هذا الجواب على أسماعهم، وعلى رؤوسهم كدوي ألف مطرقة، مخلفاً آثاره التي لا تمحى ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إضافة إلى ما في حذفه من إيجاز.

ثم إن للإتيان باسم الجلالة "الله" في الجواب دون أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ الأخرى له نكتته؛ إذ هو اسمه العظيم الجامع لصفات الكمال والجلال، الذي يدل على أنه المألوه الذي تألهه الخلائق رغبة ورهبة.. لما له من عظمة، وقدرة، وجلال.. ولجل ما اتصف به ـ سبحانه وتعالى ـ من صفات كمال. فإذا كان أولئك المنكرون يؤمنون به ـ سبحانه وتعالى ـ ويؤلهونه لما له من عظمة وكمال، فكيف يتجرأون بعد هذا على إنكار أعظم دلائل حكمته، ورحمته بعباده حين أرسل لهم رسلاً دي إلى طريق الحق ـ بإذنه ـ، فأين قدرهم حق الله ـ تعالى ـ ؟! فمناسبة الإتيان ذا الاسم في الجواب لا تخفي..، وفيه تشنيع عليهم.

وعطف على ما سبق قوله تعالى:

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٦/٥) .

(٢) ينظر : أنوار التن يل (٤٣/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٢/٣)، و: التحرير والتنوير (٣٦٨/٧) .

(٣) ينظر : أنوار التن يل (٤٣/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٢/٣) .

﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، واختيرت "ثم" للعطف؛ لدلالتها على الترتيب الرتبي، فدل ذلك على أن الحجج والأدلة لا تنفع معهم، فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى، وإنما احتج عليهم؛ لتبكيتهم وقطع معاذيرهم [١].

وهذا الكلام وعيد لأولئك المشركين و ـديد لهم؛ فإن الله ـ جل وعلا ـ من وراء ما هم فيه من استهزاء بآياته لهم بالمرصاد[٢].

ولعل تقديم المتعلق "في خوضهم" على عامله؛ للاهتمام به بقصد تعجيل ذمهم.

واكتسبت كلمة "خوض" الخصوصية والتعريف بإضافتها إلى الضمير العائد على المنكرين، فدلت ـ والله أعلم ـ على أنه خوض خاص ـم، اختصوا به دون من سواهم حتى عرفوا به، وصار ملازماً لهم .

ومن شواهد التنكير والتعريف قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام :١٣٣].

ومناسبة الآية للسياق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر من أطاع ومن عصى، والثواب والعقاب. بين هنا أن تخصيص المطيعين بالثواب، والمذنبين بالعقاب... ليس لأنه بحاجة إلى طاعة المطيعين، أو ينتقص بمعصية المذنبين، بل هو الغني عن جميع العالمين[٣].

وبنيت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال ـ في غير القرآن ـ: "وهو الغني ذو الرحمة"، لكن خولف مقتضى الظاهر، وهذا من دقائق النظم القرآني؛ لما في اسم "الرب" من دلالة على التربية، والرعاية، والعناية بصلاح المربوب، والإحسان، والتفضل..[٤].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٦٨/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٦/٥) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٥٣/٥)، و: البحر المحيط (٢٢٥/٤) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٧/٣)، و: التحرير والتنوير (٨٥/٨) .

والخطاب بقوله: (وَرَبُّكَ) للنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فكان في إضافة كلمة "الرب" إلى ضميره ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البراعة والبلاغة ما لا يخفى؛ إذ حصل بهذه الإضافة تكريم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ورفع لقدره ومنزلته عند ربه؛ لاختصاصه بتلك الإضافة، وإن كان الله ـ تعالى ـ هو رب العالمين جميعاً، إلا أن تخصيص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منفرداً بهذه الإضافة ، غاية في التكريم، واللطف، والرعاية[1].

كما فيها تنزيه لساحته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الدخول في الوعيد الآتي[2] .

واتبعت كلمة "ربك" بوصفين له ـ سبحانه وتعالى ـ، وهما: (الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)، وتحلي صفة "الغني" بأل التعريف أفاد كمال هذه الصفة لله ـ جل وعلا ـ؛ " فهو ـ تعالى ـ الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه... لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه، ولا يمكن إلا أن يكون غنياً لأن غناه من لوازم ذاته، فكما لا يكون إلا خالقاً رازقاً رحيماً محسناً، فلا يكون إلا غنياً عن جميع الخلق، لا يحتاج إليهم...، ولا يمكن أن يكونوا كلهم إلا مفتقرين إليه...، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره وتربيته العامة والخاصة طرفة عين.

ومن كمال غناه أن خزائن السموات والأرض بيده، وأن جوده على خلقه متواصل آناء الليل والنهار،.. .

ومن كمال غناه أنه يدعو عباده إلى سؤاله كل وقت، ويعدهم... بالإجابة، ويأمرهم بعبادته، ويعدهم القبول والإثابة، وقد آتاهم من كل ما سألوه، وأعطاهم كل ما أرادوه وتمنوه .

ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض، وأول الخلق وآخرهم في صعيد واحد، فسألوه كل ما تعلقت به مطالبهم، فأعطاهم سؤلهم لم ينقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر.

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣١٣/٢) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٧/٣) .

ومن كمال غناه العظيم الذي لا يقادر ولا يمكن وصفه ما يبسطه على أهل دار كرامته من اللذات المتتابعات، والكرامات...، والنعم...مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فهو الغني بذاته، المغني جميع مخلوقاته ..."[١].

ولعل إرداف هذه الصفة لكلمة "ربك" توحي بما أغدقه ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غنى فاق كل غنى بشري؛ من العلوم والمعارف الربانية، والحقائق الإيمانية، حتى تعلق قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بربه، ولم يلتفت إلى أحد سواه، وهذا هو الغني العالي[٢]؛ كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغني غنى القلب"[٣].

ومن اللطائف في الجملة؛ القصر الذي أفاده تعريف المسند والمسند إليه؛ قصر الغنى على الله ـ تعالى ـ؛ أي: لا غني إلا هو، وهو قصر حقيقي[٤].

ثم تلي هذا الوصف بقوله تعالى: (ذُو الرَّحْمَةِ) فأتبع الاستغناء بالتفضل بتناسق بديع[٥]، والمعنى: إني لم أخلقهم ـ يا محمد ـ، ولم آمرهم بعبادتي لحاجة لي إليهم، ولكن لأتفضل عليهم برحمتي، وأجازيهم إن أحسنوا إحساناً، فإني ذو الرأفة والرحمة[٦].

و "ذو" بمعنى صاحب، وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه، فلا يقال: ذو إنصاف إلا لمن كان قوي الإنصاف، ولا يقال: ذو مال لمن عنده مال قليل[٧]. وبإضافتها إلى صفة "الرحمة" دلت على ما لا تسعه العبارة من الكمال الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه[٨].

---

(١) فتح الرحيم (٥٤) وما بعدها .

(٢) ينظر : المرجع السابق (٥٥) .

(٣) رواه البخاري في صحيحه . كتاب: الرقائق. باب: الغني غنى النفس. (١٢٣٨) حديث رقم (٦٤٤٦) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٥٤/٥)، و: التحرير والتنوير (٨٥/٨) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٥٤/٦) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٧/٥) .

(٧) التحرير والتنوير (٨٦/٨) بتصرف .

(٨) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة (٣٠٢/٢) .

ومن شواهد رحمته التامة التي وسعت كل شيء؛ أنه برحمته أرسل إلينا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنزل علينا كتابه، وهدانا من الضلالة، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض، وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر، وأخرج النبات، ومن رحمته تسخير الأنعام.

ومن رحمته أن خلق مئة رحمة، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة نشرها بين مخلوقاته فبها يتراحمون. فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته، واشتق لنفسه منها اسم الرحمن الرحيم. ولو تأمل الإنسان العالم بعين البصيرة لرأه ممتلئاً بتلك الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو وائه[(١)].

ويظهر طرف من براعة النظم القرآني في هذه الآية؛ حيث أتي بصفتي الغنى والرحمة، فكان له مع ما بعده مناسبة؛ وبيان ذلك "أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يذهب الناس جميعاً، لأنه في غنى عنهم ولكنه ذو رحمة واسعة، فلا يعجل بعقوبة هؤلاء المشركين، ولا يؤاخذ الناس بما كسبوا؛ بل يمهلهم، ويقيم بين أيديهم دلائل الحق والهدى، لعلهم يرجعون عما هم فيه من ضلال وكفران"[(٢)].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾، والجملة خبرية مسوقة للوعيد، والتحذير من بطش الله ـ عزوجل ـ [(٣)].

والخطاب فيها عام للخلق كلهم[(٤)]، وقيل: لأهل مكة خاصة[(٥)]. والآية إظهار لقدرة الله ـ تعالى ـ التامة، وغناه المطلق[(٦)]؛ فهو قادر على إهلاك المشركين وا يء بمن يخلفهم بعد هلاكهم[(٧)].

---

(١) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة (٣٠٣/٢) وما بعدها .

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٣١٣/٢) .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز (١٥٤/٦) .

(٤) البحر المحيط (٢٢٥/٤) بتصرف .

(٥) ينظر : تفسير الخازن (١٨٩/٢) .

(٦) ينظر : البحر المحيط (٢٢٥/٤) .

(٧) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣١٣/٢) وما بعدها .

(وَيَسۡتَخۡلِفۡ) الاستخلاف جعل الخَلف عن الشيء؛ والخَلف: العوض عن شيء فائت، والسين والتاء في الكلمة للتأكيد(١).

ولا تناقض بين تأكيد قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ. على إنزال العذاب بهم، وبين رحمته؛ فهو ـ جل وعلا ـ وإن أمهلهم برحمة منه؛ لأن رحمته سبقت غضبه، إلا أن المسبوق لا بد لاحق وإن أبطأ؛ فكما أمهلهم لحكمة، فإنزال غضبه عليهم لحكمة لا تناقضها الرحمة؛ فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين(٢).

ومن حكمته ـ جل وعلا ـ في إمهالهم إقامة الحجة عليهم، وقطع لمعذرتهم(٣).

ولعل إيثار الاسم الموصول "ما" في قوله: (مَّا يَشَآءُ) على (الذي)؛ لإظهار كمال الكبرياء، وإسقاطهم عن رتبة العقلاء(٤).

وقوله: (كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ) أغنت ـ والله أعلم ـ إضافة "ذرية" إلى "قوم" عن ذكر تفصيل لتلك الذرية، ففيها اختصار.

ووصف "قوم" بـ "آخرين" للدلالة على المغايرة، أي قوم ليسوا من قبائل العرب؛ ولعل ذلك للإشعار بعظيم قدرة الله ـ تعالى ـ، وفي هذا كناية عن تباعد العصور؛ لأن الاختلاف بين الأصول والفروع لا يحدث إلا في أزمنة بعيدة، فشتان بين قوم نوح، وبين العرب المخاطبين(٥).

لقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم..، حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله ـ تعالى ـ محمداً خاتم الأنبياء للناس كافة، فهو آخر رسول من الله ـ تعالى ـ للبشر، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين.

---

(١) التحرير والتنوير (٨٧/٨) بتصرف .
(٢) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة (٣٠٥/٢) .
(٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣١٣/٢) .
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٧/٣) .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٨٧/٨) .

والله ـ تعالى **ـ يقطع الحجة على العرب أن يقولوا: إن كلا من موسى وعيسى ـ** عليهما السلام **ـ إنما أرسلا إلى قومهما، ونحن لا علم لنا بكتابيهما، ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب[١]؛ وفي هذا** قال الله تعالى:

(أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ) **[الأنعام :١٥٧].**

وقد حفلت الآية بجملة من لطائف التعريف والتنكير؛ من ذلك: تعريف "الكتاب" من قوله: (أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ)**؛ ففيه عرف "الكتاب" بـ"ال"، فدل هذا على أنه شيء معهود أو معروف بين القائل والمخاطب، فالتعريف فيه للعهد الخارجي، بمعنى أنه الكتاب المعهود الذي يأتي به النبي المرسل من ربه، والذي يشتمل على مبادئ العقيدة والأسس التشريعية بما تضمنته من أحكام وأوامر ونواه إلآهية.**

والخطاب في الآية للمشركين، فهم كانوا يعتقدون أ م أكمل البشر فطرة، وأكثرهم استعداداً لكل فضيلة، وإذا كانت قبائل العرب كلها تعتقد أ ا أزكى من جميع الأعاجم فطرة، وأذكى أفئدة، وأعز أنفساً، وأفصح ألسنة، وأبلغ بياناً.. فما القول بقريش التي دانت لها العرب واعترفت بفضلها على غيرها منهم..؟![٢]. فكأن في إظهار ما يكنه مشركو العرب في نفوسهم.. إيقاظاً لأفهامهم، واستحثاثاً لهممهم؛ ليقبلوا على القرآن، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشرف بين الأمم[٣].

وبعد هذا التنبيه العجيب.. يأ المقام لقوله تعالى: (فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)[٤]**، والمقصود بالكلام؛ هو "القرآن الكريم"؛ فهو البينة، والحجة**

---

(١) في ظلال القرآن (١٢٣٨/٣) بتصرف .

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٢٠٥/٨) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٨١/٨) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .

الواضحة الدالة المنيرة، نزل عليهم بلسا م، وبيانه أعجز بلغاء العرب، والهدى والرحمة من صفاته[1].

ومن دقائق النظم القرآني في هذه الآية؛ أن كل كلمة فيها قد انتظمت مؤازرة أختها؛ لإبراز عظمة القرآن، وفضله، وشرفه، من ذلك:

افتتاح الجملة بالفاء الفصحية أشار إلى وجود محذوف؛ تقديره: "فإن صدقتم فيما تعدون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم"؛ فحذف الشرط وهذا من أحسن أنواع الحذف، وحذفه من الإيجاز، ففي الجملة تبكيت لهم[2].

وتصدر "قد" الجملة الخبرية أفاد تأكيد الخبر، وهو تأكيد يهيئ للخبر موقعاً متميزاً في نفس المتلقي، يكون فيه محل اهتمام وعناية.

والتصريح بفعل ا يء "جاءكم" وإسناده للبينة؛ فيه مدح للقرآن، وتشريف وتفضيل له على جميع ما تقدمه من كتب م لة[3].

وتنكير "بينة" للتفخيم والتعظيم؛ فالقرآن الذي جاءهم بينة عظيمة... كاملة البيان؛ به يتبين الحق، وهو للحق مبين في العقائد والحجج والدلائل، وفي الفضائل والآداب، وأصول الشريعة والأحكام التي ا صلاح البشر في الدراين[4].

والتعرض لوصف الربوبية بقوله (مِّن رَّبِّكُمۡ) له إيحاءاته؛ ففيه إشارة إلى أن القرآن الذي جاءهم هو من عند "الرب" المحسن، المربي، المصلح المتفضل..، فإذا كان الأمر كذلك فما من شك في أن هذا الرب قد أحسن غاية الإحسان حين جاءهم ذا القرآن، وأنه قد ضمنه كل ما فيه خير وصلاح لهم، وقوام لحيا م..، وفي هذا حث على الإيمان ذا القرآن، واتباع ما فيه من الأوامر والنواهي .

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٢٥٨/٤)، و: إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣)، و: التحرير والتنوير (١٨٢/٨) .

(٢) ينظر : الكشاف (٤٩/٢)، و: التحرير والتنوير (١٨١/٨) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٣٣٠/٧) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣) .

وإضافة الرب إلى ضميرهم، وهذه الإضافة ضرب من التعريف، أفادت مزيد تأكيد لوجوب اتباعه[1]؛ فالرب الذي أحسن وجاء يخبر كتبه إليكم دون سائر الأمم.. هو ربكم أنتم، والتعريف بهذه الإضافة يشعرهم بخصوصية تستثير مكامن نفوسهم التي تشعر بالتمييز، وهذا الشعور إذا استثير يستحثهم على الاستجابة والإيمان بالقرآن كتاباً منزلاً من رب رحيم .

وزيد القرآن عظمة بأن عطف على ما سبق وصفين له بقوله تعالى:(وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)؛ فهو "هدى" بما اشتمل عليه من إرشاد للخير[٢]، وهو "رحمة" لمن اتبعه[٣]، ونعمه في الدين[٤]، ورحمة بما جاء به من شريعة لا حرج فيها، وضعت من الرب لصلاح الأمة مع التيسير، وهذا من أعجب التشريع، وهو أدل على أنه من أمر العليم بكل شيء[5]، فمن اتبع هداه وطبق الشريعة التي بها نزل في جميع أمره فقد نال رحمته.

وتنكير "هدى" و "رحمة" للتفخيم والتعظيم[٦]، فهداه ورحمته كاملتين لا أعظم منهما وهذا يوجب إتباعه.

وفي الاتيان بـ "هدى" و "رحمة" مصدرين زيادة بيان وتأكيد لعظمة القرآن؛ إذ فيه دلالة على أن القرآن قد بلغ الغاية العظمى في الهدى والرحمة، فمن أراد هدى ربه ورحمته اتبعه، واسترشد بهدية، واعتصم به.. فهو للهدى والرحمة مصدر.

ومن دقائق النظم القرآني؛ التعبير عن القرآن بالبينة أولاً، وذلك للإيذان بكمال تمكنهم من دراسته وفهم ما فيه، ثم بالهدى والرحمة ثانياً للتنبيه على ما اشتملت عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم[٧].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣) . .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٢/٨) بتصرف .

(٣) معالم التنزيل (١٤٣/٢) بتصرف .

(٤) التفسير الكبير (١٨٧/5) بتصرف .

(5) التحرير والتنوير (١٨٢/٨) بتصرف .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣) .

(٧) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

والغرض من الجملة إقامة الحجة على مشركي العرب وقطع احتجاجهم[(١)].

ولما تقرر أن البينة قد جاءت، والحجة قد قامت حسن بعد ذلك وقوع التقرير: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا)[(٢)].

وفيها خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى النفي على سبيل الإنكار؛ أي لا أحد أشد وأعظم ظلماً من الذي كذب بآيات الله التي بلغت أعلى غايات العظمة[(٣)]؛ لا أحد أعظم ظلماً منه لربه إذ كذب بآياته وأنكر نعمته؛ ولا لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم **ـ إذ كذبه وما هو بأهل التكذيب، ولا للناس بصدهم عن الإيمان، ولا أحد أعظم ظلماً منه لنفسه إذ زج ا في العذاب المقيم[(٤)].**

وعرف المكذب بالموصولية (مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ**)، ونكتة هذا التعريف ـ والله أعلم ـ التنصيص على اتصافهم بما في حيز الصلة من وصف، والإشعار بعلة الحكم أو وجه بناء الخبر؛ لأن من ثبت له مضمون تلك الصلة كان حقيقاً بأن لا أحد أظلم منه[(٥)].**

ومن التعريف ـ أيضاً ـ تعريف كلمة "آيات" بالإضافة؛ فقد أضيفت إلى اسم الجلالة "الله" تعظيماً لها، و ويلاً للتكذيب ا، وتنبيهاً على أن تكذيب أي آية من آيات الله ـ جل وعلا **ـ كاف في الأظلمية..، فما الظن بتكذيب القرآن المنطوي على الكل..؟!، وفي هذا زيادة إنكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك[(٦)].**

---

(١) البحر المحيط (٢٥٨/٤) بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز (١٨٥/٦) بتصرف .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٢٥٨/٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٨٢/٨) بتصرف .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣)، و: التحرير والتنوير (١٨٢/٨) .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٢/٣) .

(وَصَدَفَ عَنْهَا)؛ والصدف يأتي فعلاً لازماً بمعنى أعرض؛ أي أعرض عن الآيات بعدما جاءته[(١)]، أو متعد بمعنى أنه صدف عنها غيره؛ أي صده، وفي هذا مبالغة في الذم له، فقد كذب بآيات الله وجعل غيره يعرض عنها ويكذب ا[(٢)].

(سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ)، وأكد الجزاء بالسين، وعرف المكذبين بالموصولية (الَّذِينَ يَصْدِفُونَ)، ولعل ذلك لتحقيق مناط الجزاء[(٣)].

والتعبير عن الصدوف بالجملة الفعلية؛ للدلالة على تجدد الإعراض منهم دون إحداث توبة[(٤)].

وفي إضافة الآيات إلى ضمير العظمة تعريف لها، وأفاد هذا تعظيم الآيات، واستعظام التكذيب ا[(٥)].

وعرفت كلمة "سوء" بالإضافة؛ فقيل: (سُوءَ الْعَذَابِ) من إضافة الصفة إلى الموصوف، وسوؤه أشده وأقوه، وقد بين ذلك قوله تعالى:(الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ)[النحل:٨٨]، فقوله:(عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) هو مضاعفة العذاب، أي شدته. ويحتمل أنه أريد به عذاب الدنيا بالقتل والذل، مع ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة، وإنما كان جزاءهم لأ م لم يكذبوا تكذيباً عن دعوة مجردة، بل كذبوا بعد أن جاء م آيات الله البينات[(٦)].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٠٣/٥) .

(٢) البحر المحيط (٢٥٨/٤) بتصرف .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٣٣١/٧) .

(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها.

(٦) التحرير والتنوير (١٨٣/٨) .

(بِمَا كَانُوا۟ يَصۡدِفُونَ)؛ **أي أنه جزاء لهم على إعراضهم عن آيات الله في الدنيا[1].**

والصدوف والصرف على التجدد والاستمرار، حتى صار طبعاً ملازماً لهم، وهذا تصريح بما أشعر به إجراء الحكم على الموصول، فما ظلمهم الله ـ تعالى ـ ولكنهم أنفسهم يظلمون [2].

---

(١) **ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٤٠٤) .**

(٢) **ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/٢٠٣) .**

الفصل الثاني

خصائص الجملة

١- الخبرية والإنشائية

٢- الاسمية والفعلية

٣- التقديم والتأخير

٤- الإطلاق والتقييد

٥- القصر

المبحث الأول

الخبرية والإنشائية

الخبرية والإنشائية

تعريفهما في اللغة:

الخبر: النبأ. وخبرت الأمر أخبر إذا عرفته على حقيقته[١].

والإنشاء الخلق والابتداء، ومنه قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) **[الأنعام:١٤١]؛ أي: ابتدعهاوابتدأ خلقها. وكل من ابتدأ شيئاً، فهو أنشأه. وفلان ينشئ الأحاديث، أي: يضعها. قال الليث: أنشأ فلان حديثاً؛ أي: ابتدأ حديثاً ورفعه[٢].**

في البلاغة:

عرف "الخبر" بأنه: ما يحتمل الصدق والكذب[٣]. و"الإنشاء" ما سواه؛ أي: ما لا يحتمل الصدق والكذب.

واستخدامهم للصدق والكذب في التعريف جرهم إلى البحث عن ضابط لهما، واختلفوا في تحديد ذلك الضابط على قولين..، لكل منهما أصحابه الذين يدافعون عنه ويرومون تأييد ما ذهبوا إليه، وفي الوقت نفسه توهين الرأي الآخر[٤]، وهذان الضابطان هما:

١- الواقع؛ فصدق الخبر مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له.

٢- اعتقاد المخبر؛ فصدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له[٥].

---

(١) ينظر : لسان العرب. مادة (خبر) .

(٢) ينظر : المرجع السابق. مادة (نشأ) .

(٣) ينظر : الإيضاح (١٦) .

(٤) ينظر : المرجع السابق (١٦-١٧)، وللاستزادة ينظر : شروح التلخيص (١٧٣/١-١٨٩)، و: علوم البلاغة (٤٣-٤٥)، و: علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق (٤٢-٤٧) .

(٥) ينظر : الإيضاح: (١٦)، و: البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم (١٨١).

وفي هذا التعريف قصور عن الدلالة، وعجز عن استيعاب ما جرى على اللسان العربي، وأبرز ملامح قصوره ما اشتمل عليه من محاذير شرعية؛ وهذه النتيجة قررها د.ناصر الخنين في كتابه "النظم القرآني في آيات الجهاد"، بعد أن بسط القول في حد الخبر والإنشاء(١). وأتت المحاذير الشريعة إليه من أن إجراء هذا التعريف على كلام الله ـ تعالى ـ ، وكلام رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستحيل شرعاً، ومما تبع ذلك من إضافة كلمة "بذاته" إليه؛ فصار المعنى: أن الخبر يحتمل الصدق والكذب بغض النظر عن قائله؛ فزيد الأمر بهذا القيد سوءاً؛ إذ جعل كلام الله ـ تعالى ـ ، وكلام رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، المقطوع بصدقه، يحتمل الصدق والكذب، مع أن مصدره أصدق القائلين، فأسيء بهذا المفهوم الأدب مع كلامه ـ تعالى ـ، وكلام رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ. يضاف إلى ذلك الجرأة على كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ بترك نسبته إليه بدعوى أن هذا على سبيل الجدل والافتراض والزعم بأنه يحتمل الكذب والصدق حتى يدخل في تعريف الخبر، في حين أن واقع الأمر وحقيقته أنه كلام الله ـ تعالى ـ جملة وتفصيلاً، فلا يجوز افتراض قطع كلامه ـ عز وجل ـ عنه، والنظر إليه من جهة كونه مقطوعاً عن القائل..، كيف وهو ـ تعالى ـ يقول: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا) [النساء:٨٧]، ويقول: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً) [النساء:١٢٢]. ثم إن كلامه ـ عز وجل ـ لم يشرف لذاته، وإنما شرف بسبب نسبته إلى قائله ـ سبحانه ـ ، ولكونه هو المتكلم به حقيقة وواقعاً، فليس من الأدب ـ شرعاً ولا عرفاً ـ أن يفترض أن كلام الله ـ تعالى ـ منقطع عن قائله(٢). فاتضح بهذا قصور ذلك التعريف وبطلانه.

---

(١) ينظر : النظم القرآني في آيات الجهاد (٢٥٣-٢٥٨) .

(٢) ينظر : المرجع السابق (٢٥٥) .

وللخبر والإنشاء تعريف آخر أسلم من سابقه؛ فالخبر: ما لا يتوقف تحقق مدلوله على النطق به، مثل أن يقال: الصدق فضيلة. وبضده يعرف الإنشاء[١]؛ أي أنه: ما يتوقف تحقق مدلوله على النطق به، كأن يقال لنائم: استيقظ، ولواقف: اقعد.

وأختم تعريفات الخبر والإنشاء بتعريف للدكتور: ناصر الخنين، والذي برز فيه اجتهاد طيب وجاد..، يجعل منه أنسب التعريفات المتوفرة وأقر ا إلى الكمال..؛ فقد عرف الخبر بأنه: "ما تركب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية."[٢]، ووضح تعريفه بقوله: "الفائدة المباشرة هي ما يسميه البلغاء: فائدة الخبر، والفائدة الضمنية هي ما يسمونه: لازم الفائدة."[٣]. أما الإنشاء؛ فهو: "ما سوى الخبر مما أفاد طلباً أو قسيمه"[٤]. وبيانه: أن الطلب هو الأساليب المتضمنة له كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء. والمراد بـ"قسيمه"؛ أي: قسيم الطلب وهو ما لم يفد طلباً كصيغ العقود والقسم والتعجب والرجاء والمدح والذم[٥].

فكما يظهر فإن هذا التعريف استطاع أن يخرج من دائرة الصدق والكذب ـ اللذين هما عوارض للخبر والإنشاء، وليسا وظيفته الرئيسة ـ، و ذا يكون تعريف الخبر والإنشاء قد تحرر من قيود الفلسفة والمنطق التي كبلته زمناً، وتحقق به حسن الأدب مع كلام الله ـ تعالى ـ، وكلام رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد لا يكون قصد المُخبر من إلقاء الخبر "فائدة الخبر"، أو "لازم الفائدة"، بل هو يلقيه لمقاصد أخرى تفهم من سياق الكلام[٦]. وكذا في الأساليب الإنشائية ـ خاصة الطلبية منها ـ ؛ فهي ـ أيضاً ـ تخرج عن معانيها الأصلية إلى أخرى تفهم من السياق، فتثري النص باللطائف البلاغية.

---

(١) ينظر : علوم البلاغة (٤٣) .

(٢) النظم القرآني في آيات الجهاد (٢٥٣) .

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها .

(٤) السابق. نفسها.

(٥) ينظر :السابق. نفسها.

(٦) ينظر : علوم البلاغة (٤٦) .

من شواهد هذا المبحث :

قوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ) [الأنعام :١٤] .

وقوله تعالى:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) استئناف ناشئ عن قوله تعالى:(قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ)[الأنعام:١٢] [١].

والآية أمر من الله ـ عزوجل ـ **لنبيه محمد** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **بأن ينكر على المشركين دعوتهم له بعبادة غير الله، الذي فطر السموات والأرض، ورزق الخلق وأطعمهم؛ وأمر منه** ـ تعالى ـ **له** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أن يتبرأ من عبادة غيره** ـ سبحانه وتعالى ـ [٢].

وافتتحت الآية الكريمة بجملة إنشائية بقوله تعالى:(قُلْ) أمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ **إلى نبيه محمد** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **، كرر الأمر بالقول اهتماماً بالمقول؛ فلقد أتى لغرض مغاير لما قبله؛ وبيان ذلك أنه لما تقرر بالقول السابق أن كل ما في السموات والأرض ملك لله تعالى مسلم أمره لله** ـ سبحانه وتعالى ـ **وأن مصيرهم جميعاً إليه، انتقل إلى تقرير وجوب إفراده** ـ تعالى ـ **بالعبادة؛ لأن من بيده ملكوت السموات والأرض هو وحده المستحق للعبادة؛ فهذه الآية كالنتيجة لما قبلها [٣].**

ولهذه الكلمة "قل" إيقاع قوي مؤثر، تكرر كثيراً في السورة، والذي يوحي بأن هذا الأمر من الله وحده، فله الأمر ـ سبحانه تعالى ـ **من قبل ومن بعد؛ كما يوحي بعظمة ذاك الأمر وعلو شأنه؛ وبأن محمداً** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **مأمور به ممن هو أعلى منه؛ من**

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٦/٦) بتصرف.

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٨/٥) وما بعدها .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٦/٦) .

ربه ـ عز وجل ـ ولم يتقوله من نفسه إن هو إلا نذير ومبلغ [1]، ولعل هذا أدعى لتلقي مقالته.

وأردف ما سبق بجملة إنشائية أخرى، فقال تعالى:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، وأتى الإنشاء فيها "استفهاما"؛ وقد خرج عن معناه الأصلي، الذي هو طلب التصديق أو التصور [2]؛ إذ لا يمكن أن يظن أن الله ـ سبحانه تعالى ـ يطلب من نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وجه الأمر أن يسأل مشركي قومه ... إن كانوا يريدون منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتخذ غير الله وليا أم لا ...، ثم ينتظر منهم إجابة عن السؤال هذا مما لا يمكن أن يظن ...!. إذاً لماذا هذا السؤال...؟!. هنا تأتي وظيفة البلاغة في الكشف عن المعنى الذي أريد من الاستفهام أن ينقله للمتلقي، والذي يجب أن ينبه إليه أن جملة الاستفهام وحدها لا تكفي لفهم المعنى المراد، إنما لا بد من النظر إلى السياق الذي وردت فيه.

والمعنى المجازي الذي خرج إليه الاستفهام في الآية ـ كما ذكر جمع من المفسرين ـ هو الإنكار [3].

وأصل الكلام ـ في غير القرآن ـ : أأتخذ غير الله ولياً؟!. لكن قدم المفعول به الأول على فعله، وولي الهمزة؛ لنكتة بلاغية آزرت المعنى المراد، ما كانت لتقع لو أن الفعل ظل في مكانه الأصلي؛ فقيل ـ كما ذكر آنفاً ـ : أأتخذ غير الله وليا ...؟!؛ فمع التقديم انصب الإنكار على ما ولي الهمزة "غير"؛ فكان المعنى: أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ معبوداً يدان له بالعبودية ...؟!. أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ناصراً يستنصر به، ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات ...؟!. ولو قيل: أأتخذ غير الله وليا؟! لزال المعنى

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣١/٢) .

(٢) ينظر : الإيضاح (١٣٥) .

(٣) ينظر ـ على سبيل المثال ـ: الكشاف (٦/٢)، و: التحرير والتنوير (١٥٦/٦) .

السابق، ولم يفهم منه سوى إنكار الفعل نفسه؛ أي اتخاذ الولي، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينكر اتخاذ الولي، إنما ينكر اتخاذ غير الله وليا [(١)].

ومن سمات النظم القرآني الدقة في اختيار الكلمة، ووضعها في مكانها الذي يقتضيه المقام، ويتضح ذاك في اختيار اسم الجلالة "الله" ، وكلمة "ولياً"؛ فقد كان لهما أثر بين في زيادة الإنكار والتشنيع عليهم، وكذا كان في اختيار كلمة "أتخذ"؛ وبيان ذلك أن كلمة "وليا" بمعنى الناصر، الذي يتولى نصر عباده، وإرشادهم، كما يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزآءهم [(٢)]. وذكر الطبري أن معنى الولي الناصر والمعين على النوائب والحوادث [(٣)]. فكان أن قال تعالى:(أَغَيْرَ اللّهِ)؛ الذي لا يداينه شيء في عظمته وجلاله [(٤)]؛ "الله" المألوه المعبود، الذي تعظمونه، وتفزعون إليه عند الحوائج والنوائب [(٥)]. أيكون غير "الله" بمثابة أن يتخذ ناصراً ومعنياً في المصائب والنوائب...؟! أي عقل يرضى بهذا...؟!.

وإذا غُيب العقل فهل تغيب الفطرة، بل كيف تغيب الفطرة..؟!. وهنا نلمس الدقة في اختيار كلمة "أتخذ"؛ أي "أكلف نفسي إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى"[(٦)]؛ فكلمة "أتخذ" توحي بالتكليف عليه؛ وهو افتعل من الافتعال، فكأن من يعبد غير الله، إنما هو يكلف نفسه ما لا تطيق، يدعوها إلى أن تخالف فطرتها الأولى، التي لا سبيل إلى إنكار وجودها، وقد قال تعالى:(قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) [الأنعام :٤٠ -٤١]، وقال ـ أيضاً ـ : (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز (١٢١) وما بعدها، و: جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٨/٥)، و: الكشاف (٦/٢)، و: في ظلال القرآن (١٠٥٤/٢)، و: التحرير والتنوير (١٥٦/٦) .

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى. (55) بتصرف.

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٨/٥) .

(٤) نظم الدرر (٣٥/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : مدارج السكاكين (٣٢/١) وما بعدها .

(٦) نظم الدرر (٣٥/٧) .

هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) [الأنعام : ٦٣ -٦٤].

وقال:(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، ولم يقلْ ـ كما في غير القـرآن ـ :خـالق السموات والأرض؛ ولعل ذلك لأن المقام مقام إنكار واحتجاج عليهم؛ فكان لا بد من كلمة تبهرهم وتبكتهم فالله ـ تعالى ـ ليس خالقاً فحسب، إنما "فاطر" والفاطر : هـو الذي ابتدع وأوجد من غير احتذاء بمثال سابق [١].فهم وإن كانوا يقرون ـ بفطـرهم ـ بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق السموات والأرض ؛ كما قـال تعـالى:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[الزمر :٣٨] إلا أنه فا م أن خلقهن ليس له مثال سابق يحتذى به، بل الله ـ عزوجل ـ هو الذي أبدعهن ، ولا يمكن لأحد أن يجاريه فيما خلق وأبدع!. فكيف يكون غير الله الذي أبدع السموات والأرض بمثابة أن يتخذ وليا ...؟!، ففي هذا مزيد إنكار عليهم.

وخصت السموات والأرض بالذكر لما قيل آنفاً من أ م كانوا يعترفون بأن الله هو خالقهن، فاحتج عليهم بما يقرون به.

وبعدها قال تعالى:(وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ)، والجملة خبرية؛ فيها أخبر ـ ـ سبحانه وتعالى ـ عن صفة أخرى من صفاته ـ عزوجل ـ ؛ وهي حاجة الخلق إليـه، وغنـاه ـ تعالى ـ عنهم [٢]. والغرض منها إثبات استحقاقه ـ سبحانه وتعالى ـ . للعبـادة وحده؛ لأن من كان من صفته أنه يرزق لحاجة المرزوق إليه، ولا يرزق؛ لأنه هو الغـني، الذي بيده ملكوت السموات والأرض ...؛ من كان كذلك أيكون غـيره ـ ـ سبحانه وتعالى ـ مستحقاً لأن يتخذ معبوداً، وناصراً، ورازقاً ..[٣]؟!.

---

(١) ينظر : المفردات (٣٨١)، و: جامع البيان في تفسير القرآن (١٥٨/٥)، و: مجمع البيان في تفـسير القـرآن (٤٣٣/٤) .

(٢) ينظر : تفسير الخازن (١٢٢/٢) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٩/٥)، و: تفسير الخازن (١٢٢/٢).

وأتى خبر المبتدأ جملة فعلية " يطعم" ؛ ولعل ذلك لإفادة أن صفة "الرزق" ـ والإطعام بوجه خاص ـ مع دوامها له ـ سبحانه وتعالى ـ، فهي تتجدد وتحدث شيئاً فشيئاً، وهذا التجدد ربما تخلله فترة انقطاع بالنسبة للمرزوقين، أو قلة في أرزاق بعضهم الآخر ... لكن تبقى هذه الصفة ثابتة لله ـ عزوجل ـ ودائمة له، وقد قال تعالى:(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**) [الشورى:٢٧]، وقال تعالى:(** اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ**)[الرعد :٢٦]. وهذا التجدد يأخذ أشكالاً عدة ... تدل على سعة رزقه ـ ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى كمال قدرته وافتقار الخلق ـ دوماً ـ إليه؛ فتارة يكون الرزق من السماء:(** هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ **)[النحل : ١٠ - ١١].وتارة من الأرض:(** وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**)[النحل :١٣]. وتارة أخرى في البحر:(** وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)[النحل :١٤].**

ويلحظ أن "الإطعام" خص بالذكر دون غيره من ضروب الرزق؛ وذلك لأن حاجة الأنام جميعاً إليه ماسة، ولشهرته [(١)]. وربما لأنهم كانوا يؤمنون بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يطعمهم؛ قال تعالى:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**) [العنكبوت :٦٣]، فاحتج عليهم بما أقروا به، والله أعلم .**

وقوله:(وَلاَ يُطْعَمُ**) معطوف على الجملة السابقة؛ للدلالة على كمال غناه ـ سبحانه وتعالى ـ .**

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (١٦/٦)، و: الجامع لأحكام القرآن (٣٩٧/٦).

وذهب ابن عاشور إلى أن قوله:(وَلَا يُطْعَمُ) تكميل؛ أريد به بيان غنى الله ـ تعالى ـ المطلق [1]. والذي تطمئن إليه النفس أن الآية لا تكميل فيها؛ بل إن كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ عامة لا تكميل فيه !؛ فما التكميل عند أهل البلاغة إلا كما عرفه الخطيب القزويني:"التكميل ـ ويسمى الاحتراس ـ أيضاً ـ ... هو أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه [2]" وهذا يعني أن الكلام ـ قبل التكميل ليس بواضح، فيه إيهام مما يلبس على فهم السامع، فيحترس المتكلم، ويضيف على كلامه السابق كلاماً آخر؛ ليكمل المعنى ويزيل اللبس...!. فيا ترى هل يليق ما ذكر بالله ـ عزوجل ـ وكلامه العظيم ...؟!. أليس كلامه ـ سبحانه وتعالى ـ هو القرآن ، الذي وصفه ـ تعالى ـ بقوله:(قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)[الزمر :٢٨] قال ابن كثير في تفسير قوله:(قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) :"أي هو قرآن بلسان عربي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان [3]". وقال أبو بكر الجزائري :"قرآن عربي لا عوج فيه أي لا لبس فيه ، ولا خفاء، واختلاف [4]". وقد أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نفسه؛ لتنزيله القرآن على تلك الصفة؛ فقال:(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا) [الكهف :١]؛ أي:" جعله كتابا مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً جلياً ...[5]" وقال تعالى:(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)[النساء :٨٢].فالتكميل ـ وإن كان مدحاً كما يظهر ـ إلا أنه يوهم نقصاً في كلام الله؛ لأنه يطعن في بلاغته، أليست البلاغة ـ كما عرفت ـ: مطابقة الكلام

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٨/٦).

(٢) الإيضاح (١٩٤) . .

(٣) تفسير القرآن العظيم مطبعة دار المعرفة – ببيروت (٥٧/٤) .

(٤) أيسر التفاسير (٤٨٤/٤) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧٠/٣) .

لمقتضى الحال مع فصاحته [١]. فأين بلاغة كلام ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا المقام ...؟!. إن المقام هنا مقام إنكار ومحاجة، والأصل فيه ـ أعني المقام ـ الصراحة والوضوح، فيه تأتي الكلمة واضحة جلية، تفصح عن معناها بسلاسة ومباشرة دون أن توهم السامع بشيء لم يقصده المتكلم ...!!. ثم أين الإيهام هنا ...؟! هل سيتوهم السامع أن الله ـ عز وجل ـ فاطر السموات والأرض، الذي خلق، وأبدع، وملك ... بحاجة إلى أحد من خلقه ...؟!. أو أنه يرزقهم ليرزقوه ... هذا لا يمكن . وجملة "وهو يطعم" لن تحمل ـ ولم تحمل ـ إيهاماً وقد قيل قبلها:(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) فبما أنه فطرهن، فهن ملكه بمن فيهن. ولعل الأصح أن يقال: إن بين قوله تعالى:(وَهُوَ يُطْعِمُ) و:(وَلاَ يُطْعَمُ) طباق سلب، به كُشف لنا عن مفارقة عجيبة بين الخالق وعباده ، فهم مفتقرون إليه لغناه ، وهو الغني عنهم ...، فدل ذلك على غناه الكامل ثم يترك ليعبد غيره ...!!.

وجوز ابن عاشور أن يكون قوله تعالى :(وَلاَ يُطْعَمُ) تعريضاً بالمشركين فيما يقدمونه إلى أصنامهم من القرابين، وما يهرقون عليها من الدماء، إذ لا يخلو فعلهم من الاعتقاد بأن الأصنام تنعم بذلك [٢]!.

ومن بلاغة النظم في قوله تعالى:(قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أن قوله تعالى :(إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) جملة خبرية تضمنت استدلالاً على وجوب إفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة، والخلوص من الشرك وأهله، بدلالة الوحي الإلهي [٣].ولعل الغرض منها تيئيس المشركين من رجوع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن دينه .

---

(١) الإيضاح (١٠) بتصرف .
(٢) التحرير والتنوير (١٥٨/٦) بتصرف .
(٣) ينظر : السابق. (١٥٩/٦) .

والآية أمر من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يقول لقومه: إن ربي أمرني بأن أكون أول من خضع له بالعبودية، وتذلل لأمره و يه، وانقاد له من أهل دهري وزماني [١].

ويلحظ أنه قال:(قُلْ إِنِّىَ أُمِرْتُ)، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: قل إني قيل لي، فاكتفى بذكر الأمر دون ذكر القول [٢]. ولعل ذلك لأن كلمة "أمرت" فيها بعد عن الثقل، الذي كان سيقع لو قيل: قل إني قيل لي وفيها ـ أيضاً ـ إيجاز مع إيحاء بأن هذا الكلام الذي قيل له؛ هو من قبيل الأمر . فهي تشعر السامع بأن المتلقي محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ ملزم ذا الأمر وجوباً، وليس له أن يختار؛ لأن الأمر علوي من الإله، الذي بعثه رسولاً للناس .

وفي كلمة "أمرت" بني الفعل للمجهول؛ لأن فاعله معلوم للسامع [٣]؛ لدلالة الآيات عليه؛ ومنها قوله تعالى:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) [الأنعام :٩٣]، وقوله:(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام :١٠٦].

وجملة "ولا تكونن من المشركين" معطوفة على "قل"؛ أي قل لهم ذلك لييأسوا، والآية ي منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن الشرك [٤]. ومع أن قوله تعالى:(أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) قد تضمن ياً عن الشرك؛ لأن الإسلام هو:" الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[٥]"، إلا أنه عطف عليه " ولا

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٩/٥) .

(٢) ينظر : السابق. الصفحة نفسها.

(٣) التحرير والتنوير (١٥٩/٦) بتصرف .

(٤) السابق. الصفحة نفسها. بتصرف .

(٥) حاشية ثلاثة أصول (٤٦) .

تكونن من المشركين"؛ والغرض من هذا النهي؛ تأكيد الأمر بالإسلام والبعد عن الشرك في كل وقت [١]. وفي هذا التأكيد زيادة في قطع أطماع المشركين ـ كما ذكر أنفاً ـ .

وكان أصل الكلام أن يقال ـ في غير القرآن ـ : ولا تكونن مشركاً، لكن عـدل عنها إلى ما جاء في الآية ، ولعل ذلك من باب الأدب مع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إذا أشير إلى ما ي عنه بطريق الكناية؛ فُهم من قوله :(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي لا تكونن ممن رسخ في الشرك، وانتظم في سلكه، وهذا آدب في الخطاب مما لو قيل : ولا تكونن مشركا.

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٧/٧) .

وقوله تعالى :

(وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنعام :٢٧] .

والآية جاءت في سياق مواجهة المشركين بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها [١].

وذُكر في معنى الآية: أن أولئك المشركين، العادلين بربهم أصناماً، الجاحدين بنبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا حبسوا على النار، وعاينوها، وعلموا أنهم مواقعوها تمنوا في تلك الساعة أن يردوا إلى الدنيا، فيؤمنوا بالله ورسله، ولا يكذبوا بآياته [٢].

ومضمون الجملة خبرية؛ فهي إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ بحال من كذب به، وأصر على الشرك، والغرض منها تسلية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن آمن من قومه[٣].

والخطاب في الآية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٤] . أوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ويدخل فيه كل من ألقى السمع وهو شهيد [٥].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

في قوله تعالى:(وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ)، كان لا بد من جواب لـ "لو" الشرطية، لكنه حذف هنا؛ فما السر في هذا ...؟!.

يجيب عن هذا السؤال " ابن عطية " قائلا: حذف جواب "لو" في مثل هذا أبلغ[٦]. وعلل لذلك بقوله: " لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله [٧]" ففي حذفه إيجاز،

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٦٠/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٣/٥)، و: التفسير القيم لابن القيم (١٤٦/٢).

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٤/٦) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٣/٥)،

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٢/٣)، و: التحرير والتنوير (١٨٤/٦)

(٦) المحرر الوجيز (٣٠/٦) بتصرف .

(٧) السابق. نفسها .

وصح حذفه لعلم السامع به. وقدر بعض المفسرين الجواب؛ فقالوا [(١)]: لو رأيت وقوفهم في ذلك الذل والانكسار، والخزي والعار لرأيت عجباً؛ لرأيت أمراً شنيعاً، أو لرأيت سوء منقلبهم وحالهم، ففي الحذف تفخيم لذلك الأمر، و ويل، وتعظيم لشأنه؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب [(٢)].

وكذا حذف مفعول "ترى"؛ ودل عليه الضمير في قوله تعالى:(وُقِفُواْ)، فكان التقدير: لو تراهم [(٣)]. وهذا ـ أيضاً ـ من قبيل الإيجاز، الذي استدعاه المقام؛ وربما كان الغرض منه التقليل من شأن أولئك المكذبين، والمعنى : يا محمد لا تكترث لشأن من كذبك، وجحدك نبوتك، وصد عن الحق الذي أرسلت به؛ فهم أقل وأحقر من أن تحزن بسببهم، فالنار موعدهم، وينتظرهم إذ ذاك أمر مهول عظيم؛ لذا ـ والله أعلم ـ حذف ما يدل عليهم من الكلمة.

وعبر عن الرؤية بصيغة المضارع "ترى"؛ وربما كان ذلك لاستحضار الصورة التي سيصير إليها أولئك المشركون ـ وكل من كفر ـ، وكأ ا حاضرة أمام أعين السامعين . وهذا الاستحضار أوقع في نفس السامع؛ فإن كان موحداً محزوناً يسلو، وإن كان من المكذبين المشركين يهتز ويخاف ... وقد يرتدع ويقلع عن غيه، فيكون سبباً في إسلامه.

وجاءت "إذ" في قوله تعالى:(إِذۡ وُقِفُواْ)؛ وهي ظرف لما مضى من الزمان [(٤)]، بعد قوله تعالى:(وَلَوۡ تَرَىٰٓ)، التي تؤذن بالاستقبال [(٥)]؛ ولعل السر في هذا أن الخبر المذكور ـ وإن لم يقع بعد ـ إلاّ أنه من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأخباره ـ تعالى ـ حق وصدق، فهو كائن لا محالة؛ لذا عبر عنه بالماضي [(٦)]. و الأمر المتيقن من وقوعه يعبر عنه

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٩٢/٢)، و: الكشاف (٩/٢)، و: التفسير الكبير (٥٠٨/٤)، و: نظم الدرر (٨٧/٧) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٥٠٨/٤)، و: نظم الدرر (٨٧/٧) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٤/٦) .

(٤) ينظر : الكتاب. سيبويه (٢٢٩/٤) .

(٥) ينظر : السابق. (٢٢٤/٤) .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٠٨/٦) .

كما يعبر عن الأمر الذي وقع ومضى[١]. و"إذ" تقام مقام "إذا"، إذا أراد المتكلم المبالغة في التوكيد، وإزالة الشبهة؛ لأن الماضي قد وقع واستقر؛ فالتعبير عن المستقبل بـاللفظ الموضوع للماضي، يفيد المبالغة من هذا الوجه [٢].

فوقوفهم، وقولهم واقع لا محالة؛ وفي هذا مزيد تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام **ـ ، وتثبيت لمن آمن، وبث الرهبة في قلوب الكفرة ـ والله أعلم ـ.**

وبني "وقفوا" للمجهول؛ لأن المقصود الأعظم هو التركيز علـى فعـل الإيقـاف وحدوثه؛ لتهويله وتعظيمه [٣].

وللمفسرين في توجيه "على" من قوله تعالى:(وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ**) عدة توجيهات؛ لعل أبرزها:**

١- ما قال به الطبري من أن"على" هنا وضعت موضع "في"، والمعنى: إذ حبـسوا في النار [٤]، فيكونون في جوف النار، والنار محيطة م [٥]. وعلى هذا التوجيه يكون في الآية استعارة بالحرف، فيه شبهت الظرفية بالاستعلاء؛ بجامع التمكن ، ثم أستعير الاستعلاء للظرفية، على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية .

٢- أن تكون " على" بمعنى "الباء" [٦]، والمعنى: أ م وقفوا بقر ا؛ ليـدخلوها، وقـد أشرفوا على كل ما فيها من عظيم النكال، وما فيها مـن سلاسـل، وأغـلال، وكلاليب ... وهذا أعظم في النكاية [٧]؛ لأنه عذاب معنوي تطيش الـنفس مـن هوله ... فكيف إذا جرى على أجسادهم ..؟!.

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٣٠/٦) .

(٢) التفسير الكبير (٥٠٨/٤) بتصرف .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٨٦/٧) .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٣/٥) بتصرف .

(٥) التفسير الكبير (٥٠٨/٤) بتصرف .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٠٨/٦) .

(٧) ينظر : الكشاف (٩/٢)، و: التفسير الكبير (٥٠٨/٤)، و: الجامع لأحكام القرآن (٤٠٨/٤)، و: تفـسير القرآن العظيم (١٢١/٢)، و: نظم الدرر (٨٦/٧) .

٣- أن يكون الاستعلاء على حقيقته؛ فيكون المعنى : وقفوا على النار، وهي تحتهم؛ أي أ م وقفوا فوق النار على الصراط [١].

وأعقبت الجملة السابقة بقوله تعالى:(فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ **)، فهنا عبر عما يختلج في نفوسهم في تلك اللحظة بأسلوبين من أساليب الإنشاء، وهما النداء والتمني، وربما لأن هذا الأسلوب هو الأمثل لنقل المشاعر بدقة .**

ففي قمة معانا م يصيحون بقولهم:(يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ **)، و "يا" حرف نداء ينادي به البعيد، لكنه هنا خرج عن معناه الأصلي إلى آخر فهم من السياق وهو التحسر؛ لأن النداء يقضي بعد المنادى، فاستعمل في التحسر لأن المتمنى صار بعيداً عنهم [٢]. وتحسرهم يدل على شدة ما هم فيه من كرب .**

وهم مع حسر م تمنوا أمنية قد علموا استحالة تحققها؛ بدليل إتيا م بـ "ليت"، التي يتمنى ا شيء غير ممكن أو هو بعيد المنال [٣]. لكنهم بعدما عاينوا العذاب الذي ينتظرهم، ومن شدة ندمهم، وحسر م تمنوا ما تمنوا من أجل الخلاص مما هم فيه ... ولات حين مناص [٤].

وقُرئت "نكذب"، و "نكون" في قوله تعالى:(وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ **)بالرفع والنصب؛ وبيان ذلك :**

١- قرأهما حمزة عن عاصم بالنصب، وحجة من نصب : أنه جعلهما جواباً للتمني بالواو؛ أي: ليت ردنا وقع، وألا نكذب، ونكون من المؤمنين. وما بعد "الواو" ـ في الجواب ـ كما بعد "الفاء"؛ والتقدير: ياليتنا نرد، فلا نكذب، ونكون من

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥٠٨/٤) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٤/٦) .

(٣) ينظر : الإيضاح (١٣٤) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٢/٣).

المؤمنين. ويكون المعنى: إنهم تمنوا الرد، وترك التكذيب، والكون من المؤمنين ودليل من نصب : أن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كان يقرأ بالفاء :"فلا نكذب" على النصب[١] . "وكان بعض نحوي الكوفة يقول: لو نصبت "نكذب" و "نكون" على الجواب بالواو، لكان صواباً. قال: والعرب تجيب بالواو ... كما تجيب بالفاء؛ يقولون: "ليت لي مالاً فأعطيك "، و "ليت لي مالاً وأعطيك [٢]".

٢- قرأ ابن عامر "نكذب" بالرفع، و "نكون" بالنصب؛ على أنهم تمنوا الرد، وتمنوا أن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إن ردوا إلى الدنيا [٣].

٣- قرأهما الباقون بالرفع؛ وحجتهم : أنهم جعلوا الكلام بعد "ليتنا نرد" خبراً. ودليلهم : أنهم تمنوا الرد، ولم يتمنوا ألا يكذبوا. والتقدير : يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين [٤].

واختار الطبري القراءة الأخيرة ـ بالرفع في كليهما ـ؛ على أنه خبر منهم عما يفعلون إن هم ردوا إلى الدنيا، لا على أنهم تمنوا ألا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين [٥]. والذي دعاه إلى اختيار هذه القراءة، هو المحيط الذي يدور حوله تعريف الخبر والإنشاء؛ القائل بالصدق والكذب ...!؛ فقد علل إلى ما اختاره قائلاً : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر عنهم في الآية، التي أعقبها بقوله:(بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) [الأنعام :٢٨]، ولو كان

---

(١) ينظر : الحجة في القراءات السبع (١٣٧) وما بعدها، و: جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٤/٥)، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها (٤٢٧/١)، و: معالم التنزيل (٩٢/٢)، و: التفسير الكبير (٥٠٩/٤) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٤/٥) .

(٣) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: معالم التنزيل (٩٢/٢) .

(٤) ينظر : الحجة في القراءات السبع (١٣٨) .

(٥) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٥/٥) .

قولهم ذاك على وجه التمني، لاستحال تكذيبهم؛ لأن التمني لا يكذب، وإنما التصديق والتكذيب يكون في الأخبار [(١)].

وأن يختار الطبري هذه القراءة دون قراءة النصب...؛ هذا أمر لا يلفت الانتباه كثيراً ...، لكن الذي يلفته أن تترك قراءة صحيحة بحججها وأدلتها، ثم يقطع نظم الآية ... من أجل تعريف للخبر والإنشاء حاد عن الصواب معرفه ...!. فالذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن الأسلم للنظم القرآني أن تكون الأفعال الثلاثة "نرد"، و "ولا نكذب"، و "نكون" داخلة كلها في التمني، لأن تسليط قوله تعالى:(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) على قوله تعالى حكاية عن قول الكفار :"ولا نكذب ونكون من المؤمنين" يذهب ببراعة النظم، وجودة السبك؛ لأن الكفار " يتمنون العودة إلى الدنيا لتدارك ... التقصيرات، وذلك التدارك لا يحصل بالعودة إلى الدنيا فقط، ولا بترك التكذيب، ولا بعمل الإيمان،... إنما يحصل التدارك بمجموع هذه الأمور الثلاثة، فوجب إدخال هذه الثلاثة تحت التمني [(٢)]".

وقد فند الفخر الرازي شبهة من ترك قراءة النصب بقوله: لا نسلم أن المتمني لا يكذب؛ لأن من أظهر التمني، فقد أخبر "ضمناً" كونه مريداً لذلك الشيء، فلم يبعد تكذيبه فيه ...[(٣)]؟!. واستدل على ذلك قائلاً: إن الرجل عندما يقول: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك، فهذا تمنٍ في حكم الوعد، فلو رزق مالاً، ولم يحسن إلى صاحبه، لقيل له: إنه كذب في وعده [(٤)].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٥/٥).

(٢) التفسير الكبير (٥١٠/٤) .

(٣) السابق (٥٠٩/٤) بتصرف.

(٤) السابق. نفسها. بتصرف.

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ على الجملة الخبرية والإنشائية:

قوله تعالى:(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)[الأنعام :٣١].

الجملة إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن حال أخرى من أحوال منكري البعث والقيامة؛ والغرض منها التعجيب من حالهم حين تقوم الساعة، وهم على تكذيبهم وكفرهم ...، فكان العذاب جزاء لهم. وتلك حالة استحقوا أن يقال لهم بسببها: قد خسروا وخابوا [(١)].

ومعنى الآية: قد خاب، وخسر، وحرم الخير كله من كذب بلقاء الله ، فساقه هذا التكذيب إلى الاجتراء على المحرمات، واقتراف الموبقات. حتى إذا جاءته الساعة تحسر بعد فوات الأوان [(٢)].

ولي مع الآية وقفة متأمل يطمع في كشف ما للجمل الخبرية والإنشائية من أثر في التعبير عن المعنى السابق؛ يتتبع ـ في الوقت نفسه ـ أبرز ما فيها من أساليب بلاغية، وكيف أثْرت الآية بلطائفها؛ ففي قوله تعالى:(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ) **جملة من اللطائف؛ منها: أن الجملة الخبرية افتتحت بـ"قد"، التي تفيد التحقيق، وهذا لتأكيد خسارة من كذب بيوم القيامة [(٣)].**

وأتي بالفعل ماضياً "خسر"؛ لتأكيد خسار م ـ أيضاً ـ في كلا الدارين؛ الدنيا والآخرة. وصورت لنا خيبتهم وحرما م الخير كله بكلمة "خسر".

فالخسر والخسران انتقاض رأس المال [(٤)]. فعليه يكون الذين كذبوا شبهوا بالتاجر، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه؛ وهو الخسران ، والجامع بين المشبه والمشبه به

---

(١) ينظر التفسير الكبير (٥١٢/٤)، و: التحرير والتنوير (١٨٨/٦).

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٩٠/٣) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٩٠/٧) .

(٤) المفردات في غريب القرآن (٤٧) بتصرف.

الضرر في كل منهما. فكأن السامع ـ هنا ـ يتصفح أمامه وجوهاً تطفح بالحزن والكآبة ...، حرمت من لذة الفرح والحبور ...!.

وخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في قوله:(الَّذِينَ كَذَّبُواْ)، فالذين كذبوا هم "الذين أنكروا البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار من مشركي قريش، ومن سلك سبيلهم في ذلك [(١)]"؛ هم الذين حكى الله تعالى عنهم بقوله:(وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[الأنعام :٢٩]. فكان مقتضى الظاهر الإضمار تبعاً لقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)[الأنعام :٣٠]،فيقال ـ كما في غير القرآن ـ : قد خسروا. لكنه عدل إلى الإظهار؛ للتعميم؛ فيكون كل مكذب وجاحد بالبعث داخلاً فيها [(٢)]. وللتنبيه على ما أوجب لهم تلك الخسارة، وهو ما في حيز الصلة من التكذيب بلقاء الله ـ تعالى ـ وما يترتب عليه من البعث وما فيه [(٣)].

ولم يكن ذلك التكذيب منهم في فترة، أو زمن ثم انقضى ... بل كانوا مستمرين عليه إلى أن جاءتهم الساعة؛ وذلك بدلالة "حتى" في قوله تعالى:(حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ)؛ فقد دلت على غاية تكذيبهم لا على غاية خسرانهم [(٤)].

ومن يتأمل "إذا" في الآية يجدها قد استخدمت في موضعها، ولو رفعت ووضع مكانها "إن" لغاب عن هذه الآية دقة التعبير وقوته؛ فـ "إذا"[(٥)] أفادت أن الفعل الذي يليها متحقق الوقوع ، ولا شك فيه. فالساعة حق، وهي واقعة، ولو قيل ـ في غير القرآن ـ : حتى إن جاءتهم الساعة، لأوحى هذا التعبير أن مجيء الساعة أمر مشكوك فيه؛ قد تقع

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٧/٥) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٩٠/٧)، و: التحرير والتنوير (١٨٩/٦).

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٥/٣) .

(٤) ينظر : السابق. الصفحة نفسها.

(٥) "إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان، متضمن معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية، عكس "إذا" الفجائية. ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١٢٧)

وقد لا تقع ... وبما أ ا ربما تقع ... فخسار م ليست متحققة ولا أكيدة. لكن استعمال "إذا" في هذا المقام أكد قيام الساعة وأكد خسار م. وفي هذا تحذير من التكذيب، وترغيب في الإيمان.

و"الساعة" هي "التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم [(١)]". والتعريف فيها للعهدية ؛ فالمخاطبون يعرفو ا؛ فهي الساعة التي وصفت لهم [(٢)].

ومن اللطائف البلاغية في الآية؛ الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ يتضح هذا في اختيار كلمة "الساعة" دون غيرها من الكلمات، التي وضعت للدلالة على هذا اليوم ـ وما أكثرها ـ؛ فهي الطامة، والصاخبة، والقارعة، والغاشية، والقيامة، ... وغيرها وقد يكون ذلك لما لهذه الكلمة من جرس يتناسب والسياق؛ فللساعة جرس ليس كجرس ما تقدم من أسماء ليوم القيامة، فتلك فيها ثقل وقوة وشدة ...، أما هذه فإن فيها خفة وسهولة وهذه الخفة والسهولة توحيان بالسرعة؛ والخفة والسرعة تتناسب مع تأكيد وقوعها، ومن ثَم تأكيد خسار م . وقد ناسب أن يقال بعدها "بغتة"، فمع سرعتها هي تبغتهم مباغتة؛ أي "على حين غفلة، لا يمكن أن يشعروا بعين الوقت الذي تجيء فيه [(٣)]". وفي هذا ـ والله أعلم ـ تخويف للمشركين من مغبة كفرهم، ليسارعوا بالتصديق والإيمان.

وعبر عن شدة تندمهم بجملة إنشائية "يا حسرتنا على ما فرطنا فيها" و "يا" حرف نداء، و"حسرتنا" منادى فهم ينادون الحسرة، التي أحاطت م أسبا ا، وهم في أسوء حال [(٤)]. و "الحسرة " ليست مما ينادى حقيقة لكنها نزلت م لة العاقل ونوديت؛ ولعل في هذا دلالة على عمق ما في أنفسهم من ندم وتحسر [(٥)]. " وهذا أبلغ من أن يقال:

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٧/٥) .

(٢) ينظر : السابق. نفسها، و: المحرر الوجيز (٣٥/٦).

(٣) نظم الدرر (٩٠/٧) وما بعدها .

(٤) تفسير المراغي (١٠٦/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤١٢/٦)، و: حاشية الصاوي على الجلالين (١١/٢) .

الحسرة علينا في تفريطنا[١]". وفي هذا تنبيه للمشركين من مغبة استمرارهم في التكذيب[٢] .

وأضيفت الحسرة لـ "نا" العائد على المكذبين؛ للإشارة إلى أن تحسرهم لأجل أنفسهم؛ فهم المتحسرون، والمتحسر عليهم [٣].

ومن الدقة في انتقاء الكلمة القرآنية؛ اختيار كلمة "فرطنا"، وحقيقة التفريط التقصير مع القدرة على تركه [٤]. فدلت الكلمة على أن أولئك المكذبين كان بمقدورهم التجرد من نوازع النفس؛ من الكبر، والحسد، والغيرة، والبغضاء ...، ثم الاستجابة لداعي الإيمان ... لكنهم ركبوا مطية الهوى حتى هوى بهم في العذاب!.

وقوله تعالى :(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ)؛ تصوير لحال المكذبين لحظة خسارهم؛ للإيذان بأنهم لم يكونوا محرومين من خير ذلك اليوم فحسب؛ بل هم مثقلون بالعذاب، وليست الحسرة والتلهف على تفريطهم في الإيمان عذابهم الأوحد، الذي ينهش صدورهم، بل هم مع ذلك يقاسون حمل أثقال لأوزار اكتسبوها ...[٥]!. وهذه هي فائدة الخبر؛ فهم يجهلون هذه الحقيقة .

والجملة حالية [٦]، والغرض منها استحضار ما هم عليه من عذاب، وكأن السامع يرى حالتهم تلك ماثلة أمام عينيه ... وهذا أبلغ في التأثير عليهم نفسياً.

ولم تقف البلاغة عند استحضار صورهم بالجملة الحالية فقط، إنما تجاوزت ذلك بتصويرها بيانياً؛ فقد شبهت ذنوب المكذبين ـ في الآية ـ بالأحمال، التي تنقل بجامع الملازمة والمعاناة في كل منهما، ثم حذف المشبه به، وأتي بلازم من لوازمه؛ وهو الحمل، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية. فهذه الصورة نقلت للسامع حال الذين كذبوا بالبعث، وما هم فيه من منظر مزر، وهم يتنقلون في عرصات القيامة ... بظهور منحنئة

(١) التفسير الكبير (٥١٤/٤) .

(٢) ينظر : السابق. نفسها.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٩/٦) .

(٤) المحرر الوجيز (٣٦/٦) بتصرف .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٥/٣) .

(٦) السابق. نفسها. بتصرف.

... أثقلها صاحبها بالذنوب ...!، وهم يكابدون الأمرين ...؛ فهم بين عذاب معنوي؛ وهو عذاب الحسرة والندامة، والذي يمزقهم من أعماقهم. وبين عذاب حسي؛ وهو حمل الأثقال على الظهور، الذي تمزق آلامه أجسادهم، وأنفسهم ـ أيضاً ـ .

وقيدت الجملة بقوله تعالى:(عَلَى ظُهُورِهِمْ)؛ لأن الحمل قد يكون على الرأس، والمنكب ... وغيرهما، فنص على موضع حملهم لما يحملون [(١)]. والذي يظهر أن الأحمال، التي تحمل على الظهر تكون أثقل من تلك التي تحمل على الرأس أو المنكب ...، فالظهر قد يتحمل ما لا يتحمله الرأس ـ مثلاً ـ وفي هذا إشارة إلى عظم ما اكتسبوه من الذنوب؛ والشرك بالله أعظمها؛ أليس الشرك أعظم الذنوب عند الله ـ تعالى ـ؟!؛ وقد سئل رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ :(أي الذنب أعظم عند الله؟ قال:" أن تجعل لله نداً وهو خلقك" قال [الراوي] قلت له: إن ذلك لعظيم. قال قلت: ثم أي؟ قال:" ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك " قال قلت: ثم أي؟ قلت:" ثم أن تزاني حليلة جارك".[(٢)]).

وختمت الآية بجملة كانت من البلاغة بمكان ... قال تعالى:(أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)، وافتتحت الجملة بـ"ألا" الاستفتاحية الدالة على التأكيد والتنبيه... عناية بالخبر [(٣)]؛ كأن هذه الأداة تقول للسامع: انتبه...! فإن ما هم فيه وما يحملون ليس كما تصور عقلك، بل هناك ما هو أكثر...!.

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٩/٥) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده . (٥٩) حـديث رقم (٨٦) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٢/٦) .

و(سَاء مَا يَزِرُونَ) "إنشاء ذم"[١]، "أي بئس شيئاً يزرونه" [٢]. وحذف المخصوص بالذم ، وتقديره: حملهم أوزارهم [٣]. ولعل حذفه لفظاعته وشناعته؛ إذ إن ما يحملونه ليس بإمكان العقل بلوغ حقيقة ما هو عليه من البشاعة والعظم [٤].

والجملة تذييل قرر به ما قبله [5]. فالنظم في الآية بكل ما فيه من كلمات وحروف انتظم ببراعة؛ ليبرز خسارة المكذبين بالبعث، ويحذر من سلوك مسالكهم؛ وكان ذلك بأقوى أسلوب وأجود عبارة ...!.

ومن الشواهد :

قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) [الأنعام :٧٤].

في مناسبة الآية لما قبلها قال أبو حيان [٦]: إنه لما ذكر قوله تعالى:(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام :٧١] . ناسب التذكار بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه في هذا المقام؛ لأن العرب كانت تعظم إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وتعترف بفضله، فهو جدهم الأعلى؛ فذُكروا بأن إنكار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم عبادة الأصنام ... هو مثل إنكار إبراهيم ـ عليه السلام ـ على أبيه وقومه[٧].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٢/٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٢٥/٣) .

(٣) ينظر : السابق. نفسها، و: التحرير والتنوير (١٩٢/٦) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٩٢/٧) .

(٥) إرشاد العقل السليم (١٢٥/٣) بتصرف .

(٦) البحر المحيط (١٦٣/٤) بتصرف .

(٧) ينظر : السابق. نفسها، و: تفسير الخازن (١٤٨/٢) .

والآية معطوفة على قوله تعالى:(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا) [الأنعام :٧١]؛ والمعنى: واذكر لهم بعدما أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع وضر، وحققت أن الهدى؛ هو هدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ...، اذكر وقت قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه محتجاً عليه ببطلان عبادة الأصنام [١].

وفي هذه المحاجة التصريح بما لوح إليه أول هذه السورة من إبطال عبادة غير الله، وانعطف هذا على ذلك أي انعطاف!، وصار كأنه قيل: ثم الذين كفروا بر م يعدلون الأصنام، والنجوم، والنور، والظلمة ...، فنبهم يا رسول الله بأنه لا متصرف غير الله ـ تعالى ـ، واذكر لهم أني أنا الذي خلقتهم، وخلقت جميع ما يشاهدون من موجودات، فإن انتبهوا فهو حظهم، وإلا فاذكر لهم محاجة خليلنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه [٢].

وفي الآية شاهد على الجملة الإنشائية؛ وهو قوله ـ تعالى ـ حكاية عن قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه:(أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً). فقد عبر عن رفض إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما عليه أبوه وقومه بجملة صدرت مزة استفهامية؛ وفيها خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فهم من السياق؛ فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يلق السؤال على أبيه رغبة في سماع إجابة عنه، إنما لينكر على أبيه ما يفعل من عمل ترفضه الفطر السليمة. وانصب الإنكار على الفعل؛ وهو اتخاذ الأصنام آلهة تعبد، وهي لا تستحق الألوهية ابتداء [٣].

وساند الاستفهام في إبراز الإنكار كلمة "تتخذ"، فبناؤها يوحي بالتكلف والثقل. و"تتخذ" مضارع اتخذ، وهو افتعال من الأخذ، وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في تحصيل الفعل[٤]. فيكون المعنى: أتكلف نفسك خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى،

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥١/٣) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (١٥٦/٧) .

(٣) ينظر : الجامع الأحكام القرآن (٢٣/٧)، و: تفسير النسفي (١٩/٢)، و: البحر المحيط (٦٣/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣١٢/٧) .

الفطرة السليمة، التي جبلت على الإقرار بوجود خالق لهذا الكون؛ وهو الله ... وتعبد أصناماً ... صنعتها وتترك عبادة من خلقك فسواك ورزقك ...[١]؟!. فالكلمة ـ كما يظهر ـ أسهمت ببنائها بمزيد الإنكار عليهم .

وكذا كلمة "أصناماً"، والأصنام "جمع صنم، و هو تمثال من حجر أو خشب، أو من غير ذلك في صورة إنسان، ويسمى "الوثن" [٢] ، فالتنكير فيها أريد به ـ والله أعلم ـ التحقير والتقليل من شأن تلك المعبودات ... وفي هذا مزيد إنكار .

وفي ذكر "أصناماً" و"آلهة" بصيغة الجمع، تقبيح عظيم لفعلهم؛ إذا إ م لم يكتفوا بإله واحد يعبدونه، إنما اتخذوا جمعاً من الآلهة [٣].

وفي الآية تعريض بسخافة عقل من صنع آلهة وعبدها[٤] .

ويلحظ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبطل هنا عبادة الأصنام بحجتين عقليتين [٥]:

الأولى : جعل الصور آلهة، مع أ ا ظاهرة الانحطاط عن صفة الألوهية. وهذا لا يحتاج إلى كثير تأمل، إنه أمر بدهي ـ لو التفتوا إليه ـ، فهم يباشرون أمرها، ويعملون أ ا مصنوعة، وليست بصانعة .

الثانية : أن كثر ا تدل على بطلان إلهيتها. والله ـ تعالى ـ هو القائل:(لَوۡ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا)[الأنبياء :٢٢]. ولو كانت لهذه الأصنام قدرة على النفع والضر، لكان الصنم الواحد كافياً، فلما لم يكن الواحد كافيا ... دل ذلك على أ ا بكثر ا لا نفع فيها ألبتة.

وللجملة الخبرية شاهد، وذلك في قوله تعالى:(إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) ؛ فالجملة إخبار من الله ـ عز وجل ـ على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ بضلال

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٠/٥)، و: نظم الدرر (١٥٦/٧) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٠/٥) بتصرف .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٦٤/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣١٣/٧) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٣٤/٥)، و: نظم الدرر (١٥٧/٧)، و: التحرير والتنوير (٣١٣/٧) .

أبيه وقومه[١]. وأكد الخبر بحرف التوكيد "إن"، واسمية الجملة؛ والسبب في هذا أن الخبر، الذي تضمنته الجملة؛ وهو ضلال أبيه وقومه المبين، مما ينكره المخاطب، فالمخاطب كان يحسب نفسه على هدى، ولم ينكر عليه أحد ـ قبل إبراهيم ـ ما يعبد ...، ويظن أن إنكار ابنه عليه ـ مهما بلغ ـ لن يصل به إلى أن يراه وقومه في ضلال مبين [٢].

وعطفت كلمة " قومك" على ضمير المخاطب؛ فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لما خص النصيحة أقرب الخلق إليه، عم بقية أقاربه [٣].

وفي فائدة هذا العطف يقول ابن عاشور[٤]: مع أن رؤية إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه في ضلال تقتضي أن يرى أمثاله من قومه في ذاك الضلال إلا أنه عطف؛ لأن المقام مقام صراحة، فلا يكتفي فيه بدلالة الالتزام. ولينبئه بأن موافقة جمع عظيم إياه على ما يعبد ... لا يعني أ م على حق، وأنه هو ـ عليه السلام ـ على باطل .

وقيل " في ضلال مبين"، ولم يقَل ـ كما في غير القرآن ـ : من الضالين، والسر في هذا ما لـ"في" من دلالة تجعل الكلام أبلغ في هذا الموضع؛ فبها جعلوا مظروفين للضلال، كأن الضلال صار ظرفاً لهم ... وهذا أبلغ من وصفهم بالضلال [٥].

ووصف الضلال بأنه "مبين" و"مبين" اسم فاعل من أبان اللازمة؛ أي ظاهر [٦]. فهذا الضلال مع ظهوره في نفسه، فهو مظهر للحق يتبين من أبصره أنه جور عن قصد السبيل، فأبوه وقومه وكل من عبد غير الله ضل عن توحيد الله وعبادته [٧]. وفي هذا الوصف تعريض بفساد عقولهم، حين لم يتفطنوا لضلالهم مع أنه كالمشاهد المرئي [٨].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٦٤/٤) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣١٣/٧) .
(٣) ينظر : نظم الدرر (١٥٧/٧) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٤١٤/٧) .
(٥) ينظر : البحر المحيط (١٦٣/٤) .
(٦) ينظر : السابق. نفسها، و: التحرير والتنوير (٣١٤/٧) .
(٧) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٠/٥)، و: نظم الدرر (١٥٧/٧) .
(٨) ينظر : التحرير والتنوير (٣١٤/٧) .

ومن شواهد هذا المبحث أيضاً :

قوله تعالى:(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام: ١٦٢ -١٦٣].

وللصلة الوثيقة بين الآيتين آثرت إيرادهما معاً في مبحث ...، لأن الفصل بينهما لا يخدم المعنى كثيراً، بل لعله يوهنه ...!.

قال الفخر الرازي في مناسبة الآية لما قبلها: اعلم أنه لما عرف نبيه محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ الدين المستقيم، عرفه كيف يقوم به ويؤديه [(١)].

والآية أمر من الله ـ عز وجل ـ لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يعلن أن مقصده في صلاته، وطاعته من ذبيحة وغيرها، وكل ما يصدر منه مدة حياته، وحاله عند الموت من إيمان ... هو لله ـ عز وجل ـ خالصاً له لا شريك له في ذلك؛ وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أول من أذعن وخضع من هذه الأمة لربه بهذا الدين [(٢)].

وجملة "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" مستأنفة؛ للإشارة إلى أنها غرض مستقل مهم في ذاته وإن كان متفرعاً عما قبله [(٣)]. وكرر الأمر بالقول اهتماماً بالمقول؛ فالأول في قوله تعالى:(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) **[الأنعام :١٦١] إشارة إلى أصل الدين؛ وهو التوحيد. أما هذا القول فإلى ما تفرع عنه، وهو الإخلاص [(٤)].**

ومع هذه الكلمة "قل" يتكرر الإيقاع القوي، الموحي بعلوية الأمر في كل آية:(قل) ...(قل) ...(قل)، ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري ... لمسات عميقة ... في

---

(١) التفسير الكبير (١٩١/٥) بتصرف .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٢٠/٥)، و: المحرر الوجيز (١٩٢/٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠٠/٨) بتصرف .

(٤) ينظر : فتح القدير (١٨٥/٢)، و: التحرير والتنوير (٢٠٠/٨) .

مكان التوحيد؛ توحيد الصراط والملة؛ توحيد الإله والرب؛ توحيد العبودية والعبادة ... مع نظرة شاملة إلى الوجود كله ... سننه ومقوماته [١].

و: " إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين" جملة خبرية، أكدت بحرف التوكيد " إن" اهتماماً بالخبر، ولتحقيقه [٢]. أو لأن المشركين كانوا يزعمون أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يرائي بصلاته. فقد قال بعضهم لما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي عند الكعبة : " ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيكم يقوم إلى جزور بني فلان فيعمد إلى فرثها وسلاها، فإذا سجد وضعه بين كتفيه"، فتكون " إن" على هذا القول لرد الشك [٣].

ومن أسرار التعبير القرآني في الآية :

في قوله:(إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى)، والمراد بالنسك الذبح [٤]. لكن لمَ خص "النسك" بالذكر...؟! في ذلك يقول الشنقيطي ما معناه: لأن الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بالنحر، وهي من أعظم العبادات ... لذا أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقول: إن صلاته ونحره كليهما خالص لله ـ تعالى ـ [٥].

وحسن ذكرها هنا؛ لأنه تقدم في السورة الكلام على هذه العبادة، وعرض جهالات المشركين فيها [٦].

وقُرنَ بين "الصلاة" و "الذبح" ولعل السر في هذا لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالصلاة تقرب إليه ـ سبحانه ـ بالقلب،

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٤٠/٣) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٠/٨) .
(٣) السابق. نفسها. بتصرف .
(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٢٠/٥) .
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٢٥٤/٢) بتصرف .
(٦) ينظر : المحرر الوجيز (١٩٢/٦) .

واللسان، والجوارح. والذبح تقرب إليه ببذل ما تحبه النفس من المال ... ومن أخلص في صلاته، ونسكه استلزم ذلك إخلاصه في سائر أعماله وأقواله [(١)].

وفي جعل "الصلاة" و "الذبح" خالصة لله ـ تعالى ـ دون غيره ... تعريض بالمشركين؛ لأ م كانوا يسجدون للأصنام ...، ويتقربون إليها بالذبح ...[(٢)]!.

وبين "محياي" و"مماتي" طباق بديع؛ فيه جمع بين الحياة والموت، وهما ضدان ... ولعل هذا للدلالة على أن حياته ليست خالصة لله ـ تعالى ـ فحسب، بل حتى مماته خالصاً لله دون ما أشرك المشركون .

وأتى التعبير عن الإخلاص بقوله تعالى:(لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، ولم يكن ـ كما في غير القرآن ـ : لرب العالمين. فأي دلالة حملها اسم الجلالة ... جعلته يؤثر في التعبير به، ثم يوصف بأنه "رب العالمين"...؟! إن اسم الجلالة "الله" ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين [(٣)]. والألوهية، التي هي وصفه؛ هي الوصف العظيم، الذي استحق أن يكون به إلهاً، بل استحق ألا يشاركه في هذا الوصف العظيم مشارك بأي وجه من الوجوه [(٤)]. وأوصاف الألوهية هي جميع أوصاف الكمال، وأوصاف الجلال والعظمة والجمال، وأوصاف الرحمة والبر والكرم والامتنان ... هذه الصفات هي التي يستحق أن يؤله ويعبد لأجلها، فيؤله لأن له أوصاف العظمة والكبرياء، ويؤله لأنه المتفرد بالقيومية والربوبية والملك والسلطان، ويؤله لأنه المتفرد بالرحمة وإيصال النعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه، ويؤله لأنه المحيط بكل شيء علما وحكما وحكمة وإحساناً ورحمة وقدرة وعزة وقهراً، ويؤله لأنه المتفرد بالغنى المطلق التام من جميع الوجوه، كما أن ما سواه مفتقر إليه على الدوام من جميع الوجوه، مفتقر إليه في حاجاته كلها، مفتقر إليه في أعظم الحاجات وأشد الضرورات، وهي افتقاره إلى عبادته وحده والتأله له وحده. فالألوهية تتضمن جميع

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٥١١/٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠١/٨) .

(٣) فتح الرحيم الملك العلاّم. السعدي (٢٣) بتصرف .

(٤) السابق. نفسها بتصرف .

الأسماء الحسنى والصفات العليا [١]". لذا قال:(لِلّهِ). ثم وصف بـ "رب العالمين" لأن كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة، وتعظيما، وخضوعاً، وفزعاً إليه عند الحوائج والنوائب ... ذلك مستلزم لكمال ربوتيه[٢]. فكيف لا تخلص العبادة له ...؟!.

وبعدها قال:(لاَ شَرِيكَ لَهُ) تأكيداً لما سبق، وفي هذا دلالة على أن العبادات لا يكتفي أن يؤتى ا كيف كانت، بل يجب أن يؤتى ا مع الإخلاص فيها لله ـ سبحانه وتعالى ـ [٣].

(وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) والإشارة بـ "ذلك" عائدة إلى الإخلاص[٤]؛ أي: بذلك الإخلاص أمرت. وأشير إليه باسم الإشارة الذي فيه معنى البعد؛ للإشعار بعلو مرتبته، وبعد م لته في الفضل [٥]، وعظم شأنه .

وقدم المتعلق اهتماماً بالمشار إليه؛ وهو الإخلاص [٦]. وبني الفعل للمجهول؛ للعلم بالفاعل، وفي هذا إيجاز .

وقوله:(وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) جملة خبرية الغرض منها بيان مسارعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لامتثال ما أمر به ربه [٧]. واسمية الجملة دلت على ثباته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودوامه على ما أمر به .

وفي الآية دعوة للمؤمنين للتأسي به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في إخلاص العبادات لله رب العالمين، وفي ثباته عليه [٨].

---

(١) فتح الرحيم (٢٣) وما بعدها.

(٢) مدارج السالكين (٣٢/١) وما بعدها . بتصرف .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٩١/٥) .

(٤) ينظر : الكشاف (٥١/٢) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٧/٣) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٤/٤) .

(٧) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٧/٣) .

(٨) ينظر : المحرر الوجيز (٩٢/٦) .

وفيها تيئيس للمشركين، وقطع لأطماعهم في أن يتنازل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن دينه ولو بشيء يسير منه [١].

وأختم شواهد هذا المبحث بقوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[الأنعام :١٦٥].

لما قدم أنه ـ تعالى ـ المحسن إلى كل شيء بالربوبية، وختم بالتهديد بالحشر، أتبعه بتذكيرهم بتخصيصهم بالإحسان والنعمة [٢].

والآية معطوفة على قوله تعالى:(وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ) [الأنعام :١٦٤][٣].وجملة " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض" خبرية؛ الغرض منها تذكير السامعين بنعمته ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم؛ إذ النبي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي بعث فيهم هو خاتم الأنبياء، وأمته خلفت سائر الأمم، ولن تأتي بعدها أمة تخلفها، فعليها تقوم الساعة؛ وهذا التذكير قصد منه استدعاء الشكر، والتحذير من الكفر [٤].

وفي هذا الخبر دلالة على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ على البعث، وعلى حتمية وقوعه؛ لأن الذي جعل بعض الأمم خلائف لمن سبقها، فعمروا الأرض جيلاً بعد جيل...، لا يعجزه أن يحشرها جميعاً بعد مو ا [٥].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٤/٨) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣٤٣/٧) وما بعدها .

(٣) السابق. نفسها. بتصرف.

(٤) ينظر : البحر المحيط (٢٦٣/٤)، و: التحرير والتنوير (٢١٠/٨) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٩/٨) .

أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قال:(خَلاَئِفَ الأَرْضِ)، ولم يكن التعبير بنحو قولنا: خلائف في الأرض. وهذا يجعل القارئ يتساءل عن السر في ترك حرف الجر في الجملة القرآنية...! .

ولعل النظر إلى السياق يكشف الإجابة عن السؤال؛ فقد تقدم قبلها قوله تعالى مخاطباً نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ :(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[الأنعام :١٦١]، واستمر الخطاب له ـ عليه الصلاة والسلام ـ معرفاً حاله وموضحاً طريقه ... إلى قوله:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)[الأنعام :١٦٤]، فبالتعميم ـ الوارد في الآية ـ دخل كل شيء تحت ملكه ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وتحت قهره. فناسب هذا ما ذكر من إنعامه على عباده بجعلهم خلائف الأرض، ولو كان بحرف الوعاء لم يفهم التوسعة والإطلاق...؛ فلو قيل: في الأرض، لفهم أ ا موضع استخلافهم وهل كلها، أو بعضها ذلك محتمل. أما بدون "في" فهو ـ والله أعلم ـ أظهر في التعميم من التقيد بـ "في"، فناسب الإطلاق الإطلاق [1].

والواو في قوله تعالى:(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) عاطفة؛ عطفت الجملة على ما قبلها؛ فالذي دبر ما سبق وأتقنه لا يليق به ألا يقيم بينهم الجزاء على ما عملوه في حيا م الدنيا [2]، والذي سوغ عطف هذه الجملة على سابقتها هو اتفاقهما في الإخبار عن حال المخاطبين في الدنيا.

والمعنى: أنه ـ تعالى ـ خالف بين أحوالكم؛ فجعل بعضكم فوق بعض... بما بسط من الرزق؛ ليختبركم، فيعلم من أطاعه ومن عصاه من المؤدي مما آتاه الله... ومن المفرط في أدائه [3].

---

(١) ينظر : ملاك التأويل (٤٨٤/١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٩/٨) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٢٢/٥) .

والغرض من الخبر في الآية ـ والله أعلم ـ العبرة والعظمة ، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة، بل جعل ذلك وسيلة لشكر تلك النعمة ... بالرفق ـ مثلاً ـ بالضعيف، وإنصاف المظلوم [١].

وفي الآية استعارة تصريحية؛ فيها شبه تفاوت أحوالهم في النعم بالدرجات المتفاوتة؛ وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه [٢].

وختمت الآية بجملتين خبريتين؛ هما قوله تعالى:(إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)، ويلحظ أن الأولى أكدت بمؤكدين؛ هما "إن"، والجملة الاسمية. بينما أكدت الجملة الثانية "وإنه لغفور رحيم" بعدة مؤكدات منها : اسمية الجملة، و"إن" المؤكدة، ولام الابتداء، وهي في قوة القسم المؤكد، ومن المؤكدات الإخبار عن "الرب" ـ عزوجل ـ باسمين كريمين أتبع أحدهما الآخر، وقد تضمنا صفتين عظيمتين؛ وهما: المغفرة والرحمة، وهذا من قبيل التوكيد اللفظي؛ لأن "الرحيم" يؤكد معنى " الغفور " [٣].

ولعل توكيد الأولى بمؤكدين فقط للتخويف والتحذير من غضب الله ـ سبحانه وتعالى ـ [٤]. أما تأكيد الثاني بما ذكر من مؤكدات، لعل ذاك ترجيةً لمن أذنب، وأراد التوبة، ومن الخير له ألا يتردد، فإن الله هو الغفور الرحيم [٥]. وهو ـ أيضاً ـ ناظر إلى قوله تعالى:(كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) [الأنعام :١٢]؛ لأن السياق هنا؛ سياق تأديب لهذه الأمة، والتذكير بالإنعام عليهم بالاستخلاف، ولولا غفرانه، ورحمته ... لأسرع عقابه لمن عدل به غيره، فأسقط عليهم السموات وخسف م الأرض ، التي أنعم عليهم بالخلافة فيها [٦].وقوله:(إِنَّ رَبَّكَ)، خطاب للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إعلاما بأن

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢١١/٨) .

(٢) ينظر : السابق. الصفحة نفسها.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٢/٨)، و: النظم القرآني في آيات الجهاد (١٢٢).

(٤) ينظر : فتح القدير (١٨٦/٢) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٩٥/٦).

(٦) ينظر : نظم الدرر (٣٤٥/٧) .

ربه قد رباه أجمل تربية [١]. وإضافة اسم "الرب" إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ **إبراز لمزيد اللطف به [٢].**

ووقعت المقابلة بين العقاب والغفران، ولم تكن بين العقاب والثواب؛ لأن ذلك أدعى إلى الإقلاع عما يوجب العقاب؛ لأنه لو ذكر الثواب لجاز أن يتوهم أنه لمن لم يكن منه عصيان [٣]. " وجمع بين صفة "سريع العقاب"، وصفة "الغفور"؛ ليناسب جميع ما حوته السورة [٤] ".

وجملة : " إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم " تذييل لما سبق ؛ وللإيذان بأن المقصود منه العمل ، والامتثال [٥].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٤٥/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٨/٣) .

(٣) ينظر : مجمع البيان (٦٠٧/٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٢١١/٨) .

(٥) ينظر : المرجع السابق. نفسها. وسيأتي الوقوف مع الآية ـ بإذن الله ـ في الفصل السادس من البحث .

المبحث الثاني

الاسمية والفعلية

الاسمية والفعلية

قبل البدء بتحليل شواهد هذا المبحث أشير على عجل إلى بعض ما يتصل به. فالجملة تقسم قسمين :

الأول : الاسمية.

الثاني : الفعلية[١].

ولكل منها دلالة تختلف عن الأخرى، وحاول عبد القاهر الجرجاني أن يفرق بينهما في كتابه "دلائل الإعجاز" ، حتى وصل إلى ما وصفه بأنه: "فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه."[٢].

وبينه بأن الاسم يدل على ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة فعل ، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً[٣]. أما الفعل فيدل على تجدد المعنى شيئاً بعد شيء ومع ثبوته[٤]. فالاسم يدل على الاستقرار والثبوت، والفعل على التجدد والحدوث[٥].

والسبب في كون الاسم يدل على الاستقرار والثبوت، هو ما للاسم من دلالة على الحقيقة دون زمانها؛ بينما الفعل له دلالة على الحقيقة وزمانها؛ فإذا قيل: "انطلق زيد" أفاد هذا ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد، وكل ما كان زمانيا، فهو متغير والتغير مشعر بالتجدد[٦].

ونبه المراغي إلى أن الجملة الاسمية لا تفيد الدوام والثبات إلا بقرينة المقام إذا كان خبرها مفرداً، أو جملة اسمية. أما إذا كان خبرها مفرداً ، أو جملة اسمية. أما إذا كان خبرها

---

(١) ينظر : علوم البلاغة المراغي. (٥٥) وما بعدها .

(٢) دلائل الإعجاز . (١٧٤) .

(٣) المرجع السابق (١٧٥) بتصرف .

(٤) السابق (١٧٤) بتصرف .

(٥) البرهان في علوم القرآن. (٤/٦٦) بتصرف .

(٦) ينظر : ماية الإيجاز في دراية الإعجاز. (٧٥) .

جملة فعلية، فإ ا تفيد التجدد [١]. إلا أن الدلالات يمكنها أن تتجوز هذا الشرط؛ لأ ا ـ غالباً ـ للسياق [٢].

وليس ثمة ما يدعو للإطالة في هذا التقديم، لكن أختم بما ذهب إليه عبد القاهر إلى أنه ـ وبعد أن علمت دلالة الجملة الاسمية والفعلية ـ لا يحسن الإخبار بإحداهما في موضع الأخرى [٣]. فلكل محل ما يليق به، فحيث يراد تجدد حقائقها، أو أثارها فالأفعال، وحيث يراد ثبوت الاتصاف ا فالأسماء [٤].

ومن شواهد التعبير بالجملة الاسمية والفعلية ،

قوله تعالى:(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام:٤].

لما تكلم ـ سبحانه وتعالى ـ في التوحيد أولاً بقوله:(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [الأنعام:١]، وفي المعاد ثانياً:(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)[الأنعام:٢]. وفيما يقررهما ثالثاً:(وَهُوَ اللّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)[الأنعام:٣]. ذكر بعد ذلك ما يتعلق بتقرير النبوة، مبيناً موقف الكفار من الدلائل؛ فقال:(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [٥].

---

(١) ينظر : علوم البلاغة. (٥٧) .

(٢) في البنية والدلالة (١٠٣) بتصرف .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز (١٧٦) .

(٤) البرهان في علوم القرآن (٦٧/٤) بتصرف . وللاستزادة ينظر : دلائل الإعجاز (١٧٤) وما بعدها، و: ا يـة الإيجاز في دراية الإعجاز (٧٥) وما بعدها، و: شروح التلخيص (٢٧/٢)، و: الإشارات والتنبيهات في علـم البلاغة. محمد بن علي الجرجاني (٦٣) وما بعدها، و: المثل السائر (٢٦٩/٢) وما بعدها، و: البرهان في علوم القرآن (٦٦/٤) وما بعدها ... وغيرها .

(٥) ينظر : التفسير الكبير . (٤٤٨٣/٤) .

والمعنى ما من حجة، ودلالة تأتي هؤلاء الكفار، لتثبت لهم وحدانية الله ـ تعالى ـ وصدق نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا صدوا عن قبولها جهلاً منهم بالله، واغتراراً بحلمه عنهم [(١)].

وشاهد الجملة الفعليه قوله تعالى:(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ)؛ ففيها جاء التعبير عن إعراض الكافرين عن الإيمان بالآيات كلما أتتهم، ليس ذلك فحسب بل وتجددها في إثبات الحقيقة التي جيء ا من أجلها؛ وهي وحدانية الله ـ تعالى ـ وتفرده بالعبادة الحقة [(٢)]. أولحكاية الحال الماضية؛ لاستحضار صور ا [(٣)].

والآيات في قوله :(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) قد يكون المراد ا الآيات الت يلية؛ وهي آيات القرآن الكريم، وإتيا ا نزولها. أو الكونية؛ وهي التي تتضمن المعجزات، والآيات الكونية وإتيا ا بمعنى ظهورها[(٤)]. فمن الآيات الكونية ما جاء في قوله تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[الروم :٢٠-٢٤].

والأولى أن يراد بالآيات هنا عموم الآيات "الت يلية" و "الكونية" بدليل قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٤٩/٥) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم. (١٠٩/٣)، و: التحرير والتنوير. (١٣٣/٦) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٩/٣) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .

﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وجاءت "من" في قوله:(مِّنۡ ءَايَةٍ) في سياق النفي، مما أفاد توكيد العموم والاستغراق، فعمت به "من" جميع أنواع الآيات التي أتت وتأتي [١].

ويلحظ أن الآيات التي أتت هؤلاء المعاندين هي ذات شأن عظيم، وحصل هذا التفخيم من إضافتها إلى اسم الرب في قوله: (مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ) [٢].

وإضافة اسم الرب إلى ضميرهم؛ لتهويل ما اجترأوا عليه في حق آياته [٣]. ولعل فيها ـ أيضاً ـ تسجيل عقوقهم بحق العبودية؛ لأن من حق العبد أن يقبل على ما يأتيه من ربه، وعلى الذي يأتيه برسالة من ربه... ثم ينظر فيما أرسل إليه ويتأمل...، وليس من حقه أن يعرض ويصد عن المرسل والرسالة بدعوى هشة...فلعه يعرض عما إن تأمله علم أنه من ربه حقاً [٤].

وفي الآية التفات؛ فقد عدل عن خطابهم بقوله: (خَلَقَكُم) إلى الغيبة في قوله: (وَمَا تَأۡتِيهِم)[٥]، ولعل السر في هذا الالتفات للإشعار بأن ذكر قبائح هؤلاء الكفار المعاندين قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صحفاً، فيذكر حالهم لغيرهم ليعجبهم منهم، ويستدعي منهم مزيد إنكار وتقبيح [٦].

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤٢) وما بعدها، و:إرشاد العقل السليم. (٣/١٠٩)، و: التحرير والتنوير. (٦/١٣٤).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم. (٣/١٠٩).

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها. بتصرف.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير. (٦/١٣٤).

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم. (٣/١٠٩)، و: الفتوحات الإلهية. ((٢/٦)، و: التحرير والتنوير. (٦/١٣٤).

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم. (٣/١٠٩).

قوله تعالى:(إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ). الإعراض هو "ترك النظر في الآيات"[(١)]،والصد عن قبولها [(٢)].

وربما يطرأ ههنا على الذهن سؤال؛ لمَ أوثرت صيغة اسم الفاعل للتعبير عن إعراض المعاندين...، ولم يكن التعبير بنحو قولنا: إلا أعرضوا عنها؟!. والذي يظهر أن هذا الإيثار تضمن مذمة لهؤلاء الذين يعدلون بر م سواه وأي مذمة إذ أخبر عنهم أ م معرضون عن كل آية ترد عليهم [(٣)]؛ وبيان ذلك أن إتيان خبر كان بصيغة الفاعل دل على أن هذا الإعراض منهم متحقق من دلالة فعل الكون؛ بل ودل على استمرارية إعراضهم في مقابل استمرار إتيان الآيات [(٤)]. ففي الآية دلالة واضحة على كمال مسارعتهم إلى الإعراض [(٥)]، وهو صفة دائمة لهم قصداً للعناد، ولئلا تلزمهم الحجة [(٦)].

وقدمت "عنها" على "معرضين" اهتماماً بشأن الآيات المعرض عنها، ولمراعاة الفواصل [(٧)].

وقوله تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[الأنعام:١٨].

عطف قوله تعالى:(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) على ما قبله؛ وهو قوله تعالى:(وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ)[الأنعام:١٧]؛ لاتفاقهما في المعنى، فكلتاهما أبطلت استحقاق الأصنام

---

(١) الجامع لأحكام القرآن. (٣٩٠/٦) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٤٩/٥).

(٣) ينظر : المحرر الوجيز. (٧/٦) .

(٤) ينظر :المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: التحرير والتنوير. (١٣٤/٦) .

(٥) إرشاد العقل السليم. (١٠٩/٣) بتصرف .

(٦) نظم الدرر. (٢٠/٧) بتصرف .

(٧) إرشاد العقل السليم . (١٠٩/٣) بتصرف .

للعبادة؛ فالأولى أبطلته بنفي أن يكون للأصنام تصرف في أحوال المخلوقات، والثانية نفت أن يكون غير الله قاهراً على أحد، أو خبيراً، أو عالماً بتصريف شؤون الخلق [(١)].

ومعنى الآية: الله الغالب على عباده المذل لهم، وهو حكيم في علوه عليهم، وفي سائر تدبيره، وهو الخبير بمصالح الأشياء ومضارها [(٢)].

والشاهد في الآية مجيء التعبير عن قهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وغلبته على عباده بالجملة الاسمية؛ ولعل السبب في ذلك لما للجملة الاسمية من دلالة يقتضيها المقام؛ فهنا يبرز صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ التي استحق ا أن يفرد بالعبادة دون من سواه؛ فمن له القهر على العباد، ومن هو علي عليهم، ومن هو حكيم خبير هو حتما المستحق للعبادة وحده. فالجملة أثبتت هذه الصفات لله ـ سبحانه وتعالى ـ، كما أثبتت دوامها واستمرارها له ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوى المعنى السابق ـ أيضاً ـ تعريف المسند والمسند إليه في الآية، فبه قصرت تلك الصفات على الله ـ جل وعلا ـ قصراً حقيقياً؛ ففي قوله تعالى:(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)؛ أ ي: لا قاهر إلا هو؛ لأن قهر الله ـ تعالى ـ هو القهر الحقيقي، الذي لا يجد المقهور منه ملاذاً [(٣)]، والله ـ تعالى ـ، هو الذي قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على وحدانيته، وهو الذي قهر جبابرة خلقه بعز سلطانه، وقهر الخلق كلهم بالموت [(٤)].

وكذا وقع القصر الحقيقي في قوله تعالى:(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) أي لا حكيم ولا خبير إلا هو [(٥)].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير. (٦/١٦٤) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن. (٥/١٦١) بتصرف .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم. (٣/١١٧)، و: التحرير والتنوير. (٦/١٦٥).

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى. (٣٨) بتصرف .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم. (٣/١١٧) .

وفي تذييل الآية بهذين الاسمين (ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ) مؤازرة للمعنى السابق وتأكيد له؛ فهو ـ سبحانه ـ "الحكيم في علوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره" [١]. وهو الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا تخفى عليه الأمور ولا عواقبها، "يعلم من فوق عرشه ما في السموات وما في الأرض، وما تحت الثرى، يدبر الأمر" [٢]، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل في حكمه دخل [٣]. فبما أنه ـ عزوجل ـ هو القاهر المتعالي، وكل من سواه تحت قدرته وسلطانه، وهو الحكيم الخبير...فكيف تصرف العبادة لغيره...؟!.

ومما يجدر الإشارة إليه قبل الانتقال إلى شاهد آخر من شواهد الجملة الاسمية والفعلية، ما وقع فيه كثير من المفسرين في هذه الآية من محذور عقدي حين نفوا ما أثبته الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنفسه فيها من علو وفوقية ذات. فعطلوا بذلك كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وكذبوا نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ليس ذلك فحسب بل طمسوا فطرهم التي فطرها الله عليها...متوهمين "أن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان، وإثبات المكان يوجب إثبات الجسمية"[٤]،والله ـ جل وعلا ـ هو القائل:(وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ) [البقرة:٢٥٥]، قال ابن القيم: ومن لوازم اسم "العلي" العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات [٥].

والأدلة على إثبات هذه الصفة كثيرة وسيأتي إيراد بعضها ـ بإذن الله ـ.

فما كان منهم إلا أن حرفوا قوله تعالى:(وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ) عن معناه المراد إلى معنى آخر تأباه الفطر السليمة والعقول الصحيحة، فقالوا [٦]: أي: هو أفضل منهم، فهو فوقهم بالرتبة، والمنزلة، والشرف، كما يقال: الوزير فوق الأمير، والسلطان فوق رعيته، وزيد فوق عمرو، والدينار فوق الدرهم.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٦١/٥) .

(٢) نقض عثمان بن سعيد (٢٤٤) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٦١/٥) بتصرف .

(٤) بيان تلبيس الجهمية. (٣١/١) .

(٥) مدارج السالكين (٣١/١) بتصرف .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (١٩/٦)، و: البحر المحيط (٨٩/٤)، و: الجامع لأحكام القرآن (٣٩٩/٦) .

ووجهوا الآية توجيهاً بلاغياً به نفوا فوقية ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ، ولعل الزمخشري أول من وجه الآية بهذا التوجيه؛ فقد قال:"(فَوۡقَ عِبَادِهِۦ) تصوير للقهر بالعلو والغلبة والقدرة"(١). ثم تبعه كثير من المفسرين؛ قال أبو حيان: "أما الجمهور فذكروا أن الفوقية هنا مجاز"(٢).

ونص بعض المفسرين على أن هذا المجاز من قبيل الاستعارة التمثيلية؛ فيها صور قهره ـ سبحانه وتعالى ـ وعلو شأنه بالعلو الحسي(٣). فالمجاز في "فوق" استعارة تمثيلية لحالة القاهر بأنه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه، فلا يجد فكاكاً ولا حراكا (٤).

وقيل إن المجاز في هذه الكلمة من قبيل الكناية؛ فهي كناية عن القهر والعلو بالغلبة والقدرة (٥).

ومن المفسرين من لم يكلف نفسه عناء النظر والتأمل في الآية واكتفى بالقول بزيادة كلمة "فوق"، والتقدير: وهو القاهر لعباده (٦). ولا يخفى بطلان هذا القول وفساده، وقد رفضه أبو حيان؛ لبعده (٧).

والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بعلو الله ـ تعالى ـ وفوقيته على خلقه؛ لدلالة الآيات ـ وما أكثرها ـ "التي إن سلط التأويل عليها، لعاد الشرع كله مؤولا، وإن قيل إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ."(٨)؛ ولدلالة الأحاديث النبوية، والآثار الصحيحة عن الصحابة والتابعين وتابعيهم.

---

(١) الكشاف. (٧/٢) .

(٢) البحر المحيط. (٨٩/٤) .

(٣) ينظر : روح المعاني. (١٠٨/٤)، و: حاشية زادة (١٥٦/٢)، و: التحرير والتنوير. (١٦٥/٦) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير. (١٦٥/٦) .

(٥) ينظر : روح المعاني. (١٠٨/٤) .

(٦) ينظر : البحر المحيط. (٨٨/٤)، و: روح المعاني. (١٠٨/٤).

(٧) ينظر : البحر المحيط. (٨٨/٤) .

(٨) بيان تلبيس الجهمية. (٣٠/١) .

فكل من نفى فوقية الله ـ عز وجل ـ وحرف معناها، فقد قال على الله بغير علم، وهو إما صاحب هوى، أو بدعة مضللة؛ والأدلة على إثبات هذه الصفة لله ـ تعالى ـ أكثر من أن تحصى؛ منها[1] :

١- التصريح بفوقيته ـ سبحانه وتعالى ـ المقترنة بأداة "من" المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى:(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ۞يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[النحل:٤٩-٥٠].

٢- التصريح بعروج الملائكة والروح إليه ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى:(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)[المعارج:٤].

٣- التصريح بالصعود إليه ـ جل وعلا ـ قال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[فاطر :١٠] .

٤- التصريح بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ رفع بعض المخلوقات إليه؛ كقوله عن عيسى ـ عليه السلام ـ: (بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)[النساء:١٥٨]

٥- التصريح بعلوه المطلق الدال على جميع مراتب العلو؛ ذاتاً، وقهراً، وقدراً بنحو قوله:(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)[البقرة:٢٥٥].

٦- التصريح بتنزيل الكتاب منه ـ سبحانه وتعالى ـ والنصوص الدالة على ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى:(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[الزمر:١]، وقوله: (تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)[فصلت:٢]، وقوله تعالى:(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ)[النحل:١٠٢].

---

(١) ينظر في هذا: شرح العقيدة الطحاوية. (٣٨١/٢) وما بعدها .

٧- **التصريح بأنه** ـ عز شأنه ـ في **السماء، من ذلك قوله تعالى:**(أَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)**[الملك:١٦-١٧]، وقوله:**(فِى السَّمَاء) **عند المفسرين من أهل السنة على وجهين: الأول: أن "في" بمعنى "على"، والثاني: أن يراد بالسماء العلو، ولا يجوز الحمل على غير ذلك.**

٨- **التصريح بـ وله كل ليلة إلى السماء الدنيا نزولاً يليق به؛ فعنه** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أنه قال: "يـ ل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟[(١)]". والـ ول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.**

٩- **التصريح باستوائه** ـ سبحانه وتعالى ـ **على عرشه بأداة "على"، وعرشه أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة "ثم" الدالة على الترتيب والمهلة. وذلك في سبعة مواضع في كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى:**(اللّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)**[الرعد:٢].**

١٠- **الإشارة إليه حساً في العلو، كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له، وكان هذا في حجة الوداع، ففي ـ ايتها قال: " وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكُتها إلى الناس: "اللهم اشهد.اللهم اشهد" ثلاث مرات[(٢)].**

١١- **شهادته** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **لمن قال: إن ربه في السماء بالإيمان؛ ودليلها، ما روي عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: قلت يا رسول الله، جاريةً لي صككتها صكة، فعظم ذلك على رسول الله** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **فقلت: أفلا أعتقها؟ قال:**

---

(١) رواه أبو داود في سننه. كتاب: السنة باب: في الرد على الجهمية. (٧١٨) حديث رقم (٤٧٣٣) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه. كتاب الحج. باب حجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.(٦٣٧) رقم الحديث (١٢١٨).

"ائتني ا" قال: فجئت ا، قال:"أين الله"؟ قالت: في السماء، قال: "من أنا"؟ قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها فإ ا مؤمنة"[(١)]. فالجارية قالت: هو في السماء، ولو كان خطأ ما قالت، لرد عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولعلّمها، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ استدل على إيما ا بمعرفتها أن الله في السماء[(٢)].

ومن الآثار الصحيحة، التي تثبت علوه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو بكر:" أيها الناس إن كان محمد إلهكم الذي تعبدون، فإنه قد مات، وإن كان إلهكم الله الذي في السماء، فإن إلهكم لم يمت، ثم تلا قوله تعالى:(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)[آل عمران:١٤٤] حتى ختم الآية " [(٣)].

والإشارة إلى الجهة إنما هي اعتبار المشير، فالمشير في محل له فوق وتحت، وبما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ بائن عن خلقه، فإنه محال شرعاً وعقلاً أن يكون العالم في جهة الفوق، والله ـ عز وجل ـ يكون في جهة التحت، فجهة الفوق هي أنسب الجهتين إليه، فإذا أشير إليه ـ سبحانه وتعالى ـ تقع الإشارة عليه كما يليق به لا كما يتوهم المتوهمون في الفوقية المنسوبة إلى الأجسام، فنحن نعلم فوقيته ـ تعالى ـ من جهة الإجمال والثبوت لا من جهة التمثيل والتكييف[(٤)].

فإذا كانت صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً، ولا سنة، ولا إجماعاً، فنفي حقيقتها يكون عين

---

(١) رواه أبو داود في سننه. كتاب: الإيمان والنذر، باب: في الرقبة المؤمنة. (٥١٠) حديث رقم (٣٢٨٢) .

(٢) نقض عثمان بن سعيد. (٢٩٥). وما بعدها بتصرف .

(٣) رواه الدرامي في نقضه. (٣٠١) .

(٤) رسالة في إثبات الاستواء والفوقية (٦٨) وما بعدها بتصرف.

الباطل...فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده ـ عزوجل ـ**، وتصديق رسله،والإيمان بكتابه، وبما جاء به رسول** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **إلا بإثبات هذه الصفة له...؟!**[(١)]**.**

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ **بكماله وجلاله ، وعظمته و ائه فوق عرشه، فوق سمواته، وفوق جميع الخلائق في أعلى مكان، وأطهر مكان حيث لا خلق هناك من إنس ولا جان**[(٢)]**.**

"وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله ـ سبحانه وتعالى ـ **فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات، ومن أثبت البعض، ونفى البعض، فقد انتقص"**[(٣)]**.**

فحقيقة هذا ا از الذي قالوا به أنه ليس فوق السموات رب، وما على العرش إلا العدم المحض، وليس هناك من ترفع إليه الأيدي، ويصعد إليه الكلم الطيب، وتعرج الملائكة والروح إليه، وي ل الوحي من عنده، ولم يعرج برسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ **حقيقة، ولم يرفع المسيح** ـ عليه السلام ـ **إليه حقيقة، ولا يجوز أن يشير أحدنا إليه بأصبعه إلى فوق كما فعل النبي** ـ عليه الصلاة والسلام ـ**، ولا يجوز أن يسأل عنه بأين هو كما سأل الرسول** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **الجارية، ولا يراه المؤمنون بأبصارهم عياناً فوقهم بالجنة، ولا له حجاب حقيقة يحتجب به عن خلقه... وهذا عين الباطل**[(٤)]**.**

ثم إن من تأول "فوق" بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ **خير من عباده وأفضل منهم...فهذا من جنس قولهم: الشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، ورسول الله** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أفضل من فلان اليهودي ...فأين المدح والتعظيم هنا...؟! ما هذا**

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية. (٣٨٠/٢) بتصرف .

(٢) نقض عثمان بن سعيد. (٢٤٨) بتصرف .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية. (٣٨٨/٢) .

(٤) الصواعق المرسلة . (٣١٩/٢) بتصرف .

إلا من أرذل الكلام وأسمجه..، فكيف يليق بكلام الله تعالى..، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً..؟![١].

وقوله تعالى:(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) **[الأنعام:٤٩].**

لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ **حال المصلحين بقوله:**(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)**[الأنعام:٤٨].**

أتبعه ـ سبحانه وتعالى ـ **ببيان حال المكذبين؛ فقال:**(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)[٢].

والمعنى: إن الذين كذبوا بمن أرسلنا وآخرهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، **وخالفوا أمرنا و ينا، يباشرهم عذابنا وعقابنا على تكذيبهم لحججنا**[٣]**. وقيل: الذين كذبوا بالقرآن والمعجزات**[٤].

والشاهد في قوله:(يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)**؛ ففيها عبر عن الجزاء، الذي ينتظر أولئك المكذبين بقوله:**(يَمَسُّهُمُ)**، ولم يكن التعبير عنه بمثل قولنا: ماسهم، ولعل المقام هو الذي استدعى هذا التعبير؛ إذ إن دلالة الجملة الفعلية هنا أبلغ من الاسمية، فليس المراد مجرد إثبات وقوع العذاب عليهم، إنما إثبات تجدده وحدوثه شيئاً فشيئا، ومع تجدد العذاب يتجدد إيلامه، وشدته، وألمهم، ومعانا م...ولعل في هذا تخويفاً لهم، وبثاً للرعب في صدورهم.**

---

(١) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية. (٣٨٨/٢). وللاستزادة ينظر: نقض عثمان بن سعيد. (٢٠٥) وما بعدها، و(٢٧٤) وما بعدها،و: رسالة في إثبات الاستواء والفوقية . و: مختصر الصواعق المرسلة. (٣٠٦/٢) وما بعدها، و: شرح العقيدة الطحاوية. (٣٨١/٢) وما بعدها ... وغيرها.

(٢) نظم الدرر (١٢١/٧) بتصرف.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٧/٥) بتصرف.

(٤) الجامع لأحكام القرآن. (٤٢٩/٦) بتصرف .

وكان لاختيار كلمة "يمسهم" الأثر البالغ في مساندة المعنى المراد والمس ـ في اللغة ـ يدل على جس الشيء باليد[(١)]، ويقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس[(٢)]، وهو كاللمس إلا أن بينهما فرقاً؛ وهو أن اللمس قد يقال لطلب الشيء، وإن لم يوجد، كما قال الشاعر:

* وألمسه فلا أجده * [(٣)]

ولعل هذا الفرق هو الذي دعا إلى اختيار هذه الكلمة دون اللمس؛ لتأكيد إصابة العذاب لهم، وهذا يجعل وقع الكلام عليهم أشد.

وهنا شبه العذاب بالحي، ثم حذف المشبه به، وأتى بلازم من لوازمه، وهو "المس "، بجامع الإصابة والحلول في كل منهما. وعلى سبيل الاستعارة المكنية، ولعل السر البلاغي في هذه الاستعارة هو إظهار الشيء المعنوي المعقول في صورة المحسوس؛ ليتمكن في الشعور أعظم تمكن مع شدة الإحساس به[(٤)].

وآزر المعنى السابق تعريف المسند إليه، فالذي يظهر أن "أل" في العذاب عهدية؛ وعليه فإن المعنى: يمسهم العذاب، الذي أنذروه عاجلاً أو آجلاً [(٥)]...ففيه تخويف لهم والله أعلم.

وما ذاك الجزاء بظلم لهم ـ تعالى الله علواً كبيرا ـ، إنما: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يكذّبون[(٦)]. وجاء في تفسير الطبري: "كل"فسق" في القرآن ، فمعناه الكذب.[(٧)]"

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة. مادة (مس) .

(٢) المفردات . (٤٦٧) بتصرف .

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤) ينظر : الكشاف. (١٥/٢)، و: حاشية زادة. (١٦٧/٢)، و: نظم الدرر (١٢١/٧)، و: دراسات جديدة في إعجاز القرآن. (٩٠) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم. (١٣٦/٣) .

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن. (١٩٧/٥) بتصرف .

(٧) المرجع السابق. الصفحة نفسها .

وفي الإتيان بـ "كان" إشارة إلى أن صفة الفسق ملازمة لهم جبلة وطبعاً[١]، وهم مستمرون عليها؛ لأن "كان" إذا لم يقصد ا انقضاء خبرها فيما مضى، دلت على استمرار الخبر بالقرينة، كقوله تعالى:(وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)[النساء:٩٦][٢].

وجي بخبر "كان" جملة فعلية؛ دلالة أن فسقهم ـ مع استمراره ـ في تجدد وحدوث...، ففي كل مرة ترد عليهم آية من آيات الله يقابلو ا بالتكذيب... والإصرار على ما هم عليه من ضلال و ذا استحقوا العذاب.

ومما في الآية من لطائف بلاغية ـ غير ما تقدم ـ :

تعريف المسند إليه في قوله:(الَّذِينَ كَذَّبُواْ) بالموصولة، وذلك للتشنيع عليهم، وللتنصيص على ما اجترأوا عليه ـ وهو التكذيب بآيات الله ـ، وللإشارة إلى أن الجزاء المترتب على مدلول الصلة من نوع العقاب...وأ م نالوه استحقاقاً.

وفي إضافة الآيات لـ "نا" العائدة على الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعظيم لشأن هذه الآيات، التي كذب ا[٣]. وفيها ـ أيضاً ـ إشارة إلى أن ما يأتي به الرسل ـ عليهم السلام ـ عند التبشير والإنذار لأقوامهم هي آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فمن آمن به ـ عز وجل ـ فقد آمن بآياته ـ تعالى ـ، ومن كذب به ـ سبحانه ـ فقد كذب ا. وفيها من الترغيب في الإيمان بالله، والتحذير من التكذيب ما لا يخفى[٤].

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[الأنعام:٩٥].

---

(١) ينظر : نظم الدرر. (١٢١/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم . (١٣٦/٣)، و: التحرير والتنوير. (٢٣٩/٧) .

(٣) ينظر : نظم الدرر. (١٢١/٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم . (١٣٦/٣) بتصرف .

قيل في مناسبة الآية لما قبلها: إنه لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد، ثم تقرير النبوة، أردف ههنا بذكر بعض الدلائل على وجود الصانع، وكمال علمه، وحكمته، وقدرته[١].

ومعنى الآية: إن الإله، الذي يستحق العبادة دون كل ما يعبد هو الله، الذي شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع؛ الله المحيي والمميت[٢]، فأي وجوه الصد ـ أيها المكذبون ـ تصدون عن الحق...؟![٣].

وقوله:(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)، جملة اسمية افتتحت بـ "إن" مع أن الخبر ليس مما ينكر، ولعل السر في هذا التأكيد؛ أن انصراف المشركين عن التأمل والاعتبار في دلالة الزرع على قدرة الله "الخالق" ـ عز وجل ـ على الإحياء بعد الإماتة ـ كما قدر على إماتة الأحياء ـ حتى بلغ بهم الأمر إلى إنكار البعث؛ أن هذا الانصراف منهم أشبه حالاً بمن أنكر أو شك في أن الله فالق الحب والنوى، فكان أن أكّد الخبر بـ "إنّ"؛ لازالة هذا الشك والإنكار[٤].

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على أن هذا الوصف ثابت لله ـ تعالى ـ؛ فهو وحده القادر على فلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية...، وفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة...، ومع ثباته لله ـ تعالى ـ فهو دائم له[٥]. وأكد المعنى السابق بالجملة الاسمية، و"إن" للنكتة البلاغية الآنفة الذكر.

وفي الآية إيجاز قصر؛ فقد حصر بكلمتين، هما:(الحب والنوى) كل ما يخرج من الأرض من نبات؛ فكلمة الحب اشتملت على جميع أنواع الحبوب بشتى أنواعها، وأشكالها، ومنافعها.. تلك التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله ـ عز وجل ـ في البراري والقفار[٦]. والنوى؛ وهوكل ما يغرس مماله نواة، ضم

(١) ينظر : التفسير الكبير. (٧١/٥)، و: تفسير الخازن. (١٦٢/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٧٥/٥)، و: الكشاف. (٢٨/٢) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٧٧/٥) بتصرف .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير. (٣٨٧/٧) .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن. (١١٥٣/٢)، و: التحرير والتنوير. (٣٨٧/٧) .

(٦) ينظر : حاشية الصاوي. (٣٣/٢)، و: تيسير الكريم الرحمن. (٤٣٨/٢) .

جميع أنواع النخيل، والأشجار. فالله يشق الحب والنوى في الثرى، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها وألوا ا وأشكالها وطعومها[١]. وفي هذا مزيد تأكيد على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وثمة شاهد آخر، وذلك في قوله:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ). وقبل بيانه أقف مع معنى الآية لصلته بالشاهد وفيه تأويلات أرجحها ـ والله أعلم ـ ما ذهب إليه الطبري بقوله: "يخرج السنبل الحي من الحب الميت، ومخرج الحب الميت من السنبل الحي. والشجر الحي من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي"[٢]. والذي دعا إلى اختيار هذا التأويل هو السياق؛ فالآية أعقبت قوله تعالى:(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)[٣]. ثم إن العرب كانت تسمي الشجر مادام قائماً على أصوله لم يجف، والنبات على ساقه لم ييبس؛ كانت تسميه "حياً" فإذا يبس وجف، أو قطع من أصله، سموه "ميتاً"[٤].

وكان الأصل أن يعبر عن إخراج الحي من الميت بصيغة اسم الفاعل، فيقال ـ في غير القرآن ـ: مخرج الحي من الميت، كما قال ـ تعالى ـ في هذه الآية:(فَالِقُ الْحَبِّ)، و:(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) لكنه عدل عن ذلك إلى التعبير بالجملة الفعلية، فقال:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)[٥].

وهذا لنكتة بلاغية حاول بعض المفسرين إصابتها، ومما قالوه: إن ذلك للتنبيه على أن الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ؛ وذلك لأن الحي أشرف من الميت، وأتت هذه النكتة من أن التعبير بالفعل يدل على أن

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (١٥٠/٢)، و: تيسير الكريم الرحمن (٤٣٨/٢) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٧٦/٥) .

(٣) ينظر : المرجع السابق. (٢٧٧/٥)، و: تفسير القرآن العظيم. (١٥٠/٢) .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن . (٢٧٦/٥) بتصرف .

(٥) ينظر : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. (٢٩/٢) .

الفاعل يعتني بالفعل في **كل حين وأوان** [١]**. أو لعله لإرادة تصوير هذا الفعل واستحضار صورته** في **ذهن السامع، وكأنه يراها أمامه حقيقة، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن** في **أدائهما الفعل المضارع لا الاسم** [٢]**. والسر** في **استحضار صورة إخراج الحي من الميت** في **الذهن؛ لأن** في **هذه الصورة دلالة واضحة على** تمام **قدرته ـ** سبحانه وتعالى **ـ والله أعلم** [٣]**.**

وذلك لتأكيد إمكانية البعث بعد الموت[٤]**؛ فالآية وإن كانت خبراً من الله ـ** سبحانه وتعالى **ـ عن إخراجه من الحب السنبل، ومن السنبل الحب، فإن** في **عمومها يدخل ما روي عن ابن عباس ـ** رضي الله عنه **ـ بأن المراد:"يخرج النطفة الميتة من الحي،** ثم **يخرج من النطفة بشراً حياً"**[٥]**، وكل ميت أخرجه الله من جسم حي، وكل حي أخرجه الله من جسم ميت**[٦] **. فالقادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب** [٧]**.**

وفي المقابل عبر عن إخراج الميت من الحي باسم الفاعل، الدال على الثبات والدوام؛ لأنه لا يتنازع اثنان حول ثبات هذا الوصف لله ـ سبحانه وتعالى **ـ** [٨]**.**

وقدم التعبير عن إخراج الحي من الميت على عكسه؛ ولعل السر في **ذلك أنه أول ما بدئ به** في **الواقع،** ثم **نشأ عنه إخراج الميت من الحي، فكان الأول جديراً بالتصدير والتأكيد** في **النفس**[٩]**، وربما لأن دلالة قدرته ـ** سبحانه وتعالى **ـ فيه أوضح.**

---

(١) ينظر : التفسير الكبير . (٧٤/٥) .

(٢) ينظر : الانتصاف. (٢٩/٢) .

(٣) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : تفسير الخازن. (١٦٣/٢) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن . (٢٧٧/٥) بتصرف .

(٦) المرجع السابق. الصفحة نفسها. بتصرف .

(٧) تفسير الخازن . (١٦٣/٢) بتصرف .

(٨) ينظر : نظم الدرر. (١٩٨/٧) .

(٩) ينظر : الانتصاف. (٢٩/٢) .

ومع أن قوله تعالى:(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) جملة اسمية إلا أنها عطفت على قوله:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)، وحسن هذا العطف؛ والذي حسنه أن هذا النظم ما هو بقول بشر، إنما هو كلام الذي خلق الإنسان، علّمه البيان؛ فقوله:(مُخْرِجُ) وإن كانت اسماً، إلا أنها اسم فاعل، واسم الفاعل في معنى الفعل المضارع[١]. ووقعت المقابلة بين قوله تعالى:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) و:(مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، ولعل ذلك للتنبيه على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ .

وختمت الآية بقوله:(ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) . وأشير بـ"ذلكم"، الدال على البعيد؛ للتنبيه على أن المقصود الأصلي هو معرفة الله بذاته وصفاته، وأفعاله[٢] . ففاعل تلك الأفعال العظيمة من إحياء وإماته هو الله؛ الله الذي تعرفونه بهذا الاسم العظيم، ولم تطلقوه على أحد غيره، الدال على أنه الإله الواحد[٣] .

وفي الإشارة بـ "ذلكم" ـ أيضاً ـ التعريض بغباوة المخاطبين؛ لغفلتهم عن تلك الدلالة، وهي تفرده ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية [٤].

لذا عطف عليه استفهام إنكاري تعجبي[٥] (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)، فإذا كنتم تعترفون، وتقرون بأن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق فكيف تصدون عن الحق[٦]؛ أفلا تدبرون، حتى تعلموا أنه لا ينبغي لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى، فأخرج لكم من يابسها زروعاً، وجروشاً، وثماراً فمنها تتغذون وتفكهون ، ومنها تقتات أنعامكم...؛ أفلا تتدبرون أنه لا

---

(١) ينظر : الانتصاف (٢٩/٢) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير. (٧١/٥) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٧٧/٥)، و: الكشاف (٢٨/٢)، و: التحرير والتنوير (٣٨٩/٧) .

(٤) التحرير والتنوير. (٣٨٩/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : حاشية الصاوي (٣٣/٢)، و: التحرير والتنوير (٣٨٩/٧) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٧٧/٥)، و: حاشية الصاوي (٣٣/٢)، و: التحرير والتنوير (٣٨٩/٧) .

ينبغي لهذا الخالق المنعم أن يجعل له شريك في عبادته؟ ولو آمنوا ذه الحقيقة لما كذّبوا بالبعث[(١)] .

وبني الفعل للمجهول في قوله:(تُؤۡفَكُونَ)، ولعل هذا للتركيز على الفعل دون الاهتمام بفاعله. ثم إن صارفهم عن التوحيد غير متعين، وقد يختلف من شخص إلى آخر؛ فهو إما شيطان ووسوسته، أو نفس وهواها، أو آباء وأجداد ما عرفوا الله فصار الأبناء على خطاهم يسيرون، أو قادة وكبراء يدعون الناس إلى الضلال ... أو غيرها [(٢)].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٧٧/٥)، و: تيسير الكريم الرحمن (٤٣٨/٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٨٩/٧) .

المبحث الثالث

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير

للكلمات في الجملة العربية ترتيب خاص، هو أصل في اللغة؛ فالفعل ـ مثلاً ـ يتقدم على الفاعل، والفاعل على المفعول، وبعد ذلك تأتي متممات الجملة كالظرف، والجار والمجرور، والحال... وغيرها، وفي الجملة الاسمية نجد أن المبتدأ يتقدم على الخبر...[١].

إلا أنه قد يطرأ ما يدعو المتكلم إلى الخروج على هذا الأصل؛ فتقدم كلمة وتؤخر أخرى؛ لإصابة نكتة بلاغية تزيد المعنى بعداً وتأثيراً... ما كان يتأتى لها ذلك لو أنها بقيت على ترتيبها الأصلي [٢].

فالتقديم: هو تبادل في مواقع الكلمات في الجملة، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل أخرى مكانها، وذلك كي تؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو أنها ظلت في مكانها، الذي حكمت به قاعدة الوضع اللغوي [٣].

وكل تقديم في الجملة يتبعه تأخير، فهما متلازمان؛ فالخبر الذي يتقدم على مبتدئه... يكون قد أخر المبتدأ، والمفعول الذي يتقدم على فعله، يكون قد أخر الفعل عن مكانه... وهكذا [٤].

وقد قسم عبد القاهر الجرجاني التقديم إلى:

١- تقديم على نية التأخير؛ وفيه يبقى إعراب الكلمة ثابتاً مهما تغير وضعها في الجملة.

٢- تقديم ليس على نية التأخير؛ وفيه يتغير الحكم الإعرابي للكلمة حسب موقعها في الجملة، ومثال ذلك :

---

(١) ينظر : صفاء الكلمة (١٩٤)، و: علم المعاني. د/محمود نحلة (٥٩).

(٢) ينظر : علم المعاني. د/ محمود نحلة (٥٩) .

(٣) ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل (١٠٨) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: النظم القرآني في آيات الجهاد. (٢٩٧) .

المنطلق زيد، فالمنطلق مبتدأ، وزيد خبر. وفي: زيد المنطلق، يعرب "زيد" على أنه مبتدأ، والمنطلق خبره [١].

والقسم الأول هو الذي يدخل في صميم البلاغة .

وللتقديم والتأخير أهمية لا تخفى فوروده في كلام العرب يدل على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم للكلام وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه، وغرضهم فيه أن يكون اللفظ وجيزاً وبليغاً [٢].

ثم هو " باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه [٣]".

وتبرز أهمية التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني من حيث أن كل تقديم فيه وتأخير، إنما أتى لحكمه بالغة، وبقدرة معجزة، ليس فيه ما يفسد المعنى، بل ما يزيده بلاغة وتأثيراً[٤].

أما الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير، فيحسن الوقوف على شيء منها من خلال تحليل آيات العقيدة في هذا المبحث.

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز. (١٠٦) وما بعدها .

(٢) ينظر : الفوائد المشوق. (٩٣) .

(٣) دلائل الإعجاز. (١٠٦) .

(٤) ينظر : الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. (٣٠٩) .

ومن شواهد "التقديم والتأخير" في الآيات:

قوله تعالى:(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)[الأنعام :٥٢].

ومناسبة الآية لما قبلها [(١)]؛ أنه لما أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإنذار الضالين، لعلهم يتقون، أردف ذلك بتقريب المتقين وإكرامهم، و يه عن طردهم[(٢)].

وفي سبب نزول الآية روى مسلم في صحيحه عن سعيد بن أبي وقاص، قال: "كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستة نفر. فقال المشركون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست اسميهما. فوقع في نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما شاء الله أن يقع. فحدث نفسه. فأنزل الله ـ عزوجل ـ :(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ).[(٣)]".

والشاهد في قوله تعالى:(مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ)، وقبل بيان الشاهد تحسن الإشارة إلى أنه قد اختلف في عائد الضمير في قوله:(حِسَابِهِم)، و:(عَلَيْهِم) ... على قولين:

الأول: أنه عائد على المشركين، ويكون المعنى: لا يؤاخذون بحسابك، ولا أنت بحسا م حتى يهمك إيما م، ويدفعك الحرص عليه إلى طرد المؤمنين، فالله هو الهادي [(٤)].

---

(١) ما قبلها قوله تعالى:(وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ...) [الأنعام :٥١].

(٢) ينظر : البحر المحيط. (١٣٥/٤) .

(٣) صحيح مسلم. كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم. باب: في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنـه. (١٣١٦) حديث رقم (٢٤١٣) .

(٤) ينظر : الكشاف. (١٧/٢)، و: التفسير الكبير. (٥٤٢/٤) .

الثاني: **أنه عائد على الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي [١]، والمعنى: ما عليك من حساب رزقهم من شيء، ولا حساب رزقك عليهم. وبه قال ابن جرير الطبري [٢]. أو ما عليك من حساب عملهم بالثواب والعقاب، وما من حساب عملك عليهم شيء، فكل مؤاخذ بحساب عمله دون غيره [٣].**

والذي يظهر أن الضمير عائد على "الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي"، و"الحساب" المراد في الآية هو الرزق؛ والرزق ـ كما يعرفه ابن تيمية ـ : "اسم لكل ما يغتذي به الإنسان، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة[٤]". ويقوي هذا المعنى السبب الذي نزلت الآية فيه؛ فكأن المشركين كرهوا مجالسة ضعفاء المسلمين، الذين لا يستندون إلى مال أو جاه... إذ لا يليق ـ في نظرهم ـ أن يجلس أكابر القوم وسادا ثم مع أرذالهم...!. ويقويه ـ أيضاً ـ قوله تعالى:(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۞ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ**) [الشعراء: ١١١-١١٣]. فالمكذبون من قوم نوح ـ عليه السلام ـ رفضوا اتباعه ـ عليه السلام ـ كراهية التأسي في ذلك بمن صدقه من فقراء القوم وسفلتهم، ولئلا يكونوا هم الضعفاء سواء [٥]. وجاء في لسان العرب أن الكفار من قوم نوح نسبوا من آمن منهم إلى الحياكة والحجامة [٦]. وهذه الدعوة من كبراء المشركين لنبيهم بطرد المؤمنين هي من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله تعالى:(**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**) [البقرة :١١٨][٧]. وفي الآية دلالة على صدق نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ إن أتباعه في بدء الرسالة من الضعفاء،**

---

(١) ينظر : التفسير الكبير. (٥٤٢/٤) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٠٤/٥) .

(٣) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و:معالم التنزيل. (٩٩/٢)، و: التفسير الكبير. (٥٤٢/٤)، و: تفسير العز بن عبد السلام. (٤٣٨/١) ... وغيره .

(٤) مجموعة الفتاوى. (٣٧/١٦).

(٥) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (٣٢٩/٣)، و: وأيسر التفاسير. (٦٢٢/٣) .

(٦) ينظر : لسان العرب.مادة (رذل) .

(٧) ينظر : أضواء البيان. (١٧٢/٢).

وقد روي أن " هرقل" قال: "وسألتك [يعني أبا سفيان بن حرب] أشراف الناس اتبعوه [يعني النبي ـ عليه الصلاة السلام ـ] أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل [١]" .

وفي الآية قدم المسندين على المسند إليهما، وهذا التقديم ليس تقديماً واجباً؛ لأن الابتداء بالنكرتين هنا له مسوغ؛ وهو وقوعهما في سياق النفي [٢].فأصل الكلام ـ في غير القرآن ـ أن يقال: ما من شيء من حسابهم عليك، وما من شيء من حسابك عليهم. فإذا كان تقديم المجرورين اختيارياً، فلا بد أن يكون لهذا التقديم نكتة بلاغية [٣]، وقد ألمح إليها الزمخشري بقوله: "... حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم .[٤]". فالذي يفهم من كلام الزمخشري أن التقديم أفاد "الاختصاص"؛ وبيان ذلك أنه قصر في الجملة نفي حسابهم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ ليفيد أن حسابهم على غيره وهو الله تعالى [٥]. وأقوى منه أن يكون تقديم المسند في الموضعين من الآية لشدة الاهتمام بنفي اللزوم والوجوب الذي دل عليه حرف الجر "على" في الموضعين [٦]. وتقدم خطابه ـ تعالى ـ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله:(مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ) تشريفاً له ـ عليه الصلاة السلام ـ ، وقد ظهر حسن اعتنائه ـ سبحانه تعالى ـ بنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم خطابه مرة أخرى في قوله:(وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ) إذ كان مقتضى هذا التركيب ـ بالنظر إلى التركيب الأول ـ أن يقال:"ما عليهم من حسابك من شيء" لكنه قدم خطاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشريفاً له، واعتناء بمخاطبته [٧]. والذي قوى هذا التعليل دون سابقه؛ أن معنى القصر

---

(١) رواه البخاري في صحيحه. كتاب بدء الوحي. الباب السادس (٢٢) وما بعدها. حديث رقم (٧) .

(٢) ينظر : شرح شذور الذهب (٢١٠) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٥٠/٧) .

(٤) الكشاف. (١٧/٢) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٥٠/٧) .

(٦) المرجع السابق. (٢٥٠/٧) بتصرف .

(٧) ينظر : البحر المحيط (١٣٨/٤) .

في قوله تعالى:(وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَىۡءٍ) غير واضح؛ يبين ذلك ابن عاشور بقوله:"... أننا إذا سلمنا أن يكون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شبه اعتقاد لزوم تتبع أحوالهم فقُلب ذلك الاعتقاد بالقصر، لا نجد ذلك بالنسبة إلى (الذين يدعون ر م بالغداة والعشي) إذ لا اعتقاد لهم في هذا الشأن.(١)".

وقوله:(وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَىۡءٍ) إطناب بطريق التتميم (٢)؛ لنكتة بلاغية وإلا فالكلام قد تم بدونه وهي هنا المبالغة في انتفاء كون حسا م على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلاً، وهو انتفاء كون حسابه ـ عليه الصلاة السلام ـ عليهم، على طريقة قوله تعالى:(لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ)[الأعراف:٣٤] (٣).

وأما قوله: (مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَىۡءٍ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَىۡءٍ)، فهو إطناب بطريق الاعتراض (٤)؛ فالجملة معترضة بين النهي " ولا تطرد الذين يدعون ر م"، وجوابه "فتكون من الظالمين"، وقد تضمنت تعليلاً للنهي عن الطرد (٥).أو تقريراً للنهي ودفعاً لما عسى أن يتوهم كونه مسوغاً لطرد المتقين من أقاويل الطاعنين في دينهم(٦).

واجتمع في الآية عدد من المؤكدات؛ وهي :

"من" البيانية، و"من" الصلة (٧)، وتقديم المعمول، والتأكيد بالتتميم بنفي المقابل في قوله: (وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَىۡءٍ)، فإنه شبيه بالتوكيد اللفظي... وذلك كله

---

(١) التحرير والتنوير. (٢٥١/٧) .

(٢) التتميم: هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة. ينظر: الإيضاح. (١٩٦).

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم. (١٣٩/٣) .

(٤) سيأتي التعريف ذا الطريق في الفصل الثالث ـ بإذن الله ـ .

(٥) فتح القدير. (١١٩/٢) بتصرف .

(٦) ينظر : روح المعاني. (١٥١/٤) .

(٧) يسميها المفسرون بـ "من" الزائدة، لكن الأولى الاحتراز من إطلاق هذه الكلمة على شيء من كلام الله، وتسمية الحروف الزائدة بحروف الصلة نقلها "الزركشي" عن كثير من القدماء في كتابة "البرهان في علوم القرآن"، ينظر: البرهان (٣٠٥/١).

للتنصيص على منتهى التبرئة من محاولة إجابتهم لاقتراحهم [١]. وقد حصل من قوة الآية النهي عن أن يعظم أحد لجاهه وحسن ملبسه، وعن أن يحتقر أحد لرثاثة ملبسه وقلة شأنه [٢].

وثمة لطائف بلاغية أخرى برزت في الآية ؛ منها :

في قوله تعالى: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) يلحظ تسليط النفي على طرد الذين يدعون ر م بالغداة والعشي؛ ومعنى "يدعون ر م" كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أي: "يعبدون ر م [٣]". والسؤال الذي يفرض نفسه هنا؛ هو لمَ قُيد الدعاء بالغداة والعشي...؟!. وقيل إجابة عن هذا السؤال :

أنه أريد بذكر الغداة والعشي استمرار الفعل ودوامه، وأن الزمن معمور به، فكني هنا عن النهار بالغداة، والليل بالعشي؛ كما يقال: الحمد لله بكرة وأصيلا، أي الحمد لله في كل وقت [٤].

ومن المفسرين من خص "الدعاء" ـ في الآية ـ بالصلاة، فقال: إن الغداة والعشي أريد ما الصلوات الخمس [٥]؛ والسر في تخصيص الغداة والعشي بالذكر؛ لأن الشغل فيهما غالب على الناس، فمن كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة فهو في وقت الفراغ أقبل وأعمل [٦]. وقيل: يصلون الصبح والعصر، وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيهاً على شرفها [٧]. وعلة من خص "الدعاء" في الآية بالصلاة؛ اشتمال الصلاة على القراءة

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز. (٥٨/٦) و: التحرير والتنوير. (٢٥٠/٧) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن. (٤٣٤/٦) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٠١/٥) .

(٤) ينظر : الكشاف. (١٦/٢)، و: المحرر الوجيز. (٥٧/٦)، و: البحر المحيط. (١٣٥/٤) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠١/٥)، و: الكشاف. (١٦/٢)، و: المحرر الـوجيز. (٥٧/٦)، و: تفسير الخازن. (١٣٧/٢) .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن. (٤٣٢/٦) .

(٧) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٠٢/٥)، و: الكشاف. (١٦/٢)، و: تفسير الخازن. (١٣٧/٢) .

والدعاء والذكر [١]. وعلى ما ذهبوا إليه يكون هذا التعبير من قبيل المجاز المرسل وعلاقته الجزئية .

إلا أن قولهم ذاك غير مسلم به، ولم ير ابن جرير الطبري أن الدعاء في الآية مخصوص بالصلاة ؛ وحجته في هذا: أن الله ـ تعالى ـ قد سمى "العبادة" دعاء، ودللّ على ذلك بقوله ـ عز وجل ـ :(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[غافر :٦٠] [٢]. و"العبادة" ـ كما عرفها ابن تيمية ـ: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [٣]."

فـ "دعاء الله" يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلاماً، وقد يكون بالعمل له بالجوارح سواء في ذلك الأعمال التي افترضها عليهم، أو ما تقربوا بها إليه من نوافل[٤]. وجوز الطبري أن يكون القوم قد جمعوا هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، فلا قول أولى بالصحة من وصف القوم بما وصفهم الله به، فيعمون بالصفة التي وصفهم الله بها، ولا يخصون منها بشيء دون شيء [٥]. فعليه يكون من أجرى المجاز المرسل في الآية قد حجر واسعاً .

وقوله تعالى:(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) فيه إثبات لصفة الوجه لله ـ تعالى ـ وهو ثابت بالقرآن، والسنة، وإجماع السلف. إلا أن ما ثبت في هذه الآية من صفة لله ـ تعالى ـ أوله كثير من المفسرين؛ وذلك لأنهم أثاروا في أذهانهم سؤالاً بدعياً؛ وهو كيف يكون لله وجه، وما صفته؟!. ثم سمحوا لعقولهم بالتصدي للإجابة عن هذا التساؤل؛ بمثل قولهم: " وقد علم السامعون أن الله تعالى يستحيل أن يكون له وجه بالمعنى الحقيقي، وهو الجزء الذي في الرأس [٦]". ولا يظن أن هؤلاء قدروا القرآن حق قدره؛ حين ظنوا أنه غير

---

(١) ينظر : تفسير الخازن. (١٣٧/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٠٤/٥) .

(٣) العبودية. (٨) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٠٣/٥ – ٢٠٤) .

(٥) المرجع السابق. (٢٠٤/٥) بتصرف .

(٦) التحرير والتنوير. (٢٣٦/٢٧) .

كاف في **معرفة** أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ **وصفاته، وما** يجب لله **وما** يـ ه **عنه، بل الكافي** في **ذلك عقولهم**(١)**،**التي **غفلت عن تدبر قوله تعالى:**(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)**[طه :١١٠]؛ فوجه الله العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفاً، ولا تصوراً، وكل ما تقدره العقول فالله فوق ذلك وأعظم** (٢)**.**

وحتى يسلموا من تبعات ذاك السؤال عطلوا هذه الصفة ـ وغيرها من الصفات التي اثبتت في **القرآن وصحيح الأحاديث ـ ليس ذلك فحسب، بل ظنوا سوءاً بمن أثبتها له** ـ سبحانه وتعالى ـ **؛ قال الفخر الرازي: " وا سمة تمسكوا** في **إثبات الأعضاء** لله **تعالى بقوله:**(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) **وسائر الآيات المناسبة له مثل:**(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)**[الرحمن :٢٧]."**(٣)**.**

فكان أن أولوا صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ **وحرفوا كلامه عن مواضعه، وصرفوه إلى معان لا يريدها الله** ـ تعالى ـ **ولا رسوله** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **بدعوى التجسيم والتمثيل، قال ابن تيمية: " كل من نفى ما أثبته الله ورسوله، وقال: إن هذا** تجسيم **فنفيه باطل، وتسميته ذلك** تجسيماً **تلبيس منه.**(٤)**"...ولو لزم التجسيم من السكوت عن تأويلها لفر السلف منه، وأولوا ذلك، فهم أعرف الأمة** بما **يجوز على الله وما** يمتنع **عليه**(٥)**.**

وقد غدا أولئك بتأويلا م كاللاعب بوجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ **،** لهم في **كل نص تأويل؛ ففي قوله تعالى:**(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ۝وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)**[الرحمن:٢٦-٢٧]، وقوله:**(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)**[القصص :٨٨] قالوا : إن المراد: الأعمال الصالحة التي يتوجه ا إلى الله، وفي قوله:**(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا

---

(١) ينظر : مجموعة الفتاوى. (٣٦/١٦) .

(٢) شرح العقيدة الواسطية. (٢٩٠/١) بتصرف .

(٣) التفسير الكبير. (٥٤٢/٤) .

(٤) مجموعة الفتاوى. (١٧٤/١٧) .

(٥) المرجع السابق. (٩/٤) بتصرف .

فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)[البقرة :١١٥]؛أي: ثم قبلة الله يتوجه الناس إليها، وحيناً وجه الله عندهم كوجه الثوب والحائط [(١)]. وقالت طائفة: إن لفظ "الوجه" المضاف لله في الآيات زائد، والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ويريدون ر م. وقالت فرقة: "وجه الله " ثوابه وجزاؤه، وهذه أقوال نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها [(٢)].

ويلحظ أ م وجدوا في أساليب البلاغة متنفساً لهم حين قرروا أن " وجه الله " فيما ثبت من النصوص كلمة ليست على حقيقتها، إنما هي مجاز لغوي، وقد تكون كناية...؛ ومما قالوه في تأويل الآية التي معنا:(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)، ما يلي:

الأول: ما ذهب إليه "الزمخشري" في تفسيره من أن الوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته [(٣)]. ثم أتى بعده من كسا هذا المعنى ثوباً بلاغياً؛ فقال: " ويطلق الوجه على الذات كلها مجازاً مرسلاً [(٤)]". والمعنى ـ عندهم ـ أ م مريدون ذاته؛ وإرادة الذات ـ على ما قيل ـ الإخلاص لها بناءً على استحالة كون الله ـ تعالى ـ مراداً لذاته [(٥)].

الثاني: أن ذكر لفظ " الوجه" للتعظيم ـ كما يقال ـ هذا وجه الرأي ووجه الدليل، والمعنى يريدونه [(٦)].

الثالث: أنه كناية عن المحبة وطلب الرضا؛ لأن من أحب ذاتاً أحب أن يرى وجهه؛ فرؤية الوجه من لوازم المحبة [(٧)].

---

(١) نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد. (٤١٨) بتصرف .
(٢) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة. (٣٣٥/٢) .
(٣) ينظر : الكشاف. (١٦/٢) .
(٤) التحرير والتنوير. (٢٤٨/٧) .
(٥) ينظر : روح المعاني. (١٥١/٤) .
(٦) ينظر : التفسير الكبير. (٥٤٢/٤) .
(٧) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

الرابع: أنه كناية عن الله تعالى؛ بدعوى أن الجسمانية تستحيل بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ [(١)].

و بهذا التحريف سلمت لهم معتقداتهم الباطلة، ونجوا من شبه توهموها، لكنهم أوقعوا أنفسهم في أربعة من المحاذير؛ هي [(٢)]:

١- أنهم مثلوا ما فهموه من صفة "الوجه" في النص بصفته عند المخلوقين، وظنوا أن مدلول النص هو التمثيل .

٢- أنهم عطلوا النص القرآني والحديث الصحيح عما دلا عليه من صفته كمال تليق به ـ عزوجل ـ .

٣- أنهم عطلوا صفة الكمال، التي يستحقها الرب ـ جل جلاله ـ بنفيهم إياها عنه بغير علم .

٤- تمثيلهم الله ـ تعالى ـ بالمنقوصات والمعدومات . و بهذا فقد جمعوا في الله، وفي كلامه ـ سبحانه ـ بين التعطيل والتمثيل، وهذا هو الإلحاد في صفات الله وآياته .

ومن النصوص الدالة على أن وجهه ـ جل ثناؤه ـ ثابت في الكتاب، والسنة، وإجماع السلف ما يأتي :

قوله تعالى:(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ۝وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[الرحمن:٢٦-٢٧]. و:(فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)[البقرة:١١٥]،و:(وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ) [الرعد:٢٢]،و:(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)[الإنسان:٩]، و:(إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى)[الليل :٢٠]....وغيرها.

ومما يوافق ذلك من صحاح الأحاديث:

---

(١) ينظر : النهر الماد. (٦٨٧/١) .

(٢) ينظر : التدمرية . (٧٩) وما بعدها .

ما روي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أنه لما نزلت هذه الآية:**(قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ)**. قال رسول الله** ـ صلى الله عليه وسلم ـ**:"أعوذ بوجهك" قال:**(أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ) **قال:"أعوذ بوجهك"** [(١)]**. أفيجوز أن يتأول هذا بـ: أعوذ بثوابك، أو بالأعمال الصالحة، أو بوجه القبلة...؟!. ومعلوم أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق**[(٢)]**، ورسول الله** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **لا يستعيذ بمخلوق أبداً، ولا يظن به** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أن يفعل ذلك** [(٣)]**.**

ومن دعائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ **:"وأسألك لذة النظر إلى وجهك** [(٤)]**". وعنه** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **أنه قال:" إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل النهار. وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** [(٥)]**". وقال** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **:"إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه** [(٦)]**".**

ومذهب السلف ـ رحمة الله **عليهم** ـ في **صفات** الله ـ سبحانه وتعالى ـ **وأسمائه؛ هو الإيمان بما وصف الله به نفسه** في **كتابه، أو على لسان رسوله** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **من غير زيادة عليها، ولا نقص منها، ولا تجاوز لها، ولا تفسير، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين، بل إجراؤها على ظاهرها، ورد علم كيفيا ا إلى**

---

(١) رواه البخاري في **صحيحه. كتاب التفسير باب:[قوله]**(قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ)**[٦٥]. (٨٨١). حديث رقم (٤٦٢٨) .**

(٢) نقض عثمان بن سعيد. (٤٢٤) وما بعدها بتصرف .

(٣) ينظر : بدائع الفوائد. (٢٠٣/٢) .

(٤) رواه النسائي في **سننه الصغرى. كتاب الصلاة. باب الدعاء بعد الذكر. (١٨٣) حديث رقم : (١٣٠٦) .**

(٥) رواه مسلم في **صحيحه. كتاب الإيمان. باب قوله** ـ عليه السلام ـ **: إن الله لا ينام، وفي قوله: حجابه من النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. (١٠٩) حديث رقم (٢٩٣) .**

(٦) رواه النسائي في **سننه الصغرى. كتاب الجهاد. باب غزا يلتمس الأجـر والـذكر. (٤٣٢) حـديث رقـم (٣١٤٢) .**

المتكلم ا [١]. فمن خالفهم فقد فارق الجماعة، وفي ذلك روي عن محمد بن الحسن ـ صاحب أبي حنيفة ـ أنه قال: اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب، على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء ا الثقات عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صفة الرب ـ عز وجل ـ من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفارق الجماعة، فمن قال بقول "جهنم" فقد فارق الجماعة [٢].

ولما سئل مالك بن أنس ـ رحمة الله عليه ـ عن كيفية استواء الله ـ تعالى ـ على العرش، أجاب بقوله:"الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة [٣]".قال "ابن تيمية": " وهذا الجواب من مالك ـ رحمه الله ـ في الاستواء شاف في جميع الصفات مثل الن ول وا يء، واليد، والوجه ... وغيرها [٤]".

فوجه الله ـ جل ثناؤه ـ بناء على ما سبق على حقيقته، وليس بمجاز. ثم إن القول إنه مجاز باطل من وجوه أخر منها [٥]:

١- أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب.

٢- أن ذلك يستلزم كون حياته، وسمعه، وبصره، وقدرته، وكلامه، وإرادته، وسائر صفاته مجازاً لا حقيقة؛ لأن دلالة النصوص على تلك الصفات كدلالتها على أن له وجهاً ـ سبحانه وتعالى ـ ، فلم نفيت حقيقة وجهه ـ تعالى ـ وأثبتت حقيقة سمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته...؟!

٣- أن دعوى المعطل أن الوجه صلة كذب على الله، وعلى رسوله، وعلى اللغة؛ لأن هذه الكلمة ليست مما عهد زياد ا.

---

(١) ذم التأويل. (٩) بتصرف .

(٢) ينظر : مجموعة الفتاوى. (٤/٩) .

(٣) ذم التأويل. (١١) .

(٤) مجموعة الفتاوى. (٤/٨) .

(٥) للاستزادة ينظر : نقض عثمان بن سعيد. (٤١٨) وما بعدها. و: مختصر الصواعق المرسلة. (٢/٣٣٦) وما بعدها .

٤- أنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه. فالوجه في اللغة مستقبل كل شيء؛ لأنه أول ما يواجه منه، ووجه الرأي والأمر ما يظهر أنه صوابه، وهو في كل محل بحسب ما يضاف إليه، فإن أضيف إلى زمن كان الوجه زمناً، وإن أضيف إلى حيوان كان بحسبه، وكذا إن أضيف إلى ثوب أو حائط، وإن أضيف إلى من "ليس كمثله شيء" كان وجهه ـ تعالى ـ كذلك .

٥- أن من تدبر في سياق الآيات، والأحاديث، والآثار، التي فيها ذكر وجه الله الأعلى ذي الجلال والإكرام قطع ببطلان قول من حملها مجازاً على الثواب والجزاء لو كان ذلك صالحاً في اللغة، فكيف واللفظ لا يصلح لذلك لغة...[1]؟!.

فمن ألحد في أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ أو عطل شيئاً من صفاته كصفة الوجه؛ فقد سلب الله ـ تقدست أسماؤه ـ صفاته اللائقة به ونسب إليه مالا يليق بجلاله وعظمته كما فعلت اليهود فيما حكاه الله عنهم :(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ)[المائدة :٦٤]، والمعطلة قالوا: يد الله مخلوقة، لما ادعوا أ ا نعمته، ورزقه. ثم زادوا على اليهود فادعوا أن وجه الله ـ تعالى ـ مخلوق، حين ادعوا أنه وجه القبلة، ووجه الأعمال الصالحة، وكوجه الثوب والحائط ... وهذه كلها مخلوقة، فما بقي إلا أن يقولوا: هو بكماله مخلوق ـ نسأل الله السلامة ـ [2]!. فهولاء تكلفوا الكذب على الله ـ تعالى ـ ، وعلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غاية التكلف، ثم نكسوا على رؤوسهم، فوقعوا فيما فروا منه حين شبهوا وجهه ـ سبحانه ـ بمخلوقاته ...:(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ)[فصلت :٢٣] [3].

---

(١) للاستزادة ينظر : نقض عثمان بن سعيد. (٤١٨) وما بعدها. و: مختصر الصواعق المرسلة. (٣٣٦/٢) وما بعدها .

(٢) نقض عثمان بن سعيد. (٤٣٧) بتصرف .

(٣) ينظر : معارج القبول. (٢٣٥/١) .

وثمة فائدة جليلة للشيخ محمد بن عثيمين بين فيها أن الأصل إثبات صفة الوجه لله تعالى، وهو ـ أي الوجه ـ من الصفات الذاتية الخبرية، التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، لكن لا يقال: إ ا بعض من الله، أو جزء منه ـ سبحانه ـ ؛ لأن ذلك يوهم نقصاً لله ـ عزوجل ـ [١].

ويفهم من هذا أنه لا يصح إجراء ا از المرسل في قوله:(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) لمن أثبت صفة الوجه لله ـ تعالى ـ ؛ وعلة ذلك أن قوله ـ عند إجراء ا از ـ: أطلق الجزء "الوجه"، وأريد الكل "الذات" يوهم نقصاً لله ـ سبحانه وتعالى ـ فالواجب الاحتراز والتنبه .

ومن اللطائف البلاغية في قوله:(فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)؛ الإطناب بطريق التكرير، فقد أعيد فعل الطرد، ولم يكتف بالفعل "ولا تطرد"، الذي أتي به في أول الآية. وأفاد هذا التكرير غرضين: أحدهما: لفظي، والآخر: معنوي؛ فالأول: تأكيد النهي الوارد في قوله:(وَلاَ تَطْرُدِ) والثاني: أنه لما طال الفصل بين التفريع والمفرع عليه؛ أعيد الفعل؛ ليبنى عليه قوله:(فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) [٢].

وأتي بالخبر في:(فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) بالجار وا رور ؛ وهذا أبلغ من أن يقال: فتكون ظالماً، مع ما فيه من أدب في خطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ فالتعريف في "الظالمين" تعريف الجنس؛ وهذا يعني أنك "... تكون بطردك إياهم في زمرة الظالمين، معدوداً من جنسهم [٣]"، وهذا من قبيل الكناية.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية. (٢٨٧/١) بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير. (٢٥٢/٧) بتصرف .

(٣) تفسير المراغي. (١٣٥/٣) .

ومن شواهد التقديم والتأخير في السورة **قوله تعالى:**

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)**[الأنعام :٧٣].**

قال الفخر الرازي في **مناسبة الآية** لما **قبلها: اعلم أنه تعالى** لما **بين** في **الآيات** المتقدمة **فساد طريقة عبدة الأصنام، ذكر هنا ما يدل على وحدانيته وتفرده بالعبادة (١). وأورد أبو حيان** في **ذلك قوله: إنه** لما **ذكر تعالى أنه** إلى **جزائه** يحشر الخلق**، وهذا منتهى ما يؤول إليه أمرهم، ذكر هنا مبتدأ وجود** العالم **واختراعه بالحق (٢).**

والآية إخبار من الله ـ سبحانه **ـ بتفرده** بخلق **السموات والأرض دون كل من سواه، معرفاً من أشرك من خلقه جهله وخطأه** في **عبادة من لا يضر ولا ينفع،** محتجاً **عليهم** في **إنكارهم البعث بعد** الممات **بقدرته على ابتداء ذلك ابتداءً . وأن الذي ابتدع ذلك** غير **متعذر عليه إفناؤه،** ثم **إعادته بعد إفنائه (٣).**

وشاهد التقديم والتأخير في **الآية قوله تعالى:**(وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ)**؛ فقوله:**(وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ) **جملة اسمية فيها قدم** الخبر **"يوم" على** المبتدأ **"قوله" (٤). وأصل الكلام ـ** في **غير القرآن ـ: وقوله** الحق **يوم يقول كن فيكون. وقدم** الخبر **للاهتمام** به**؛ لأنه مدار الحقية (٥)، أو لعل ذلك للرد على** المشركين المنكرين **وقوع هذا التكوين بعد العدم (٦).**

---

(١) التفسير الكبير. (٢٧/٥) بتصرف .

(٢) البحر المحيط. (١٦٠/٤) بتصرف .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن . (٢٣٦/٥) بتصرف .

(٤) ينظر : الكشاف . (٢٣/٢)، و: البحر المحيط .(١٦١/٤)، و: النهر الماد . (٧٠٤/١)، و: أنـوار التنـزيـل وأسرار التأويل . (٤٢١/٢) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم. (١٥٠/٣)، و: روح المعاني . (١٨٠/٤) .

(٦) التحرير والتنوير. (٣٠٧/٧) بتصرف .

وترك ذكر المقول له للثقة بظهوره [١]. والمقصود يوم القيامة ... يقول له تعالى: كن، فيكون عن أمره [٢]. ومن ادعى أن المراد بقوله:(كُن فَيَكُونُ) التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته في تكوين الكائنات، وإيجاد الموجودات وليس المراد به خطابا وأمراً ... بحجة أن ذلك الأمر إن كان للمعدوم فهو محال، وإن كان للموجود فهو أمر بأن يصير الموجود موجوداً وهو محال [٣]، فقد ضل وجاوز الصواب؛ لأنه بهذا ينفي صفة أثبتها الله لنفسه وهي الكلام. والأصل ما عليه أهل السنة من إثبات ما أثبته الله ـ تعالى ـ لنفسه من الخلق والأمر، فالخلق فعله، والأمر قوله، وهو سبحانه يقول ويفعل [٤].

وفي قوله:(قَوْلُهُ الْحَقُّ) أثبت أن القول الحق هو قول الله ـ تعالى ـ لا قول غيره، وذلك بصيغة القصر، واجتمع في هذه الصيغة التأكيد والإيجاز؛ فقد حلت كلمتان مقام جملتين، والتقدير: قوله الحق "الكامل" لا قول غيره. وكان قوله الحق لا قول غيره؛ لأن أكثر أقوال غيره باطل، ولو سلمت فهي معرضة للخطأ [٥].

وشاهد التقديم الآخر في الآية قوله:(وَلَهُ الْمُلْكُ)، ففيه قدم المسند إليه على المسند؛ لأفادة القصر، وبهذه الصيغة أثبت أن الملك مقصور على الله ـ في ذلك اليوم ـ لا لغيره ... بأسلوب موجز وبليغ. وقد خص الملك به تعالى في ذلك اليوم؛ يوم ينفخ في الصور ـ مع أن الملك له خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة ـ ؛ لأن ذلك اليوم له خصوصية فيه يرجع الأمر لله وحده، ولا تملك نفس لنفس شيئاً، ويومئذ لا منازع له ـ تعالى ـ في الملك، ولا مدعي له، فهو المتفرد به دون كل من سواه[٦] ... فالآية تضمنت رداً على ما قد يطمع فيه المشركون من مشاركة أصنامهم يومئذ في التصرف

---

(١) إرشاد العقل السليم . (١٥٠/٣) بتصرف .

(٢) معالم التنزيل. (٢ /١٠٧)، و: تفسير القرآن العظيم. (١٣٨/٢) بتصرف .

(٣) التفسير الكبير . (٢٨/٥) بتصرف .

(٤) شفاء العليل . (٢٤٦) بتصرف .

(٥) ينظر : نظم الدرر. (١٥٤/٧)، و: التحرير والتنوير . (٣٠٨/٧) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٣٧/٥)، و: التفسير الكبير . (٢٧/٥)، و: تفسير المراغي (١٦٦/٣) .

والقضاء [١]. وقد دلت الجملة الاسمية على ثبوت الملك له ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ كما دلت على كمال قدرته ـ جل وعلا ـ [٢]. فكيف يرضى لنفسه من وقف على هذه الحقائق أن يتخذ إلهاً غير الله ـ تعالى ـ أو أن يدعو سواه [٣]...؟!.

ومن اللطائف البلاغية في الآية ـ غير ما تقدم ـ :

في قوله:(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ) عطفت الجملة على قوله:(وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[الأنعام :٧٢][٤]، وسبب هذا الوصل؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية؛ فالأولى إخبار منه ـ تعالى ـ بأن الخلق جميعاً يحشرون إليه يوم القيامة، والثانية إخبار بأنه ـ سبحانه ـ المتفرد بخلق السموات والأرض؛ ولاتفاقهما في المعنى فهما مسوقتان في معرض إثبات البعث.

وأثبت في الآية تفرده ـ سبحانه وتعالى ـ بخلق السموات والأرض عن طريق القصر، لما يتميز به هذا الأسلوب من تأكيد وإيجاز، وهو قصر حقيقي؛ لأن المشركين يقرون بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق السموات والأرض [٥]، والله يقول:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُلُنَّ اللَّهُ)[لقمان :٢٥]، فالغرض من القصر الاستدلال به على عظيم قدرته وسلطانه، فهو الصانع المبدع، والرازق، و ذا يخلصون له العبادة، والآية حجة على خلقه [٦].

وقوله:(يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّوَرِ) بني فعل "النفخ" للمجهول ولم يذكر المسند إليه "الفاعل"؛ للتركيز على الحدث، ولتعظيم شأن النفخة [٧].

---

(١) التحرير والتنوير. (٣٠٨/٧) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير. (٢٨/٥) .

(٣) تفسير المراغي. (١٦٦/٣) بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير (٣٠٦/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٣٧/٥)، و: المحرر الوجيز. (٨٢/٦)، و: التحرير والتنوير. (٣٠٦/٧) .

(٧) ينظر : نظم الدرر. (١٥٤/٧) .

وقد أجمع أهل السنة على أن المراد بالصور "القرن" [١]؛ و "هو قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما: لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية: لنشر كل ميت "[٢]، بدليل قوله تعالى:(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ)[الزمر :٦٨]. والذي ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السلام ـ [٣]. وجاء في تفسير القرطبي أن من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمن ينكر العرش والميزان والصراط، ويطلب لها تأويلات [٤]. وذلك لثبوته في الأحاديث النبوية؛ ومن الأحاديث الدالة عليه ما روي عن النبي ـ عليه الصلاة و السلام ـ أنه قال: "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينظر متى يؤمر. قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا "[٥]. وعن عبدالله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ما الصور؟ قال :"قرن ينفخ فيه" [٦].

ومن اللمحات البلاغية في قوله:(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) حذف المسند إليه، وتقديره: هو عالم الغيب والشهادة [٧]، وسر الحذف هنا الإيجاز، ولأن الخبر لا يصلح إلا له ـ سبحانه وتعالى ـ على وجه الحقيقة .

وأفاد التعريف في "الغيب والشهادة" الاستغراق؛ أي عالم كل غيب وكل شهادة[٨]. والغيب: ما غاب عن حواس الناس وبصائرهم فلا يحسونه ولا يبصرونه، والشهادة:

---

(١) تفسير الخازن . (١٤٨/٢) بتصرف .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣٧/٥) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن. (٢٠/٧)، و: تفسير الخازن. (١٤٨/٢) بتصرف .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٧) بتصرف .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. (٧٨٠). حديث رقم: (١١٠٥٤) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده . (٤٩٩٣) . حديث رقم (٦٥٠٧٩ .

(٧) ينظر : التفسير الكبير . (٢٨/٥) .

(٨) التحرير والتنوير .(٣٠٩/٧) بتصرف .

الحضور؛ أي ما حضر وعاينه الخلق وشهدوه [1]. وعلى هذا يكون في الجملة إيجاز بالقصر؛ لأ ا استوعبت جميع الموجودات ما غاب عنا وما حضر ... بعبارة موجزة .

وفي التعبير عن المعنى المراد بالجملة الاسمية دلالة على ثبوت صفة العلم لله ـ جل وعلا ـ وكمالها [2].

وختمت الآية بقوله:(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)، وقد ناسب معناها ختمها ذه الفاصلة؛ وبيان ذلك أنه لما ذكر خلق الخلق وسرعة إيجاده ـ سبحانه ـ لما يشاء، ثم بعثهم بعد إفنائهم ناسب ذلك الوصف بالحكيم؛ فهو حكيم في تدبيره وتصريفه، ولما ذكر أنه ـ عز شأنه ـ عالم الغيب والشهادة ... ناسب هذا المعنى الوصف بالخبير، فهو خبير بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيء، أحصاه ليجازيهم عليه [3]. ودلالة الجملة الاسمية في هذه الآية ليست بخافية؛ فقد أفادت ثبوت صفتي الحكيم والخبير لله ـ سبحانه وتعالى ـ وما دام الأمر على هذا النحو فعلى المسلم أن يحذر من مخالفة أمر الله ـ تعالى ـ أو التعدي على حدوده .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن . (٢٣٨/٥)، و: المفردات . (٢٦٨)، و: المحرر الوجيز (٨٢/٦) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير . (٢٨/٥) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣٨/٥)، و: البحر المحيط (١٦١/٤) .

ومن الآيات في شأن التقديم والتأخير :

قوله تعالى:(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)[الأنعام :١٠٠].

وقد نزلت الآية في مشركي العرب [١]**. وعلاقة الآية بما قبلها؛ أنه لما ذكر الله ـ تعالى ـ البراهين الدالة على توحده بالخلق والتدبير في عالم السموات والأرض، وامتنانه على بني آدم بشتى النعم ... ذكر هنا ما عاملوا به منشئهم من العدم، ورازقهم ...؛ من إشراك غيره معه في العبادة** [٢]**.**

وشاهد التقديم في الآية؛ قوله:(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ)**؛ إذ إن الأصل في التركيب ـ في غير القرآن ـ أن يقال: وجعلوا الجن شركاء لله، إلا أنه عدل عن هذا التركيب، إلى التركيب الوارد في الآية، مع أن كلا الجملتين تؤديان المعنى نفسه؛ وهو: الإخبار أ م جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله ـ تعالى ـ. لكن مع "التقديم أضيف للجملة معنى آخر، هو على النفس أشد وقعاً، ولا يمكن أن يتأتى ذلك مع التأخير .**

وقبل بيان ذلك يحسن الإشارة إلى ما قيل في إعراب الجملة؛ فلفظ الجلالة "لله" جار ومجرور متعلق بشركاء، و "شركاء" مفعول به ثان للفعل "جعلوا" مقدم، و"الجن" مفعول به أول مؤخر [٣]**. أو "لله" في موضع المفعول الثاني، و"شركاء" مفعول به أول، و"الجن" بدل من شركاء** [٤]**.**

فلم قدم لفظ الجلالة على "شركاء"، ولم قدم "شركاء" على "الجن"...؟!. لعل من السر في هذا التقديم؛ أن القضية هنا ليست قضية اتخاذ "الجن" شريكا لله ـ سبحانه ـ حتى تؤخر كلمة "شركاء" عن "الجن"، إنما القضية أعمق من ذلك بكثير، إ ا تنصب على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن . (٥٢/٧) بتصرف .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٩٢/٤ – ١٩٣)، و: تفسير المراغي (٢٠٤/٣) .

(٣) ينظر : الكشاف (٣١/٢)، و: المحرر الوجيز (١٢٠/٦)، و: الجامع لأحكام القرآن (٥٢/٧)، و: حاشية زادة (١٩٤/٢) .

(٤) ينظر : الكشاف (٣١/٢)، و: المحرر الوجيز (١٢٠/٦) .

المبدأ نفسه؛ وهو اتخاذ شريك مع الله ـ تعالى ـ؛ فلذا قدم "شركاء" على "الجن"، وقدمت ـ أيضاً ـ للتعجيب والإنكار لاتخاذهم شريكاً مع الله؛ إنكار اتخاذ مطلق الشريك؛ لأن من أشرك مع الله نبياً أو ملكاً ... ـ تماماً ـ كمن أشرك معه شجراً أو حجراً. وقد حصل بهذا الإطلاق أن اتخاذ الشريك من غير الجن داخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، فالمعنى الحاصل بالتقديم: أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غيرهم [(١)].

وهذا المعنى الحاصل بالتقديم يفتح عيني القارئ على عظم شأن "النظم"، ويبين له كيف يكون الإيجاز وما صورته ...، وكيف يزاد في المعنى من غير أن يزاد في اللفظ، وأن هذا المعنى لو طلب من التأخير لاحتيج إلى أن يستأنف له كلام، كأن يقال: "جعلوا شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غيرهم"، وهذا يفقد الكلام حسنه ووقعه المؤثر في القلوب [(٢)].

وعبر بالاسم الأعظم "الله"، وقدمه استعظاماً لفعلتهم [(٣)]؛ لأن اتخاذ شريك لله ... هو أعظم قضية في الوجود، وهو أعظم ذنب عصي الله به، وإذا كان الله ـ تعالى ـ يغفر الذنوب جميعاً، فإنه لا يغفر أن يشرك به شيئاً؛ لأن "الله" هو الذي خلق، ورزق، وأحسن ... بإقرارهم هم، ثم بعدها يتولون؛ ليعكفوا على عبادة غيره ممن لا يملك شيئاً من خصائص الألوهية ولا الربوبية ...!. كيف يخلق ويعبد غيره ... يرزق ويحمد غيره ... يحسن فيشكر غيره ... أثمة أمر أبشع من هذا الفعل ...؟! لا، والله، لكنهم ما قدروا الله حق قدره .

ولعظم فعلتهم تلك اتبعت الجملة السابقة بقوله:(وَخَلَقَهُمْ)؛ لزيادة الإنكار والتوبيخ لهم على إشراكهم الجن لله ـ تعالى ـ في العبادة [(٤)]. والمعنى: وخلق الجاعلين لله شركاء،

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز. (٢٨٦-٢٨٧)، و: نهاية الإيجاز. (١٥٩-١٦٠)، و: نظم الدرر. (٢١٥/٧)، و: التحرير والتنوير. (٤٠٦/٧)، و: تفسير الشعراوي. (٣٨٣١/٦)، و: من لطائف التفسير. (٣٦٠/١) .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز. (٢٨٧-٢٨٨) .

(٣) ينظر : الكشاف. (٣١/٢)، و: نظم الدرر. (٢١٥/٧) .

(٤) ينظر : حاشية زادة. (١٩٤/٢) .

وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن، فكيف يعبدون غيره [1]؟!. وقيل: الضمير في الجملة للجن؛ أي وخلق الجن، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه [2]؟!، فلما كان هو المستقل بالخلق وحده، فهو المستحق لأن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له [3].

و "إن قيل: ... كيف عبدت الجن مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم [4]".

وثمة وقفة يسيرة مع بعض اللطائف البلاغية، التي حفلت بها الآية؛ من ذلك :

في قوله:(وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ)، تجلت مزية من مزايا البلاغية القرآنية؛ وهي الدقة في اختيار الكلمة، وبإمكان القارئ أن يقف على هذه المزية عند النظر في كلمة "خرقوا"؛ فلقد جاءت في موضعها، ولو رفعت ووضع مكانها كلمة أخرى لزال الحسن في هذا الموضع .

ومعنى "خرقوا"؛ أي: افتروا، واختلقوا[5]. وجاء في الكشاف أن كلمة "خرق" عربية، كانت العرب تقولها، فالرجل حين يكذب في نادي القوم، يقال له: قد خرقها والله [6].

والخرق ضد الخَلْق؛ فإذا كان الخلق فعل الشيء بتقدير ورفق، فالخرق فعله بغير تقدير [7]. وقد وقع على هذا بين قوله:(وَخَلَقَهُمۡ)، و:(وَخَرَقُواْ) محسن بديعي، يسمى "الطباق"؛ كُشف لنا به المفارقة العجيبة بين فعل الله بهم، وفعلهم معه ...!؛ فالله ـ عزشأنه ـ امتن عليهم بأن خلقهم، وسواهم، ورباهم بنعمه ... وكل ذلك بتقدير، بينما هم ـ

---

(١) ينظر : الكشاف. (٣١/٢)، و: تفسير النسفي . (٢٦/٢)، و: تفسير القرآن العظيم (١٥٢/٢)، و: حاشية زادة (١٩٤/٢) .

(٢) ينظر : الكشاف. (٣١/٢)، و: معالم التنزيل. (١١٩/٢). و: تفسير النسفي. (٢٦/٢)، و: تفسير القرآن العظيم. (١٥٢/٢)، و: حاشية زادة. (١٩٤/٢)، و: تفسير المراغي. (٢٠٥/٣)

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (١٥٢/٢) .

(٤) المرجع السابق. الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : معاني القرآن. (٣٤٨/١)، و: جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٩١/٥) .

(٦) ينظر : الكشاف. (٣١/٢) .

(٧) المفردات في غريب القرآن. (١٤٦) بتصرف .

لعمى في قلو م ـ افتعلوا له البنين، والبنات، والشركاء ...، وما تلك إلا أوصاف تشين، وضلالات لم تعرف للصواب جادة ...!، حكموا ا دون أن يقدروا لخالقهم قدره .

وعن مادة "خرق" قال البقاعي: إ ا تدور على النفوذ، والاتساع، والإطلاق؛ فهم كذبوا، واختلقوا، واتسعوا في هذا الوصف الكذب، حتى ابتعدوا ذه ا اوزة عن الحقيقة (١).

ولعل القارئ لا يفوته الحسن الذي ظهر من ا انسة اللفظية الناقصة الواقعة بين مادتي : الخلق والخرق (٢).

وأرادوا بقولهم: "بنات"؛ أي: الملائكة؛ فجمعوا بقولهم هذا جهالات، هي غاية الضلالات :

الأولى: أ م اجترأوا على مقام الربوبية بالحاجة .

الثانية: وصفهم الملائكة بالأنوثة .

الثالثة: تخصيصهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما لا يرضونه لأنفسهم؛ بالذي إذا بشر أحدهم به ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (٣).

ولما كان توصيفهم كله اختلاقات خرقاء لا أساس لها؛ قال: "بغير علم"؛ للتنصيص على قبح فعلهم، وافترائهم الباطل على عمى (٤). فمن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقائص جهلاً بالله وعظمته؛ لأن من كان إلهاً لا ينبغي أن يكون له بنين، ولا بنات، ولا صاحبة (٥).

ولقد أوثرت في هذا المقام "الباء" على غيره من حروف الجر ...؛ والسر في هذا ـ والله أعلم ـ أن هذه "الباء " للملابسة؛ أي: ملابساً تخريقهم غير العلم، فهو متلبس

---

(١) ينظر : نظم الدرر. (٢١٦/٧) .

(٢) ينظر : من لطائف التفسير. (٣٦١/١) .

(٣) ينظر : نظم الدرر. (٢١٦/٧) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز. (١٢١/٦) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٩٣/٥)، و: تيسير الكريم الرحمن. (٤٤٥/٢) .

بالجهل بدءاً وغاية، وهم اختلقوا بلا داع، ولا دليل. وقد لزمهم به لازم الخطل، وفساد القول، وهذا موقع باء الملابسة في الآية، الذي لا يفيد مفاده غيره [(١)].

وبعدها قال تعالى:(سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)، والجملة استئناف سيق لتنزيهه ـ عزوجل ـ عما نسب إليه [(٢)]. و"سبحان" مصدر أريد به التنزيه التام [(٣)]. ومعناه تنزيه الله تعالى عن كل وصف لا ينبغي له [(٤)]. ففي قوله:(سُبۡحَانَهُۥ) مبالغة أتت من إسناد التنزيه إلى ذاته المقدسة؛ أي تنزه بذاته تنزهاً لائقاً به [(٥)].

ولما كان المقام يقتضي كونه في العلو صرح به [(٦)]؛ بقوله:(وَتَعَالَىٰ)، فهو تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص [(٧)]. و"تعالى" من "العلو والارتفاع" [(٨)]، "وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه؛ علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى،... وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهى " [(٩)].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير. (٤٠٩/٧) .

(٢) إرشاد العقل السليم. (١٦٨/٣) بتصرف .

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن. (٢٢١)، و: إرشاد العقل السليم. (١٦٨/٣) .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (سبح) .

(٥) إرشاد العقل السليم. (١٦٨/٣) بتصرف .

(٦) نظم الدرر. (٢١٧/٧) بتصرف.

(٧) تيسير الكريم الرحمن. (٤٤٥/٢) بتصرف .

(٨) جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٩٣/٥) .

(٩) تيسير الكريم الرحمن. (٦٢٣/٥) وما بعدها .

وقال تعالى:(يَصِفُونَ)، ولم يقل: يقولون ـ مثلاً ـ ؛ وذلك لأن الوصف ـ كما جاء في مفردات الأصفهاني ـ :" ذكر الشيء بنعته وما يتميز به [(١)]"، فما أقوالهم تلك إلا أوصاف نعتوا ا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهذه هي الدقة في اختيار الكلمة في القرآن الكريم .

وفي قوله تعالى:(تَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) تنبيه ـ بعد التـ يه ـ على أن أكثر صفاته ـ جل وعلا ـ ليست على حسب ما يعتقدوه كثير من الواصفين، بل تعالى عن وصفهم [(٢)].

(١) المفردات في غريب القرآن. (٥٢٥) .

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

وأختم شواهد التقديم:

بقوله تعالى:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[الأنعام :١٦٤].

نزلت الآية في الكفار؛ وذلك أ م كانوا يقولون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتبع ديننا، فأمره الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجيبهم بقوله:(أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا) [(١)].

وعلاقة الآية بما قبلها أنه لما أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتوحيد الخالص؛ وهو أن يقول:(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[الأنعام :١٦٢]، أمره هنا أن يذكر ما يجري مجرى الدليل على صحة هذا التوحيد [(٢)].

وشاهد التقديم في الآية قوله:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا)، وقوله:(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ)، وقوله:(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) .

فالجملة الأولى:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا)؛ جملة استئنافية؛ سيقت للرد على دعوة الكفار للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بترك دينه واتباع دينهم [(٣)]. ومعنى الآية: " أسوى الله أطلب سيداً يسودني "[(٤)].

وقدم فيها المفعول به على فعله؛ وذلك للإشعار بأهميته [(٥)]، وبأنه هو المراد تسليط الاستفهام عليه [(٦)]. وقد خرج الاستفهام هنا عن معناه الأصلي إلى معنى آخر اقتضاه

---

(١) ينظر : معالم التنـزيل. (١٤٧/٢) .
(٢) ينظر : التفسير الكبير. (١٩١/٥) .
(٣) ينظر: الكشاف. (٥١/٢)، و: إعراب القرآن وبيانه . (٢٩٠/٣) .
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن. (٤٢١/٥) .
(٥) ينظر : تفسير النسفي. (٤٣/٢) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٠٦/٨) .

السياق؛ وهو الإنكار والتوبيخ؛ أي: منكر أن أبغي رباً غير الله الذي هو رب كل شيء[١] ، فالمقصود من تقديم المفعول إنكار بغية غيره تعالى ربا لا إنكار بغية الرب [٢].

واختير لفظ الجلالة "الله" في قوله:(أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا)؛ لما فيه من دلالة على الكمال المطلق [٣]. وفي هذا بيان شناعة طلب غير الله رباً، وخطل عقل من ارتكب هذه الفعلة!.

وقال:(أَبْغِي) بإسناد الفعل إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد الخلق أجمع [٤]. ومجيء كلمة "رباً" للدلالة على حاجة العبد الفطرية لمن يربيه ، ويحفظه، ويدبر أمره، وينعم عليه[٥]، وإذا لم يكن هذا الرب هو "الله" ذو الألوهية والربوبية فمن سيكون؟!. لا شك أن عبادة غير الله هو الضلال، الذي ليس بعده أي ضلال ...!.

وشاهد التقديم الثاني؛ قوله:(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ)، ومعنى الآية: ثم إلى الله مصيركم ومنقلبكم [٦]. وقد أكد هذا المعنى بتقديم المسند إليه على المسند؛ وذلك لإفادة القصر، فأثبت الجملة أن رجوع الخلق إلى الله، وهو قصر إضافي، قلب به اعتقاد المخاطبين، الذين يعتقدون استحالة البعث، ويصرون على إنكاره .

وكان لخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بالالتفات أثره في المعنى، ووقعه في نفس المتلقي، حيث التفتت هنا من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب؛ للإشارة إلى أن الرجوع إلى الله عام وليس خاصاً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده، وفي هذا تأكيد للوعد وتشديد للوعيد [٧].

---

(١) ينظر : الكشاف. (٥١/٢)، و: المحرر الوجيز. (١٩٤/٦) .
(٢) ينظر : روح المعاني . (٣١٢/٤) .
(٣) ينظر : نظم الدرر . (٣٤١/٧) .
(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.
(٥) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (١٩٠/٢) .
(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٤٢٢/٥) .
(٧) ينظر : نظم الدرر (٤٤٣/٧)، و: إرشاد العقل السليم. (٢٠٧/٣) .

وفي العطف بـ "ثم" دون سواها؛ دلالة على سعة رحمة الله م حين بسط لهم المهلة[١] ؛ علهم يراجعون أنفسهم، ويسلكون درب الهدى، ويؤمنون بالحق؛ وفيه دلالة على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يمهل ولا يهمل، كما فيها حجة لله على خلقه .

والشاهد الأخير قوله:(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)؛ أي: يخبركم بما تختلفون فيه في الدنيا من الأديان والملل [٢].

وفيها قدم الجار ا رور "فيه" على متعلقة "تختلفون"؛ وذلك اهتماما به [٣]، ومراعاة للفاصلة .

ومن اللطائف البلاغية ـ غير ما ذكر ـ :

في قوله تعالى:(وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) إيجاز قصر؛ وبيان ذلك أنه ذه الجملة جمع ما في السموات والأرض، ومن فيهن؛ من مخلوقات وكائنات، وما علم منها الإنسان وما جهل ... فشملت ـ على قصرها ـ كل ما في الوجود أجمع بإتقان معجز [٤].

وقال:(وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) ولم يقل: وهو ربي؛ ليثبت أنه ربه بطريق الاستدلال، فالحكم في الآية عام، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ داخل فيه؛ وليفيد ـ أيضاً ـ أن أربا م المزعومة غير جديرة بالربوبية؛ لأ ا واقعة تحت ربوبية الله تعالى [٥].

---

(١) ينظر : نظم الدرر. (٤٤٣/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٤٢٢/٥).

(٣) ينظر : نظم الدرر . (٤٤٣/٧) .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن . (١٢٤١/٣) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٠٦/٨) .

المبحث الرابع

الإطلاق والتقييد

الإطلاق والتقييد

"الإطلاق والتقييد: وصفان للحكم"[١]؛ والحكم في الجملة يكون مطلقاً إذا اقتصر فيها على ذكر جزءيها؛ المسند والمسند إليه، أما إذا زيد عليهما شيء مما يتعلق بهما، أو بأحدهما، فالحكم فيها مقيد[٢] . وكلما كثرت القيود في الجملة كثرت فوائدها[٣] .

وقد أشار الخطيب القزويني - إشارة عجلى - إلى بعض القيود، التي تزاد في الجملة، لكنه بسط الكلام في أحدها، وهو التقييد بالشرط؛ لدقته[٤] .

والقيود التي أشار إليها؛ هي:

١- التقييد بالمفعول[٥]: وكلمة "المفعول" هنا تناولت جميع المفاعيل الخمسة؛ المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول فيه - الظرف -، والمفعول معه، والمفعول له - أو لأجله -؛ لاشتراكها في مطلق المفعولية[٦] .

٢- ما هو في نحو المفعول[٧] : والمراد؛ الحال، والتمييز، والاستثناء[٨].

٣- التقييد بكان [٩]؛ وذلك للدلالة على الزمن الماضي [١٠].

٤- التقييد بالشرط، وخص القزويني "إن" ،و "إذا" ، و"لو" بالذكر، وفرق بين "إن"، و"إذا" في الاستعمال، فالأصل - كما ذكر - في "إن" أنها تكون للشرط غير

---

(١) جواهر البلاغة (الهامش). (١٧١)،

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) ينظر : حاشية الدسوقي على شرح السعد، ضمن شروح التلخيص (٣٢/٢).

(٤) ينظر : الإيضاح (٩٥) وما بعدها.

(٥) ينظر : المرجع السابق. (٩٥).

(٦) ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص (٣١/٢).

(٧) ينظر : الإيضاح (٩٥).

(٨) ينظر : شرح السعد على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص (٣١/٢).

(٩) ينظر : الإيضاح (٩٦). ويقيد بالنواسخ عامة؛ كان وأخواتها، وإن وأخواتها وظن وأخواتها...إلخ. ينظر: جواهر البلاغة (١٧٧).

(١٠) ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص (٣٣/٢).

المقطوع بوقوعه ، بينما "إذا" تكون للشرط المقطوع بوقوعه، وقد تستعمل "إن" في مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة بلاغية[١].

ومن القيود ـ أيضاً ـ؛ التوابع[٢]؛ وهي النعت، وعطف النسق، وعطف البيان ، والتوكيد، والبدل[٣].

وكل ذلك لنكت يفهم بعضها من القيد نفسه، فلو كان القيد ـ مثلاً ـ ناسخاً، فإن التقييد به يكون لإفادة المعنى الذي يدل عليه؛ كالمضي في "كان" ـ أو الاستمرار ـ، والترجي في " لعل"...وهكذا؛ أو من السياق. وهذا ما سأحاول الوقوف عليه من خلال تحليل شواهد هذا المبحث، مستعينة ـ بعد عون الله تعالى ـ بما سجله المفسرون من لطائف حولها تفاسيرهم، كُشف بها شيء من قوة النظم القرآني وتماسكه، وجمال بلاغته.

(١) ينظر : الإيضاح (٩٦) و (٩٨).

(٢) ينظر : جواهر البلاغة (١٧٢).

(٣) ينظر : المرجع السابق (الهامش). الصفحة نفسها.

من شواهد الإطلاق والتقييد في آيات العقيدة في السورة:

قوله تعالى:(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)[الأنعام:٧].

تأتي هذه الآية في سياق موقف المشركين من دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفيها يعرض لصورة العناد والمكابرة، التي عليها أولئك المشركون [(١)] .

وجملة "ولو نزلنا عليك كتابا..." مستأنفة [(٢)]، وهي إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن شدة عناد الكافرين، وأن تكذيبهم ليس لقصور فيما جئتهم به ولا لجهل منهم لذلك...، إنما ذاك بغي منهم وظلم...، ولا حيلة لك فيه [(٣)] . ففي الخبر تسلية له ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

ومعنى الآية: لو أنزلت عليك ـ يا محمد ـ الوحي الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قرطاس يعاينونه، ويمسونه بأيديهم، ويقرأون فيه حقيقة ما تدعوهم إليه من توحيدي، لقال الذين يعدلون بي غيري ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة [(٤)] .

وقيدت الآية بعدة قيود أسهمت في إثراء المعنى المراد باللطائف؛ ومن تلك القيود:

تقييد الجملة بأداة الشرط "لو"؛ ولو ـ على القول المشهور ـ حرف امتناع لامتناع؛ أي امتناع الجواب لامتناع الشرط [(٥)] . فكأن قولهم ـ كما حكى الله ـ تعالى ـ عنهم ـ:(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) امتنع لعدم وقوع التنزيل المذكور في الآية، فهو متوقف على وجود التنزيل، فلو نزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب في

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٦/٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (١١٢/٣) بتصرف.

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٧٥/٢).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٠/٥) بتصرف.

(٥) ينظر : شرح المفصل (١٥٦/٩).

قرطاس فلمسوه بأيديهم، لقالوا: إن هذا إلا سحر مبين. ولعل هذا لبيان عظم ما عليه أولئك المكذبون من مكابرة وعناد، بل إن العناد فيهم سجية...حتى لو خرق الحق أعينهم، فهم سيصرون على التكذيب، ويماطلون في قبول الحق. وكأن في هذا تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لئلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

وفوي المعنى السابق، الذي قُيد بـ "لو"؛ الدقة في اختيار صيغة الكلمة القرآنية؛ فقد قال الله تعالى:(نَزَّلْنَا)، ولم يقل ـ كما في غير القرآن ـ: أنزلنا، مع أن كلتيهما بمعنى واحد؛ ففي معنى "نزل" قال ابن فارس:"النون والزاء واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء، ووقوعه"[(١)] . فلم أتى التعبير بقوله :(نَزَّلْنَا) ؟!.

قال ابن الأثير:"أعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الالفاظ أدلة على المعاني،...، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمةُ زيادة المعاني."[(٢)] . فلعل إيثار :(نَزَّلْنَا) ـ على ما سبق ـ للمبالغة في تأكيد الفعل، اهتماماً بشأن التنزيل[(٣)]. والسبب في ذاك أن أولئك المشركين كانوا يكذبون الموحى إليه؛ وهو محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في نزول الوحي عليه، وصدق ما بلغ به... زاعمين ـ افتراءً و بهتاناً ـ أن ما ينطق به من آيات بينات هو من تخليط العقل والجنون، بل قالوا: أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر.. فكان من الملائم لمقام الإنكار والتكذيب إيراد هذه الصيغة "نزل"؛ لاصطباغ دلالتها بمعنى المبالغة والتأكيد ـ كما مر ـ[(٤)].

وقُيد التنزيل بالجار والمجرور؛ فقال تعالى:(نَزَّلْنَا عَلَيْكَ) بتوجيه الخطاب له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ونسبة التنزيل إليه، وقبلها قيل:(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء

---

(١) معجم مقاييس اللغة. مادة (نزل).

(٢) المثل السائر (٢٧٩/٢).

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٩٣/٦)، و: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٦٦)

(٤) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٥٩) وما بعدها.

مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)[الأنعام:٤-٥]، فنسب إتيان الآيات، ومجيء الحق إليهم...، وهذا التقييد أتى لنكتة بلاغية؛ فلعله للإشعار بقدحهم في نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحاً[١] .

وتقديم المتعلق "عليك" على معمول الفعل للاهتمام به ـ للنكتة السابقة ـ، ولزيادة تأكيد المعنى ـ والله أعلم ـ.

وقيدت الجملة بالمفعول به " كتاباً"؛ ولعل ذلك لبيان ما وقع عليه فعل التنزيل والكتاب مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: مكتوباً[٢].

وتنكير "كتاباً" هنا؛ قد يكون لبيان عظم هذه الآية...، فكأن الكلام تمهيد؛ لبيان موقف المشركين منها؛ فالكتاب ـ الذي لو نزل على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بلغ شأناً عظيماً، ينطق بصدق الموحى إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ومع ذلك فموقفهم منه ومما جاء به من ربه ثابت لم يتغير؛ إنه التكذيب، والمكابرة، والعناد...!.

وقيد " كتاباً" بالصفة؛ فقيل "في قرطاس"؛ مع أن كلمة "كتاباً" لم يسبق تقييدها بهذا الوصف في القرآن الكريم...، وهذا يدفع القارئ لأن يتساءل عن سبب تقييدها هنا...!.

ولعل ذلك يرجع لسببين؛ أحدهما: المقام؛ فالمقام ـ كما سبق بيانه ـ يعرض موقف المشركين من دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو التكذيب والمكابرة...!. والآخر: أن أولئك المكذبين من طبعهم العناد، والمماطلة في قبول الحق، وهم الذين اشترطوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بالآيات كي يؤمنوا به، وليست أي آيات بل طالبوه بآيات حسية ... تؤكد صدقه؛ فمن ذلك ما قاله الله ـ تعالى ـ حكاية عن قولهم :(وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا)[الاسراء:٩٠][٣]،

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٢/٣).

(٢) ينظر : الكشاف (٤/٢)، و: الفتوحات الإلهية (٨/٢).

(٣) نزول سورة الاسراء كان بمكة، وقبل نزول سورة الأنعام بأربع سور ينظر : البرهان في علوم القرآن (١٩٣/١).

إلى أن قـال:(أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا)[الاسراء:٩٣] فكان أن قيل:(:(وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبًا)، وأتبع بـ ـ (فِي قِرۡطَاسٍ)؛ للتأكيد، وزيادة التعيين...، فهي آية حسية لا سبيل للشك معها.

ثم قيد ما سبق بالعطف؛ فقال ـ تعالى ـ :(فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ)؛ بعطـف (فَلَمَسُوهُ) على (نَزَّلۡنَا)[١] . وعطفت الجملة بالفاء دون غيرها من حروف العطف، ولعل ذلك لما تحمله من دلالة على الترتيب مع التعقيب. فالعطف بها فيه إشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن الكتاب ـ الذي لو نزل ـ قد ظهر أقصى غايات الظهـور... حـتى إن المـشركين لم يتمكنوا من مقاومة ما رأوا...، فسارعوا إليه بلا إمهال، ولا إبطاء...؛ ليلمسوه.

و"اللمس" تطلب شيء باليد، ومسيسه[٢] . "وذكر اللمس، ولم يذكر المعاينـة؛ لأن اللمس أبلغ في إيقاع العلم من المعاينة"[٣] ، فهم لو رأوه لبقوا شاكين فيه، ولقالوا: إنمـا سكرت أبصارنا[٤] ؛ لأن السحر يجري على المرئي، ولا يجري على الملمـوس[٥] . فـإذا لمسوه فإن إدراكهم البصري يقوي بإدراكهم الحسي، ويزول عنهم الشك[٦].

وزيدت الجملة قيداً بقوله تعالى:(بِأَيۡدِيهِمۡ)؛ وفي فائدته قال أبو حيان: ذكر الأيدي هنا مبالغة في التأكيد[٧]. وقال أبو السعود: ذكرها زيادة في التعيين[٨] . فهم لو لمسوا ذلك الكتاب بأيديهم، وبالغوا في تقليبه...؛ ليدفعوا عن أنفسهم كل شـك وارتيـاب،

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٤٢/٦).
(٢) ينظر : معجم مقاييس اللغة. مادة (لمس).
(٣) معالم التنزيل (٨٦/٢). بتصرف .
(٤) ينظر : الكشاف (٤/٢)، و: التفسير الكبير (٤٨٦/٤).
(٥) معالم التنزيل (٨٦/٢) بتصرف .
(٦) ينظر : التفسير الكبير (٤٨٦/٤).
(٧) ينظر : البحر المحيط (٧٧/٤).
(٨) إرشاد العقل السليم (١١٢/٣) بتصرف.

وبلغ هذا غاية القوة والظهور...، لعاندوا، وأصروا على كفرهم، وتكذيبهم[١]. مع أن كل من كان له أدنى مسكة من عقل لا ينازع فيما أدركه ببصره عن قريب، وبما لمسته يده، وقلبته[٢] . وفي هذا دلالة جلية على أنهم قد بلغوا في العناد والجهالة شأوا بعيداً[٣].

وخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، في قوله تعالى:(لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ إذإن مقتضى الظاهر أن يقال - في غير القرآن - :"لقالوا"، نظراً إلى ما قبله؛ وهو :(فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ)، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار، وفي هذا تسجيل عليهم بالكفر، الذي أصروا عليه لشدة عنادهم، وتعنتهم[٤] .

وأمام قوة تلك الحجة - أو الآية - لم يكن أمامهم إلا محاولة التصدي لها، ودفعها بأسلوب من القوة بمكان؛ وهو القصر، إذ فيه اجتمع التوكيد، والمبالغة، والإيجاز، واستخدمت - هنا - أقوى أدواته في إفادة معنى القصر؛ وهي النفي والاستثناء؛ فقيل: "إن هذا إلا سحر مبين"، فهم أثبتوا للكتاب صفة السحر؛ لينفوا عنه صفة "الآية"، أو "المعجزة"؛ أي ما هذا إلا سحر لا غير، وهو من قبيل قصر موصوف على صفة، قصراً إضافياً. قال الزمخشري: وهذا تعنت منهم، وعناد للحق بعد ظهوره...!.[٥]

وتقييد السحر بصفة "مبين" زاد ما وجدوه من أمر هذه الآية تأكيداً؛ فهو سحر مبين، "إما لكونه مبيناً في نفسه، وإما لكونه أظهر غيره"[٦]. قال الطبري:" مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له"[٧] .

وهكذا يجد القارئ أن التعبير القرآني في هذه الآية قد كثرت قيوده، حتى صار كل قيد كأنه مطرقة تدك رؤوس أولئك المكذبين؛ إذ هي تفضحهم على الملأ، وتعري حقيقتهم، التي يوارونها بالمماطلة في قبول الحق باشتراط الآيات والمعجزات. ومن خلال ما

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٩/٦)، و: التفسير الكبير (٤٨٦/٤).

(٢) ينظر : البحر المحيط (٧٧/٤).

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٤٨٦/٤).

(٤) ينظر : حاشية زاده (١٥٣/٢)، و: التحرير والتنوير (١٤٢/٦).

(٥) الكشاف (٤/٢) بتصرف.

(٦) البحر المحيط (٧٧/٤).

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٠/٥).

سبق يلحظ أن كل قيد اتصل اتصالاً وثيقاً بما قبله، وبه زيد المعنى قوة وتأثيراً...، فلو رفع هذا القيد ـ أو ذاك ـ لخبا المعنى المراد ، وفقد شيئاً من قوته، وتأثيره...، فلا تمكن للمعنى، ولا جمال إلا بالتركيب الذي جيء في النظم القرآني.

وقوله تعالى:(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَاٰئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)**[الأنعام: ٣٨].**

قال ابن القيم في مناسبة الآية لما قبلها: إنه لما سأل المشركون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم **ـ أن يأتيهم بآية...، أخبرهم الله ـ** سبحانه وتعالى **ـ، بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، وإنما لحكمة،ن بعدها ذكر لهم ما يدل على كمال قدرته[١].**

فالكلام مستأنف، سيق لبيان كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى **ـ، وشمول علمه، وسعة تدبيره؛ ليكون كالدليل على قدرته ـ** سبحانه **ـ على ت يل الآية [٢] .**

والمعنى: إنه ما من دابة تدب على الأرض، ولا طائر يطير في السماء إلا أمم مثل الأمة الإنسانية...مفتقرة لله ـ عز شأنه ـ في كل أمور حيا ا، والله وحده هو القائم عليها، وفوق ذلك هو مثبت عملها عليها في اللوح المحفوظ، ثم إنه ـ تعالى ـ مميتها ، ثم منشرها، ومجازيها يوم القيامة. فهل يعقل بعد هذا أن يعجز الله ـ جل وعلا **ـ عن إنزال آية...، وكل ما خلق يدل على قدرته، وعلمه، ووحدانيته...[٣]؟!. ففي الآية تنبيه على آيات الله الموجودة في مخلوقاته المتنوعة...[٤]!.**

ومن شواهد هذا المبحث في الآية :

---

(١) ينظر : الضوء المنير (٢٢/٣) وما بعدها.

(٢) إرشاد العقل السليم (٣١/٣) بتصرف.

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٦/٥)، و: أيسر التفاسير (٥٦/٢).

(٤) المحرر الوجيز (٤٦/٦) بتصرف.

في قوله تعالى:(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ). الدابة: كل ما مشى على الأرض، والدب؛ هو حركة على الأرض أخف من المشي [١]. ودابة هنا أتت في سياق النفي، وسبقت بمن، التي تفيد استغراق الجنس؛ فعمت الجملة، وشملت كل ما يدب[٢].

وقيد قوله:(وَمَا مِن دَآبَّةٍ) بالوصف بقوله:(فِى الأَرْضِ). والتمس الزمخشري فائدة هذا التقييد؛ فذكر أن في الإتيان به زيادة في التعميم، والإحاطة [٣].وإنما قال: زيادة في التعميم؛ لأن التعميم واقع قبل التقييد، وإلى ذلك أشار أبو حيان؛ بقوله: لما كان (مِن دَآبَّةٍ)، وهو المتصرف عاماً؛ أتى بالمتصرف فيه عاما، وهو الأرض[٤]، "كأنه قيل: وما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض[٥]".

و"في الأرض" ـ كما ذكر أبو حيان ـ يشمل الأرض والبحر[٦]. و ذا ـ أيضاً ـ قال ابن عاشور؛ معللاً أن البحر من الأرض؛ ولأن مخلوقاته ـ يعني البحر ـ يطلق عليها "دابة"[٧]. ودلل على ذلك بحديث لجابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ حين كان في سرية تسمى "سيف البحر[٨]" . والحديث رواه مسلم؛ وجاء فيه:"فُرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم. فأتيناه، فإذا هي دابة تدعى العنبر[٩]" . وفي رواية: "فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر[١٠]" .

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة. مادة (دب).

(٢) ينظر : البحر المحيط (١١٩/٤) ، و: إرشاد العقل السليم (١٣١/٣) .

(٣) ينظر : الكشاف (١٢/٢).

(٤) ينظر : البحر المحيط (١١٩/٤)

(٥) إرشاد العقل السليم (١٣١/٣).

(٦) ينظر : البحر المحيط (١١٩/٤)

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٧/٦).

(٨) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٩) (١٠) صحيح مسلم. كتاب: الصيد، والذبائح، وما يؤكل من الحيوان. باب: إباحة ميتات البحر. (١٠٧٠) حديث رقم (١٩٣٥).

وقيل: خصت الأرض بالذكر احتجاجاً بالأظهر؛[١]"؛ "لأن المشاهد أقطــع لحجــة الخصم[٢]".

وبعدها قال تعالى:(وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)، بتقييد الجملة بالعطف بالواو، وذلك للجمع بين الجملتين في الحكم. ومع أن "دابة" في الآية عم ا كل ما يدب ـ كما سبق بيانه ـ، فاندرج فيها الطائر؛ لأنه يدب على الأرض...، إلا أنه خص هنا بعد التعميم... وهذا يجعل القارئ يتساءل عن سر هذا الإطناب...!.

ولعل ذلك لأن تصرف الطائر في الوجود دون غيره من الحيوان أظهر في قــدرة الله ـ عزوجل ـ من تصرف غيره على الأرض؛ إذ إن الأرض بصلابتها يسهل على الأجــرام التصرف عليها، بينما الهواء جسم لطيف لا يمكن للأجرام الكثيفة ـ عادة ـ التصرف فيه إلا بباهر القدرة الإلهية؛ ولذلك قال تعالى:(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ)[النحل:٧٩][٣]. ففي هذا الإطناب مزيد بيــان لكمــال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ .

وفي قوله ::(وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ) جيء بالمسند جملة فعلية، وهذا لاستحــضار هيئــة الطائر حال طيرانه[٤]؛ ليستدل به على قدرة الله على إنزال الآيات، بل قد يكون للتنبيه على أن هذا الطائر في سماه لهو من عظيم الآيات لو رفعوا عقــولهم لمــستوى التأمــل، وأمعنوا النظر في ذاك الطائر؛ وهو صاف جناحيه؛ وهو يقبضهما...، والفكر يحلق معه ... من هداه للطيران، ومكنه منه...؟! من أمسكه فلم يقع...؟!. إن في هذا الآية لمــن نظر واعتبر...!.

وقيدت الجملة السابقة بالجار وا رور؛ فقيل "بجناحيه"، فلم هذا القيد، وهل يطــير الطائر إلا بجناحيه...؟![٥].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥٢٤/٤).

(٢) حاشية الصاوي(١٤/٢).

(٣) ينظر : البحر المحيط (١١٩/٤).

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٥) ينظر : جامع البيان (١٨٨/٥)، و: معالم التن يل (٩٥/٢).

قال الطبري ـ ما معناه ـ : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل هذا الكتاب بلسان عربي مبين...، وقد كان من شأن العرب إذا أرادوا "المبالغة" في الكلام أن يقولوا: كلمت فلاناً بفمي، ومشيت إليه برجلي، وضربته بيدي ...، فكان أن خاطبهم ـ سبحانه ـ بما تعارفوا عليه في كلامهم، وبما يستعملونه في لغتهم[١] . فتقييد الطائر بذلك الوصف مبالغة في التأكيد [٢] ورأى الزمخشري أنه لزيادة التعميم والإحاطة [٣]؛ فكأنه قيل: ولا طائر من الطيور في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها[٤].

ولعله من الأولى الجمع بين القولين السابقين؛ ليكونا على فائدة التقييد أدل، وهذا مما أحسن فيه ابن عاشور حين قال ـ ما معناه ـ : إن إفادة "يطير بجناحيه" أنه طائر؛ كأنه قيل: ولا طائر ولا طائر، وهذا من التوكيد وقد أكد معنى الشمول الذي دلت عليه "من" في سياق النفي[٥].

ومن المفسرين من ذكر أن تقييد الجملة بـ "بجناحيه" ـ إضافة إلى التوكيد ـ للدلالة على أن هذا الطيران على الحقيقة، وليس على المجاز، فالرجل قد يقول لمولاه: طر في حاجتي، وهو يريد الإسراع، فذكر "بجناحيه"؛ ليتمحض هذا الكلام في الطير[٦].

وقد نفى ابن عاشور ورود هذا القيد لرفع احتمال المجاز في طائر، حتى وإن كان رفع احتمال المجاز نكتة من نكت التوكيد اللفظي؛ لأنه غير مطرد؛ ولأن اعتبار تأكيد العموم أولى[٧] .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٨/٥).

(٢) ينظر : معالم التنزيل (٩٥/٢).

(٣) الكشاف (١٣/٢) بتصرف.

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: إرشاد العقل السليم (١٣١/٣).

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٦/٦).

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٤٦/٦)، و: التفسير الكبير (٥٢٤/٤)، و: البحر المحيط (١١٩/٤).

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٦/٦).

والذي يظهر أن تقييد الجمل السابقة بما حمل من لطائف؛ فيه دلالة واضحة على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وشمول علمه، وسعة سلطانه[١].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

الإيجاز بالقصر؛ فقد " قال العلماء: جميع ما خلق الله ـ عز وجل ـ لا يخرج عن هاتين الحالتين؛ إما أن يدب على الأرض، أو يطير في الهواء"[٢]؛ حتى ما في البحر؛ لأن سيره في الماء إما أن يكون دبيباً، أو طيراناً مجازاً[٣] . وقيل: لأن حيوان الماء يسبح فيه، كما أن الطائر يسبح في الهواء[٤] .

ومنها خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في قوله:(إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)؛ فهنا عبر بصيغة الجمع، وفيما قبل بالإفراد؛ وذلك في "دابة " و "طائر"؛ ولعل السر في هذا أنه لما كان قوله تعالى:(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَاٰئِرٍ) دالاً على معنى الاستغراق، ومغنياً عن أن يقال: وما من دواب، ولا طيور، حمل قوله:(إِلاَّ أُمَمٌ) على المعنى [٥]

وقوله:(مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ)، جملة معترضة للإشارة إلى أن أحوال الأمم مستقصاة في اللوح المحفوظ، وليست محصورة على ما أجمل هنا[٦] .

وقيدت الجملة بـ "ما"؛ لنفي التفريط عنه ـ سبحانه وتعالى ـ . والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على تركه[٧] ، فالجميع علمهم عند الله ـ عز شأنه ـ، ولا ينسى

(١) ينظر الكشاف (١٣/٢).
(٢) تفسير الخازن (١٣١/٢).
(٣) ينظر : نظم الدرر (١٠٤/٧).
(٤) ينظر : تفسير الخازن (١٣١/٢).
(٥) الكشاف (١٢/٢) بتصرف.
(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣١/٣).
(٧) المحرر الوجيز (٤٨/٦) بتصرف .

أحداً منهم، لا في رزق ولا في تدبير[١] ، وفي هذا دلالة على كمال قدرته ــ سبحانه وتعالى ــ ، وسعة علمه[٢] .

وأغرق في النفي بتقييد الجملة بقوله:(مِن شَىۡءٍ)؛ ولعل هذا لتأكيد ما سبق[٣] .

وختمت الآية بقوله تعالى:(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ)، والتقييد بحرف العطف "ثم" لما له من دلالة على الترتيب والتراخي؛ مما أفاد أن حشرهم إلى ربهم واقع بعد انقضاء الحياة الدنيوية بطولها؛ وبعد الإقامة في البرزخ[٤] .

وعبر عن الدواب والطير بصيغة العقلاء، ولم يقل ــ في غير القرآن ــ : إلى ربها تحشر؛ ولعل ذلك لأنها أجريت ابتداءً مجراهم؛ حين عبر عنها بالأمم[٥] .

وقيل: هو للأمم مطلقاً؛ فتكون صيغة الجمع هنا على التغليب؛ فيها غُلب العقلاء على غيرهم[٦] .

وفي إضافة اسم الرب للضمير العائد على الأمم دلالة على أن جميع الدواب والطير ... مفتقرة إليه ــ سبحانه وتعالى ــ في جميع أمرها؛ من إنعام، وإحسان، ولطف، ورحمة...، وأن هذا الافتقار ليس خاصاً بالإنسان وحده، فهو ــ تعالى ــ رب العالمين.

ومن اللطائف البلاغية في الآية ــ غير ما تقدم ــ :

القصر بالتقديم؛ وقد أفاده تقديم المتعلق "إلى ربهم" على فعله؛ والمعنى إلى ربهم يحشرون لا إلى غيره. وفي هذا تأكيد للحشر مع الإيجاز، وهو قصر صفة على موصوف، قصراً حقيقياً.

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٢).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (٢١٧/٦).

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٠٦/٧).

(٤) ينظر : المرجع السابق (١٠٧/٧).

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣١/٣).

(٦) ينظر : روح المعاني (١٣٨/٤).

وبني فعل الحشر للمجهول؛ وهذا على طريق كلام القادرين[١].

فالذي أحصى ما للدواب والطير من مقادير وأعمال، ثم هو يحشرهم، ويجازيهم ... هل يظن به أنه غافل عما يفعله العباد، أو أنه سيترك مجازاتهم يوم الحساب ...[٢]؟!، فكأن في هذا تحذيراً للمكذبين من مغبة كفرهم، وتكذيبهم ...، فآياته ـ سبحانه وتعالى ـ مثبوتة في الكون، تنطق كلها بوحدانيته، وعظمته، وكماله. وما يصد عنها إلا مكابر جاحد للحق ...!.

---

(١) نظم الدرر (١٠٧/٧) بتصرف.

(٢) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن (١٨٦/٥).

ومن الشواهد - أيضاً - قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[الأنعام:١٤١].

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها؛ أنه - تعالى - لما أخبر عن الكفار أنهم افتروا عليه - سبحانه وتعالى - الكذب، وأشركوا معه، وحرموا أشياء مما رزقهم، أخذ يذكر - جل وعلا - ما امتن عليهم من الرزق، الذي تصرفوا فيه بغير إذنه؛ فهو وحده الخالق، والرازق، والذي له التصرف[1]. ففي الآية إقامة الدلائل على أنه الصانع، وأنه المتفرد بالخلق ...، فكيف يشرك به ...؟[2]!.

و"الواو" في قوله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ) عاطفة، عطفت الجملة على قوله تعالى: (وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ) [الأنعام:١٤٠][3]؛ لما قيل آنفاً .

وتعريف المسند في الجملة أفاد الاختصاص؛ أي هو الذي أنشأ لا غيره، وقصد بالقصر نفي أن يكون لغير الله - سبحانه وتعالى - حظ فيما خلق؛ لإبطال ما جعلوه من الحرث والأنعام من نصيب أصنامهم[4] ، فمن أثبت له الخلق، أثبت له وحده التصرف فيه.

وفي قوله تعالى:(جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) قيدت "جنات" بالوصف؛ وهو "معروشات"؛ أي مرفوعات، وهي ما جعل لشجرها عرش رفع به كالكروم، وبعكسه "غير معروشات" مما لا يرفعه الناس، بل الله - تعالى - هو الذي يرفعه[5] .

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٩٩/٧)، و: البحر المحيط (٢٣٥/٤).
(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٦٢/٥)، و: التحرير والتنوير (١١٧/٨).
(٣) التحرير والتنوير (١١٧/٨) بتصرف.
(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٦١/٥)، و: البحر المحيط (٢٣٦/٤).

ولعل السر في تقييد "جنات" بـ "معروشات"؛ هو تذكير الإنسان بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو من أنشأها على هذه الصفة، وأنه ـ سبحانه ـ هو من ألهـم الإنـسان أن يعرشها [١] . وتقييد "غير معروشات" بالعطف بالواو؛ أفاد مشاركتها لما قبلها في الحكم؛ ففيها التذكير بنعمة الله ـ تعالى ـ أن جعل الجنات على صفتين [٢] . وقد أسهم التقييد بهذا الوصف، وكذا العطف، وطباق السلب الواقع بين "معروشات"، و"غير معروشات" في تحسين الموصوف؛ فمن محاسن الجنات أنها تزين وجه الأرض، فيرى جميعها أخضر...، وفي ذكر محاسن ما أنشأه الله ـ تعالى ـ ما يزيد المنة[٣] .

ووصف الجنات بأنها معروشات من قبيل المجاز العقلي؛ إذ هـي معـروش فيهـا، والمعروش أشجارها[٤] .

وعطفت على ما سبق؛ فقال:(وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ)؛ والعطف بـالواو أفاد التذكير بهذه النعم. ويلحظ أن "النخل والزرع" قدمتا في الذكر ـ على ما بعـدهما ـ؛ وذلك لأن الآية واردة في معنى ذكر المنة والإحسان، فقدم ما حاجة العـرب إليـه أشد، وما هو غالب قوتهم [٥].

والذي يظهر أن "النخل" داخل في قوله تعالى:(جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ)؛ إلا أنه أطنب بذكره،وخص بعد التعميم؛ولعل هذا تعظيم لمنافعه؛وتعظيم للامتنان به [٦].

وأكله في: "مختلفا أكله"؛ هو المأكول من الثمر؛ فكل نوع مـن أنـواع النخيـل، والزرع له طعم، ولون، وحجم، ورائحة تختلف عن النوع الآخر. والمعنى: وخلـق الله النخل والزرع مختلفاً ما يؤكل من ثمره وحبه [٧].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١١٨/٨).

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) ينظر : السابق. نفسها.

(٤) ينظر : السابق. نفسها.

(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٣٦/٤).

(٦) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٧) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٦٢/٥)، و: البحر المحيط (٢٣٦/٤).

و"مختلفاً" قيد؛ وهو حال. واختلف في صاحبه؛ فذكر أبو حيان: أن الظاهر عــوده على أقرب مذكور؛ وهو "الزرع"، فتكون حال "النخل" محذوفة لدلالة حال "الــزرع" عليها، والتقدير: والنخل مختلفاً أكله، والزرع مختلفاً أكله [١] .

ويحتمل أن تكون الحال هنا مختصة بالزرع فقط؛ لتنوع أشكاله واختلافها؛ كالقمح، والشعير، والذرة، والعدس، والأرز ... وغيرها. بخلاف النخل، فإن شكله لا يختلف إلا بالصغر والكبر [٢].

وبذلك قال ابن عاشور ـ كون الحال مختصة بــالزرع ـ؛ لأن الــزرع أقــرب المذكورات، ثم إن ذكر الحال مع أحد الأنواع يفيد تذكر مثله في النوع الآخر [٣].

ولعل الغرض من التقييد ـذه الحال التذكير بعجيب خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ [٤]، وفيه مزيد امتنان عليهم بذكر ما تفضل به عليهم من صنوف الثمار، والحبوب؛ الــتي لا تقوم حيا م إلا ا.

وفي النظم القرآني تذكير بامتنانه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده، بعطف " والزيتون والرمان متشا اً وغير متشابه" على ما سبقه [٥].

وقد يكون السبب في ذكر الزيتون؛ لما فيه من بركة، ومنافع كثيرة تشمل الأكــل، وغيره. وعطف الرمان عليه لمنافعه ـ أيضاً ـ؛ فهو فاكهة، ودواء [٦].

وقيدت الجملة بـ "متشا اً وغير متشابه"؛ و"متشا اً" حال؛ أي الزيتون والرمــان حال كونه متشا اً في بعض الصفات، وغير متشابه في البعض الآخر [٧].

فتلك الجنات المعروشات وغير المعروشات، التي تظلل الأرض بأغصا ا، وأوراقها، وثمارها. والنخيل المتطاول في السماء، وما يحمله من ثمر، والزرع التي تفتــرش الأرض،

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٢٣٦/٤).

(٢) ينظر : السابق. نفسها.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١١٨/٨).

(٤) ينظر : السابق. نفسها.

(٥) ينظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه (٢٥٠/٣).

(٦) ينظر : تفسير الخازن (١٦٥/٢).

(٧) ينظر : تفسير المنار (٦٤٢/٧).

وتكسو أديمها ببساط سندسي يحمل على ظهره الحب والثمر. والأشجار مـن زيتـون ورمان... في صورة المختلفة، وأشكاله المتعددة ...، كل هذا الذي يملأ الأرض من حياة، وجمال، ورزق كريم، هو من صنع الخالق العظيم، ومن فيض كرمه وإحسانه ... فكأنـه مائدة ممدودة للعباد جميعاً؛ لذا قال:

(كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ) (١)؛ فالآية أذن منه ـ تعالى ـ بالانتفاع بما سبق (٢). وفيها خرج الأمر عن معناه الأصلي، إلى معنى آخر فهم من السياق؛ وهو الإباحة؛ إباحة الأكل (٣). وفيها ـ أعني الإباحة ـ تذكير للناس بهذه النعم، التي من الله عليهم بها، وأنه هو صاحب الفضل والإحسان (٤).

وورد الأمر بالأكل مقيداً بقوله تعالى:(إِذَآ أَثۡمَرَ)؛ فما فائدة هذا القيد، وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه (٥)؟!.

يجيب الزمخشري ما نصه: " لما أبيح لهم الأكل من ثمرة قيل: إذا أثمر؛ ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر؛ لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع (٦)". ولعله ـ إضافة لما سبق ـ كالتمهيد لقوله تعالى:(وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ) (٧)؛ ففيـه رخصة للمالك بالأكل منه قبل أداء حق الله ـ تعالى ـ فيه (٨).

وقيل: إن قوله تعالى:(إِذَآ أَثۡمَرَ) تقييد للأنظار بهذه الجنـات، وتلـك الـزروع، وملاحظة أطوار الحياة، التي تتنقل فيها، وأنها لم تصل إلى هذا الطور، الذي تحمـل فيـه الثمر الصالح للأكل إلا بعد أن قطعت طريقاً طويلاً، في نموها وتطورها. وبهـذا النظـر

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٢٣/٢).
(٢) التفسير الكبير (١٦٢/٥) بتصرف.
(٣) ينظر : البحر المحيط (٢٣٧/٤).
(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٢٣/٢).
(٥) ينظر : الكشاف (٤٢/٢).
(٦) المرجع السابق. الصفحة نفسها .
(٧) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٠/٨).
(٨) إرشاد العقل السليم (١٩٢/٣) بتصرف .

لتلك الجنات، والزروع ...تتجلى قدرة الله...، فيكون من ذلك كله عبرة لمن اعتـبر، وذكرى لقوم يؤمنون [(١)].

وعطف قوله:(وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**) على قوله:(**كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**) [(٢)]. ويلحظ تقديم الأمر بالأكل على الأمر بالصدقة...، ولعل ذلك لأن تقديم منفعة الإنسان بما يملكه في خاصة نفسه، مترجحة على منفعة غيره؛ كما قال تعالى:(** وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**)[القصص:٧٧] [(٣)]. وهذا من إحسان الله ـ تعالى ـ بعباده، ومنه وفضله.**

وتقييد إيتاء الحق بـ"يوم حصاده"؛ لأن الحصاد ـ والله أعلم ـ إنما يراد للادخار؛ فالادخار هو مظنة الغنى الموجبة لإعطاء الزكاة [(٤)].

وختمت الآية بقوله:(وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**)؛ وهـو نـهي عـن الإسراف؛ والإسراف ـ في كلام العرب ـ: الإخطاء بإصابة الحـق في العطيـة، إمـا بتجاوز حده في الزيادة، وإما بتقصير عن حده الواجب [(٥)].**

وأطلق النهي عن الإسراف في الآية، ولم يقيد بنوع دون نوع، فصار النهي فيها عاماً عن جميع معاني الإسراف [(٦)].

واستؤنف الكلام بقوله:(إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**)؛ بقصد تعميم حكم النهي عن الإسراف؛ فهو مقرر لما قبله [(٧)]. وتصدير الجملة بـ "إن" أفاد التأكيد ولعل هذا للتنفير من هذه الصفة الذميمة...!.**

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٣٢٤/٢) بتصرف.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه (٢٥٠/٣) بتصرف.

(٣) ينظر : البحر المحيط (٢٣٧/٤).

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٢/٨) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧١/٥) بتصرف .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٧١/٥).

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٣/٨).

وأختم شواهد الإطلاق والتقييد بقوله تعالى:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[الأنعام: ١٥٠].

في مناسبة الآية لما قبلها قال الرازي: أعلم أن الله ـ تعالى ـ لما بين فساد ما يقول الكفار إن الله حرم علينا كذا وكذا، أردفه ببيان الأشياء، التي حرمها عليهم [(١)].

ولبيان ما حرم الله ـ عزوجل ـ حقاً ويقيناً؛ ما هو وحي من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا تخرصاً وافتراءً على الله ـ تعالى ـ؛ لبيان ذلك انتظمت الآية أبلغ انتظام، ورتبت جملها أحسن ترتيب [(٢)]؛ وكان كل قيد فيها ـ كتقييدها بالمفاعيل، وبالعطف، وبالوصف، وبالبدل، وبالجار والمجرور... وغيرها كان له دور في إثراء المعنى المراد . وسأتناول ـ فيما يأتي ـ الآية بالتحليل، مشيرة لبعض تلك القيود، وأثرها في النظم.

في قوله تعالى:(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) الخطاب بـ"قل" للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبـ"تعالوا" للمشركين خاصة، وللناس عامة [(٣)]. " وتعال من الخاص، الذي صار عاماً، وأصله أن يقول من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع فيه حتى عم.[(٤)]" . ولعل دلالة كلمة "تعالوا" في هذا المقام لا تخفى ..، أي: أقبلوا إلي، واصعدوا من حضيض الجهل، والتقليد، والضلال، الذي تمرغتم فيه .. إلى أوج العلم والهدى [(٥)].

---

(١) التفسير الكبير (١٧٧/٥) بتصرف .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٠/٥)، و: نظم الدرر (٣١٦/٧).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٠/٥)، و: البحر المحيط (٢٤٩/٤)

(٤) الكشاف (٤٨/٢).

(٥) ينظر :نظم الدرر (٣١٦/٧)، و: تفسير القرآن الحكيم (١٨٤/٨).

وخص التحريم بالذكر في الآية مع أن الوصايا، التي بينت ا التلاوة أعـم؛ ولعـل ذلك لمناسبة ما سبق؛ وهو انكار أن يحرم غير الله [١].

وفي التعرض للربوبية في قوله:(مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ)؛ مع إضافة كلمة "رب" إلى ضـمير المخاطبين؛ تذكير بكونه ـ تعالى ـ رباً لهم، ومالكاً لأمرهم على الإطـلاق، فهـو ـ ـ تعالى ـ الذي له القوامة، والتربية، والتوجيه، والحاكمية، فالذي يحرم هو "الرب" والله وحده الذي يجب أن يكون رباً ...، وهذا من أقوى الدواعي إلى أن ينتهوا عما اهم الله ـ تعالى ـ عنه أشد انتهاء [٢].

وقيدت الجملة بالجار وا رور؛ فقيل:(مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)؛ ولعل السر في هـذا لاعتقاد المخاطبين أ م ليسوا هم المعنيين بفعل التلاوة [٣]. ولعل تأخير الجار وا ـرور، وتقديم "ما حرم" عليه؛ لأهمية المحرم [٤].

وبدئت الوصايا في الآية بالقاعدة، التي يقوم عليها بناء العقيـدة، وترجـع إليهـا التكاليف والفرائض؛ القاعدة التي يجب أن تقوم قبل الدخول في الأوامـر والنـواهي؛ بدئت بالتوحيد في صريح البراء من الشرك؛ وهذا إشارة إلى أن التخلي عـن الرذائـل يكون قبل التحلي بالفضائل [٥]. يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله ـ ـ جل وعلا ـ كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيد م؛ فكما أ م لا يشركون معه أحداً في ألوهيتـه، فكذا لا يشركون معه أحداً في ربوبيته؛ يعترفون بأنه وحده المتصرف في شـؤون هـذا الكون، وبأنه وحده المتصرف في حسا م وجزائهم يوم الدين [٦].

---

(١) ينظر : تفسير المنار (١٨٣/٨).
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٩٨/٣)، و: في ظلال القرآن (١٢٢٩/٣).
(٣) ينظر نظم الدرر (٣١٦/٧).
(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.
(٥) ينظر : السابق. نفسها. و: في ظلال القرآن (١٢٢٩/٣) وما بعدها.
(٦) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٢٩/٣) وما بعدها.

وقد وضح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة فرق المشركين في شركهم على أحسن الوجوه؛ وهي على النحو التالي [(١)]:

١- من جعل الأصنام شركاء لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وإليهم أشير بقوله تعالى ـ حكاية عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ :(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) [الأنعام :٧٤].

٢- من عبد الكواكب، وهم الذين حكى الله ـ تعالى ـ عنهم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبطل عبادتهم بقوله:(لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)[الأنعام :٧٦].

٣- الذين حكى الله ـ عز وجل ـ عنهم بقوله:(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ) [الأنعام : ١٠٠].

٤- الذين جعلوا لله بنين وبنات؛ قال تعالى:(وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام : ١٠٠].

"فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف، قال ههنا: (ألاّ تشركوا به شيئاً) ."[(٢)] وقيدت الجملة بـ "شيئاً"؛ وهي إما مفعول به أو مفعول مطلق [(٣)]؛ ولعل السبب في هذا التقييد إرادة التعميم؛ أي "لا قليلاً ولا كثيراً [(٤)]"، أو: لا تشركوا به "لا في الأقوال ، ولا في الأفعال، ولا في الاعتقادات [(٥)]"، أو: لا تشركوا به شيئاً من الأشياء وإن كانت عظيمة في الخلق كالشمس، والقمر، والكواكب، أو عظيمة في القدر كالملائكة والأنبياء والصالحين [(٦)].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٧٨/٥) .

(٢) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) ينظر : إعراب القرآن وبيانه (٢٦٨/٣)، و: الجدول في إعراب القرآن (٣٢٥/٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٩/٢).

(٥) حاشية الصاوي (٥٥/٢).

(٦) تفسير المنار (١٨٤/٨) بتصرف .

وحق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً؛ وحقيقة الشرك بالله أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو أن يحب كما يحب الله ...، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلوهية [١]. وكل عمل داخله الشرك، فهو غير مقبول؛ فقد صح عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال:"قال تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه [٢]".

وثنيت الوصايا بالإحسان بالوالدين؛ فقيل:"وبالوالدين إحساناً"، وفي الجملة إيجاز بالحذف؛ ففيها حذف الفعل؛ وتقديره: أوصى؛ وجاز حذفه لدلالة الكلام عليه، فقد ختمت الآية بقوله تعالى :(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ)؛ ولمعرفة السامع بمعناه [٣].

والمعنى: أوصاكم ربكم أن تحسنوا بالوالدين إحساناً كاملاً، لا تدخرون فيه وسعاً، ولا تألون فيه جهداً، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان [٤]؟!. والإحسان إلى الوالدين يكون ببرهما، وحفظهما، وصيانتهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما [٥].

وفي تقييد الجملة بالمصدر ـ المفعول المطلق ـ "إحساناً" تأكيد ومبالغة في الإحسان بالوالدين [٦]. هذا إضافة إلى تعدية الإحسان بـ"الباء"؛ إذ إن كلمة "الإحسان" تتعدى بحرف الجر "الباء"، و"إلى" إلا أن بينهما فرقاً واضحاً؛ فـ"الباء" تدل على الإلصاق ، أما "إلى" فهي تدل على الغاية، والإلصاق: يفيد اتصال الفعل بمدخول "الباء" دون انفصال، ولا مسافة بينهما، بينما الغاية: تفيد وصول الفعل إلى مدخول "إلى"، ولو كان على بعد منه، أو كان بينهما واسطة؛ فعلى ذلك يكون الإلصاق في هذا المقام أبلغ في تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين [٧].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٩٩/٢) .

(٢) صحيح مسلم. كتاب: الزهد والرقائق . باب: من أشرك في عمله غير الله (١٥٩٤) حديث رقم (٢٩٨٥).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩١/٥) .

(٤) تفسير المنار (١٨٥/٨) بتصرف .

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣٢/٧) بتصرف.

(٦) ينظر : تفسير المنار (١٨٥/٨) .

(٧) ينظر : من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة) (١٦٧).

ولم يؤكد الإحسان بالوالدين في النظم القرآني ببنائه على صيغة المصدر، وتعديته بالباء فحسب، إنما أكد ـ أيضاً ـ بجعله قرين الأمر بعباده الله ـ تعالى ـ وحده، وتثنية الوصايا به [١].

وإنما ثُني بهذا التكليف؛ لأن أعظم أنواع نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان إخراجه من العدم إلى الوجود، وخلقه بعد أن لم يكن شيئاً...، وقد جعل الله ـ سبحانه تعالى ـ الوالدين السبب في وجوده ـ أعني الإنسان ـ؛لذا ـ والله أعلم ـ ثنى بهذا التكليف ؛ يضاف إلى ما سبق ما لهما من نعم على الإنسان كثيرة، وهي من العظم بمكان؛ منها: نعمة التربية، والشفقة، والعطف، والانفاق، والحفظ من الضياع في الصغر.. وغيرها [٢].

ثم ولي الإحسان القتلُ؛ فقال:(وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم)؛ وقُيد القتل بالمفعول به؛ وهو قوله تعالى:(أَوۡلَٰدَكُم) ؛ للدلالة على أن أفحش أنواع القتل؛ قتل الولد [٣].

ثم أضيف قيد آخر؛ فقيل:(مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ)، "والإملاق"؛ مصدر من قول القائل:"أملقت من الزاد، فأنا أملق إملاقاً، وذلك إذا فني زاده، وذهب ماله، وأفلس [٤]". وقد أفاد تقييد الجملة بالمفعول لأجله؛ بيان أن أفحش أنواع قتل الولد؛ قتله لأجل الفقر [٥].

وفصل قوله تعالى:(نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ) عما قبله؛ لوقوعه استئنافاً بيانياً؛ فقد حمل تعليلاً للنهي عن قتل الأولاد، وبه أُبطل السبب الذي يدفعهم إلى قتلهم [٦].

وفي "نحن نرزقكم وإياهم" خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ في حق الله ـ عز وجل ـ فقد عدل عن طريق الغيبة، الذي جرى عليه الكلام في قوله:(مَا حَرَّمَ

---

(١) ينظر : تفسير المنار (١٨٥/٨) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٧٨/٥)، و: تفسير الخازن (١٩٩/٢).

(٣) ينظر : نظم الدرر (٣١٧/٧) .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩١/٥) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (٣١٧/٧).

(٦) ينظر : التفسير الكبير (١٨٧/٥)، و: نظم الدرر (٣١٧/٧)، و: إرشاد العقل السليم (١٩٨/٣).

رَبُّكُمۡ) ؛ إلى طريق التكلم [١]، وهذا من الالتفات ؛ ولعل ذلك ـ كما علل ابن عاشور ـ للتذكير بالذي أمر ذا القول [٢].

ولائم هذا الالتفات المقام؛ وبيان ذلك أن المخاطبين إنما قتلوا أولادهم بسبب الفقر، وقلة الحيلة، فحتى تبث الطمأنينة في نفوسهم المضطربة، ويمكن الخبر من التغلغل إلى أعماقهم الخائرة ...، عدل عن طريق الغيبة إلى التكلم؛ فقيل:(نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ)، وهذا الطريق ـ كما ذكر د.حسن طبل ـ : "هو قرين الحضور والمشاهدة "[٣]، فيكون في هذا الالتفات ـ إضافة إلى ما ذكره ابن عاشور ـ ما أشير إليه ههنا ـ والله تعالى أعلم ـ .

وقدم المسند إليه على المسند الفعلي في الجملة؛ لإفادة الاختصاص، فكأنه قيل: نحن نرزقكم وإياهم لا أنتم ترزقون أنفسكم، ولا ترزقون أولادكم [٤]، وفي هذا القصر تأكيد للخبر مع ما فيه من إيجاز .

وأخبر عن ضمير العظمة بجملة فعلية؛ لنكتة بلاغية؛ للدلالة ـ والله أعلم ـ على أن هذا الرزق الدائم يتجدد ويحدث شيئاً بعد شيء...؛ ولعل في هذا مزيد بث للطمأنينة في نفوسهم.

وقدم رزق الآباء ـ وهم المخاطبون ـ فقال:(نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ)، ثم عطف عليه ضمير الأبناء:(وَإِيَّاهُمۡ)، ولعله ـ والله أعلم ـ لسوق البشارة للآباء بزوال الإملاق، وإحالة الرزق على الخالق الرزاق، فكما أنكم لا تقتلون أنفسكم، فكذلك لا تقتلوا أولادكم[٥].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٩/٨) .

(٢) المرجع السابق.الصفحة نفسها. بتصرف.

(٣) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (١١١) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٩/٨) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٥١/٤) .

ويلحظ أن هذه الوصية ربطت بمعرفة ألوهية الله ـ تعالى ـ الواحدة، والارتباط بربوبيته المتفردة [(١)]. فبما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ تكفل برزق الوالد والولد، وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته، والاتكال في أمر رزقه على الله تعالى [(٢)].

ومن أهل التفسير من نظر في متشابه النظم بين قوله تعالى:(وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)، وقوله في سورة الإسراء:(وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم)[الإسراء:٣١]؛ مفاده أن آية الأنعام قيدت بقوله:(مِّنْ إِمْلَٰقٍ) ، وفيها قدم ضمير المخاطبين "نرزقكم" على ضمير الأولاد "وإياهم"، أما آية الإسراء فقد قيدت بقوله:(خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ) وقدم فيها ضمير الأولاد "نرزقهم" على ضمير الآباء "وإياكم"، ثم حاولوا الوقوف على أسرار ذلك التغاير الواقع بين الآيتين ومما وصلوا إليه [(٣)]:

أن المخاطبين بآية الأنعام إنما لجأوا إلى قتل أولادهم؛ لفقر واقع م حال قتلهم؛ لذا قال تعالى:(مِّنْ إِمْلَٰقٍ)؛ أي من أجل الفقر. ثم قال:(نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)، فقدم رزقه ـ تعالى ـ لهم ـ وهم الفقراء ـ؛ ليكون ذلك أمنع لهم من القتل، فالذي يظهر أن التقديم فيه سوق بشارة لهم؛ فكأنه قيل: إنما ترزقون م فلا تقتلوهم، وفيه تشفيع الأولاد في رفع فقر الآباء القاتلين؛ لذا قدم ضمير الآباء.

أما آية الإسراء، فالمخاطبون ا هم أهل الغنى واليسار، وقتلهم لأولادهم؛ لأ م يخشون العجز عن مؤنتهم، والفقر الذي قد يقع فيما يتوقعونه مستقبلاً؛ فقيل:(خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ)، فجعلت الخشية هي العلة في فعلهم، والخشية إنما تكون مما لم يقع، فرزق أولادهم هو الأهم والمطلوب دون رزقهم؛ لأنه حاصل، فقدم ضمير الأولاد على ضمير آبائهم؛ لإفادة أن الله ـ تعالى ـ قد تكفل برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، فلا تقتلوهم.

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٣٠/٣) .

(٢) ينظر : تفسير الخازن (١٩٩/٢) .

(٣) ينظر : ملاك التأويل (٤٧٩/١)، و: البحر المحيط (٢٥١/٤)، و: البرهان في علوم القرآن (٢٨٥/٣) .

يخلص من ذلك أن الآيتين ـ كما ذكر أبو حيان ـ أفادتا معنيين [١]:

الأول: أن الآباء وا عن قتل الأولاد مع وجود إملاق .

الثاني : أ م وا عن قتلهم، وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق.

فمن التغاير الواقع بين القيدين، اللذين قُيدت ما الآيتان، ومن تقديم ما قدم في النظم القرآني، يلمس حرص الإسلام على الحفاظ على نعمة الأولاد، وذلك بربطها بتوحيد الربوبية؛ فالذي يرزق هو من خلق؛ وهو الله ـ جل شأنه ـ .

ولما كان قتل الأولاد أفحش الفواحش بعد الشرك بالله، أتبعه النهي عن مطلق الفواحش، فقال:(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ) [٢].

والفواحش جمع فاحشة؛ وهي: القبيح من القول والفعل. والفاحش: ذو الفحش والخنا من قول وفعل [٣]، وعن أسامة بن زيد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال:" إن الله لا يحب كل فاحش متفحش [٤]" .

ومن اللطائف البلاغية في الجملة؛ أن النهي عن ارتكاب الفواحش انصب على الاقتراب منها ...، وهذا "أبلغ من النهي عن مجرد فعلها [٥]".يعلل لذلك البقاعي بما مضمونه: ي عن الاقتراب من الفواحش ... فضلاً عن غشيا ا تعظيماً لأمرها [٦].

وللسعدي تعليل أقوى، قال فيه ـ ما معناه ـ: لأن النهي عن قربا ا يتناول النهي عن مقدما ا، ووسائلها الموصلة إليها [٧]؛ فالزنا ـ مثلاً ـ وهو من جملة الفواحش المنهي عنها، له مقدمات تسبقه؛ منها التبرج والسفور، والاختلاط، والخضوع بالقول ... وغيرها وكلها فواحش ى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده عن الاقتراب منها حتى لا يقع

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٢٥١/٤)

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (١٧٩/٦)، و: نظم الدرر (٣١٧/٧) .

(٣) ينظر : لسان العرب. مادة (فحش) .

(٤) رواه أحمد في مسنده. (١٦٠٥) حديث رقم (٢٢١٠٧) .

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٠/٢).

(٦) ينظر : نظم الدرر (٣١٧/٧) وما بعدها .

(٧) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٥٠٠/٢).

الفرد في الفاحشة الكبرى؛ وهي الزنا [(١)]. فانصباب النهي على الاقتراب مما يقرب من الفواحش كشف للقارئ دقة التعبير في النظم القرآني، فإذا كان الاقتراب من الفواحش منهياً عنه فالوقوع فيها أشد نهياً.

ثم قيدت الجملة بالبدل؛ فقيل:"ما ظهر منها"، وعطف عليها:"وما بطن"؛ ولعل السر في التقييد بهذا القيد هو تأكيد التعميم [(٢)].

وخص بعض المفسرين الفواحش في الآية بالزنا، وقيل: أما "ما ظهر"؛ فزواني الحوانيت، و"ما بطن"؛ فما خفي وكان في السر [(٣)].

ولابن جرير الطبري توجيه يليق بكلام الله ـ تعالى ـ، قال فيه: إن ما دل عليه ظاهر التنزيل؛ النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، ولا خبر يقطع العذر، بأنه عني به بعضها دون جميعها. ولا يجوز إحالة ظاهر كتاب الله ـ سبحانه تعالى ـ إلى باطن، إلا بحجة يجب التسليم لها [(٤)]. فالأولى ـ كما قال الرازي ـ: ألا يخصص هذا النهي بنوع معين؛ لأن اللفظ عام، والمعنى الموجب لهذا النهي؛ وهو كونه فاحشة عام ـ أيضاً ـ ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل [(5)]. فالآية هنا لم تقييد بفاحشة دون فاحشة، إنما أطلقت كلمة "الفواحش"؛ لتضم كل أنواعها؛ ولعل الذي دعا إلى ذلك هو المقام؛ فالمقام مقام تعداد لوصايا يقوم عليها الدين الإسلامي؛ وبيان محرمات دعي إلى تجنبها، فلو قيدت هنا الفواحش بفاحشة دون أخرى لظن المتلقي أن ما قُيد في هذا المقام هو المحرم فقط، ولغاب عن ذهنه حرمة ما عداها من فواحش يبغضها الله ـ تعالى ـ؛ لذا ـ والله تعالى أعلم ـ أطلقت كلمة "الفواحش" ولم تقيد بنوع منها.

ومما في الآية من لطائف بلاغية :

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٣١/٣) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣١٨/٣) .

(٣) ينظر في هذا : ما نقله الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٢/٥) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٥) التفسير الكبير (١٧٨/٥) بتصرف .

الطباق بين قوله تعالى:(مَا ظَهَرَ)، و:(وَمَا بَطَنَ)، فاستوفت الآية بهذا جميع أقسام الفواحش [١].فالنهي ـ كما يلحظ ـ أقيم على أرض صلبة ثابتة؛ لا تتزعزع، فلم يترك لذوي النفوس الضعيفة أي منفذ يمرقون من خلاله لمزاولة فحشهم؛ ولعل هذا حرص على سلامة الضرورات الخمس، التي تكفل الإسلام بحفظها؛ وهي الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وخامس الوصايا التي عطف بالواو على ما سبق ؛ لإفادة المشاركة في الحكم؛ قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ). وهذا النهي ضمه النهي عن جملة الفواحش في الجملة السابقة، إلا أنه أفرد بالذكر؛ وهذا من الإطناب؛ ولعل ذلك لفائدتين [٢]:

الأولى: أن هذا الإفراد دل على تعظيم الأمر المنهي عنه وتفخيمه؛ وهو قتل النفس، التي حرم الله ـ تعالى ـ إلا بالحق. وقد قال الله تعالى:(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)[المائدة :٣٢].

الثانية: أنه أريد أن يستثنى منه، ولا يتأتى هذا الاستثناء من جملة الفواحش، بل بالإفراد.

والتعريف في "النفس" للجنس [٣]؛ أفاد الاستغراق [٤]. وقيدت "النفس" بالصفة؛ فقيل: "التي حرم الله"؛ ولعل هذا للتنبيه إلى أنه قد سبق العهد في تحريمها [٥]. ونص على اسم الجلالة؛ تعظيماً لما حرم الله ـ تعالى ـ، الذي له الحكم والأمر ، وإليه ترجع الأمور.

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (١٧٩/٦).

(٢) ينظر : تفسير الخازن (١٩٩/٢)، و: جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٨/٣).

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣٣/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٦٠/٨) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٥٢/٤) .

ثم قيدت الجملة بقوله تعالى:(إِلاَّ بِالْحَقِّ)؛ وهو " استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق [١]"، وقد يكون من أعم الأسباب؛ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق [٢].

وتعريف "الحق" أفاد كماله؛ أي إلا بالحق الكامل، ولا يكون كاملاً إلا إذا كان كالشمس وضوحاً لا شبهة فيه [٣].

والمعنى: لا تقتلوا النفس التي حرم الله ـ تعالى ـ إلا بالحق، الذي أبيح قتلها لأجله؛ كأن ترتد عن دينها الحق إلى الكفر، فتقتل، أو تقتل نفساً، فتقتل قَوداً ا، أو تزني، وهي محصنة [٤].

وعلى هذه القاعدة فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كفل حرمة النفس ابتداءً، وفي ذلك إرساء لدعائم الأمن في دار الإسلام، وبث للطمأنينة في نفوس العباد [٥].

ويلحظ أنه نهي عن قتل الولد في الآية ثلاث مرات؛ الأولى: عندما قال تعالى:(وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ)، والثانية: في قوله تعالى:(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)، والأخيرة في قوله تعالى:(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)[٦]؛ ولعل ذلك لعظم الجرم المرتكب في حقهم، وفي الحديث الصحيح أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سئل:" أي الذنب أعظم عند الله؟. قال:"أن تجعل لله نداً وهو خلقك" قال [الراوي] قلت له :إن ذلك لعظيم. قال قلت: ثم أي؟ قال:" ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك"... الحديث [٧].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١٩٩/٣) .

(٢) المرجع السابق. الصفحة نفسها. بتصرف.

(٣) ينظر : نظم الدرر (٣١٨/٧) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٩٣/٥) .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٣٢/٣) .

(٦) ينظر : نظم الدرر (٣١٨/٧) .

(٧) سبق تخريجه ينظر في هذا البحث :(١٨٩) .

وفي ختام الآية قال الله تعالى:(ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)، والجملة استئناف جيء به تجديداً للعهد، وتأكيداً لوجوب المحافظة على ما كلفوا به [١].

وتعقيب الآية بهذه الجملة يأتي وفقاً للمنهج القرآني في ربط كل أمر ونهي بالله ـ تعالى ـ؛ تقريراً لوحدة المصدر؛ الذي يأمر وينهى في الناس، وهذا مما يجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر العباد [٢].

ومن سمات التعبير القرآني في الآية الدقة في اختيار الكلمة القرآنية، يجدها القارئ في اختيار كلمة "وصاكم" بالإضافة إلى مناسبتها للمقام، وذلك أنه لما كانت تلك الأشياء شديدة على النفس ختمها بـ"وصاكم" [٣]؛ ولعل السر لما فيها من لطف، ورأفة، ولين يلامس شغاف القلب، فيفتح لها باب القبول والاستجابة [٤]. كما أن في جعلهم أوصياء لله ـ تعالى ـ ما لا يخفى من الإحسان [٥].

وأتت فاصلة الآية مقيدة بـ"لعل"؛ ترجياً للتعقل؛ فقال تعالى:(لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)، يعلل لهذا صاحب ملاك التأويل بما مضمونه: أنه لما كانت تلك الأشياء؛ وهي الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد لأجل الفقر، وارتكاب الفواحش، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، لما كانت خمستها ذات قبح ظاهر لا يخفى، قيدت بترجي التعقل؛ لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق من الله ـ تعالى ـ [٦]. وقد يكون لما ذكره الرازي :" أي كي تعقلوا فوائد هذه التكاليف، ومنافعها في الدين والدنيا [٧]".

---

(١) إرشاد العقل السليم (١٩٩/٣) . بتصرف.
(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٣٢/٣).
(٣) نظم الدرر (٣١٨/٧) بتصرف .
(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٧٩/٥) .
(٥) البحر المحيط (٢٥٢/٤) بتصرف .
(٦) ينظر : ملاك التأويل (٤٧٩/١) .
(٧) التفسير الكبير (١٧٩/١) .

ولعل في هذا تعريضاً بأن ما هم عليه من الشرك بالله، وتحريم السوائب ... وغيرها مما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر فيه لذوي العقول الراجحة مصلحة [(١)].

ومما دلت عليه الآية أنه بحسب عقل العبد وإيمانه يكون قيامه بما أمر الله ـ تعالى ـ به [(٢)].

---

(١) ينظر تفسير المراغي (٦٩/٨) .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٢/٠٠٥) .

المبحث الخامس

القص

القصر

تعريف القصر:

في **اللغة: الحَبس، قال تعالى: (**حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِى ٱلۡخِيَامِ **)[الرحمن:٧٢]، وقال:** (وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ **)[ص: ٥٢]؛ أي قصرن أنفسهن على أزواجهن. واقتصر على الأمر:** لم **تتجاوزه**[١] **.**

في **الاصطلاح: "هو** تخصيص **شيء بـشيء بطريـق مخـصوص"**[٢]**؛ أي** تخـصيص **موصوف** بصفة**، أو صفة** بموصوف**، بأحد الطرق الأربعة الآتية**[٣] **.**

أركان القصر [٤]:

١- المقصور .

٢- المقصور عليه .

طرق القصر :

للقصر طرق كثيرة، اصطلح على أربعة منها؛ هي[٥]**:**

١- العطف بـ "لا" ، و "بل"، و"لكن".

٢- النفي والاستثناء.

---

(١) ينظر : لسان العرب. مادة (قصر).

(٢) شرح السعد، ضمن شروح التلخيص. (١٦٦/٢) .

(٣) مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص. (١٦٦/٢) بتصرف.

(٤) ينظر : جواهر البلاغة. (١٩٦)، و: بغية الإيضاح. (٣/٢).

(٥) ينظر الإيضاح. (١٢٤) وما بعدها.

٣- القصر بـ "إنما" وسبب إفادة "إنما" القصر هو تضمنها معنى "ما" و "إلاّ"، ومع ذلك فليس كل كلام يصلح فيه القصر بالنفي والاستثناء يصلح فيه القصر بـ "إنما" وقد نبه "عبد القاهر الجرجاني" على ذلك حين أشار إلى أن "إنما" تجيء لقصر أمر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل م لته[١]. بينما القصر بالنفي والاستثناء يكون لقصر أمر ينكره المخاطب ويشك فيه[٢]. وأقوى مواقعها حين تأتي للتعريض[٣].

٤- التقديم: بتقديم ما حقه التأخير[٤].

مواقع المقصور والمقصور عليه في طرق القصر:

إذا كان القصر بالعطف بـ "لا" كان المقصور عليه مقابلاً لما بعدها. وإذا كان العطف بـ "بل أو "لكن" كان المقصور عليه بعدهما[٥]. وفي النفي والاستثناء يكون ما بعد "إلاّ" هو المقصور عليه[٦].ويؤخر المقصور عليه بالقصر بإنما في الجملة وجوباً[٧]. أما تقديم ما حقه التأخير فإن المقصور عليه يكون هو المقدم[٨].

أقسام القصر:

أ ـ باعتبار الحقيقة والواقع:

ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع قسمين:

---

(١) دلائل الإعجاز. (٣٢٩ – ٣٣٠) بتصرف.

(٢) ينظر : المرجع السابق. (٣٣٢).

(٣) ينظر :السابق . (٣٥٤).

(٤) شرح السعد، ضمن شروح التلخيص. (٢٠٢/٢) بتصرف .

(٥) ينظر : في البلاغة العربية "علم المعاني" (٢٠٤) وما بعدها.

(٦) ينظر : دلالات التراكيب. (١١٥)، والمراد بالاستثناء؛ الاستثناء المفرغ؛ وهو ما كان فيه المستثنى منه عاماً محذوفاً. ينظر: المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٧) ينظر : جواهر البلاغة. (١٩٩).

(٨) ينظر : في البلاغة العربية "علم المعاني". (٢٠٥).

أحداهما: قصر حقيقي، والآخر: غير حقيقي[١]. والقصر الحقيقي: هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتجاوز إلى غيره أصلاً[٢]؛ وهو نوعان[٣] :

١- قصر حقيقي تحقيقي: وفيه يختص المقصور بالمقصور عليه علـى سـبيل الحقيقـة والواقع.

٢- حقيقي ادعائي: وفيه يختص المقصور بالمقصور عليه ولا يتجاوزه على سبيل المبالغة والادّعاء.

أما القصر غير الحقيقي، وهو الإضافي؛ فهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين، لا لجميع ما عداه[٤] .

ب ـ باعتبار طرفيه :

١- قصر موصوف على صفة[٥]: وهو أن يقصر الموصوف على صفة، ولا يتجاوزهـا إلى غيرها، لكن يجوز أن تكون تلك الصفة لموصوف آخر[٦].

٢- قصر صفة على موصوف[٧]: وهو أن تقصر الصفة على الموصوف، ولا تتجـاوزه إلى موصوف آخر، لكنه يتجاوزها إلى غيرها من الصفات[٨].

أقسام القصر الإضافي :

والقصر الإضافي بالنظر إلى حالة المخاطب ينقسم إلى ثلاثة أقسام[٩] :

---

(١) ينظر : الإيضاح. (١٢٣).

(٢) ينظر : شرح السعد، ضمن شروح التلخيص. (٢/١٦٧).

(٣) ينظر : حاشية الدسوقي على شرح السعد (٢/١٧٤).

(٤) مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص. (٢/١٦٧) بتصرف.

(٥) ينظر : الإيضاح . (١٢٣).

(٦) شرح السعد . (٢/١٦٩)، بتصرف.

(٧) ينظر : الإ يضاح . (١٢٣).

(٨) ينظر : شرح السعد. (٢/١٦٩)،، و:مواهب الفتاح. (٢/١٦٩).

(٩) ينظر : الإيضاح. (١٢٣) وما بعدها، و: شرح السعد(٢/١٧٩) وما بعدها، و: مواهب الفتاح (٢/١٧٩)وما بعدها .

١- قصر إفراد: وهو أن يعتقد المخاطب "الشركة"؛ كأن يعتقد أن للموصوف صـفة أخرى – أو أكثر – في قصر الموصوف على الصفة. أو أن للصفة موصوفاً آخر – أو أكثر – في قصر الصفة على الموصوف، فيعمد المـتكلم إلى إفـراد موصـوف بصفة، أو صفة بموصوف.

٢- قصر قلب: ويكون إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم، الذي يثبته المتكلم، وسمـي "قصر قلب"؛ لأن فيه قلباً لحكم المخاطب كله بغيره، بخلاف قصر الإفراد فلـيس فيه تبديل للحكم كله، بل فيه إثبات لبعضه ونفي لبعضه الآخر.

٣- قصر تعيين: إذا كان المخاطب متردداً في الحكم بين المقصور عليه وغيره. وسيوقف – بإذن الله – على شيء من بلاغة هذا الأسلوب في أثناء تحليل بعضٍ من شواهده في آيات العقيدة في سورة الأنعام.

ومن شواهد القصر في الآيات:

قوله تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنعام:١٣].

ومناسبة الآية لما قبلها: أنه لما استنارت الأدلة، وانتصبت البراهين القاطعة بوحدانية الله - سبحانه وتعالى -، حتى لم يبق أي لبس...، عم بالخبر عما تقدم مما يـشاهدونه...، فقال ذاكراً الزمان: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)؛ إذ لا زمان سواهما؛ بعد أن ذكر في الآية السابقة[(١)] السموات والأرض إذ لا مكان سواهما؛ فأخبر - سبحانه - أنه مالـك المكان والزمان[(٢)]... وهذا من الأدلة على وحدانيته - تعالى - .

وقد أثبتت تلك الحقيقة في هذه الآية عن طريق القصر، الذي يوصل المعنى المـراد بإيجاز وتأكيد، فقال تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ) فقُصِر فيها ملك كل شيء لله، ونفي عـن

---

(١) وهي قوله: (قل لمن ما في السموات والأرض قل لله)[الأنعام: ١٢].

(٢) ينظر : التفسير الكبير. (٤/٤٩٠)، و: نظم الدرر. (٧/٣٣).

غيره. كأنه قيل: ملك كل شيء لله لا لغيره(١). وهو قصر صفة على موصوف، قصراً حقيقياً تحقيقاً؛ إذ لا مالك لما ذكر إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولم ينكر الكافرون هذه الحقيقة...، إلا أنهم لم يسلموا بمقتضاها؛ وهو الخضوع لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهذا هو السر البلاغي في اختيار طريق "التقديم" لزيادة تقرير المعنى السابق في أذهانهم.

ومعنى "سكن"؛ أي "استقر"(٢)، وفي "المفردات": "السكون ثبوت الشيء بعد تحرك، ويستعمل في الاستيطان" (٣). وقيل: إن في الكلام حذفاً، وقدروا المحذوف بقولهم: وله ما سكن وتحرك في الليل. وقد اكتفي في الآية بذكر أحدهما عن الآخر؛ لأن السامع علم المحذوف بالقرينة المذكورة؛ فقوله: (سَكَنَ) دل على ما حذف، وهو الحركة، التي تقابل السكون(٤). فعلى هذا يكون في الآية "إيجاز بالحذف" دلت عليه قرينة المقال. وبعض المفسرين يرى أنه لا حذف هنا؛ إنما اقتصر على الساكن؛ لأن كل متحرك قد يسكن، لكن ليس كل ما يسكن يتحرك(٥). وقيل: لأن النعمة تظهر في السكون أكثر من ظهورها في الحركة (٦). أو لأن وجود السكون أكثر من الحركة(٧). "وقيل : لأن عاقبة التحرك السكون"(٨). والذي يظهر أنه لا حذف في الآية، بل أوجز المعنى فيها بإيجاز القصر...، به زيدت جملة القصر قوة إلى قوتها؛ فقوله: (وَلَهُۥ مَا سَكَنَ) ضم الموجودات كلها من أولها إلى آخرها؛ لأنه – كما قيل - : كل متحرك عاقبته السكون، وتم هذا بكلمتين اثنتين، وهذه براعة تميزت بها البلاغة القرآنية، التي أعجزت فصحاء العرب.

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٥٨/٥)،، و: التفسير الكبير. (٤٩٠/٤).

(٢) معالم التنزيل . (٨٧/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن. (٢٣٦).

(٤) ينظر : معالم التنزيل. (٨٧/٢)، و: التفسير الكبير (٤٩١/٤)، و: الجامع لأحكام القرآن (٣٩٦/٦) .

(٥) البحر المحيط. (٨٣/٤) بتصرف.

(٦) معالم التنزيل . (٨٧/٢) بتصرف.

(٧) البحر المحيط. (٨٣/٤) بتصرف.

(٨) مجمع البيان. (٤٣١/٤).

فإذا كان كل ما في الكون ملكاً لله فهل يعقل أن يصرف المخلوق شيئاً من العبادة لمخلوق مثله... لا يملك نفعاً، ولا ضراً ...، ويترك عبادة الله ـ أو الإخلاص فيها ـ ، وهو الخالق، المالك، المدبر، الضار، النافع...[١]؟!.

وقدم "الليل" على "النهار"؛ لأن الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، وعطف "النهار" عليه زيادة في الشمول[٢] .

وختمت الآية بقوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، والسر البلاغي في مجيء الفاصلة على هذا النحو؛ أنه لما تقدم ذكر ادعاءات الكفار المكذبين ... ناسب ذكر صفة السمع[٣]. أما صفة العلم فلدلالة على أن الله ـ تعالى ـ عليم بما يضمرونه في أنفسهم، وما يعملونه خفاء بجوارحهم، يحصيه عليهم؛ ثم هو يجازيهم عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر..، فصفة العلم تناسب ذكر الحشر، الذي فيه الجزاء[٤]، فالفاصلة أتي ا لتمكين المعنى السابق

وبني وصفه ـ سبحانه وتعالى ـ بالعلم والسمع على صيغة المبالغة؛ لبث الرعب في نفوس السامعين، فكأن فيه ديداً ووعيداً[٥]، ولتثبيت المؤمنين .

وتعريف المسند والمسند إليه في الجملة للدلالة على كمال هاتين الصفتين له ـ تعالى ـ وعبر عن ذلك بالجملة الاسمية؛ لبيان ثبا ما ودوامهما له ـ عزوجل ـ .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن. (٣٧٩/٢).

(٢) ينظر : التحرير والتنوير. (١٥٥/٦).

(٣) ينظر : البحر المحيط. (٨٤/٤).

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٨٥/٥)، و: البحر المحيط. (٨٤/٤).

(٥) البحر المحيط. (٨٤/٤) بتصرف.

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ :

قوله تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) **[الأنعام:٣٢].**

الإيمان باليوم الآخر من القضايا العقدية التي لم يكن المشركون ليتلقوها بالقبول والرضى...؛ ربما لبعدها عن مداركهم الحسية...، فكان أن أنكروها قولاً وفعلاً. فالقول نقلته لنا آيات القرآن؛ من ذلك قوله تعالى حكاية عن قول مشركي العرب: (وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**)[الأنعام:٢٩]، و:(**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**)[المؤمنون:٣٧]، و:(** إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ **) [الدخان: ٣٤-٣٥]... وغيرها. وأما الفعل فبركونهم إلى الحياة الدنيا، وانكبابهم على شهواتها، وتماديهم في الشرك والضلال، وصدهم عن دين الله ... وأمام هذا الإنكار الشديد يجد القارئ أن هذه القضية أثبتت هنا بأسلوب من أقوى أساليب التوكيد؛ وهو القصر، واستخدم فيه " أقوى أدواته [النفي بلا والاستثناء بإلا] لما فيها من وضوح معنى القصر"[1]، فقال سبحانه: (**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**) .**

ومناسبة الآية لما قبلها أنه لما ذكر قولهم: (وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**)[الأنعام:٢٩]، ناسب أن يذكر مصير هذه الحياة الدنيا، ويفتح أعينهم على حقيقتها؛ فما هي إلا ساعة لعب، ثم تزول وتفنى، فالاشتغال بأمورها كلعب الصبيان ،أما الاشتغال بأعمال الآخرة فهو الذي يعقبه النفع والخير [2].**

فأثبت في قوله: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ**) صفة اللعب للحياة الدنيا؛ لينفى عنها ما سواها من صفات، وهذا القصر من قبيل قصر الموصوف على صفة، قصراً**

---

(١) من بلاغة القرآن. (١٥٧).

(٢) ينظر : البحر المحيط. (١٠٨/٤)، و: نظم الدرر. (٩٣/٧)، و: تيسير الكريم الرحمن. (٣٩١/٢).

حقيقياً ادعائياً، لأن قصر الحياة الدنيا على صفة اللهو واللعب من المبالغة؛ لأن الأعمال ـ كما يقول ابن عاشور ـ الحاصلة في الدنيا كثيرة، منها اللعب واللهو ومنها غيرها...[1]، لكن لما طغت هذه الصفة على ما سواها...حتى أصبحت الحياة الدنيا وكأ ا قد خلصت لها، فلم تعد متصفة بغيرها...صح قصر هذه الصفة "اللعب واللهو" عليها[2] .

ومع وضوح هذا الحكم...إلا أنه أثبت بـ"ما" و"إلا"، وكان حقه ـ لوضوحه ولأنه مما لا يجهل ـ أن يثبت بـ "إنما"، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: (إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)[محمد:٣٦]، فلم غاير بين طرق القصر...مع اتفاق المعنى في الظاهر؟!. إن هذه المغايرة لهي من دقائق النظم القرآني، فقد روعي عند التعبير عن المعنى سياق الآيتين...، فالناظر في سياق الآية في سورة "محمد" يجد أن المخاطبين فيه غير المخاطبين هنا؛ ففي سورة "محمد" الخطاب فيه كان للمؤمنين[3]، وهم يؤمنون بأن مصير الدنيا إلى فناء، وأن بعدها بعثاً، وداراً أخرى...؛ فلذلك استخدمت "إنما" في الحصر الوارد في الآية. بينما سياق آية "الأنعام" المخاطب فيه هم المشركون، وهؤلاء ينكرون ما آمن به المؤمنون أيما إنكار...، فأتت هذه الآية وقد تضمنت رداً على ما أنكروه بأسلوب القصر لكن بطريق النفي والاستثناء، الذي يجابه به المنكر، حتى لو كان ما أنكره حكما واضحاً لا شك فيه. فالقارئ يلحظ أن مقام الإنكار والإصرار هو الذي استدعى مغايرة الطريق، فحسن لذلك استخدام أقوى الطرق في الدلالة على رده؛ لتقابل قوة اللفظ، قوة الإنكار الذي أريد دفعه.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير. (١٩٣/٦).

(٢) من بلاغة القرآن. (١٥٦) بتصرف.

(٣) **قال تعالى:** (يا أيها الذين آمنو أطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم۞ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم۞ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم۞ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم)**[محمد:٣٣-٣٦].**

ولنتأمل كيف عبر عن فناء الحياة الدنيا بتشبيهها باللعب واللهو تشبيهاً بليغاً، ذلك "أن مدة اللهو واللعب... سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة كذلك"(١). ثم إن في حصر الحياة الدنيا في "اللعب واللهو" مزية على قولنا: ما الحياة إلا فانية، ذلك أن الوصف القرآني لم يكن يحمل معنى الفناء السريع للحياة الدنيا فحسب، إنما حمل معنى آخر دعا إليه حال المخاطبين؛ وبيان هذا أنه لما عظمت الدنيا في أعين الكفار قصرت على "اللعب واللهو"؛ للتقليل من شأ ا والحط من مكانتها، فهي مهما بلغت...لن تتجاوز هذا الوصف القرآني.

وقدم "اللعب" على "اللهو" وفي سبب ذلك يقول "البقاعي": لما كان السياق للخسارة، وكانت أكثر ما تكون من اللعب، الذي ينقضي سريعاً، ولا طائل وراءه، قدم على اللهو. وفي تأخير "اللهو" إشارة إلى أن الجهلة كلما فتروا في اللعب...أثاروا شهوا م بالملاهي(٢). أو لأن اللعب زمانه الصبا، إنما اللهو زمانه الشباب، فقدم على زمان الشباب(٣) ، أو لما كان الكلام مسوقاً للرد على الكفرة فيما يزعمونه من إنكار الآخرة، وليس في اعتقادهم إلاّ ما عجل لهم من المسرة بزخرف الدنيا الفانية قدم اللعب الدال على ذلك، وتمم باللهو(٤).

وقوله: (وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لتأكيد معنى الجملة السابقة(٥)، وصدرت بلام الابتداء؛ لتأكيد الخبر الذي حملته؛ وهو أن الدار الآخرة خير من الدنيا، وأن هذه الخيرية لا ينالها إلا الذين يتقون الشرك والشر(٦). والجملة فيها قصر؛ وقع بطريق تقديم ما حقه التأخير، ومعناه أن الدار الآخرة مخصوصة بالخير للمتقين دون الدار الدنيا، من قبيل قصر موصوف وهي الدار الآخرة على صفة

(١) التفسير الكبير. (٥١٥/٤).
(٢) ينظر : نظم الدرر. (٩٢/٧) وما بعدها.
(٣) ينظر : البرهان في متشابه القرآن. (١٦٩).
(٤) روح المعاني. (١٢٦/٤) بتصرف.
(٥) ينظر : إعراب القرآن وبيانه. (٩٩/٣).
(٦) ينظر : معالم التن يل. (٩٣/٢)، و: التفسير الكبير. (١٥٧/٤)، و: أيسر التفاسير. (٥١/٢).

وهذا من فضل الله ورحمته. وخرج الاستفهام عن معناه الأصلي في قوله: (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) إلى الإنكار والتوبيخ؛ ذلك أن إقبالهم على الفاني وتركهم الباقي ليس من تصرف العقلاء... فكان أن أنكر عليهم هذا[١]. والمعنى: أفليس لكم عقل ـ أيها المكذبون ـ حتى تعلموا أن الباقي خير من الفاني؟!. فلو عقلتم لكان هذا زاجراً لكم عن الركون إلى الدنيا[٢] .

وقال تعالى:(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام:٣٦].

هذه الآية مستأنفة مسوقة لتأكيد أن عدم استجابة الكفار ناشئ عن وجود الأكنة على قلو م، والوقر في آذا م[٣] . وفصلت عما قبلها وهو قوله: (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[الأنعام:٣٥]؛ لما بينهما من كمال انقطاع.

وفي قوله:(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [٤] والمعنى: لا تحفل ـ يا محمد ـ بمن لم يستجب لدعوتك، ولا يعظمن عليك إعراضه، فإنه لا يستجيب لداعي الإيمان إلا الذين فتح الله أسماعهم لتلقي الحق، ويسر لهم اتباع الرشد، لا من ختم الله على سمعه، والكفار موعدهم يوم القيامة، ثم إلى الله يرجعون جميعاً مؤمنهم وكافرهم ؛ ليجازيهم [٥].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير. (١٩١/٦).
(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٧٩/٥).
(٣) ينظر : إعراب القرآن وبيانه. (١٠٤/٣).
(٤) ينظر : المحرر الوجيز. (٤٥/٦).
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (١٨٤/٥-١٨٥)، و:المحرر الوجيز. (٤٥/٦) و: تيسر الكريم الرحمن. (٣٩٤/٢).

وأثبتت الاستجابة للذين يسمعون، ونفيت عمن لا يسمع، وذلك في قوله: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) وهذا المعنى عقله المتلقي دفعة واحدة في حال واحدة وهذا من مزايا "إنما"[١].

والقصر من قبيل قصر الصفة على الموصوف، قصراً حقيقياً. ولما كان الحكم هنا واضحاً، لا يجهله المخاطب، ولا ينكره أتي بـ "إنما" لإثباته. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى وضوحه بقوله: فكل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له، وما يدعى إليه، وفي المقابل فإن من لم يسمع ويعقل لن يستجيب[٢]!. ولكن هل هذا وحده هو السر البلاغي في إيثار القصر بـ "إنما"؟!. لا بل يضاف إليه ما استأثرت به "إنما" من مزية دون بقية طرق القصر؛ وهي التعريض؛ وبيان ذلك أن الغرض من قوله: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ)ليس أن يقف المتلقي على ظاهر معنى الجملة؛ وهو استجابة الذين يسمعون فحسب، إنما ليفهم ـ أيضاً ـ أن الكفار لعنادهم، وتماديهم في الضلال، واتباع الهوى هم في حكم من لا يسمع...، وأن من يطمع في أن يستجيبوا، كان كمن طمع في هذه الاستجابة ممن لا يسمع حقيقة... وهذا ذم للكفار بألذع الوجوه...! ويلحظ أن المعنى الملوح إليه بالتعريض هو الأهم في الجملة، ولو رفعت "إنما منها، لزال عنها هذا المعنى [٣].

و"السماع" الوارد في الآية؛ هو سماع إصغاء، وتفهم، ورغبة في الحق، وأصحابه هم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون، ويعملون به [٤].

وفي قوله: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) قال جمهور علماء التفسير: إن المراد بالموتى في هذه الآية؛الكفار؛ وذلك لدلالة الآيات، كقوله تعالى:(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام:١٢٢]،

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز. (٣٣٥) .

(٢) المرجع السابق (٣٣٠ – ٣٣١) بتصرف.

(٣) ينظر : السابق (٣٥٤).

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن. (٤١٨/٦).

وقوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَ لَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ **) [فاطر: ٢٢]...وغيرها[١]. وقال أبو حيان: جاءت كلمة "الموتى" عامة؛ لأن الحصر السابق يشعر بالقسم الآخر؛ وهو أن من لا يسمع سماع قبول...لا يستجيب للإيمان وهم الكفار[٢].**

وعطف (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ**) على ما قبلها تضمن تعريضاً بأن هؤلاء كالأموات لا ترجى منهم استجابة، كأنه قيل: إنك لا تسمع الموتى[٣] . والجملة استعارةتصريحية، فقد شبه الذين لا ينتفعون بعقولهم وحواسهم فيما يرضى الله بالموتى، و"يبعثهم" حقيقة، وهوترشيح للاستعارة؛ لأن البعث من ملائمات المشبه به[٤]، وهذا الأسلوب من باب الازدراء والتهكم م[٥] . وقدم المفعول به "الموتى" على عامله للتوكيد وتقوية الحكم؛ وهو حقيقة البعث.**

وفي قوله تعالى:(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) [الأنعام:٣٦].قصر بتقديم ما حقه التأخير، فقد قدم الجار وا رور على عامله "ترجعون"، والأصل ـ في غير القرآن ـ: ثم ترجعون إليه، لكن قدم الجار وا رور لقصر الرجوع ـ بعد البعث ـ إلى الله وحده. وهو قصر صفة "الرجوع" على موصوف "الله" قصراً حقيقياً. وأفاد القصر هنا تأكيد حقيقة البعث، والرجوع إلى الله، ففيه ديد للكفار المكذبين، ووعيد لهم، وفيه ـ أيضاً ـ تثبيت للمؤمنين، الذين استجابوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دعاهم لما يحييهم، والذين آمنوا بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.**

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. (١٦٩/٢) بتصرف.

(٢) ينظر: البحر المحيط. (١١٧/٤).

(٣) التحرير والتنوير. (٢٠٨/٦) بتصرف.

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٥) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (١٢٤/٢).

ومن شواهد القصر بالتقديم ـ أيضاً ـ :

قوله تعالى:(قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [الأنعام:٤٠] .

والجملة استئناف ابتدائي يتضمن تهديداً بالوعيد، وافتتح بالأمر بالقول اهتماماً بالمقول[1].

و(أَرَأَيْتُكُم)؛ أي أخبروني[2]. والمعنى: أخبروني إن جاءكم عذاب الله قبل الموت برجفة أو صاعقة...، أو جاءتكم الساعة، وبعثتم لموقف القيامة، أغير الله ـ في تلك اللحظات العصيبة ـ تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء إن كنتم صادقين في زعمكم أن آلهتكم التي تدعونها تنفع أو تضر[3] .

والشاهد البلاغي في الآية قوله تعالى: (أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ) . ففيه قدم ما ولي الهمزة "غير الله" على عامله "تدعون"؛ فصارت الجملة المستفهم عنها جملة قصر[4]. فكأنه قيل: أتخصون آلهتكم بالدعاء ـ فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر ـ أم تدعون الله دونها...؟![5] . وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً تحقيقاً. وقد أضاف تصدر همزة الاستفهام لجملة القصر معنى آخر؛ جاء من خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي؛ وهو تبكيتهم وإلجائهم إلى الإقرار بالجواب[6] . فتم بهذا الاحتجاج على الكفار الجاعلين لله شركاء[7].

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

---

(١) التحرير والتنوير. (٢٢١/٦) بتصرف.

(٢) ينظر معاني القرآن. (٣٣٣/١).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٠/٥)، و: معالم التنزيل (٩٦/٢).

(٤) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٢٤/٦).

(٥) ينظر : الكشاف. (١٣/٢).

(٦) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: حاشية زادة. (١٦٥/٢).

(٧) ينظر: المحرر الوجيز. (٤٩/٦).

في قوله:(أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ)؛ قال تعـالى:(أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ) بإعادة الفعل، مع كون حرف العطف مغنياً عن إعادة العامل، فكـان يصح أن يقال ـ في غير القرآن ـ:"إن أتاكم عذاب الله، أو الساعة" فما الـسبب يـا ترى في هذه الإعادة؟!. قيل: إن هذا من قبيل الإظهار في موضع الإضمار، والسر فيـه ـ والله أعلم ـ الاهتمام بالمظهر؛ وذلك لتهز السامع؛ ولتقذف في نفسه الروع عنـدما تطرق سمعه مرة أخرى[(١)] .

وفي إضافة العذاب إلى اسم الجلالة "عذاب الله"؛ ويل من شأن هذا العذاب، الذي يأتي من الله العظيم، فلما كان عذاباً من عظيم، فعذابه ـ حتماً ـ سيكون عظيماً... وفي هذا ـديد لهم وإنذار[(٢)] .

وقوله:(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) تذييل لما سبق أفاد تأكيد التبكيت، الذي في جملـة القصر؛ "أغير الله تدعون"[(٣)]

وبعدها يرد عليهم ـ سبحانه ـ مكذباً لهـم، بقوله:(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) [الأنعام: ٤١].

والمعنى: بل تدعون هناك ربكم خالقكم، وإليه تفزعون، دون كـل شـيء غـيره، فيفرج عنكم عند تضرعكم إليه، ما نزل بكم من بلاء إن ما شاء ذلك؛ لأنه القادر على كل شيء، دون أصنامكم، التي تنسو ـا لحظة محنتكم [(٤)].

والشاهد في قوله:(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ)، و"بل" حرف إضراب وانتقال إلى معنى آخر دون أن يبطل ما تقدم؛ لأن هذا لا يكون في كلام الله ـ تعالى ـ[(٥)] .

---

(١) التحرير والتنوير. (٦/٢٢٣) بتصرف.

(٢) ينظر : المرجع السابق. (٦/٢٢٤).

(٣) فتح القدير. (٢/١١٥) بتصرف .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/١٩٠).

(٥) حاشية زادة. (٢/١٦٥) بتصرف.

وبتقديم "إياه" على عامله وقع القصر[١]؛ أي:"بل تخصونه بالدعاء دون الالهة "[٢]. وهو قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً؛ لأن دعاءهم الله عند الشدائد دون سواه حقيقة يشهد الواقع ا.

ومن الأسرار البلاغية في الآية:

عطف قوله:(فَيَكْشِفُ) على (تَدْعُونَ) [٣]، وقد قدم الكشف ـ مع تـأخره ـ على النسيان، وعلى الدعاء ـ أيضاً ـ؛ إذ أصل الكلام. ـ في غير القرآن ـ: بل إياه تدعون، وتنسون ما تشركون، فيكشف ما تدعون إن شاء. ولعل السر في هذا التقـديم لإظهار كمال العناية بشأن الكشف، والإيذان بترتبة على الدعاء خاصة[٤] ، وفيـه ـ أيضاً ـ؛ إطماع في رحمة الله لعلهم يتذكرون[٥].

وهذه الآية من باب استدراج الخصم؛ وهو أن يلين المتكلم الخطاب، ويمزجه بنـوع من التلطف والتعطف حتى يوقع المخاطب في أمر يعترف به، فتقوم الحجة عليه، والله ـ تعالى ـ خاطب هؤلاء الكفار بلين من القول، وذكر لهم أمراً لا ينازعون فيـه؛ وهـو كو م يدعون الله وحده إذا وقفوا في المحن [٦] . وخطاب الفطرة الإنسانية ذه العقيدة من الوسائل القرآنية التي استخدمت في إثبات توحيد الألوهية[٧].

ومن شواهد القصر بطريق النفي والاستثناء :

قوله تعالى:(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الأنعام:١٠٢].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير. (٢٢٤/٦) .
(٢) الكشاف. (١٣/٢).
(٣) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٢٥/٦).
(٤) إرشاد العقل السليم. (١٢٣/٣) بتصرف.
(٥) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٢٥/٦).
(٦) ينظر : البحر المحيط. (١٢٨/٤).
(٧) في ظلال القرآن. (١٠٨٧/٢).

لما ثبت أن إله العالم فرد صمد، منزه عن الشريك والند، ومنزه عن الولد[1].. صرح هنا بالنتيجة؛ فقال:(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) ولا تعبدوا أحداً غيره.[2] . فعبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض لا بد أن تكون خالصة له بغير شريك. وهذا تكذيب من الله – جل ثناؤه – للذين زعموا أن الجن شركاء الله، فلا شيء له الألوهية والعبادة إلا الذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم[3].

والشاهد في قوله:(لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ) ؛ فقد قصرت في هذه الآية الألوهية الحقة على الله دون سواه، فهي ثابتة له – سبحانه – منفية عن غيره، والقصر من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً، ومعنى الجملة : لا معبود بحق إلا الله.

ويحتمل أن يكون القصر هنا إضافياً[4]؛ أي بالنسبة إلى المعبودات الباطلة، وهي الأصنام والأوثان – التي عبدت بتحريض من الجن –، وهو قصر إفراد، رداً على من اعتقد شركتها مع الله في الألوهية. والمخاطبون بـ لا إله إلا الله "هنا" لا يعتقدون شركة كل ما عدا الله – تعالى – معه في الألوهية حتى يكون القصر قصراً حقيقياً، إنما هم يعتقدون شركة الأوثان والأصنام؛ فالمعنى: الألوهية مقصورة على الله لا تتجاوزه إلى الأصنام والأوثان.

وثمة احتمال ثالث في بيان القصر؛ في هذه الجملة؛ فإذا قدر الخبر المحذوف في قوله:(لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ) بـ "موجود" أي: لا إله موجود إلا هو، فالقصر سيكون إضافياً؛لأن الواقع يمتلئ بالموجودات، التي تتخذ إلهة من دون الله، ولو نظر في واقع مشركي العرب، لوجد الناظر، أنهم عبدوا الحجر، والشجر، والصنم، ومنهم من صنع له من عجوة التمر تمثالاً فعبده... وغير ذلك، فتأتي جملة القصر؛ لتفرد الله – جل وعلا – بالألوهية، والله تعالى أعلم. ولعل السياق يحتمل التوجيه الأول والثاني على حد سواء؛

---

(١) للوقوف على هذا ينظر : سورة الأنعام (١٠٠ – ١٠١)

(٢) التفسير الكبير. (٩٤/٥) بتصرف.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٤/٥) بتصرف.

(٤) ينظر في هذا: حاشية الدسوقي على حاشية السعد. ضمن شروح التلخيص. (١٧٥/٢).

ولعل السر في اختيار هذا الطريق في إثبات هذا الحكم؛ لأن قضية الألوهية من القـضايا المتنازع فيها؛ ففيها إنكار ومجا ة، والمشركون في هذا السياق يزعمون أن لله شركاء ـ تعالى الله عما يقولون ـ؛ قال تعالى:(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ)[الأنعـام: ١٠٠]، فكان هذا الطريق"النفي والاستثناء"؛ لقوته ليدفع هذه المزاعم، مع ما فيه مـن إيجاز.

ومن يتأمل في نظم الآية، والترتيب الذي انتظمت فيه جملـها؛ لتقريـر التوحيـد، وإظهار فساد الشرك، تأخذ براعة ذلك كله بمجامع قلبه، فلا طريق أوضح، ولا أصلح من هذا النظم؛ لتقرير هذه الحقيقة[1]. فالآيـة تـستفتح بقولـه:(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ) ، و(ذَلِكُمُ) الإشارة فيه إلى الموصوف بما تقدم من عظيم الصفات[2]، التي من جملتها خلقه السموات والأرض، وإبداعه لهن، وأنه خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم[3] .واختير "ذلكم"؛ لما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو شأن المشار إليه، وبعد م لته في العظمة[4]. وفيه ـ أيضاً ـ تنبيه على أن المشار إليه حقيق بالأخبار والأوصاف، التي ستأتي بعد اسم الإشارة[5] .

والقوم ـ أعني المخاطبين ـ كانوا يقرون بأن الله ـ جل ثناؤه ـ موجـود؛ قـال تعالى:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [لقمان:٢٥]، كما أ م لم يطلقوا لفظ الجلالة "الله "على أحد سوى الله ـ سبحانه ـ ؛ فلذا قال:(ذَلِكُمُ اللّهُ) [6] ؛ أي: الذي تقرون بوجوده، الخـالق، الـرازق، المتصرف، المالك... هو "ربكم"؛ أي: المربي، المحسن إليكم بجميع وجوه الإحسان[7] .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير. (٩٤/٥).

(٢) الكشاف. (٣٢/٢) بتصرف.

(٣) الفتوحات الإلهية. (٧١/٢) بتصرف.

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم. (١٦٩/٣).

(٥) التحرير والتنوير. (٤١٢/٧) بتصرف.

(٦) التفسير الكبير. (٩٧/٥) بتصرف.

(٧) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: نظم الدرر. (٢١٨/٧).

وقد تضمنت هذه الجملة توحيد الربوبية، وهم كانوا يؤمنون بهذا النوع من التوحيد...، فقدمه على ما كفروا به تدرجاً معهم في إثبات التوحيد الخالص لله. وأضيفت كلمة "رب" إلى ضمير المخاطبين، العائد على المشركين ؛ ليكون أثر هذا الخبر في أنفسهم أشد واقعاً؛ فهم إذا سمعوه يقول :(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ) علموا أنهم هم المخاطبون، وأنهم من تفضل عليهم الله بالرعاية، والإحسان، والرحمة... عندها تهدأ نفوسهم وتطمئن، وتميل قلوبهم لتلقي وسماع بقية الخبر.

وقبل أن يزول هذا الأثر...يصرح ـ سبحانه وتعالى ـ بالحقيقة الخالدة، بجملة قصر، اجتمع فيها التأكيد والإيجاز مع أقوى أدوات القصر؛ بقوله تعالى:(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) وهذا " يعني أنكم لما عرفتم وجود الإله المحسن، المتفضل...فاعلموا أنه لا إله سواه، ولا معبود سواه"[1] .

وبعدها قال:(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) فسيق قوله :(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) مساق السبب لما بعدها؛ وهو قوله:(فَاعْبُدُوهُ)، فإذا تقرر أنه خالق كل شيء في هذا الوجود، فهو المستحق ـ وحده ـ لأن تصرف له العبادة الخالصة، وهذا هو المقصود من خلق العباد؛ قال تعالى:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[الذاريات:٥٦] .[2]

ويلحظ في هذه الآية تقدم جملة القصر "لا إله إلا هو" على قوله:(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ، بينما في موضع آخر تقدم قوله :(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) على قوله:(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) وذلك في سورة غافر؛ قال تعالى:(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢))، فما وجه هذا التقديم والتأخير...؟!.قال صاحب "ملاك التأويل" في ذلك:

إن آية "الأنعام" لما تقدم فيها قوله:(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)[الأنعام: ١٠٠]، وقوله:(أَنَّىٰ

---

(١) التفسير الكبير. (٩٧/٥).

(٢) ينظر : نظم الدرر. (٢١٨/٧-٢١٩)، و: تيسير الكريم الرحمن. (٤٤٦/٢).

يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ) [الأنعام:١٠١]كان الملائم أن ينفي ما جعلـوه، وادعوه من الشركاء ، والصاحبة، والولد؛ فلذلك قدم ما فيه وحدانيتـه ــ سبحانه ــ، وتعاليه عن الشركاء، والولد؛ فقال:(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) ، وبعدها عرف العباد أن كل مـا سواه ـ سبحانه ـ خلقه وملكه، فقدم الأهم في هذا السياق.

أما آية "غافر" فقد تقدمها قولـه:(لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[غافر:٥٧]، ثم قولـه:(اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا (٦١))، فلم يتقدم هنا ما تقدم في آية "الأنعام" بـل تقدم ذكر الخلق الأعظم؛ فلذا أُتبع بالتنبيه على أنه خالق كل شيء، ثم أعقب بوحدانيته ـ تعالى ـ، فأتى النظم القرآني وفق ما يقتضيه السياق[1] ، وهنا تظهر براعة البلاغـة القرآنية.

وختمت الآية بقوله:(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)؛ أي: أن جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره، وحفظه، يصرفها بقدرته ـ تعالى ـ[2]، فالله ـ عزوجل ـ هو وحده المـستحق للعبادة ، وهو خالق كل شيء، وكل شيء تحت تدبيره وتصرفه... فبعد هذا كله أيـن تذهبون أيها المشركون المعاندون؟!

وقدم في الجملة قوله:(عَلَى كُلِّ شَىْءٍ) على "وكيل"؛ ولعـل الـسر في هـذا التقديم، أنه لما كان المقام لنفي احتياجه ـ سبحانه ـ إلى شيء، قدم ما قدم؛ إشارة إلى أن الوالد، أو الشريك إنما يحتاجه العاجز المفتقر، أما هو فهو القادر وما سواه عاجز، والغني وما سواه فقير...فكيف يحتاج القادر الغني إلى الفقير العاجز... هذا مما لا يكون[3] .

(١) ينظر : ملاك التأويل. (٤٦٨/١).

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن. (٢٩٤/٥)، و: تيسير الكريم الرحمن. (٤٤٦/٢).

(٣) نظم الدرر. (٢١٩/٧) بتصرف.

ومن شواهد القصر بـ "إنما" :

قوله تعالى:(وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام:١٠٩]

وقد اشتملت هذه الآية على شبهة من شبهة الكافرين؛ وهي قولهم: إن هذا القرآن ليس من جنس المعجزات ألبتة، فلو جئتنا ـ يا محمد ـ بمعجزة قاهرة لآمنا بك ، وبالغوا في تأكيد ذلك الحلف، فجاءت هذه الآية تقرر شبهتهم تلك[١].

والشاهد في قوله:(إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ) وقد رد ـ سبحانه ـ بهذه الآية على الشبهة السابقة. وأتى التعبير القرآني باستخدام "إنما" لتفيد قصر مجيء الآيات على الله دون سواه، لأنهم كانوا يعتقدون أن النبي، الذي يبعث بإمكانه أن يحقق المعجزات القاهرة، ويأتي بالآيات الخارقة؛ لأنه يمتلك قدرات فوق قدرات البشر. ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي ـ أو هكذا يزعم في نظرهم ـ، فلا بد إذاً أن يمتلك هذه المزية، فجاء قوله تعالى:(إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ) لترد عليهم اعتقادهم الفاسد[٢] ، ولتؤكد لهم أن ما يطلبونه ليس عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولا في مقدوره، بل عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده.

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

المجاز العقلي في قوله:(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)؛ فالمجاز العقلي كما يكون في الإسناد، يقع ـ أيضاً ـ في النسبة الإضافية[٣] . وهنا أضيف المصدر إلى مفعوله[٤] . فهم بذلوا في أيمانهم جهدهم حتى كأنها هي جاهدة، ولعل هذا لبيان مدى ما بلغوه في تأكيد استعدادهم للإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هو أتى بما طلبوه. وكانوا يقسمون بأبنائهم،

---

(١) ينظر : التفسير الكبير. (١١١/٥)

(٢) ينظر : التحرير والتنوير. (٤٣٦/٧).

(٣) ينظر : جواهر البلاغة. (٣٢٥).

(٤) ينظر : إعراب القرآن. (١٩٦/٣).

وأنفسهم، وآلهتهم فإذا كان الأمر عظيماً أقسموا بالله؛ وذلك لأ م يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن عباد م لهذه الآلهة تقر م إلى الله زلفى[١] . وشركهم هذا هو الـذي أرداهم.

وفصلت جملة: "لئن جاء م آية ليؤمن ا " عن جملة :"وأقسموا بالله جهد أيما م"؛ لما بينهما من كمال اتصال؛ فالجملة الثانية "لئن جاء م آية" نزلت م لـة البيـان مـن الأولى. وقد يكون سبب الفصل هو شبه كمال الاتصال؛ فكأنه قيل: ما حقيقة قسمهم؟ أو ما صورته؛ فكان الجواب:(لَئِن جَاءتْهُمْ ....) .

واللام في قوله:(لَئِن)؛ هي اللام الموطئة للقسم[٢] ؛ وهذا يشير إلى قسم محذوف؛ تقديره : نقسم بالله لئن جائتنا آية لنصدقن بك[٣] ، وهذا من قبيل الإيجـاز بالحـذف؛ والسر وراء تأكيدهم لقولهم ذا القسم، وبنون التوكيد الثقيلة؛ لكي يقتلعوا ذا الكلام جذور الشك من صدور المؤمنين؛ وليبثوا في نفوسهم ـ أعني نفوس المؤمنين ـ صـدق عزمهم على الإيمان، فإذا لم تقع هذه الآية المنشودة...، التمسوا لأنفسهم العذر في عدم إيما م أمام من شهد...، ولا عذر لهم عند الله تعالى.

ونكرت "آية" للدلالة على أ م يريدون أي آية، على أي صورة كانت...؛ لتؤكـد صحة رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٤]

ويلحظ في هذه الجملة دقة التعبير القرآني؛ فقد قُيد المـسند في (لئن جاءتهم آية) بـ"إن" دون "إذا"، وذلك للطيفة بلاغية تتكيء على الفرق بين هاتين الأداتين؛ فـ"إن" الأصل فيها، أ ا تكون في الشرط غير المقطوع بوقوعه، بينما "إذا" الأصل فيها أن تكون في الشرط المقطوع بوقوعه[٥]. و"إن" لا تقع في كلام الله ـ تعالى ـ على الأصـل إلا

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن. (٦٢/٢)، و: الفتوحات الإلهية (٧٦/٢).

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (١٢٧/٦).

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن (٣٠٦/٥) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير. (٤٣٥/٧) بتصرف.

(٥) ينظر: الإيضاح. (٩٦).

حكاية [١]، كما هنا؛ فهم قرنوا إيما م بمجيء الآية، التي يوحى التعبير القرآني ترجيحهم عدم مجيئها بدلالة استخدام " إن". فالتقييد بإن يكشف أ م ما طلبوا الآيات إلا تعنتـاً ؛ لأ م على يقين بأن الآية التي طلبوها لن تجيء؛ والسبب في هذا اليقين بأن الآيات، التي نزلت على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ـ . آيات بينات لا يرتاب فيها مرتاب، وهي تخـرق أعينهم صبحاً ومساء...، لكنه الكبر، والحسد، والعناد. والذي يظهر أن إقسامهم بـالله ما هو إلا رغبة منهم في إيهام المؤمنين بصدق نيا م لكن ـ كما قال الله تعالى عنـهم ـ :(إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَانَ لَهُمۡ) [التوبة:١٢]، فكان أن رد الله عليهم، قاطعاً معذر م بقوله:(إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ) .

وقوله:(وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ) كلام مستأنف؛ لبيان السبب في عدم مجيء الآيات[٢]. والمعنى: أنا أعلم أ ا إذا جاءت لا يؤمنون وأنـتم لا تـدرون هذا[٣] . والله تعالى يقول:(إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ) [يونس: ٩٦- ٩٧] .

وفي قوله:(إِذَا جَآءَتۡ) أتي بـ"إذا" لا "إن"؛ وهذا لزيادة التشنيع عليهم[٤]؛ لأن الله يعلم أن الآية لو جاء م، لن يؤمنوا ...؛ لأ م ما طلبوها رغبة في الهدى والرشاد، إنمـا تعنتاً منهم، واعتراضاً، ومماطلة في قبول الحق الذي لا أوضح منه.

---

(١) ينظر : شرح السعد . من شروح التلخيص. (٣٩/٢).
(٢) إرشاد العقل السليم. (١٧٣/٣) بتصرف.
(٣) الكشاف. (٣٤/٢) بتصرف.
(٤) روح المعاني (٢٤٠/٤) بتصرف.

الفصل الثالث

خصائص الجمل

١- الفصل والوصل

٢- الحالية

٣- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

٤- الإيجاز

٥- الإطناب

المبحث الأول

الفصل والوصل

الفصل والوصل

توطئة :

يعد الفصل والوصل من أدق الأساليب البلاغية ، بل إن بعض العلماء قصر البلاغة على معرفة الفصل والوصل ؛ فمن ذلك ما ذكره الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين": "قيل للفارسي ما البلاغة؟! قال: معرفة الفصل والوصل"[١]. وما ذاك إلا لغموضه، ودقة مسلكه، وأن أحداً لا يكمل فيه إلاّ كمل في سائر فنون البلاغة [٢]

تعريف الفصل والوصل :

"هو العلم بمواضع العطف،والاستئناف ،والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها"[٣].ويعرفه القزويني قائلاً:"الوصل: عطف بعض الجمل على بعض،والفصل تركه"[٤] .ووصل الجمل عطف بعضها على بعض بالواو،أو بغيرها من حروف العطف[٥]. والذي سار عليه علماء البلاغة أن العطف خاص بالواو، دون غيرها من حروف العطف. وبالجمل التي لا محل لها من الإعراب؛لأن دقة الوصل والفصل إنما تظهر في ذلك[٦].

---

(١) البيان والتبيين (٨٨/١) .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز . (٢٢٢) .

(٣) حسن التوسل لصناعة الترسل (١٥٨) .

(٤) الإيضاح . (١٤٩) .

(٥) علوم البلاغة (١٦٣) بتصرف.

(٦) ينظر: بغية الإيضاح (٦٢/٢). لكن هذا لا يعني أن بقية حروف العطف لا قيمة لها في الدراسة البلاغية؛ وأن معانيها قاصرة على ما وضعت له في علم النحو. كما أنه ليس من الصواب قصر العطف على الجمل دون المفردات على أساس أن العطف على المفردات، إنما يفيد التشريك..ولا أسرار بلاغية ترجى من وراء ذلك؛ فهذا الحكم فيه من الجمود ما فيه، والقرآن خير شاهد على ذلك، فكما عطف فيه على الجمل عطف على المفردات، أو فصل بينها، وكل ذلك لم يأت عبثاً، إنما كان لأسرار بلاغية يتوارى كثير منها خلف قول أهل البلاغة: إن العطف وتركه خاص بالجمل التي لا محل لها من الإعراب!.

مواطن الفصل والوصل:

قُسِّمَ الفصل والوصل إلى ستة مواطن ، وذلك على النحو التالي:

أولاً :

مواطن الفصل :

١ ـ أن يكون بين الجملتين **كمال اتصال، وكمال الاتصال يكون لأمور ثلاثة؛ هي:**

الأول : أن تكون الجملة **الثانية مؤكدة للأولى.**

الثاني **: أن تكون الثانية بدلاً من الأولى .**

الثالث : أن تكون الثانية بياناً للأولى[١]**.**

٢ ـ أن يكون بين الجملتين **شبه كمال اتصال :**

وذلك بأن تكون الجملة **الثانية** بمنزلة **الجواب عن سؤال مقدر ، تضمنته الجملة الأولى ، فتنزل منزلته ، وتفصل الثانية عنها ، كما يفصل الجواب عن السؤال الحقيقي**[٢] **ويسمى هذا النوع "استئنافاً بيانياً "**[٣]**. وذكر البلاغيون أن السؤال المقدر** في **شبه كمال الاتصال ، يأتي على ثلاثة أضرب :**

الأول : أن يكون السؤال عن سبب عام.

الثاني : أن يكون السؤال عن سبب خاص .

الثالث : أن يكون من غير سبب . ويضم هذا الضرب الحوارات المبدوءة بـ "قال".[٤] **ومن بلاغة هذا النوع "الإيجاز" ؛ فكما قيل إن الجملة الأولى تثير سؤالاً** في **نفس المخاطب، والثانية تكون جواباً لذلك السؤال المقدر؛ فالمتكلم** لم **ينتظر صدور هذا**

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ((٢٢٧)،: والإيضاح (١٥٢) وما بعدها .

(٢) ينظر : الإيضاح (١٥٦) .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز (٢٣٥) .

(٤) ينظر : الإيضاح (١٥٦).

السؤال من المخاطب، بل قدره وأجاب عنه ؛ لأنه لو انتظر إلى أن يسأله المخاطب لطال به المقام والبلاغة في الإيجاز . و ذه الطريقة يجعل المتكلم كلامه متصلاً، غير مقطوع بسؤال المتلقي[1].

٣ ـ أن يكون بينهما كمال انقطاع بلا إيهام ، وله صورتان :

الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء،لفظاً ومعنى فقط.

الثانية : ألا يكون هناك جامع بين الجملتين المتفقتين في الخبرية أو الإنشائية[2].

٤ ـ شبه كمال الانقطاع :

وهو أن تكون الجملة الثانية بم لة ما يعطف على الأولى،لكن عطفها عليها يوهم أ ا معطوفة على غيرها، فتفصل لدفع هذا الإيهام. ويسمى هذا النوع "قطعا"[3]. ومثاله قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً،أراها في الضلال تهيم

فجملة "أراها" يصح عطفها على جملة "تظن"؛ لوجود تناسب بين الظن والرؤيا، ولكنها قُطعت، ولم تعطف؛ لئلا يتوهم السامع أ ا معطوفة على "أبغي"، فيعد "أراها في الضلال يم" من مظنونات سلمى، وحينئذ يفسد المعنى المراد، إذ المعنى المراد هو الحكم على سلمى بأ ا أخطأت في ظنها[4].

ثانياً:

مواطن الوصل:

---

(١) مفتاح العلوم (٢٥٢) بتصرف .

(٢) ينظر الإيضاح (١٥١) وما بعدها، و:البلاغة فنو ا وأفنا ا "علم المعاني" (٤١٨).

(٣) الإيضاح (١٥٥) بتصرف.

(٤) ينظر : مفتاح العلوم. (٢٦١) وحاشية الدسوقي(٥٠/٣) .

١- أن يكون بين الجملتين كمال انقطاع مع إيهام. فيتعين الوصل؛ لدفع إيهام خلاف المقصود(١) . ويتضح هذا النوع في الجمل الدعائية الواقعة بعد الخبر، كقولك:"لا، وعافاك الله".

٢- التوسط بين الكمالين؛ أي لا يكون بين الجملتين اتصال كامل، ولا انقطاع كامل، وهو ضربان :

الأول : أن تتفقا خبراً ، أو إنشاء ، لفظاً ومعنى .

الثاني : أن تتفقا معنى لا لفظاً (٢) .

وفي هذا المبحث سأنتقي ـ بإذن الله ـ بعض آيات الفصل والوصل، وأستجلي شيئاً من أسرارها البلاغية عامة، وأسرار الفصل والوصل خاصة ما استطعت لذلك سبيلا. على أني لن أعرض لآيات الفصل منفردة عن آيات الوصل، وإنما سأذكر آيا ما متصلة، مشيرة إلى ما فيها من فصل ووصل؛ لأنه لا يمكن التعرف على سر فصل أو وصل أي جملة دون النظر إلى ما قبلها، وما قبلها إما جملة موصولة أو مفصولة ... وهكذا، فالفصل بينهما في الدراسة لا يفيد، بل قد يكون متعذّراً؛ للتداخل الواقع بين الجمل؛ فصلاً ووصلاً.

ومن الشواهد قوله تعالى حكاية عن المشركين :

(وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) [الأنعام :٢٩]. إن قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية، التي جاء ا الدين الإسلامي، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية. والتي لا يقوم هذا الدين. عقيدة وتصوراً. وخلقاً وسلوكاً، وشريعة ونظاماً- إلاّ عليهما و ا(٣). إلا أن الذين كفروا ما آمنوا ذه القضية، بل كان لهم تصور آخر يظهر واضحاً في هذه الآية، كان سبب بلائهم ومحنتهم، وإقدامهم بجرأة غريبة على الشرك، ومحاربة التوحيد

(١) الإيضاح(١٥٨) بتصرف .

(٢) المرجع السابق.الصفحة نفسها، وما بعدها . بتصرف .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٦٨/٢).

والموحدين. إنه الكفر بالبعث والجزاء إذ قالوا ما أخبر الله به عنهم :(وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ)(١) .

(وَقَالُوٓاْ) عطف على "لَعَادُواْ " في قوله: (بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ).[الأنعام:٢٨]؛ أي: لو ردوا، لكفروا، ولقالوا: (إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا).كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة(٢) . وعطفها على "لَعَادُواْ " هو القول الذي عليه الجمهور(٣) .

ولتقوية قولهم استخدموا أسلوب القصر؛ فقد قصروا الحياة التي يحيو ا على حيا م الدنيا فقط، فلا حياة لهم غيرها.وأرادوا ذا القصر الإضافي "الإفراد"؛ لأن المخاطبين ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولياؤه ـ يعتقدون بأن المرء يحيا حياتين إحداهما الدنيا، ثم يموت بعدها، ويبعث حياة أخرى، هي الحياة الآخرة ... فيها يكون الحساب والجزاء. لكن منكري البعث هبوا لينفوا ذلك كله، ويفردوا الحياة " ٱلدُّنۡيَا " بالحكم؛فهي حيا م ولا حياة لهم غيرها. وقد اجتمع لهم في هذا الأسلوب "التأكيد" و "الإيجاز".

وقوله :(إِنۡ هِيَ) " إنْ " نافية بمعنى "ما" والضمير بعدها مبهم يفسره ما بعد الاستثناء المفرع. قصد من إ امه الإيجاز اعتماداً على مفسره(٤). وهو عائد على الحياة(٥).

---

(١) ينظر : أيسر التفاسير (٤٩/٢).

(٢) ينظر : الكشاف (١٠/٢)

(٣) ينظر : روح المعاني (١٢٣/٤) .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٨٧/٦).

(٥) ينظر:روح المعاني (١٢٤/٤) وقد نصوا على صحة عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، وذلك إذا كان خبر الضمير مفسراً له كما هنا. ينظر: المرجع السابق . الصفحة نفسها.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ أي بعد الموت[١]. إلى الحشر والجزاء[٢]. وإذا كانت الجملة السابقة دلت على نفي البعث بما تضمنته من الحصر، فأ م هنا صرحوا بالنفي المحض الدال على عدم البعث بالمنطوق، وأكدوا ذلك بالباء الداخلة على الخبر على سبيل المبالغة في الإنكار[٣]. ونفي البعث يستلزم تأكيد نفي حياة غير الحياة الدنيا؛ لأن البعث لا يكون إلاّ مع حياة. لكن الجملة لم تفصل فتكون مؤكدة للتي قبلها، إنما عطفت؛ لأن مقصدهم إبطال قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إ م يحيون حياة ثانية، وقوله تارة : إ م مبعوثون بعد الموت، فقصدوا إبطال كل باستقلاله [٤]. والله أعلم .

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٨٨/٧).

(٢) ينظر : النهر الماد (٦٧١/١).

(٣) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها ـ بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير (١٨٧/٦) بتصرف .

ويقول الله تعالى :

(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) [الأنعام:٥٠].

ومناسبة الآية لما قبلها؛ أنه لما تقضت ا ادلة مع المشركين في إبطال شركهم، ودحض تعاليل إنكارهم بنبوءة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأ م لا يؤمنون بنبوءته إلاّ إذا جاء بآية على وفق هواهم، وأبطلت شبهتهم بقوله :(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) .[الأنعام:٤٨]، وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - ممن شملهم لفظ المرسلين،نقل الكلام إلى إبطال معاذيرهم،فأعلمهم الله حقيقة الرسالة،واقترا ا بالآيات[١].

قال القرطبي في قوله : (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ ...): " هذا جواب لقولهم : (لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ)[الأنعام:٣٧] [٢] ". وجملة :(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ) استئناف ابتدائي، تم انتقال الكلام به من غرض إلى آخر[٣] . و"قل" أمر من الله - سبحانه وتعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وافتتح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام بإبلاغه. أما الكلام الذي أمر الله تعالى رسوله - عليه الصلاة والسلام - بقوله لقومه فقد افتتح بنفي القول؛ : (لاَّ أَقُولُ)؛ ليدل على أن هذا القول لم يقترن بدعوى الرسالة، فلا وجه لاقتراح تلك الأمور المنفي قولها عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ لأن المعجزة من شأ ا أن تجيء على وفق دعوى الرسالة.

والحاصل أن القوم كانوا يطلبون منه - عليه الصلاة والسلام - بما أنه يزعم - في نظرهم - أنه نبي الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة، وهذا المطلب كان عندهم في المقام الأول.وفي المقام الثاني كانوا يطلبون منه - عليه الصلاة والسلام - الإخبار عن الغيوب؛

---

(١) ينظر : المرجع السابق (٢٤٠/٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤٣٠/٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤٠/٧) بتصرف.

ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز بالمنافع، واجتناب المضار والمفاسد. كما أ م كانوا يقولون:(مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) [الفرقان:٧]، ويتزوج ويخالط الناس؟!. فقال تعال :(قل لهم لست من الملايكة)[١].

وقُدم المسند في قوله: (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ)،(عِندِى) "للاهتمام به لما فيه من الغرابة"[٢] . وخزائن جمع خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يحفظ فيه الأشياء النفيسة وقيل : إن الخزائن مجاز عن المرزوقات، وذلك من إطلاق المحل على الحال، أو اللازم على الملزوم[٣] .

أما ثاني المنفيات التي نفاها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه بأمر من الله، فقوله تعالى : (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) والذي يظهر أنه معطوف على : (لاَّ أَقُولُ) لا معمول له، فهو أمر أن يخبر عن نفسه ذه الجمل الثلاث، فهي معمولة للأمر، الذي هو (قُل)[٤] . والذي سوغ العطف اتفاق الجملتين؛ الثانية: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)، والأولى : (لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ) في الخبرية لفظاً ومعنى، فبينهما توسط بين الكمالين .

ويجد القارئ أن حرف النفي قد أعيد في الجملة الثانية. وهذا يجعله يتساءل عن سر هذه الإعادة ... ألم يكن من الممكن الإكتفاء بحرف النفي الذي في الجملة الأولى ..؟!. لا. لم يكن هذا ممكنا!؛ لأن حرف النفي أعيد على طريقة عطف المنفيات بعضها على بعض، فالغالب أن يعاد معها حرف النفي "للتنصيص" على أن تلك المتعاطفات جميعها مقصودة بالنفي بآحادها، لئلا يتوهم المتلقي أن المنفي مجموع الأمرين[٥] .

وتسليط النفي على "علم الغيب" يشد الانتباه؛ لمَ لمْ يأت التركيب:" ولا أقول : إني أعلم الغيب" كما في قوله: (لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ)، (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٨/٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤١/٧).

(٣) ينظر : روح المعاني (١٤٦/٤).

(٤) ينظر : النهر الماد (٦٨٤/١).

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٤١/٧).

مَلَكٌ).. ما الذي دعا إلى ذلك؟!. لأن كون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك خزائن الله من أرزاق العباد أمر معلوم للناس كافة، ولكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بصورة بشر فهذا ـ أيضاً ـ معلوم لهم: فلذلك نفي ادعاءهما ولم ينفهما من أصلهما،لانتفاء الأصل عندهم. لكن الحال مع علم الغيب يختلف، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يخبرهم بأمور هي من المغيبات، فتقع ... فعمد إلى نفي علم الغيب من أصله بقوله: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تنصيصاً على محض العبودية والافتقار لرب العالمين، وأن ما جاءهم به من غيب هو وحي يوحى منه تعالى[1].

وثالث المنفيات جاءت معطوفة على قوله تعالى: (لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ)؛ وهي قوله تعالى: (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ)؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى، وهذا من التوسط بين الكمالين. ويلحظ تأكيد الجملة بـ "إن" لأن إدعاء مثل هذا القول من شأنه أن يؤكد، أي لم أدع أني من الملائكة، حتى يقولوا: (لولا أنزل عليه ملك) [الأنعام:٨] ،فنفي كونه ملكاً جواب عن مقترحهم أن ينزل عليهم ملك، أو أن يكون معه ملك نذير[2].

وبنفي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الأمور عن نفسه وتبرئه منها ... أثار سؤالاً في ذهن السامع:إذاً ما أمرك وما شأنك؟!. فكان الجواب بقوله: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) فجاءت هذه الجملة استئنافاً بيانياً، تحمل إجابة لما أثير في ذهن السامع من سؤال؛ لذلك فصلت عما قبلها، كما يفصل الجواب عن السؤال الحقيقي؛ فبينهما شبه كمال اتصال.

وفي الآية لطائف بلاغية؛ منها: ا ا از المرسل في قوله تعالى: (أَتَّبِعُ). وهو مجاز في الاقتصار على الشيء وملازمته دون غيره؛ لأن ذلك من لوازم معنى الاتباع الحقيقي؛

---

(١) ينظر : النهر الماد (١/٦٨٤) وما بعدها.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٧/٢٤٢).

وهو المشي خلف المتبع [١]. والمعنى: هذا منهجي ومنتهى أمري وأعلاه. لا أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك. فإذا عرفت مـ لتي، فلأي شيء يبحث الباحث معي، أو ماذا يطلب مني؟!. وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟![٢]. فالاتباع هنا هو التلقي والتبليغ [٣].

وفيها من اللطائف ـ أيضاً ـ استخدام أسلوب القصر لتأكيد ذلك، وبه قلب اعتقاد القوم المعاندين؛ حيث قصر ما يتبعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في التبليغ إليهم على ما يوحى إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وهو قصر صفة على موصوف، قصراً إضافياً. والغرض من القصر ـ كما ذكر ـ ابن عاشور قلب اعتقاد المكذبين، الذين يعتقدون أن الرسول لا يكون رسولاً حتى يأتيهم بالعجائب وما يقترحونه من خوارق للعادة ...، فبين لهم ـذا القول حقيقة الرسالة، التي ضل عن إدراكها المعاندون المكذبون[٤].

وتختتم الآية التي معنا بجملة فصلت عما قبلها؛ يقول تعالى: (قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى الأَعۡمَى وَالۡبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) **،وسبب هذا الفصل؛ كمال الانقطاع بين هذه الجملة وما قبلها:** (إِنۡ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ)، **فما قبلها خبرية وهي إنشائية.**

ومن اللطائف البلاغية في الآية: التذييل؛ فقوله تعالى: (قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى الأَعۡمَى وَالۡبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) **تذييل للكلام المفتتح بقوله:** (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ) **أي قل لهم هذا التذييل عقب ذلك الاستدلال[٥].**

والتكرير؛ حيث كرر فعل الأمر "قُل" ؛ وذلك لتثبيت التبكيت، وتأكيد الإلزام[٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٤٢/٧) .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٠٢/٢).

(٣) ينظر التحرير والتنوير.(٢٤٢/٧).

(٤) ينظر : المرجع السابق.(٢٤٢/٧). وما بعدها.

(٥) ينظر : السابق(٢٤٣/٧). وسيأتي ـ بإذن الله ـ بيان التذييل في مبحث الإطناب.

(٦) ينظر : روح المعاني(١٤٨/٤) وسيأتي بيان التكرير في مبحث الإطناب ـ بإذن الله ـ .

وفي قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى الإنكار، والمراد إنكار أن يستوي من لا يعلم ما ذُكر من الحقائق ومن يعلمها، مع الإشعار بكمال ظهورها، والتنفير من الضلال والترغيب في الاهتداء[(١)].

وفيها استعارة تصريحة، فقد شبهت حالة من لا يفقه الأدلة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه. شبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة قوي البصر. وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين، الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها[(٢)]. والمشبه هنا الضال والمهتدي على الإطلاق كما قال غير واحد[(٣)] .

وفي قوله تعالى: (أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى الأمر؛ والمعنى: تفكروا ولا تكونوا ضالين أشباه العمي[(٤)]. وعطفت جملة الاستفهام هذه على الاستفهام الأول؛ لأن عدم استواء الأعمى والبصير أمر بدهي، فهم وإن غاب عنهم هذا الأمر لعمى في بصائرهم. فأمامهم التفكر، فلو تفكروا فيه، لما وسعهم إلا الاعتراف بعدم استوائهما[(٥)].

وهكذا نجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤمر من ربه أن يبين لمن يدعوهم أنه بشر مجرد من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة. وأن يقدم لهم العقيدة بذا ا مجردة من كل إغراء أو ادعاء. إ ا عقيدة يحملها رسول لا يملك إلا هدى الله ينير له الطريق. وليعرف من يفيئون إلى ظل هذه العقيدة أ م لا يفيئون إلى خزائن مال، ولا وجاهة دنيا ، ولا إلى تميز على الناس بغير تقوى، إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى[(٦)]. وقد رأينا كيف سخرت البلاغة لإظهار ذلك كله.

---

(١) ينظر : روح المعاني (١٤٨/٤) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٤٣/٧).
(٣) روح المعاني.(١٤٨/٤)بتصرف.
(٤) النهر الماد (٦٨٥/١)بتصرف.
(٥) التحرير والتنوير(٢٤٣/٧) بتصرف.
(٦) في ظلال القرآن (١٠٩٧/٢) بتصرف.

قال تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) **[الأنعام:٦٥]**

عن جابر ـ رضي الله عنه **ـ قال لما نزلت هذه الآية: (**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ**). قال رسول الله ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ :"**إني أعوذ بوجهك**".قال: (**أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**).قال: "**أعوذ بوجهك**".: (**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**) قال رسول ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ "هذا أهون، أو: هذا أيسر"[١].**

والجملة " استئناف ابتدائي " عقب به ذكر النعمة[٢] في قوله تعالى: (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم**)[الأنعام:٦٣]. قال "الفخر الرازي": " أعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد، وهو ممزوج بنوع من التخويف."[٣]. والمعنى قل لهم يا "محمد": إن الله، الذي ينجيكم من كل كرب هو القادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة[٤]. والمخاطب بضمائر الخطاب هم المشركون. وأعيد فعل الأمر بالقول للاهتمام به وبما بعده[٥].**

ومن اللطائف البلاغية التي يحسن الإشارة إليها :

تعريف المسند والمسند إليه في قوله: (هُوَ الْقَادِرُ**)؛ وهذا التعريف من طرق القصر؛ أفاد اختصاصه تعالى بالقدرة على بعث العذاب عليهم، وأن غيره لا يقدر على ذلك، فلا ينبغي لهم أن يخشوا الأصنام، ولو أرادوا الخير لأنفسهم لخافوا الله تعالى، وأفردوه بالعبادة**

---

(١) **أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: (**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً**). ٨٨١ رقم الحديث(٤٦٢٨)**

(٢) **ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٣/٧).**

(٣) **التفسير الكبير (٢٠/٥)**

(٤) **ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤١٥/٢). وأيسر التفاسير (٧٣/٢).**

(٥) **التحرير والتنوير (٢٨٣/٧) بتصرف.**

لمرضاته، فالقصر المستفاد "إضافي"[١] وصيغت كلمة "القادر" على وزن اسم الفاعل،ولم تصغ صيغة مبالغة؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون قدرته ـ جل ثناؤه ـ ، إنما كانوا يدعون المشاركة، التي نفاها تعالى بالتخصيص[٢].والتعريف في "القادر" تعريف الجنس، إذا لا يقدر غيره ـ تعالى ـ على هذا العذاب[٣].

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله: (عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا) للاعتناء به، وللمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم؛ ولتهويل أمر المؤخر[٤]. ولم يكن تهويل أمر المؤخر (عَذَابٗا) متوقفاً عند تقديم المتعلق عليه، إنما تم ذلك وكمل عندما جاء الأسلوب القرآني مبيناً شدة هذا العذاب وقوته عن طريق "التنكير"؛ فقد جاءت لفظة العذاب نكرة؛ إشارة لهوله وشدته، فهو عذاب عظيم لا يحتمل ولا يطاق .

وضم قوله تعالى: (عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ) جميع أنواع العذاب الذي يمكن من جهة العلو كالصحية، والحجارة، والريح، وإرسال السماء... أو ظهوره من أسفل كالرجفة "الزلزال"،والخسف،والإغراق، أو حبس المطر والنبات ... ونحو ذلك[٥]وعلى هذا ففي الآية "إيجاز"، وبيان ذلك أن الله ـ جل وعلا ـ لم يبين شكل العذاب النازل عليهم من فوقهم ولا صفته،وكذا المنبعث إليهم من تحت أرجلهم، بل أجمل. وذلك أشد وقعاً على نفس السامع، فتهديد كهذا... يجعل أذهان المخاطبين والسامعين تحلّق إلى البعيد، وهي تتخيل ذلك العذاب كيفيته، وشدته،وتأثيره... وكلما أوغلت في التفكير...إزدادت النفس خوفاً من رب هذه قدرته،وآمنت أن إلهاً هذه صفته هو وحده المستحق للعبادة دون سواه، وبلا شريك.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير . (٢٨٤/٧).

(٢) ينظر : نظم الدرر. (١٤٣/٧).

(٣)) ينظر : التحرير والتنوير.(٢٨٤/٧) .

(٤) روح المعاني (١٧٠/٤) بتصرف.

(٥) ينظر : مختصر الطبري(٣٣١/١). والتفسير الكبير(٢٠/٥). وروح المعاني.(١٧٠/٤).

وفي **قوله تعالى:**(أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ)**. عطف قوله:** (يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعا) **على**"يبعث"[(١)]. **وقرأ الجمهور: "يلبسكم"** بفتح **الياء ، من لبس الأمر إذا خلطه**[(٢)] **وجاء** في **لسان العرب: اللبس ـ** بالفتح **ـ مصدر قولك : لَبست عليه الأمر ألبِس، أي خلطت**[(٣)] **وعن ابن عباس أن هذا اللبس بأن** يخلط **أمرهم،فيجعلهم** مختلفي **الأهواء**[(٤)] **وقيل إن معناها: أن يقوي عدوكم** حتى يخلطكم[(٥)]، **ولعل** المعنى **ما ذكره أبو بكر** الجزائري في **تفسيره؛ وهو أن** يخلط **عليكم أمركم، فتتنازعوا. ومن عواقب هذا التنازع أن** تختلفوا، **فتكونوا** "شيعاً"[(٦)] ، **والشيع** جمع **شيعة ـ بكسر** الشين **ـ وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة.قال تعالى:** (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ)**[الأنعام:١٥٩]. والشيع : الفرق؛ أي** يجعلكم **فرقاً** مختلفين[(٧)] ، **ولعل من هذا ما أشار إليه الرسول ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ** في **قوله: "وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة..."**[(٨)]**.وليتأمل القارئ** في **قوله تعالى:** (أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ)**، وذلك أن تشتيت الشيع، وتعدد الآراء أشد** في **اللبس والخلط؛ لأن هذا النوع من اللبس لا يرجى بعده انتظام**[(٩)].

---

(١)) **ينظر : روح** المعاني **(١٧١/٤) .**

(٢) **ينظر : فتح القدير (١٢٦/٢)**

(٣) **ينظر : لسان العرب.(مادة:لبس).**

(٤) **الجامع لأحكام القرآن. (٩/٧) بتصرف.**

(٥) **ينظر : المرجع السابق .الصفحة نفسها.**

(٦) **أيسر التفاسير.(٧٣/٢) بتصرف**

(٧) **ينظر : لسان العرب.(مادة:شيع**

(٨) **سبق** تخريجه، **ينظر** في **هذا البحث: (٥) .**

(٩) **التحرير والتنوير(٢٨٤/٧)بتصرف.**

وإذا نظر في قوله: (وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ)، فإن الناظر سيجد أن هذه الجملة معطوفة.. لكن على ماذا؟!. هذا ما اختلفت أقوال المفسرين فيه، فمنهم من رأى أن قوله "يذيق"عطف على "يبعث"، وهذا لا يعد "الإذاقة" و"اللبس" أمراً واحداً،ولعل ذلك بسبب ما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أخبار، فقد ورد في بعضها عد "اللبس" و"الإذاقة" أمراً واحداً، وفي البعض الآخر دلالة على عدهما أمرين مستقلين[(١)].

ومن تلك الأخبار ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: "سألت ربي ثلاثاً. فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها"[(٢)].

وما رواه الإمام أحمد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "إني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فأبى علي ـ أو قال فمنعنيها ـ".[(٣)]

ومن المفسرين من يرى أن قوله: "يذيق" عطفت على "يلبسكم" نظراً لأ ا عطفت بالواو، وليس بأو. ومن عطفها على "يلبسكم" جعل هذا العطف من قبيل عطف التفسير، أو من عطف المسبب على السبب[(٤)]. وبيان ذلك أن من عواقب ذلك اللبس التقاتل، إذا إن البأس هو القتل[(٥)]. وقد قال تعالى :(وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ) [النحل:٨١]. وسر عطف قوله: " يذيق" على : "يلبسكم" بالواو؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى .

---

(١) ينظر: روح المعاني (١٧١/٤).

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.(١٥٤٤) وما بعدها، حديث رقم :(٢٨٩٠) .

(٣) مسند الإمام أحمد.(١٦٣٦) حديث رقم: (٢٢٤٨٧).

(٤) روح المعاني (١٧١/٤) بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٤/٧) بتصرف.

ومن اللطائف في الآية؛ استعارة الإذاقة للألم[١]. وذلك العذاب يحل بالناس متى ما انفرطوا عن منهج الله، ونجده ـ عز وجل ـ يترك بعضهم لبعض؛ ليتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب، ويصير كل بعض منهم ظالماً للبعض الآخر، وهم لن يجدوا الأمن والطمأنينة إلا إذا عادوا إلى منهج الله تعالى[٢].

وتأتي جملة "انظر كيف نصرف الآيات" مفصولة عما قبلها؛ لكمال الانقطاع بينهما؛ فقوله: "انظر" جملة إنشائية لفظاً ومعنى، وقوله: "يذيق" خبرية لفظاً ومعنى. ومعنى الآية؛ انظر يا محمد كيف نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى[٣] . ودلالة مجيء فعل التصريف بصيغة المضارع لا تخفى؛ فهي تفيد التجديد والاستمرار في تصريف الآيات لهؤلاء، بشتى أنواع الترغيب والترهيب. ولكن ما الفائدة من تصريف الآيات..؟!.

(لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)، فكأن الجملة جاءت جواباً للسؤال الذي قُدر؛ لذا فصلت عما قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال الحقيقي، فالجملة "استئناف بياني". والمعنى: "كي يعلموا جلية الأمر، فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد"[٤]. وثمة سر بلاغي في ختم الآية بـ (يَفْقَهُونَ)؛ وذلك لأن أمراً عظيماً كهذا؛ وهو النظر في قدرة الله، التي منها تسليطه ـ جل وعلا ـ العذاب عليهم، وتفرده بتلك القدرة.. بحاجة إلى تأمل، ومزيد تفكر، وتدبر.. وكل هذا لا يتم إلا بالفقه؛ فكانت فاصله الآية "يفقهون" دون سواها والله تعالى أعلم .

ومن شواهد هذا المبحث ـ أيضاً ـ قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) [الأنعام:٧٥]

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٤/٧) .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي (٣٦٩٨/٦).

(٣) فتح القدير.(١٢٦/٢)بتصرف .

(٤) روح المعاني (١٧٢/٤).

ومعنى الآية؛ أي كما أرينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحق في بطلان عبادة أبيه للأصنام نريه ـ أيضاً ـ مظاهر قدرتنا،وعلمنا، وحكمنا الموجبة لألوهيتنا في ملك السموات والأرض، ليكون بذلك من جملة الموقنين[١]. ولما بين قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)؛ وقوله: (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً) من توسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع عطف قوله: (وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) على قوله: (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً) .

ومن أسرار التعبير القرآني في الآية في قوله: (وَكَذَٰلِكَ) الكاف للتشبيه[٢]، و"ذلك" اسم إشارة للبعيد ؛وسر الإشارة بهذا الاسم لتفخيم شأن ما بعد[٣]. وهو ـ المشار إليه ـ غائب جرى ذكره؛ وهو استقباحه ـ عليه السلام ـ عبادة الأصنام؛ قال تعالى على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ: (إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) [الأنعام:٧٤]. أي:مثل ما أريناه ـ عليه السلام ـ من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض[٤].

وقوله:(نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ) الرؤية هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنى الكشف والتعريف ، فتشمل بهذا المبصرات، والمعقولات المستدل بها جميعاً على الحق[٥]. وصيغت كلمة "نري" هنا خلافاً لمقتضى الظاهر، إذا الظاهر أن يقال: "أرينا" بصيغة الماضي، إلا أنه عدل عن ذلك إلى استخدام صيغة المستقبل..فلماذا؟!. إن ذلك ـ كما يقول الألوسي في تفسيره ـ :"حكاية للحال الماضية استحضاراً لصورتها حتى كأنها

---

(١) ينظر : أيسر التفاسير .(٨١/٢).

(٢) ينظر التفسير الكبير.(٣٤/٥) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن (٤٤٦/١).

(٤) ينظر : التفسير الكبير. (٨١/٢) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير .(٣١٥/٧) .

حاضرة مشاهدة."[١]. فيرى القارئ ما رآه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ويستشعر ما شعر به ـ عليه السلام ـ ولحظتئذ يضطرب قلب القارئ ويهتز كيانه من رهبة ذلك الموقف وعظمته. وإذا كان هذا التعليل هو أول ما يتبادر إلى الذهن، لقربه، فإن للفخر الرازي تعليلاً آخر يصفه بأنه :"أعلى وأشرف مما تقدم"[٢]. مضمونه: أن إراءة الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ملكوت السموات والأرض ليس المقصود منها أن يرى ـ عليه السلام ـ هذا الملكوت فحسب، بل المقصود أن يراه فيتوسل ا إلى معرفة جلال الله تعالى،وقدسه ، وعظمته. ووجه دلالة متعلق الإرادة؛ وهو "ملكوت" لا يتناهى، والوقوف على المعلومات التي لا اية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال. فلا طريق لتحصيل تلك المعارف إلاّ بالتدرج، فلهذا السبب ـ والله أعلم ـ لم يقل:"وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض"، بل قال: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[٣].

إلا أَن "الألوسي" يرى أن هذا التعليل: "ليس بشيء"[٤] !.ولعل من الأولى أن يجمع بين القولين الأول والثاني طلباً للفائدة، فيقال: إنه عدلَ عن استخدام صيغة الماضي في قوله: (نُرِي) إلى صيغة المضارع؛ حكاية للحال الماضية استحضاراً لصور ا، وتتبعها حال تدرجها لَحظة بلحظة، حتى كأ ا حاضرة مشاهدة بتدرجها. إ ا إراءة تفكر وتأمل، والمتفكر في ملكوت السموات والأرض يقلب بصره وفكره، باحثاً عن الحقيقة، يقلبهما في كل ما حوله من أسباب، ينتقل من سبب إلى سبب آخر أعظم منه... وهكذا حتى يصل في اية مطافه إلى مسبب تلك الأسباب، الإله المستحق للعبادة، فإذا وجده اطمأن قلبه، وهدأت نفسه، وأيقن باستحقاق الله ـ جل وعلا ـ للعبادة... وهذا لا يتم بين عشية

---

(١) روح المعاني .(١٨٦/٤).

(٢) التفسير الكبير.(٣٥/٥).

(٣) ينظر : المرجع السابق.الصفحة نفسها.

(٤) روح المعاني .(١٨٦/٤).

وضحاها، ولا بسهولة ويسر، بل بعد مشقة وجهد، وبعد وقت قد يطول؛ فاستحضاراً لتلك الصورة بتدرجها، قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُرِى) والله أعلم.

و"التفكر" من أعظم عبادات الأنبياء قبل بعثتهم، وكانت تلك هي عبادة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الغار، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يديم التفكر في ملكوت الله... عله أن يخرج بنور الفطرة من ظلمات الحيرة إلى طمأنينة اليقين، وقد أشار الله ـ عز وجل ـ لذلك بقوله: (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) [الضحى:٧][١]. ثم إن "التفكر" في الكون في خلق السموات والأرض، وما فيهن من مخلوقات متنوعة...، ونظر الإنسان لنفسه، وما هو عليه من صفات... كل ذلك داع قوي من دواعي الإيمان[٢] .

وفي قوله: (مَلَكُوتَ) جاء في "المفردات" أن الملكوت مختص بملك الله تعالى وهو مصدر ملك، وأدخلت التاء فيه نحو رحموت ورهبوت[٣] ؛ للمبالغة[٤].

وفي "الإتقان" أن الملكوت كلمة نبطية[٥]. والذي يظهر أن العرب نقلوا هذه الصيغة ـ صيغة فعلوت ـ إلى لغتهم لما فيها من خصوصية القوة[٦].

وفي: (مَلَكُوتَ) مجاز مرسل، وهو إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، والمراد: المملوك. وهذا مثل إطلاق الخلق على المخلوق[٧].

ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ في ختام الآية: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ). وهذه "الواو" قد أشكلت على كثير من المفسرين، إلاّ أ م اجتهدوا في تأويلها وما وصلوا إليه:

---

(١) ينظر : من لطائف التفسير(٣٤٣/١).

(٢) ينظر : التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (٥٦).

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن.(٤٧٣).

(٤) ينظر :أنوار التن يل وأسرار التأويل (٤٢٣/٢).

(٥) ينظر : الإتقان في علوم القرآن.(٢٩٦/١).

(٦) التحرير والتنوير.(٣١٦/٧) بتصرف.

(٧) المرجع السابق.الصفحة نفسها.بتصرف.

١ ـ الواو في الآية زائدة، والتقدير: " نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض". ليستدل ؛ ليكون من الموقنين[١].ومع احترامي للمفسرين ـ رحمهم الله ـ ، ولجهودهم في خدمة كتاب الله الكريم، إلاَّ أن هذا لا يدفعني للاطمئنان لهذا القول؛لإيماني بقوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) [النساء:٨٢]. ولست أحسب أن القول بالزيادة يعد شيئاً من التدبر...!. بل لعل الأمر أسوء من هذا،فقول القائل بالزيادة يدل على أن وجود هذا الحرف في هذا الموضع ـ في كلام الله تعالى ـ كعدمه، فإذا حذفناه فلا ضير في ذلك!. وإذا أبقيناه فلا فائدة ترجى من إبقائه..؟!. وهذا قول خطير يخشى على صاحبه. وبما أن الكثير منا ـ نحن البشر ـ يعد الزيادة في الكلام كالنقص... فكيف بعد هذا نتجرأ ونرمي ـ لجهلنا ـ شيئاً كهذا على كلام الله ـ جل ثناؤه ـ؟!. والذي يغلب على الظن أن من قال: إن"الواو"زائدة هنا، لم يرد بزياد التأكيد[٢]؛ لأن من أشاروا إلى زيادة بعض الحروف في القرآن الكريم لم يعدوا (الواو) منها[٣].

٢ـ الواو "استئنافية"، والكلام بعدها مستأنف؛ لبيان علة الإرادة، والتقدير: وليكون من الموقنين نريه ملكوت السموات والأرض[٤] . وهذا القول ـ كما يظهر ـ فيه نظر؛ لأنه لو كان قوله تعالى: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) استئنافاً "لبيان" علة الإراءة، فلا حاجة ـ على هذا القول ـ للواو..!. أليس من الأولى أن تفصل جملة:

---

(١) ينظر: التفسير الكبير.(٣٧/٥).وهذا القول أورده الفخر الرازي عندما ساق الوجوه التي قيلت في هذه (الواو).

(٢) من قال بزيادة بعض الحروف في الكلام، أشار إلى أن هذه الزيادة لا تخلو من فائدة من إحدى فائدتين،وقد تجتمعان في الحرف الزائد معاً؛فهي إما معنوية أو لفظية،فالمعنوية لتأكيد المعنى،وأما اللفظية فهي لتزيين الكلام،أو إقامة وزن القصيدة... وغير ذلك :ينظر:أساليب التوكيد في القرآن.(٣٥٦).

(٣) جمعت الحروف الزائدة للتوكيد نظماً.قال الناظم:

"فهاك حروفاً بالزوائد سُميت وجاءت لتوكيد ما نص أهل فن

فاء ولام ثم كاف وما ومِنْ وزيد عليهما لا وقالوا بإِنْ وأنْ"المرجع السابق (٣٥٥).

(٤) ينظر : التفسير الكبير.(٣٧/٥).

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) عن الأولى: (نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)؛ لأ ا حملت جواباً لسؤالٍ مقدر أثارته الجملة الأولى؛ تقديره: لماذا كانت هذه الإراءة؟!. فيكون الجواب: (لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فتفصل الجملة الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال الحقيقي، وهذا يعفي من تقدير كلامٍ محذوف. والأهم من هذا أن جملة: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) ليست بياناً لعلة الإراءة؛ لأن جعلها على هذا النحو يفسد المعنى وسيأتي بيان ذلك ـ بإذن الله ـ .

٣ ـ أن الواو "عاطفة". وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين. لكنهم اختلفوا حول المعطوف عليه. وفي متعلق "اللام" في قوله: (وَلِيَكُونَ)، ومن ذلك :

١ ـ ما ذهب إليه "الألوسي" في تفسيره من أن جملة: " وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ" معطوفة على: " وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...". واللام فيها متعلقة بمحذوف مؤخر، والتقدير: وليكون كذلك فعلنا ما فعلناه من التبصير البديع المذكور[1].

٢ ـ أن الجملة معطوفة على علة مقدرة دل عليها قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي)؛ والتقدير: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض إراء تبصير وفهم؛ ليعلم علماً على وفق ذلك التفهيم، وهو العلم الكامل، وليكون من الموقنين[2] . وعلى هذا يكون في الآية إيجاز بالحذف. أما سبب العطف بالواو،فهو اتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى، وهذا من توسط الجملتين بين الكمالين؛ كمال الاتصال وكمال الانقطاع. والسر في هذا العطف ـ كما يرى الفخر الرازي ـ أن الإراءة قد تقع وتكون سبباً لمزيد من الضلال كما في حق فرعون، وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)[طه:٥٦]. وقد تكون هذه الإراءة سبباً لمزيد الهداية واليقين. فلما احتملت "الإراءة" هذين الاحتمالين، قال تعالى في حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ : إنا أريناه هذه

---

(١) ينظر : روح المعاني .(١٨٧/٤).

(٢) التحرير والتنوير .(٣١٦/٧) بتصرف .

الآيات، ليراها، ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين [١]. فلذا ـ والله أعلم **ـ قال: (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)، ولم يقل " وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين". ولعله يضاف لهذا القول؛ أن فصل الجملة: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) عما قبلها قد يفسد المعنى، إذ إن فصلها يوقع في نفس المتلقي أ ا عله الإراءة المذكورة. أليس إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذي قال عنه تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[البقرة:٢٦٠]. فمع الفصل قد يقع في نفس المتلقي أن إبراهيم ـ** عليه السلام **ـ حين أراه الله ـ** عز وجل **ـ ملكوت السموات والأرض، ليعلم، ويوقن ـ بعد تفكر ـ من الذي يستحق العبادة دون سواه، أنه إنما كان ذاك؛ لأنه ـ** عليه السلام **ـ كان مترددا مضطربا في إنكاره على قومه عبادة الكواكب والتماثيل؛ كان مترددا في أن هناك إلها هو أحق بصرف هذه العبادة له من هذه الآلهة التي يعبدها قومه..، لكن هذه لم تكن حالة إبراهيم ـ** عليه السلام **ـ والله ـ** سبحانه وتعالى **ـ قال آمرا نبيه محمد ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ :(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام:١٦١].والحنيف ـ كما يذكر ابن كثير ـ هو المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال تعالى: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٢]، هذا هو إبراهيم ـ** عليه السلام **ـ لذا قال تعالى: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)؛ لينتقل ـ** والله أعلم **ـ من درجة الإنكار على عبادة الآلهة المزعومة، إلى درجة اليقين الراسخ بالإله المستحق للعبادة، ويزداد هدى على هداه. وقد عرف ابن قيم الجوزية "اليقين" بأنه " استقرار الإيمان بالقلب علما وعملا "[٣].**

---

(١) ينظر : التفسير الكبير.(٣٧/٥)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم.(٥٧١/٢).

(٣) الفوائد (٤١٦).

ومن اللطائف البلاغية في الآية: الإتيان بالخبر بالجار والمجرور، فقد قال تعالى: (مِنَ الْمُوقِنِينَ)، وهذا أبلغ من أن يقال: "موقناً"؛ لأن التعريف في (الموقنين) تعريف الجنس، وإخبار الله تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه من الموقنين يفيد أنه واحد من الفئة، التي تعرف عند الناس بفئة (الموقنين)، فيفيد بأنه "موقن" إفادة بطريقة تشبه الاستدلال. وهذا من قبيل الكناية[١]. التي لها من المزية والحسن ما يجعلها أبلغ من التصريح[٢]في كثير من المقامات. والمراد: ليكون ـ عليه السلام ـ من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى[٣] . وهذا اليقين من أعلى مراتب الإيمان، وهو مطلب من أشرف المطالب وأعزها ويتم بالتفكر والنظر في الآيات[٤] .

(١) ينظر : التحرير والتنوير.(٢٦٣/٧). والكناية هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره بـاللفظ الموضوع له في اللغة،ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه، ويجعله دليلاً عليه. ينظـر : دلائل الإعجاز.(٦٦) .

(٢) دلائل الإعجاز .(٣٠٦) بتصرف .

(٣) ينظر : روح المعاني . (١٨٧/٤) .

(٤) ينظر : أيسر التفاسير . (٨١/٢) وما بعدها .

وفي سياق الحديث عن المعاندين، العادلين بعبادة ر م أصناماً، يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوسهم؛ الكبر الذي منع أعداء رسل الله ودينه... من الإسلام، خيفة أن يكونوا عباداً لله كسائر العباد..[1] ؛ في هذا المعرض يأتي قوله تعالى:

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ) [الأنعام:١٢٤].

وقوله: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ) عطف على جملة:(جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا).[الأنعام:١٢٣]، لما بينهما من توسط بين الكمالين؛ كمال الاتصال وكمال الانقطاع، فكلاهما جملة خبرية لفظاً ومعنى، ثم إن الآية التي بين أيدينا فيها حديث عن شيء مما عليه أكابر مجرمي مكة من أحوال؛ فهم الذين قال الله تعالى فيهم: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ) أي إذا جاء م حجة من الله ـ عزوجل ـ على صحة ما جاءهم به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ[2]، قالوا قولتهم المنكرة: (لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ). أي لن نؤمن أبداً وهذا القول منهم اعتراض على الله،وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على رسله[3] .

وثمة وقفة يسيرة مع قولهم: (حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ)... فما الإتياء الذي أرادوه..؟!. ولهذا السؤال أهمية خاصة؛ لأن الإجابة عنه يترتب عليها معرفة السر البلاغي وراء فصل الجملة التي بعدها؛ وهي قوله تعالى: (اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) وقد ورد في عدد من كتب التفسير قولان، حملا إجابة عن هذا السؤال؛ هما:

---

(١) في ظلال القرآن .(١٢٠٢/٣) بتصرف .

(٢) ينظر : مختصر جامع البيان في تأويل القرآن .(٣٤٩/١) .

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .(٤٧٠/٢) .

الأول: ذُكر أن الوليد بن المغيرة كان من قوله للنبي ـ عليه الصلاة والسلام **ـ : "لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى ا منك؛ لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً."[١] . وأبو جهل كان يقول: "والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً، إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه" وهذا سبب نزول الآية [٢]. فعلى هذا يكون "الإتيان" الذي أرادوه أن تحصل لهم النبوة والرسالة، كما حصلت لرسل الله، وهذا هو القول المشهور[٣].**

ويلحظ أ م عدلوا عن أن يقولوا: "مثل ما أوتي محمد ـ عليه الصلاة والسلام **ـ " وقالوا: (مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ)، فأضافوا الإيتاء إلى رسل الله، دون ذكر له ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ ؛ لأ م لا يؤمنون بأنه يأتيه وحي ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ [٤]. وقد عبروا بلفظ الجلالة؛ وذاك إشارة منهم إلى القدرة التامة ، فلا عذر[٥] .**

الثاني : أنه إذا جاء م آية من آيات القرآن تأمرهم باتباع النبي، قالوا: (لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ)؛ أي هم يريدون معجزات حسية، وهذا هو قول مشركي العرب: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا) إلى قوله: (حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ).[الإسراء:٩٠-٩٣]. فكل منكر منهم يريد أن ينزل عليه كتاب على حده؛ من الله إلى أبي جهل، من الله إلى فلان... وهكذا[٦]. فهم على هذا المعنى لم يطلبوا "النبوة"، إنما طلبوا معجزات قاهرة، ظاهرة على معجزات الأنبياء المتقدمين؛ لتثبت صحة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم **ـ [٧] . وهذا القول منهم يدل على**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧٩/٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : التفسير الكبير .(١٣٦/٥) .

(٤) ينظر : روح المعاني (٢٦٦/٤) والتحرير والتنوير(٥٣/٨) .

(٥) نظم الدرر (٢٥٦/٧) بتصرف .

(٦) ينظر : التفسير الكبير .(١٣٦/٥) .

(٧) ينظر : المرجع السابق.الصفحة نفسها.

عدم اقتناعهم بمعجزة القرآن الكريم، وما ذاك إلا جهلاً منهم بالحكمة الإلهية في تصريف المعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم[١].

والقول "الأول" أقوى، وأولى، وأصح؛ لأن قوله تعالى: (اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه) لا يليق إلا بالقول الأول[٢] ، إذ المعنى: إن الله ـ عزوجل ـ أعلم بمن هو مأمون عليها وموضع لها[٣] . فعلى هذا فالجملة استئناف بياني؛ لذا فصلت عما قبلها؛ وبيان ذلك: أنه لما قال مشركوا العرب: (لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ) كأنه قيل لهم: كلا !. فتساءلوا: لماذا؟ فكان الجواب: (اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه).

ومما في الجملة من بلاغة "التعريض"؛ فقد عرض بهؤلاء الكفار بأنهم ليسوا أهلاً لهذه الرسالة، بل إن من يتطلعون لمقام الرسالة هم من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر[٤] . أليس قولهم: "...حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله" عين المكر، والحسد، والكبر..؟!.[٥] إن للرسل صفات وطبيعة أخرى؛ طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً، ويهب لها نفسه طائعاً، وينسى فيها ذاته، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب[٦]. وقد اختار الله لها أكرم خلقه، قال تعالى: (وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) [القصص:٨٦]. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[٧] .

---

(١) التحرير والتنوير .(٥٢/٨) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير .(١٣٦/٥) .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن .(٧٩/٧) .

(٤) في ظلال القرآن .(١٢٠٣/٣) بتصرف .

(٥) التفسير الكبير .(١٣٧/٥) بتصرف .

(٦) ينظر : في ظلال القرآن .(١٢٠٣/٣) .

(٧) رواه مسلم في صحيحه. كتاب: الفضائل. باب: فضل نسب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .(١٢٤٩).رقم الحديث(٢٢٧٦) .

وفي الآية دليل على كمال حكمته ـ جل وعلا ـ ؛ لأنه وإن كان ـ تعالى ـ رحيماً بعباده، واسع الجود عليهم. كثير الإحسان إليهم، فهو ـ مع ذلك كله ـ حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله[١].

ولما كشف في النظم القرآني عن أ م اجترؤا على الله ـ تعالى ـ ، وأ م قد أصروا على أقبح الذنوب ؛ وهو الكفر . وأن هذا منهم ليس طلباً للدليل، بل لداء الحسد . تاقت النفس ـ بعد ذلك ـ إلى معرفة ما يحل م[٢] ؛وإلى معرفة مصيرهم. فقال ـ سبحانه تعالى ـ جواباً :

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ)

وفصلت هذه الجملة عن قوله: (اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه)؛ لأ ا وقعت استئنافاً بيانياً.

ومما في الآية من لطائف بلاغية :

إن في قوله: (سَيُصِيبُ) وعيد شديد من الله ـ تعالى ـ، و ديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٣] . وقد أكد هذا الوعيد بالسين[٤]، إشعاراً بأنه وعيد محقق الوقوع.

وفيها ـ أيضاً ـ خروج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر بطريق الإظهار في موضع الإضمار؛ في قوله: (الَّذِينَ أَجْرَمُواْ) إذ إن مقتضى الظاهر الاكتفاء بضميرهم، فيقال ـ مثلاً ـ : "سيصيبهم صغار وعذاب.." والسر في هذه المخالفة لبيان أن ما

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن.(٢/٤٧٠). ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن (حيث) في قوله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ليست ظرفاً، بل هي اسم مجرد عن الظرفية ، وهي هنا مفعول لفعل مقدور ؛ تقديره : يعلم. ينظر:روح المعاني(٤/٢٦٦) والسبب في تجرد (حيث) هنا من الظرفية؛ لأن الله – تعالى- لا يمكن أن يقال عنه بأنه في هذا المكان أعلم منه في ذاك المكان؛ لأن علم الله تعالى لا يختلف باختلاف المكان أو الزمان، ينظر: الفتوحات الإلهية (٢/٨٧) .

(٢) نظم الدرر .(٧/٢٥٧) بتصرف.

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم .(٢/١٦٥).

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم .(٢/١٨٣) .

سيصيبهم من عقاب إنما نالوه باستحقاق بسبب شناعة فعلتهم؛ وهي إجرامهم[١]. وقد جعل الله عقابهم ذلاً وعذاباً؛ ليناسب ما اقترفوه. فالصغار يقابل استعلاءهم، واستكبارهم عن الحق، وتطاولهم إلى مقام رسل الله. والعذاب الشديد يقابل مكرهم، وعداءهم للرسل، وأذاهم للمؤمنين[٢].وقد قيل إن هؤلاء المجرمين قد أصابهم الصغار والعذاب في الدنيا، ولهم منها في الآخرة نصيب. فكان في الدنيا يوم بدر، ويوم أحد. قال تعالى:(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ).[التوبة:٥٢].

فكانت الهزيمة للكفار، وزوال السيادة، وعذاب القتل، والأسر، والخوف.أما في الآخرة فبإهانتهم بين أهل المحشر، وعذابهم في جهنم[٣].

وما هذا الجزاء لهم بظلم، بل كما قال تعالى: (بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ)؛ أي "بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله"[٤]. فالجملة جعلت تسبيباً لاصابتهم بالصغار والعذاب الشديد. ومجيء الجملة فعلية في قوله: "يَمْكُرُونَ"؛ للدلالة على أن فعل المكر هذا متجدد منهم حيناً بعد حين..، ومع تجدده... تتجدد طرقه ووسائله؛ فاستحقوا ما ذكر جزاء وفاقاً.

ومن شواهد الفصل والوصل:

قوله تعالى :(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) [الأنعام:١٣٠].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١٨٣/٢) . بتصرف.

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠٣/٣) والتحرير والتنوير . (٥٦/٨).

(٣) ينظر : التحرير والتنوير .(٥٦/٨) .

(٤) مختصر الطبري.(٣٤٩/١) .

تجيء هذه الآية في سياق بيان مصائر شياطين الإنس والجن ـ بعدما تبين مصير الذين يستقيمون على صراط الله ـ وفيه تظهر حقائق أساسية في العقيدة الإسلامية؛ الإيمان والكفر، والجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا. كما تظهر في السياق حقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم، وبالناس جميعاً. واستبدال غيرهم م ؛ والحقيقة التي لا ينكرها عاقل وهي ضعف البشر أمام بأس الله[١].

وهذه الآية من جملة المقاولة التي تجري يوم الحشر بين الله ـ عزوجل ـ والكفار. وبين ـ تعالى ـ أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل، فيشهدون على أنفسهم بأ م كانوا كافرين. وأ م لم يعذبوا إلا بالحجة[٢].

يقول تعالى: (يَا مَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ آيَاتِى) وفصلت هذه الجملة عما قبلها ؛ وهو قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضًا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ). [الأنعام:١٢٩]؛ لأن بينهما كمال انقطاع؛ فجملة "يَا مَعۡشَرَ ٱلۡجِن وَٱلۡإِنس..." إنشائية لفظاً ومعنى، وهي في مقام تعدد جرائمهم التي استحقوا النار بسببها[٣].أما جملة: "وكذلك نولى بعض الظالمين..." فهي خبرية لفظاً ومعنى .

والـ " مَعۡشَرَ" الجمع. وقيل: المعشر كل جماعة أمرهم واحد[٤]ويلحظ تقديم كلمة "ٱلۡجِن" على "الإِنس"؛ ولعل ذلك لأن السياق لبيان غلبتهم[٥] . والاستفهام في قوله: " ألم يأتيكم" استفهام تقريري. واللافت في التركيب جعل السؤال عن نفي إتيان الرسل إليهم. ولهذا سبب بديع ... فلما كان حال هؤلاء المقررين[في الدنيا]؛ حال من لم يطرق سمعه دعوة للإيمان، ولا أمر بمعروف ولا ي عن منكر ... بدليل تماديهم في الكفر.. أتي

---

(١) في ظلال القرآن .(١٢٠٦/٣) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير .(١٥٠/٥) والتحرير والتنوير.(٧٥/٨) .

(٣) التحرير والتنوير(٧٥/٨) بتصرف .

(٤) ينظر : لسان العرب.مادة (عشر).

(٥) ينظر : نظم الدرر (٢٧١/٧).

في تقريرهم على بعثة الرسل إليهم بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرسل إليهم، حتى إذا لم يجدوا أمامهم أي منفذ إلا إثبات مجيئهم، كان إقرارهم هذا أحرى لأخذهم بالعقاب[(١)].

وقوله: "منكم" فيه دليل على أن الجن ممن يخاطب ويعقل[(٢)]. لكن لماذا قال تعالى: "منكم" هل يعني هذا أنه أرسل للجن رسلاً من جنسهم، كما أرسل للإنس؟!. للوقوف على إجابة هذا السؤال أسوق أبرز ما قاله العلماء في هذه الآية:

١ ـ نقل عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية[(٣)].

٢ ـ أن الرسل من الإنس فقط. وهذا الذي عليه أكثر المفسرين؛ منهم ابن كثير فقد قال: "والرسل من الإنس فقط "[(٤)] . ومن الأدلة التي تشير إلى أن الرسل من الإنس " فقط "، مايلي:

١ ـ قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ـ إلى قوله ـ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).[النساء:١٦٣-١٦٥]. وقوله تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) [العنكبوت:٢٧]. "فحصر النبوة بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته"[(٥)] .

وقوله:(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان:٢٠]. و:(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [الأنبياء:٧].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير .(٧٥/٨) وما بعدها .

(٢) الجامع لأحكام القرآن. (٨٥/٧) بتصرف .

(٣) تفسير القرآن العظيم .(١٦٨/٢) . بتصرف .

(٤) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) تفسير القرآن العظيم .(١٦٩/٢) .

٢ـ لم **يرد عن النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **ما يثبت به أن الله أرسل رسلاً من الجن إلى جنسهم، بل كان من تشريف ربنا** ـ جل ثناؤه ـ **لنبينا** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أن بعثه إلى الإنس والجن كافة** [١]. **وقد قال تعالى: (**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**) [الأحقاف:٢٩].**

٣ـ ما نقله ابن كثير في **تفسيره عن رأي كثير من الأئمة؛ ما نصه: "وليس من الجن رسل كما نص على ذلك** مجاهد **وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف"**[٢]**. وابن عباس يقول: "رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما** سمعوه **من الوحي؛ كما قال : (** وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ**)."**[٣] **. وقال** مجاهد **:"الرسل من الإنس، والنذر من الجن؛** ثم **قرأ: (**وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**)."**[٤]

فالراجح ـ والله أعلم ـ **أن الجن** لم **يرسل إليهم رسلاً من جنسهم. وعلى هذا تكون** "من" في "منكم" **تبعيضية، والضمير فيها عائد** إلى **بعض ما ذكر وهم الإنس**[٥] **.**

ويستأنس لهذا **القول بأن القرآن** ربما **أطلق فيه ا موع وأريد بعضه؛ كقوله تعالى: (**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**) [نوح:١٦]. بعد قوله: (**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا**) [نوح:١٥]،وقوله: (**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا**)[الشمس:١٦] مع أن العاقر واحد منهم، كما** بينه **بقوله:(**فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ**)[القمر:٢٩]**[٦] **. وإنما صير الرسل** في **مخرج اللفظ من الجميع؛ لأن الثقلين قد ضمتهما عرصة القيامة، والحساب واقع عليهم دون الخلق، فلما** جمعوا في **تلك العرصة لأمر واحد خوطبوا** بمخاطبة **واحدة،**

---

(١) التحرير والتنوير .(٧٧/٨) بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم .(١٦٨/٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن .(٨٦/٧) .

(٤) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير .(٧٦/٨) .

(٦) ينظر: أضواء البيان (١٨٨/٢) .

كأ م جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، وحسا م عليها[١] . ومن المفسرين من ذكر أن الآية قد يكون فيها تغليب، حيث وجه الخطاب للإنس والجن، وغلب الإنس على الجن كما يغلب المذكر على المؤنث [٢].

ومما في الآية من وجوه البلاغة؛ الدقة في اختيار الكلمة القرآنية. قال تعالى: "يقصون". ولم يقل ـ مثلاً ـ: "يبلغون".وقد تنبه لهذا صاحب "نظم الدرر"،فقال: إنه لما كان النظر في هذه السورة إلى علم الله ـ تعالى ـ غالباً؛ لإثبات تمام قدرته، بدليل قوله: (يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ) [الأنعام:٣]، :(أَلَيۡسَ اللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:٥٣]،:(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الۡغَيۡبِ لاَ يَعۡلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)[الأنعام:٥٩]؛ لما كان الأمر كذلك أكثر فيها من ذلك التفصيل الذي لا يكون إلا للعالم؛ فكان القص ـ الذي هو تتبع الأثر ـ أنسب لذلك، فقال ـ عزوجل ـ :(يقصون)[٣].و"القص" كالقصص:الإخبار. ومنه القصة والخبر. وسميت الأخبار عن صفات الله، والرسل، وأممهم، وما حل م، وعن الجزاء بالنعيم أو العذاب[٤] ...

والدقة ـ أيضاً ـ في اختيار كلمة "ينذرونكم" من قوله: (وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَاء يَوۡمِكُمۡ هَذَا). وهذا يدفع القارئ للتساؤل... لم جعل الإخبار عن ذلك اليوم "إنذاراً" دون غيرها ..؟!. لقد كانت آيات الله " تقص" عليهم، وآيات العقيدة كانت تؤكد لهم أنه "لا إله إلا الله"، وأن ما من طاغية متجبر رفض هذه الشهادة إلاّ سلط الله العذاب عليه في الدنيا قبل الآخرة، وله في الآخرة نصيب. ثم إن الآيات جاء م بالبشارة والوعد لعباد الله المؤمنين، أن ليس لهم جزاء إلا الجنة. والتهديد والوعيد للكافرين: (فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارًا تَلَظَّى) [الليل:١٤]، : (وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ الۡحَسۡرَةِ) [مريم:٣٩]. لكن لما كان يوم الحشر يتضمن خيراً لأهل الخير، وشراً لأهل الشر، وكان هؤلاء المخاطبون قد تمحضوا للشر،

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٨٦/٧).

(٢) ينظر : التحرير والتنوير .(٧٦/٨) .

(٣) نظم الدرر .(٢٧٢/٧) بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير .(٧٨/٨) .

جعل إخبار الرسل إياهم بلقاء ذلك اليوم إنذاراً؛ لأ م الطرف الذي تحققت فيه آيات الوعيد والتخويف[١] .

ووصف "اليوم" باسم الإشارة في قوله: (يومكم هذا)؛ لتهويل أمر ذلك اليوم، وما فيه بحيث لا تحيط العبارة بوصفه، فيعدل عنهما إلى الإشارة[٢].

:(قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ). ونجد أن هذه الجملة جاءت مفصولة؛ لأ ا وقعت جواباً لقوله تعالى: (ألم يأتكم رسل منكم..) فهي استئناف بياني؛ بين فيه جوا م بعد ذلك التوبيخ، فبينهما شبه كمال اتصال. وقولهم: (شهدنا على أنفسنا) "إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم، وأ م محجوجون ا"[٣] .

وجملة: (وغرتهم الحياة الدنيا) معطوفة على جملة: (قالوا شهدنا على أنفسنا)؛ لما بينهما من توسط بين الكمالين، فهما خبريتان لفظاً ومعنى. الأولى خبر عن تبين الحقيقة لهم، وإقرارهم بأ م عصوا الله ورسله، وأ م أعرضوا عن لقاء يومهم هذا، وفي الثانية علموا وعلم السامع لخبرهم أ م ما تمادوا في غيبهم وضلالهم إلاّ لأ م غر م الحياة الدنيا[٤] .

وفي الجملة "إيجاز" بالحذف؛ فقد اكتفى فيها بذكر "الحياة الدنيا"، ولم تذكر الأشياء التي غر م وخدعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتفى عن ذكر غيرها؛ لدلالة الكلام على ما ترك ذكره [٥].

وفيها "التفات"؛ انتقل الكلام به من الخطاب إلى الغيبة، وذلك لفائدة جليلة؛ وهي أنه ـ تعالى ـ ذكر لغيرهم خبرهم، ليعجبهم ـ أعني المخاطبين ـ منه، كالمخبر لهم،

---

(١) التحرير والتنوير .(٧٨/٨) بتصرف .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) الكشاف .(٤٠/٢) .

(٤) ينظر التحرير والتنوير .(٧٩/٨) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن .(٣٤٦/٥) .

ويستدعي هذا منهم التقبيح والاستهجان لفعلتهم النكراء، وهي الكفر الذي كان بأذم الوجوه، وهو الاغترار الذي لا يقع فيه العاقل[(١)] .

وعطفت جملة"وشهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين" على قوله: (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) لما بينهما من توسط بين الكمالين؛ فهما جملتان خبريتان لفظاً ومعنى. فقوله: (وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ...) خبر استعمل لذمهم، واضطرارهم إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر، واستسلامهم لربهم، واستحقاق عذابه. ولعل ذلك؛ لتحذير السامعين من الوقوع في مثل ما وقع فيه المخبر عنهم [(٢)] .

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو؛ كيف أقروا في هذه الآية بالكفر، بينما جحدوا ذلك في السورة نفسها، في قوله تعالى حكاية عن قولهم: (قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) [الأنعام:٢٣].؟!. يعلل لهذا "الفخر الرازي" ـ ما معناه ـ: إن يوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة، فهم تارة قد يجحدون، وأخرى قد يقرون، وذلك لشدة خوفهم واضطرابهم؛ فإن من عظم خوفه،كثر الاضطراب في كلامه[(٣)] .

إلا أن حبر هذه الأمة ـ رضي الله عنه ـ له تعليل آخر أحسبه الأولى بالأخذ؛ فقد روي عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه أنه قال: "أتى رجلٌ ابن عباس، فقال: سمعت الله يقول: (وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، وقال في آية أخرى:(وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا)[النساء:٤٢]؟. قال ابن عباس: أما قوله: (وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: "تعالوا نجحد"، فقالوا: (وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم،(وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا) [النساء:٤٢]."[(٤)]

---

(١) المحرر الوجيز .(١٥٣/٦) بتصرف

(٢) الكشاف .(٤٠/٢) بتصرف .

(٣) ينظر : التفسير الكبير .(١٥/٥) .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن .(١٦٧/٥) .

وقد قال مقاتل: إن قولهم هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك، وبما كانوا يعلمون [١] .

والمقصود من قوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ....الآية. إعلام المشركين عامة بأ م مأمورون بالتوحيد والإسلام، وأن أولياءهم من شياطين الإنس والجن غير مفلتين من المؤاخذة على نبذ الإسلام، ولا أتباعهم[٢]. وفي الآية ما يدل على تكليف "الجن" قال ابن القيم في هذه الآية: "...لما اعترفوا كانوا كافرين[يعني الجن]، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دل ذلك على تكليفهم"[٣].

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن .(٨٧/٧) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير .(٧٧/٨) .

(٣) بدائع التفسير. (١٨٣/٢).

المبحث الثاني

الجملة الحالية

الجملة الحالية

مما يتصل بالفصل والوصل "الجملة الحالية"[(١)]؛ وذلك لأنها تأتي مقترنة بالواو، فتكون كالموصولة في الصورة الظاهرة ـ وإن كانت واوها لغير العطف ـ ، وقد لا تقترن بها، فتكون كالمفصولة، فلتلك المناسبة ألحقت بباب الفصل والوصل زيادة للفائدة[(٢)].

والجملة التي تقع حالاً ضربان، هما [(٣)]:

١- أن تكون خالية من ضمير يربط بين الحال وصاحبه، وفي هذه الحالة يتعين أن تقترن بالواو؛ لئلا تصير منقطعة عنه، غير مرتبطة به.

٢- أن تكون مشتملة على ضمير يربط بين الحال وصاحبه، ولهذا الضرب مع الواو عدة أحوال؛ هي:

وجوب اقترانها بالواو، أو امتناع ذلك، أو ترجح أحدهما، وتارة يستوي الأمران.

"وهذه الواو لا تسقط ولا تثبت عبثاً، بل لذلك دواع توجبها، وأخرى تحسنها فصلاً أو وصلاً."[(٤)].

ومن شواهد الجملة الحالية في آيات العقيدة في سورة الأنعام؛ قوله تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنعام:٨١].

---

(١) ينظر: الإيضاح (١٦٣).

(٢) ينظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح. ضمن شروح التلخيص (١١٦/٣).

(٣) ينظر: الإيضاح (١٦٤).

(٤) النظم القرآني في آيات الجهاد (٤٠١). وللاستزادة ينظر: دلائل الإعجاز (٢٠٢-٢٢١)، و: الإيضاح (١٦٤-١٧١)، و: شروح التلخيص (١٢٩/٣-١٥٨).

بعد أن بين ـ سبحانه وتعالى **ـ موقف إبراهيم من قومه؛ وأنه لا** يخاف **شركاءهم، بل** يخاف **الله ـ** تعالى **ـ وحده، ذكر هنا رجوعه ـ** عليه السلام **ـ** إلى **قومه مقرراً للحجة؛ فقال تعالى ـ حكاية على لسان إبراهيم ـ: (**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ**) الآية**[١]**.**

والآية جواب من إبراهيم ـ عليه السلام **ـ لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن** تمسه **بسوء؛ فقال** لهم**: كيف يسوغ** في **عقل أن أخاف ما جعلتموه** لله **ـ** تعالى **ـ شريكاً** في **الإلهية، وما هي موضع نفع ولا ضر..؟!، وأنتم لا** تخافون **الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على إلحاق الضر بكم؛ لإشراككم به أشياء** لم **يـ ل ا حجة وبرهاناً لكم**[٢]**.**

و"الواو" في **قوله: (**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ**) استئنافية، والكلام** بعدها **استئناف مسوق؛ لنفي الخوف عنه ـ** عليه السلام **ـ**[٣]**. وقيل: إ ا عاطفة؛ عطفت** جملة **"كيف أخاف..." على قوله: (**وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ**) [الأنعام:٨٠]؛** ليبين لهم **أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجباً من عدم خوفهم من الله ـ** سبحانه وتعالى **ـ**[٤]**.**

وخرج الاستفهام بـ**"كيف" عن معناه الأصلي،** إلى معنى **آخر فهم من السياق؛ وهو التعجب والإنكار؛** فإبراهيم **ـ** عليه السلام **ـ يتعجب هنا من فساد عقولهم** حين **خوفوه من خشب وحجارة لا** تملك **ضراً ولا نفعاً..!**[٥]**.** ثم **هو ـ** عليه السلام **ـ ينكر وقوع الخوف منه، وينفيه عن نفسه بالكلية، كما** في **قوله تعالى: (**كَيْفَ يَكُونُ

---

(١) ينظر : الضوء المنير (٤٦/٣)، و: تفسير القرآن الحكيم (٥٧٧/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٩/٥)، و: الضوء المنير (٤٦/٣) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٠/٧) .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٠/٧)، و: البحر المحيط (١٧٠/٤) .

لِّلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ) [التوبة:٧]، لا أنه ينكر خوفاً واقعاً، ويستبعده مع وقوعه، كما في قوله تعالى: (كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ) [البقرة:٢٨][1].

ومن دقائق التعبير القرآني في الجملة؛ إيثار توجيه إنكار إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الخوف نفسه، أو إلى كيفيته، لا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ، كأن يقال ـ في غير القرآن ـ : أأخاف؟!. ولعل نكتة هذا الإيثار؛ المبالغة في نفي الخوف؛ إذ في التعبير القرآني نفي للخوف ليس بقوة: أأخاف..؟، بل هو أقوى؛ وبيان ذلك أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال، وكيفية من الكيفيات، فإذا انتفت جميع أحواله وكيفياته، انتفى وجوده من جميع الجهات، ومن هذا الأساس قيل: إن التعبير القرآني أقوى في نفي الخوف من غيره[2].

وعبر عن الأصنام بـ"ما" الموضوعة ـ في الغالب ـ لما لا يعقل بقوله تعالى: (مَا أَشۡرَكۡتُمۡ)؛ لأ ا لا تعقل؛ إذ هي حجارة وخشب[3]. ولعل في هذا التعبير احتقاراً لمعبودا م وتقليلاً من شأ ا. وفيه تنبيه على ضلال قومه؛ فما يعكفون على عبادته ليلاً و اراً ما هو إلا جمادات صماء، وبما أ ا كذلك فهي ـ يقيناً ـ لا تملك لنفسها جلب نفع، ولا دفع ضر.

وشاهد الجملة الحالية في قوله تعالى: (وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا)، وللمفسرين في "الواو" قولان:

الأول : أ ا عاطفة، وما بعدها معطوف على جملة "وكيف أخاف"، فيكون الكلام داخلاً في التعجيب والإنكار؛ فخوفه من آلهتهم منكر، وعدم خوفهم من الله ـ تعالى ـ منكر[4].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٧٠/٤) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: التحرير والتنوير (٣٣٠/٧) .

الثاني : أ ا حالية، والجملة مقررة لإنكار الخوف، ونفيه عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ أي: وكيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، والحال أنكم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخلوقات؛ وهو إشراككم بالله ـ تعالى ـ الذي ليس كمثله شيء[١].

والبراعة في النظم القرآني تظهر بصورة أبلغ بالأخذ بالقول الثاني؛ فهو أبلغ من الأول، لأن المقصود في الآية ـ والله أعلم ـ مقابلة حال بحال، لا بيان ما هو منكر وما ليس بمنكر؛ بقرينة قوله تعالى في آخر هذه الآية: (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)[٢]. ثم إن جعلها عاطفة يؤدي إلى فساد المعنى؛ لأن الإنكار بمعنى النفي بالكلية، فيكون المعنى نفي الخوف عنه ـ عليه السلام ـ ونفي نفيه عنهم، فيصير المعنى إثبات خوف قومه.. وهذا بين الفساد[٣].

أما اقتران جملة الحال هنا بالواو، فواجب لاسمية الجملة؛ إذ إن جملة "لا تخافون" خبر لمبتدأ محذوف تقديره "أنتم"، والجملة الاسمية في محل نصب حال[٤]، ولو رفعت الواو منها لصار الكلام مفككاً.

ومن ملامح الحسن في نظم الآية؛ اختلاف متعلق الخوف فيها؛ فمن جهة إبراهيم ـ عليه السلام ـ علق الخوف بالأصنام، فقال تعالى حكاية عن قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: (وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ)، أما من جهتهم، فقد علقه بإشراكهم بالله ـ تعالى ـ، فقال: (وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ)، ولم يكن التركيب ـ كما في غير القرآن ـ : "ولا تخافون الله"، ففي التعبير القرآني ترك للمقابلة، وهذا من مراعاة حسن الأدب مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لئلا يكون ـ تعالى ـ عديل أصنامهم[٥].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٠/٧) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٤) ينظر : الجدول في إعراب القرآن (٢٠٦/٤) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٧٠/٤)، و: حاشية زاده (١٨٣/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣).

وعلل لذلك التعبير ابن عاشور بقوله: "ولم يقل: "ولا تخافون الله"؛ لأن القوم كانوا يعرفون الله ويخافونه، لكنهم لم يخافوا الإشراك به"(١).

وفي الإتيان باسم الجلالة "الله"؛ تذكير بقدرته ـ تعالى ـ على العذاب والنقمة؛ لأن اسم الجلالة "الله" جامع لصفات العظمة والجلال(٢)، وهذا مما يبثت الخوف في نفوسهم، والطمأنينة في نفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

قوله: (مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا)؛ أي حجة تحتجون بها على صحة ما أنتم عليه من عباده(٣). وفي هذا تهكم بهم مع الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على حجة منزلة من عند الله ـ تعالى ـ (٤).

ومن أسرار التنكير في الآية ما أفاده تنكير كلمة (سُلۡطَٰنٗا)؛ فهم يرتكبون أمراً عظيماً، مخالفين بذلك فطرهم التي فطرهم الله ـ تعالى ـ عليها، وهذا الفعل العظيم لا بد أن يقابله سلطان وبرهان عظيم يثبت صحته، فكان الإتيان بـ"سلطاناً" نكرة لتعظيم شأنها وشأن من نزلها.

قوله: (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ)؛ الفاء فيه للتفريع؛ فرع على الإنكار والتعجب استفهاماً آخر تقريرياً، يلجئهم إلى الاعتراف بأنهم أولى بالخوف من الله ـ تعالى ـ من إبراهيم من آلهتهم (٥).

ويلحظ في التعبير القرآني العدول عن الاستفهام بنحو: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ إلى الصيغة الواردة في الآية، ولذلك أسراره لعل منها: احتراز إبراهيم ـ عليه السلام ـ من تزكية نفسه(٦). أو لتأكيد الإلجاء إلى الجواب الحق، وذلك باستنزالهم عن رتبة المكابرة

---

(١) التحرير والتنوير (٣٣٠/٧) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (١٦٦/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٩/٥)، و: مجمع البيان (٥٠٥/٤) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٥/٣) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (٩٥/٦)، و: التحرير والتنوير (٣٣١/٧) .

(٦) ينظر : الكشاف (٢٥/٢) .

والاعتساف؛ لينظروا في هذا الأمر بعين الإنصاف[(١)]. ولعل منها إفادة العموم؛ فيعم بالاستفهام كل موحد وكل مشرك.

وصيغة التفضيل في قوله: (أَحَقُّ بِالأَمْنِ)؛ للمبالغة، أي: الحقيق بالأمن، أو كامل الاستحقاق به؛ لأن المشركين ليس لهم أمن أصلاً [(٢)].

وقوله: (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ساند الجملة الاستفهامية السابقة في أداء المعنى، فذكرها يلزمهم بالجواب حتماً[(٣)]. ولعل ذلك الإلزام فهم من تقييد الجملة بأداة الشرط (إن) دون (إذا)؛ فإن تفيد التشكيك فيما لديهم من علم، فكأن في هذا نوعاً من التحدي لهم، وذلك يدفعهم إلى الإجابة قصراً.

وأطلقت الجملة ولم تقيد بمفعول به، ولعل هذا لإفادة التعميم؛ أي: إن كنتم تعلمون شيئاً[(٤)]. وقد يكون متروكاً؛ أي: إن كنتم من أولي العلم[(٥)].

ومن اللطائف البلاغية في الآية ـ أيضاً ـ: الإيجاز بحذف جواب الشرط، والتقدير: إن كنتم من ذوي العلم، فأخبروني أي الفريقين أحق بالأمن[(٦)].

ومن شواهد الجملة الحالية ما جاء في قوله تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) [الأنعام:٩٣].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٦/٣) .
(٢) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (الهامش) (٤٢٥/٢) .
(٣) ينظر : نظم الدرر (١٦٦/٧) .
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٦/٣) .
(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٦) ينظر : البحر المحيط (١٧٠/٤) .

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...) [الأنعام:٩٢]؛ أنه لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن القرآن كتاب نازل من عنده ـ تعالى ـ ، وبين ما فيه من صفات الجلالة والشرف والرفعة، ذكر عقيبه ما يدل على وعيد من ادعى النبوة والرسالة على سبيل الكذب والافتراء[١].

قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)؛ خرج الاستفهام فيه عن معناه الأصلي إلى آخر فُهم من السياق؛ وهو الإنكار؛ أي: لا أحد أظلم[٢]. والمعنى: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله ـ تعالى ـ كذباً؛ فادعى عليه أنه بعثه نبياً وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مبطل[٣]. ودخول إدعاء الرسالة كذباً في افتراء الكذب على الله ـ تعالى ـ لا يعني اقتصار معنى افتراء الكذب على الله عليه؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من نسب إلى الله ـ تعالى ـ ما هو بريء منه، إما في الذات، أو في الصفات، أو في الأفعال كان داخلاً تحت هذا الوعيد[٤]، كمن جعل لله ـ تعالى ـ شريكاً أو ولداً [٥].

و"من" الثانية من قوله: (مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) موصولة، أريد ا الجنس؛ أي كل من افترى أو قال..، وليس المراد فرداً معيناً؛ فالمشركون ـ مثلاً ـ من الذين افتروا على الله كذباً؛ لأ م حللوا وحرموا واهم وزعموا أن الله ـ تعالى ـ أمرهم بذلك، كما أن هناك غيرهم ممن يدخل تحت هذه الآية[٦].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٦٦/٥) .

(٢) ينظر : مجمع البيان (٥١٨/٤) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٨/٥) بتصرف.

(٤) ينظر : التفسير الكبير (٦٦/٥) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن الكريم (٤٩/٢) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٤/٧) وما بعدها .

وعطف على صلة "من " قوله: (أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ)؛ أي: كل من ادعى النبوة كذباً[١]. وهذا العطف من قبيل عطف الخاص على العام[٢]. فادعاء النبوة داخل في افتراء الكذب على الله إلا أنه أفرد هنا بالذكر، وذلك دلالة على عظمه[٣].

كما دل على عظم هذا الادعاء التعبير بالجملة الحالية بقوله: (وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ)؛ فجملة "لم يوح" في موضع نصب على الحال من ضمير الفاعل في "قال"، أو "الياء" في "إلي"[٤]، والتنصيص ا شنع على المدعي وعظم جنايته. وقد اقترنت الجملة بالواو؛ لأن تركها يؤدي إلى تفكك الكلام وخلوه من الربط.

قوله: (وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ)؛ أي: لا أحد أظلم من ذلك، ومن الذي قال: سأنزل مثل ما أنزل الله[٥]. ويدخل فيه كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله[٦].

واتصال "السين" بالفعل في قوله: (سَأُنزِلُ)؛ أفاد التأكيد. ويلحظ أن هذا المدعي لم يقل ـ فيما حكي عنه ـ: سأقول مثل ما قال الله، بل قيل: (سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ)؛ وهذا التعبير القرآني يوحي بما هم عليه من استكبار، وإعراض عن قبول الحق الذي جاءهم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة وتفصيلاً؛ فهم يطعنون في نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفي القرآن الكريم، ويزعمون أنه ليس كلام الله، إنما هو شعر.. ونحو ذلك، كما يوحي بالتحدي.

ثم ذكر تعالى وعيد الظالمين الذين يعد من وصف في الآية أشدهم ظلماً وأفحشهم جرماً؛ فقال: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...)[٧]. وأول الآية؛ وهو

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٥/٧) .
(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٢٤/٧) .
(٣) ينظر : مجمع البيان (٥١٨/٤) .
(٤) إعراب القرآن وبيانه (١٧٠/٣) بتصرف .
(٥) ينظر : معاني القرآن (٣٤٤/١) .
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٤٣٤/٢) بتصرف .
(٧) تفسير القرآن الحكيم (٦٢٥/٧) بتصرف .

قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...) يفيد التخويف العظيم للظالمين على سبيل الإجمال، أما قوله بعده: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...)؛ فهو كالتفصيل لذلك المجمل[١]، ببيان ما أعده ـ سبحانه وتعالى ـ لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة[٢].

والخطاب في قوله: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...) للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [٣]، ثم لكل من يسمع أو يقرأ[٤].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

الإيجاز بالحذف؛ إذ حذف من الجملة جواب الشرط، وحذفه أبلغ من ذكره؛ لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله[٥]، وهذا يخلف في نفسه عظيم الأثر، والجواب المحذوف يقدر بمثل: لرأيت أمراً عظيماً[٦].

والتعريف في (الظَّالِمُونَ) قد يكون للعهد؛ أي: الظالمون الذين ذكروا في الآية[٧]، أو للجنس المفيد للاستغراق، فيشمل الظالمين المذكورين في الآية وغيرهم[٨].

وقيدت الرؤية بقوله: (فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ)؛ وتقييدها بهذا الوقت على وجه الخصوص، لتهويل مصيرهم الذي سيلاقيهم حين لا ينفعهم طب ولا دواء، فليس المراد رؤيتهم وحسب، بل رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر[٩].

---

(١) التفسير الكبير (٦٦/٥) بتصرف .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٣٤/٢) بتصرف .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٧٠/٥) .

(٤) تفسير القرآن الحكيم (٦٢٥/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٠٩/٦) .

(٦) الكشاف (٢٧/٢) بتصرف .

(٧) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٢٥/٧) .

(٨) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٦/٧) .

(٩) ينظر : روح المعاني (٢١١/٤) .

والغمرات: "جمع غمرة، وغمرة كل شيء: كثرته ومعظمه، وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها"[١]، ثم استعيرت للشدائد والمكاره[٢]، وذلك تشبيهاً لها بالشدة الحاصلة للغريق حين يغمره الوادي أو السيل[٣]؛ لتمكنه منه، فهو يرفعه ويخفضه، ويبتلعه ويلفظه دون أن يستطيع له فكاكاً[٤].

وجمعت كلمة الغمرات ولم تفرد؛ ولعل ذلك لإفادة تعدد الغمرات بعدد الظالمين، فتكون صيغة الجمع مستعملة في حقيقتها، وأقوى منه أن يكون جمعها لقصد المبالغة في ويل ما يصيبهم؛ بأنه أصناف من الشدائد، هي لتعدد أشكالها وأحوالها لا يعبر عنها باسم المفرد، فالموت لما كانت شدته سكرات، جعلت غمرته غمرات[٥].

"و (فِي) للظرفية ا ازية؛ للدلالة على شدة ملابسة الغمرات لهم حتى كأ ا ظرف يحويهم ويحيط م."[٦].

وللجملة الحالية شاهد في قوله: (وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ)؛ فالجملة هنا حالية، وقد ترجح اجتلاب الواو؛ لاسميتها ولكون المبتدأ فيها ليس ضميراً، وأفادت الجملة تصوير الحال والهيئة التي عليها الملائكة لحظة مواجهتهم للظالمين الذين يكابدون غمرات الموت، فنقل ا الخبر إلى المتلقي من كلام ملفوظ إلى صورة شاخصة تتراءى لعينيه، وكأنه يعاينها حقيقة..، وهذا أبلغ في التأثير.

ولم يصرح هنا بالشيء الذي بسطت إليه الملائكة الأيدي، لكنه أشير فيما بعدها إلى ماهيته؛ بقوله: (أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ...)، إذ عرف منه أنه التعذيب. كما صرح بذلك في قوله: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلاَئِكَةُ

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٧٠/٥) .
(٢) ينظر : معالم الت يل (١١٦/٢)، و: الكشاف (٢٨/٢) .
(٣) التحرير والتنوير (٣٧٧/٧) بتصرف .
(٤) ينظر : نظم الدرر (١٩٠/٧) .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٧/٧) .
(٦) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَارَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ) [الأنفال:٥٠][(١)]. فالكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم وغضب الجبار..، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج، فتضر م الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: (أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ)[(٢)].

وخرج الأمر بإخراج الأرواح من الأجساد بقوله: (أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ) عن معناه الأصلي إلى آخر فُهم من السياق؛ وهو الإهانة، إغلاظاً في قبض أرواحهم وإلحاحاً وتشديداً في الإرهاق من غير تنفيس أو إمهال[(٣)]. "وفيه إشارة إلى أ م يجزعون فلا يلفظون أرواحهم، وهو على هذا الوجه وعيد بالآلام عند الـ ع جزاءً في الدنيا على شركهم، وقد كان المشركون في شك من البعث، فتوعدوا بما لا شك فيه، وهو حال قبض الأرواح بأن الله يسلط عليهم ملائكة تقبض أرواحهم بشدة وعنف وتذيقهم عذاباً في ذلك. وذلك الوعيد يقع من نفوسهم موقعاً عظيماً؛ لأ م كانوا يخافون شدائد الـ ع."[(٤)].

وقيل: المعنى أخرجوا أنفسكم من العذاب، و عليه فالأمر للتعجيز؛ أي: خلصوها من أيدينا إن كنتم تقدرون على الخلاص[(٥)]، أو للتوبيخ والتوقيف على سالف فعلهم القبيح في الدنيا[(٦)]. وجاء في "المحرر الوجيز": "هذا التوبيخ على هذا الوجه هو في جهنم"[(٧)]. وتعقب بأن قوله: (أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ) "خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة، وهم الصادقون، أ م حينئذ يجزون عذاب الهون،

---

(١) ينظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٨٢/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٤٩/٢) بتصرف .

(٣) ينظر : الكشاف (٢٨/٢)، و: التحرير والتنوير (٣٧٨/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٨/٧) .

(٥) ينظر : الكشاف (٢٨/٢) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (١٠٩/٦)، و: الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٧) .

(٧) المحرر الوجيز (١٠٩/٦) .

ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ)"[١]. وعليه فإن الآية تنهض دليلاً على عذاب البرزخ ونعيمه[٢].

وأضيف العذاب إلى الهون بقوله: (عَذَابَ الْهُونِ)؛ للدلالة على العراقة في الهون والتمكن فيه[٣]؛ لأن التنكيل قد يكون على سبيل الزجر والتأديب ولا هوان فيه، وقد يكون على سبيل الهوان؛ فأضيف العذاب إلى الهوان للنكتة السابقة[٤]. فالعذاب الواقع م جامع بين الإيلام العظيم والهوان الشديد والخزي المديد؛ بال ع وسكرات الموت، وما بعده في البرزخ، إلى ما لا اية له في جهنم[٥].

ولم يقع هذا العذاب عليهم ظلماً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ، بل هو جزاء على ظلمهم لأنفسهم[٦]؛ وقد أبان ـ تعالى ـ سبب ذلك العذاب بقوله: (بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)، واشتمل "ما كنتم تقولون" الأقوال الثلاثة المتقدمة في قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ) إضافة إلى غيرها من الأقوال[٧].

والتعبير بفعل الكينونة والفعل المضارع أفاد تجدد القول منهم ودوامهم على ذلك[٨]. والتصريح باسم الجلالة "الله"؛ لتربية المهابة في النفوس، ولتهويل فعلتهم واستبشاعها.

---

(١) الضوء المنير (١٦٦/٢) .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٣٦/٢) .

(٣) ينظر : الكشاف (٢٨/٢) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (١٨١/٤) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٦٨/٥)، و: نظم الدرر (١٩١/٧) .

(٦) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٢٧/٧) .

(٧) التحرير والتنوير (٣٨٠/٧) بتصرف .

(٨) ينظر : نظم الدرر (١٩١/٧) .

وقيدت الجملة بقوله: (غَيْرَ الْحَقِّ)؛ أي: غير القول المتمكن غاية التمكن في درجات الثبات، ولو قيل ـ كما في غير القرآن ـ: باطلاً، لم يؤد المعنى السابق، أو: "الباطل"؛ لازدياد اللفظ قصوراً عن أداء المعنى(١).

وقوله: (وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) عطف على: (كُنتُمْ تَقُولُونَ)؛ أي: بما كنتم تقولون على الله غير الحق وباستكباركم عن الخضوع لأمر الله ـ جل وعلا ـ أمر رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، والانقياد لطاعته(٢).

والتعبير بفعل الكينونة للدلالة على الاستمرار على هذا الفعل والدأب عليه حتى صار عادة لهم. وتقديم "عن آياته" اهتماماً به ورعاية للفواصل. والإتيان بفعل الاستكبار بصيغة المضارع؛ لإفادة التجدد.

وأختتم شواهد الجملة الحالية بقوله تعالى:

(أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [الأنعام:١١٤].

لما بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في السياق الذي قبل هذا أن الذين اقترحوا على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ الآيات الكونية، وأقسموا بأ م يؤمنون ا إذا جاء م كاذبون في دعواهم وأيما م، كما ثبت فيما مضت به سنة الله في أمثالهم من أعداء الرسل المعاندين وهم شياطين الأنس والجن الذين يغرون الجاهلين بزخرف أقوالهم، فيصرفو م ا عن الحق، ويزينون لهم الباطل فتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويرضونه لموافقته لأهوائهم، فيحملهم على اقتراف السيئات. أتبعه بذكر الآية الكبرى التي هي

(١) ينظر: نظم الدرر (١٩١/٧) .

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٢٧١/٥)، و: التحرير والتنوير (٣٨٠/٧) .

أقوى دلالة على رسالة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جميع ما اقترحوه..؛ وهي القرآن الكريم، وكون م لها هو الذي يجب الرجوع إليه في الحكم في أمر الرسالة وغيره(١).

قوله: (أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا) "كلام مستأنف وارد على إرادة القول"(٢)، ويلحظ أن هذا القول الذي يقوله النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا المقام لم يصدر بأمر الله ـ تعالى ـ "قل"، كما في قوله في أول السورة: (قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) [الأنعام:١٤]، وكذا في آخرها: (قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ) [الأنعام:١٦٤]..، فأي سر في مجيء مقول القول هنا مجرداً عن القول؟!.

ومما يجاب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أن هذا القول، وإن كان من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ ، إلا أن كل إنسان عاقل جدير بأن يقوله؛ فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أمر به(٣).

ومن أسرار التعبير في الآية :

خروج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى النفي والإنكار؛ أي: لا أبتغي حكما غير الله ـ تعالى ـ(٤)، فكأن المشركين دعوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التحاكم في شأن نبوته بحكم ما اقترحوا عليه من الآيات، فأجا م بأنه لا يضع دين الله ـ جل وعلا ـ للتحاكم، ولذلك وقع الإنكار؛ فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينكر عليهم أن يحكم غير الله ـ تعالى ـ ، لأن حكم الله ـ جل وعلا ـ ظاهر بإنزال الكتاب مفصلاً بالحق، وبشهادة أهل الكتاب في نفوسهم(٥).

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١٠/٨) بتصرف .
(٢) إرشاد العقل السليم (١٧٧/٣) .
(٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٩٩/٤) .
(٤) ينظر : البحر المحيط (٢٠٩/٤) .
(٥) التحرير والتنوير (١٤/٨) بتصرف .

ومنها: تقديم المفعول به (غير الله) على الفعل (أبتغى)؛ وذلك ـ والله أعلم ـ للإيذان بأن مدار الإنكار، هو ابتغاء غير الله ـ تعالى ـ حكما، لا مطلق الابتغاء؛ لذا كان المفعول به هو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري[١].

ومن الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ اختيار كلمة (حَكَمًا) في هذا المقام. والحكم: المتخصص في القضاء[٢]، ولا يستحق أن يوصف به إلا من يحكم بالعدل والحق، فهي صفة تعظيم في مدح، بينما "الحاكم" جارية على الفعل، فقد يوصف بها من يحكم بغير الحق، ومن كان جائراً في حكمه[٣]. فالحَكَم أبلغ من الحاكم[٤]؛ لذلك كان من أسمائه ـ جل وعلا ـ "الحَكَم"، ولم يكن "الحاكم"[٥]. والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أحكم الحاكمين، فكان من البلاغة التعبير بكلمة (حَكَمًا) في هذا المقام.

ثم أورد تفصيل لذلك الإنكار، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً؛ وهو أن الله ـ تعالى ـ لم يترك شيئاً غامضاً، ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة[٦]، فقال مدللاً على ذلك بالجملة الحالية: (وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)؛ أي: والحال أنه هو لا غيره قد أنزل كتاباً مفصلاً [٧]. وجملة الحال اسمية، واقترنت بالواو وجوباً؛ لكون المبتدأ فيها ضميراً لصاحب الحال، وأتي بالجملة لتأكيد إنكار ابتغاء غير الله ـ تعالى ـ حكما[٨].

وصياغة جملة الحال على الاسمية بتعريف الجزأين؛ أفاد القصر، فالمعنى: والحال أنه أنزل إليكم الكتاب ولم ينزله غيره، ونكتة ذلك أن في القرآن دلالة على أنه من عند الله

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٧٧/٣)، و: التحرير والتنوير (١٤/٨) .

(٢) ينظر : المفردات (١٢٧) .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز (١٣٥/٦)، و: الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٧) .

(٤) المفردات (١٢٧) بتصرف .

(٥) التحرير والتنوير (١٤/٨) بتصرف .

(٦) في ظلال القرآن (١١٩٤/٣) بتصرف .

(٧) ينظر : نظم الدرر (٢٣٥/٧) .

(٨) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٧٧/٣) .

ـ تعالى ـ بما فيه من الإعجاز، وبأمية المنزل إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وأن فيه دلالة على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبعاً لثبوت كونه م لاً من عند الله ـ تعالى ـ ، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبر أنه أرسل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس كافة، وفي تضاعيف حجج القرآن وأخباره دلالة على صدق من جاء به؛ فحصل بالتعبير عن جملة الحال بصيغة القصر الدلالة على الأمرين؛ أنه من عند الله ـ تعالى ـ ، والحكم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصدق[١].

ونسبة الإنزال إليهم خاصة بقوله: (إِلَيْكُمُ) مع أن مقتضى المقام ـ والله أعلم ـ إظهار تساوي نسبته إلى المتحاكمين عامة، لعل ذلك لاستمالة قلو م نحو المنزل، واستـ الهم إلى قبول حكمه لقوة نسبته إليهم[٢]، وأسهم تقديم الجار وا رور على المفعول به في تقوية هذا المعنى؛ إذ إن التقديم يدل على الاهتمام بالمُقدم. وفي نسبة الإنزال إليهم ـ أيضاً ـ "تسجيل عليهم بأنه قد بلغهم فلا يستطيعون تجاهلاً"[٣].

والتعريف في (الْكِتَابَ)؛ للعهد الحضوري، أي: هذا القرآن الذي يتلى عليكم[٤]. وفي تأخير كلمة "الكتاب" تشويق للمؤخر، حتى إذا ذكر كان له وقع في النفوس.

وقوله: (مُفَصَّلاً)؛ أي: قد فصلت آياته، وبين فيها الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم، وفي كافة الأمور، بياناً مزيلاً للإشكال[٥]. فإذا كان القرآن كذلك، فأي حاجة إلى الحكم..؟![٦].

فالقرآن الكريم مفصل مبين؛ وهذا يعني أنه "ضد ما يصفه به من يزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٨) بتصرف .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٧٧/٣) .
(٣) التحرير والتنوير (١٥/٨) .
(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٨/٥)، و: المحرر الوجيز (١٣٥/٦) .
(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (٧٧/٣) .

أن لها معاني لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها. فهولاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره، أو إفهام خلاف الحق."[١].

ولقد ظهر في هذه السورة الاعتناء بالتنبيه على التفصيل؛ لوقوع العلم من أرباب البصائر في الصنائع بأن من لا يحسن التفصيل لا يتقن التركيب[٢]. وفي هذا دلالة على تمام القدرة، وتمام العلم له ـ سبحانه وتعالى **ـ .**

ثم قال تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ**)؛ والجملة معطوفة، وفيما عطفت عليه ثلاثة أقوال، هي:**

١- أنها معطوفة على القول المحذوف، فتكون استئنافاً مثله.

٢- أنها معطوفة على جملة "أفغير الله أبتغي".

٣- أنها معطوفة على جملة "وهو الذي أنزل إليكم الكتاب"، فهو عطف تلقين عطف به الكلام المنسوب إلى الله ـ تعالى **ـ على الكلام المنسوب إلى النبي ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ ، تعضيداً لما اشتمل عليه الكلام المنسوب إلى النبي ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ من كون القرآن حقاً، وأنه من عند الله ـ** تعالى **ـ [٣].**

والتعريف في "الكتاب" في قوله: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**)؛ للعهد؛ أي: الكتاب المعهود إنزاله من التوراة والإنجيل[٤]، فالكتاب الأول مصدق للقرآن، ومن نظر فيه؛ علم**

---

(١) الضوء المنير (٣/٨٠) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٧/٢٣٦) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٨/١٦) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٣١٨)، و: نظم الدرر (٧/٢٣٦) .

علماً يقيناً أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، وذلك الكتاب ليس هو المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم، بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه.(١)

قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ عبر عن علمهم بالفعل المضارع، الذي أفاد تجدد هذا العلم من أهل الكتاب واستمراره. والإتيان بقوله: ﴿مُنَزَّلٞ﴾ بالتضعيف أفاد ـ والله أعلم ـ التأكيد.

ولما كان هذا المقام بسياق الإنزال يقتضي الإحسان، ناسبه أن يقال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: المحسن إليك، بما خصك به في هذا الكتاب من أنواع الفضائل. (٢)

والباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ للملابسة؛ أي ملابساً للحق؛ فمعانيه، وأخباره، ووعده، ووعيده.. وكل ما فيه حق. (٣)

وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به، ومن هذا الحق الذي يحتويه. وما يزالون ـ من أجل علمهم بهذا كله ـ يحاربون هذا الدين، ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ..، وأنكى هذه الحروب وأشدها؛ تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر. وجعل غير الله ـ تعالى ـ حكما، حتى لا تقوم لكتاب الله ـ تعالى ـ قائمة، ولا يصبح لدين الله وجود، ولتقام ألوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده، يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه، ولا تشاركها شريعة أخرى، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله ـ جل وعلا ـ كتب أخرى .(٤)

---

(١) الضوء المنير (٣/٨٠) بتصرف .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٧/٢٣٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٨/١٦) بتصرف .

(٤) في ظلال القرآن (٣/١١٩٤) بتصرف .

وختمت الآية بقوله: (فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)؛ أي: إن أنكر قومك وجحدوا ما أنزلته إليك، وكذبوا به، فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون صدقه وأنه م ل من ربك، فلا تكونن من الشاكين في حقيقة الأنباء التي جاءت من الله في هذا الكتاب.(١)

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

اتساع الخطاب بقوله: (فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) إلى أكثر من وجه، هي:

١- أن يكون خطاباً للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فيكون التفريع بالفاء على قوله: (يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ)؛ أي: فلا تكونن من الممترين في أ م يعلمون ذلك، والمقصود تأكيد الخبر.

٢- أن يكون خطاباً عاماً، فيعم كل من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب؛ أي: فلا تكونن ـ أيها المتلقي ـ من الممترين في كون القرآن من عند الله ـ تعالى ـ من الممترين في كون القرآن من عند الله ـ تعالى ـ ، ويكون التفريع على قوله: (مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ).

٣- أن يكون الخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمقصود من الكلام المشركون الممترون، على سبيل التعريض، والتفريع فيه كما في الوجه الثاني. وإذا ثبت أن هذه الوجوه الثلاثة غير متعارضة، صح أن تكون جميعها مقصودة من الآية؛ لتذهب أفهام السامعين إلى ما تتوصل إليه منها، وهذا من بلاغة إيجاز القرآن. (٢)

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٨/٥) بتصرف .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٧/٨) .

وهذا التوجيه وأمثاله في القرآن الكريم يوحي بعظم ما كان يلقاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن آمن معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود، كما يوحي برحمة الله ـ تعالى ـ به و م ، إذ بمثل هذا التوجيه يثبت أولياءه على الحق. [1]

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٩٥/٣). وللوقوف على شواهد أخرى للجملة الحالية في هذا البحث ينظـر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ :(٣٤)،(١١٣)،(٤٣٥) .

المبحث الثالث

خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

إن لخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر صور عدة؛ منها:

أولاً:

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي[١]:

وهذه الصورة كثر التعبير ا في القرآن الكريم، وغلب استخدامها في الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر، وما فيه من أهوال وأحداث.

وهذا التعبير يأتي لفائدة، فالفعل الماضي إذا أخبر به عن المضارع، الذي لم يوجد بعد، كان هذا أبلغ وآكد، وأعظم موقعاً، وأفخم بياناً؛ والسر في ذلك لأن الفعل بصيغته الماضية يعطي القارئ معنى لا يعطيه إياه الفعل في صيغة المضارعة في هذا المقام، فكأن هذا الفعل الذي لم يكن، والذي عبر عنه بلفظ المضي قد وجد وصار من الأمور المقطوع بحدوثها[٣].

فإذا كان الغالب في القرآن الكريم عند الحديث عن اليوم الآخر أن يؤتى فيه بأفعالٍ لم تأت بلفظ المضى؛ فما ذاك إلا لإثبات هذه القضية العقدية، وترسيخها في الأذهان، وللإشارة إلى أ ا واقعة لا محالة، ولا مجال للشك فيها كيف لا والمخبر عنها هو علاّم الغيوب، الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

---

(١) ينظر الإيضاح.(٨٣)

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (١١٢) بتصرف.

ومن شواهد هذه الصورة في الآيات التي معنا :

قوله تعالى:(وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليم)**[الأنعام:١٢٨].**

ومناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أنه لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ **ثواب الذين يتذكرون، وهو "دار السلام"، ناسب أن يعطف عليه ذكر جزاء الذين لا يتذكرون؛ ليكون الوعيد مذكوراً بعد الوعد[١].**

وفي **هذه الآية إثبات لخامس ركن من أركان الإيمان، وهو اليوم الآخر، وما يجري فيه من حشر وحساب وجزاء ... ولم تكن هذه المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا اليوم في هذه السورة، بل كان فيها لبعض أحواله بيان على وجوه من أفانين البيان. وإذا اقترب القارئ من هذه الآية يجد أنه تعالى ذكر فيها شيئاً من أحوال الضالين والمضلين في ذلك اليوم، وبعض ما يقال لهم فيه، وما يجازون به [٢].**

والشاهد البلاغي، الذي أوردت الآية استشهاداً به يظهر في قوله تعالى: (وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ)**وقوله:**(قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ)**. فالقارئ عندما ينظر في هاتين الجملتين فهو حتما سيقف أمام كلمتي "قال" متسائلاً؛ إذ كيف أتي بالفعل بلفظ الماضي مع أن هذا اليوم ـ يوم الحشر ـ لم يأت بعد، ووقوعه في المستقبل بقرينة قوله:** (يِحْشُرُهُمْ)**، فهذه المحاورة لم تكن؛ فكيف كان ذلك..؟!. ولهذا المتسائل يقال: إن ما أثار تساؤلك هو فن بلاغي، يسميه أهل البلاغة "خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر" بطريق التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي. وإنما جيء بالفعل: "قال" في الموضعين المذكورين في الآية بدلاً من لفظ المستقبل؛ لنكتة بلاغية، وهي تحقق وقوع هذا**

---

(١) ينظر التفسير الكبير (١٤٧/٥)، و:التحرير والتنوير (٦٦/٨) .

(٢) نظم الدرر (٢٦٦/٧) بتصرف .

القول عند المحاسبة، فهم حتماً سيندمون ويظهرون ذاك الندم ولات ساعة مندم، ووقوع الجزاء عليهم متحقق ـ أيضاً ـ ولا شك فيه. فإذا مرت هذه الآية على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، خاف وارتدع، وعمل لما بعد الموت.

وثمة وقفة يسيرة مع الآية يكشف فيها عن بعض ما تحمله من معان ، ومن لطائف بلاغية. فقوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ) هذا القول توبيخ لهم وتقريع[١].

ومعنى الآية: أي أضللتم كثيراً من الإنس[٢]. وليس أي إضلال؛ بل هو إضلال بكثرة طاغية دلت عليه كلمة "استكثرتم"، فالسين والتاء فيها للمبالغة، بمعنى أنكم ـ يا معشر الجن ـ قد تجاوزتم الحد في استهوائهم واستغوائهم[٣].

ويأتي قوله تعالى: (وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا) بالعطف والكلام كان محاورة، والأصل في هذا المقام أن تفصل هذه الجملة عما قبلها، كما تفصل جمل المحاورة في السؤال والجواب فما السر في هذا العطف يا ترى؟! إن القارئ لو تأمل في الآية لوجد أن هؤلاء الذين أجابوا بهذا القول ـ وهم أنصار الجن من الإنس ـ لم يكونوا مخاطبين ابتداءً ، إنما المخاطب ابتداءهم جماعة الجن، فكلام أنصارهم ربما صح أن يقال عنه إنه دخيل في المحاورة؛ لذا لم تفصل هذه الجملة عما قبلها، بل عطفت على جملة جواب الجن المستتر[٤]. ومن المفسرين من يقول إن الاقتصار على حكاية حال الضالين دون المضلين لعله إيذان بأن المضلين قد أفحموا، ولم يكن بمقدورهم التكلم[٥]. ومع هذا التعليل تكون جملة: "وقال أولياؤهم" معطوفة على

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٤/٣).

(٢) مختصر الطبري (٣٥١/١) بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير (٦٧/٨) بتصرف .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٢٦٨/٧) ،و:التحرير والتنوير (٦٩/٨) .

(٥) إرشاد العقل السليم (١٨٥/٣) بتصرف.

جملة: "قد استكثرتم من الإنس" لما بينهما من توسط بين الكمالين؛ كمال الاتصال وكمال الانقطاع والله تعالى أعلم.

ومما في هذه الآية من لطائف بلاغية الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ فهؤلاء الضالون حين رأوا أ م قد أحيطوا م..طمعوا بالنجاة من العقاب عن طريق الاعتراف بالذنب فأظهروا الندامة على ما فرطوا فيه من اتباع للهوى، وتكذيب بالبعث، والتحسر على حالهم، والاستسلام لر م[1] . وقدموا لذلك بكلمة ما دفعهم إليها إلا شدة حاجتهم لها في ذلك المقام؛ لما تحملته من معان جمة؛ وهي كلمة "ربنا"، ولست أحسب كلمة أخرى تصلح لأن تحل مكان "ربنا" في هذا المقام، فدلالا ا البليغة لا تخفى تأثيرا ا على نفس المتلقي والمتكلم. "رب" إنه الاستعطاف، وطلب الرحمة، والإحسان، وممن؟! من "ربنا" المحسن إليهم، المربي لهم. ثم أردفوا ذلك بقولهم: (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) يقول ابن القيم في تعليق له على هذه الآية: هذا عين الاستعطاف، والتوبة. وهذا القول يتناول أجل الموت وأجل البعث، كأ م يقولون: هذا أمر كان إلى وقت، وانقطع بانقطاع أجله، ولم يستمر...يلتمسون ذا فضله ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمته[2].

ويأتيهم الرد بقوله تعالى: (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليم)وفصلت هذه الآية عما قبلها واستؤنفت استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قال الله لهم حينئذ؟. فقيل: (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ)[3] وسبق أن ذكرت بلاغة مجيء الفعل "قال" بصيغة المضي. وقوله: (مَثْوَاكُمْ) المثوى كما يقول الفخر الرازي في تفسيره هو:المقام والمقر والمصير[4]. ومثوى العبد الأخير ليس القبر، بل إما الجنة وإما النار.

---

(١) الكشاف. (٣٩/٢) بتصرف.

(٢) ينظر : بدائع التفسير (١٨٢/٢) وما بعدها.

(٣) نظم الدرر (٢٦٨/٧) بتصرف.

(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٤٨/٥).

وهذا الثواء بين بالخلود بقوله: (خَالِدِينَ فِيهَا)[١]. وعندما قال تعالى بعدها: (إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ) أشكل على المفسرين معنى الآية وصارت موضع خلاف بينهم؛ فالأدلة التي ثبتت في الكتاب والسنن وإجماع الأمة كلها نصت على أن المشرك شركا أكبر[٢] لا يغفر له، ولا يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس، والله يقول: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) [المائدة:٧٢].

فهو خالد مخلد في النار بدون استثناء[٣]. يقول ابن عاشور في هذا: " وقد أحصيت لهم [يعني المفسرين] عشرة تأويلات ، بعضها لا يتم، وبعضها بعيد إذا جعل قوله: (إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ) من تمام ما يقال للمشركين وأوليائهم في الحشر"[٤]. ومع ذلك لم يورد ابن عاشور جميع تلك التأويلات إنما اهتم بما رآه صحيحاً. وسأعرض للقارئ بعضاً من تلك التأويلات على عجالة، ثم أختم بقول أهل السنة والجماعة في هذه الآية:

١- أن هذا الاستثناء أخرج به المدة التي تكون بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم، إلى جهنم[٥]. وقيل المدة التي تكون بين مبعثهم من قبورهم، ولم يقل: المدة التي يكونون في قبورهم إلى مصيرهم؛ لأ م يعذبون في قبورهم، ويصيبهم لفح من جهنم كما نصت على ذلك الأدلة [٦].

---

(١) التفسير الكبير (١٤٨/٥) بتصرف.

(٢) الشرك الأكبر : هو أن يجعل العبد لله نداً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته ينظـر : معـارج القبـول (٣١٩/١)

(٣) ينظر في هذا المعنى: القول المفيد على كتاب التوحيد (١٥٧/١).

(٤) التحرير والتنوير. (٧١/٨).

(٥) مختصر جامع البيان في تأويل القرآن (٣٥١/١) بتصرف.

(٦) من أدلة القرآن، قوله تعالى في آل فرعون: (النار يعرضون عليها غدواً وعشيّاً) وهذا العذاب قبل قيام الساعة؛ بدليل قوله: (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) [غافر:٥١]. ومن السنة قولـه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد مر على قبرين: "إ ما ليعذبان، وما يعذبان من كبير". صحيح البخاري. كتاب الجنـائز بـاب عذاب القبر من الغيبة والبول. ٢٦٧ رقم الحديث (١٣٧٨).

٢- "إلا ما شاء الله" أي الأوقات التي ينتقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير[١] وهذا القول للزمخشري، ومعتقد المعتزلة ـ على ما يظهر ـ يصطدم بالآية، والزمخشري ملزم بأن يوجد لمعتقده مخرجاً لا يتعارض مع الآية[٢].

٣- أن قوله تعالى: (إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ) ليس من تمام ما يقال يوم القيامة، إنما هو مخاطبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته، ويكون المستثنى من حكم الخلود من قد يؤمن من المشركين الذين يسمعون التهديد [٣] .

٤- أختم هذه التأويلات بقول أهل السنة والجماعة، وهو أرجحها وأصحها؛ لأنه يرتكز على أساس متين وهو النظم القرآني للآيات؛ فظاهر النظم ـ كما يقول ابن عاشور ـ يدل على أن هذا الاستثناء من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم؛ لأن الأصل في الاستثناء أن يخرج حكم ما بعده مما قبله [٤].

ثم إن ظاهر النظم أن الخطاب هنا ليس لكفار الجن والإنس وحدهم، إنما هو لمؤمنهم وكافرهم، ففي الآية السابقة للتي معنا ... بشر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين بدار السلام جزاء بما كانوا يعملون، ثم أتبعها بقوله: (وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ) والخلق إنما يجمعون في المحشر؛ للحساب والجزاء ولا يكون الجزاء قبل الحساب. أما قول أهل السنة والجماعة في الاستثناء، فيوردها ابن كثير في تفسيره،بأنه عائد على عصاة أهل التوحيد ممن يخرجهم الله ـ عزوجل ـ من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من قال "لا إله إلا الله" وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبق بعد ذلك في النار إلا من حق عليه الخلود فيها والعياذ بالله [٥] . وروي عن ابن

---

(١) ينظر : الكشاف (٣٩/٢).

(٢) المعتزلة يؤمنون بأن الكافر خالد مخلد بالنار، وكذا مرتكب الكبيرة إذا لم يتب، وحجتهم في هذا أن الله أوعده بالعقاب فحق على الله أن يعذبه لأنه لا يخلف الميعاد. بينما أهل السنة والجماعة يرون أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو واقع تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه. ينظر : مجموعة الفتاوى (٢٥٧/١٢) وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز (١٥١/٦) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير (٧١/٨) بتصرف.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٤١/٢) وما بعدها.

عباس ـ رضي الله عنه ـ **أنه قال** في **قوله** ـ تعالى ـ: (النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليم)؛ **قال:"إن هذه الآية: آية لا ينبغي لأحد أن** يحكم **على** الله في **خلقه، لا** ي لهم **جنة ولا ناراً** " [(١)].

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليم) **الخطاب فيه للرسول** ـ صلى الله عليه وسلم ـ، **والآية تذييل** لما **سبق؛ تذييل يتناسق و**المعنى **العام للآية** [(٢)]. **وفيها بيان بأن ما أوجبه** الله ـ عز وجل ـ **من خلود الكفار** في **النار، كان ذلك منه** بحكمة **وعلم**[(٣)]. **ولما كان السياق للحكمة والعلم، وكان النظر** إلى **الحكمة** في **ت يل الأشياء له م لة أعظم، قدم وصفها، فكان قوله:** (حَكِيمٌ عَليم)[(٤)]. **والحكيم هو الذي يضع الأشياء** في **مكا ا** المناسب، **والأسباب** لمسببا ا[(٥)]. **فلا يعذب بعض من أشرك ويترك بعضاً، ولا** يخلد **بعض من كفر ويترك بعضاً ... وما عذا م أو خلودهم إلا** لما **جنت أيديهم**[(٦)] **.**

ثم **أتبع هذا الوصف بقوله:** (عَليم) **أي بدقائق وجلائل ما انطوى عليه** جميع **خلقه من الأحوال** المستحقة **للثواب والعقاب، فلا** يخفى **عليه** ـ جل وعلا ـ **عمل لأحد**[(٧)]. **وهذا التذييل من أغراض الإطناب** [(٨)]**، و**أتي **به هنا تأكيداً** لمفهوم **الجملة** التي **قبله.**

---

(١) **جامع البيان** في **تأويل القرآن. (٣٤٤/٥).**

(٢) **ينظر : التحرير والتنوير (٧٢/٨).**

(٣) **الكشاف (٣٩/٢).** بتصرف.

(٤) **نظم الدرر (٢٦٩/٧)** بتصرف.

(٥) **التحرير والتنوير (٧٣/٨)** بتصرف.

(٦) **نظم الدرر (٢٦٩/٧)** بتصرف .

(٧) **ينظر :** المرجع **السابق. الصفحة نفسها. و: التحرير والتنوير (٧٣/٨).**

(٨) **سيأتي بيان ذلك** في **هذا الفصل – بإذن الله - .**

ثانياً:

التغليب:

يعرف التغليب بأنه: "إعطاء الشيء حكم غيره.[١]" وقيل: "ترجيح أحد المغلوبين على الآخر.[٢]" أو"إطلاق لفظة عليهما؛ إجراء للمختلفين مجرى المتفقين [٣]".

والتغليب أمر لفظي لا يؤتى به في الكلام إلاّ إذا تضمن نكتة معنوية [٤] وهو ـ كما ذكر الخطيب القزويني ـ باب واسع يجري في فنون كثيرة[٥]. أي يجري في أساليب من الكلام لاعتبارات مختلفة غير محدودة[٦].

ومن أنواعه: تغليب المذكر على المؤنث. وتغليب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب، وتغليب العاقل على غيره. ومنه تغليب الأكثر على الأقل .. وغير ذلك[٧].

ومن الشواهد عليه قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)[الأنعام:١٣٢].

يقول البقاعي في مناسبة هذه الآية للسياق: إنه لما بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن لأحد الفريقين ـ المؤمن والكافر ـ دار السلام، والآخر دار الملام، قال جامعاً الفريقين عاطفاً على قوله: (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ)[الأنعام:١٢٧].:(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)[٨].والشاهد في قوله :(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ).

---

(١) البرهان في علوم القرآن. (٣٠٢/٣).

(٢) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤) ينظر : فن البلاغة. (٣٢٢).

(٥) ينظر : الإيضاح. (٩٨).

(٦) بغية الإيضاح. (١٩١/١) بتصرف.

(٧) للاستزادة ينظر : الإيضاح.(٩٩) و: البرهان في علوم القرآن (٣٠٢/٣) وما بعدها. و: فن البلاغة. (٣٢٢).

(٨) نظم الدرر (٢٧٤/٧) بتصرف .

ولعل من الأفضل قبل بيانه إلقاء بعض الضوء على قوله: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) التنوين في: "ولكلٍ" عوض عن المضاف إليه، والتقدير: ولكلهم[1]. أو : ولكل عاملٍ[2]. فالتنوين فيها لإفادة العموم. ومعنى الآية: أي ولكل عامل مراتب ومنازل من عمله يجازي ا بحسب ما كان يعمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[3].

أما بيان الشاهد في قوله تعالى:(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ) فهذا القول عام في المطيع والعاصي[4] ، من الجن والإنس؛ كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى:(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) [الأحقاف: ١٨]. ثم قال: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)[الأحقاف:١٩][5].

والتغليب في قوله: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ) والدرجات هي الطبقات والمراتب ودرجات الجنة: منازل أرفع من منازل[6]، والجنة درجات والنار دركات، والدرك إلى أسفل، والدرج إلى فوق، فالدركات ضد الدرجات[7]. ولما كان لفظ "كل" مراداً به جميع أهل القرية[8]،أتي بعده بلفظ "الدرجات" جمعاً، وكان هذا إيماء إلى تغليب حال المؤمنين ؛ والسر في هذا لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأ م لا بأس عليهم من عذاب مشركيها؛ وفيه ـ أيضاً ـ إيماء إلى أن الله منجيهم من العذاب في الدنيا بالهجرة، وفي

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير. (٨٣/٨).

(٢) ينظر : مختصر جامع البيان في تأويل القرآن. (٣٥٢/١).

(٣) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤) التفسير الكبير. (١٥٣/٥) بتصرف.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨٧/٧) بتصرف.

(٦) ينظر : لسان العرب. مادة (درج)

(٧) ينظر : المرجع السابق. مادة (درك).

(٨) ينظر :(ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)[الأنعام:١٣١].

الآخرة بالحشر على نيا م وأعمالهم، فغلب الدرجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعد نذارة المشركين [١].

ومما يقوي وجود التغليب في هذه الآية؛ قوله تعالى: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) وبعدها قال: (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى)[طه:٧٥-٧٦]. وقوله ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ :"إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهما وأنعما[٢]" وفي شأن منازل أهل النار قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)[النساء:١٤٥]. وعن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله ! هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟. قال: "نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار"[٣] ففي الشواهد السابقة عبر عن منازل أهل الجنة بالدرجات، ومنازل أهل النار بالدركات.

وختمت الآية بقوله: (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) والخطاب فيها لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ [٤] ، أي المحسن إليك بإعلاء أوليائك المؤمنين، وإسفال أعدائك[٥]. ويلحظ الدقة في اختيار كلمة "ربك" هنا؛ لما لها من دلالة في السياق، فالربوبية من معانيها الإحسان واللطف والرعاية والرحمة والشفقة ... فكل هذه المعاني تجتمع لتبث في نفس المتلقي الراحة والاطمئنان، والثقة بنصر الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير (٨٤/٨) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي. سنن الترمذي. كتاب المناقب . رقم الحديث (٣٥٩١).

(٣) أخرجه مسلم. صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب شفاعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه. (١٣٣) رقم الحديث (٣٥٧)

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٨٤/٨).

(٥) ينظر : نظم الدرر (٢٧٤/٧).

ثالثاً: وضع المظهر موضع المضمر:

وقد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر فيوضع المظهر موضع المضمر، وهذا لنكتة يكشف عنها السياق[١].

ومن شواهد ذلك قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ) **[الأنعام:١٤٨].**

لما حكى الله ـ سبحانه وتعالى **ـ عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم** في **دين الله بغير حجة، ولا دليل..حكى عنهم ـ** سبحانه **ـ** في **هذه الآية العذر الذي يتمسكون به، ويشهرونه** في **وجه كل ناصح أمين؛ فالله ـ على حد ما قالوا ـ لو شاء أن نؤمن لآمنا، وما جعلنا له شريكاً، ولا حرمنا شيئاً مما أحله، وبما أنه لم يمنعنا من شيء من ذلك، فهذا دليل على أنه راضٍ ولفعلنا مريد ، وما دام أنه أراده منا امتنع منا تركه، فلنا العذر** في **هذا الكفر...![٢].**

وفي قوله تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ) **يقول الطبري: "قال مجاهد: يعني كفار قريش"[٣]. وهنا خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يؤتى بالضمير لا بالاسم الظاهر، بدليل أن ضمير الرفع** في **قوله تعالى:**(فَإِن كَذَّبُوكَ) **[الأنعام:١٤٧] يعود على المشركين.**

---

(١) للاستزادة ينظر : الإيضاح (٧٥) وما بعدها. والطراز (١٤٨/٢) وما بعدها. فن البلاغة (٢٧٦) وما بعدها. وبغية الإيضاح (١٤٨/٢) وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير (١٧٢/٥-١٧٣) بتصرف.

(٣) مختصر الطبري (٣٥٨/١).

ولعل السر في هذه المخالفة هو التنصيص على المشركين، وذلك لزيادة تفظيع ما قالوه، وفي هذا تبكيت لهم [١]. وما هذا القول منهم إلا عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات[٢] . ويلحظ القارئ أن في هذه الآية حجة على "الجبرية"، الذين يحتجون بالقدر على المعاصي فهم عندما قالوا: "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء"؛ قالوا ذلك احتجاجاً بالقدر على المعصية، فقال تعالى: (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم) بمعنى أن الأمم السابقة كذبت رسلها واحتجت بالقدر "حتى ذاقوا بأسنا" وفي هذا دليل على أن حجتهم باطلة، إذ لو كانت حجة مقبولة، لما ذاقوا بأس الله ـ عزوجل ـ[٣] . وليتأمل القارئ في قوله: (بَأۡسَنَا)، وكيف أضيفت الكلمة إلى الضمير العائد إلى الله ـ جل وعلا ـ ، وذلك لتعظيم شأن هذا البأس و ويله[٤]. وهذا الجزاء العظيم من عظم الذنب الذي اجترحوه.

ومما في الآية ـ أيضاً ـ من لطائف بلاغية :

خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى آخر فهم من السياق؛ في قوله تعالى: (قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَا). والخطاب في الآية للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعنى الآية: قل لهم يا محمد هل لديكم من أمر معلوم من قبل الله ـ تعالى ـ يصح الاحتجاج به على ما قلتم، فتظهروه لنا...[٥]؟!.

واستفهم بـ "هل" لأ ا تدل على طلب تحقيق الإسناد المسؤول عنه، ففهم من ذلك أنه سائل عن أمر يريد أن يكون محققاً، كأنه يرغب في حصوله، فيغريهم بإظهاره حتى إذا عجزوا كان قطعاً لدعواهم[٦].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣١٠/٧). والتحرير والتنوير (١٤٦/٨).

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣١١/٧)

(٣) شرح العقيدة الواسطية (٢٢٦/٢) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير (١٤٩/٨) بتصرف.

(٥) ينظر : مختصر جامع البيان في تأويل القرآن (٣٥٨/١). والكشاف (٤٦/٢).

(٦) التحرير والتنوير (١٤٩/٨) بتصرف.

أما المعنى الذي خرج إليه الاستفهام فهو التهكم[١]، فهم الذين قالوا: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء). فمن أين جاءوا بهذا القول ...؟!. ويلحظ في قوله تعالى: (فَتُخْرِجُوهُ) إن إخراج العلم جعل مرتباً بفاء السببية على العندية: "عندكم"؛ للدلالة على أن السؤال مقصود به ما يتسبب عليه[٢]. وعلى هذا يكون قوله: (فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) من التهكم في الشهادة على أساس أن قولهم هذا من المحال أن يكون له حجة [٣].

وقرينة التهكم واضحة؛ لأنه لا يمكن أن يظن بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين قد يطلبون العلم من المشركين، كيف وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصارحهم بأنهم جاهلون وضالون[٤]. من ذلك قوله تعالى آمراً نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ :(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) [الزمر:٦٤]. وقوله :(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ۝لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)[الواقعة:٥١-٥٢].

وجملة: "إن تتبعون إلا الظن"؛ في قوله تعالى: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ)؛ جملة مستأنفة، جاءت ابتداء كلام بإضراب عن الكلام الذي قبله[٥]. و"إن" نافيه، والتقدير: ما تتبعون إلا الظن[٦]. والمراد بالظن هنا الاعتقاد الفاسد[٧]. فهم كانوا يؤمنون بأن ما هم عليه من شرك مرضي من الله إذ لو شاء ما أشركوا، فكان التنبيه على بطلان هذا الاعتقاد وزيفه بجملة القصر الموجزة؛ أي ما تتبعون في قولكم هذا إلا الظن الفاسد ليس ذلك فحسب، بل: "وإن أنتم إلا تخرصون" يقول ابن كثير في معناه أي:

---

(١) ينظر : النهر الماد (٧٦٤/١).

(٢) التحرير والتنوير. (١٥٠/٨) بتصرف.

(٣) الكشاف. (٤٦/٢) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير (١٥٠/٨) بتصرف.

(٥) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها وما بعدها.

(٦) النهر الماد. (٧٦٤/١) بتصرف.

(٧) ينظر : تفسير القرآن العظيم. (١٧٨/٢).

"تكذبون على الله فيما ادعيتموه"[١]. فقصارى ما عندكم الظن الباطل والكذب على الله تعالى[٢]. و"إن" هنا ـ أيضاً ـ نافية، والتقدير: ما أنتم إلا تخرصون [٣]. ولئن كانت جملة القصر السابقة أتي ا لبيان فساد اعتقادهم، فهي هنا، تأكيد لذلك.

ثم أتبع هذا الوصف بقوله: (عَليم) أي بدقائق ما انطوى عليه جميع خلقه من الأحوال المستحقة للثواب والعقاب، فلا يخفى عليه ـ جل وعلا ـ عمل لأحد[٤]. وهذا التذييل من أغراض الإطناب[٥]، وأتي به هنا تأكيداً لمفهوم الجملة التي قبله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٧٨/٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٨) .

(٣) النهر الماد. (٧٦٤/١) بتصرف .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها. و: التحرير والتنوير (٧٣/٨) .

(٥) سيأتي بيان ذلك في هذا الفصل ـ بإذن الله ـ .و للوقوف على شواهد أخرى لخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ينظر في هذا البحث: (١١٥)،(١٢٠)،(١٢٢)،(١٨٦)،(٢١٩)،(٢٥١)،(٢٦٠)،(٢٦٥)،(٢٧٧،٢٧٨)،(٣٠١)،(٣٢٧)،(٣٢٨)،(٣٣٧)،(٣٤٣)،(٣٤٥)...وغيرها.

المبحث الرابع

الإيجاز

الإيجاز

تعريف الإيجاز:

كان الرماني من أوائل من عرف "الإيجاز"، وذلك في كتابه "النكت في إعجاز القرآن". وقد عرفه بأكثر من تعريف لكنه في أغلب تلك التعاريف كان يتكئ على فكرة واحدة؛ هي تقليل الألفاظ..[١]. أما التعريف الذي صدر به مبحث الإيجاز، وهو الذي عرف عنه، وتناقله أكثر أهل البلاغة من بعده؛ فهو: "تقليل الكلام من غير اخلال بالمعنى[٢]". ووضح الرماني تعريفه بقوله: إن المعنى إذا كان من الممكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن ـ أيضاً ـ أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فإن الألفاظ القليلة إيجاز[٣].

وأكثر من جاء بعده من المهتمين بالبلاغة كانت تعريفا م للإيجاز تدور في فلك تعريف الرماني، بل إن منهم من اكتفى بتعريفه[٤].

وممن حاول تعريفه "ابن الأثير" في كتابة "المثل السائر"؛ بقوله: "هو دلالة اللفظ على المعنى، من غير أن يزيد عليه[٥]".

أقسام الإيجاز:

ينقسم الإيجاز قسمين:

أحدهما: إيجاز حذف:

---

(١) ينظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. (٨٠)

(٢) المرجع السابق. (٧٦).

(٣) ينظر: المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٤) من ذلك على سبيل المثال ابن رشيق في كتابه "العمدة" ينظر: (٢٥٠/١). والرازي في كتابه " اية الإيجاز في دراية الإيجاز". (١٧٦).

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٣٠٧/٢).

وهو إسقاط كلمة لدلالة الحال، أو فحوى الكلام عليها[١]. قال"الآمدي": "والحذف لعمري كثير في كلام العرب، إذا كان المحذوف مما تدل عليه جملة الكلام[٢]". وعد ابن جني الحذف من شجاعة العربية، وذكر أن العرب تحذف الجملة، والمفرد، والحرف وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه[٣].

أدلة الحذف:

الأدلة على الحذف كثيرة؛ منها[٤]:

١- دلالة الحال .

٢- دلالة المقال .

٣- دلالة العقل .

٤- دلالة العادة.

٥- دلالة الصناعة النحوية .

الآخر: إيجاز قصر:

"وهو بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف" [٥]، أو بعبارة أخرى: "ما زاد معناه على لفظه"[٦]، وتأتي كثرة المعاني مع قلة الألفاظ من كون اللفظ لا يقتصر على دلالة واحدة، بل تتنوع دلالته[٧].

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٧٦) .

(٢) الموازنة بين أبي تمام والبحتري. (١٦٩).

(٣) ينظر : الخصائص. (٢/٣٦٠).

(٤) ينظر : مفتاح العلوم(٢٧٨) وما بعدها، و:الإيضاح (١٨١) و (١٨٦) وما بعدها، و: البلاغة فنو ا وأفنا ـا "علم المعاني" (٤٥٩) وما بعدها.

(٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. (٧٦).

(٦) المثل السائر (٢/٣١٢).

(٧) ينظر : بغية الإيضاح. (٢/١١٨).

وإن كان إيجاز الحذف فيه شيء من الغموض؛ لحاجة القارئ إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها الحذف من المواضع التي لا يصلح، إلاّ أن الإيجاز بالقصر أغمض من الحذف[(١)]. والتنبه له عسر؛ لأنه يحتاج إلى كثير تأمل، وطول تفكر؛ لخفاء ما يستدل عليه[(٢)].

وهذا القسم ـ كما يشير الرماني ـ كثير في القرآن[(٣)]. ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه في ممارسة علم البلاغة، وصار له ملكة[(٤)].

إيجاز الحذف في الآيات:

من إيجاز الحذف في آيات العقيدة في سورة الأنعام، قوله تعالى:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ) **[الأنعام:١١٧].**

مناسبة هذه الآية لما قبلها[(*)] أنه لما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: (يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**) أخبر أنه أعلم العالمين بالضال عن دينه والمهتدي من خلقه[(5)]. وكما يرى فقد اشتملت الآية المتقدمة على بيان ضلال الضالين، وهدى المهتدين، فكان قوله:**(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ)**تذييلا لها[(٦)].**

---

(١) **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٧٧) بتصرف.**

(٢) **المثل السائر (٣١٢/٢) بتصرف .**

(٣) **ينظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٧٧).**

(٤) **ينظر : المثل السائر. (٣١٢/٢).**

(*) **الآية التي قبلها؛هي قوله تعالى:** (وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ)**[الأنعام:١١٦].**

(٥) **ينظر : مختصر الطبري. (٣٤٨/١). و: البحر المحيط. (٢٠٠/٤).**

(٦) **التحرير والتنوير. (٢٩/٨) بتصرف.**

ويظهر الإيجاز في قوله تعالى: (هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ) فمن موصولة، في محل نصب بـ ع الخافض، أي: أعلم بمن يضل[١].

بدلالة قوله تعالى: (وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ)[٢]، وهذه دلالة المقال. وثمة دلالة أخرى على هذا الحذف؛ وهي دلالة الصنعة النحوية. فأفعل التفضيل لا ينصب الظاهر بنفسه؛ لضعف شبهه بالفعل، إنما يتعدى إلى المفعول بالباء أو باللام أو بإلى[٣]. وحقه هنا أن يتعدى بالباء تعويلاً على القرينة، فحذف حرف الجر من الجملة إيجازاً[٤] ويلحظ أن حرف الجر حذف من الجملة الأولى، وأظهر في الثانية، مع أن الشأن في القرينة أن تتقدم فما السر وراء ذلك؟! إن أفعل التفضيل يضاف إلى جمع يكون المفضل واحداً منهم، فلو حذف حرف الجر من الجملة الثانية لفسد المعنى؛ لالتباس المفعول به بالمضاف إليه؛ فلو قيل: "وهو أعلم المهتدين"، لتوهم السامع أن المراد أن الله ـ جل وعلا ـ أقوى أو أكثر المهتدين علماً؛ لأن الاهتداء من العلم وهذا المعنى ليس بمراد. بينما حذف حرف الجر من الجملة الأولى لا يلتبس به المفعول بالمضاف إليه؛لأن الصلة في الجملة دالة على أن الله أعلم م، فلا يتوهم أن المعنى المراد؛ هو: الله أعلم الضالين عن سبيله، أي أعلم عالم منهم ـ جلَّ ربنا وتقدس ـ، إذا لا يخطر ببال سامع أن يقال: فلان أعلم الجاهلين؛ لتناقض هذا الكلام؛ لأن الضلال جهالة. ففساد المعنى قرينة على إرادة المعنى الصحيح . وهذه قرينة حالية[٥].

ومن دلالة المقال ـ أيضاً ـ على الحذف قوله تعالى في سورة النحل:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ)[النحل:١٢٥]. فقد ذكر حرف الجر "الباء" في الجملة الأولى:(هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ) وفي الثانية:(وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ) ،وكذا

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٧) و: تفسير النسفى؛(٣٠/٢).

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (١٧٩/٣) والتحرير والتنوير (٣٠/٨) بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير. (٣٠/٨) بتصرف.

(٥) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن. (٥٤٩/٤) وما بعدها. والتحرير والتنوير(٣٠/٨).

في **سورة النجم:**(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) **[النجم: ٣٠]. والقلم:**(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) **[القلم:٧]؛ فدل ذلك على حذفه في آية الأنعام، وحذفه كان إيجازاً وهو من قبيل حذف حرف من حروف المعاني[1].وحذف هذا الحرف كما يقول صاحب "ملاك التأويل" إضافة إلى الإيجاز، كان تخفيفاً؛ وبيان ذلك أنه** ـ والله أعلم ـ **حذف لاستثقال زيادته مع الزيادة اللازمة للمضارع[2].**

فالشواهد التي ذكرت من سورة النحل، والنجم، والقلم كلها ذُكر فيها فعل الضلال بالمضي "ضل"، بينما هنا أتي به بصيغة المستقبل، ولعل السر في هذا العدول؛ التباس اللفظ بالإضافة عند حذف الباء ـ تعالى الله عن ذلك ـ فنبه بلفظ المستقبل على قطع الإضافة؛ لأن أكثر ما يستعمل "أفعل من" يستعمل مع الماضي[3].

ومن اللطائف البلاغية في الآية تعريف المسند إليه بالإضافة في قوله تعالى:(إِنَّ رَبَّكَ) **وقد قصد منه ـ والله أعلم ـ تشريف المضاف إليه، وبيان أن هدى الرسول** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **هو الهدى، وأن الذين أخبر** ـ سبحانه وتعالى ـ **عنهم بأ م مضلون لا حظ لهم في الهدى؛ لأ م لم يتخذوا الله رباً لهم [4].**

ومنها القصر بطريق التقديم في قوله تعالى: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**؛ ففيها قدم ضمير الفصل "هو" على المسند " أعلم"، فقصر العلم بالضالين والمهتدين على الله** ـ تعالى ـ **وحده، قصر صفة على موصوف بغرض تأكيد تفرد الله** ـ سبحانه وتعالى ـ **بالعلم م**

---

(١) حروف المعاني؛ هي الحروف التي تدل على معنى من المعاني، ولها عمل في إعراب الكلمة، ودور في إعراب الجملة. وقد يطلقون عليها الحروف العاملة. وحروف المعاني مثل: حروف الجر، والنصب، والشرط، والاستفهام، والعطف...ينظر في هذا : البيان في إعجاز القرآن.. (١٤٦).

(٢) ينظر : ملاك التأويل (٤٧١/١).

(٣) ينظر : البرهان في متشابه القرآن (١٧٧).

(٤) التحرير والتنوير.(٢٩/٨) بتصرف.

دون سواه، وتقرير هذا المعنى في ذهن السامع. وهذا التأكيد أُتيَ به تالياً للتأكيد الأول الذي صدرت به الجملة بقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ) باستخدام "إن" التي تفيد التأكيد.

وثمة لطيفة بلاغية في اختيار كلمة "المهتدين" في قوله: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)، فالظاهر أن يقال: "بالمهديين"،لكنه الأسلوب القرآني البليغ، الذي أعجزت بلاغته فصحاء العرب. يقول "الألوسي" في سر هذا العدول: إن في هذا إشارة إلى أن الهداية صفة سابقة، ثابتة لهم في أنفسهم، فهي لا تحتاج إلى جعل بخلاف الضلال، فإنه أمر طار أوجد فيهم(١). وهذا القول يذكر القارئ بحديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، الذي جاء فيه "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه."(٢). يضاف إلى ذلك ـ والله أعلم ـ أن الصيغة القرآنية أضافت معنى آخر.. تتقابل فيه قوة اللفظ وكثرة الحروف مع قوة المعنى، ليتمكن ذلك في النفس.

فالهداية صفة سابقة وثابتة لهم في أنفسهم، وهم ـ أيضاً ـ يجاهدون وهم على طريق الهداية في سبيل المحافظة على هذه النعمة الإلهية العظيمة؛ يقاومون الشهوات والشبهات، التي تطمس تراكما ا معالم الفطرة الإلهية. وفي المقابل فالله أعلم "بمن يضل" ذه الصيغة، ليفيد تجدد الضلال، وأنه ليس صفة أصلية فيهم، بل هو دخيل جد عليهم، ثم إ م استمروا عليه، حتى إن الضال منهم لا يلازم طريقاً واحداً في ضلاله، إنما تتجاذبه طرق الضلال... الطريق تلو الطريق، ومع كل طريق يتجدد الضلال، بينما "المهدي"يسلك طريقاً واحداً، وهو طريق الهداية، السالك فيه يسير على خط مستقيم بثبات ودوام، وإن جاءه من يقطع الطريق عليه جاهد وقاوم، فكان "مهتدياً" والله تعالى أعلم.(٣)

---

(١) ينظر : روح المعاني. (٤/٢٥٨) .

(٢) صحيح البخاري. كتاب الجنائز. باب ما قيل في أولاد المشركين. (٢٦٨). رقم الحديث (١٣٨٥) .

(٣) للوقوف على مزيد من شواهد الإيجاز ينظر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ :(١٧٩)،(١٨٠)،(٢٤٢)،(٢٧٦)،(٣٣١)،(٣٤٣)،(٣٥٢)،(٣٥٥) .

إيجاز القصر في الآيات:

إن "الغيب" في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب... غيب في الماضي، وغيب في الحاضر، وغيب في المستقبل، غيب في الكون كله...وحقيقة "الغيب" من أصول العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد الإيمان الرئيسة...والقرآن الكريم يذكر أن هناك "غيباً" لا يعلم "مفاتحه" إلاّ الله[١].

يقول الله تعالى:(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ**)[الأنعام:٥٩].**

"جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك."[٢]. وقوله تعالى:(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**) معطوف على قوله:(**وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ**) [الأنعام:٥٨] على طريقة التخلص والمناسبة في هذا التخلص؛ هي الإخبار بأن الله أعلم بحالة الظالمين، فهي غائبة عن عيان الناس، والله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره، وهذا انتقال؛ لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وسعة علمه، ثم سعة قدرته[٣].**

والإيجاز في هذه الآية في قوله: (وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**)، وقوله: (**وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ**)، وقوله: (**وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا**) ففيها إيجاز بطريق القصر. وقبل أن أتطرق للشاهد في قوله تعالى: (**وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أشير على عجل إلى أن هذه الجملة معطوفة على قوله:(**لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**)، أو على:(**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**) وسر هذا العطف؛ لإفادة تعميم علم الله تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في**

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١١٣/٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٧).

(٣) ينظر : التحرير والتنوير(٢٧٠/٧).

الظهور بعد إفادة تخصيص علمه بما لا يظهر للناس[١]. "والمراد من هذه الجملة ـ كما قال غير واحد ـ بيان تعلق علمه تعالى بالمشاهدات، إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيهاً على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء[٢]". فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم كل ما حوى البر والبحر، لا يخفى عليه شيء منه[٣]. ويلحظ إيثار لفظ "ما" الموصولة في قوله تعالى: (وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ)، التي هي لآحاد مالا يعقل، دون غيرها من الموصولات، وذلك ـ كما قيل ـ: للعموم، فتشمل الذوات والجمادات "المعاني" كلها. وهذا الإيثار كان لكثرة أجناسه ـ المراد لفظ "ما" ـ وأنواعه وأشكاله، وعندما عبر بهذا اللفظ شمل بذكره النوعين العاقل وغيره تغليبا لما لا يعقل[٤].

وخص ـ سبحانه وتعالى ـ " البر"و"البحر" بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر[٥]. وقدم " البر"؛ لأن الإنسان أكثر ملابسة له بما اشتمل عليه من المدن والقرى، والمفاوز، والجبال، والحيوان، والنبات، والمعادن...وغير ذلك[٦]. ولعنا فيما سبق استطعنا أن نرى ما في قوله تعالى: (وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ) من إيجاز قصر في غاية البلاغة...!. إن القارئ حين يتأمل هذه الجملة يصيبه الانبهار...كيف أن ألفاظاً أربعة أغنت عن ذكر ما اشتمل عليه البر من ألوف مؤلفة من أصناف الحيوانات التي تدب على الأرض اليابسة كم أنواعها؟! وأعدادها؟! ما أشكالها وأحجامها..؟! وكذا النباتات..يعلم ـ جل وعلا ـ أنواعها وأعدادها. كم غصن فيها، وما شكله...كم ورقة عليه وما صفتها...؟! يعلم ـ سبحانه ـ ما يزهر منها... وما لا يزهر، ما يثمر ومالا يثمر...!. ويعلم ما في الأرض من جمادات...وما أكثرها...! ما أوجد الله ـ عز وجل ـ وبقي على طبيعته كالجبال، والرمال، والمعادن...وما وقعت عليه أيدي البشر...ما صنعت، وما نحتت، وما سكت،

(١) التحرير والتنوير (٢٧٢/٧) بتصرف.
(٢) روح المعاني (١٦٢/٤).
(٣) مختصر الطبري (٣٢٩/١) بتصرف.
(٤) ينظر : النهر الماد (٦٩٣/١). و: التحرير والتنوير (٢٧٢/٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/٧) بتصرف.
(٦) ينظر : النهر الماد (٦٩٣/١). و: نظم الدرر (١٣٦/٧).

وما دبغت...كل ذلك الله يعلمه. ويعلم ـ أيضاً ـ ما يضم البحر في جوفه ـ على سعته وعمقه ـ من أصناف جمة من المخلوقات بأنواعها المختلفة، وأحجامها المتفاوتة...! وما علم الإنسان به مما في البر والبحر وما عجز فكره عن الإحاطة به...كل ذلك الله يعلمه...ومهما تناهى علم الإنسان بما فيها فعلمه هذا قليل بجانب ما جهل...، وصغير حقير أمام علم الله تعالى...!. إن القارئ لهذه الآية... يجد أن ألفاظاً يسيرة...تدفقت منها بحار من المعاني؛ معان يقف الفكر عاجزاً دون الإحاطة ا؛ معان تجف المحابر قبل أن تحصيها...!.

أما قوله تعالى: (وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا) فعطف على قوله:(وَيَعۡلَمُ مَا فِى الۡبَرِّ وَالۡبَحۡرِ)، وسر هذا العطف ـ والله أعلم ـ لزيادة التعميم. وفي الآية دلالة على إحاطة علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأضعف الجزيئات وأدقها، وهذا يفتح أعيننا على أن إحاطته ـ جل وعلا ـ بما هو أعظم من باب أولى[(١)].

فالله ـ عز وجل ـ يقول:(وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا) إن أي ورقة في أي شجرة كانت كبيرة أو صغيرها، بعيدة أو قريبة...عندما تسقط فهو ـ تعالى في سمائه ـ يعلم ذا السقوط. وإذا كان سبحانه يعلم حال الورقة الساقطة فإن علمه بالورقة التي تخلق من باب أولى. وبما أن الله ـ تعالى ـ يعلم أحوال الورقة التي تمر ا حتى تسقط مع أ ا شيء صغير بالنسبة لنا فما الظن بعلمه ـ جل وعلا ـ بما هو أعظم؛بالمكلفين من الجن والإنس[(٢)] وهو القائل:(يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ الۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى الصُّدُورُ) [غافر:١٩]. وهذا المعنى يتلقاه السامع من جملة القصر الموجزة إيجازاً بليغاً، التي تفتح أمام ذهنه أفاقاً رحبة...، يحلق السامع في سمائها، مستشعراً سعة علمه ـ سبحانه وتعالى ـ . والقصر في الآية قصر بطريق النفي بـ "ما" والاستثناء بـ "إلا ".فيه أثبت علمه ـ سبحانه وتعالى ـ بحال أي ورقة دون سواه. ونكرت الورقة في قوله:(مِن وَرَقَةٍ) إتماماً للتعميم[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧٢/٧) بتصرف.

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٣٠/٢) وشرح العقيدة الواسطية. (١٩٧/١).

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٣٦/٧).

وقوله: (وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ) عطف على: (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا)[١]. وهي جملة قصر داخلة في الاستثناء السابق؛ أي ولا حبة في ظلمات الأرض إلا يعلمها.[٢] :" ولا حبة " أي في أشد حالات التغيب[٣]. و: (فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ) متعلق بمحذوف وقع صفة لحبة، مفيدة لكمال علمه تعالى، والتقدير: ولا حبة كائنة في ظلمات الأرض إلا يعلمها[٤].

وفي قوله: (مِن وَرَقَةٍ) و (وَلاَ حَبَّةٍ) أتي بجزئين لطيفين:

أحدهما: **علوي وهو سقوط ورقة من علو إلى أسفل.**

والآخر: **سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض[٥].**

وكني بالظلمة عن البطن؛ لأن البطن لا يدرك ما فيه كما لا يدرك ما في الظلمة[٦].

وللقارئ أن يتخيل حبة صغيرة مستقرة في قاع البحر، في ليلة مظلمة مطيرة؛ فالظلمات هنا أعظم من أن يدرك ما فيها. أولى هذه الظلمات طين البحر، ثم ظلمة ماء البحر،وهناك المطر، والسحاب، والليل ظلمات خمس من ظلمات الأرض، ومع ذلك كله فإن الله ـ سبحانه وتعالى **ـ يعلم هذه الحبة، ومكا ا، ويبصرها ـ** عزوجل **ـ[٧] .**

ودل هذا على عظمة الله ـ سبحانه وتعالى **ـ وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق ـ من أولهم إلى آخرهم ـ لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ما استطاعوا فتبارك الله رب العالمين[٨].**

---

(١) إرشاد العقل السليم (١٤٣/٣) بتصرف.

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

(٣) المحرر الوجيز (٦٥/٦) بتصرف.

(٤) إرشاد العقل السليم (١٤٣/٣) بتصرف.

(٥) النهر الماد (٦٩٣/٢) بتصرف.

(٦) ينظر : روح المعاني. (١٦٣/٤).

(٧) شرح العقيدة الواسطية (١٩٨/١) بتصرف.

(٨) تيسير الكريم الرحمن (٤١٠/٢) وما بعدها. بتصرف.

والإيجاز الأخير كان في قوله: (وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) فبكلمتين اثنتين أوجز وأعجز؛ ما جمع ـ تعالى ـ الموجودات أجمع[1]، بإيجاز بليغ تم بجملة الطباق[2]. "ولا رطب" و " ولا يابس" ... أليس كل ما في الكون يتراوح بين رطب ويابس[3]؟!. إن ما في الكون على سعته من كائنات حية... تجري في عروقها دماء الحياة وماؤه... من إنسان وحيوان ونبات... أنى كانت هذه الموجودات...في أي بقعة من بقاع هذه الأرض الشاسعة... ومهما كثرت وتعددت سلالا ا، وأشكالها، وألوا ا، وأصوا ا... ما أوجد فيها ونما...، وما مات واندثر...، وما سيوجد...! ما فيه من جمادات صغيرها وعظيمها، ما كان وما سيكون...كل ذلك علمه عند ربي في كتاب مبين، أي "مثبت في اللوح المحفوظ مكتوب فيه"[4]. وما كتبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل وجوده فقد علمه، إذاً فهو عالم الغيب والشهادة...أحصى كل شيء عددا، وأحاط بكل شيء علما...فكيف لا تصرف له ـ جل وعلا ـ العبادة الحقة؟! أين هو في كماله وجلاله من أموات الأصنام والأوثان، ومدعي علم الغيب..[5]؟!.

وفي قوله تعالى:(وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) أسلوب قصر أتي به؛ لتثبيت معنى عقدي وتقريره في أذهان السامعين؛ فكل شيء في هذا الوجود الله يعلمه. وقوله تعالى: (إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) تكرير لما قبله فقوله:(وَلاَ حَبَّةٍ) و (وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ) عطف على: (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا) وداخل في حكمها[6]. ولعل فائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده، وبيان ذلك أن هذه المعطوفات " ولا حبة "و "ولا رطب ولا يابس" داخلة في الاستثناء في قوله تعالى: (إِلاَّ يَعْلَمُهَا)، لكن الكلام طال فكان ذلك داعياً لتجديد العهد بالمقصود، ثم كان ما عهد في البلاغة القرآنية؛

---

(١) فتح القدير (١٢٣/٢) بتصرف.

(٢) الطباق : الجمع بين الشيء وضده. ينظر: الإيضاح (٣٠٠).

(٣) من لطائف التفسير (٣٣٣/١) بتصرف.

(٤) مختصر جامع البيان وتأويل القرآن (٣٢٩/١).

(٥) ينظر : أيسر التفاسير. (٧٠/٢).

(٦) الكشاف. (٢/ ١٩) بتصرف.

التجديد بعبارة أخرى يتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير فكان قوله: (إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ)[١].

وإضافة لما ذكر فإن هذا التكرير جاء على سبيل التوكيد وحسن ذلك كونه فاصلة رأس آية [٢].

وإن كنت قد انتهيت من تحليل الشاهد الذي تضمنته الآية إلاّ أن الآية ما زال فيها من اللطائف البلاغية ما تحسن الإشارة إليها، من ذلك:

قوله ـ سبحانه وتعالى ـ في مطلع الآية: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)؛ في هذه الجملة تأكيد لتفرده ـ جل وعلا ـ بعلم الغيب بأسلوب من أقوى أساليب البلاغة؛ هو أسلوب القصر، وهذا التفرد منه ـ سبحانه وتعالى ـ أنكره كثير من الناس إن لم يكن بصريح القول فبصريح الفعل. يعلم من هذا التأكيد أن السعي لطلب الغيب القطعي من عند غير الله ـ تعالى ـ ما هو إلا تخبط وضلال...!. وكان هذا التأكيد مرتين:

الأولى: حين قال ـ جل وعلا ـ : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)، فقد قدم "الظرف"؛ لإفادة اختصاصه ـ سبحانه وتعالى ـ بعلم الغيب[٣]. فهو عنده لا عند غيره[٤]. وهذا قصر بطريق التقديم. والغيب كل ما غاب عن علم الناس، فلا سبيل لهم إلى علمه[٥]. ومن المفسرين من حمل "الغيب" في هذه الجملة على الاستغراق وجعل الأخذ بهذا أولى[٦] لكن أعلم الخلق بكلام الله ـ عز وجل ـ فسر هذه الآية بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "(مفاتح الغيب) خمس : إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. (٢/١٩ - ٢٠) بتصرف.

(٢) النهر الماد. (١/٦٩٣). بتصرف.

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/١٤٣).

(٤) التحرير والتنوير (٧/٢٧٠) بتصرف.

(٥) المرجع السابق. الصفحة نفسها. بتصرف.

(٦) ينظر : روح المعاني (٤/١٦٢).

نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير"[١]. وبوجود نص صحيح صريح يبين أيدينا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أعتقد أن ثمة ما يدعو إلى القول بأن الحمل على الاستغراق أولى، وأن ما في الأخبار ـ كما ذكر الألوسي في تفسيره ـ يحمل على بيان البعض المهم، لكن "الألوسي" ربما فاته أن ما ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن "مفاتح الغيب خمس..."؛ أن هذا منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيان لمفاتح الغيب لا الغيب نفسه وسيأتي بيان ذلك ـ بإذن الله ـ .

والثانية: في قوله تعالى:(لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)؛ وفيها قصر علم الغيب ـ مرة أخرى ـ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن بطريق النفي والاستثناء؛ ولعل ذلك لتأكيد مضمون ما قبلها. وفصلت هذه الجملة عن جملة : "وعنده مفاتح الغيب" ؛ لما بينهما من كمال اتصال؛ إذ الجملة الثانية مؤكدة للأولى؛ لأن معنى الجملتين واحد، وإعادة ما في الأولى بطريق آخر من طرق القصر أكد أن تقديم "عنده" وقع لإفادة قصر علم الغيب على الله، لا للاهتمام بالخبر[٢]. ومعنى الآية أن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لي حتى أعجله، ولا معلوماً لدي فأخبركم وقت وقوعه، بل هو مما يختص به الله تعالى قدرة وعلماً، وهو ـ جل وعلا ـ يـ له متى شاء بحكمة[٣]. وفي قوله تعالى: (لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) دليل على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم الأشياء قبل وقوعها[٤].

وهناك فن من فنون علم البيان في الآية نفسها؛ في قوله تعالى:(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)، وهو الاستعارة، وقد أشار إليها كثير من المفسرين. فذكروا أن "مفاتح" هنا تحتمل معنيين[٥] :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب التفسير. بـاب: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)[الأنعـام:٥٩] ٨٨١ رقم الحديث (٤٦٢٧)

(٢) ينظر : التحرير والتنوير. (٢٧٠/٧).

(٣) إرشاد العقل السليم. (١٤٣/٣) بتصرف.

(٤) أنوار التـ يل وأسرار التأويل. (٤١٥/٢). بتصرف.

(٥) ينظر في ذلك : الكشاف. (١٨/٢). روح المعاني (١٦٢/٤).

الأول: "مفاتح" جمع مِفْتح ـ بكسر الميم ـ وهو المفتاح. وقريء: "مفاتيح" وعلى هذا المعنى تكون "مفاتح الغيب"، استعارة تخيلية تنبني على مكنية. يقال عند اجراء الاستعارة: شبهت الأمور المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس، الذي يدخر بالمخازن المستوثق عليها بالأقفال، وأثبتت لها مفاتيح على سبيل التخيلية، والقرينة هي إضافة المفاتح إلى الغيب.

الثاني: أن "مفاتح" جمع مفتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن. فتكون مفاتح هنا بمعنى "خزائن" الغيب. والاستعارة فيها تصريحية؛ شبه العلم في إحاطته وحجبه المغيبات بالخزائن تشبيه معقول بمحسوس.

وثمة معنى ثالث نقله الشيخ "محمد بن عثيمين"، وأفردته بالذكر؛ لأنه لا استعارة تجرى على هذا المعنى. قال الشيخ في شرحه للعقيدة الواسطية: "...، وقيل: "مفاتح الغيب"؛ أي مبادئه؛ لأن مفتح كل شيء يكون في أوله"[(١)]. وهذه الأمور الخمسة قد شملت حياة الأنفس كلها من قبل خروجها إلى هذه الدنيا إلى قيام الساعة...فكيف يقال بعد هذا إن حمل الأخبار الواردة عن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، التي فسرت (مَفَاتِحُ

---

(١) شرح العقيدة الواسطية. (١٩٤/١). ولقد بين الشيخ "محمد بن عثيمين" كيف تكون تلك الأمور الخمسة مبادئ الغيب على النحو التالي:

١- علم الساعة: مبدأ "مفتاح" لحياة الآخرة...، فالساعة علمها عند الله وحده.

٢- تنزيل الغيث: مبدأ لحياة الأرض والنبات، وبحياة النبات يكون الخير في المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد.

٣- علم ما في الأرحام: مبدأ للحياة الدنيا.

٤- علم ما في الغد: مبدأ الكسب في المستقبل.

٥- علم مكان الموت: وبما أن الشخص لا يدري بأي أرض يموت، فكذلك لا يدري بأي زمن وساعة يموت، وهذا مفتاح لحياة الآخرة. ينظر في هذا شرح العقيدة الواسطية (١٩٥/١) وما بعدها. ويلحظ أن الشيخ ذكر أن قوله: "وعنده علم الساعة" و " ما تدري نفس بأي أرض تموت" أنهما مفتاحان لحياة الآخرة. ولعله ابتعاداً عن التكرار، وحتى لا يقال إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكر أن مفاتح الغيب خمسة، والشيخ عندما وضح هذه الخمسة ذكر مفتاحين لحياة الآخرة، فكانت هذه الأمور الخمسة مفاتيح لأربعة أمور؛ أقول لعله يقال إن قوله: "وما تدري نفس بأي أرض تموت" مبدأ "مفتاح" لحياة البرزخ. وهي الفترة التي تكون بعد وفاة الشخص حتى قيام الساعة . والله ـ تعالى ـ أعلم بالصواب.

الْغَيْبِ) ـذه الخمسة، بأ ـا من قبيل بيان البعض المهم؟! والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال عنه تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)[النجم:٣-٤]؟!.

وبما أن القرآن الكريم نص على أن الغيب لا يعلمه إلاّ الله ،كانت الطرق التي يراد ـا التوصل إلى شيء من العلم القطعي بالغيب ـ غير طريق الوحي ـ هي من الضلال ، وبعض منها يكون كفراً[1] ،كالكهانة، والعرافة، والسحر، كما أن الإثم ينسحب على من يتعامل مع أمثال هؤلاء..وكذا الوعيد؛ فقد جاء في صحيح مسلم: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة" [2].

---

(١) أضواء البيان. (١٧٦/٣)بتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه . كتاب السلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكهـان. (١٢٢٥). حـديث رقـم (٢٢٣٠) .و للوقوف على مزيد من شواهد إيجاز القصر في آيات العقيدة في سورة الأنعام ، ينظـر ـ علـى سبيل المثال ـ : (٦٥)،(٢١٨)،(٢٥٢)،(٢٦٥)،(٢٩٢)،(٣٢٣)،(٣٦٥) .

المبحث الخامس

الإطناب

الإطناب

تعريف الإطناب:

"وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"[١]. وقولهم : "لفائدة" احتراز من التطويل [٢] . والفرق بين الإطناب والتطويل أن الإطناب تفصيل في أجزاء المعنى، بينما التطويل خروج عن دائرة المعنى ذاته[٣]. وهذه الفائدة هي التي أدخلت الإطناب في البلاغة كما قال أبو هلال العسكري: "الإطناب بلاغة والتطويل عي"[٤]. "وهو نقيض الإيجاز في الكلام"[٥]. إلاّ أن لكل واحد منهما موضعاً يحتاجه المقام، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه[٦].

أقسامه :

يأتي الإطناب في أشكال عديدة، ليحقق أغراضاً متنوعة ... من ذلك[٧]:

١- الإيضاح بعد الإ ام .

٢- ذكر الخاص بعد العام.

٣- التكرير.

٤- الإيغال.

---

(١) المثل السائر (٣٩٣/٢) .

(٢) الطراز (٢٣٠/٢) بتصرف .

(٣) بلاغة الكلمة والجملة والجمل .(٢٧٥) بتصرف .

(٤) كتاب الصناعتين (٢١٠) .

(٥) الطراز (٢٣٠/٢) .

(٦) كتاب الصناعيتين (٢٠٩) بتصرف .

(٧) ينظر : الإيضاح (١٨٩) وما بعدها. البلاغة العربية في ثو ا الجديد. (٢٠٠/١) وما بعدها.البلاغـة فنو ـا وأفنا ا. علم المعاني (٤٨٢) وما بعدها. بغية الإيضاح . (١٣٣/٢) وما بعدها. بلاغة الكلمة والجملة والجمل (٢٧٧) وما بعدها.

٥- التذييل.
٦- الاحتراس.
٧- التميم.
٨- الاعتراض.
٩- غير ما تقدم.

ولم يكن الإيجاز ببلاغته وحده الذي زخرت الآيات به، إنما كان للإطناب نصيب من هذا الفيض... وبعد أن عرفت بالإطناب، سأعرض فيما يلي ـ بإذن الله ـ لبعض من أغراض الإطناب بالتعريف والاستشهاد.

أولاً: التذييل:

" وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد" [1]

ضروبه : **للتذييل ضربان[2]:**

الأول : ضرب جارٍ مجرى المثل: وذلك إن كان معناه مستقلاً، واستغنى عما قبله، وصلح لئن يكون مثلاً تردده الألسنة للعبرة والتأسي ونحو ذلك.

الثاني : ضرب غير جار ـ مجرى المثل؛ لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله.

وللتذييل تقسيم آخر[3]:

١- أن تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى؛ بأن تشترك ألفاظ الجملتين.

---

(١) **الإيضاح (١٩٣) .**

(٢) **ينظر : الإيضاح (١٩٣) وما بعدها . البلاغة فنو ا وأفنا ا (علـم المعـاني) (٤٩٢) .و: بغيـة الإيـضاح (١٣٩/٢) وما بعدها .**

(٣) **ينظر : الإيضاح(١٩٤)، البلاغة فنو ا وأفنا ا (علم المعاني) (٤٩٣)،و:بغية الإيضاح(١٤٢/٢).**

٢- وإما أن تكون الجملة الثانية تأكيداً لمفهوم الجملة الأولى، أي تأكيداً لمعناها دون أن يكون هناك اشتراك باللفظ بين الجملتين.

ومما جاء في الآيات من إطناب بغرض التذييل قوله تعالى: (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[الأنعام:٢٨].

و"بل"هنا للإضراب والانتقال من شيء إلى شيء من غير أن يبطل اللاحق السابق[١] والمعنى:إ م ما تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا، ويتركوا التكذيب بآيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويدخلوا في زمرة المؤمنين رغبة منهم في الإيمان والتصديق، بل لأجل خوفهم من العقاب الذي عاينوه[٢].

واختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ في عائد الضمير في قوله تعالى: (بَلْ بَدَا لَهُم). وكان ذلك على النحو التالي:

١- نقل الزمخشري أن الضمير عائد على أهل الكتاب، وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفون من صحة نبوة رسول الله[٣].
٢- أنه عائد على المنافقين الذين كانوا يخفون الكفر فبدا لهم وباله يوم القيامة.
٣- أو هو عائد على الذين اتبعوا الغواة، فظهر لهم ما كان الغواة يخفون، فعلى هذا يكون الضميران في الآية ليسا لعائد واحد.
٤- أنه عائد على من ذكر في قوله تعالى:(وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ)[٤][الأنعام:٢٧]. والقول الراجح هو القول الأخير، وهذا ما يظهر للناظر في سياق الآيات. فالناظر فيه يجد أن الضمير عائد على الكفار فهم من ذكروا في قوله تعالى:(وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ)وهم الذين كذبوا بالقرآن وقالوا:(إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)

---

(١) ينظر : النهر الماد(١/٦٧٠).
(٢) ينظر : التفسير الكبير (٤/٥١٠).
(٣) ينظر : الكشاف (٢/٩).
(٤) في الأقوال الثلاث السابقة ينظر: التحرير والتنوير (٦/١٨٥) .

[الأنعام:٢٥]؛ وهم الذين:(يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ)[الأنعام:٢٦] ، وهم من ذكر موقفهم عندما عاينوا النار. والله تعالى أعلم.

(وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) أي ولو ردوا إلى الدنيا لرجعوا إلى ما كانوا عليه من كفر وجحود، وإنهم لكاذبون في دعواهم [١]. وهذه الآية تدل على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي أحاط بكل شيء علماً، يعلم أن رد الكفار يوم القيامة إلى الدنيا مرة أخرى لا يكون، ويعلم لو أن هذا الرد وقع كيف سيكون[٢].

ونقل الفخر الرازي عن الواحدي قوله: " هذه الآية من الأدلة الظاهرة على فساد قول المعتزلة، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن قوم جرى عليهم قضاؤه في الأزل بالشرك. ثم إنه تعالى بين أنهم لو شاهدوا النار والعذاب، ثم سألوا الرجعة وردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الشرك، وذلك القضاء السابق فيهم، وإلاّ فالعاقل لا يرتاب فيما شاهد"[٣].

أما الشاهد فقوله تعالى: (وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) فهذه الجملة تذييل للجملة التي قبلها[٤]، وهي قوله تعالى: (وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡه) فهاتان الجملتان متفقتان في المعنى، وبيان ذلك أن معنى قوله: (وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ) أي لو ردوا إلى حياة التكليف لكذبوا بالآيات كما كانوا يكذبون قبل البعث. ثم عقب على هذا المعنى بقوله تعالى: (وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) ولعل السر في ذلك؛ لتأكيد مفهوم الجملة الأولى. وهذا التذييل غير جار مجرى المثل.

ولم تقف البلاغة القرآنية في تأكيد تكذيبهم بالآيات عند تسخير "التذييل" لذلك فحسب، إنما زادت على ذلك التأكيد تأكيداً آخر حين أتي بجملة التذييل:"وإنهم

---

(١) ينظر : مختصر الطبري (٣٢١/١)

(٢) ينظر : أضواء البيان (١٦٨/٢)

(٣) التفسير الكبير (٥١١/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٦/٦) .

لكاذبون" مؤكدة بـ "إن" المشددة لتأكيد مضمون الجملة، وازداد معنى التأكيد ـ أيضاً ـ بإدخال "لام الابتداء" على خبرها "لكاذبون". ومجيء الجملة اسمية أفاد كون الكذب سجية ثابتة دائمة لهم لا تنفك عنهم بحال من الأحوال.

واصطدم ما تعارف عليه أهل التفسير من قواعد بلاغية مع قوله تعالى:(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) ...؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر عن الكفار بقوله: (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فكيف وليس فيما تقدم خبر حتى يوجه هذا التكذيب إليه...؟! ليس أمام القارئ إلا جملة إنشائية أتت بصيغة "التمني"، والإنشاء ـ كما يعرف ـ هو ما لا يحتمل الصدق والكذب...! ومع بطلان إجراء هذا التعريف على كلام ربنا ـ عز وجل ـ إلا أ م لم يفكروا في التشكيك في صحة هذا التعريف أو حتى مراجعته..؟! بل عرجوا إلى الآية وأخذوا يفتشون في ثناياها عن منفذ به يسلم لهم ما درسوه من قواعد بلاغية!. وحين يقال مثل هذا الكلام فليس هذا انتقاصاً لعلمائنا الأفاضل، إنما هو تنبيه إلى أن هذا التعريف بحاجة إلى تنقيح أو إعادة صياغة...؛ ليتوافق مع ما لدينا من نصوص مقدسة. ومن التوجيهات التي ذهب إليها أهل التفسير وأنقلها للقارئ باختصار[1]:

١- أن قوله تعالى:(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) منقطع عما قبله فهو خبر مستأنف عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعل هذا القول فيه شيء من التكلف لأن جملة "وإ م لكاذبون" تعقيب يتناسق مع المعنى العام للآية .

---

(١) ينظر فيها مفصلة في : الكشاف (١٠/٢) المحرر الوجيز(٣٤/٦) التفسير الكبير(٥١١/٤) الجـامع لأحكـام القرآن (٤١/٦) روح المعاني (١٢٣/٤) وغيرها

٢- أن الداخل في التمني هو قوله: (يا ليتنا نرد) فقط وما بعدها أخبار. وهذا القول لا يتوافق مع قراءة حفص عن عاصم : فقد قرأ "نكذب" و"نكون" بالنصب لا الضم؛ لأنه أدخلهما في التمني[1].

٣- أن الأفعال كلها داخلة في التمني؛ وهي قوله: (يا ليتنا نرد)، (ولا نكذب)، و(ونكون من المؤمنين)؛ لأن إدخال التكذيب في التمني جائز، على أساس أن التمني يتضمن أخباراً، والخبر الضمني هنا هو الوعد بالإيمان وعدم التكذيب. قال ابن عاشور في تفسيره ـ ما معناه ـ :فلذلك ساغ إدخاله في حكم كذ م دخول الخاص في العام؛ لأن التذييل يؤذن بشمول ما ذيل به وزيادة، فوصفهم بالكذب ليس بعائد إلى التمني؛ بل إلى ما تضمنته من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله[2].

وقبل الانتقال إلى غرض آخر من أغراض الإطناب يشار على عجل إلى ما في الآية من "مقابلة" بين قوله تعالى:(بَدَا لَهُم) وبين قوله: (ما كانوا يخفون) ومن هذه المقابلة يعلم أن البدو هو ظهور أمر ما في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا. فالكلام فيه احتباك تقديره: بل بدالهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه[3].

---

(١) ينظر : مجمع البيان (٤/٤٤٦) وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٨٦) بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٦/١٨٥) .

ثانياً: الاعتراض:

تعريفه: **"أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب[(١)]؛ لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل[(٢)]."**

أغراضه: **يأتي الاعتراض لأغراض كثيرة منها[(٣)] :**

١- التنزيه والتعظيم .

٢- الدعاء .

٣- التنبيه .

٤- المطابقة مع الاستعطاف .

٥- التحسر .

٦- زيادة التأكيد.

كما يأتي الاعتراض لأغراض أخرى تفهم من السياق.

ومن الإطناب بالاعتراض في هذه السورة قوله تعالى: (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**) [الأنعام:١٠٦].**

يقول الفخر الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها:

---

(١) الجملة المعترضة قد تأتي بين الفعل والفاعل ، الفعل والمفعول، أو المبتدأ والخبر أو الموصوف والصفة، أو بين فعل الشرط وجوابه... ينظر البلاغة فنونها وأفنانها "علم المعاني" (٥٠٠). زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع (٢٤٩) .

(٢) الإيضاح(١٩٧) . ويعني بنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل؛ أي نكتة دفع الإيهام : ينظر : المرجع السابق.(١٩٤) .

(٣) ينظر : المرجع السابق (١٩٧) وما بعدها. البلاغة فنونها وأفنانها . (٥٠١) وما بعدها بغية الإيضاح (١٤٧/٢) وما بعدها .

اعلم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما حكى عن الكفار أ م ينسبون إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الافتراء في إظهار هذا القرآن، أو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدارس أقواماً ويستفيد منهم العلوم، ثم ينظمها قرآناً، ويدعي أنه نزل عليه من الله تعالى، لما حكى ـ جل وعلا ـ ذلك عن الكفار أتبعه بقوله: (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)؛ لئلا تصير تلك الأقوال سبباً لفتوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تبليغ الدعوة والرسالة[1]. فالآية استئناف في خطابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأمره بالإعراض عن تان المشركين والأمر له ـ أيضاً ـ باتباع ما أوحي إليه من ربه. والمقصود تقوية قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب سماع تلك الشبهة[2].

والمقصود بقوله تعالى: (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)القرآن الكريم؛ أي اقتد به واعمل بما جاء فيه، فإنه هو الحق، ولا تشغل قلبك وخاطرك بغير عبادة الله[3]. وفي إيثار الإتيان بلفظ "رَّبِّكَ" دون اسم الجلالة تأنيس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلطف معه[4]. وفي إضافة ضمير الخطاب الموجه للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للفظ "رب" تشريف له ـ عليه الصلاة والسلام ــ.

ما سبق كان الأمر الأول له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أما الأمر الثاني فقوله:(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) أي لا تحفل بأقوالهم، ولا تلتفت إلى آرائهم الباطلة، التي من جملتها ما حكي عنهم آنفاً[5]. وهذه الجملة معطوفة على جملة "اتبع" لما بينهما من توسط بين الكمالين.

والشاهد الذي من أجله أوردت هذه الآية؛ هو قوله تعالى:(لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ). فهذه الجملة معترضة بين قوله تعالى:(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وقوله:(وَأَعْرِضْ عَنِ

---

(١) التفسير الكبير (١٠٧/٥) بتصرف .

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها . و:تفسير القرآن العظيم(١٥٥/٢). و: التحرير والتنوير (٤٢٣/٧) .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٤٢٤/٧) .

(٥) ينظر: أنوار التن يل وأسرار التأويل (٤٤٠/٢)، و: إرشاد العقل السليم(١٧١/٣).

الْمُشْرِكِينَ)[١] ومعناها: "لا معبود يستحق العبادة إلاّ الله"[٢] والغرض من الإطناب بالجملة المعترضة هو إدماج التذكير والتنبيه بالوحدانية؛ وذلك لزيادة تأكيد اتباع الوحي لا سيما أمر التوحيد وإغاظة المشركين[٣]. وبيان ذلك أنه بالتقيد بمعنى كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها يبلغ الموحد حقيقة التوحيد؛ وهي انجذاب الروح إلى الله جملة[٤]. فيقبل الموحد بقلبه وروحه وهمه على الله ـ تعالى ـ، فيستسلم له وحده ظاهراً وباطناً و ذا يستجيب لأمره وينتهي لنهيه، فمن أجل ذلك اعترضت هذه الجملة بين الأمرين اللذين في الآية والله تعالى أعلم[٥].

وفي قوله تعالى: (لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) قصر بطريق النفي والاستثناء، حيث قصرت صفة الألوهية على الله وحده دون سواه، فصفة الألوهية مثبتة له تعالى، منفية عن غيره من الكائنات والموجودات. وهو قصر حقيقي والغرض منه التقرير والتنبيه، والله أعلم.

---

(١) ينظر : الكشاف (٣٣/٢) .

(٢) مختصر جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٥/١) .

(٣) ينظر : الكشاف (٣٣/٢) و: إرشاد العقل السليم (١٧١/٣) و: التحرير والتنوير (٤٢٥/٧).

(٤) ينظر : خلاصة معتقد أهل السنة والجماعة .(١٥) .

(٥) بعض المفسرين جوز أن تكون هذه الجملة حالاً مؤكدة لكلمة (ربك) ينظر : الكشاف(٣٣/٢).

ثالثاً: الإيضاح بعد الإبهام:

والإطناب بالإيضاح بعد الإبهام يظهر المعنى في صورتين مختلفتين:

إحداهما: **مجملة مبهمة**، والأخرى: **مفصلة موضحة.**

ومن بلاغة هذا النوع أن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يأتي بعد ذلك الإجمال. فإذا ألقي عليهما تمكن فيها أتم تمكن، هذا من جهة وتكمل لذة العلم به من جهة أخرى[١]**.**

رابعاً: التكرير:

وهو: " دلالة اللفظ على المعنى مردداً "[٢]**. والتكرير على نوعين**[٣] **:**

١- ما يأتي لفائدة وهذا من الإطناب.

٢- ما يأتي لغير فائدة وهذا من التطويل.

والنوع الثاني مذموم، أما الأول فهو محمود. والفائدة التي يأتي لها تختلف باختلاف السياق .

وشاهد هذين النوعين في آيات العقيدة في سورة الأنعام قوله تعالى:(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)**[الأنعام : ١٤٣-١٤٤].**

---

(١) ينظر : الإيضاح(١٨٩). البلاغة العربية(١/٢٠٠) البلاغة فنونها وأفنانها "علم المعاني (٤٨٢).

(٢) المثل السائر(٢/٣٩٤) .

(٣) ينظر : المثل السائر(٢/٣٩٤). البلاغة العربية(١/٢٠١) البلاغة فنونها وأفنانها(٤٨٧) .

ومناسبة الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية[١]. وفي سبب نزول قوله تعالى:(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) يقول القرطبي في تفسيره ـ ما معناه ـ: إ ا نزلت في مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا: " ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا" فنبه الله ـ عز وجل ـ نبيه والمؤمنين ذه الآية على ما أحله لهم؛ لئلا يكونوا بم لة من حرم ما أحله الله تعالى[٢].

ومعنى قوله: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) أي أنشأ وخلق من الأنعام ثمانية أصناف[٣]. وفي هذه الآية شاهد بلاغي على الإطناب بالإيضاح بعد الإجمال؛ أجمل في قوله: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) ثم فصل ا مل بقوله تعالى : (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ). أي الذكر والأنثى، فالعرب تسمي الواحد زوجاً إذا كان لا ينفك عن الآخر ، وقد قال الله تعالى:(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)[النجم:٤٥]. فالذكر زوج والأنثى زوج[٤]. والمراد بقوله: (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أي الكبش والنعجة[٥] ، وهي ذوات الصوف من الغنم[٦].و:(وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) أي التيس والع [٧]، وهي ذوات الشعر من الغنم[٨]. ولمعرفة السر البلاغي في كونه تعالى أجمل ثم فصل هذا ا مل ، فإنه يجدر بالقارئ استعراض آيات العقيدة في هذه السورة في ذهنه...ومحاولة التأمل فيها، ثم في هذه الآية وسياقها...فآيات السورة بينت من خلال عرضها للأنعام والزرع والكون حقيقة ثابتة وهي أن السلطان المطلق على الخلق إنما هو لله وحده والإنسان مخلوق يقع في جملة ذلك الخلق، فهو خاضع لقدرة الله وهيمنته، ومكلف بالتعبد له دون سواه، ومطالب بالامتثال

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٦٥/٥) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٧) .

(٣) ينظر : مختصر الطبري(٣٥٥/١). معالم التن يل (١٣٦/٢).

(٤) تفسير معالم التن يل (١٣٦/٢) بتصرف .

(٥) ينظر : مختصر الطبري (٣٥٥/١) .

(٦) ينظر : معالم التن يل (١٣٦/٢) .

(٧) يراجع : مختصر الطبري (٣٥٥/١) .

(٨) ينظر : معالم التن يل (١٣٦/٢) .

لشرعه أمره و يه، تحليله وتحريمه...فإذا ضرب هذا الإنسان ذه الحقيقة عرض الحائط احتاج إلى من يوقفه عن التمادي في هذا الغي...وإذا تجاوز الحدود التي حدها له خالقه وزعم أن الخالق هو الذي وضعها، فقد استحق ذا أن يخاطب بلهجة تليق بحالته... لهجة تفحمه وتبكته. والمشركون لهم عقائدهم في الأنعام يحللون ويحرمون ما شاءوا منها بأهوائهم دون رجوع إلى حكم الله.

وفي هذه الآية حديث عن تلك العقائد الباطلة، في مطلع الآية أجمل ـ سبحانه ـ ثم فصل؛ وذلك ـ كما يقول الطبرسي ـ لأنه أريد أن يقرر على مزاعمهم شيئاً فشيئاً، وذلك أشد في التوبيخ والتقريع من أن يذكر دفعة واحدة[١]. فيما أنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق، والرازق، والمنعم، والمتفضل...فهو وحده الذي له الحكم والتشريع.

وقدم الضأن في قوله : (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) على المعز لغلاء ثمنه، وطيب لحمه، وعظم الانتفاع بصوفه[٢].

ثم جيء بتفصيل بقية الأزواج بقوله: (وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ) وهي عطف على قوله تعالى: (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ)[٣]. والمعنى خلق لكم من الإبل ذكراً وأنثى، وكذا من البقر اثنين ذكراً وأنثى. وهذا تمام الأزواج الثمانية. وقدم الإبل على البقر؛ لأن الإبل أغلى ثمناً، وأنفع في الرحلة، وفي حمل الأثقال عليها، كما أ ا أصبر على الجوع والعطش، وهي أطوع وأكثر انقياداً في الإناخة والإثارة[٤]. وقد خص الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الأنعام الثمانية بالذكر؛ لأ ا جميع ما كانوا يحرمون منها ما يحرمونه[٥].

---

(١) ينظر : مجمع البيان (٥٨١/٤) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (٢٤٠/٤) .

(٣) ينظر : روح المعاني (٢٨٥/٤) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٢٤٠/٤) .

(٥) ينظر : مجمع البيان (٥٨١/٤) .

وما سبق كان شاهد الإطناب بالإيضاح بعد الإ ام، أما ما يتعلق بالتكرير، فالله تعالى يقول بعد قوله: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾؛ : ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما حرموا من الأنعام والحرث، وزعموا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حرم هذا عليهم؛ قل لهم هل حرم ربكم الذكرين من الضأن والمعز ؟! أم حرم الأنثيين منهما[(١)]؟!.

: ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ والمعنى أم حرم ربكم ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن وأنثى المعز[(٢)]. ولفظ "ما" في قوله: ﴿أَمَّا﴾ استوعب جميع ما يفترض من سائر الأقسام[(٣)]. والهمزة في قوله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار، فهو ـ تعالى ـ ينكر عليهم أن يكون قد حرم من جنسي الغنم ضأ ا ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها، ولا مما تحمل الإناث، وذلك أ م كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة أخرى، وأولادها كيفما كانت ذكوراً أو إناثاً أو مختلطة، ويقولون: قد حرمها الله، فأنكر الله ذلك عليهم[(٤)].

والآية التي أطنب فيها بالتكرير هي قوله تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ﴾[الأنعام:١٤٤].

التي أتي ا بعد تمام تفصيل الأزواج الثمانية. وقد فصل بين هذه الآية: ﴿وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ والتي قبلها بقوله: ﴿نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا إطناب بالجملة المعترضة، وفي نكتته قال أبو حيان ـ ما معناه ـ : إنه تقريع وتوبيخ لهم؛ لأ م لم يستندوا في تحريمهم إلاّ إلى الكذب والافتراء[(٥)]. ومعنى الآية: "أخبروني بأمر

---

(١) ينظر : مختصر الطبري (٣٥٦/١) .
(٢) المرجع السابق. الصفحة نفسها. بتصرف.
(٣) نظم الدرر (٢٩٥/٧) بتصرف .
(٤) تفسير النسفي (٣٧/٢) بتصرف .
(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٤٠/٤) .

معلوم من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم"(١). وقوله تعالى في هذه الآية: (قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ) تكرير لما في الآية السابقة باللفظ نفسه والمعنى نفسه ولم يكن الإتيان بهذا التكرير إطالة لا فائدة ترجى من ورائه، ـ تعالى كلام ربنا وتقدس ـ إنما كان لمزية يكشف السياق عنها؛ تكرير لفائدة استدعاها المقام...وهنا تكمن البلاغة القرآنية لطيفة، فرائدها لا تبين إلا بعد تدقيق وطول تفكر. فالقوم زعموا أنهم لم يأتوا بهذا التحريم من عند أنفسهم، إنما هو من عند الله ...فأنكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم هذا القول في الآية الأولى بعد ذكر نصف الأزواج الثمانية بالاستفهام بقوله: (قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ)؟! ثم بعد أن أتي على ذكر الأصناف الثمانية كرر سبحانه السؤال السابق بلفظه ومعناها، وذلك ـ كما ذكر الطبري في تفسيره ـ تكذيباً لهم و كماً بهم بأن نسبوا تحريم ذلك إلى الله(٢). وقال غيره من المفسرين: إن هذا التكرير من المبالغة في التبكيت، والإلزام بالحجة(٣).

وازداد التهكم بهم أكثر عندما قطع الاستفهام اللاحق عن الاستفهام السابق بـ "أَمْ" في قوله: (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا) و"أَمْ" هنا منقطعة؛ لأن الهمزة للتصديق لا للتصور. والمعنى ـ كما قيل ـ : بل أكنتم حضوراً عند ربكم حين أمركم بهذا التحريم(٤)؟!. ووجه التهكم أن العلم بالحلال والحرام لا يكون إلاّ عن طريق الرسل والكتب المنزلة، أو بسماع من الله تعالى، وهم لا يؤمنون بالرسل بدليل قوله تعالى:(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) [الأنعام:٩١]. فلم يبق إلا أنهم رأوا الله ـ جل وعلا ـ فوصاهم بهذا الذي يفترون..!(٥).

---

(١) تفسير النسفي .(٣٧/٢)

(٢) مختصر الطبري (٣٥٦/١) بتصرف .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٩٣/٣) وفتح القدير (١٧١/٢) .

(٤) ينظر : تفسير النسفي (٣٧/٢) ومجمع البيان (٥٨٢/٤) .

(٥)) ينظر : مختصر الطبري (٣٥٦/١) ، و: تفسير النسـفي (٣٧/٢-٣٨) ، و: مجمع البيـان (٥٨٢/٤) .

وبعد هذا الاستفهام يأتي استفهام آخر وقعه على النفس شديد حين يقول تعالى:(فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ افۡتَرَىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا)والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إظهار كذ م وافتراءهم وتبكيتهم[٢]. ثم إن الاستفهام في هذه الجملة خرج عن مقتضى الظاهر ـ كما هو الحال في الاستفهامات التي ترد في كلام الله ـ عزوجل ـ، فالاستفهام هنا بمعنى النفي، "أي لا أحد أظلم منه"[٣]. ذه الصيغة البليغة نفي ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون أحد أشد ظلماً لنفسه، من هذا الذي يتقول على الله الكذب؛ ليصد الناس عن دين الله بجهل وسفهه[٤]...ولا شك أن النفي ذه الصيغة أبلغ من التصريح به. وإذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد، فمن افترى عليه ـ عز وجل ـ الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق[٥].

ولما كان افتراء الكذب على الله لإضلال الناس ..."ظلماً" ناسب هذا أن تختم الآية بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهۡدِي الۡقَوۡمَ الظَّالِمِينَ)، أي" لا يوفق للرشد من كان ظالماً، جاحداً لنبوة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٦]"، وجيء بـ "إن" المشددة لتأكيد ذلك الخبر. وفي هذه الآية خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، حيث وضع الاسم الظاهر موضع الضمير؛ أي إن الله لا يهدي أولئك المشركين[٧].

---

(٢) إرشاد العقل السليم (١٩٤/٣) بتصرف .

(٣) تفسير القرآن العظيم (١٧٥/٢) .

(٤) مختصر الطبري (٣٥٦/١) بتصرف

(٥) التفسير الكبير . (١٦٧/٥) بتصرف .

(٦) مختصر الطبري (٣٥٦/١)

(٧) حاشية زاده . (٢١٦/٢) بتصرف . ومن شواهد الإطناب ـ على سبيل المثال ـ ما ورد في هذا البحث:٧٨،٢٣٨،٢٦٣،٢٦٩،٢٨٢... وغيرها

الفصل الرابع

خصائص التصوير البياني

١ـ التشبيه

٢ ـ المجاز

أ ـ المجاز العقلي

ب ـ المجاز اللغوي

١ ـ المجاز المرسل

٢ ـ الاستعارة

٣ ـ الكناية والتعريض .

خصائص التصوير البياني

ترد "الصورة" في اللغة بمعنى: الشكل والهيئة[(١)]، و بهذا المعنى استخدمت في القرآن الكريم في قوله تعالى: (الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ) [الانفطار:٧-٨]، وقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) [غافر:٦٣][(٢)] .

أما التصوير الذي ينقل تلك الصورة للمتلقي؛ فهو: ذلك التعبير اللغوي الذي يتخذ نسقاً معيناً يستثير في النفس مدركات حسية، مستخدماً في ذلك كل وسائل التـأثير في اللغة؛ من عبارات حقيقية، وتشبيهات، ومجازات، وكلمات ذات جرس خاص، وربـط بين الجمل وفصل بينها، وتضاد وتجانس ... وما إلى ذلك[(٣)] .

والتصوير في أسلوب القرآن الكريم ليس حلية أسلوبية، ولا فلتة تقع حيثما اتفـق، إنما هو خطة موحدة، وخصيصة شاملة في النظم القرآني، تظهر البراعـة في اسـتخدامه بطرق شتى[(٤)]؛ ومن بين تلك الطرق : التصوير بالبيان . والبيان؛ هو: "إيـراد المعـنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[(٥)].

وطرق البيان؛ هي :

التشبيه، والمجاز بنوعيه (العقلي ، واللغوي)، والكناية والتعريض .

والتصوير بهذه الطرق يمنح الصورة التي يرسمها حياة شاخصة، وحركة متجـددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مـشهد، وإذا النمـوذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية[(٦)] .

---

(١) ينظر : لسان العرب مادة (صور) .

(٢) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية (٢٨) .

(٣) ينظر : المرجع السابق (٣٢) .

(٤) ينظر : التصوير الفني في القرآن (٣٧) .

(٥) الإيضاح : (٢٠٢) .

(٦) ينظر : التصوير الفني في القرآن . (٣٦) .

والتعبير في القرآن الكريم عن الأغراض والمقاصد بالتصوير بطرق البيان مظهر مـن مظاهر إعجازه، وصورة من صور التحدي المعجز فيه [١].

وفي هذا الفصل ـ بإذن الله ـ سأتناول التعبير باستخدام هذه الطـرق في آيـات العقيدة في سورة الأنعام بالتحليل .

(١) النظم القرآني في آيات الجهاد . (٤٤٣) بتصرف .

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه

جاء في لسان العرب أن: الشبه ، والشبه ، والشبيه : المثْلُ، ويقال: أشبه الـشيء الشيء إذا ماثله[١] .

والتشبيه أسلوب من أساليب تصوير المعنى[٢]، عرفه الخطيب القزويني بأنه: "دلالـة على مشاركة أمر لآخر في معنى"[٣].

أما التركيب اللغوي للصورة التشبيهية وبناؤها الأساسي؛ فهو يقوم علـى أركـان أربعة، اصطلح البلاغيون على تسميتها ؛ بما يلي [٤]:

الأول : المشبه .

الثاني : المشبه به .

الثالث : ما يربط بينهما، ويسمى : "أداة التشبيه"، وقد تحذف من الكلام، فيكـون التشبيه مؤكداً .

الرابع : وجه الشبه؛ وهو الصفة المشتركة ، بين المشبه والمشبه به .

وأشار عبد القاهر الجرجاني إلى أثر التشبيه في الكلام؛ فقال: "واعلم أن ممـا اتفـق العقلاء عليه، أن "التمثيل" إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقَبةً، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكَلَفاً، وقَسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً .

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (شبه) .

(٢) ينظر : في البلاغة العربية "علم البيان". (٣٣) .

(٣) الإيضاح . (٢٠٣) .

(٤) ينظر : المرجع السابق . (٢٠٧-٢٤٠)، و: جماليات الأسلوب "الصورة الفنية في الأدب العربي" (٧٢) .

فإن كان مدحاً، كان أ ى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهـ ز للعطـ ف،...، وأجلب للفرح، وأغلب على المُمتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغر المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر،... .

وإن كان ذما، كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد،... .

وإن كان حجاجاً، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أ ر .

وإن كان افتخاراً، كان شأوه أمد، وشرفه أجد، ولسانه ألد .

وإن كان اعتذاراً، كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسل،... .

وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر،....

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه ."[١].

والتشبيه في النظم القرآني ليس عنصراً إضافياً في الجملة، إنما هو جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة ا ار المعنى من أساسه، فهو يأتي ليعرض الفكـ رة في صورة واضحة مؤثرة [٢].

ثم إنه لا يقف عند مجرد تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء، بل يتجاوزهـ ا إلى المماثلة النفسية، ويعمقها حتى يضفي عليها حياة شاخصة وحركة متجددة، فينقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة، وتتجسم الحالة النفسية في لوحة أو مشهد. ومما يبرز جمـ ال التشبيه القرآني ما فيه من إبداع في العرض، وجمال في التنـ سيق، وروعـ ة في الـ نظم والتأليف، وجرس في الألفاظ يدل على صورة معانيها [٣].

وهذا الذي سأحاول بيانه في في هذا المبحث من خلال تحليل بعض آيات العقيـ دة الواردة في سورة الأنعام .

من القضايا العقدية التي وردت في بعض آيات سورة الأنعام؛ صدق نبـ وة محمـ د ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصحة ما جاء به من الحق . ومن الطرق التي أتي ـ ا لإثبـ ات ذلك: سوق شهادة أهل الكتاب؛ إذ كانوا يعرفون مما نزل عليهم من كتـ اب صـ دقه

---

(١) أسرار البلاغة . (١١٥-١١٦) .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن . (١٩٨) .

(٣) ينظر : الصورة الأدبية في القرآن الكريم . (٤٥) .

ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما بلغ ، ولإيضاح ذلك المعنى عبر عنه بجملة تشبيهيه ؛ من ذلـك قوله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) [الأنعام:٢٠] .

ومناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قولـه تعـالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ...) [الأنعام:١٩]، أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما بـين شـهادته، وشهادة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التوحيد، وشهادة المشركين الـذين لا علـم عندهم على ضده ..؛ ذكر هنا شهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى [1].

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)؛ المراد م علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمـن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [2].

ويلحظ أن اليهود والنصارى قد عرفوا بالموصولية؛ ولعل هذا لتقوية الغرض الذي من أجله سيق الكلام؛ وهو بيان معرفتهم بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصـدقه، وهـم ـ أعني اليهود والنصارى ـ ليسوا في العلم سواء، فلا يمكن أن يستدل بعلم عامتهم في أمر عظيم كهذا، فأفاد تعريفهم بالموصولية ـ والله أعلم ـ أ م الذين درسوا الكتاب ـ توارة أو إنجيلا ـ ، وعرفوا ما فيه من صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ وهم الأحبار، ولما كانوا كذلك فهذا يعني أ م قد بلغوا من العلم أقصاه، واستحقوا ذا أن يـستدل بعلمهم، وأن تذكر شهاد م .

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٨٤/٢) .

(٢) تفسير الخازن (١٢٥/٢) بتصرف .

(يَعۡرِفُونَهُۥ) والهاء تعود على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأهل الكتاب يعرفون صحة نبوته[١]، وقيل: على التوحيد[٢]، وقيل: على الحق الذي أتى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٣]، وقيل: على القرآن[٤]. وكلها معان يحتملها النص، ولا تضاد بينهما، ولعل هذا من سعة لغة القرآن الكريم التي لا أبلغ منها.

ولعل اختيار التعبير القرآني لكلمة (يَعۡرِفُونَهُۥ) دون "يعلمونه" ـ مثلاً ـ ؛ للدلالة على أن المقصود بالكلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ لأن المعرفة تتعلق ـ غالباً ـ بالذوات والأمور المحسوسة[٥]؛ قال تعالى: (تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ) [المطففين:٢٤] .

وقال زهير:

* فلأيا عرفت الدّار بعد توهم *[٦]

وربما جاز إضمار ذكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع، كما أن في إضماره ـ عليه الصلاة والسلام ـ تفخيماً له، وإشعاراً بشهرته، وكونه معلوما بغير إعلام [٧].

"وذُكر أن عمر بن الخطاب قال لعبدالله بن سلام: ما هذه المعرفة التي تعرفون بها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال: والله لأنا به إذا رأيته أعرف مني بابني وهو يلعب مع

---

(١) ينظر : معاني القرآن (٣٢٩/١)، جامع البيان في تأويل القرآن (١٦٣/٥)، و: معالم التنزيل (٨٩/٢)، و: الكشاف (٧/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٦٣/٥)، و: المحرر الوجيز (٢٢/٦).

(٣) ينظر : نظم الدرر (٧٨/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٧١/٦).

(٥) ينظر : المرجع السابق . مؤسسة التاريخ (٤٠/٢) .

(٦) البيت في ديوانه وصدره: "وقفت بها من بعد عشرين حجةً " ص٧٥

(٧) الكشاف (١٠٢/١) بتصرف .

الصبيان؛ لأني لا أشك فيه أنه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ ولست أدري ما صنع النساء في الابن "[(١)].

والمعنى: أ م يعرفون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص، وذلك لصفته التي جاءت في كتا م [(٢)].

(كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ) وكان من الممكن ـ في غير القرآن ـ أن يقال: والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه معرفة قوية، أو كأشد ما تكون المعرفة ..، وتؤدي ذا الجملة غرضها بوضوح .. وينتهي الأمر ..!. لكن فصاحة البشر وبلاغتهم لا تساوي أمام ما انفرد به القرآن الكريم من نظم بليغ قطميراً ولا نقيراً ..!.

فالمقام ـ كما قيل ـ مقام استدلال ومجا ة منكر ..، ولا يكفي فيه مجرد سوقٍ لما لدى أهل الكتاب من شهادة ..، بل لا بد من أسلوب يزيد تلك الشهادة وذلك المعنى قوة، ووضوحاً، وبياناً ..؛ ليغرس الحقيقة في أعين المشركين وقلو م ..، ويحيل غراس الشك حطاما ..!. وتقطع معذر م، وتقوم الحجة عليهم .

فأتى بالتشبيه ببلاغته ليزيد المعنى وضوحاً، وبياناً، وقوة؛ فكان قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ)؛ شبهت معرفة علماء اليهود والنصارى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو للحق الذي أتى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، بمعرفتهم لأبنائهم، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه ـ كما ذكر ابن عاشور ـ : "التحقق والجزم"[(٣)].

ولعل حسن هذا التشبيه لا يخفى؛ فالمشركون وإن كانوا يعملون صدق هذا الخبر، كما نقلت إلينا الأخبار، التي منها ـ مثلاً ـ: ما رواه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه، أ م قالوا: "إنّ مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب

---

(١) معاني القرآن (٣٢٩/١) .

(٢) ينظر : الكشاف (١٠٢/١) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧١/٦) .

أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرام، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به "[١].

ومنها ـ أيضاً ما رواه عن سلمة بن سلامة بن وقش ـ وكان سلمة من أصحاب بدر ـ قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل...، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائناً؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به...، فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ـ وأشار بيده إلى مكة واليمن ـ فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إلي، وأنا من أحدثهم سنا، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً. قال: فقلنا له: ويحك يا فلان!! ألست الذي قلت لنا ما قلت؟ بلى ولكن ليس به [٢].

والأخبار في هذا كثيرة والشاهد منها أن المشركين كانوا يعلمون صدق هذا الخبر ـ ومنهم من آمن وصدق ـ إلا أن نقله من خبر ملفوظ إلى آخر مؤكد ومصور بما تدركه حواسهم ومشاهداتهم له أبلغ الأثر في نفوسهم؛ فكما أن أهل الكتاب يعرفون أبناءهم حق المعرفة ، ويستطيعون تمييزهم بلا عناء وبلا أدنى تكلف، فكذا يعرفون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي مبعوث من ربه وأن الذي معه هو الحق من عند ربه ـ تعالى ـ .

---

(١) السيرة النبوية (٢٣٨/١) .

(٢) السيرة النبوية (٢٣٨/١) وما بعدها بتصرف .

فبين التشبيه ـ والله أعلم ـ مقدار معرفة أهل الكتاب به ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وأ ا معرفة بلغت درجة لا ترتقيها ذرة شك .. بذكر ما لا يشتبه به ـ عرفاً ـ وهم الأبناء، ففي التشبيه من الإيضاح والتأكيد ما فيه .. فكيف يمكن للشك أن يتسرب إلى النفوس بعده ..؟!.

ومن براعة النظم القرآني اختيار "الأبناء" للتشبيه بمعرفتهم؛ ولعل السر في اختيارهم دون غيرهم؛ لأن الأبناء الذكور أشهر وأعرف، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقلو م ألصق ..[1]؛ لذا اختيروا للتشبيه بمعرفة آبائهم م، وهذا مما قوى التشبيه والخبر .

(الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)، ومعنى الآية: أن الذين أهلكوا أنفسهم وألقوها في نار جهنم؛ بإنكارهم نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهم بحقيقة ذلك عارفون، فهم بخسار م أنفسهم لا يؤمنون[2] .

وقيل: معنى:"خسار م أنفسهم" أن كل عبد له م ل من الجنة وم ل في النار، فإذا كان يوم القيامة، جعل الله ـ تعالى ـ لأهل الجنة منازل أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازل أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم؛ لأ م باعوا منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرطوا في الدنيا، وبظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [المؤمنون:١١] [3].

لكن إلى من يعود قوله تعالى : (الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) في الآية، وما وجه بلاغته ..؟!.

ثمة ثلاثة أقوال في ذلك؛ هي [4] :

١- أ ا صفة "الذين" الأولى، ويكون المقصود من ذلك وعيد أهل الكتابين الذين يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجحدون نبوته .

---

(١) ينظر : الكشاف (١٠٢/١) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٦٣/٥) .

(٣) السابق . الصفحة نفسها بتصرف .

(٤) ينظر : تفسير الخازن (١٢٥/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١١٨/٣)، و: التحرير والتنوير (١٧١/٦) .

٢- أنه كلام مستأنف، ولا تعلق له بالأول، وأريد به كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والغرض منه زيادة إيضاح لمدى تصلب المشركين وإصرارهم على الشرك .

٣- أن المراد أهل الكتابين والمشركين، الذين ضيعوا فطرة الله ـ تعالى ـ التي فطر الناس عليها، وأعرضوا عن البينات الداعية للإيمان، وفي هذا ذم لهم وتشنيع عليهم .

(فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) وأطلق عدم إيمانهم ولم يقيد بشيء ولعل هذا لإفادة العموم، فمن خسر نفسه لا يؤمن بالله ـ تعالى ـ ، ولا بملائكته، ولا كتبه، ولا رسله .. ولا بأي ركن من أركان الإيمان .. خسر الدنيا والآخرة .

ومن صور التشبيه في الآيات ما جاء فيها من تصوير هيئة وحال الذين كذبوا بآيات الله ، بقوله تعالى :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) **[الأنعام:٣٩] .**

ومناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...) **[الأنعام:٣٨]؛ أنه ـ** سبحانه وتعالى **ـ لما ذكر من خلائقه، وآثار قدرته ما يشهد بربوبيته ـ** جل وعلا **ـ ، وينطق بعظمته، بين بعد ذلك موقف الكافرين منها؛ فقال:** (وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ)[1]**؛ "كأنه قال: وما من دابة ولا طائر ولا شيء إلا وفيه آية منصوبة على وحدانية الله**

---

(١) ينظر : الكشاف (١٣/٢) .

ـ تعالى ـ ، ولكن الذين كذبوا صم وبكم لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه "[١].

والصورة التشبيهية في الآية صالحة ـ كما يظهر ـ للإفراد والتركيب؛ فيقال في إجرائها: شبه الذين كذبوا بآيات الله ـ جل وعلا ـ في عدم سماعهم للحق بالصم. وشبهوا في عدم القيل بالحق بالبكم. وشبهوا في عدم النظر في الآيات والاعتبار بها بالعمي، ووجه الشبه في كل تشبيه مما سبق انعدام الانتفاع بالحواس، ووجه الشبه لم يذكر صراحة، لكنه فُهم من الجملة، كما لم تذكر أداة التشبيه، وهذا النوع ـ الذي لم تذكر فيه الأداة ـ يسمى "التشبيه المؤكد"[٢].

وعد الخطيب القزويني التشبيه الذي ترك فيه وجه التشبيه، وأداته ـ كالذي في الآية ـ من أقوى أنواع التشبيه[٣] .

ويقال في الصورة المركبة: أن الآية تمثيل لحال المكذبين في ضلال عقائدهم، وابتعادهم عن الاهتداء .. بحال قوم صم وبكم في الظلام .. ووجه الشبه نظير ما سبق ذكره [٤].

وأولئك المكذبون استحقوا هذه الصورة التي قبحتهم ونفرت منهم بجدارة ..!؛ لأنهم "صم" لا يسمعون آيات الله ـ تعالى ـ سماع تدبر وتفهم ..!. و"بكم" عن قول الحق، وإذا انطقوا لم ينطقوا به، بل بمثل قولهم عن القرآن الكريم (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)، و(سحر مبين) .. نافين عنه صفة الآية، مقترحين آيات بينات غيره ..!!. و(فِي الظُّلُمَاتِ) فهم عن السمع، وعن الكلام، وعن الرؤية معزلون .. في ظلمات لا يرون ولا يرون؛ ظلمات سدت عليهم باب الفهم والتفهيم بالكلية ..![٥]، وقد قال الله تعالى

---

(١) المحرر الوجيز (٤٨/٦) .

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة (٢٤٠) .

(٣) ينظر : المرجع السابق (٢٤٢) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٩/٦) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٢/٣) .

مبيناً موقف بعضهم من القرآن الكـريم: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام:٢٥-٢٦] .

وقوله: (فِي الظُّلُمَاتِ) أبلغ في هذا المقام من أن يقال: "عمي"، كما أ ا أشد هولاً، وأوقع في النفس؛ والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الظلمات جعلت ظرفاً لهم[(١)]؛ وفي هذا دلالة على كمال عراقتهم في الجهل وسوء الحال[(٢)]. وفيه دلالة على شـدة تمكـن الظلمات منهم، وإحاطتها م أينما ساروا، وأينما وضعوا أقدامهم .. لا يستطيعون منها خروجاً ولا فكاكاً، بل هم فيها يتخطبون ..، تخرق آيات الله المبثوثة في الكون الفـسيح أعينهم صبحاً ومساء، وهم عن النظر فيها، والتفكر والاعتبار الذي يأخذ بأيـديهم إلى معرفة ربوبيته ـ سبحانه وتعالى ـ ووحدانيته، وصدق رسـله معرضـون، وفي غـيهم سادرون ..!.

ومن أسرار النظم القرآني في الآية؛ العدول عن إفراد كلمة "الظلمات"، والإتيان ا جمعاً؛ ولعل السر في هذا لأن جمعها وعدم استعمال مفردها "الظلمة" جارٍ على الفصيح؛ كما ورد في أول السورة؛ قال تعالى: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)[(٣)]. أو لعله للإشارة إلى ظلمة الجهل، وظلمة الحيرة، وظلمة الكفر، وظلمة العناد، وظلمة التقليد[(٤)]، أو لتعـدد أشكال الكفر[(٥)]، أو لعل جمعها إشارة إلى أن المكذب لا ينتفع ببصر ولا بصيرة، وذلـك

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٤٨/٦)، و: البحر المحيط (١٢٢/٤) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٢/٣) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٩/٦) .

(٤) ينظر : تفسير النسفي (١١/٢)، و: أنوار التـ يل وأسرار التأويل (٤٠٧/٢) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٢٢/٤) .

أ م لما لم ينتفعوا بحيا م، ولا بأسماعهم، ولا بنطقهم، ولا بأبصارهم، ولا عقولهم .. كـان كل ذلك منهم عدماً كالظلمات[١] .

ومما ساند الصورة التشبيهية في تقبيح المشبه؛ تعريفهم بالموصـولية بقولـه تعـالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)؛ فالتنصيص على تكذيبهم تـشنيع علـيهم، واسـتهجان لفعلتهم. وقال ابن عطية: "وظاهر الآية أ ا تعم كل مكذب"[٢].

وفي إضافة كلمة "آيات" إلى نون العظمة تعظيم لهذه الآيات، واستعظام للتكـذيب ا.

ومما في الآية من لطائف ـ غير ما تقدم ـ :

قوله تعالى: (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ) فصلت الجملة عما قبلها؛ لوقوعها استئنافاً بيانياً؛ لأن صور م السابقة وحالهم العجيبة تثير سؤالاً؛ وهو: لمَ لا يهتدون مع وجود الـدلائل البينات ..؟!، فأجيب بقوله تعالى: (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ)؛ فدل ذلك علـى أن هـؤلاء المكذبين الضالين هم ممن شاء الله ـ تعالى ـ إضلالهم[٣]، وفي إضلاله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم عدل منه .

وفيها إيجاز بالحذف، كان ذلك بحذف مفعول المشيئة من الجملة، وحذفه أبلغ مـن ذكره؛ لكون مفعولها مضمون الجزاء، ولانتفاء الغرابة في تعليق المشيئة به، ولوضوحه ..؛ والتقدير: من يشأ الله إضلاله يضلله [٤].

وذكر اسم الجلالة "الله" العظيم الجامع لصفات الجلال والكمـال .. فيـه تربيـة للمهابة، وإشارة إلى كمال القدرة، وكمال العدل، وكمال الحكمة .

وقوله: (وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) قد يقال نظراً إلى نظم الجملة قبلـة أن الأصل في النظم أن يكون ـ كما في غير القرآن ـ: "ومن يشأ يهده"، لكنه عـدل

(١) نظم الدرر (١٠٨/٧) بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز (٤٨/٦) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢١٩/٦) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٢/٣) .

عن ذلك لما هو أبلغ؛ ولعل هذا لأن هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وهي إرشاده إلى الهدى غير مختصة ببعض دون بعض، ولهذا قيل في تفسير قوله: (يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)؛ أي يرشده إلى الهدى ويحمله عليه(١) .

وفي الآية صورة بيانية. أخرى أشار إليها ابن عاشور في تفسيره؛ وهي تمثيل لحال الذي خلقه الله فمن عليه بعقل يرعوي به عن غيه، فلا يقع في الفساد، ويتبع الدين الحق..، بحال السائر في طريق واضحة لا يتحير ولا يخطئ القصد، مستقيمة لا تتعبه وإن طال المسير(٢)، وهي استعارة تمثيلية .

ويصح أن يقال: إن في قوله تعالى: (صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) صورة للاستعارة؛ فيها شبه "الإسلام" بالصراط ـ وهو الطريق ـ بجامع التوصيل إلى الهدف في كل منها، ثم حذف المشبه، وهو الإسلام ـ أو الدين الحق ـ، واستعير له لفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية(٣) .

والآية إخبار منه ـ تعالى ـ أنه هو المضل والهادي، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أم الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأن الخير بيده كله(٤) .

فالآية دليل لأهل السنة والجماعة على أن الكفر والإيمان بإرادة الله ـ تعالى ـ ، وهذا نقض لمزاعم المعتزلة، التي منها ما ذكره الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "أي يخذله ويخله وضلاله، ولم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللطف"(٥). وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أن الله ـ تعالى ـ لا يخلق الهدى ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وأن الإضلال قبيح وظلم ـ يتعالى ـ عنه ، وهذه الآية من

---

(١) ينظر : روح المعاني (١٤٠/٤) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٠/٨) .

(٣) ينظر : الإيضاح (٢٥٤)، و: البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) (١٧١) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٨/٥) وما بعدها .

(٥) الكشاف (١٣/٢) .

النصوص التي تبطل مذهبهم، وتخرق عقيد م، التي كلما تخرقت راموا رقعها ..، لكـن الخرق اتسع على الراقع ..! [١].

وفي الآية دلالة على أن الآيات وحدها لا تكفي للهداية، وإن أنزلت على ما وفق ما اقترح البشر، بل الأمر كله لله (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [٢].

وللتشبيه شاهد في قوله تعالى:

(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: ٧١]

في سبب نزول الآية أورد ابن كثير عن السدي قوله: "قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله - عزوجل -: (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ...)." [٣]. وقال القرطبي في تفسيره: "نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، كان يدعو أباه إلى الكفر، وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمين فيأبى" [٤].

ومعنى الآية: "أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر، ما لا يقدر على نفعنا إن عبدناه، ولا ضرنا إذا تركناه" [٥].

(١) ينظر: الانتصاف . حاشية الكشاف (١٣/٢) .
(٢) ينظر: الضوء المنير على التفسير (٢٣/٣) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٢) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٧) .
(٥) روح المعاني (١٧٧/٤) .

والصورة في قوله: (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا)؛ ففيها تصوير حي لحال من يشرك بالله ـ تعالى ـ بعد التوحيـد، ومـشهده وهو يرجع القهقرى مرتداً عن دين الله ـ تعالى ـ [1].

وافتتحت بكلمة (قُلْ) بإيقاعها القوي المتكرر في السورة الذي يوحي بأن هذا الأمر لله وحده، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو منذر ومبلغ، والذي يوحي بجـلال هذا الأمر، وعلويته، وعظمته، ورهبته[2] .

والاستفهام في قوله: (أَنَدْعُو) خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخـر فهـم مـن السياق؛ وهو الإنكار[3]، مع ما فيه من تيئيس[4] .

ومعنى (أَنَدْعُو)؛ أي: أنعبد[5]؛ فالدعاء هنا أريد به دعاء العبادة، وقـد قـال الله تعـالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[غافر:٦٠]؛ فقوله: (عَنْ عِبَادَتِي) دل علـى أن المـراد بالدعاء العبادة؛ إذ إن ذكر الدعاء في الآية أولاً دليل على حذفه ثانياً، وذكر العبادة ثانياً دليل على حذفها أولاً[6]؛ وهذا ضرب من الاحتباك البليغ. وروي عنـه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: "الدعاء هو العبادة"[7].

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣١/٢) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٥٦/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣١/٥) .

(٦) ينظر : نظم الدرر (١٠٠/١٧) .

(٧) صحيح الجامع الصغير وزيادته . (٦٤١/١) حديث رقم: (٣٤٠٧) .

(مِن دُونِ اللّهِ) متعلق بقوله: (أَنَدْعُو)[١]؛ وفي ذكره بيان بحقارة معبودا م الـتي جعلت نداً لله العظيم المتفرد بالأمر كله[٢] .

(مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا) وهذا وصف عام يدخل فيه كل من عبـد مـن دون الله ـ تعالى ـ ، فلا هو ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء .. إن الأمر إلا لله[٣] .

وهنا يبرز سؤالان أحدهما عام والآخر خاص ..؛ فالعام: لماذا يعبد الإنسان الإلـه؟. والإجابة عن هذا السؤال ـ كما يظهر ـ قريبة؛ فالإنسان مفطور على ذلك .. قـال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الروم: ٣٠]؛ فالإنسان بفطرتـه بحاجة إلى إله يشرع له، يدله إلى الطريق المستقيم؛ إلى إله جامع لصفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر .

أما الخاص: فهل يحمل ما عبد من دون الله ـ تعالى ـ شيئاً من صفات الألوهية؟!. تلك الأصنام ـ مثلاً ـ هل أعطت من عبدها، وعاقبت من لم يعبدها؟!. أبـداً، لـو كانت تملك ضراً لألحقته بالمسلمين؛ لأ م تركوا عباد ا، وسـفهوا أتباعهـا، وأعلنـوا حقار ا ..![٤]. ولتؤخذ الشمس مثلاً آخر هل أعطت من عبدها فقط وحرمت مـن لم يعبدها ..؟!. إ ا تشرق على الخلق كافة، من عبدها ومن لم يعبدها[٥]. إن هذه الأصـنام والأحجار والنجوم والكواكب .. وغيرها مما عبد ـ ويعبد ـ مـن دون الله ألوهيتـها باطلة؛ لأ ا ـ ببداهة ـ عاجزة؛ والعجز نقص؛ والنقص مناف لصفات الألوهية ..!.

ومن أسرار النظم القرآني في الآية: تقديم "النفع" على "الضر"؛ ولعل هـذا يعـود لمراعاة ما كان عليه السياق؛ فلما كان السياق لتعدد الـنعم: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) بتصرف .

(٢) ينظر : نظم الدرر (١٥٠/٧) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٠/٢) بتصرف .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) .

(٥) ينظر : تفسير الشعراوي (٣٧١٩/٦) .

وَالأَرْضَ)[الأنعـام:١]، : (خَلَقَكُم مِّن طِينٍ)[الأنعـام:٢]، : (يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ)[الأنعام:١٤]، : (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً)[الأنعام:٦١]، : (مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) [الأنعـام::٦٣]، : (اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ) [الأنعام:٦٤] قدم النفع هنا[١] .

ولما جعل المسلمون عدم النفع والضر علة لنفي عبادة الأصنام، فقد كنوا ذا عن عباد م النافع والضار؛ وهو الله ـ جل وعلا ـ [٢].

(وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا) الكلام فيه عام لسيد المخاطبين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولغيره، وليس مخصوصاً بالصديق ـ رضي الله عنه ـ بناء على أنه سبب النزول ـ كما ذكر ـ . وفي الآية تغليب ؛ إذ لا يتصور الرد على العقب منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمعنى أليق بنا معشر المسلمين[٣].

والجملة عطف على قوله: (أَنَدْعُو)؛ فهي داخلة في حيز الإنكار[٤]. والرد: "صرف الشيء ورجعه "[٥]، وهو الإرجاع إلى المكان الذي يؤتى منه[٦] .

وبني فعل الرد للمجهول، ولعل السر فيه؛ لأن المنكر هو الرد نفسه من أي راد كان[٧]، وفيه إيذان بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفي وإنكار[٨].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٥٠/٧) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) بتصرف .
(٣) ينظر : روح المعاني (١٧٨/٤) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) .
(٥) لسان العرب . مادة (ردد) .
(٦) التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) بتصرف .
(٧) ينظر : نظم الدرر (١٥١/٧) .
(٨) روح المعاني (١٧٨/٤) بتصرف .

وعقب القدم: مؤخرها وتجمع على أعقاب[١]، ويقال: رجع على عقبه، وعلى عقبيه؛ أي رجع إلى المكان الذي جاء منه؛ لأنه كان جاعلاً إياه وراءه فرجع [٢].

والإنسان ـ دائماً ـ حين يسير، فإنه يقطع خطوة إلى الأمام، فتقصر المسافة أمامه، أما من يرد على عقبه، فهو يرجع هذه الخطوة التي خطاها[٣]. ثم صار استعمال "ونرد على أعقابنا" تمثيلاً شائعاً في التلبس بحالة ذميمة كان صاحبها قد فارقها، ثم عاد إليها وتلبس بها؛ وبيان ذلك أن الخارج إلى حاجة يمشي إلى غرض يريده، فهو يمشي القدمية، فإذا رجع قبل الوصول إلى غرضه فقد أضاع مشية؛ فيمثل حاله بحال من رجع على عقبيه[٤].

وعلى ذلك فإن في الآية تشبيهاً تمثيلياً؛ مثلت فيه حال المرتد إلى الشرك بعد أن كان موحداً، بحال من خرج في مهمة فرجع على عقبيه، ولم يقض ما خرج له، ولا يخفى على الناظر قبح هذه الصورة، ومضارها على صاحبها، فهو ينقلب محملاً بالخسران ..!.

وهذا أبلغ في تمثيل سوء الحالة من أن يقال ـ في غير القرآن ـ : ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان[٥]؛ ففي التعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب نكتة بلاغية؛ وهي زيادة تقبيح المرتد عن دينه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح، مع ما فيه من إشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر[٦]، وهذا من براعة النظم القرآني وحسنه.

ومما أكد الإنكار الواقع في الآية الظرف المتعلق بـ "نرد"؛ وهو قوله تعالى: (بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ)؛ كأنه قيل: أنرد إلى ذلك بإضلال المضل بعد إذ هدانا الله الذي لا هادي سواه[٧] .

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (عقب) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) بتصرف .

(٣) تفسير الشعراوي (٣٧١٩/٦) بتصرف .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) .

(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٦) ينظر : روح المعاني (١٧٨/٤) .

(٧) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

وتلك الصورة مثلت مرة أخرى لو فرض رجوعهم على أعقابهم بتمثيل آخر ينبض بالحركة، ويزخر بالحياة .. بقوله :

(كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا)، فالكاف في موضع الحال من الضمير في "نرد على أعقابنا"؛ أي حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين، فهي حال مؤكدة لما في "نرد على أعقابنا" من معنى التمثيل بالمرتد على أعقابه [(١)].

وتناول بعض المفسرين ما في هذه الآية من صورة بيانية بالعرض والتحليل، فاتفقوا على أن الآية فيها تشبيه، وأن المشبه هو حال من ارتد إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إياه، وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدونه عن الشرك ..، وعندما وصلوا إلى الحال المشبه بها تفرقوا ..!؛ أما السبب الذي جعلهم يتفرقون؛ فهو الأصل اللغوي لكلمة (اسْتَهْوَتْهُ) في الآية . ومن بعض ما قالوه في بيان المشبه به اعتماداً على أصل كلمة (اسْتَهْوَتْهُ) اللغوي، ما يلي :

١ ـ ما ذكره الزمخشري في تفسيره ـ بما نصه ـ : "(فإن قلت): ما معنى استهوته؟. (قلت): هو استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه طلبت هوية وحرصت عليه."[(٢)]. وأخذ الألوسي هذا المعنى، وأجرى عليه التشبيه؛ فقال: "والكلام من المركب العقلي أو التمثيل؛... شبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمه، وأضلته بعدما كان على الجادة المستقيمة."[(٣)].

والصورة على النحو الذي ذكر الألوسي فيها شيء من الخلل في جانب المشبه به؛ لأن الأساس الذي قامت عليه؛ وهو معنى "استهوته" يفتقد الصحة، وقد رده ابن عاشور

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠١/٤) .

(٢) الكشاف (٢٢/٢) .

(٣) روح المعاني (١٧٨/٤) .

بقوله: "ووقع في الكشاف أنه استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، ولا يعـرف هذا المعنى من كلام أئمة اللغة"(١).

٢ ـ ذهب الرازي في تفسيره إلى أن معنى "استهوته" مشتق من: هوى يهـوى إذا سقط وهبط من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض .. فشبه حـال الضال بهذا الهاوي، وهو نظير قوله تعـالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)[الحج:٣١](٢)، ثم قال: "اعلم أن هذا المثل في غاية الحسن. [يعني الذي في آية الأنعام] وذلك أن الذي يهوي من المكـان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه؛ لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل يدل على الاستدارة، وذلك يوجب كمال التردد والتحيـر .."(٣).

ونقل أبو حيان كلام الرازي السابق، وعلق عليه بقوله: "وهو كلام تكـثير لا طائـل تحته"(٤). وللحق يقال: إن ما قاله الرازي في غاية الجمال، لكن ثمة ما يعيبه؛ ليس لكونه تكثيراً لا طائل منه ..!؛ إنما لأن إجراءه على هذه الآية متعذر ..!؛ وذلـك لأسـباب واجتهادات منها :

(أ) أن من المفسرين من رد هذا الاجتهاد؛ فهذا ابن عطية قال ـ ما معناه ـ : إن السقوط من علو إلى أسفل لا مدخل له في هذه الآية(٥). وحكم الألوسي على الصورة التي ذهب إليها الرازي بالبعد، وحجته في ذلك أن بناء الصورة على ما ذكر يتوقف على ورود "الاستفعال" من هوى بمعنى سقط وهبط من علو إلى أسفل (٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠١/٧) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٢٥/٥) .

(٣) المرجع السابق . (٢٦/٥) .

(٤) البحر المحيط (١٥٧/٤) .

(٥) المحرر الوجيز (٧٨/٦) .

(٦) ينظر : روح المعاني (١٧٨/٤) .

(ب) إذا سلم ـ جدلاً ـ أن "استهوته" بمعنى أرادت وطلبت سقوطه .. فأين ما يشير، أو يثبت ذلك في الآية؟!. إن الله ـ تعالى ـ عندما أراد أن يبين لنا حال المشرك، شبه حاله بحال من يسقط من أعلى إلى أسفل كما في آية الحج، وفيها ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ ما يجعل تلك الصورة حاضرة في الأذهان، ماثلة أمام الأعين؛ فقال تعالى: (مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ)، وكلمة (خَرَّ) بمعنى: سقط وهوى من علو إلى أسفل[١]. ثم ذكرت (السَّمَاءِ) الدالة على العلو والارتفاع؛ وذلك لعلو ما كان فيه من أوج التوحيد، وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك[٢]. و"تخطفه الطير"؛ أي قطعاً بينها، وهو نازل وقبل أن يصل إلى الأرض[٣]. والخطف الاختلاس بسرعة[٤]؛ ولعل هذا الاختلاس السريع يتناسب مع سرعة سقوط ذلك الهاوي. وختمت الصورة بقوله: (أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ)، فهو إن لم يجد في جو السماء ما يهلكه، فإنه سيتقطع حال وصوله إلى الأرض بقوة السقطة، وشدة الضغطة؛ لبعد المحل الذي خر منه[٥] . فكل كلمة في هذا التشبيه جسدت الهبوط في أبلغ صورة ..؛ فأين ما يشير، أو يثبت أن الشياطين أرادت هبوطه وسقوطه في آية الأنعام؟. ولعله يقال ـ بعد تلك الوقفة الخاطفة مع آية الحج ـ إن الأخذ بالصورة التي ذهب إليها الرازي في آية الأنعام توهن البلاغة القرآنية، وتسيء إليها أكثر من أن تحسن ..!.

(ج) ربما يعترض أحدهم، فيقول: إن المراد أن الشياطين أسقطته من أعلى الجبل إلى أسفله ..، وهذا واضح وليس بحاجة إلى توضيح!. فله يقال: أين هذه الصورة التي ذهبت إليها من تلك الرائعة التي أرادها الله أن تتمثل في الأذهان نابضة بالحياة ..، زاخرة بالحركة .. في آية (الحج) ..؟!.

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (خر) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٤٤/١٣) .

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها . بتصرف .

(٤) روح المعاني (١٤٣/٩) بتصرف.

(٥) نظم الدرر (٤٤/١٣) بتصرف .

(د) لو قيل: إن الصورة التي في آية (الأنعام)، هي تشبيه حال من دعي إلى الشرك بعد أن كان موحداً، وارتد على عقبيه، بحال من أسقطته الشياطين من المكان العالي إلى الوهدة السافلة حيران حال سقوطه ..، فماذا يفعل بقوله تعالى: (لَهُ أَصۡحَابٌ يَدۡعُونَهُ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا)؟. إن جملة (لَهُ أَصۡحَابٌ) حال ثانية، أي له رفقة معه حين أصابه "الاستهواء"[(١)]، وجملة "يدعون" صفة لأصحابه[(٢)]. والدعاء: القول الدال على طلب عمل من المخاطب ، أما جملة "ائتنا" فهي بيان لـ"يدعونه إلى الهدى"؛ لأن الدعاء فيه معنى القول، فصح أن يبين بما يقولونه إذا دعوه[(٣)]. فإذا كان هذا حاله حين الاستهواء، فكيف يمكن أن يقال: إن الاستهواء هو السقوط من المكان العالي ..، وهل الساقط من علو إلى أسفل ينادى عليه، ويدعى إلى الطريق الصحيح ..؟. إن الهاوي لا يستطيع أن يتحكم في سقوطه فكيف يطلب منه ذلك..؟!.

٣ ـ وثمة قول لابن عاشور في بيان المشبه به؛ أشار فيه إلى أن الاستهواء "استفعال"؛ أي طلب هوى المرء ومحبته؛ بمعنى: استجلاب هوى المرء إلى شيء يحاوله المستجلب. والعرب تقول: استهوته الشياطين إذا اختطفت عقله فسيرته كما تريد، وذلك قريب من قولهم: سحرته[(٤)]. ويقال عند إجراء التشبيه: شبه حال من فرض ارتداده إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إياه، وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدونه عن الشرك، بحال الذي أحبته الشياطين، وأفسدت عليه عقله..، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلاً عارفاً بمسالكها، وترك رفقته العقلاء يدعونه إلى موافقتهم[(٥)]. والعاشق من الإنس الهائم بمحبوبته يهيم على وجهه في الأرض حائراً ..،

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠٢/٧) بتصرف .

(٢) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها ـ بتصرف .

(٣) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها ـ بتصرف .

(٤) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها ـ بتصرف .

(٥) ينظر : المرجع السابق (٣٠١/٧) .

يصم أذنيه عن كل ناصح ، يغمض عينيه أمام كل هاد ..، لا يريد أن يرى إلا وجه محبوبته، ولا يسمع إلا صوت محبوبته التي سلبت عقله بحبها، وإذا كان هذا حال الإنسان إذا هام بآخر مثله..، فكيف سيكون حاله ـ والعياذ بالله ـ إذا هام بحب شيطان ، أوهام شيطان بحبه؟!.

إنها صورة مؤثرة بليغة كل عنصر فيها يترك عمقاً بما يوحيه من معنى الحيرة، والتيه، والضياع، والشتات ..!. "ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اتباع طريق الغي والضلال مع وضوح طريق الرشاد والهداية"[(١)].

٤ ـ ولعل آخر تلك الأقوال ما ذكره القرطبي في تفسيره؛ وهو أن الاستهواء بمعنى: "استغوته وزينت له هواه، ودعته إليه"[(٢)]. وعليه يمكن أن يقال: شبهت حال من دعي إلى الضلالة بعد الإيمان، فارتد على عقبيه، بحال من زينت له الشياطين هواه، وما تشتهيه نفسه ـ مما يخالف الفطرة والدين ـ، وله أصحاب يردونه عن الوقوع في تلك المنكرات، فصار حائراً بين ما يريد وما يراد منه .

والهوى ـ كما ذكر ابن تيمية ـ لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك الفعل يضره ضرراً راجحاً، انصرفت عنه نفسه؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل في النفس حباً لما ينفعها، وبغضاً لما يضرها، ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان، لا من مجرد النفس؛ فإن الشيطان يزين لها السيئات، ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسن .. كما فعل إبليس بآدام وحواء[(٣)]، قال تعالى: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)[الزخرف:٣٦-٣٧].

فذلك المستهوى الذي زينت له الشياطين هواه يتوزع قلبه بين الإله الواحد، والآلهة من العبيد، والشهوات المحرمة ..!، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، ويصير تائهاً لا يدري أين يضع قدمه، ومن الجانب الآخر ثمة أصحاب له مهتدون، يدعونه إلى الهدى،

---

(١) القرآن والصورة البيانية (٦٦) وما بعدها .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٧) .

(٣) مجموعة الفتاوى (١٦٦/١٤) بتصرف .

وينادونه "ائتنا"، وهو بين الاستهواء وهذا الدعاء "حيران"؛ لا يدري أي الفريقين يجيب.. في بؤس، وعذاب نفسي أليم ..!(١).

بعد ذلك يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم: (قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، وهو التقرير الحاسم في الظرف النفسي المناسب، فالنفس التي تموج داخلها تلك الحيرة الطاغية، التي لا تستقر على قرار، وما تعمقه من عذاب مرير؛ تكون هذه النفس أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم (٢).

ومن هذه الآية نقطف ثمرة من ثمار التوحيد؛ وهي الراحة النفسية للموحد الذي آمن بأنه لا إله إلا الله، والتزم ا قولاً وعملا .. وأعظم ا من ثمرة.

وخاتمة شواهد هذا المبحث قوله تعالى:

(فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) **[الأنعام:١٢٥].**

في مناسبة الآية لما قبلها قال البقاعي: "لما تقدم أنه ـ تعالى ـ أعلم بمن طبع على قلبه، فلا ينفك عن الضلال، ومن يقبل الهداية في الحال أو المآل، وأن مكر ا رمين إنما هو بإرادته، ونافذ قدرته، علم أن الأمر أمره، والقلوب بيده، فتسبب عن ذلك قوله: (فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ ...) "(٣).

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣١/٢) وما بعدها .

(٢) ينظر : المرجع السابق (١١٣٢/٢) .

(٣) نظم الدرر (٢٥٨/٧) .

وشاهد التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ﴾، وكذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أما الشاهد الأول ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾**؛ فهو تصوير لحال من يرد الله ـ تعالى ـ إضلاله. إلا أنه ثمة خطوات لا بد من خطوها قبل العروج إلى بيان التشبيه، ومع كل خطوة وقفة يسيرة تلقي شيئاً من الضوء على بعض ما في النظم من لطائف بلاغية؛ من ذلك :**

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ **في الجملة أسند فعل "الإرادة" إلى الله ـ جل وعلا ـ ، وهو إسناد حقيقي. فثبت بهذا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ له إرادة في ضلال من شاء من عباده..[1]. وعلى هذا فلا صحة لما ذكرته المعتزلة في معنى الآية من أن المراد: "أن يخذله، ويخليه وشأنه، وهو الذي لا لطف له، (**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**) يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه، وينبو عن قبول الحق، وينسد فلا يدخله الإيمان."[2].**

بل المعنى: أن من أراد الله ـ تعالى ـ إضلاله عن سبيل الهدى والإيمان، فإنه يشغله بكفره وصده عن سبيله[3]، فيبقى هذا الضال منغمساً في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه الإيمان، ولا ينشرح صدره له، بل هو في ضيق وضنك منه[4] .

فأهل السنة كما يؤمنون بأنه ـ تعالى ـ له إرادة على فعل الخير وفعله، فكذا يؤمنون بأن له ـ سبحانه وتعالى ـ إرادة على فعل الشر وفعله [5].

ولعل إتيان التعبير القرآني بالأفعال "يرد"، و"يضله"، و"يجعل" بصيغة المضارع للدلالة ـ والله أعلم ـ على أن إرادة الإضلال، وهذا الجعل ليس خاصاً بمن نزل عليهم

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (١٤٤/٦)، و: البحر المحيط (٢١٧/٤) .

(٢) الكشاف (٣٨/٢) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٣٥/٥) .

(٤) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٧١/٢) .

(٥) ينظر : الانتصاف . حاشية الكشاف (٣٨/٢) .

القرآن، بل هو جزاء كل من استكبر عن قبول دعوة الحق، وكل من طمس فطرة الله ـ تعالى ـ التي فطره عليها بظلمات الكفر .. في كل زمان؛ فهي أفعال تتجدد باستمرار، ومع كل آية ترد عليهم، فلا تزيدهم الآيات إلا ضلالاً وكفراً.

ومن دقائق التعبير القرآني إيثار جعل "الصدر" مكاناً للضيق والحرج، لا "القلب" مع أن "القلب" هو محل المعرفة، والعلم، والمحبة، والإنابة[1]. وهذا يدفع القارئ لأن يتساءل عن سر هذا الإيثار ..!.

وربما يكون السر فيه أن الصدر بمثابة الطريق الموصلة إلى القلب، فكأن الإيمان يجب عليه أن يعبر الصدر أولاً قبل أن يدخل إلى القلب. ففي جعل هذا الطريق الموصل إلى القلب ضيقاً حرجا، يصعب على الإيمان إيجاد منفذ يدخل فيه؛ ليصل إلى القلب، فما يكون منه إلا أن يعدل عنه ولا يساكنه؛ في هذا مبالغة في التضييق على الكافر، ومنعه من الإيمان[2] .

(ضيقاً) جاء في "البحر المحيط" أن الكسائي قال: "الضيق ـ بالتشديد ـ في الأجرام، وبالتخفيف في المعاني"، وأن كلمة (ضيقاً) مصدر أتي ا على هذا الوزن للمبالغة[3]؛ فمن شدة ما اجتمع في صدر ذلك الذي حرم نعمة الهداية من ضيق، وضنك، وعسر كان صدره بمثابة المصدر للضيق، أو هو الضيق نفسه ..!، ولهل هذا لتأكيد الضيق الذي يسكن صدر ذلك الضال .

وأتبع (ضيقاً) بوصف آخر وهو (حرجا)، وتحتمل كلمة "حرجا" ـ بفتح الراء ـ عند المفسرين معنيين هما :

الأول: أ ا أشد الضيق الذي لا ينفذه شيء من شدة ضيقه[4]؛ وهي هنا مصدر وصف به صدر الضال[5]؛ للمبالغة ـ أيضاً ـ فكأن صدر الضال صار نفس الحرج، ولم

---

(١) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٨٩/٣) .

(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها. وما بعدها .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٢١٨/٤) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٣٧/٥) .

(٥) ينظر : الحجة في القرآت السبع (١٤٩)، و: الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٥٠/١) .

تعد هذه الصفة قابلة للزوال عنه[١]. ويكون إتباع الضيق بالحرج؛ لتأكيد معنى الضيق؛ لأن في الحرج من معنى شدة الضيق ما ليس في (ضيقاً)[٢]؛ ولعل هذا يعود لمادة هذه الكلمة بتراكيبها الخمسة؛ وهي: (حرج، حجر، رجح، جحر، جرح)، فجميعها تلتقي معانيها في الضيق والشدة؛ فالحجر الذي هو الجسم المعروف يلزمه الثقل، والمنع، والصلابة التي هي القسوة، ويلزمها الضيق، ويقال: استحجر الطين والحجرة إذا تماسك وضاق.

ومنه جحر الضب ـ الثقب المحتفر في الأرض ـ ، وهو بابه وفيه الضيق. ومنه الجرح لمخالفة الحديد للحم وتلاحمه عليه. ومنه الحرجة؛ وهي ما التف من الشجر فلا يمكن دخوله لضيقه. ومنه رجح الميزان؛ لأنه مال أحد شقيه نحو الأرض، فقرب منها وضاق ما كان واسعاً بينه وبينها، وهو الراجح..[٣]، فلا أبلغ من اختيار كلمة "حرجا" لتأكيد الضيق .

وفي معنى قوله تعالى: (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) قال ابن عباس: " إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك."[٤]، هذا في زمان ابن عباس، أما في زماننا فإن كل ضال يرتاح لما عبد من دون الله ـ تعالى ـ ، ولما أشرك به، واتخذه نداً لله ـ تعالى ـ يحبه كما يحب الله ـ جل وعلا ـ .

الثاني : **أن المراد أصل هذه الكلمة؛ وهو "الحرج"، و"الحرج" جمع "حرجة"؛ وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، فلا يصل إليها شيء؛ لشدة التفاف الشجر بها[٥].**

"وقرأ عمر بن الخطاب الآية، فقال: ايتوني رجلاً من كنانة، واجعلوه راعياً. فأتوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحَرَجةُ فيكم؟. فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة، فلا

---

(١) التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم (١٦٦) بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير (٥٩/٨) بتصرف .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٢٦١/٧) وما بعدها .

(٤) معالم التنزيل (١٢٩/٢) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٣٧/٥) .

تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير."[١].

"وقرأ ابن عباس هذه الآية، فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ فقال رجل: نعم. قال: ما الحَرجة فيكم؟. قالوا: الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب كافر."[٢].

وعليه يكون في الآية شاهد للتشبيه المؤكد؛ فيه شبه صدر الضال الذي لا يتسع لقبول الإيمان بالحرجة التي لا يصل إليها شيء، ووجه الشبه: الضيق، والظلام، والمنع في كل منهما، والغرض منه تقرير حال المشبه؛ وهو صدر الضال ـ والله أعلم بمراده ـ .

ثم زيدت حالة المضلل عن الإسلام تبياناً بالتمثيل، فقال تعالى: (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ)[٣]. وكان للمفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ اجتهادا م في بيان التشبيه الوارد فيها، ويمكن إجمال الصورة التي رأها بعض المتقدمين في الجملة على النحو التالي :

شبهت حال من أراد الله ـ تعالى ـ إضلاله..؛ بجعل صدره ضيقاً حرجاً..، بحال من ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فلم يجد إلا أن يتكلف الصعود في السماء بحثاً عن متنفس وهرباً من الضيق .. وليس يقدر..![٤].

فكأنما هو يزاول أمراً غير ممكن؛ لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع، ويبعد عن الاستطاعة، وتضيق عنه القدرة[٥]. فالإيمان يشق على ذلك الضال كما يشق عليه صعود السماء [٦].

---

(١) الضوء المنير على التفسير (٨٩/٣) .

(٢) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) التحرير والتنوير (٥٩/٨) بتصرف .

(٤) ينظر : معاني القرآن (٣٥٤/١)، و: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٣٩/٥)، و: الجامع لأحكـام القـرآن (٨٢/٧)، و: البحر المحيط (٢١٨/٤)، و: حاشية زاده (٢٠٧/٢) .

(٥) الكشاف (٣٨/٢) بتصرف .

(٦) معالم التن يل (١٢٩/٢) بتصرف .

وأداة التشبيه هي (كأن)، وقد أفادت التشبيه بالإضافة إلى تأكيده[١]، والذي يغلب على الظن أن التشبيه بها أبلغ من التشبيه بالكاف، فلذا تستعمل حين يقوى الشبه بين الطرفين، ولا يكاد الرائي يشك في قوة التماثل بين المشبه والمشبه به[٢]. ووجه الشبه في هذا التشبيه التمثيلي وصف منتزع من متعدد؛ وهو الهيئة الحاصلة من مزاولة أمر ممتنع وغير ممكن مع التكلف فيه والمشقة. ولعل الغرض من التشبيه هنا؛ بيان حال المشبه (الكافر، أو الضال)؛ ليتجلى للسامع من أمره ما كان خفياً .

وتلك هي نظرة المتقدمين للصورة التشبيهية الواردة في الآية؛ وهي نظرة تستحق الاحترام والتقدير..!.

وكما كان للمتقدمين نظرتهم واجتهادهم في بيان التمثيل في الآية، فكذا كان للمتأخرين؛ من ذلك ما قاله المراغي في تفسيره: "ضرب الله مثلاً لضيق النفس المعنوي يجده من دعي إلى الحق، وقد ألف الباطل، وركن إليه، بضيق التنفس الذي يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو...، وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه، وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل."[٣].

وذاك يعود لما اكتشفه علماء العصر الحديث من أنه كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض .. خف الضغط الجوي، وقلّت نسبة الأكسجين، فيشعر الإنسان لذلك بضيق في صدره وحرج .. خلال استنشاقه للهواء، قد يؤدي به للإغماء فالاختناق[٤] .

فمن يرد الله ـ تعالى ـ إضلاله يجعل صدره مغلقاً، يجد العسر والمشقة في قبول الإيمان، "كأنما يصعد في السماء".. وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء![٥].

---

(١) ينظر : عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح . ضمن شروح التلخيص (٣٩١/٣) .

(٢) القرآن والصورة البيانية (٧٨) بتصرف .

(٣) تفسير المراغي (٢٥/٨) .

(٤) ينظر : الجدول في إعراب القرآن (٢٨١/٤) .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠٣/٣) .

وكما يلحظ فقد تم ربط الجملة التشبيهية بالعلم الحديث، فتمثلت لنا صورة بديعة مؤثرة..، تثري النص القرآني بأسرارها، لكنها لا تلغي جهد من سبق، أو تدفعنا للتقليل منه، مثل أن يقال: "وهذه الآية وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً؛ لأ م لم يهتدوا لسرها، وجاء الكشف الحديث، وتقدم العلماء فأمكن شرح مغزاها، وبيان المراد منها."[١]. فكما اتسع اللفظ القرآني لأسرار العلم الحديث، فهو لن يضيق بأسرار اللغة ..!. بل هما ـ جنباً إلى جنب ـ يتآزران للنطق بإعجاز القرآن الكريم .

ويجد القارئ أن بناء كلمة (يصعد) ـ بتشديد الصاد والعين ـ قد أوحى بشيء من المعنى بجرسه القوي، والأصل في بنائها أن يأتي على "يتصعد" من الصعود إلا أن تاء الافتعال ادغمت مع الصاد؛ للتخفيف؛ وساغ ذلك لأن التاء شبيهة بحروف الإطباق[٢].

ومع هذا الإدغام فما زالت الكلمة ببنائها وجرسها تحمل إيحاء قوياً بالعسر، والقبض، والضيق، والجهد .. و ذا يتناسق المشهد الشاخص، مع الحالة الواقعة، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد[٣].

وشاهد التشبيه الآخر أتى في جملة ذُيل ا ما سبق؛ وهي قوله تعالى: (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)؛ وهذا التذييل ضرب من أضرب الإطناب؛ ولعل الإتيان به هنا لتأكيد مضمون الجملة السابقة؛ فلذا فصلت عما قبلها، لما بينهما من كمال اتصال[٤].

(كَذَلِكَ) الكاف فيها للتشبيه[٥]؛ ويؤتى ذه الكلمة "عندما يراد عقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط، وهنا يؤدي التشبيه رسالته في إيضاح المعنى وتوطيده في النفس."[٦].

---

(١) تفسير المراغي (٢٥/٨) .
(٢) ينظر : مجمع البيان (٥٦٠/٤)، و: التحرير والتنوير (٥٩/٨) .
(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠٣/٣) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٦٠/٨) .
(٥) ينظر : تفسير الخازن (١٨١/٢) .
(٦) من بلاغة القرآن (٢١٢) .

وفيما سبق بين أي ضيق جعله الله ـ تعالى ـ في صدور الذين أضلهم؛ ضيق فاق بقوته، وثقله على نفوسهم كل ضيق..، فاستحق هذا الجعل أن يكون مثالاً عظيماً على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ ونفاذ مشيئته وإرادته. فكان أن ربط بين هذا الجعل، وبين جعله ـ سبحانه وتعالى ـ الرجس على الذين لا يؤمنون .

والمعنى: كما يجعل الله ـ تعالى ـ صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كأنما يصعد في السماء من شدة ضيقه عن الإيمان، كذلك يجعل الله ـ تعالى ـ الرجس عليه، وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ [(١)].

فالمشبه: جعله الرجس على الذين لا يؤمنون، والمشبه به: جعله الضيق والحرج على صدر من أراد إضلاله. وأداة التشبيه: كذلك، ووجه الشبه: الاستحقاق في كل منهما[(٢)].

و(الرجس) في الأصل لما يستقذر[(٣)]، ومن معانيها: كل ما لا خير فيه[(٤)]، والنجس[(٥)]، و"العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب"[(٦)]. فكان أن تركت هذه الكلمة إيحاءً ـ في الجملة ـ عميقاً؛ فهي توحي بمشهد كل كافر وقد لازمه العذاب بشتى أنواعه، وما يخلفه ذاك العذاب من ضنى، وألم، واضطراب .. دون أن يستطيع لذلك فكاكاً..!؛ مشهده وقد لازمه النجس، والقذارة..!. وكل ذلك ـ وأكثر مما يوصف ـ لازمهم نتيجة لعدم إيمانهم؛ فهو الذي أوجب أن يجعل الله ـ تعالى ـ الرجس عليهم؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير؛

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٠/٥) .
(٢) ينظر : مجمع البيان (٥٦٢/٤) .
(٣) نظم الدرر (٢٦٣/٧) بتصرف .
(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤٠/٥) .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٤٦/٦) .
(٦) الكشاف (٣٨/٢) .

فإن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله ـ تعالى ـ لليسرى. ومن بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى[١].

وفي الاتيان باسم الجلالة "الله" في نظم الجملة؛ تربية للمهابة، ودلالة على كمال قدرته ـ تعالى ـ ، وعدله.

ومن بلاغة القرآن الكريم في التعبير بالحروف؛ التعبير بـ"على" في قوله تعالى: (عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)، وأفاد هذا ـ والله أعلم ـ تمكن الرجس من قلوب الكافرين، وظهور آثاره عليهم[٢]. ولعل التعبير به؛ لإظهار ما عليه أولئك الكفرة من ذلة، وحقارة، وقلة شأن عند الله ـ تعالى ـ ، حتى جعل عذاب الله العلي العظيم يعلوهم من فوقهم، ويسربلهم حتى أخمص أقدامهم، وهم عن رده عاجزون..!.

ومن أسرار التعبير ـ أيضاً ـ الإتيان بصلة الموصول بقوله تعالى: (الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)، وفيه إشعار بأن جعله ـ تعالى ـ معلّلاً بما في حيز الصلة من كمال نبوهم عن الإيمان، وإصرارهم على الكفر[٣]. وعم بالموصول كل من يعرض عن الإيمان، سواء من المشركين المخبر عنهم، أو من غيرهم من كل من يدعى إلى الإسلام، فيعرض عنه، و بذا العموم صارت الجملة تذييلاً[٤].

ومن اللطائف في الآية الكريمة :

في قوله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ)؛ صورة بيانية بأسلوب "الكناية" في قوله: (يَشْرَحْ)؛ وأصل الشرح: "التوسعة، والبسط في الأجسام"[٥]. والمراد هنا لازمها؛ وهو توسعة الصدر لقبول الإيمان[٦].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٧١/٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٦١/٨) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٤/٣) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٢٦٣/٧)، و: التحرير والتنوير(٦١/٨) .

(٥) المحرر الوجيز (١٤٤/٦) .

(٦) ينظر : البحر المحيط (٢١٧/٤)، و: حاشية الصاوي (٤٥/٢) .

والشرح نور يقذفه الله ـ تعالى ـ في صدر العبد به يعرف الحق، فإذا دخله ذلك النور، اتسع صدره بحسب قوة النور وضعفه[(١)].

"وكل إناء فارغ إذا دخل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق؛ إلا القلب اللين فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم؛ اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى."[(٢)].

كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه في هذه الدار على ما ناله من مكروها، وإذا قوي الإيمان وخالطت بشاشته القلوب؛ كان على مكارهها أشرح صدراً منه على شهوا ا ومحا ا، ثم هو إذا بعثه الله ـ تعالى ـ يوم القيامة وجد من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية؛ فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير[(٣)].

وإذا تأمل من شرح الله ـ تعالى ـ صدره للإسلام والإيمان في هذه الآية وما تضمنته من أسرار التوحيد، والقدر، والعدل، وعظمة شأن الربوبية؛ صار لقلبه عبودية حقة وعلم أنه عبد لله من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب ـ تعالى ـ رب كل شيء ومليكه، والأمر كله بيده، والحمد كله له[(٤)].

---

(١) ينظر : تفسير الخازن (١٨١/٢)، و: الضوء المنير على التفسير (٩٠/٣) .

(٢) الضوء المنير (٩٠/٣) .

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها. بتصرف .

(٤) السابق (٩١/٣) .

المبحث الثاني

المجـاز

المجـــاز

"ا از: مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوحيه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أ م جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً"[١].

وهو قسمان **[٢]** :

أ- مجاز عقلي .

ب- مجاز لغوي **.**

والعرب كثيراً ما تستعمل ا از، وتعده من مفاخر كلامها؛ فهو دليل على الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات[٣].

وفي هذا المبحث ثمة وقفة مع هذا الفن البلاغي، ومحاولة التماس شيء من لطائفه في النص القرآني.

---

(١) اية الإيجاز في دارية الإعجاز: (٨١) .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة : (٤٠٨) .

(٣) العمدة (٢٦٥/١) بتصرف.

المجاز العقلي

يعرف المجاز العقلي بأنه: "إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم؛ لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له."(١).

ومعنى: وما في معنى الفعل؛ أي: المصدر، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، والظرف(٢).

ولهذا النوع من المجاز ملابسات ـ أو علاقات ـ شتى، ذكر منها الخطيب القزويني: الفاعلية، والمفعولية، والمصدرية، والزمانية، والمكانية، والسببية (٣).

وزاد د.محمد أبو موسى في كتابه: "خصائص التراكيب" ـ على هذه العلاقات ـ علاقات وجدها في تفسير الزمخشري؛ منها: إسناد الفعل إلى الجنس كله، وهو في الحقيقة مسند إلى بعضهم، وإسناده إلى الجارحة التي هي آلته(٤).

ومن شواهد هذا الفن في الآيات؛ قوله تعالى:

(فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) [الأنعام:٥].

مناسبة الآية لما قبلها: أنه لما بين الله ـ تعالى ـ أن شأن أولئك الكفار هو الإعراض عن الآيات، وسائر ما يؤيد الله ـ تعالى ـ به رسله ـ عليهم السلام ـ، أتبعه بقوله: (فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ)(٥).

---

(١) علوم البلاغة : (٢٩١) .

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد . ضمن شروح التلخيص (٢٣٥/١) .

(٣) ينظر : الإيضاح : (٢٧) .

(٤) ينظر : خصائص التراكيب : (٨١-٨٢) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٣٠٢/٧) .

والشاهد في قوله تعالى: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)؛ ففيها أسند فعل الإتيان لغير فاعله؛ وهو"أنباء"، فالأنباء لا تأتي إنما يؤتى ا، ولعل علاقة هذا النوع من ا از "السببية". وترك هذا ا از دلالته في الجملة، وقد تآزر مع ما انتظم فيها من كلمات؛ لإبراز الغرض الذي سيقت من أجله الجملة .

فالجملة مسوقة للوعيد، والتهديد، والزجر عن الاستهزاء[١] .

وافتتحت بـ"سوف"، ونكتة تصديرها ا ـ والله أعلم ـ لتأكيد مضمون الجملة وتقريره؛ أي: سوف يأتيهم قطعاً، وإن تأخر أو طال الزمان..![٢].

وأسند فعل الإتيان لأنباء، و"أنباء"؛ جمع "نبأ"، وهو: الخبر عظيم الوقع[٣]. وأريد به ـ والله أعلم ـ العقوبات التي توعدهم الله ـ جل وعلا ـ ا[٤]. وفي إيثار التعبير بكلمة "أنباء" دون كلمة "عقوبات" ـ مثلاً ـ أو "أخبار"؛ إيذان بغاية العظم[٥].

يضاف إلى ذلك إيرادها بصيغة الجمع؛ وقد يكون ـ مع بيان عظمها وكثر ا ـ للإشارة إلى عموم تلك العقوبات وتكريرها لهم في الدنيا والآخرة[٦].

ولعله يتضح مما سبق شيء من بلاغة ا از الإسنادي الواقع في الجملة؛ فكأن تلك الأنباء عظيمة الوقع، ستأتيهم تباعاً بنفسها بلا رسول، وفي هذا دلالة على مباغتتها لهم، وعلى سرعة وقوعها حين تأتي، ولعل هذا لتأكيد إتيا ا. ومن شأن إتيان كهذا أن يهز قلوب المكذبين المستهزئين، ويجعلهم في كل لحظة يترقبون إتيان شيء لا يعرفون نوعه، ولا موعده..! ويتركهم في غمرات ترقبهم يتعذبون..![٧].

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٤/٤٨٤)، و: البحر المحيط (٤/٧٥) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/١١٠) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٤/٧٥) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز (٦/٧) .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/١١٠) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٦/٧)، و: حاشية الصاوي (٢/٤) .

(٧) ينظر : في ظلال القرآن (٢/١٠٣٧) .

ومن بلاغة هذا المجاز ـ أيضاً ـ تأكيد وقوع الفعل من الفاعل الحقيقي؛ وهو الله ـ تعالى ـ، فالإتيان إذا كان قد أكد وقوعه من الفاعل المجازي، فوقوعه من الله ـ تعالى ـ آكد، وفي هذا بث للرعب والفزع في نفوس المكذبين .

وقيل: إنه قد أتاهم شيء مما توعدوا به، وكان من أوائله ما نزل بهم من القحط، وما حل بهم في "بدر"، ويوم الفتح. أما ما ينتظرهم في الآخرة فهو أعظم وأشق[١].

والتعبير بـ"ما" الموصولة بما فيها من إبهام؛ فيه تهويل لشأن الحق المكذب به[٢].

والمجيء بفاصلة الآية بقوله تعالى: (مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) ترك في ذهن المتلقي سؤالاً مفاده: أولم يكن من المناسب للنظم أن تجيء المجازاة على التكذيب، أو الإعراض السابق ذكره في قوله تعالى: (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام:٤]، لا على الاستهزاء..؟![٣].

والجواب عن مثل هذا السؤال يأخذ بيد السائل؛ ليحلق في فضاءات البلاغة القرآنية الرحيبة..!؛ فالسر في الإتيان بالفاصلة على ما ذكر، بتعليق التهديد بالاستهزاء دون الإعراض والتكذيب؛ لتضمنه ـ والله أعلم ـ إياهما، إذ هو أقصى غايات الإنكار، فجمعت كلمة (يَسْتَهْزِؤُونَ) أوصافاً للمشركين ثلاثة..![٤].

وتكون أحوال الكفار قد رتبت في النظم القرآني على ثلاث مراتب، وهي:

الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل، والتفكر في البينات.

الثانية: كونهم مكذبين لها، وهذه مرتبة أزيد مما قبلها؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض.

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٧/٦)، و: تفسير القرآن الحكيم (٣٠٣/٧) .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٠/٣) .
(٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٣٠/٢) .
(٤) ينظر : البحر المحيط (٧٥/٤) .

الثالثة : **كونهم مستهزئين بها؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار** فبين ـ تعالى ـ في **النظم القرآني أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاث على هذا الترتيب**(١)، **وفي هذا تشنيع عليهم .**

ومن أسرار النظم في الآية :

أنه ـ سبحانه وتعالى ـ **قال هنا:** (فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)**، وفي سورة الشعراء قال:** (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون)**[الشعراء:٦]، فانفردت آية الأنعام بزيادة قوله:** (بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ)**، وبقوله:** (فَسَوْفَ) **بدل السين، فأي سر بلاغي في هذا؟!.**

والجواب ـ والله أعلم ـ أن آية الأنعام ترتبت على إطناب وبسط لآيات تتعلق بحمده ـ سبحانه وتعالى ـ **وانفراده بالخلق وذكر الآيات العظام؛ فقد قال تعالى:** (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) **[الأنعام:١]؛ فذكر** ـ سبحانه ـ **خلق السموات والأرض، وخلق الظلمات والنور؛ فالظلمات ناشئة عن أجرام هذه المخلوقات، والأنوار عن أجرام ما جعل الله** ـ تعالى ـ في **السموات، وزينها بها من شمس، وقمر، وكواكب للاهتداء والضياء.** ثم **ذكر خلقهم من طين، وبعد ذلك قال:** (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)**[الأنعام:٤]، فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه ما أتبع به، فناسب الإطناب مقام الإطناب .**

أما آية الشعراء فقبلها قال تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) **[الشعراء:٢]،** ثم **اعترض بتسلية النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ**، بقوله تعالى:** (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**[الشعراء:٣]، وليس هذا المعترض به مما ذكروا به،** ثم **قال بعده:** (إِن نَّشَأْ

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٤٨٣/٤) .

تُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)[الشعراء:٤]، وهذا راجع لتسلية النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلم يبق لتذكيرهم سوى قوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)[الشعراء:٢]، وما بعد ذلك من وعيدهم و تهديدهم بقوله:(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)[الشعراء:٥]، وهذا إيجاز فناسبه ما ذكر بعده، فالإيجاز يناسب مقام الإيجاز، والإطناب يناسب مقام الإطناب، وهذا هو لب البلاغة وجوهرها[1].

وللمجاز العقلي شاهد فيما تلا هذه الآية؛ وهي قوله تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) [الأنعام:٦].

فهذه الآية أتت لبيان التي سبقتها[2]. وجاء بيانها بأسلوب إنشائي طلبي؛ بطريق الاستفهام، وفيها خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى الإنكار؛ إنكار عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة والتي يدل حالها على أنها مسلطة عليهم من الله ـ جل وعلا ـ عقاباً لهم على التكذيب [3].

أما كيف ساغ الإنكار عليهم هذا؛ فلأنهم كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب، وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة، ويعرفون

---

(١) ينظر : ملاك التأويل (٤١٢/١) وما بعدها .

(٢) ينظر : فتح القدير (١٠٠/٢) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٦/٦) .

ما يتناقله المحيطون ا من أحاديث؛ فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب..![1].

وتجري الآية مجرى الموعظة والنصيحة [2]؛ فهي دعوة بليغة للاعتبار بمن قص الله ـ تعالى ـ نبأهم[3] .

والشاهد في قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ). ففي الجملة الأولى: (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا) تآزر "ا از العقلي" مع "ا از المرسل"؛ لنقل صورة تتلألأ في جنبا ا درر النعيم..؛ رخاء ونماء..، خضرة وجمال..، عيشة رغيدة..، وقرون تتقلب في ذلك النعيم..!.

فقوله: (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء) مجاز مرسل؛ إذ المراد بـ"السماء": المطر[4]، والسر في التعبير عنه بالسماء؛ لأنه من السماء ي ل[5]. فعلاقة هذا ا از "المحلية" .

والتعبير عن المطر بطريق ا از المرسل، كان له مزية بديعة؛ وبيا ا أن السماء تعني: هذا الفضاء الرحيب الذي يعلو الوجود كله، ويحيط به، ويمتد إلى ما لا اية..، فيه تسبح الأفلاك، وفيه تتجمع السحب، ومنه ت ل الأمطار، فترتوي الأرض ا، ثم ينبت الكلأ والزرع، وتورق الأشجار، وتثمر الثمار، ويكون الرزق والمال الوفير..، فالسماء تحمل هذا كله، بل ما هو أكثر..[6] فلا عجب إن عبر عن المطر بكلمة "السماء"، فقد جعلت الذهن يستحضر تلك الصور المتتابعة.. وكأ ا متمثلة أمامه..!.

ومن مزايا هذا ا از تأكيد نزول المطر مع وفرته وكثرته، فكأن كل السماء على سعتها قد استحالت إلى سحاب تدر عليهم المطر، ولعل هذا للدلالة على دوام خضرة أراضيهم وخصوبتها،وما يتبع ذلك من كثرة المراعي، والمزروعات، والأنعام...إلخ.

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٧/٢).

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٤٨٤/٤) .

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٧٤/٢) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٩/٥) .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٩٢/٦) .

(٦) ينظر : البلاغة في ثو ا الجديد (٧٣/٢) .

أما ا از العقلي ففي وصف المطر بقوله تعالى: (مِّدۡرَارٗا)، والمدرار: هو الغزير[١] .

ومن دقائق التعبير القرآني اختيار كلمة "الدر"؛ لتؤدي معنى الغزارة؛ يقال: "در اللبن يدر: إذا أقبل على الحالب بكثرة"[٢]. ليس ذلك فحسب، إنما زيد عليه الإتيان ا مبنية على وزن "مفعال"؛ وهي من صيغ المبالغة، فدل هذا ـ أيضاً ـ على كثرة المطر وغزارته[٣]، فحصل إثبات هذه الصفة للمطر مرتين؛ مرة بالكلمة نفسها، وأخرى ببنائها.

ومجازية هذا التعبير أتت من إسناد صفة المدرار للمطر، وإنما المدرار سحابه..[٤]، والعلاقة مكانية، فلما كان المطر ي ل من السحاب أسندت إليه تلك الصفة.

فصور ا از العقلي صورة المطر وهو يتتابع ب وله مرة بعد أخرى[٥]؛ صورته وهو يدر عليهم وفق ما ينفعهم، وما يرخى معيشتهم؛ لأن سياق الآية تعديد النعم التي من الله ـ تعالى ـ ا على تلك القرون[٦].

ولعل من نكت إسناد المدرار للمطر؛ لفت الأنظار إلى آثاره في الأرض..؛ آثاره التي تدل على وفرة النعم، ورخاء العيش، وهذا يوحي بالتمكين في الأرض.

أما ا از الآخر ففي قوله تعالى:

(وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ). وفي جعل الأ ار تجري من تحتهم دلالة على أن إرسال ماء السماء عليهم ليس دائماً، إنما هو بحسب ما ينفعهم؛ لذا أتبعت تلك النعمة بنعمة أخرى؛ وهي ماء الأرض؛ لدوامه..[٧] .

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٩/٥) .

(٢) فتح القدير (١٠١/٣) .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز (٧/٦)، و: فتح القدير (١٠١/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٩/٦) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٤٨٤/٤) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٧/٦) .

(٧) ينظر : نظم الدرر (٢٣/٧) .

وهذه النعمة تتصل بما قبلها اتصالاً وثيقاً؛ إذ إن من لوازم كثرة الأمطار كثرة الأ ار والأودية بكثرة انفجار العيون من سعة ري طبقات الأرض، وقد كانت معظم بلاد العرب في هذا الخصب والسعة، كما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ، ثم ما دلت عليه آثارهم، وسدودهم، ونسلان الأمم إليها، لكن الأحوال تغيرت بسنن إلهية؛ منها ـ مثلاً ـ الجدب الذي حل سنين ببلاد عاد، فصار معظمها قاحلاً، فهلكت أممها(١).

و(الأَنْهَارَ): جمع ر؛ وهو "ا رى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات"(٢).

و(تَجْرِي): "من الجري؛ وهو إسراع حركة الشيء ودوامها"(٣).

وا از العقلي في إسناد فعل الجري للأ ار؛ إذ الأ ار لا تجري، إنما الذي يجري ماؤها، وعلاقة ا از المكانية.

ومزية هذا ا از تعجز الأقلام عن وصفها، والأفهام عن الإحاطة بدقائقها..، لكن يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً أمام السالكين.. .

فهذا أبو السعود استثار هذا ا از ذائقته، واجتهد في إصابة مزيته، فقال: "وفيه من الدلالة على كو ا مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس في أن يقال [في غير القرآن]: وأجرينا الأ ار من تحتهم"(٤).

فلعل استمرارية الجريان أتت من إسناد فعله للأ ار من منطلق أ ا تفعل ذلك الفعل طاعة مختارة..، وقد يكون هذا قمة التسخير..!.

ومزية أخرى لإسناد فعل الجري للأ ار؛ وهي كون الماء الجاري من أجل النعم، ومن أكبر اللذات..، حتى إن الله ـ جل وعلا ـ قرن الجنات بذكر الأ ار الجارية، وقدمه على سائر نعو ا(٥).

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٩/٦) .

(٢) إرشاد العقل السليم (٦٩/١) .

(٣) نظم الدرر (١٩١/١) وما بعدها .

(٤) إرشاد العقل السليم (١١١/٣) .

(٥) ينظر : نظم الدرر . الهامش (١٩١/١) .

إلا أن فعل الجري لم يسند لفاعله الحقيقي "مياه الأ ار"، ولربما لو أسند إليه لتركز النظر على مرآه وهو يجري فحسب، ولا شك في أن لهذا مزية .. لكنها لا تعدل مزية إسناده للأ ار "مكان الماء"؛ وبيان هذا أن الإسناد ا ازي قد يكون فيه حث للناظر على أن يوسع نظرته، وينتقل بفكره من مجرد ماء يجري إلى أ ار تجري..!، فيقلب نظره في هذه الصورة رائعة الجمال..؛ الأ ار تجري وعلى امتداد ضفافها الخضرة الناضرة، والأشجار المورقة، والظلال الممتدة، والأطيار المغردة..، ثم تلك اللذة الحاصلة من التأمل والنظر في كل ذاك الجمال الآسر..!؛ وهذه نعمة تضاف إلى ما سبق من نعم..!.

فبا از نقلت لنا تلك الصورة، وبان من خلالها أي نعيم كانوا يتقلبون فيه..!.

وقيدت الجملة بقوله تعالى: (مِن تَحۡتِهِمۡ)؛ ولعل هذا لأن عموم الماء يكون في قاع الأرض، ويظل بعده مانعاً من تمام الانتفاع به، فقيدت الجملة بـ"من تحتهم"؛ للإشارة إلى قربه منهم؛ أي أنه على وجه الأرض، إضافة إلى ما في أعماقها حتى إذا حفرت نبع من الماء ما يجري منه ر(١). وفي هذا إظهار ـ والله أعلم ـ لمزيد نعمته ـ تعالى ـ عليهم، وتمكينهم.

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

في قوله تعالى: (أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ). التعبير بـ"بكم" ـ استفهامية كانت أو خبرية ـ أفاد كثرة القرون المهلكة(٢). وفي هذا ويل للخبر؛ ليترك أثراً بليغاً في النفوس(٣).

ومن الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ اختيار كلمة (قَرۡنٍ)؛ للتعبير عمن أهلك؛ والقرن هم القوم المقترنون في زمان من الدهر، فالمدة التي يجتمع فيها قوم ثم يفترقون هي

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٢٣/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٠/٣) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٢٢/٧) .

قرن، والدليل قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "خيركم قرني، ثم الذين يلو م، ثم الذين يلو م"(١).

وقيل: إن أصل القرن الزمن الطويل، وكثر إطلاقه على الأمة التي دامت طويلاً. ويطلق على مقدار من الزمن قدره مائة سنة(٢).

ومهما يكن، فإن الكلمة دلت على أ م أهلكوا مع ما هم عليه من كثرة، وامتداد عمر. فكثر م لم تغنهم من الله ـ تعالى ـ شيئاً، وتعميرهم في الأرض لم يكن دليلاً على رضى الله ـ جل وعلا ـ عنهم، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وفي هذا عبرة لكل معتبر. وكما يلحظ فقد تساندت كلمة "قرن" مع "كم" في الدلالة على الكثرة، وزادت "قرن" بالدلالة على طول العمر؛ للنكتة السابقة.

قوله: (مَّكَّنَّاهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ)؛ فيه خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بطريق الالتفات من ضمير الغائب إلى المخاطب، وقد أشار إليه الطبري إلاّ أنه لم يسمه، ولم يذكر فائدته؛ قال الطبري: "فإن قال قائل: فما وجه قوله: (مَّكَّنَّاهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ)؟ ومن المخاطب بذلك؟ فقد ابتدأ الخبر في أول الآية عن قوم غُيب بقوله: (أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ)؟.

قيل: إن المخاطب بقوله: (مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ)، هو المخبر عنهم بقوله: (أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ)"(٣)؛ ولعل نكتة هذا الالتفات التعريض بقلة تمكين المخاطبين ـ وهم الذين كفروا؛ لأ م الممكنون في الأرض حين نزول الآية، وليس للمسلمين ـ والله أعلم ـ يومئذ تمكين ـ(٤)؛ والتعريض بنقصهم عن أحوال من سبق،

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٤/٤٨٤)، و الحديث أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب: الـشهادات . بـاب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد . (٥٠٢)، حديث رقم: (٢٦٥١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٧/٦) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٠/٥) .

(٤) التحرير والتنوير (١٣٧/٦) بتصرف .

ومع تمكين أولئك في الأرض، فقد حل بهم الهلاك فكيف لا يحل بكم على قلتكم وضيق حالكم، فالهلاك إليكم أسرع من الهلاك إليهم[١].

و(مَّكَّنَاهُمۡ) من التمكين؛ وهو: التثبيت[٢]. وفي التعبير بالتمكين كناية عن الإقدار وإطلاق التصرف؛ لأنه يستلزم التقوية[٣].

وليس المراد بتعداد تلك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم في كفرانها، واستحقاقهم بذلك أعظم العقوبات، بل المراد ـ والله أعلم ـ بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب، ومبادئ الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب، وعدم إغناء ذلك عنهم شيئاً. والمعنى: أعطيناهم من البسطة في الأجسام، والامتداد في الأعمار، والسعة من الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع، ودفع المضار ما لم نعط أهل مكة[٤] .

قوله: (فَأَهۡلَكۡنَاهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِن بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا آخَرِينَ) في نظم الآية إيجاز بالحذف، فهم من الكلام؛ وتقديره: فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها فأهلكناهم[٥]. وقيل: "فأذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم"[٦].

والمعنى: أنهم غمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسله، وخالفوا أمره، وبغوا حتى حق عليهم قول ربهم؛ فأخذهم بما اجترحوا من ذنوب، بإهلاك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصحية ... وغير ذلك من أنواع العذاب[٧].

والذنوب هنا هي الكفر وتكذيب الرسل .. ونحو ذلك مما دل عليه التشنيع والتقبيح بحال الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم في هذه السورة: (بِرَبِّهِم يَعۡدِلُونَ)

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٧٥/٤) .

(٢) نظم الدرر (٢٢/٧) بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٧/٧) وما بعدها .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١١/٣).

(٥) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٧٤/٢) .

(٦) التحرير والتنوير (١٣٩/٦) .

(٧) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٩/٥) وما بعدها .

[الأنعام:١]، وقوله: (ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ)[الأنعام:٢]، و: (وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ)[الأنعام:٤]، وما قاله ـ سبحانه ـ بعد ذلك: (وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)[الأنعام:٧][1]. وفي هذا دلالة على أن هذه الذنوب سبب في هلاك الأمم، وفي هذا تحذير للمخاطبين من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك[2].

ولكن أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعد أولئك المهلكين؟!. والجواب ـ والله أعلم ـ للدلالة على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويدمر أرضهم؛ ففيه بيان لكمال قدرته ـ جل وعلا ـ ، وسعة سلطانه، وأن ما ذكر من إهلاك تلك الأمم لم ينقص من ملكه شيئاً فهو الغني والخلق كلهم فقراء إليه، ثم هو وحده القادر على أن ينشئ مكا م آخرين يعمر م الأرض[3].

ولعل تنكير (قَرۡنًا) أفاد التعظيم؛ أي تعظيم المفعول، فدل ذلك على عظَم من أنشأه، وهو الله ـ جل وعلا ـ الذي لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير.

ومن بلاغة النظم في الجملة؛ تقييد المفعول به بالوصف بقوله: (ءَاخَرِينَ)، ويلحظ الإتيان به جمعاً مع إفراد الموصوف؛ ولعل السر أنه جمع حملاً على معنى قرن، وكان الحمل على المعنى في هذا الموضع أفصح؛ لأ ا فاصلة آية[4].

وفي الآية تعريض بالمشركين بأن الله ـ جل وعلا ـ مهلكهم، ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين في ديارهم [5].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٤٠/٦) .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١١٧/٢) .

(٣) ينظر : الكشاف (٤/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١١١/٣) وما بعدها.

(٤) ينظر : البحر المحيط (٧٧/٤) .

(٥) التحرير والتنوير (١٤٠/٦) بتصرف .

وفيها دلالة على وجوب التفكر والتدبر، وفيها احتجاج على منكري البعث بأن من أهلك من قبلهم وأنشأ بعدهم قوماً آخرين قادر على أن يعيد الخلق بعد الإفناء وهو أهون عليه ـ جل وعلا **ـ[١].**

ومن شواهد المجاز العقلي في الآيات قوله تعالى:

(فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)**[الأنعام:٩٦].**

الآية عرض لنوع آخر من دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، وحكمته. وقد كان النوع الأول مأخوذاً من أحوال النبات؛ قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) **[الأنعام:٩٥]، أما النوع المذكور في هذه الآية؛ فهو مأخوذ من الأحوال الفلكية[٢]؛ فهي انتقال من العالم السفلي إلى العالم العلوي[٣] .**

قوله: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)**. من دقائق التعبير في الآية؛ التعبير في جانب الليل بمادة الجعل، وهذه الكلمة في استخدام العرب لها دلالتها الخاصة؛ إذ تدل على اتصال الفعل ودوامه، لا أ ا في نفسها فعل؛ يدل على ذلك قول القائل ـ مثلاً ـ : "جعلت أقوم وأقعد"، وأنه لا جعل هناك سوى القيام والقعود، وإنما دل بقوله: "جعلت" على اتصال الفعل ودوامه[٤]. أما في الآية فدلت ـ والله أعلم ـ على دوام الإظلام، والسجى، والهدوء .. في الليل.**

---

(١) ينظر : مجمع البيان (٤٢٧/٤) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٧٥/٥) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٩٩/٧) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٣/٥) وما بعدها .

والمعنى: أن الله ـ جل وعلا ـ فلق الإصباح بقدرته، ولم يجعل النور مستمراً في الأفق، بل كان عارضا؛ لتعود الظلمة إلى الأفق، وهذا منه ـ سبحانه وتعالى ـ نعمة من أجل النعم، ورحمة منه بالموجودات؛ ليسكنوا بعد النصب والعمل، ويستجمعوا راحتهم[١].

ووصف الليل بالسكن ـ والله أعلم ـ مجاز عقلي؛ إذ السكن صفة لما يقع فيه، فالأشياء هي التي تسكن فيه، أما هو فمسكون فيه، بدلالة قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[يونس:٦٧][٢]، وعلاقة المجاز زمانية.

وفي هذا الأسلوب مبالغة في تأكيد السكون في الليل؛ فكأن الليل نفسه قد سكن، وإذا كان الليل كذلك فسكون غيره من المخلوقات من باب أولى .

وفيه ـ أيضاً ـ تصوير لسكون الليل الساجي، وقد هدأت البرية وهجعت، وأوى الناس لبيوتهم .. يلتمسون السكون في هذا الليل؛ يلتمسون سكون الجسم بإراحته من تعب العمل بالنهار؛ وسكون النفس بهدوء الخواطر والأفكار[٣].

قوله: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا)، والحسبان: مصدر حسب؛ وهو استعمال العدد في الأشياء والأوقات[٤]؛ "أي علامة حساب للناس يحسبون بحركاتها أوقات الليل والنهار، والشهور، والفصول، والأعوام"[٥].

والإخبار عن الشمس والقمر بالمصدر إسناد مجازي؛ لأنه في معنى اسم الفاعل؛ أي: حاسبين. والحاسب هم الناس بسبب الشمس والقمر[٦]. وقد تكون علاقة هذا المجاز سببية، أو مفعولية.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩١/٧) .

(٢) ينظر : معالم التنزيل (١١٧/٢)، و: البحر المحيط (١٨٦/٤، و: روح المعاني (٢٢٠/٤) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٥٠/٢)، و: تفسير القرآن الحكيم (٦٣٥/٧) .

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٣٥/٧) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٩٢/٧) .

(٦) المرجع السابق . الصفحة نفسها بتصرف .

وكان للتعبير بهذا المجاز في النظم القرآني مزية فيما لو قيل ـ في غير القرآن ـ: والشمس والقمر تحسبون بهما. فلو نظر إلى صيغة (حُسْبَانًا) في النظم القرآني، لوجد الناظر أنها قد أسهمت في أداء المعنى ببلاغة؛ إذ فيها ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن الحساب بهما أمر بالغ العظم كثير النفع[1].

ثم بإسنادها للشمس والقمر، فالأمر قد صار وكأن الحساب بهما هو حقيقتهما التي يعبر عنهما بها وحسب. وفي هذا تعظيم لهذه المنفعة التي من الله ـ تعالى ـ بها على عباده[2]. وفيه ـ أيضاً ـ تذكير بسعة علمه ـ سبحانه وتعالى ـ وكمال قدرته؛ إذ جعل ـ سبحانه ـ حركات الشمس والقمر على نظام واحد لا يختلف من أعظم دلائل علمه ـ جل وعلا ـ وقدرته، وهذا بحسب ما يظهر للناس منه، ولو اطلعوا على أسرار ذلك النظام البديع لكانت العبرة به أعظم [3].

كما أن فيه إيجازاً، والإيجاز ضرب من ضروب البلاغة .

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

بين قوله تعالى: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ)، وقوله: (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ) مقابلة؛ فانفلاق الإصباح عن الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البرعم في هذه الحركة..، وبينهما من مشابه الحركة، والحيوية، والبهاء، والجمال سمات مشتركة ملحوظة..![4].

وأتت فاصلة الآية بقوله تعالى: (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)؛ والمشار إليه بـ(ذَٰلِكَ): "هو فلقه الإصباح، وجعله الليل سكنا، والشمس، والقمر حسباناً"[5]. والإشارة إليه بما يشار به إلى البعيد؛ للإيذان ـ والله أعلم ـ بعلو رتبة المشار إليه، وبعد منزلته[6].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٢٠١/٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٢/٧) .

(٤) في ظلال القرآن (١١٥٧/٢) بتصرف .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٠/٥) .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦٥/٣) .

والكون كله مقدر بحساب دقيق..، ومقدر فيه حساب الحياة، ونوع هذه الحياة، ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر، من الحب والنوى..، وليس ثمة مجال للصدفة العابرة فيه..، بل حتى ما يسمى بالصدفة ـ أو المصادفة ـ خاضع لقانون ومقدر بحساب[١] .

وذلك تقدير العزيز العليم. ولعل ملائمة التعقيب بهذين الوصفين للآية لا تخفى؛ فـ(الْعَزِيزِ) هو الذي عز سلطانه، فلا يقدر أحد أراده العزيز بسوء وعقاب، أو انتقام أن يرد بأسه[٢]، فهو الغالب، القاهر[٣]. و(الْعَلِيمِ) "بمصالح خلقه وتدبيرهم"[٤]؛ وفيها مبالغة في العلم؛ لأن وضع الأشياء على ذلك النظام البديع لا يصدر إلا عن عالم عظيم العلم ـ سبحانه وتعالى ـ [٥]، وعلى ذلك ففي فاصلة الآية تشابه الأطراف؛ فقد ختمت الآية بما يناسب أولها في المعنى .

ولعل في الآية تعريضاً بالأصنام التي يعبدونها، إذ هي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفقه شيئا ولا تعقل، ولا تضر ولا تنفع، وإن أريدت بسوء لم تقدر على رده، ففاعل تلك التقديرات أحق بالعبادة وحده[٦] .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٥٧/٢) .
(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٠/٥) .
(٣) التحرير والتنوير (٣٩٢/٧) بتصرف .
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٠/٥) .
(٥) التحرير والتنوير (٣٩٢/٧) بتصرف .
(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٠/٥) .ومن شواهد المجاز العقلي الواردة في هذا البحث ما ورد في الصفحات التالية:(١٣١)،(٢٦٩)،(٣٠٦)،(٥٥٦) ...وغيرها.

المجاز اللغوي

وهو القسم الثاني من أقسام المجاز؛ ويُعرَّف بأنه:

الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب، على وجه يصح، مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي(١) **.**

وهذا القسم قسمان، هما :

١- المجاز المرسل .

٢- الاستعارة .

(١) ينظر : الإيضاح : (٢٤٤).

المجاز المرسل

وا از المرسل: "هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه"[١].

وعلاقات هذا ا از كثيرة[٢]، حتى قيل إن تسميته بـ"المرسل"؛ لإرساله وإطلاقه عن التقييد بعلاقة خاصة[٣] .

والمستقرئ لنماذج ا از المرسل، يجد أن أغلبها لا يكاد يفطن إلى مجازيتها؛ لشدة الإلف لها، والاعتياد عليها، حتى إن التعبير ـذا ا از يبدو في أكثر الأحيان تعبيراً طبعياً جارياً على الألسنة، دون أن يحس المتلقي إزاءه بأي نوع من الطرافة أو الهزة الوجدانية، حتى عد عند بعض البلاغيين من قبيل التوسع في اللغة والاختصار .. أو ما إلى ذلك[٤].

وذاك الحكم ربما يصدق مع كلام البشر، أما كلام الله ـ تعالى ـ فما من شك في أن الشأن معه جد مختلف. وإن نأت لطائف ا از المرسل في كتاب الله العظيم، وخفيت طرافته عن القراء..، فهذا لا يعني عدم وجودها، بل هي موجوده لكنها لا تبين إلا بعد طول تأمل، وتقليب نظر..!.

لكن الذي تجدر الإشارة إليه في هذا المقام: هو أن إدراك المتأمل للطائف هذا الأسلوب ـ إن أدركها ـ لا يمكن أن يكون كاملاً، فهو ينال ـ بعد جهد جهيد ـ طرفاً منها. إلا أن اللذة التي يجدها لحظة التأمل والغوص في النظم القرآني مرة بعد أخرى؛ للوقوف على أسرار الجمال فيه .. تكون له بمثابة العزاء ..!؛ إذ هي لذة خاصة

---

(١) الإيضاح : (٢٤٧) .

(٢) ينظر في علاقات هذا ا از : المرجع السابق : (٢٤٨) وما بعدها، و: عروس الأفـراح في شـرح تلخـيص المفتاح. ضمن شروح التلخيص (٣٦/٤) وما بعدها، وغيرهما...

(٣) ينظر : علوم البلاغة : (٢٤٩) .

(٤) ينظر : التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية : (١٠٦) .

لا يتأتى لها مثيل عند التأمل في نظم أي كلام ..!، إ ا في القرآن الذي لا تفنى عجائبه وحسب ..!.

ومن شواهد المجاز المرسل في الآيات، قوله تعالى:

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ) [الأنعام:٩٢].

هذه الآية تأتي بعد قوله تعالى: (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**)[الأنعام:٩١]، ومناسبتها لها: أنه لما أُبطلَ بالدليل قول من قال: (**مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ**)، ذُكر بعده أن القرآن هو كتاب الله ـ تعالى ـ ، أنزله ـ جل وعلا ـ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [(١)].**

والشاهد في قوله تعالى: (وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**). "والإنذار: الإخبار بما فيه توقع ضر"[(٢)]. والخطاب فيه للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمعنى: لتنذر بالقرآن عذاب الله ـ تعالى ـ وبأسه كل أهل مكة، ومن حولها[(٣)] .**

وخص الإنذار بالذكر؛ لأن المقصود ـ والله أعلم ـ تخويف المشركين وبث الرعب في نفوسهم[(٤)]، فهم الذين عدلوا بر م غيره، وهم الذين جحدوا رسله؛ إذ قالوا:

---

(١) التفسير الكبير (٦٤/٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٧٢/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٧/٥) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٢/٧) .

﴿مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، **ويدخل في هذا الإنذار غيرهم من أصناف الكفار[١].**

وللمفسرين في تسمية "مكة" بـ(أم القرى) توجيهات؛ منها:

١- لأن من تحتها دحيت الأرض؛ أي بسطت، فهي أصل الأرض كلها.

٢- لأن فيها أول بيت وضع للناس.

٣- لأن منها خرجت الدعوة عامة .

٤- لأ ا قبلة المصلين ومحجهم .

٥- لأ ا أعظم القرى شأناً .

٦- أ ا وسط الأرض وكالنقطة للقرى ... وغيرها[٢]. ومهما يكن فإن في اختيار هذه الكلمة، وجعلها علماً لمكة بما حوت من معان؛ إن فيه تشريفاً لها وأي تشريف .

وا از المرسل في إنذار أم القرى ومن حولها، وقرينته أن الأبنية لا تنذر[٣]، إنما أهلها وهم المراد هنا[٤]. فذُكر المحل، وأُريد الحال فيه على سبيل ا از المرسل؛ لما بينهما من صلة وعلاقة؛ وهي المحلية .

ولعل فائدة هذا ا از هي تأكيد عموم بعثته ـ عليه الصلاة والسلام **ـ ، حتى لكأن كل ما في أم القرى من شجر، وحجر، ودور داخل في هذا التبليغ والإنذار. وفي هذا التأكيد تأكيد لصدق دعوته ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ ، إذ إن صداها يجب أن يرتفع ويعلو، ويردده كل ما في القرى من حولها .**

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٢٦٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها، و: معالم التـ يل (٢/١١٥)، و: الكشاف (٢/٢٧)، و: المحرر الوجيز (٦/١٠٧)، و: في ظلال القرآن (٢/١١٤٨).

(٣) ينظر : البحر المحيط (٤/١٧٩) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٧/٢٦٧)، و: معالم التـ يل (٢/١١٥)، و: المحرر الوجيز (٦/١٠٧)... وغيرها .

ومن مزايا هذا المجاز والتي يجدها القارئ في كل مجاز الإيجاز ببلاغته؛ إذ فُهِم من جملة المجاز أن المراد: أهل أم القرى، وسائر أهل الأرض ممن حولها .

ومن الأسرار البلاغية في الآية :

قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ)، في قوله: (وَهَذَا كِتَابٌ)؛ أي هذا القرآن، والكتاب اسم من أسماء القرآن [(١)].

ومن لطائف الإشارة إلى القرآن بـ "هذا"؛ أن الإشارة إليه تجعله كالحاضر المشاهد؛ إذ لا يشار إلا إلى الحاضر الموجود، وهذا لزيادة تمييزه أكمل تمييز؛ تقوية لحضوره في الأذهان[(٢)]؛ ولعل هذا لتتهيأ النفوس لتلقي الخبر بعده.

وقد يكون اختيار الإشارة إلى القرآن بـ"هذا" الدالة على قرب المشار إليه؛ للدلالة على قربه الحقيقي وحضوره؛ فها هو يتلى على مسامعهم، ثم إنه ما زال يتردد في صدور الذين آمنوا؛ ولعل هذا لتبكيت المنكرين الجاحدين إرسال الله ـ تعالى ـ الرسل، وإنزاله الكتب .

وفي افتتاح الكلام باسم الإشارة المفيد تمييز الكتاب أكمل تمييز، وبناء فعل "أنزلناه" على خبر اسم الإشارة؛ وهو "كتاب" الذي هو عينه في المعنى؛ فيه تقوية للخبر وتأكيده[(٣)] .

ولعل دلالة الجملة الاسمية في هذا المقام لا تخفى؛ فجعل كلمة "كتاب" التي حقها أن تكون مفعولاً لـ"أنزلناه" مسنداً إليه، ونصب فعل "أنزلناه" لضميره؛ أفاد تأكيد إنزاله بالتعبير عنه مرتين؛ وذلك للتنويه بعظم شأن هذا الكتاب [(٤)].

والإتيان بنون العظمة في "أنزلناه"، ولم يكن التعبير ـ في غير القرآن ـ: أنزله الله، لزيادة تعظيمه [(٥)].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٦/٥) وما بعدها بتصرف .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٦٩/٧) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : نظم الدرر (١٨٧/٧) .

(مُبَارَكٌ) وصف مشتق من "البركة"[١]؛ وهي النماء، والزيادة، والسعة النافعة، ومن معاني مادة هذه الكلمة الثبات والاستقرار[٢]؛ ولعل في هذا إيحاء بثبات هذا الوصف "البركة" للقرآن الكريم إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ .

كما حصل ـ أيضاً ـ إثبات ثباته للقرآن؛ بالتعبير عنها بالاسم؛ إذ دل على أن البركة ثابتة له لا تفارقه [٣].

وفي كلمة (مُبَارَكٌ) إيجاز قصر؛ فهذه الكلمة حملت من المعاني ما يعجز الفكر عن حصرها؛ فالقرآن مبارك في أصله؛ باركه الله ـ تعالى ـ وهو ي له من عنده. وهو مبارك في محله الذي علم الله ـ تعالى ـ أنه أهل له؛ قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومبارك في حجمه ومحتواه؛ فهو صفحات قلائل مقارنة بضخام الكتب التي يكتبها البشر، لكنه يحوي من المدلولات، والإيحاءات، والمؤثرات، والتوجيهات في كل معنى منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ..!. وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر من غيره أن هذا النظم القرآني مبارك من هذه الناحية، وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز ـ ولا في أضعاف أضعافه ـ عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات، ومفهومات، وإيحاءات مؤثرات..!، وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني، وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد ا على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً منفرداً لا نظير له في كلام البشر. وإنه لمبارك في أثره..؛ وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ، وكل درب، وكل ركن؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل[٤].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٧/٥) بتصرف .

(٢) تفسير القرآن الحكيم (٦٢٠/٧) بتصرف .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٧٩/٤) .

(٤) في ظلال القرآن (١١٤٧/٢) بتصرف .

والقرآن مبارك لأنه يدل على الخير العظيم، فالبركة كائنة به، فكأن البركة جعلت في ألفاظه؛ ولأن الله ـ تعالى ـ قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به؛ بركة في الدنيا وفي الآخرة؛ وهو مبارك لأنه مشتمل على ما في العمل به كمال النفس وطهار ا بالمعارف النظرية ثم العملية. فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه[١].

وقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ بأن الباحث فيه، والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة، وهذا من بركته[٢]، قال الرازي في تفسيره متحدثاً عن نفسه: "وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم"[٣].

والمضي في ذكر بركة القرآن يطول بمثله المقام، ولو مضي فيه فإن الفهم لن يبلغ شيئاً أكثر من شهادة الله ـ تعالى ـ له بأنه (مُبَارَكٌ)، ففيها فصل الخطاب[٤]. فهذه الكلمة بإيجازها حملت معاني وافرة..، تعجز الأقلام عن تدوينها، والأفهام عن الإحاطة ا..، وهذا من بركة ألفاظ هذا القرآن .

ولربما ثار سؤال في ذهن القارئ؛ وهو: لم قدم وصف الكتاب بالإنزال على وصفه بالبركة، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: وهذا كتاب مبارك أنزلناه..؟!.

والجواب ـ والله أعلم ـ أنه لما كان الإنكار واقعاً على الإنزال؛ إذ قالوا ـ كما حكى الله عنهم ـ: (مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) [الأنعام:٩١]، وقيل: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ) [الأنعام:٩١]؛ كان تقديم وصفه بالإنزال آكد من وصفه بكونه مباركاً؛ ولأن ما أنزل الله ـ تعالى ـ فهو مبارك قطعاً، فصارت الصفة بكونه مباركاً، كأ ا صفة مؤكدة تضمنها ما قبلها .. وهذا من دقائق النظم القرآني[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٧٠/٧) بتصرف .

(٢) التفسير الكبير (٦٤/٥) بتصرف .

(٣) المرجع السابق (٦٥/٥) .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (١١٤٧/٢) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٧٩/٤) .

ثم **وصف القرآن أخرى بقوله تعالى: (مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ)؛ أي أنه صدق الكتب الإلهية التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على أنبيائه قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لم يخالفها دلالة ومعنى؛ فهو نور وهدى للناس[١].**

فبتلك الأوصاف؛ وهي إنزال الله ـ تعالى ـ إياه، وكونه مباركاً، ومصدق الذي بين يديه من كتب إلهية استحق أن يكون معجزة الإسلام الخالدة، وأن ينذر به (أم القرى ومن حولها) بيتاً بيتاً .

قوله: (وَالَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِالۡآخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِ) خص الإيمان بالآخرة بالذكر؛ وهو أحد أركان الإيمان الستة؛ ولعل هذا لأن الإيمان به يستلزم الإيمان بباقيها. ولإسماع كفار العرب وغيرهم ممن لا يؤمن باليوم الآخر، أنهم لو آمنوا باليوم الآخر، لآمنوا بهذا الكتاب[٢]. فالإيمان بالآخرة جار مجرى السبب للإيمان بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ لأن الذي يؤمن بالآخرة ـ والله أعلم ـ يؤمن بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ومن كان كذلك فإن خوفه ورجاءه لا يزالان به حتى ينقاد لمرضاة الله ـ تعالى ـ [٣].

وفي الآية إشارة إلى أن من لم يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب، فلا اعتداد بإيمانه بالآخرة..![٤].

والإخبار عن المؤمنين بأنهم يؤمنون بالقرآن فيه تعريض بأنهم غير مقصودين بالإنذار، فيعلم أنهم أحقاء بضده؛ وهو البشارة[٥].

وفي الإخبار عنهم بأنهم يؤمنون باليوم الآخر مدح لهم، ثم قُوي مدحهم بقوله: (وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ)[٦]، وخصت الصلاة بالذكر؛ لأنها ـ والله أعلم ـ عماد

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٧/٥) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٧٩/٤) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٦٦/٥) .

(٤) ينظر : تفسير القرآن (٤٤٩/١) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٧٢/٧) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (١٠٧/٦) .

الدين[١]؛ ولأ ا أشرف العبادات بعد الإيمان بالله ـ تعالى ـ ، كما أن لفظ الإيمان لم يقع على شيء من العبادات الظاهرة إلا عليها؛ قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) [البقرة:١٤٣]؛ أي صلاتكم. ولم يقع لفظ الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة؛ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"[٢]. يضاف إلى ذلك أ ا الحد الذي يفصل بين العبد والكفر، و ا يفرق المؤمن عن غيره .. كما يفهم من الحديث السابق.

ومن اللطائف في الجملة :

تقديم المعمول؛ وهو قوله تعالى:(عَلَى صَلاَتِهِمْ) على عامله؛ وهو قوله تعالى: (يُحَافِظُونَ) ؛ ولعل هذا للاهتمام به؛ لعظم قدر الصلاة وم لتها[٣].

وفي التعبير عن المسند بالجملة الفعلية دلالة على تجدد الفعل منهم .. وذلك ـ والله أعلم ـ لمدحهم بأبلغ عبارة .

ومن شواهد المجاز المرسل ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنعام:١١٥].

ذكر أبو حيان في مناسبة الآية للسياق ما نصه: "لما تقدم من أول السورة إلى هنا دلائل التوحيد، والنبوة، والبعث، والطعن على مخالفي ذلك، وكان من هنا إلى آخر السورة أحكام وقصص ناسب ذكر هذه الآيات هنا"[٤].

---

(١) الكشاف (٢٧/٢) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٦٦/٥)، والحديث صححه الألباني . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (٧٦٠) . رقم الحديث: (٤١٤٣) .

(٣) ينظر : مجمع البيان (٥١٧/٤) .

(٤) البحر المحيط (٢٠٩/٤) .

وصلتها بما قبلها؛ أنه ـ تعالى ـ بين في الآية السابقة أن القرآن معجزة بقوله: (أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)[الأنعام:١١٤]، فكان أن ذكر ـ سبحانه ـ في هذه الآية أن هذا الكتاب المعجز تام الدلالة، ناهض الحجة على كل فريق من آمن ومن كفر[١].

فالآية شروع في بيان كمال القرآن من حيث ذاته، إثر بيان كماله من حيث إضافته إليه ـ تعالى ـ بكونه م لاً منه بالحق، وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب به [٢].

والشاهد في قوله تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ)؛ ومعنى (تمت)؛ أي بلغت حداً لا يمكن الزيادة عليه، ولا النقصان منه[٣]. فهي كافية وافية بكو ا معجزة دالة على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ وفي بيان ما يحتاجه المكلفون إلى قيام الساعة[٤].

والكلمة تطلق على الجملة، والطائفة من القول في معنى واحد، أو غرض واحد طال أو قصر؛ فإذا ألقى شخص خطبة، قيل: "هذه كلمة فلان"، وكانت العرب تقول للقصيدة من الشعر: "هذه كلمة فلان"؛ لأن القصيدة تقال في غرض واحد وإن اشتملت على معان كثيرة، وتسمى جملة "لا إله إلا الله" كلمة التوحيد، ومن هنا قال كثير من المفسرين إن المراد بالكلمة في هذه الآية القرآن[٥] .

وأشار الألوسي إلى أن إطلاق "الكلمة" على القرآن جاء على سبيل ا از، والقرنية تأبى إطلاق الكلمة على الجملة غير المفيدة[٦]، والعلاقة الجزئية .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٢٤/٥)، و: التحرير والتنوير (١٨/٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٧٨/٣) بتصرف .

(٣) ينظر : مجمع البيان (٥٤٧/٤) .

(٤) التفسير الكبير (١٢٥/٥) بتصرف .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣١٨/٥)، و: البحر المحيط (٢٠٩/٤)، و: روح المعاني (٢٥٥/٤)، و: تفسير القرآن الحكيم (١١/٨) وما بعدها... وغيرها .

(٦) ينظر : روح المعاني (٢٥٥/٤) .

والمجاز يكون في بعض المقامات أبلغ من الحقيقة، ومزية المجاز هنا بلغت القمة في البلاغة والبراعة ..!. فقد أفاد ـ والله أعلم ـ تصوير القرآن كله على أنه كلمة واحدة في إعجاز نظمه، وفي كونه حقاً وصدقاً[1]، وبما أنه كذلك فهو بحق منزل من رب العالمين الذي لا يعجزه شيء ..!.

ولعل التعبير عنه بأنه كلمة مما يستدعيه المقام؛ فهو أبلغ في تحدي الكفار المنكرين له؛ فإطلاق "كلمة" عليه يدل على أنه محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا يعني عجزهم عن معارضته، وإن بلغوا في البلاغة شأواً بعيداً، وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً ..!.

"والمراد بالخبر هنا لازمه؛ وهو تأكيد ما تضمنته الآيات من تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كفر هؤلاء المعاندين، وإيذائهم له ولأصحابه"[2].

ثم وصفت الكلمة بكونها (صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ)، وفي تنكيرهما تفخيم لشأنهما وتعظيم. وأكد ذلك بالتعبير عنهما بالمصدر؛ فالقرآن للصدق والعدل مصدر؛ إذ هو الصدق بعينه، وهو العدل ـ أيضاً ـ .

والإتيان بهذين الوصفين له وجه بلغ غاية الحسن؛ وبيان ذلك أن كل ما في القرآن هو خبر وتكليف. فالخبر: هو ما أخبر الله ـ تعالى ـ عن وجوده أو عدمه، ويدخل فيه: وجود ذات الله ـ تعالى ـ، وصفاته، وصفات التنزيه، وأقسام أفعال الله ـ تعالى ـ ، وكيفية تدبيره ملكوت السموات والأرض، وأحوال المتقدمين، والغيوب المستقبلية.

أما التكليف: فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه ـ تعالى ـ على عباده..، وإذا عرف هذا بان وجه حسن وصف القرآن بهذين الوصفين؛ فـ"صدقاً" لكل ما فيه من أخبار، و"عدلاً" لكل ما فيه من تكاليف[3] .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٢٤/٥) .

(٢) تفسير المراغي (١٠/٨) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٢٥/٥) .

فتقرر في الآية أن ما أخبر الله ـ جل وعلا ـ به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل؛ وهذا يعني وجوب تصديق أخبار القرآن، دون الإعراض عنها، ودون معارضتها، ومن دفعها، أو عارضها بعقله فإنه لم يصدق بها، ولو صدقها تصديقاً مجملاً، ولم يصدقها تصديقاً مفصلاً لم يكن مؤمناً، ولو أقر بلفظ الأخبار مع جحد معناها، أو حرفه إلى معان أخر غير ما أريد به لم يكن مصدقاً، بل هو إلى التكذيب أقرب(١).

فالقرآن بلغ أقصى ما تبلغه الكتب في وضوح الدلالة، وبلاغة العبارة، وهو الصادق في أخباره، العادل في أحكامه، لا يعثر في أخباره ما يخالف الواقع ولا في أحكامه ما يخالف الحق، وهذا ضرب من التحدي والاحتجاج على أحقية القرآن(٢).

قوله: (لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ) وهذه الجملة كالتوكيد لما قبلها(٣). ونفي التبديل؛ لأنها مصونة عنه باقية إلى يوم القيامة(٤)، فلا يلحقها تغيير في المعنى، ولا في اللفظ، ولا في الحرف(٥).

ولعل في الكلام خروجاً على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال ـ في غير القرآن ـ: لا مبدل لها، لكنه عدل إلى الإظهار موضع الإضمار، وقد يكون هذا لتأكيد عدم تبديلها، وتأكيد حفظها؛ إذ أضيفت إلى الضمير العائد على كلمة (رَبِّ)من قوله:(رَبِّكَ)، فأضافت لها هذه الإضافة تعظيماً؛ فهي كلمات الله العظيم، وهو الذي تكفل بحفظها فقطعاً لا مبدل لها.

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)؛ وهي تذييل للسياق كله، لا لهذه الآية فقط؛ وهو سياق محاجة المشركين المعاندين المقترحين للآيات، وفيه ذكر اقتراحهم وأيمانهم الكاذبة، وذكر سائر أعداء الرسل أمثالهم من شياطين الأنس والجن، وخداعهم

---

(١) ينظر : بدائع التفسير (١٧٧/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/٨) بتصرف .

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٤١/٢) بتصرف .

(٤) تفسير الخازن (١٧٥/٢) بتصرف .

(٥) البحر المحيط (٢١٠/٤) بتصرف .

بزخرف القول، وصغي قلوب منكري البعث والجزاء إليه وضلالهم به، فهو ـ تعالى ـ يقول: إنه سميع لتلك الأقوال الخادعة منهم، عليم بما في قلوبهم من ذلك الصغي والميل.. وغيره من نياتهم[1] .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١٤/٨) بتصرف .ومن صور المجاز المرسل الوردة في هذا البحث؛ ما ورد في الصفحات التالية:(٢٢٩)،(٣١٩)،(٤٥٧)... وغيرها .

الاستعارة

هي القسم الثاني من أقسام المجاز اللغوي؛ وهي من محاسن الكلام، إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها، ولفضلها ومزاياها عدت أفضل أنواع المجاز[١].

وصفها عبدالقاهر الجرجاني، فقال: "هي أمد ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعةً وأبعد غَوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحراً، وأملأ بكل ما يملأ صدراً، ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويوفر أنساً."[٢].

والاستعارة في اللغة: يقال: استعار: طلب العارية. واستعار الشيء واستعار منه: طلب منه أن يعيره إياه. والعارية: ما تداولوه بينهم[٣].

وفي الاصطلاح: استعمال الكلمة في غير معناها الحقيقي، لعلاقة المشابهة، مع قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي[٤]. وقيل ـ أيضاً ـ في تعريفها: "الاستعارة تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه"[٥].

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها؛ أنها تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى إن المتلقي يخرج من الصدفة الواحدة عدةً من الدرر، ويجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.

وبها يرى الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية باديةً جلية [٦].

---

(١) ينظر : العمدة (٢٦٨/١)، و: الطراز (٨/٢) .

(٢) أسرار البلاغة : (٤٢) .

(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (عور) .

(٤) ينظر : الإيضاح : (٢٥٤)، و: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (١١٢/٢) .

(٥) البلاغة العربية في ثوبها الجديد (١١٢/٢) .

(٦) ينظر : أسرار البلاغة : (٤٣) .

ولئلا أطيل في العرض، أبدأ في سوق شواهد هذا النوع من ا از، وأولها قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[الأنعام:٦٠]

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[الأنعام:٥٩]؛ أنه ـ تعالى ـ لما بين كمال علمه في الآية الأولى، أتبعه ببيان كمال قدرته؛ تنبيهاً على خصائص الإلهية[(١)].

وعطفت جملة: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ) على جملة: (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا)؛ لما بينهما من تناسب؛ فكلاهما خبرية؛ فالأولى إخبار عن كمال علمه، والثانية إخبار عن كمال قدرته، وكل ذلك من دلائل الإلهية؛ تعليماً لأوليائه، ونعيا على المشركين أعدائه[(٢)].

ومن لطائف النظم؛ أنه جرى في القرآن ذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس بعد ذكر دلائلها في الآفاق، وهنا جمع ذلك على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته ـ تعالى ـ في ضمن دليل وحدانيته[(٣)].

والشاهد في قوله: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ). والتوفي يطلق في العرف على الموت، والتعبير به هنا على سبيل ا از لعلاقة المشا ة[(٤)]؛ وبيان ذلك أنه شبه في الآية النوم بالوفاة، ثم حذف المشبه، وأبقي المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (١٢/٥)، و: البحر المحيط (١٤٦/٤) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٥/٧) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : البحر المحيط (١٤٦/٤) .

وقيل: تصريحية؛ للتصريح بالمشبه به، وتبعية؛ لجريان الاستعارة في الفعل. والجامع بين النوم والموت: زوال الإحساس والتمييز[١].

فالاستعارة صورت لنا مظهراً من مظاهر كمال قدرة الله ـ جل وعلا ـ؛ حين يأخذ الناس النعاس؛ فهي الوفاة في صورة من صورها بما يعتري الحواس من سهوة، وما يعتري العقل من سكون، وما يعتري الوعي من سبات ـ أي انقطاع ـ، وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره؛ وهو "الغيب" في صورة من صوره الكثيرة المحيطة بالإنسان..، وهؤلاء هم البشر مجردين من كل حول وطول ـ حتى من الوعي ـ هاهم أولاء في سبات وانقطاع عن الحياة، هاهم في قبضة الله ـ كما هم دائماً في الحقيقة ـ لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا الله .. فما أضعف البشر أمام الله ـ تعالى ـ[٢].

ومن دقائق التعبير الجملة، والذي كان له أثر في إبراز كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ إضافة إلى الاستعارة؛ القصر بطريق تعريف الطرفين ـ أي طرفي الإسناد ـ، فيه قصرت صفة التوفي على الله ـ تعالى ـ؛ أي هو الذي يتوفى الأنفس دون الأصنام، إذ هي لا تملك موتاً ولا حياة[٣]. وهو قصر حقيقي.

ومنها إسناد فعل التوفي الذي أطلق مجازاً على النوم لله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ)، أما التوفي الحقيقي؛ وهو الموت فقد أسند في الآية التالية لهذه الآية ـ وفي غيرها ـ للرسل؛ وهم الملائكة .. قال تعالى : (حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) [الأنعام:٦١]؛ ويعلل لذلك أبو حيان بأن التوفي المجازي "النوم" لما كان سبباً للراحة أسند له ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولما كان التوفي الحقيقي "الموت" مؤلماً أسند لرسل الله ـ تعالى ـ والله أعلم بمراده[٤]. ولعل إسناد التوفي المجازي

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٦/٤)، و: أنوار التنزيل (٤١٦/٢) .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١١٢١/٢) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٥/٧) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (١٤٦/٤) .

"النوم" لله ـ جل وعلا ـ؛ للتنبيه على هذه النعمة العظيمة التي امتن بها ـ تعالى ـ على عباده، وهذا يستدعي منهم الشكر لا الشرك..!.

وقُيد التوفي بقوله تعالى: (بِاللَّيْلِ)، ولعل هذا من باب الحمل على الغالب(١). ولأن النوم في ذلك الوقت هو مما فطر الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه عليه(٢).

قوله تعالى: (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ)، الجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها، والاعتراض ضرب من ضروب الإطناب، وفائدة الاعتراض بها في هذا المقام؛ الدلالة على إحاطة علمه ـ تعالى ـ بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وحال حركتهم(٣). والامتنان على العباد بنعمة الإمهال؛ أي ولولا فضله لما بعثكم في النهار مع علمه بأنكم تكتسبون في النهار عبادة غيره، ويكتسب بعضكم بعض ما نهوا عنه(٤) .

و"الاجتراح" عند العرب عمل الرجل بجوارحه؛ بيده، أو رجله، أو فمه، ثم كثر ذلك في الكلام حتى قيل لكل مكتسب كسباً، بأي أعضاء جسمه "مجترح"(٥). وسميت الطير، والسباع، والكلاب ذوات الصيد بالجوارح؛ لأنها تجرح لأهلها؛ أي تكسب لهم، كما سميت كواسب للسبب نفسه(٦).

ولـ (جَرَحْتُم) عند المفسرين في هذه الآية توجيهان ، هما :

الأول : أن المراد اكتساب الإثم(٧)، وأيد الألوسي هذا المعنى؛ لأن السياق يقتضيه؛ إذ هو للتهديد والتوبيخ(٨).

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٦/٤) .

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٤٧٩/٧) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٣١/٢) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٦/٧) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٢/٥) .

(٦) ينظر : لسان العرب . مادة (جرح) .

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٢/٥)، و: الكشاف (١٩/٢) .

(٨) ينظر : روح المعاني (١٦٥/٤) .

وقد أثار عبد الكريم الخطيب في تفسيره سؤالاً، وأجاب عنه؛ مفاد السؤال: إذا كان علم الله ـ تعالى ـ عاماً شاملاً لكل ما يعمل الإنسان من خير وشر، فما وجه اقتصار الآية على ما اكتسب العبد من سيئات..؟!.

والجواب ـ والله أعلم ـ: أن سلامة العبد تحصل عند تجنبه المعاثر، ووقوفه على حدود الله ـ تعالى ـ، فإذا كف يده عن اجتراح المحارم، فقد فاز ونجا..؛ لأنه إذا خلّص نفسه من دواعي الإثم والشر، استقامت طريقة على الحق والهدى، وانطلق في حرية إلى حيث أمر الله ـ تعالى ـ من خير وإحسان(١). فكأن الاكتفاء بذكر ما اكتسب العبد من سيئات في الآية؛ كأن فيه تحذيراً و ديداً.

الثاني : أنه كسب عام في الإثم والخير(٢). وهذا المعنى واضح الدلالة على شمول علمه ـ سبحانه وتعالى ـ .

ومما في الجملة من لطائف :

التعبير عن الجرح بالفعل الماضي، وقد قيل: "إن الماضي هنا بمعنى المستقبل؛ أي ويعلم ما تجرحون في النهار الذي يلي الليل، عبر به لتحقق وقوعه. وقيل: بل هو على أصله، ويراد به النهار السابق على الليل الذي يتوفاكم فيه"(٣).

وقُيدت الجملة بقوله: (بِالنَّهَارِ)، فاقتصر على الإخبار بعلمه ـ تعالى ـ عما يكسب الناس في النهار دون الليل؛ ولعل هذا مراعاة للغالب؛ إذ النهار هو وقت أكثر العمل والاكتساب، ففي الإخبار بأنه ـ تعالى ـ يعلم ما يقع فيه تحذير من اكتساب ما لا يرضى الله ـ جل وعلا ـ باكتسابه بالنسبة للمؤمنين، و ديد للمشركين(٤). فهذا التقييد لا يعني أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يعلم ما يكسبه العباد في الليل، بل بما أنه ـ تعالى ـ يعلم ما يكسبونه في النهار على كثر م، وكثرة أعمالهم .. مع ما في ذلك الوقت من

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٠٣/٢) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٤٧/٤)، و: تفسير القرآن الحكيم (٤٨٠/٧) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٤٨٠/٧) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٦/٧) .

إزعاج، وضوضاء، وحركة دائبة، فعلمه ـ سبحانه وتعالى ـ بما يكسبونه بالليل الذي يخيم عليه السكون من باب أولى.

وفي نظم الآية تقديم وتأخير؛ والتقدير: "وهو الذي يتوفاكم بالليل، ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه"، فقدم الكسب على البعث؛ ولعل السر في هذا لأنه الأهم الذي من أجله وقع البعث في النهار[١].

قوله: (ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ)، الجملة معطوفة على قوله: (يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيۡلِ)، وعلى هذا تكون (ثُمَّ) للمهلة الحقيقية، وهو الأظهر. وربما صح عطفها على قوله: (وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم)؛ فتكون للترتيب الرتبي؛ أي وهو يعلم ما تكسبون من المناهي، ثم يردكم ويهلكم. وهذا بالمشركين أنسب[٢].

و"البعث" في كلام العرب: إثارة بارك أو قاعد، يقال: بعثت البعير، فانبعث؛ أي أثرته فثار[٣]. وعليه يكون إطلاق البعث على الإيقاظ من النوم حقيقة لغوية[٤]. لكن قد يكون "البعث" هنا مستعاراً للإيقاظ أو للإفاقة من النوم؛لأن المتبادر إلى الذهن في معنى البعث؛ معناها الذي في عرف الشرع؛ وهو إحياء الموتى في الآخرة[٥]. وقد ورد استخدام هذا المعنى في اصطلاح القرآن الكريم[٦]؛ ومنه قوله تعالى: (وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِن بَعۡدِ الۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواۡ إِنۡ هَذَا إِلاَّ سِحۡرٌ مُّبِينٌ)[هود:٧]، وقوله: (وَقَالُواۡ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا)[الإسراء:٤٩]، وقوله: (وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ)[الواقعة: ٤٧].

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٥/٧) وما بعدها .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٦/٧) .
(٣) ينظر : لسان العرب . مادة (بعث) .
(٤) تفسير القرآن الحكيم (٤٨٠/٧) بتصرف .
(٥) ينظر : روح المعاني (١٦٥/٤) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٧/٧) .

وتجرى الاستعارة على النحو التالي: شبهت الإفاقة من النوم بالإحياء بعد الموت، بجامع إزالة عدم الإحساس في كل منهما. ثم حذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. "والبعث في الموتى أقوى؛ لأن عدم الإحساس فيه كذلك، فإزالته أشد."[١].

ومما حسن هذه الاستعارة كو ا مبنية على استعارة التوفي للنوم، فكل من الاستعارتين مرشح للأخرى[٢]. والترشيح أن يذكر في الجملة ما يلائم المستعار منه ـ أي المشبه به ـ، وفي هذا تحقيق للمبالغة[٣]. فالبعث من ملائمات التوفي؛ لأنه مما يختص به.

وإن لم تجر الاستعارة في كلمة (يَبۡعَثُكُمۡ)، وأوثر إبقاؤها على حقيقتها، فإن الترشيح مع ذلك يبقى في الآية، ويكون البعث تابعاً للاستعارة الواقعة في قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّٮٰكُم بِٱلَّيۡلِ)، والغرض منه ـ والله أعلم ـ تقويتها[٤].

وكان لهذه الاستعارة فائدة جليلة؛ إذ سخرت لإثبات جانب من جوانب العقيدة؛ وهو البعث بعد الموت، بذكر شيء محسوس قاهر للأنام يعاينونه ـ دائماً ـ؛ وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار، وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة، بل هو أمر يوقعه الله ـ تعالى ـ بالإنسان[٥]. وهذا لنقل صورة تقريبية لكيفية البعث التي حارت فيها عقول الكفار، فلجأت إلى إنكاره[٦] .

وقد أثارت تلك الصورة في الأذهان سؤالاً تبكيتياً؛ وهو أن الذي يقبض الأرواح بالليل، ثم يردها ويبعثها بالنهار .. وهكذا حتى تستوفي الأجل الذي سماه لحيا ا .. ألا يقدر على بعث الناس بعد الموت..؟!. فما البعث بعد الموت إلا نظير ما يشاهدون..،

---

(١) روح المعاني (١٦٥/٤)

(٢) التحرير والتنوير (٢٧٧/٧) بتصرف .

(٣) ينظر : الإيضاح : (٢٧٠) .

(٤) ينظر : روح المعاني (١٦٥/٤) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٤٦/٤) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٧/٧) .

فكيف ينكر على من قدر على ما يرون القدرة على ما لم يروه .. وهو شبيه ما رأوا..؟!، ففي الآية احتجاج على المشركين المنكرين لهذه القضية[١].

لذا قال ـ سبحانه وتعالى **ـ بعد ذلك :**

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ تأكيد للبعث بأسلوب آخر؛ وهو القصر بطريق تقديم ما حقه التأخير. قصر الرجوع على الله ـ تعالى **ـ؛ أي رجوعكم بالموت إلى الله ـ** تعالى **ـ لا إلى غيره[٢].**

ومن سمات هذا الأسلوب تأكيد الخبر الذي تضمنته جملة القصر مع الإيجاز؛ إذ أفادت جملة القصر هنا مفاد جملتين. ومن السمات التشويق إلى المؤخر؛ وهو ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ حتى إذا ذكر كان لوقعه في النفس قوة وهزة..!.

ومن دقائق التعبير في قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ التعبير بأداة الترتيب مع التراخي ﴿ثُمَّ﴾، ففهم منها أن بين البعث والحساب مهلة؛ أي بعد مواقف الحشر الطوال، والزلازل والأهوال[٣].

فأثبت في الآية صحة البعث وحقيته، ثم أثبت شيء مما في ذلك اليوم؛ ومنه الحساب؛ إذ معنى الآية: أنه ـ سبحانه تعالى **ـ يعلمكم إعلام توقيف ومحاسبة [٤].**

وأطلق الفعل "تعملون" من قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ ولعل ذلك لإفادة العموم؛ أي أعمال البشر جميعاً خيرها وشرها سيحاسبهم عليها[٥].

فهذه الآية ذات الكلمات المعدودة، اشتملت على صور، ومشاهد، وحقائق، وإيحاءات ..، فمن ذا الذي يملك أن يأتي بذلك؟، وكيف تكون الآيات الخوارق، إن لم

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٢/٥) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٤/٣) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١٣٨/٧)، و: التحرير والتنوير (٢٧٧/٧) .

(٤) الجواهر الحسان (٤٨٤/١) بتصرف .

(٥) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤١١/٢) .

تكن هي هذه التي يغفل عنها المكذبون، ويطلبون الخوارق المادية، وما يتبعها من العذاب الأليم..؟![١] **.**

وذلك كله سيق لتقرير إلهيته ـ سبحانه وتعالى **ـ، والاحتجاج على المشركين، وبيان أنه ـ** تعالى **ـ هو المستحق للحب والتعظيم والإجلال والإكرام** [٢] **.**

وكما تكون الاستعارة في "الفعل"، فإنها تكون ـ أيضاً ـ في "الحرف"[٣]**؛ والشأن مع الاستعارة في الحرف عجيب، فهي تلفت الانتباه إلى خاصة اختصت بها الاستعارة في النظم القرآني؛ وهي توظيف الحروف "التي لا يفهم معناها إلا إذ اقترنت بغيرها"**[٤]**؛ لتصوير المعاني.**

ومن شواهد ذلك في آيات العقيدة في سورة الأنعام، قوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[الأنعام: ١٠٥].

ووجه اتصال الآية بما قبلها؛ أنه لما عمم الكلام في إثبات إلهيته ـ سبحانه وتعالى **ـ إلى هذا الموضع، شرع هنا في إثبات النبوات، وسيقت ـ أولاً ـ شبهات منكري نبوة محمد ـ** صلى الله عليه وسلم **ـ** [٥] **.**

والشاهد في قوله: (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ)، والكاف في (وَكَذَلِكَ) بمعنى مثل[٦]**؛ ولعل فائدة إيرادها هنا توجيه النظر إلى ما سبقها؛ للإشارة إلى أن ما ذكر قبلها قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً حتى صار أنموذجاً كاملاً، يشار إليه ويتخذ مثالاً**[٧] **.**

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١١٢٢/٢) .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤١١/٢) .

(٣) ينظر : الإيضاح : (٢٦٨) .

(٤) البلاغة فنونها وأفنانها "علم البيان والبديع": (١٩١) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (١٠٥/٥) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (١٢٤/٦) .

(٧) ينظر : من بلاغة القرآن : (٢١٥) .

والإشارة بـ"ذلك" عائدة إلى السورة كلها؛ وفي هذا دلالة على عظم ما جاء فيها، والمعنى: ومثل ما صرفت لكم ـ أيها الناس ـ في هذه السورة الآيات والحجج الدالة على توحيدي، وتصديق رسولي، وكتابي، واليوم الآخر؛ بمثل ذلك أبين آياتي وحججي في كل ما جهلتموه من أمري و بي[١].

ومن الدقة في اصطفاء الكلمة القرآنية، ما يظهر هنا من دقة في اختيار بنائها؛ فبناء كلمة (نُصَرِّفُ) على "نفَعل" ساهم في أداء المعنى المراد؛ إذ إن تضعيف العين أفاد تكرار الفعل، يضاف إلى ذلك مجيء "الراء" "عيناً" للكلمة؛ فقد أثرى المعنى بما اختص به من صفة؛ وهي التكرار. وكان لهذا ايحاءاته؛ إذ أوحى بأن نزول القرآن كان متواتراً حالاً بعد حال[٢]، وفق الأحداث والقضايا القائمة عند نزوله. وهذا يعني تنويع الآيات الدالة على المعاني الكاشفة عن الحقائق، بتصريف بلغ قمة البراعة؛ كأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات كونية في آفاق السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الغابرة التي أنشأها الله ـ تعالى ـ ثم أهلكها. والآيات وإن تنوعت ووقع التغاير بين أساليبها، وطرق عرضها، وتركيب دلائلها من جهتي الترغيب والترهيب، ومن جهتي التنبيه والتذكير .. وغيرها. إلا أن كلها يجمعها رباط قوي متين؛ وهو وحدة الغاية والمقصد منها؛ وهو إثبات وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وبيان طريقه المستقيم [٣].

وفي هذا التنويع ـ أيضاً ـ دلالة على خاصية من خصائص القرآن؛ وهي مخاطبة العقول على اختلاف مداركها، وعلى تفاو ا في الفهم، ومخاطبة النفوس الإنسانية بما يناسبها؛ فأقوام تستقيم حيا م بالترهيب، وآخرون بالترغيب، وغيرهم غافل يكفيه التنبيه...وهكذا.

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٠/٥) .
(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٠٦/٥) .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٥/٧) وما بعدها .

: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ومعنى الآية: نعرض آياتنا في القرآن منوعة مفصلة تفصيلاً من شأنه أن يصدر من العالم الذي درس العلم، فيتهمونك ـ يا محمد ـ بأنك تعلمت من الناس، لا من الله ـ تعالى ـ، ولنبين ما أنزل إليك من الحقائق لقوم يدركون الحق ويذعنون له[(١)] .

وقد أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ عن قيلهم ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣][(٢)].

وفي بيان الشاهد قال الزمخشري: "(فإن قلت): أي فرق بين اللامين في "ليقولوا" و"لنبينه"، (قلت): الفرق بينهما: أن الأولى مجاز، والثانية حقيقة؛ وذلك أن الآيات صرفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبه به فسيق مساقه، وقيل: ليقولوا كما قيل"[(٣)]. فقولهم ترتب على تصريف الآيات، فصارت اللام بهذا مستعملة في غير ما وضعت له؛ لعلاقة المشابهة.

وتجرى الاستعارة على النحو التالي: شبه قولهم المترتب على التصريف، بالعلة الحقيقية منه وهي التذكر والاهتداء، بجامع مطلق ترتب شيء على شيء، ثم استعيرت اللام من معناها الحقيقي؛ وهو ترتب العلة الحقيقية على التصريف، لترتب غير العلة الحقيقية عليه، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية؛ والقرنية: دخول اللام على قولهم[(٤)].

وأجراها ابن عاشور على نحو أكثر اختصاراً؛ فقال: "شبه ترتب قولهم على التصريف بترتيب العلة الغائية، واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة على وجه الاستعارة التبعية"[(٥)].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٥٠/٢)، و: التحرير والتنوير (٤٢٢/٧) .
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٠/٥) .
(٣) الكشاف (٣٣/٢) .
(٤) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن : (١٧٥) .
(٥) التحرير والتنوير (٤٢٢/٧) .

فذلك التصريف صار سبباً لشقاو م، وهذا دليل على أن الله ـ تعالى ـ جعل تصريف الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاو م، وسعادة آخرين وهدايتهم [(١)].

ومن بلاغة هذه الاستعارة تصوير موقف المشركين الضالين بصورة فيها تشنيع عليهم وتسفيه لعقولهم؛ إذ لو عقلوا لكان أقرب إلى العقول أن يضيفوا هذا العلم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويحرصوا على الاهتداء به، وأن يروا في أمية النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي العلم الغزير الذي حمله إليهم؛ شاهداً على أن هذا القرآن هو من عند الله ـ تعالى ـ ، لا من تلقيات محمد عن غيره..، وقد كان فيهم كثيرون اتصلوا بأهل الكتاب، ولم يكن لهم شيء من هذا العلم الذي جاءهم به هذا النبي الأمي الذي لم ينقطع للعلم، ولم يجلس إلى أهل العلم[(٢)].

وما تزال كتب أهل الكتاب التي كانت بين أيديهم يومذاك؛ ما تزال موجودة في عصرنا. والبون جد شاسع بينها وبين هذا القرآن الكريم..، إن كتبهم ما هي إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين ـ هذا فيما يختص بالعهد القديم ـ، فأما العهد الجديد ـ وهو الأناجيل ـ فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ بعد عشرات السنين، وتداولتها ا امع بالتحريف والتبديل والتعديل على مر السنين.. وهذا هو الذي كان بين أيدي أهل الكتاب حينذاك، وما يزال.. فأين هذا كله من القرآن الكريم..؟![(٣)].

وكان لاختيار كلمة (درست) ونظمها في جملة الاستعارة دور في تصوير ما ظل المشركون حريصين على إخفائه وتغييبه في أعماقهم التي تطفح بالكبر، والحقد، والحسد، والعناد..؛ فقد جاء في "تفسير القرآن الحكيم": أن المعنى العام للدرس هو "تكرار المعالجة، وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به، أو يصل إلى الغاية منه"[(٤)]. وفي "لسان

---

(١) تفسير الخازن (١٦٩/٢) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٥٥/٢) وما بعدها .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١١٦٨/٢) .

(٤) تفسير القرآن الحكيم (٦٥٨/٧) .

العرب": درست الكتاب؛ بمعنى: ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه علي[١]. فالمشركون يقولون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك كررت دراسة القرآن قراءة وحفظاً، ثم جئت تتلوه على أسماعنا..!. فأوحت كلمة (درست) بأن ما يتلى عليهم منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ من قوة العبارة، ونصاعة الأسلوب، وإحكام النظم ما يجعله كالشيء الذي تكررت دراسته على يد عالم فذ، وتتابعت حتى تسنى لصاحبها حفظه على أتم وجه.

ولعل هذا شهادة منهم برفعة بيان القرآن..، لكن عقولهم لم ترتفع م للإيمان بأنه م ل من الله ـ تعالى ـ ، بل انحطت بأصحا ا إلى درك الشقاء حين أعمى الحقد، والحسد، والكبر، والعناد بصائرهم..!.

وقرئت (درست) على ثلاث قراءات، نطقت كلها ببلاغة النظم القرآني، وهي على النحو التالي[٢] :

١- قرأها الجمهور (درست)؛ وحجتهم أ م أضافوا الفعل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمعنى على قولهم هذا : درس محمد الكتب؛ كتب الأولين، فأتى ذا القرآن منها.

٢- قرأ أبو عمرو ابن كثير (دارست) ـ بألف ـ، مما يدل على المشاركة؛ وحجتهما أ ما حملاها على معنى: "يقولون دارست أهل الكتاب ودارسوك"؛ أي ذاكر م وذاكروك، ودل على هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ عنهم: (وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا)[الفرقان:٤]؛ يعنون اليهود..!.

٣- قرأ ابن عامر (درست) ـ بإسكان من غير ألف ـ؛ وحجته أنه أسند الفعل إلى الآيات، فأخبر عنهم أ م يقولون: "عفَت، وامحت، وتقادمت"، ودل على ذلك

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (درس) .

(٢) ينظر في هذه القراءات : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٤٣/١) وما بعدها، و: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٠/٥) وما بعدها .

قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل:٢٤]؛ أي: هو شيء قديم، قد عفا وامحى رسمه لقدمه.

وعلى هذه القراءة ثمة مجاز عقلي؛ إذ أسند الفعل لغير فاعله الحقيقي. ومن مزايا هذا الأسلوب المبالغة في التأكيد؛ فهم هنا يؤكدون اندراس ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبالغوا في هذا التأكيد بادعاء أن الآيات هي التي محت نفسها بنفسها.. وهذا آكد في زوال أثرها. فكأنهم يريدون أن يقولوا: كيف نؤمر بإتباع ما لا وجود له..؟! فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نظرهم كاذب فيما يدعو إليه؛ لأنه يحيى أشياء قديمة محيت واندثرت..، وعلى هذا فإنه لا يستحق أن يصدق ويتبع..!.

وممن أشار إلى بلاغة تلك القراءات "محمد رشيد" في تفسيره؛ فقال ـ ما معناه ـ : إن هذه القراءات الثلاث نقلت حكاية أقوال ثلاث فئات من المشركين؛ وهذا ضرب من الإيجاز في الرسم والكلم الذي برزت بلاغته في النظم القرآني(١).

ومن اللطائف في قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ تنكير "قوم" أفاد ـ والله أعلم ـ التفخيم؛ "قال ابن عباس: هم أولياؤه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد"(٢)، فإذا كانوا كذلك، فكيف لا يكون لهم شأن بلغ درجة عليا من الفخامة..؟!.

ولعل تقييدهم بصفة العلم؛ للدلالة على أنهم المنتفعون بما جاء في القرآن(٣). فهم يعلمون الحق إذا تبين لهم، فيتبعونه ويقبلونه(٤).

وفي هذا التقييد ـ أيضاً ـ تعريض بغاية جهل الفئة الأولى، وخلوها من العلم بالمرة(٥).

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٥٩/٧) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٧١/٣) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (٣٠٣/٥) بتصرف .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٧١/٣) .

ومن الآيات التي سخرت فيها الاستعارة لتصوير المعاني العقدية؛ قوله تعالى:

(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام :١٢٢] .

في مناسبة الآية لما قبلها قال الرازي: "اعلم أنه لما ذكر تعالى في الآية الأولى[١] أن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله ذكر مثلا يدل على حال المؤمن المهتدي، وعلى حال الكافر الضال"[٢].

والآية تصوير للإيمان إذا هد عروش الكفر في القلب، وبنى مكا ا قلعة الإيمان الحصينة..! فقوبل فيها بين موت وحياة، نور وظلمات..!.

فـ"العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات. حياة يعيد فيها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة. ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوره الإيمان.

هذه التجربة...يعرفها فقط من ذاقها..، والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل هذه التجربة؛ لأ ا تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها."[٣].

قال تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)؛ صدرت الآية مزة الاستفهام الذي خرج عن معناه الأصلي إلى آخر فُهم من السياق؛ وهو الإنكار[٤]؛ أي: إنكار تماثل الحالتين الوارد ذكرهما في الآية[٥]. ومن نكت هذا الأسلوب استثارة ذهن السامع ـ إن كان ممن يفكر ـ؛ ليقف بنفسه على الجواب الذي سخر الاستفهام لأدائه. وهذا يجعل

---

(١) وهي قوله تعالى : (وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) [الأنعام:١٢١].

(٢) التفسير الكبير (١٣٢/٥) .

(٣) في ظلال القرآن (١٢٠٠/٣).

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨٠/٣) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٤٣/٨) .

للإجابة خصوصية لديه؛ إذ هو الذي وصل إليها بفطرته وبفكره السليم، لم يكره عليها؛ لم تفرض عليه قسراً..!. ثم هو إما مكابر ممن تأخذه العزة بالإثم، فيعرض عن الحق الذي فيها، ويرفضه. أو مذعن للحق ممن يقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير..!.

وفي الآية شبه من هداه الله ـ عزَّوجلَّ ـ للإيمان بعد أن كان كافراً ضالاً بمن كان ميتاً فأحياه الله ـ تعالى ـ ، بجامع الاهتداء والانتفاع بالفطرة بعد انتفاء الانتفاع وانتفاء الاهتداء إلى شيء، على سبيل الاستعارة التمثيلية[١]. ويصح إجراء الاستعارة على الإفراد.

فالمراد بالميت في الآية الضال ـ أو الكافر ـ فقد شبه به، واستعير له. كما أن المراد بـ"أحييناه" هديناه، شبهت الهداية بالحياة، ثم استعيرت لها، ففي الآية ذكر لحالين أو مرحلتين من مراحل حياة الإنسان؛ الأولى كان فيها ميتاً، وهو في الثانية حي، والواقع أن هذا الإنسان؛ كان حياً في الحالين حياة بمعناها المتعارف، ولكنه لما كان منطفئ الفطرة، معطل الإدراك، جعل ميتا، وكأن الحياة الحقيقية إنما هي في استقامة الفطرة وسلامة النظر الراشد إلى معرفة الحق والخير. فالموت هنا له مفهوم جديد ربما كان انغماس النفس في ظلمة الشهوات والشبهات، وبقاء الروح مكفوفة الإدراك، تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد السعادة الأبدية، والحياة في هذه المرحلة حياة وموت معاً؛ لأن صاحبها يحيا ويتقلب كما يتقلب كل حي، إلا أن ثمة معنى قلبياً ينقصه، فسلب معنى الحياة من هذه الحياة؛ فمفهوم الموت الذي استجد بالاستعارة هو إبطال الطاقات الروحية، أو الحياة الروحية. والضلال ـ أيضاً ـ له مفهوم جديد ذه الاستعارة؛ فهو لم يعد ضلالاً، وإنما صار موتاً..![٢]؛ ولعل السبب في هذا بين؛ فالضلال انقطاع عن الحياة الحقيقية فهو موت..، وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله.. فهو موت..، وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهو موت..![٣].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٣١/٥)، و: الكشاف (٣٧/٢)، و: التفسير الكـبير (١٣٣/٥)، و: حاشية زاده (٢٠٥/٢) .

(٢) ينظر : التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان : (٢١٠) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠٠/٣) .

وكذا الاستعارة في "أحييناه"؛ فالحياة فيها ليست هي الحياة المألوفة؛ وإنما هي الهداية التي صارت حياة، أو ضرباً من الحياة غير مألوف؛ لأ ا تعني خلوص النفس مما يثقل وضها السامي الذي تف به فطر ا الطاهرة المتوثبة ـ دائماً ـ إلى الحق والمثل الأعلى[١]. والهداية اتصال واستجابة؛ لذا هي حياة[٢].

وهنا تظهر خاصية من خصائص الاستعارة عامة والقرآنية خاصة؛ وهي تجديد معاني الكلمات وإثراؤها، وإفراغ فكر جديد فيها، وحس جديد. فصار القارئ يرى حياة، لكنها ليست حياة بالمعنى المتداول، ويرى هداية، لكنها ليست هداية بالمعنى المتداول ـ أيضاً ـ، وكأنه أمام حقيقة ثالثة ليست المستعار منه، ولا المستعار له؛ وهي خاصية جليلة إذ الكلمة لا تقف عند حدود وضعية جامدة، إنما تتحرك في مجالات المعاني وسياقا ا المختلفة، وهذا الاختلاف يستخرج منها الكثير من إشارا ا ومعانيها[٣].

فالاستعارة هنا سخرت لمنح "الموت" و "الحياة" معنى جديداً له خصوصية عقدية ـ وهي أعز شيء عند الإنسان ـ ؛ ولعل هذا للتنبيه على أن الحياة الحقيقية هي في الهداية والإيمان، وأن الموت الحقيقي؛ هو موت القلب بالكفر والضلال وإن كان صاحبه يحيا حياة جسدية. والغرض من الاستعارة ـ والله أعلم ـ التنفير من الكفر والضلال، والترغيب في الهداية والإيمان .

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾؛ الآية معطوفة على قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾؛ فتعين ذا أن يكون النور المذكور هنا مغايراً لتلك الحياة[٤]. وعليه فإن المراد بالنور هنا؛ هو القرآن الكريم؛ لأنه بينة من الله ـ تعالى ـ مع المؤمن به يعمل، وبه يهتدي إلى أي الطرق يسلك وكيف يتصرف، وبه يميز بين الحق والباطل وبين أهلهما[٥]. وقد يكون النور للإسلام، وقال ابن كثير: "والكل صحيح"[٦].

---

(١) ينظر : التصوير البياني : (٢١٠) .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠٠/٣) .

(٣) ينظر : التصوير البياني : (٢١٠-٢١١) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٣٣/٥) .

(٥) ينظر : معالم التنزيل (١٢٨/٢)، و: التفسير الكبير (١٣٣/٥) و: تفسير القرآن العظيم (١٦٤/٢) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (١٦٤/٢) .

ففي الآية استعارة تصريحية؛ فيها شبهة القرآن بالنور، ثم حذف المشبه، واستعير له لفظ المشبه به، بجامع الاهتداء، والاستبصار، والانتفاع بكل منهما، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية؛ وقيل أصلية لأن الاستعارة أتت في اسم جنس[١].

ومن دقائق التعبير في هذه الاستعارة والتي أضفت عليها حسناً وجمالاً؛ التقديم والتأخير؛ إذ أصل الكلام في غير القرآن: وجعلنا نوراً له؛ بتأخير الجار والمجرور، إلا أنه قُدم في النظم القرآني لنكتة بلاغية؛ لعلها الاعتناء بشأن المقدم؛ فكأن له شأناً كبيراً عند الله ـ تعالى ـ إذ فضله على كثير من عباده؛ فمن ـ سبحانه وتعالى ـ عليه ابتداءً بنعمة الهداية والإيمان بعد أن كان غارقاً في وحل الكفر والضلال..!، ثم زاده على ذلك نعمة أخرى؛ هي من أجل النعم وأشرفها؛ وهي الكلمة التي أخرت (نُورًا)؛ ولعل تأخيرها لتشويق السامع ولإذكاء روح التطلع والتلهف في نفسه؛ لمعرفة ذاك الذي أخر..حتى إذا ذكر تمكن في النفس غاية التمكن.

ومنها تنكير كلمة (نُورًا)؛ وقد أوحى هذا التنكير بعظم شأنه[٢]، فأي نور أعظم من نور القرآن..؟!.

وكان للإتيان بلفظ المصدر دون غيره نكتة؛ لعلها تأكيد المعنى؛ فالقرآن الكريم هو مصدر النور، ومن أراد أن يهتدي فعليه أن يقبس منه، ويستضيء به في دروب حياته..!.

وكان لتشبيه القرآن بالنور، وإيراده في هذا المقام تناسب بليغ؛ إذ إن أصل كل خير وسعادة للحي الناطق: كمال حياته ونوره؛ وهنا جمع بين هذين الأصلين "الحياة"، و"النور"؛ فبالحياة تكون قوة العبد، وسمعه، وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته؛ قويت فيه هذه الصفات، والقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح؛ نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها؛ بخلاف القلب الميت؛ فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما

---

(١) ينظر : الإيضاح : (٢٦٨) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/١٨٠) .

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر".

وكذلك إذا قوي نوره، وإشراقه؛ انكشفت له الحقائق على ما هي عليه فاستبان حسن الحسن بنوره، وكذا قبح القبيح(١).

وينير هذا النور قلبه، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه..!، ويجد الراحة في فكره وحاله ومآله..!، ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها..!، ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين..!(٢).

وأتبعت الاستعارة بصفة لهذا الذي جعل له نور؛ وهي أنه: (يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)؛ فهذا النور يشع؛ فيجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله ـ جل وعلا ـ النافذة، أو من أعمال الناس..(٣) .

ولهذه الجملة إيحاءات منها أن المهتدي المستنير بنور القرآن يمشي بين الناس بثقة، واطمئنان، وأمان..(٤) لا يخشى منهم ضرراً؛ لقوة يقينه وإيمانه بالله ـ تعالى ـ . كما توحي بتميزه واعتزازه بدينه وبما معه من قرآن؛ عزة لا يجدها الإنسان إلا في هذا الدين ومتى ابتغاها في غيره أذله الله ـ تعالى ـ . وتوحي ـ أيضاً ـ بأن هناك من الناس من ركن إلى الضلال وظلمته، فصار خابطاً في هذه الحياة، ونور المهتدي يعشي عينيه..، فعلى المهتدي أن يحذر من هذا الصنف وينأى عنه، أو يسعى في هدايته ـ إن استطاع ـ .

وتلك الحالة ـ وهي حالة من الله ـ تعالى ـ بعد أن كان ضالاً، وجعل له نوراً يمشي به بين الناس ـ، أردفت بحالة أخرى؛ هي التي استثير ذهن السامع لعقد مقارنة بينهما؛ فقال تعالى: (كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا). ومعنى (كَمَن

---

(١) الضوء المنير على التفسير (٣/٨٥-٨٦) بتصرف .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (٣/١٢٠١) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/١٨٠) .

مَّثَلُهُ)؛ أي كمن صفته[١] وفي الإتيان بلفظ المثل دلالة بينة على أن هذا الضال بلغ في الكفر والحيرة غاية يضرب ا المثل[٢].

وفي الآية استعارة تصريحية؛ فقد شبه الكفر بالظلمات، ثم حذف المشبه، واستعير له لفظ المشبه به، بجامع عدم الاهتداء والتخبط، والضلال في كل منهما.

وهذه صورة الكافر في الحياة.. بلا بصيرة، خابط في سدف الظلمات..، تسكنه الحيرة، والضيق، والقلق..، لا يدري أين يضع قدمه..، ولا إلى أين يمضي.. وهكذا هو في متاهات الظلَم ليس بخارج منها..!.

ومن اللطائف البلاغية في الجملة، والتي أكسبت الاستعارة وضوحاً وجمالاً؛ الاستعارة بالحرف؛ إذ إن الحرف "في" موضوع لتلبس الظرف بالمظروف؛ مثل: الكتاب في الحقيبة، فإذا كان ما بعد "في" يصلح لأن يكون ظرفاً حقيقياً لما قبلها كانت "في" مستعملة فيما وضعت له، أما إذا كان ما بعدها لا يصلح لذلك، فعندها تكون مستعملة في غير ما وضعت له[٣]. و(فِى) هنا لا يصلح ما بعدها لأن يكون ظرفاً، إلا أن الظلمات لما تمكنت من الكافرين تمكن الظرف من المظروف استعملت فيه على سبيل الاستعارة.

وتجرى الاستعارة على النحو التالي: شبهت الظلمات بالدار التي تشتمل على صاحبها، ثم استعمل في الظلمات لفظ (فِى) كما يستعمل في الدار ونحوها..، على سبيل الاستعارة التبعية[٤].

وكان للتعبير بصيغة الجمع في (الظُّلُمَاتِ) مزية بليغة؛ فقد أفاد أن الظلمات التي فيها الكفار كثيرة؛ فهناك ظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة الضلال بشتى صوره وطرقه..![٥]. و ذا يكون الجمع في كلمة (الظُّلُمَاتِ) له دور بارز في مؤازرة الاستعارة بالحرف في إثبات تمكن الظلمات منهم؛ فكأن كل ظلمة منها تسلم صاحبها للظلمة التي

---

(١) الكشاف (٣٧/٢) بتصرف ..

(٢) ينظر : مجمع البيان (٥٥٥/٢) وما بعدها .

(٣) ينظر : البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم : (١٧٥) .

(٤) ينظر : بغية الإيضاح (١٢١/٢) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٦٤/٢) .

تليها، فيغوص في لججها أكثر وأكثر.. حتى ليصعب إخراجه منها..!، فكان أن أتبعت هذه الجملة بما يزيدها توكيداً؛ فقال تعالى:

(لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا)؛ وهي جملة حالية؛ أي: حال كونه مقيماً فيها لا يفارقها بحال[(١)]. فالإتيان ا ـ والله أعلم ـ؛ لتأكيد تمكن الظلمات من الكفار. وفي هذا تنفير منهم ومن حالهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كاف التشبيه المذكورة في قوله تعالى: (كَمَن مَّثَلُهُ) قد جعلت بعض المفسرين يظن أن في الآية تشبيها تمثيلياً؛ فهذا الألوسي ـ مثلاً ـ قال: "والاستعارة الأولى بجملتها مشبهة [يعني قوله تعالى: (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)]، والثانية مشبه به [يعني قوله تعالى: (كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا)] وهذا كما تقول في الاستعارة الافرادية أيكون الأسد كالثعلب ؟ أي الشجاع كالجبان وهو من بديع المعاني الذي ينبغي أن يتنبه له ويحفظ."[(٢)].

والصواب ـ والله أعلم ـ أنه ليس فيها تشبيه تمثيلي؛ لانتفاء وجه الشبه بين الطرفين، بل كلها انتظمت على سبيل الاستعارة. أما كاف التشبيه فالقول الصواب فيها ما نحا إليه التفتزاني، ونقله عنه ابن عاشور في تفسيره بقوله: "أما كاف التشبيه فهو متوجه إلى المشا ة المنفية في مجموع الجملتين لا إلى مشا ة الحالين بالحالين، فمورد كاف التشبيه غير مورد تمثيل الحالين. وبين الاعتبارين بون خفي"[(٣)].

فالمراد ـ والله أعلم ـ من نفي المشا ة؛ نفي المساواة[(٤)]. أفمن نفخ الله ـ تعالى ـ في روحه الحياة الإيمانية، وأفاض على قلبه النور.. كمن حاله أنه في الظلمات..؟!. إ ما

---

(١) ينظر : حاشية زاده (٢٠٥/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٨١/٣) .

(٢) روح المعاني (٢٦٣/٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٥/٨) .

(٤) ينظر : المرجع السابق (٤٤/٨) .

عالمان مختلفان شتان بينهما[١]. وهذا تنبيه منه ـ تعالى ـ للعقول بما تدركه وتعرفه، فهذه الحالة وتلك لا تستويان.. كما لا يستوي الأحياء والأموات، ولا النور والظلمات، ولا الظل والحرور..![٢].

وفي نفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلاً لا يلتبس فيه[٣].

وتظهر في هذه الآية مزية للاستعارة في البلاغة القرآنية؛ وهي المقابلة بين الضدين "الحي والميت"، "النور والظلمات"، ولا يخفى جمال هذا التصوير؛ إذ الضد يظهر حسنه الضد. فبان هنا بما لا مجال للشك فيه حسن الصورة الأولى؛ وهي صورة الهداية والإيمان، من كان ميتاً فأحياه الله ـ تعالى ـ، وجعل له نوراً يمشي به الناس؛ وفي تحسينها ترغيب في الإيمان، وإ اض للهمم للتعرض لنفحاته. وفي المقابل ظهر قبح صورة الكفر والضلال، وهذا مما ينفر منه ومن أهله. يضاف لتلك المزية ثراء ألفاظها بالمعاني العميقة مع ما فيها من إيجاز.

وختمت الآية بقوله: (كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)؛ وفصلت الجملة عما قبلها لوقوعها استئنافاً بيانياً[٤]؛ فما قبلها تثير سؤالاً في الذهن؛ "فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون ذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً، فأجاب بأنه: (زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)"[٥]، فبين الجملتين شبه كمال اتصال؛ لذا فصلتا.

ومن اللطائف البلاغية في الآية؛ تعريف "الكافرين" بـ"ال"؛ أفاد العموم، أي: كل الكافرين[٦].

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٠١/٣) .
(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٦٨/٢) .
(٣) التحرير والتنوير (٤٤/٨) بتصرف .
(٤) ينظر : المرجع السابق (٤٦/٨) .
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤٦٨/٢) .
(٦) ينظر : نظم الدرر (٢٥٣/٧) .

وفي الإتيان بـ (كَانُواْ) دلالة على أ م استحسنوا الكفر، والضلال، والقبائح.. واستمروا عليها حتى صار ذلك كله عقيدة في قلو م راسخة، وصفة ملازمة لهم(١).

وآخر شواهد هذا المبحث آية أتت في خواتيم سورة الأنعام؛ وهي قوله تعالى: (قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام:١٦١].

في مناسبتها للسياق قال الفخر الرازي: "اعلم أنه ـ تعالى ـ لما علم رسوله [عليه الصلاة والسلام] أنواع دلائل التوحيد، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والأضداد،...، والنافين للقضاء والقدر، ورد على أهل الجاهلية في أباطيلهم، أمره أن يختم الكلام بقوله: (إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)"(٢).

والآية استئناف ابتدائي للانتقال من مجادلة المشركين وما تخللها.. إلى إعلان ثباته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما جاءهم به، وأن إعراضهم لن يزلزله عن الحق، أو يثنيه عن المضي في الدعوة إليه(٣).

وشاهد الاستعارة في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)؛ ففي الآية استعارة تصريحية أصلية؛ وقيل: أصلية لأ ا جرت في اسم جامد؛ وهو لفظ "صراط". والصراط: لغة في السراط وهو السبيل الواضح وعن الفراء أنه قال: "السراط" وهي بالصاد لغة قريش الأولين التي جاء ا الكتاب ـ قال ـ: وعامة العرب تجعلها سيناً"(٤).

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٨١/٣)، و: تيسير الكريم الرحمن (٤٦٨/٢) وما بعدها .

(٢) التفسير الكبير (١٩٠/٥) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٧/٨) .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (سرط) .

فعليه فإن لفظ (صِرَاطٍ) في الآية استعمل في غير معناه الحقيقي؛ والقرينة قوله تعالى بعده: (دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)؛ فالتعبير مجازي، وتجرى الاستعارة فيه على النحو التالي:

شبه الإسلام بالصراط، ثم حذف المشبه، واستعير له اللفظ الدال على المشبه به بجامع الوضوح والإيصال إلى المطلوب، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومن أسرار التعبير في الآية الكريمة، والتي أسهمت في مساندة الاستعارة في أداء المعنى:

تصدير الجملة بحرف التأكيد (إن)؛ لتأكيد الخبر، وإظهار كمال الاعتناء بمضمو ا؛ لأن الخطاب للمشركين المكذبين[١].

وفي قوله: (هَدَانِي رَبِّي)؛ أسندت الهداية للرب ـ سبحانه وتعالى ـ وفي هذا دلالة على أن الهداية لا تحصل إلا من الله ـ تعالى ـ[٢]؛ فهو ـ سبحانه ـ الهادي والمضل، ومن أراد الهداية فليسأل الله ـ تعالى ـ إياها؛ لينال خيري الدنيا والآخرة؛ "ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمۡ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمۡ وَلاَ الضَّالِّينَ) [الفاتحة:٦-٧].

فإنه إذا هداه هذا الصراط، أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصيبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة، والذنوب من لوازم النفس، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب، ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه؛ ولهذا أمر به في كل صلاة لفرط الحاجة إليه، وإنما يعرف بعض قدره من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن المأمورين ذا الدعاء، ورأى ما فيها من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة، فيعلم أن الله ـ تعالى ـ بفضله ورحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر."[٣].

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٣٧/٧)، و: إرشاد العقل السليم (٢٠٦/٣)، و: التحرير والتنوير (١٩٨/٨) .

(٢) التفسير الكبير (١٩٠/٥) بتصرف .

(٣) مجموعة الفتاوى (١٣١/٨) .

وفي إسناد الهداية للرب ـ تعالى ـ دلالة ـ أيضاً ـ على اختصاصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعبادته إياه؛ كأنه قيل: هداني معبودي لا معبودكم من الأصنام[١]؛ ولعل في هذا إظهاراً لاعتزازه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الهداية الربانية وثقته بها؛ لأنها هداية المربي، المحسن، المتفضل الذي يعلم ما فيه صلاح المربوب وخيره.

وتعريف المسند إليه بالإضافة (رَبِّى) فيه ـ والله أعلم ـ مزيد تشريف للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢]؛ وفيه اعتزاز بمربوبيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لله خالقه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ وتعريض بالمشركين الذين أضلهم أربابهم، ولو أنهم وحدوا الرب الحقيق بالعبادة لهداهم إلى صراطه المستقيم[٣].

وإذا كانت الاستعارة في (صِرَاطٍ) قد صورت الإسلام بصورة محسوسة بجعله سبيلاً واضحاً معداً للسالكين..، فإن كلمة (مُّسْتَقِيمٍ) التي أتت وصفاً للصراط قد زادت تلك الصورة حسناً وتأكيداً؛ فقد دلت على أنه "يصل سالكه إلى سعادة الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ من غير عائق ولا تأخير؛ لأنه لا عوج فيه ولا اشتباه"[٤]. فهو "دين لا يتطرق متبعه شك في نفعه كما لا يتردد سالك الطريق الواسعة التي لا انعطاف فيها، ولا يتحير في أمره."[٥].

وربما صح إجراء الاستعارة التمثيلية في الآية؛ فيقال: "شبهت هيئة الإرشاد إلى الحق المبلغ إلى النجاة بهيئة من يدل السائر على الطريق المبلغة للمقصود"[٦]، وقد يكون الجامع الهيئة الحاصلة من السير في الطريق مع وجود الهادي المرشد.

---

(١) البحر المحيط (٢٦١/٤) بتصرف .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٦/٣) .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٨/٨) .
(٤) تفسير القرآن الحكيم (٢٣٩/٨) .
(٥) التحرير والتنوير (١٩٨/٨) .
(٦) المرجع السابق . الصفحة نفسها .

قوله: (دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)؛ و(دِينًا) تجريد للاستعارة مؤذن بالمشبه وهو الإسلام[١]. والتجريد أن يذكر في الكلام ما يلائم المشبه ـ المستعار له ـ[٢].

و(قِيَمًا)؛ أي: مستقيماً[٣]؛ والاستقامة اعتدال الشيء واعتداله بلا عوج[٤]. وفي هذا مدح للدين الإسلامي[٥].

ولكلمة (قِيَمًا) قراءتان[٦]، يستشف من كل منهما نكتة بلاغية، هما:

١- قرأها الكوفيون وابن عامر بكسر القاف، وفتح الياء والتخفيف؛ وحجتهم أ م جعلوها مصدراً كالشبع. ووصف الدين بالمصدر أتي به على سبيل المبالغة[٧] .

٢- قرأها الباقون بفتح القاف، وكسر الياء مع تشديدها؛ وحجتهم أ م جعلوها صفة للدين؛ وهو "فعيل" من قام بالأمر، فأصله "قيوم"، ثم أدغمت الياء في الواو كميت. قال الزمخشري: "وهو أبلغ من القائم"[٨]، والمعنى: "أي بالغ الاعتدال والاستقامة ثابتها"[٩].

(مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)؛ أي: دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ[١٠]، وهو عطف بيان[١١]؛ ولعل تقييد الجملة ذا العطف لترغيب العرب في الدين الإسلامي؛ لجلالة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٩٨/٨) .

(٢) ينظر : الإيضاح : (٢٦٩) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٩/٥) بتصرف .

(٤) ينظر : لسان العرب . مادة (قوم) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (٣٣٧/٧) .

(٦) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٥٨/١) وما بعدها .

(٧) ينظر : التفسير الكبير (١٩١/٥) .

(٨) الكشاف (٥٠/٢) .

(٩) نظم الدرر (٣٣٧/٧) .

(١٠) جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٩/٥) بتصرف .

(١١) إرشاد العقل السليم (٣٠٧/٣) بتصرف .

في نفوسهم ونفوس كل أهل الأديان؛ ولانتساب العرب إليه، واتفاقهم على أنه على الحق[١].

(حَنِيفًا)؛ والحنف الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف؛ هو المائل إلى ذلك[٢]. وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ حنيفاً؛ لأنه لم يعبد الأصنام[٣]. و(حَنِيفًا) حال من إبراهيم ـ عليه السلام ـ [٤]؛ ولعل الإتيان بها لتأكيد طهارته ـ عليه السلام ـ من دنس الشرك .

قوله: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وكان في التعقيب بهذه الجملة ـ والله أعلم ـ زيادة تأكيد للمعنى السابق؛ فبها نفيت النقيصة عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ[٥]، وقُررت نزاهته ـ عليه السلام ـ عما عليه المفرقون لدينه؛ أي أنه ما كان منهم في أمر من أمور دينهم لا أصلاً ولا فرعاً[٦]، وفي هذا رد على كفار قريش؛ لأنهم يزعمون أنهم على دينه ـ عليه السلام ـ[٧].

فالآية إعلان بهذا الدين الحق وبالثبات عليه؛ وهو إعلان يوحي بالشكر، وبالثقة، ويفيض باليقين[٨].

---

(١) ينظر : مجمع البيان (٦٠٤/٤) .
(٢) المفردات في غريب القرآن : (١٣٣) بتصرف .
(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٩/٥) .
(٤) إرشاد العقل السليم (٣٠٧/٣) بتصرف .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز (١٩٢/٦) .
(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣٠٧/٣) .
(٧) تفسير الخازن (٢٠٧/٢) بتصرف .
(٨) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٤٠/٣) .

المبحث الثالث

الكناية والتعريض

الكناية والتعريض

الكناية: مصدر بمعنى الستر والخفاء؛ يقال: كن الشيء في صدره يكنه: إذا ستره[(١)].

عرفها عبدالقاهر الجرجاني بقوله: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفُه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه"[(٢)].

وأتى بعده الخطيب القزويني وعرفها بقوله: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"[(٣)].

وعدت الكناية أبلغ من التصريح؛ لأ ا تزيد في إثبات المعنى، فتجعله أبلغ وآكد وأشد[(٤)].

والكناية من ألطف الصور البيانية وأدقها؛ إذ لا يصل إليها إلا من لَطُف طبعه، وصفت قريحته، والسر في بلاغتها أ ا في صور كثيرة تعطي الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برها ا، ثم هي تضع المعاني في صورة المحسوسات، ولا شك في أن هذه خاصية الفنون، فإن المصور إذا رسم صورة للأمل أو لليأس أ ر وجعل الرائي يشاهد ما كان يعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً[(٥)].

وقسّم السكاكي الكناية إلى أربعة أقسام[(٦)]؛ هي:

١ - التعريض .

٢- التلويح .

٣- الرمز .

---

(١) ينظر : لسان العرب. مادة (كنن).

(٢) دلائل الإعجاز : (٦٦).

(٣) الإيضاح : (٢٨٦).

(٤) ينظر : دلائل الإعجاز : (٧١).

(٥) ينظر : جواهر البلاغة: (٣٧٧،٣٧٤).

(٦) ينظر : مفتاح العلوم: (٤١١).

٤- الإيحاء والإشارة .

إلا أن ابن الأثير في "المثل السائر" فرق بين الكناية والتعريض؛ وعرف التعريض بأنه: "اللفظ الدال على الشيء من طرق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي"[(١)].

وفرق بينهما؛ فقال: "والتعريض أخفى من الكناية؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً؛ لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه.

واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبتة."[(٢)].

ومن بلاغة التعريض أنه يمكن المتكلم من إشفاء غُلته من خصمه من غير أن يجعل للخصم إليه سبيلاً، ودون أن يخدش وجه الأدب[(٣)] .

والكناية في البلاغة القرآنية تؤدي المعاني وتصورها خير أداء وتصوير، فهي حيناً راسمة مصورة موحية، وحيناً تتجنب ما ينبو على الآذان سماعه فهي الأدب والتهذيب، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل. وفي المواضع التي وردت فيها الكناية القرآنية، لا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية[(٤)].

وفي سورة الأنعام وظفت الكناية والتعريض ببلاغتهما؛ لخدمة العقيدة؛ بتصوير معانيها بصور موحية، والنيل من المشركين وعقائدهم الباطلة بأسلوب رفيع.. وغير ذلك مما تنقله العبارة، أو يكشفه السياق.

ومن شواهد ذلك قوله تعالى :

(قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ) [الأنعام:١٥].

---

(١) المثل السائر (٦٦/٣) .

(٢) المرجع السابق (٦٧/٣) .

(٣) ينظر : جواهر البلاغة : (٣٧٧) .

(٤) ينظر : من بلاغة القرآن : (٢٢٦) .

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ)[الأنعام:١٤] : "أنه ـ تعالى ـ لما بين كون رسوله [صلى الله عليه وسلم] مأموراً بالإسلام، ثم عقبه بكونه منهياً عن الشرك، قال بعده: (قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)"[1].

والآية استئناف مقرر لما قبله؛ وهو تدرج الغرض المشترك بينها من أن الشرك بالله ـ تعالى ـ متوعد صاحبه بالعذاب، وموعود تاركه بالرحمة. فقوله: (أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) رفض للشرك بالدليل الفطري والعقلي، وقوله: (قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) رفض للشرك امتثالاً لأمر الله ـ عزوجل ـ، وقوله هنا: (قُلْ إِنِّى أَخَافُ) تجنب للشرك خوفاً من العقاب، وطمعاً في الرحمة[2].

والمعنى: إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه، وأخاف إن عصيته وعبدت غيره أن يصيبني عذاب يوم القيامة[3].

ومن أسرار التعبير في نظم الآية :

في قوله: (قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى)؛ تقديم وتأخير؛ فقد قدم ذكر الخوف على شرطه الذي شأنه أن يتقدمه؛ ولعل ذلك لأنه هو الأهم المقصود بالذكر[4]. إذ فيه ـ والله أعلم ـ إشارة إلى كمال عبوديته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأن الخوف أحد ركائز العبودية الثلاثة التي لا تتحقق العبودية إلا بها؛ وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة.. وقد اجتمعت في قوله تعالى: (قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى

---

(١) التفسير الكبير (٤٩٢/٤) وما بعدها.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٦٠/٦) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٩/٥) .

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٣٣٢/٧) .

رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)[الإسراء:٥٦-٥٧]. ثم إن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته، وبه أمر ـ تعالى ـ بقوله: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[آل عمران:١٧٥]. وقد أثنى ـ سبحانه وتعالى ـ على أنبيائه بقوله: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) [الأنبياء:٩٠]؛ فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: "ما بال أقوام يت هون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية"[١]، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي ولصدره أزير كأزير المرجل من البكاء، وقد قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)[فاطر:٢٨]؛ فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: " كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً " [٢].

وقيدت الجملة بأداة الشرط "إن"؛ ولعل هذا لما لها من دلالة؛ إذ تدل على عدم الجزم بوقوع الشرط؛ والمعنى: إن فرض وقوع العصيان مني لربي، فإني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم[٣].

و: (عَصَيْتُ) أشار ابن عطية إلى أ ا لفظة تعم جميع أنواع المعاصي، إلا أ ا هنا خص ا الشرك الذي ي عنه [٤]. ورأى أبو السعود أن المراد أي عصيان كان ـ دون تخصيص ـ، فيدخل فيه الشرك دخولاً أولياً، ويكون في هذا بيان لكمال اجتنابه ـ عليه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه . كتاب: الاعتصمام، باب: ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (١٣٩٢)، حديث رقم (٧٣٠١) .

(٢) ينظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢٨٢) وما بعدها ، و : تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات (٣١٦) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٣٣٢/٧) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز (١٦/٦) .

الصلاة والسلام ـ المعاصي على الإطلاق[١]. ولعل ما قال به ابن عطية أصح؛ لمناسبته للسياق؛ ولأن المعصية في الشرك ـ كما هو معلوم ـ توجب خلود صاحبها في النار، وسخط الجبار[٢].

وفهم من قوله: (إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى) أن الآمر له بأن يكون أول من أسلم، والناهي عن كونه من المشركين هو الله ـ تعالى ـ، فعليه يكون في قوله: (رَبِّى) عدول عن اسم الجلالة "الله"[٣]، وفي هذا كناية قليلة الوسائط، وهي التي تسمى "إيماء"؛ كأ ا تومئ إلى المعنى المراد وتشير إليه[٤]، فـ(رَبِّى) إيماء إلى أن عصيانه ـ سبحانه وتعالى ـ أمر قبيح؛ لأنه ربه الذي أنعم عليه، وأحسن، وتفضل.. فكيف يعصيه؟![٥].

: (عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ)؛ وقيدت الجملة بالوصف (عَظِيمٍ)؛ ولعل هذا لبيان عظم يوم القيامة وهوله، وفظاعة شأنه[٦]، وأنه يوم لا بيع فيه ولا خله ولا شفاعة ـ بالمعنى المعروف عند المشركين ـ ولا سلطان لغير الله ـ تعالى ـ، فيتكل عليه من يعصيه ظناً أنه ينجيه[٧].

وفي إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب الذي يخافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفا. وقد اعتادت العرب أن تطلق اليوم على يوم نصر فريق أو ا زامه، فيكون اليوم نكالاً على المنهزمين، إذ يكثر فيهم القتل والأسر، ويسام المغلوب سوء العذاب، فذكر "يوم" يثير

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٦/٣) .
(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٨٠/٢) .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٦١/٦) .
(٤) ينظر : مفتاح العلوم: (٤١١)، و: البلاغة العربية في ثو ا الجديد (١٦٩/٢) .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير (١٦١/٦) .
(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٩/٥) .
(٧) تفسير القرآن الحكيم (٣٣٢/٧) بتصرف .

الخيال..، ويبعث في النفس مخاوف مألوفة.. و ذا حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب[١].

وفي الآية تعريض بالمشركين بأ م عصاة مستوجبون للعذاب العظيم[٢].

ومن شواهد الكناية ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [الأنعام:٤٣].

والآية تأتي في سياق يعرض لأنموذج من بأس الله ـ تعالى ـ؛ وفيه تفسير لكيفية تعرض الناس لبأس الله ـ جل وعلا ـ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم ـ تعالى ـ الفرصة بعد الفرصة، ويسوق لهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه والتضرع لله ـ تعالى ـ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطر م قد فسدت فساداً لا يرجى معه صلاح، وكانت حيا م قد فسدت فساداً لا يصلح معه البقاء. فحقت عليهم كلمة الله ـ تعالى ـ ، ونزل بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار[٣].

وهي إخبار منه ـ تعالى ـ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أ م أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم، فلم يخضعوا، ولم يتضرعوا، إنما استمروا في غيهم واغترارهم بالدنيا بتحسين من الشيطان[٤].

ومن لطائف التعبير القرآني في الآية :

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٦١/٦) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٧/٣) .

(٣) ينظر :في ظلال القرآن (١٠٨٨/٢) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥)، و: معالم التن يل (٩٦/٢).

الإيجاز بالحذف، وحسنه دلالة ظاهر الكلام عليه؛ ومعنى الكلام: (وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَاهُم بِٱلۡبَأۡسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ)،فلم يتضرعوا: (فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ)[١].

و(لولا) حرف تحضيض بمعنى هلاّ[٢]، وإذا اجتمع مع الماضي في جملة واحدة أفاد التوبيخ[٣]. فالكلام هنا ـ والله أعلم ـ توبيخ لمذنبين غائبين، وإظهار لسوء فعلهم، والتوبيخ إنما يليق بالحاضرين دون الذين انقرضوا؛ لفوات المقصود أو المناسبة؛ فعليه قد يكون في الكلام كناية؛ إيماء إلى مساواة الحالين؛ حال المشركين المخاطبين، وحال أولئك، وتوبيخ للحاضرين بالمهم من العبرة لبقاء زمن التدارك.. قطعاً لمعذرتهم[٤].

وفي الجملة تقديم لما حقه التأخير؛ إذ قدم الظرف المضاف مع جملته على عامله في (إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ)؛ ولعل هذا للاهتمام بمضمون جملته؛ فهو زمن شديد العظم.. يحق أن يكون باعثاً على الإسراع بالتضرع.. مما حصل فيه من شدة ابتلاء[٥].

و: (تَضَرَّعُوا) بمعنى التذلل والتخشع والانقياد وترك التمرد[٦]. وهي كلمة موحية ومصوره.. أسهمت في نقل تلك الضراعة التي تبين في مثل تلك المواقف العصيبة؛ إذ صورت للسامع مشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب ـ جل وعلا ـ ؛ مشهد ذلك القلب المنكسر كسرة خاصة لا يشبهها شيء..، والتي تجعل صاحب ذلك القلب يرى نفسه كالإناء المرضوض.. تحت الأرجل.. لا شيء فيه، ولا منه منفعة، ولا يرغب في مثله..، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيمه..! فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، وإذا سجد القلب لله ـ تعالى ـ

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩١/٥) .
(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها، و: المحرر الوجيز (٥١/٦) .
(٣) ينظر : الفتوحات الإلهية (٢٩/٢) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٨/٦) .
(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .
(٦) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٣/٤) .

هذه السجدة العظمى، سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يرى إلا متملقاً خاضعاً له ذليلاً مستكينا مستعطفاً له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضى ربه..، يبتهل إليه؛ يقول: يا رب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ولي له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك، لا ملجأ ولا منجاً له منك إلا إليك، أنت ملاذه وبك معاذه..، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور..، وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه..!.[١]

فهذه الضراعة عبودية تستخرج بالابتلاء الشديد؛ وأي بلاء أعظم من "بأس" أضيف إلى "نا" العظمة العائدة على الله ـ تعالى ـ..؟. لكن الشأن مع هؤلاء مختلف؛ فهم "لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا. لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلين قلوبهم. وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد: (وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)"[٢].

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

التصوير المؤثر بطريق المقابلة بين الضدين، وهو ما يسمى بالطباق؛ فبين كلمة (تَضَرَّعُوا) و (قَسَتۡ) طباق تضاد؛ فالضراعة هي اللين، والتذلل، والرقة. بينما القسوة هي الصلابة والغلظة والشدة[٣]. ومن خلال هذا الطباق ظهر للقارئ أي بعد بين ما أريد منهم، وما هم عليه..؛ أريد منهم عبودية.. بقلوب لينة، خاضعة، متذللة، منكسرة بين يدي ربها.. تستغفر.. وتسترحم... لكن المحنة كشفت عن كفر واستكبار.. عن قلوب قاسية، صلبة، لا تذل ولا تلين لخالقها..؛ علّه يكشف الضر... "والقلب الذي لا

---

(١) ينظر : مدارج السالكين (٤١٩/١) وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن (١٠٨٩/٢) .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٢٥/٦) .

ترده الشدة إلى الله قلب تحجر، فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، ... والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حيا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتاً حسبت عليه، ولم تفده شيئاً، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!."[1].

ويلحظ تقييد الجملة بـ(لكن)؛ ولعل هذا "لبيان أنه لم يكن لهم في ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والإعجاب بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم."[2].

ومن شواهد الكناية قوله تعالى:

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [الأنعام:٤٨].

لما حكي عن الكفار أنهم قالوا: (لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ)[الأنعام:٣٧]، ثم أتبع ذلك بما يرد عليهم..، عقب بهذه الآية؛ لبيان القصد من إرسال الرسل[3].

فالله ـ جل وعلا ـ يرسلهم للتبليغ؛ يبشرون من آمن بالجنة والفوز المبين، وينذرون من كفر بالنار والعذاب الأليم[4].

وسخرت البلاغة بعدد من أساليبها؛ لإبراز المعنى السابق وإثباته، ومن ذلك:

الكناية؛ إذ كُني فيها ـ والله أعلم ـ عن التبليغ بالتبشير والإنذار؛ لأن التبليغ يستلزم الأمرين، وهما الترغيب والترهيب. ومن مزايا هذه الكناية الإيجاز؛ إذ استغني بذكر اللازم عن الجمع بينه وبين الملزوم[5].

---

(١) في ظلال القرآن (١٠٨٩/٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٣٣/٣) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٧/٤) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٨/٧) .

وعبر بالفعل المضارع (نرسل) دون الماضي؛ ولعل هذا البيان أن الإرسال أمر متجدد جرت السنة الإلهية عليه مقارناً لهذين الحالين التبشير والإنذار[١].

ومن الأساليب ـ أيضاً ـ القصر بطريق النفي والإثبات؛ وهو من أقوى طرقه، ويؤتى به عند مجابهة المنكر. وقوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يزعمون أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن لم يأتهم بآية من جنس ما اقترحوا، فما هو برسول من عند الله ـ تعالى ـ، فكان الإتيان بالخبر هنا بطريق القصر بما فيه من قوة في التأكيد، ومن إيجاز؛ لقلب اعتقاد هؤلاء؛ أي: ما نرسل الرسل إلا للبشارة والنذارة لا للتلهي بهم باقتراح الآيات[٢].

وهذه هي مهمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الدين؛ فهو بشر يرسله الله ـ تعالى ـ؛ ليبشر وينذر، وهنا تنتهي مهمته.. تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض؛ تصور يفرد الله ـ جل وعلا ـ بالألوهية وخصائصها، ويرد إلى مشيئته و قدرة الأمر كله، وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله.. مما كان سائداً في الجاهليات..![٣].

ومن الإيمان بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ الإيمان بأن عليهم البلاغ المبين، وأنهم قد بلغوه؛ والإيمان بأن خاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أنزل الله ـ تعالى ـ عليه كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فهو الأمين على جميع الكتب وقد بلغ أبين البلاغ وأتمه وأكمله، وكان أنصح الخلق لعباد الله ـ تعالى ـ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، فأسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجة، أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً[٤].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٥/٣)، و: التحرير والتنوير (٢٣٨/٧) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٣٨/٧) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٩٣/٢) وما بعدها .

(٤) ينظر : مجموعة الفتاوى (٢١/٤) .

: (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)؛ أي: "فمن آمن قلبه بما جاءوا به، وصلح عمله باتباعه إياهم"(١)؛ فلا خوف عليهم عند قدومهم على ر م من العذاب الذي أعده لمن عصاه، ولا هم يحزنون على ما خلفوه وراءهم في الدنيا(٢).

ومن اللطائف البلاغية في الجملة :

تقييد الجملة بالعطف بالواو في قوله: (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ)؛ وفي هذا دلالة على أن الإيمان اعتقاد بالقلب، لكنه لا يكفي، أو هو لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من عمل الجوارح.. وذلك هو الإصلاح. فبالعطف جمع بين اعتقاد القلب وعمل الجوارح وهذا هو الإيمان الحق الذي يوفى لصاحبه الجزاء.

وقيدت الجملة ـ أيضاً ـ بالنفي بـ(لا)، وأفاد هذا دوام انتفاء الخوف عنهم، ودوام انتفاء حز م(٣). وهذا جزاء إلهي مضمون لمن اتبع الرسل وآمن وأصلح.

وإذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباعهم، فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك. فالعاملون بأقوالهم وأفعالهم، المتبعون لها، هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة، فإ م يشاركون سائر الأمة فيما عندهم من أمور الرسالة، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يجهله غيرهم أو يكذب به(٤).

وللكناية والتعريض شاهد في قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [الأنعام:٥٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٢٦/٢) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٣٥/٣) .

(٤) مجموعة الفتاوى (٢١/٤) بتصرف .

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)[الأنعام:55]؛ "أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل ا رمين، ذكر في هذه الآية أنه تعالى ى عن سلوك سبيلهم"[(١)].

ومعنى الآية: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان: إن ربي اني أن أعبد الذين تدعون من دونه، وإن فعلت ما يت، فقد تركت محجة الحق، وسلكت غير الهدى، فصرت ضالاً على غير استقامة[(٢)].

والشاهد في قوله: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ)؛ إذ فيها تعريض بضلال قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وعدم اهتدائهم؛ والمعنى: إن أنا اتبعت أهواءكم، فأنا ضال، وما أنا من المهتدين في شيء، فكأنه قيل لهم: أنتم كذلك.

وثمة كناية في قوله: (وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ)؛ فقد أتى بالخبر بالجار وا رور، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: "وما أنا مهتد"؛ لأن المقصود ـ والله أعلم ـ نفي الجملة التي خبرها (مِنَ الْمُهْتَدِينَ)، والتعريف في (الْمُهْتَدِينَ) تعريف الجنس؛ فإخبار المتكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التي تعرف عند الناس بفئة "المهتدين"، وهذا يفيد أنه مهتد إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال. فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه، ونفي الخبر هنا أفاد نفي هذه النسبة الكنائية، فكانت أبلغيته في النفي كأبلغيته في الإثبات؛ لأن المفاد الكنائي هوهو[(٣)].

ومن جمال التعبيرفي النظم القرآني ودقائقه أن قوله تعالى: (وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ) أتي به ـ والله أعلم ـ تأكيداً لقوله: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا)؛ غير أن تلك جاءت فعليه؛ دلت

---

(١) التفسير الكبير (٨/٥) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٢٠٨) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٣/٧) .

على مضي الفعل وثبوته، وهذه اسمية دلت على الثبات والاستمرار، فحصل بهذا النظم البليغ تأكيد الضلال ونفي الاهتداء، وثبات نفيه ودوامه[١].

وفي قوله: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا) قُدم جواب (إِذًا) عليها؛ ولعل هذا للاهتمام بالجواب، وزيد هذا الاهتمام بتصدير الجواب بـ (قَدْ) التي أفادت التأكيد مع كون الضلال مفروضاً وليس بواقع، وقد يكون ذلك للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه (إِذًا)[٢].

ومن الأسرار البلاغية في الآية :

قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)؛ افتتحت الآية بخطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بـ (قُلْ)، بإيقاعها المؤثر الذي يوحي بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبلغ عن ربه ـ جل وعلا ـ ما يوحيه إليه، وما لا يملك غيره، ولا يتبع سواه[٣].

وتكرار الأمر بـ (قُلْ) يوحي بعناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإشعار له بأنه مأنوس برحمة الله، إذ يضع ـ سبحانه وتعالى ـ على فمه كلماته، وآياته، ليعرضها على المشركين، ويفضح باطلهم، ويكشف ضلالهم[٤].

وكلمة (نُهِيتُ) أبلغ في النفي ـ في هذا المقام ـ من النفي بـ "لا"؛ كأن يقال ـ كما في غير القرآن ـ: "لا أعبد"؛ ولعل ذلك لما توحيه هذه الكلمة من ورد هذا الأمر بطريق التكليف[٥]؛ وهذا يعني أنه مأمور بالاستجابة التامة؛ وفي هذا ـ والله أعلم ـ قطع لأطماعهم عن ركونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليهم [٦].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤)، و: حاشية زاده (١٧١/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٤١/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٣/٧) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١١٠٩/٢) .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٩٨/٢) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤) .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤١/٣) .

وبني فعل النهي على صيغة المجهول، ولعل ذلك لظهور المراد؛ أي: ماني الله ـ جل وعلا ـ[١].

وتعريف معبودات المشركين باسم الموصول (الذين) الموضوع للعقلاء وغيرهم يستوقف النظر؛ إذ إن أصنامهم يليق بها الاسم الموصول (ما) الذي يعبر به عن غير العاقل، فما هي بعاقلة[٢]، ولعل التعبير القرآني أتى وفق ما يقتضيه المعنى؛ وبيان ذلك أن المشركين ما كانوا يشركون بالله ـ تعالى ـ الأصنام وحدها، بل كانوا يشركون معه الجن، والملائكة، والناس..، وهم ما كانوا يشركون الناس إلا أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع والأفراد، وينبذون التشريع الإلهي الذي أتى به الإسلام، وهذا التحكيم يعد في الإسلام شركاً؛ إذ فيه تأليه للناس، وجعلهم أنداداً لله ـ تعالى ـ ، والله ـ جل وعلا ـ ينهى عنه كما ينهى عن السجود للأصنام، فكلاهما في الإسلام سواء.. شرك بالله ـ تعالى ـ ودعوة أنداد من دونه ـ سبحانه وتعالى ـ [٣].

وتقييد الجملة بقوله: (مِن دُونِ اللَّهِ) فيه ـ والله أعلم ـ تحقير لهم، وبيان سفول مرتبتهم، مع ما فيه من تشنيع عليهم؛ إذ عبدوا ما عبدوا من دون الله ـ تعالى ـ الذي لا أعظم منه، فوقعوا في ترك الأعظم، ولزوم الدون[٤]. وفيه حكاية لما غلب على أولئك المشركين من الاشتغال بعبادة الأصنام ودعائهم عن عبادة الله ـ تعالى ـ ودعائه في الوقت الذي يزعمون أنهم يتقربون بهذا لله ـ تعالى ـ وفي هذا نعي عليهم باضطراب عقيدتهم إذ أشركوا مع الله في العبادة[٥].

(قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ)؛ وفي تكرار الأمر بـ (قُل) مع قرب العهد به اعتناء بشأن المأمور به [٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٢/٧) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١١١٠/٢) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٣٢/٧) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٢/٧) .

(٦) إرشاد العقل السليم (١٤١/٣) بتصرف .

ومن الدقة في التعبير القرآني؛ النهي عن اتباع أهوائهم، ولم يكن التعبير ـ في غير القرآن ـ : "لا أتبعكم"؛ ولعل هذا للإشارة إلى أ م في دينهم ـ الذي هو أشرف ما لدى الإنسان ـ تابعون للهوى الذي يستعمل ـ غالباً ـ في غير الخير، وفي هذا تجهيل لهم إذ أقاموا دينهم على غير أصل متين[١].

وعبر عن الهوى بصيغة الجمع (أَهْوَاءَكُمْ)؛ ولعل هذا للدلالة على اختلاف معبودا م؛ إذ كان لكل عابد صنم هوى يخصه بالعبادة؛ فلذلك جمع، وفيه تنبيه على السبب الذي حصل به الضلال، وتنبيه لمن أراد اتباع الحق ومجانبة الباطل بالحذر من اتباع الهوى الذي لا يأتي بخير[٢].

وقد كان المشركون يدعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوافقهم على دينهم، ليوافقوه على دينه، وأن يسجد لآلهتم ليسجدوا لإلهه. :كأن الشرك والإسلام يجتمعان في قلب..!، وكأن العبودية لله ـ تعالى ـ يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه..!. وهذا أمر لا يكون أبداً؛ فالله ـ جل وعلا ـ أغنى الشركاء عن الشرك، وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية، ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره.. في قليل أو كثير[٣]. وفي الآية وقف على شيء من أسرار النظم في التعبير عن ذلك.

وبعد هذه الآية قال تعالى :

(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۞ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)[الأنعام:٥٧-٥٨].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤)، و: التحرير والتنوير (٢٦٢/٧) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤) .

(٣) في ظلال القرآن (١١٠٩/٢) بتصرف .

لما نفي في الآية السابقة أن يكون الهوى متبعاً، نبه هنا على ما يجب اتباعه بقوله: (قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى)[١].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بر م الداعين لك إلى الإشراك بربك، إني على بيان تبينته من ربي الذي كذبتم به، وأن الذي تستعجلون من نقم وعذاب ليس بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر، وما الحكم فيه إلا لله الذي لا يجور في حكمه، وبيده الخلق والأمر، يقضي الحق بيني وبينكم، وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه. ولو أن بيدي ما تستعجلون به من العذاب، لعجلت لكم ما تسألون من ذلك، ولكن ذلك بيد الله ـ تعالى ـ ، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين[٢].

ولإيصال ذلك المعنى انتظم في الآيتين عدد من الفنون البلاغية كان من بينها "الكناية"؛ فقوله تعالى في الآية الأولى على لسان نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ)، وقوله في الآية الثانية: (قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) كناية عن أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس إلهاً، إنما هو رسول يقف عند ما أرسل به[٣]. فالكناية هنا أسهمت في بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول، وفَرقت بينها وبين حقيقة الألوهية. فالقدرة في التصرف بالقضاء الذي يـ ل بالعباد هو من خصائص الألوهية، ولا شأن للرسول به، إذ هو بشر، يوحى إليه لينذر ويبلغ، لا ليـ ل قضاءً ويفصل..![٤].

ومما أسهم ـ أيضاً ـ في إثبات المعنى السابق؛ القصر بطريق التقديم؛ إذ إن تقديم المسند "الظرف" في قوله: (مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) أفاد نفي القصر الذي يتوهمه المشركون من توعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم أنه توعدهم بعقاب في مقدوره، فجعلوا تأخره إخلافاً لتوعده، فرد عليهم (قالباً)اعتقادهم بأن الوعيد بيد الله ـ جل وعلا ـ،

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٨/٥) وما بعدها .
(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٩/٥) وما بعدها .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٧/٧-٢٦٩) .
(٤) ينظر : في ظلال القرآن (١١١٠/٢) وما بعدها .

كما سيصرح به في قوله: (إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ)؛ فقوله: (إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ) تصريح بمفهوم القصر، وتاكيد له[١] .

وقوله: (مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ) أريد به العذاب والنقم[٢]. ولعل تعريفه بالموصولية للتفخيم من شأنه مع ما حملته الصلة من وعيد لهم؛ إذ أنبأت بأن ذلك العذاب مدخر لهم مؤخر، وأ م يستعجلونه، وأنه واقع م لا محالة؛ لأن التعجيل والتأخير حالان للأمر الواقع، فكان قوله: (تَسۡتَعۡجِلُونَ) في نفسه وعيداً [٣].

ومن اللطائف البلاغية في الآيتين :

قوله: (قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي)؛ الجملة استئناف بياني انتقل به الكلام من إبطال الشرك بدليل الوحي الإلهي إلى إثبات صدق الرسالة بدليل من الله ـ تعالى ـ مؤيد للأدلة السابقة؛ ليبأسوا من محاولة إرجاع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكه في وحيه بقولهم: "ساحر، مجنون، شاعر، أساطير الأولين"، وأكدت الجملة بحرف التأكيد؛ لأن المشركين ينكرون أن يكون ـ عليه الصلاة والسلام ـ على بينة من ربه[٤].

و(بَيِّنَةٖ)؛ أي على أمر واضح، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نفى أن يكون متبعاً للهوى، نبه على ما يجب اتباعه وهو الأمر الواضح، ويكون اتصال التاء بالكلمة؛ لإفادة المبالغة[٥]. وهذا المعنى يناسب (عَلَىٰ) الدالة على التمكن، كما يقال: فلان على بصيرة[٦].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٨/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٠٩/٥) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٨/٧) .

(٤) ينظر : المرجع السابق (٢٦٤/٧) وما بعدها .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٥/٧) .

وقيل: إن المراد بـ(بَيِّنَةٍ)؛ المعجزة التي تبين صدقه ـ ، وهي القرآن، فهو البينة والحجة الواضحة[١]. وعليه فإن (عَلَىٰ) في الجملة تكون مستعملة في الملازمة مجازاً مرسلاً؛ لأن الاستعلاء يستلزم الملازمة؛ أي: أني لا أخالف ما جاء به القرآن[٢]. ونكرت (بَيِّنَةٍ)؛ ولعل هذا للتعظيم من شأ ا[٣]؛ فهي بينة عظيمة..، وعظمها بالغ الوضوح، ولا ينكره إلا مكابر.

وتقييد الجملة بالوصف بقوله: (مِّن رَّبِّى) أفاد ـ والله أعلم ـ تأكيد ما أفاده التنكير في (بَيِّنَةٍ) من التعظيم والتفخيم لشأ ا[٤].

و(مِّن) ابتدائية؛ أي على بينة أتتني من ربي؛ وهي الأدلة التي أوحاها الله ـ تعالى ـ إليه، وجاء ا القرآن وغيره. ويجوز أن تكون (مِّن) اتصالية؛ أي على يقين متصل بربي؛ أي بمعرفته وتوحيده، والمعنى: أني آمنت بإله واحد دلت على وجوده ووحدانيته دلائل خلقه وقدرته، فأنا موقن بما آمنت به، لا يتطرق إلي شك..، وحينئذ يكون الخبر مسوقاً مساق التعريض بالمشركين في أ م على اضطراب من أمر آلهتهم وعلى غير بصيرة، كما أن فيه قطعاً لأطماعهم في صرفه عن ذلك الإيمان[٥].

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ تشريف له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ورفع لم لته[٦].

والآية فيها إيحاء بثقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما لديه من ربه، وبربه قبل ذلك؛ لأن المرء ـ غالباً ـ يصانع عدوه عند عدم الثقة بالنصرة عليه، أو عند عدم وثوقه بأنه على

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٤٢/٤)، و: إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٥/٧) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٥/٧) وما بعدها .

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .

الحق، أما هو ـ عليه الصلاة والسلام **ـ فواثق بكلا الأمرين[١].**

وقوله: (وَكَذَّبْتُم بِهِۦ) الجملة حالية؛ ولعل الإتيان ا لاستقباح مضمو ا، واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضي عدمه من غاية وضوح البينة[٢].

ويجوز أن تكون الواو عاطفة والجملة معطوفة على جملة (إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى)؛ أي أنا على بينة وأنتم كذبتم بما دلت عليه البينات.. فشتان بيني وبينكم[٣].

والضمير في (بِهِۦ) الظاهر عوده على (رَّبِّى)[٤]، وعلى هذا الوجه تكون (مِنۡ) ـ والله أعلم ـ اتصالية؛ أي كنت أنا على يقين في شأن ربي وكذبتم به مع أن دلائل توحيده بينة واضحة[٥]. وقيل: إنه عائد على بينة لأن معناها على أمر بين، وقيل: على البيان الدال عليه بينة، أو على القرآن[٦]. وتكون (مِنۡ) ابتدائية؛ أي وكذبتم بالبيان ـ أو القرآن ـ مكابرة وعناداً[٧].

ومن دقائق النظم القرآني؛ تعدية فعل التكذيب بالباء، مما أفاد ـ والله أعلم ـ التأكيد؛ أي تأكيد لصوق الفعل بمفعوله، وهذا يوحي بشدة تكذيبهم، وقوة إنكارهم.. مع أنه أمر بين..![٨].

وقوله: (إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ)؛ أثبت في الجملة صفة الحكم لله ـ جل وعلا **ـ ونفيت عن غيره، بأسلوب القصر بطريق النفي والإثبات؛ أي: الحكم لله لا لغيره، فما الحكم في إنزال العذاب تعجيلاً وتأخيراً، أو ما الحكم في جميع الأشياء، فيدخل فيه الأول دخولاً**

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٣٣/٧) .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٦/٧) بتصرف .

(٤) البحر المحيط (١٤٢/٤) بتصرف .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٦/٧) .

(٦) البحر المحيط (١٤٢/٤) بتصرف .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٦/٧) .

(٨) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها.

أولياً إلا لله وحده من غير أن يكون لغيره دخل فيه بوجه من الوجوه(١)؛ لأن ذلك من خصائص الألوهية التي ليس للخلق فيها أي قدرة.

قوله: (يَقُصُّ الْحَقَّ)؛ القص من الاقتصاص؛ وهو اتباع الأثر، أي يجري قدرة على أثر الحق؛ أي على وفقه، أو هو من القصص، وهو الحكاية، بمعنى أنه يحكي الحق؛ أي إن وعده واقع لا محالة فهو ـ جل وعلا ـ لا يخبر إلا بالحق، وهو ـ سبحانه ـ أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل(٢)، فكأن في الخبر ديداً ووعيداً للمكذبين.

قوله: (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)؛ إطناب بطريق التذييل؛ وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص وهو الفصل بين الحق والباطل(٣).

وفي قوله: (لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أتى التعبير القرآني ببناء الفعل للمجهول؛ ولعل هذا لكون المخوف إنما هو الإهلاك، لا كونه من معين(٤)؛ أو لعله للإيذان بتعين الفاعل الذي هو الله ـ تعالى ـ، وفي هذا الأسلوب ويل الأمر، ومراعاة حسن الأدب(٥).

قوله: (وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) إطناب بطريق التذييل؛ أي الله أعلم مني ومن كل أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله؛ لأنه العليم الخبير الذي عنده ما تستعجلون به(٦)، فالجملة مقررة لمضمون الآية، وتضمنت الوعيد والتهديد.. للظَلَمة الذين أمهلهم الله ـ تعالى ـ ، ولم يعجل لهم العذاب، ليصححوا عقيد م ويرجعوا إلى ر م(٧)، فهو

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٨/٧) .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .
(٤) ينظر : نظم الدرر (١٣٤/٧) .
(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٤٢/٣) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٢٧٠/٧) .
(٧) ينظر : المحرر الوجيز (٦٤/٦)، و: التفسير القرآني للقرآن (١٩٩/٢) .

ـ سبحانه وتعالى ـ يمهلهم عن علم، ويملي لهم عن حكمة..، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون[١].

ومن اللطائف البلاغية في الآية؛ خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال ـ في غير القرآن ـ: "والله أعلم بكم"، لكن التعبير القرآني أتي فيه بالإظهار في مقام الإضمار؛ ولعل ذلك للإشعار بأ م ظالمون في شركهم إذ اعتدوا على حق الله ـ تعالى ـ، وظالمون في تكذيبهم إذ اعتدوا على حق الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وظالمون في معاملتهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ [٢]، وفي هذا تشنيع عليهم وذم لهم.

ومن شواهد الكناية والتعريض في الآيات قوله تعالى:

(وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [الأنعام:٧٢].

ومناسبة الآية لما قبلها أنه ـ تعالى ـ لما بين أولاً أن الهدى هدى الله بقوله: (قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[الأنعام:٧١]، وحصل به الترغيب في جميع الطاعات المأمور ا من أفعال القلوب وأفعال الجوارح، والتنفير عن جميع المنكرات والمنهيات، ذكر عقيب هذا الكلام الإجمالي ما هو أشرف أقسام الهدى من كل باب فبدأ بذكر ما هو رئيس الطاعات الروحانية؛ وهو الإسلام، ثم ذكر الصلاة التي هي رئيس الطاعات الجسمانية، ثم ذكر التقوى التي هي رئيس ما هو قبيل الترك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي[٣].

وفي الآية سخرت الكناية لإثبات يوم القيامة؛ والتعريض لإثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وبطلان نفع الشركاء؛ وذلك في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

---

(١) في ظلال القرآن (١١١١/٢) بتصرف .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٤٣/٤)، و: التحرير والتنوير (٢٧٠/٧) .

(٣) حاشية زاده (١٧٧/٢) بتصرف .

والجملة خبرية تضمنت التنبيه والتخويف لمن ترك امتثال ما أمر به من الإسلام والصلاة وتقوى الله ـ تعالى ـ؛ لأن ثمرات فعل هذه الأعمال وحسرات تركها إنما تظهر يوم القيامة(١).

واشتملت الجملة على مؤكدات؛ منها: الحصر بتعريف الجزأين؛ ا قصر الحشر بعد البعث من الموت إلى الله لا إلى غيره(٢).

ومن المؤكدات ـ أيضاً ـ تقديم معمول (تُحۡشَرُونَ)، فقد أفاد القصر؛ أي إليه ـ سبحانه ـ لا إلى غيره تحشرون يوم القيامة(٣). فأكد ذا التقديم وقوع الحشر على من أنكره من المشركين، وتحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين(٤). والقصر هنا حقيقي إذ هم لم ينكروا كون الحشر إلى الله ـ تعالى ـ ، إنما أنكروا وقوع الحشر(٥)، فأتى بالحشر الذي هم له منكرون مع كثرة الأدلة التي أقامها ـ سبحانه وتعالى ـ والتي تدل على حتميته، وعلى تمام قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ (٦)، وسلك في إثباته طريق الكناية بقصره على الله ـ تعالى ـ المستلزم وقوعه، وأنه لا يكون إلا إلى الله ـ جل وعلا ـ تعريضاً بأن آلهتهم "الأصنام" التي أفنوا أعمارهم عكوفاً عليها.. لا تغني عنهم من الله ـ جل وعلا ـ المستحق وحده للعبادة لما له من صفات كمال وجلال، ولما اختص به من خصائص الألوهية والربوبية؛ لا تغني عنهم منه ـ جل وعلا ـ شيئاً(٧). "وإذا كان الحشر إليه وحده، والجزاء بيده وحده، فمن الجنون أن يعبد غيره ويدعى، أو يخاف ويرجى"(٨).

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

---

(١) البحر المحيط (١٦٠/٤) بتصرف .
(٢) ينظر : نظم الدرر (١٥٣/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٠٦/٧) .
(٣) ينظر : روح المعاني (١٧٩/٤) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٦/٧) .
(٥) المرجع السابق. الصفحة نفسها.بتصرف.
(٦) ينظر : نظم الدرر (١٥٣/٧) .
(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٦/٧) .
(٨) تفسير القرآن الحكيم (٥٣٠/٧) .

في قوله: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَاةَ﴾ خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بطريق الالتفات، من التكلم في قوله: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَالَمِينَ﴾ إلى الخطاب بإقامة الصلاة، وتقوى الله ـ جل وعلا ـ [1]؛ ولعل السر في المخالفة بين الطريقين أن الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ مطلوب من الإنسان أولاً أن يبحث عنه بنفسه، وأن يهتدي إليه بعقله وبفطرته السليمة، فإذا صار من المؤمنين، كان مهيأ لأن يخاطب ويتلقى شريعة الإسلام الذي آمن به، وأن يتعرف على ما ينبغي أن يؤديه لله ـ جل وعلا ـ الذي عرفه..، وأسلم له من عبادات، وطاعات؛ فكانت "الصلاة" هي المطلوب الأول من المؤمن أن يؤديها بعد أن شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ثم كانت "التقوى" على إطلاقها؛ هي المطلوب الذي يجمع جميع الطاعات والعبادت[2].

وخصت ﴿ٱلصَّلَاةَ﴾ بالذكر بعد الإسلام؛ لأ ا أعظم أركانه[3]، ولأن لها شأناً عظيماً في تحقيق التقوى[4]؛ فهي إذا أقيمت على الوجه المطلوب مع المداومة عليها، ت صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وزكت نفسه بمناجاة الله ـ جل وعلا ـ [5].

وللتعريض شاهد في آية تأتي في سياق يعرض لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه؛ قصة الفطرة مع الحق والباطل؛ قصة العقيدة التي يصدع ا المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم، ولا يجامل على حسا ا أباً، ولا أسرة، ولا عشيرة، ولا قوماً..[6]؛ وهي قوله تعالى حكاية على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

---

(١) ينظر : حاشية الصاوي (٢٤/٢) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢١٧/٢) .
(٣) ينظر : حاشية الصاوي (٤٢/٢) .
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٢١٧/٢) بتصرف .
(٥) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٣٠/٧) .
(٦) ينظر : في ظلال القرآن (١١٣٨/٢) .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لما رأى القمر طالعاً بتفرده في السماء بنوره الذي ينسكب في الوجود.. قال عنه: "هذا ربي"، لكن القمر غاب.. والإله الحق لا يغيب..، فقال مسمعاً قومه: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]؛ أي: "من القوم الذين أخطأوا الحق، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله"[2].

وقوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ تعريض بضلال قومه، والتعريض بضلالهم هنا أقوى وأصرح من قوله أولاً: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، وإنما ترقى إلى ذلك؛ لأنه لو قيل هذا في الأول، لربما نفروا ولم يصغوا إلى الاستدلال، فما عرض إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأ م في ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره، والدليل على ذلك أنه ترقى في المرة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقريع بأ م على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود[3].

فالتعبير القرآني أوثر فيه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ على ـ كما في غير القرآن ـ: "لأكونن ضالاً"؛ للإشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن في الناس قوماً ضالين، والمراد قومه..!، ولإدخال الشك في نفوسهم تجاه معتقدهم بأن يكون ضلالا[4].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

تعريف الجزأين في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ أفاد ـ والله أعلم ـ القصر؛ لأنه لم يقل: هذا رب. فدل على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراد استدراج قومه؛ فابتدأ بإظهار أنه لا يرى تعدد الآلهة؛ ليصل م إلى التوحيد، واستبقى واحداً من معبودا م، ففرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله[5].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٥٦١/٧)، و: في ظلال القرآن (١١٤٠/٢) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٤٧/٥) .

(٣) ينظر : الانتصاف . حاشية الكشاف (٢٤/٢) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٢١/٧) وما بعدها .

(٥) ينظر : المرجع السابق (٣١٩/٧) .

قوله: (هَٰذَا رَبِّى)؛ تنبيه لقومه للنظر في معرفة الرب الحق، وأن من اتخذ القمر إلها، وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأن الهداية ليست إلا من الله ـ جل وعلا ـ[١]. و"في هذا يئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له رباً غير الكواكب"[٢].

وختام شواهد المبحث قوله تعالى:

(ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) [الأنعام:٨٨].

والآية تأتي في سياق يعرض لموكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، فبعد أن ذُكر أولئك الأنبياء عقب بقوله: (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ)[٣].

ومعنى الآية أن ذلك الهدى الذي هديت به من سميت من الأنبياء والرسل؛ هو توفيق الله ـ تعالى ـ الذي يوفق به من يشاء حتى ينيب إلى طاعة الله ـ جل وعلا ـ ، وإلى إخلاص العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفض الأوثان والأصنام، ولو عبدوا معه ـ جل وعلا ـ غيره لذهب وبطل عنهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملون؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يقبل مع الشرك به عملا [٤].

وسخرت ضروب من البلاغة لنقل ذلك المعنى؛ منها :

في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ)؛ عبر في النظم القرآني عن الهدى بالإشارة إليه بـ(ذَٰلِكَ) الذي يشار به للمشاهد البعيد، ولهذا التعبير نكته البلاغة؛ لعل منها :

---

(١) ينظر : الكشاف (٢٤/٢)، و: التفسير الكبير (٤٦/٥)، و: التحرير والتنوير (٣٢١/٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٢١/٧) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١١٤٣/٢) وما بعدها .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٩/٥) .

زيادة الاهتمام بشأن الهدى؛ إذ جعل كالشيء المشاهد الذي يشار إليه؛ فزيد باسم الإشارة كمال تمييز[1] . كما أن الإشارة إليه بالاسم الذي يشار به إلى البعيد فيه تعظيم لشأنه وبيان لكماله وبعد منزلته[2] .

وأضيف الهدى لله وفي هذا ـ والله أعلم ـ تشريف له[3]، وبيان عصمته من الخطأ والضلال والنقص؛ لأنه هدى الله المستجمع لصفات الكمال كلها[4]. وفي هذه الإضافة تعريض بما عليه المشركون مما يزعمونه هدى، ويتلقونه عن كبرائهم؛ أمثال عمرو بن لُحي الذي وضع لهم عبادة الأصنام، وعن غيرهم من الكهان وأضرابهم[5]. فنيل من معتقدات المشركين الباطلة بأسلوب التعريض الذي هو أبلغ من التصريح في مثل هذا المقام؛ فبعد أن قص ـ سبحانه وتعالى ـ خبر إبراهيم مع قومه، وفصل في ذلك، وبين فضله على عباده الذين هدى..، أشار إلى أن ما كانوا عليه من هدى؛ وهو "معرفة التوحيد وتنزيه الله عن الشرك؛ لأنه قال بعد: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾"[6]؛ أنه هو الهدى، ففهم منه أن ما سواه باطل، وكان لتسخير التعريض للنيل من معتقداتهم بعد تلك الرحلة الإيمانية المليئة بمواطن التأمل والتفكر والعبر خصوصية وميزة على التصريح؛ إذ لو صرح بحقيقة ما يعبده المشركون وبطلانه، لتحامى المشركون وهبوا لينافحوا عن معتقداتهم بلا وعي منهم وبلا تفكير، ويعرضون بهذا الفعل عن النظر في الحق الذي سيق إليهم .

قوله: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ يلحظ في النظم القرآني إسناد الهداية لله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وتعليقها بالمشيئة الإلهية؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الهادي،

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٥٠/٧) وما بعدها .
(٢) ينظر : نظم الدرر (١٨٠/٧) .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٩/٣) .
(٤) ينظر : نظم الدرر (١٨٠/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٥١/٧) .
(٥) التحرير والتنوير (٣٥١/٧) بتصرف .
(٦) التفسير الكبير (٥٤/٥) .

والهداية إنما تطلب منه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وإن لم يهد ـ جل وعلا ـ فلا هادي غيره[(١)].
وفي تعليق الهداية بالمشيئة نقض لمعتقد من معتقدات المعتزلة؛ فهم يقولون إن الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا[(٢)].

وفي تعليق الهداية ـ أيضاً ـ بالمشيئة ـ أو بالموصول ـ؛ إشارة إلى علية مضمون الصلة، وهذا يفيد بأنه ـ جل وعلا ـ متفضل بالهداية[(٣)].

وفي قوله: (مَن يَشَاءُ) من الإ ام ما يبعث النفوس على تطلّب هدى الله ـ تعالى ـ والتعرض لنفحاته، وفيه تعريض بالمشركين الذين أنكروا نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسداً؛ ولذلك أعقبه بقوله: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تفظيعاً لأمر الشرك، وأنه ذنب عظيم لا يغتفر لأحد ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغاً عظيماً مثل هؤلاء المعدودين المنوه م[(٤)].

ومن اللطائف البلاغية في الآية: تعدية الفعل "حبط" بحرف الجر "عن"؛ وهو فعل لازم لا يتعدى؛ ولعل هذا للإشارة إلى أن الأعمال التي يعملها الإنسان من شأ ا أن تكون درعاً يحميه، ووقاية يتقي ا ضربات الحياة، أما أعمال المشركين فإ ا سراب خادع، يتخلى عنهم وقت الحاجة والشدة، وهذا المعنى ـ أيضاً ـ من إيحاءات تضمين معنى "حبط" تخلى، أو ذهب، أو غاب.. ونحو ذلك[(٥)].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٣٠/٢) .
(٢) ينظر : تفسير النسفي (٢٢/٢) .
(٣) ينظر : روح المعاني (٢٠٤/٤) .
(٤) التحرير والتنوير (٣٥٠/٧) بتصرف .
(٥) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٣٢/٢) .

الفصل الخامس

خصائص البديع

١- البديع المعنوي

٢- البديع اللفظي

٣- الفاصلة القرآنية

خصائص البديع

البديع لغة: يقال: بدع الشيء أنشأه وبدأه. والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً، وفي القرآن: قال تعالى: (قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ) [الأحقاف:٩]، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال سابق. والبديع: المُحدث العجيب. والبديع من أسماء الله ـ تعالى ـ؛ لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها لا على مثال سابق(١).

و البديع في مصطلح البلغاء عرفه الخطيب القزويني بقوله: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"(٢).

وقوله: "بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال؛ إشارة إلى رعاية ما يجب اعتباره من علم المعاني من مطابقة الكلام لمقتضى الحال،... وقوله: "وضوح الدلالة"؛ إشارة إلى ما يجب اعتباره من علم البيان"(٣).

وقسمت المحسنات البديعية قسمين (٤) :

الأول : المحسنات المعنوية .

الثاني : المحسنات اللفظية.

وقيل محسنات معنوية؛ لأن تحسين المعنى يأتي فيها قصداً، بينما تحسين اللفظ فيأتي فيها عرضاً. والمحسنات اللفظية نسبة للفظ؛ لأن تحسينه يأتي قصداً، وإن تبع ذلك تحسين المعنى؛ لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعاً(٥).

والذي ينبغي الإشارة إليه أن ما يشعر به القارئ من جمال لفظي حيناً ومعنوي حيناً آخر في النظم القرآني، لم يأت إلا من أن اللفظة القرآنية قد استدعاها المقام المعنى، ولم

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (بدع).

(٢) الإيضاح (٣٠٠) .

(٣) ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. ضمن شروح التلخيص (٢٨٣/٤).

(٤) ينظر : الإيضاح (٣٠٠) .

(٥) ينظر : مواهب الفتاح. ضمن شروح التلخيص (٢٨٥/٤) .

يكن ثمة لفظة أخرى تغني غناءها، فلما استقرت في مكا ا زاد ا الكلام إشراقاً، والمعنى وضوحاً وجلاء[١].

فالتحسين اللفظي لذات التحسين، لا يمكن أن يظن انتظامه في القرآن الكريم، بل إن المحسنات اللفظية في النظم القرآني لها مكانتها الخاصة؛ فهي تأتي بما فيها من حسن وفق ما يقتضيه المقام؛ لإضفاء مزيد حسن على المعنى المراد، وجذب الانتباه إليه بصورة لا يوجد ما هو أبلغ منها.

ثم إن بلاغة المحسنات اللفظية في النظم القرآني، ليست لفظية مجردة من الحُسن المعنوي..!، إنما يمتزج فيها الحُسنان (اللفظي والمعنوي)؛ لكن قيل: "لفظية"؛ لأن اللفظ الحسن سخر لتحسين المعنى.

وفي هذا الفصل ـ بإذن الله ـ سأورد بعضاً مما تيسر من شواهد المحسنات البديعية بنوعيها (المعنوي واللفظي). وسأحاول تلمس جانب من إسهاما ا في تأدية المعنى المراد.

---

(١) ينظر : من بلاغة القرآن (١٨٦) .

المبحث الأول

البديع المعنوي

- الطباق
- المقابلة
- مراعاة النظير
- المشاكلة
- التقسيم

الطبـاق

في اللغة: جاء في لسان العرب في مادة "طبق" :الطبق: غطاء كل شيء. وطَبق كل شيء: ما ساواه، وتطابق الشيئان: تساويا. والمطابقة: الموافقة. وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذْو واحد وألزقتهما(١).

وفي البلاغة: "الجمع بين المتضادين؛ أي متقابلين في الجملة"(٢).

وقد كثرت وتنوعت صور الطباق في كتاب الله ـ جل وعلا ـ؛ وهي صور منتزعة من الطبيعة؛ والطبيعة كلها صور متقابلة؛ أرض وسماء، ليل و ار، خصب وجدب، صلابة وليونة، حياة وموت... وغيرها من الصور المتقابلة التي لا تكاد تطرق الأسماع إلا وتوقعت الآذان أن تسمع تلك الصورة المقابلة المتوقعة، والتفتت البصائر والأبصار إلى ما يثبت تلك الصورة المرتسمة أمام الأعين، وعلى صفحات القلوب، حتى ينجلي الفرق واضحاً بين الصورتين، وبضدها تتميز الأشياء(٣).

ومن شواهد "الطباق" في آيات العقيدة في سورة الأنعام؛ قوله تعالى :

(وَهُوَ اللّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) [الأنعام:٣].

في مناسبة الآية لما قبلها، قال أبو حيان: "لما تقدم ما يدل على القدرة التامة والاختيار، ذكر ما يدل على العلم التام؛ فكان في التنبيه على هذه الأوصاف دلالة على كونه ـ تعالى ـ قادراً مختاراً عالماً بالكليات والجزئيات، وإبطالاً لشبه منكر المعاد."(٤).

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (طبق) .

(٢) الإيضاح (٣٠٠) .

(٣) ينظر : الصورة الأدبية في القرآن الكريم (١٣٥-١٣٦) .

(٤) البحر المحيط (٧١/٤-٧٢) .

والآية عطف على قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]؛ لما بينهما من تناسب؛ أي: خلقكم ولم يهمل مراقبتكم، فهو يعلم أحوالكم كلها[١].

واجتمع فيها شاهدن للطباق؛ الأول في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ﴾. وقبل الوقوف على الشاهد، تحسن الإشارة إلى أن معنى الآية قد أشكل على كثير من المفسرين، ومما قالوه في تفسيرها:

١- ما نقله البغوي عن الزجاج؛ من أن نظم الآية "فيه تقديم وتأخير، وتقديره:وهو الله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾ في السموات والأرض، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾"[٢]. والذي يظهر أن هذا القول فيه تكلّف بين، والنظم القرآني م ه عنه.

٢- ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره؛ من "أن قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ كلام تام، ثم ابتداء وقال: ﴿فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾؛ والمعنى: إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم في السموات سرائر الملائكة، وفي الأرض يعلم سرائر الإنس والجن"[٣]. وخطأ ابن القيم هذا القول، وأشار إلى أنه غلط في فهم الآية، وتفسير لها بما لا يليق[٤].

٣- أن اسم الجلالة "الله" علم لرب العالمين، خالق السموات والأرض، وهذا ما كان يعرفه المشركون، كما كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، النافع، الضار...، وكل هذه الصفات الإلهية ـ وغيرها ـ مما يعترف به المشركون، تجتمع في اسم الجلالة "الله" الذي يدل على كمال اتصافه بكل ما وصف به من صفات إلهية. وعليه فإن معنى الآية: إنه الله ـ تعالى ـ المتصف ذه الصفات المعروف ا، والمعترف له ا في السموات والأرض، يعلم سركم وجهركم[٥]. قال

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٢/٦) .

(٢) معالم الت يل (٨٤/٢-٨٥) .

(٣) التفسير الكبير (٤٨٢/٤) .

(٤) ينظر : الضوء المنير (٨/٣) .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز (٥/٦-٦)، و: تفسير القرآن الحكيم (٢٩٩/٧).

ابن عطية: "وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازا لفصاحة اللفظ، وجزالة المعنى"[(١)].

٤- أن المعنى: هو إله السموات والأرض والمعبود فيهما؛ فمن في السموات، ومن في الأرض يعبده ويقر له بالإلهية. فاشتق من اسم الجلالة "الله" كلمة "الإله"؛ أي المألوه أو المعبود، وأستند في هذا إلى قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) [الزخرف:٨٤][(٢)]. وقال بهذا القول ابن القيم، وابن كثير، والسعدي[(٣)].

والشاهد في الآية المطابقة بين كلمتي (السَّمَوَاتِ) و (الأَرْضِ) ؛ فتلك السماء التي تعلو رؤوس الخلق، وتمتد إلى ما هو أبعد من مرأى البصر، والتي رفعت فوقهم بلا أعمدة..، هي بكل ما فيها من بديع خلق.. من صنعه ـ جل وعلا ـ، وهو الإله فيها؛ لأنه هو الذي خلقها. وذكر (السَّمَوَاتِ) لم يفرد في نظم الآية، بل أردف بذكر ما هو ضدها؛ وهو (الأَرْضِ)؛ للدلالة ـ والله أعلم ـ على كمال الألهية، ولترسيخ عظمته وجلاله ـ تعالى ـ في النفوس.

ومن أسرار التعبير في نظم الآية، والذي كان له أثر في إضفاء مزيد حسن على جملة الطباق؛ الإتيان بكلمة (السموات) مجموعة، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: وهو الله في السماء وفي الأرض، فيكون الطباق بين مفردين، لا بين جمع ومفرد. وفي مجيء التعبير القرآني على ما ذُكر، يقول ابن القيم ـ ما مفاده ـ: تأمل كيف أتت كلمة (السموات) مجموعة في هذه الآية، وأنت ـ إن تأملت ـ فستجد أن ذلك كان لحكمة ظاهرة؛ وهي: تعلق الظرف بما في اسمه ـ سبحانه وتعالى ـ من معنى الإلهية. فالمعنى: وهو

---

(١) المحرر الوجيز (٦/٦) .

(٢) ينظر : معالم التنزيل (٨٤/٢)، و: المحرر الوجيز (٥/٦)، و: تفسير القرآن العظيم (١١٧/٢)، و: تفسير القرآن الحكيم (٢٩٩/٧) .

(٣) ينظر : الضوء المنير (٨/٣)، و: تفسير القرآن العظيم (١١٧/٢)، و: تيسير الكريم الرحمن (٣٧٢/٣) .

الإله المعبود في كل واحدة من السموات؛ في كل واحدة من هذه الجنس، فذكر الجمع هنا؛ أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد[١]؛ لما فيه من تأكيد، ومزيد دلالة على كمال إلهيته ـ جل وعلا ـ ، ولما فيه من مزيد ترسيخ لعظمته في النفوس ـ والله أعلم ـ .

وشاهد الطباق الثاني في الآية في قوله تعالى: (يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ)؛ والجملة مقررة لمعنى جملة: "وَهُوَ اللَّهُ"؛ ولذا فصلت؛ لأ ا ت ل منها م لة التوكيد؛ لأن انفراده ـ جل وعلا ـ بالإلهية في السموات وفي الأرض مما يقتضي علمه بأحوال الموجودات الأرضية التي منها سر العباد وجهرهم[٢].

وفيها طوبق بين "السر" و "الجهر"؛ والسر: "هو الحديث المكْتم في النفس"[٣]. والجهر: ما يظهره الإنسان؛ فالسر من أعمال القلوب، والجهر من أعمال الجوارح[٤]. وهذه المطابقة فيها دلالة جلية على كمال علمه ـ جل وعلا ـ [٥].

والإنسان خلقه الله ـ جل وعلا ـ من طين، وتنقل به من خلق إلى خلق، حتى صار هذا الكائن البشري، العاقل، المدرك..، أفيخفى على الله ـ تعالى ـ من أمره شيء؟!. كيف وقد خلقه، ورباه، ونشأه، وأمسك عليه حياته، وعد عليه أنفاسه، وأحصى نبضات قلبه؟![٦].

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ)؛ أي إنه ـ تعالى ـ يعلم ما تعملون وتجرحون، فيحصيه عليكم؛ ليجازيكم به عند معادكم إليه[٧].

---

(١) ينظر : الضوء المنير (٨/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٣/٦) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (٢٢٨) .

(٤) ينظر : تفسير الخازن (١١٨/٢) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٤٨١/٤) .

(٦) التفسير القرآني للقرآن (١٢٩/٢) بتصرف.

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٩/٥) بتصرف .

ويلحظ في نظم الآية تخصيص الكسب بالذكر مع اندراجه في الجملة السابقة، وإعادة فعل العلم؛ وذلك ـ والله أعلم ـ لإظهار كمال الاعتناء به؛ لأنه الذي يتعلق به الجزاء[١].

وتذييل الآية بهذه الجملة فيه تأكيد لجملة الطباق، وللآية كلها، فالمعنى: إن الله ـ جل وعلا ـ لا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض[٢]، وفي هذا تحذير وزجر[٣]، وتعريض بالوعد والوعيد[٤]، وفيه استدعاء للإنسان الشارد عن الله ـ تعالى ـ ، الغافل عن ذكره، المستخف بشرائعه؛ أن يعود إلى الله ـ تعالى ـ وأن يخشاه، ويتقي محارمه؛ إذ الله المتصف بالكمال يرى كل ما يعمل، ويعلم ما يخفى وما يعلن[٥].

ومن شواهد الطباق ـ أيضاً ـ قوله تعالى:

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ) [الأنعام:١٧].

قال الفخر الرازي: "اعلم أن هذا دليل آخر في بيان أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله ولياً"[٦].

ومناسبة الآية لما قبلها أنه لما أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية؛ لأنها لم تخلق شيئاً، وأوجبت عبادة المستحق الإلهية بحق؛ أبطلت هذه الآية استحقاق الأصنام العبادة؛ لأنها لا تملك للناس ضراً ولا نفعاً[٧].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٩/٣) .
(٢) ينظر : تفسير الخازن (١١٨/٢) .
(٣) المحرر الوجيز (٦/٦) بتصرف .
(٤) التحرير والتنوير (١٣٣/٦) بتصرف .
(٥) التفسير القرآني للقرآن (١٢٩/٢) بتصرف .
(٦) التفسير الكبير (٤٩٤/٤) .
(٧) التحرير والتنوير (١٦٣/٦) بتصرف.

والخطاب في الآية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ [1]، ويندرج تحته كل من يسمع.

والشاهد في قوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ)، وقوله: (وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ)؛ فقد طوبق بين إمساسه ـ تعالى ـ العبد بالضر، وإمساسه إياه بالخير. و"الضر": الشدة في الدنيا، وشظف العيش وضيقه[2]. أو هو: "سوء الحال في الجسم ونحوه"[3]. قال أبو حيان: "والأحسن العموم في الضر من المرض والفقر وغير ذلك"[4].

والخير: الرخاء في العيش وسعة الرزق[5]. وقال الخازن في تفسيره: "الخير: اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك"[6].

والسر في هذه المطابقة ـ والله أعلم ـ أن الإنسان في حياته الدنيوية يتقلب بين ضر وخير، وإذا ثبت هذا الحصر، فقد بين الله ـ جل وعلا ـ أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يتأتى قليلها وكثيرها إلا بالله[7]؛ فإذا كان وحده النافع والضار، فهو وحده الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية[8].

وطوبق في التعبير القرآني بين "الضر" و "الخير"، بينما الضر ضد النفع، والشر ضد الخير، فعدل عن التعبير بالشر ـ مع أنه أعم من الضر ـ، وأنيب الضر منابه..، فما سر ذلك..؟!.

أرجع ابن عطية النكتة في هذا إلى فصاحة النظم القرآني؛ فالمطابقة بين الضر والخير عدول بالنظم عن التكلف والصنعة، إذ إن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/١٦٠) .
(٢) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .
(٣) المحرر الوجيز (٦/١٨) .
(٤) البحر المحيط (٤/٨٨) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/١٦٠) .
(٦) تفسير الخازن (٢/١٢٢).
(٧) ينظر : التفسير الكبير (٤/٤٩٤) .
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٢/٣٨١) بتصرف .

الشيء مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة؛ فالفصاحة هي التي دعت إلى هذا العدول(١).

لكن النكتة السابقة ـ إن صحت في هذا المقام ـ لا يمكن أن تنهض وحدها سبباً لذلك العدول. وأعمق منها ما أشار إليه أبو حيان في تفسيره؛ إذ قال: "وعدل عن الشر؛ لأن الشر أعم من الضر، فأتي بلفظ الضر الذي هو أخص، وبلفظ الخير الذي هو عام مقابل لخاص(٢) تغليبا لجهة الرحمة."(٣) فأقسى ما يصيب الإنسان من ضر هو لمسه..، محفوفة برحمة الله ـ تعالى ـ ولطفه..، ولولا ذلك لما احتملها أي بشر؛ فمن رحمته ـ جل وعلا ـ أن تقوم في كيان الإنسان مشاعر تستقبل هذا القضاء برضى، وتحتمله في صبر، حتى يأذن الله ـ تعالى ـ برفع هذا الضر وكشفه(٤).

ومن اللطائف البلاغية في جملتي الطباق؛ تقديم مس الضر على مس الخير في نظم الآية، ونكتة: التنبيه على أن جميع المضار التي تصيب الإنسان لا بد من أن يأتي عقيبها الخير والسلامة(٥). أو لأن المقام مقام ترهيب؛ إذ الآية تتصل بما قبلها(٦)؛ وهو قوله تعالى: (قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[الأنعام:١٥]؛ فيكون في تقديم الضر على الخير هنا ما يملأ قلب الإنسان خوفاً من الله، وتعلقاً به، واتجاهاً إليه؛ لأن الإنسان في حال الخير كثيراً ما يذهل عن الله، ويغفل عن ذكره..، لكنه في حال الشدة والضر يذكر الله ويهتف باسمه، ويمد يده إليه داعياً(٧).

وفي جانب الإمساس بالضر قال تعالى: (فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ)، وفي الإمساس بالخير قال: (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ). والتعبير بالقصر عن كشفه ـ تعالى ـ

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (١٨/٦) .

(٢) في الأصل: "مقابل لعام"، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) البحر المحيط (٨٨/٤) .

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٤٣/٢) بتصرف.

(٥) التفسير الكبير (٤٩٤/٤-٤٩٥) بتصرف.

(٦) ينظر : البحر المحيط (٨٨/٤)، و: نظم الدرر (٣٩/٧) .

(٧) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٤٣/٢).

الضر، للمبالغة في تأكيد استقلاله ـ جل وعلا ـ في كشف الضر[١]. أما العموم المتعلق بإمساس الخير؛ فللدلالة ـ والله أعلم ـ على قدرته ـ تعالى ـ على كل شيء؛ فيندرج فيه المس بخير أو غيره[٢]، فتكون جملة "فهو على كل شيء قدير" مقررة لمضمون الآية ومؤكدة لها.

وفي الآية تعريض بآلهة المشركين؛ إذ هي أصنام ذليلة مهينة لا تقدر على اجتلاب نفع لنفسها ولا لغيرها، ولا دفع ضر عنها ولا عن غيرها..، فكيف يعبد من كان حاله هكذا..؟. بل كيف لا تخلص العبادة، وتقر لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة..؟![٣].

ومن الشواهد قوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) [الأنعام:٤٧].

والآية تأتي في سياق يعرض للمشركين بأس الله ـ تعالى ـ الشديد، فبعد أن عرض ذلك البأس في ذوات أنفسهم؛ في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، وهم عاجزون عن رده، ولا يجدون إلهاً غير الله ـ تعالى ـ يرد عليهم ما أخذ منهم من سمع وبصر..؛ عرض هنا لذلك البأس في مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله، أو حين يواجههم[٤].

وشاهد الطباق في قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً). ومعنى الآية: قل ـ يا محمد ـ أعلمتم إن أتاكم عقاب الله تعالى بغتة أو جهرة

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٤/٨٨).

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/١٦٠) .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (٢/١٠٩٢) .

ـ بعد إعذره عليكم وإرساله الرسل لكم ـ على ما تشركون به من أوثان وأنداد، وعلى تكذيبكم إياي وقد عاينتم براهين قاطعة بصدقي.. [١].

والمطابقة بين كلمتي (بَغْتَةً) و (جَهْرَةً)؛ وبغتة: فجأة على غرة لا تشعرون به[٢]؛ وهو العذاب الذي يجيئهم دون أن تسبقه علامة تدل على مجيئه[٣]. وجهرة: أي وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه[٤]؛ وهو العذاب الذي تسبقه علامات تنبئ بمجيئه[٥].

ويلحظ في نظم الآية المطابقة بين البغتة والجهرة، مع أن الجهرة ضد الخفية، أو السر..، لكن لما كان العذاب الذي يأتي بغتة من غير سبق علامة تؤذن به..، يتضمن معنى الخفية، حسن مقابلته للجهرة[٦]. وقد حصل بجملة الطباق بيان أنه لا دافع لنوع من أنواع العذاب إلاّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولا جالب لخير من الخيرات إلا الله ـ سبحانه ـ ، فتعين بهذا أن يكون هو وحده المعبود بجميع أنواع العبادات[٧].

وقدمت البغتة على الجهرة، والسر في هذا ـ والله أعلم ـ؛ لأن ذكر البغتة أولاً يهز نفس المتلقي، ويجعلها تضطرب وتوجل؛ لأن وقعها أفظع وأهول على النفس، فيكون في هذا ردع لها عن غيها وغفلتها[٨].

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

قوله تعالى: (هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)؛ في الجملة خرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى النفي والإنكار، ولذا دخلت "إلا" على ما بعدها؛ والمعنى: ما يهلك إلا القوم

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥)، و: مجمع البيان (٤٦٩/٤) .
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥) بتصرف.
(٣) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٦/٣) .
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥) بتصرف .
(٥) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٦/٤) .
(٦) ينظر : الكشاف (١٤/٢)، و: البحر المحيط (١٣٢/٤)، و: حاشية زاده (١٦٦/٢).
(٧) ينظر : التفسير الكبير (٥٣٦/٤).
(٨) ينظر : البحر المحيط (١٣٢/٤)، و: إرشاد العقل السليم (١٣٥/٣) .

الظالمون[١]. وانفراد أبو السعود ـ على ما قرأت ـ بتوجيه الاستفهام هنا للتقرير؛ "أي قل لهم تقريراً لهم باختصاص الهلاك بهم أخبروني إن أتاكم عذابه ـ تعالى ـ حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم؛ أي هل يهلك غيركم ممن يستحقه."[٢].

وبني فعل الإهلاك للمجهول بقوله: (يُهۡلَكُ)، ولعل السر لأن المخوف منه هو الهلاك نفسه من غير نظر إلى تعيين فاعله[٣].

و (الظَّٰلِمُونَ)؛ هم المشركون الذين يعبدون من لا يستحق العبادة، ويتركون من يستحقها؛ وهو الله ـ تعالى ـ [٤]. وخرج الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر؛ بطريق الإظهار في مقام الإضمار، فمقتضى الظاهر أن يقال ـ في غير القرآن ـ: هل يهلك إلا أنتم، لكنه عدل عن هذا الأسلوب إلى ما أتى عليه النظم القرآني، ولعل نكتة هذا العدول التسجيل عليهم بالظلم، والإيذان بأنه هو مناط إهلاكهم وعلته [٥].

---

(١) ينظر : الكشاف (١٤/٢)، و: المحرر الوجيز (٥٣/٦)، و: البحر المحيط (١٣٢/٤)، و: الجواهر الحسان (٤٧٩/١).

(٢) إرشاد العقل السليم (١٣٥/٣) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (١١٩/٧) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٩٦/٥)، و: معالم التنزيل (٩٨/٢) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٣٢/٤)، و: إرشاد العقل السليم (١٣٥/٣)، و: التحرير والتنوير (٢٣٦/٦) .

المقابلة

في اللغة: الإقبال نقيض الإدبار. واستقبل الشيء وقابله: حاذاه بوجهه، ويقال: فلان قبالتي؛ أي مستقبلي[١].

وهي في البلاغة: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب"[٢].

وفرّق بعض البلاغيين بين الطباق والمقابلة، وفي ذلك قالوا [٣]:

١- الطباق لا يكون إلا بين ضدين، أما المقابلة فتكون بالجمع بين ضدين فصاعداً.

٢- الطباق لا يكون إلا بالأضداد (الليل والنهار، البياض والسواد)، أما المقابلة فتكون بالأضداد وغيرها.

ومن وجوه الاتفاق بينهما: البلاغة؛ إذ إن بلاغة الطباق هي نفسها بلاغة المقابلة، مع الأخذ في الحسبان طبيعة كُل منهما.

ولهذا المحسن المعنوي شاهد في قوله تعالى:

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [الأنعام:٣٥].

والآية تأتي في سياق تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يحزنه دوام ضلالهم شفقة عليهم؛ وقد سلاّه ـ تعالى ـ عن الحزن الأول بقوله: (فَإِنَّهُمْ

---

(١) ينظر: لسان العرب. مادة (قبل).

(٢) الإيضاح (٣٠٤).

(٣) ينظر: التناسب البياني في القرآن (١٣٣).

لاَ يُكَذِّبُونَكَ) [الأنعام:٣٣]، وسلاّه عن الثاني بقوله: (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...) الآية[١].

وشاهد المقابلة في قوله تعالى: (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ). والخطاب فيها للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبره بأنه إن كان شق عليك ـ يا محمد ـ إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم، فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض فتذهب فيه، أو مصعداً تصعد عليه كالدرج وما أشبهه، فتأتيهم ببرهان على صحة قولك غير الذي أتيتك، فافعل[٢].

والمراد من الآية ـ والله أعلم ـ بيان شدة حرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إيمان قومه[٣]، في حين أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبلغ، والله ـ تعالى ـ هو الهادي. وقد انتظمت الآية ببلاغة؛ لإظهار ذلك المعنى على أتم وجه؛ ومن أسرار التعبير فيها:

قوله تعالى: (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ)؛ الجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد وجوب الصبر المستفاد من التسلية؛ ببيان أن إعراضهم أمر لا محيد عنه ألبتة[٤].

وفي نظمها أتي بلفظ (كَانَ) مع استقامة المعنى ـ كما يظهر ـ بدو ا؛ ولعل السر في تقييد الجملة ا، ليبق الشرط على مضيه؛ لأن في "كان" من قوة الدلالة على المضي ما يمنع "إن" من قبلها للاستقبال.. بخلاف سائر الأفعال[٥].

ومما أوحى بحرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إيمان قومه؛ كلمة (كَبُرَ)، "ومعنى (كَبُرَ) هنا شق عليك، وأصله عظم الجثة، ثم استعمل مجازاً في الأمور العظيمة الثقيلة؛

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٩٩/٧)، و: التحرير والتنوير (٢٠٣/٦) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٢/٥) وما بعدها.

(٣) ينظر : الكشاف (١١/٢) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٨/٣) .

(٥) ينظر : الفتوحات الإلهية (٢٤/٢) .

لأن عظم الجثة يستلزم الثقل، ثم استعمل مجازاً في معنى (شقّ)؛ لأن الثقيل يشق حمله. فهو مجاز مرسل بلزومين"[١]. فكلمة (كَبُرَ) صورت معاناة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قومه، ونقلتها من حالتها المعنوية إلى الحسية.

وقُدم الجار والمجرور (عَلَيْكَ) على الفاعل، ولعل هذا أبلغ في تسليته ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لما يدل عليه التقديم من اهتمام بالمقدم، وحصل بالتقديم ـ أيضاً ـ التشويق للمؤخر وهو (إِعۡرَاضُهُمۡ) حتى إذا ذكر كان ذلك أوقع في نفس الملتقي[٢].

والمقابلة في قوله: (فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ)؛ فقد قوبل بين ابتغاء نفق في الأرض، وابتغاء سلم في السماء.

والتعبير بالابتغاء؛ للإيذان بأن ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه، فكيف باتخاذه..؟!. وفيه من الدلالة على المبالغة في حرصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إسلام قومه ما لا يخفى، حتى لو قدر أن يأتي من تحت الأرض، أو من فوق السماء بآية ترضيهم وتقنعهم بالإيمان لفعل[٣]. وفهمت الدلالة الأخيرة من كون "الابتغاء طلب ما في طلبه كلفة ومشقة، أو تجاوز للمعتاد أو الاعتدال، أو طلب غايات الأمور وأعاليها؛ لأنه افتعال من البغي، وهو تجاوز الحد في الطلب أو الحق."[٤].

والنفق: سرب في الأرض نافذ، مثل نافقاء اليربوع، وهي جحره[٥]. "والسلَم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية، فيرجى به السلامة"[٦].

وقيدت كلمتا (نَفَقٗا) و (سُلَّمٗا) بالوصف الذي نقلها من إطار الطباق إلى المقابلة؛ فقيل في وصف النفق: (فِي ٱلۡأَرۡضِ)؛ أي متغلغلاً، عميقاً. وقد أفاد هذا القيد إضافة إلى

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠٣/٦) .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٩/٣) .
(٣) ينظر : الفتوحات الإلهية (٢٤/٢) .
(٤) تفسير القرآن الحكيم (٣٨١/٧) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٣/٥) .
(٦) المفردات (٢٤١) .

المقابلة؛ المبالغة في الدلالة على العمق مع استحضار الحالة، وتصوير حالة الاستطاعة؛ إذ من المعلوم أن النفق لا يكون إلا في الأرض.

وفي وصف السلم قيل: (فِى السَّمَاءِ)؛ أي واصلاً إلى السماء، والمعنى تبلغ به إلى السماء[1].

ولعل تخصيص ابتغاء النفق في الأرض والسلم في السماء بالذكر؛ لأن المشركين طلبوا منه ذلك؛ كما قال تعالى حكاية عن قولهم: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا) [الإسراء:٩٠]، وقال: (أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ) [الإسراء:٩٣][2].

فهذه الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه، فإن استطاع أن يشق الأرض ويتغلغل في أعماقها، أو يرقى إلى السماء بسلم ليأتيهم بآية مقنعة... وليست هذه دعوة منه ـ جل وعلا ـ لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يفعل ذلك[3]، إنما المقصود ـ والله أعلم ـ أن يقطع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ طمعه عن إيمان مشركي قومه[4]. وللدلالة على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جنس البشر، وأن الرسالة لا تخرجه عن طور صفا م التي منها القدرة والاستطاعة على مالا يقدر عليه إلا الله ـ جل وعلا ـ كإنزال الآيات وهداية الناس؛ فالرسول لا يستطيع ابتغاء السبل للإتيان بآية في الأرض ولا في السماء، كما أن مشيئة الله ـ جل وعلا ـ لم تقتض أن يؤتيه ذلك[5].

ومن الإيجاز في الآية حذف جواب الشرط؛ والذي سوغ ذلك دلالة فعل الشرط عليه، وتقديره: فافعل؛ أي: فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلما في السماء

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٤/٦) وما بعدها .
(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٣٨١/٧) وما بعدها، و: التحرير والتنوير (٢٠٥/٦).
(٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٦٢/٢) وما بعدها.
(٤) ينظر : التفسير الكبير (٥٢٠/٤) .
(٥) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٢٨٣/٧) .

فتأتيهم بآية فأفعل[1]. وأفاد الشرط وجوابه ـ والله أعلم ـ التيئيس من إيمان كفار مكة؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقراً، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها[2].

وأتبع ما سبق بما يدل على تمام قدرته ـ جل وعلا ـ ونافذ مشيئته في خلقه؛ فقال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ)، وهذا شرط امتناعي دل على أن الله ـ جل وعلا ـ لم يشأ أن يجمعهم على الهدى، ولو شاء أن يجمعهم عليه لفعل، لكنه لم يفعل لسابق علمه في خلقه، ونافذ قضائه فيهم من قبل أن يخلقهم[3]، ولكنه أمرهم بالهدى، وترك لهم حرية الاختيار؛ إما الطاعة أو المعصية، وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف[4].

وفي الجملة إيجاز بالحذف؛ إذ حذف مفعول المشيئة؛ لوضوحه، والتقدير: لو شاء الله هدايتهم لجمعهم على الهدى[5].

وذيلت الآية بقوله تعالى: (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)؛ أي: لا تكونن ـ يا محمد ـ ممن لا يعلم أن الله ـ تعالى ـ لو شاء جمعهم على الهدى لفعل، وأن من يكفر من خلقه إنما يكفر لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختياراً لا اضطراراً، فإنك إذا علمت صحة ذلك، لم يكبر عليك إعراضهم ولا تكذيبهم[6]، وهذه فائدة جليلة للإيمان بالقضاء والقدر؛ إذ الرضى والتسليم بما قدر الله ـ تعالى ـ يورث الراحة النفسية.

---

(١) ينظر : معاني القرآن (٣٣١/١)، و: التحرير والتنوير (٣٠٥/٦) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٠٥/٦) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٤/٥)، و: التحرير والتنوير (٢٠٦/٦) .

(٤) في ظلال القرآن (١٠٧٨/٢) بتصرف.

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٥٢٠/٤) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٤/٥) .

ومن اللطائف البلاغية في الآية: تأكيد الكلام بنون التوكيد الثقيلة في قوله: (تَكُونَنَّ)؛ ليعلم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه ـ تعالى ـ قد قضى بافتراقهم، فيسكن إلى ذلك، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات[1].

وفي التعبير القرآني عدل عن الأمر بالعلم إلى النهي عن الجهل؛ ولعل ذلك لأن النهي عن الجهل يتضمن العلم، فيتقرر في الذهن مرتين؛ ولأن في النهي عن الجهل تحريضاً على استحضار العلم به[2].

ومن شواهد المقابلة قوله تعالى:

(قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) [الأنعام:١٠٤].

بعد أن أقيمت الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ في صفحة الوجود وفي مكنونات النفوس، وبعد أن أثبت أنه ـ سبحانه وتعالى ـ : (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:١٠٣]؛ ناسب أن يعقب على ذلك السياق بموعظة تؤثر فيهم، وتمدح الأدلة حثاً على تدبرها؛ فقال تعالى: (قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ...) الآية[3].

والشاهد في قوله تعالى: (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا)؛ فقد قوبل بين الإبصار واللام في (فَلِنَفْسِهِ)، وبين العمى وعلى في (فَعَلَيْهَا)؛ وهي مقابلة تعكس للمتلقي عاقبة الهدى والضلال، وأنها تعود لصاحبها إما إيجابياً (له)، أو سلباً (عليه). فمن تبين حجج الله ـ تعالى ـ وعرفها وآمن بما دلت عليه من توحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ،

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٧/١٠٠) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٦/٢٠٧) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٧/٢٢٢)، و: في ظلال القرآن (٢/١١٦٧) .

وصدق نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما جاء به، فلنفسه ما عمل، وخير ذلك يعود له. ومن لم يستدل بالآيات ويستبصر بما جاءت به، وعمي عن ذلك كله، فإلى نفسه أساء لا إلى غيرها[1].

ومزية المقابلة بين تلك الأضداد ـ والله أعلم ـ إعلاء شأن المنتفع بالآيات الذي يستبصر ا؛ لتدله على الصراط المستقيم، والإبانة عن فضله وشرفه، وحصل هذا من مقابلته بضده؛ وهو الذي يتعامى عن الآيات ولا يستبصر ا، فيلحق الضرر بنفسه جراء ذلك. فذكر هذه الصورة القبيحة التي تنفر من صاحبها حسن الأولى وأظهر مزيتها.

وقد ناسب التعبير بالإبصار والعمى ـ وهما استعارتان للهدى والضلال ـ[2] ما قبله؛ فقبله ذكرت البصائر، قال تعالى: (قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ)؛ وبصائر: جمع بصيرة وهي الحجة؛ أي الحجج البينة الظاهرة التي تبصرون ا الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر[3].

وإسناد ا يء إلى البصائر مجاز عقلي؛ وفي هذا التعبير تفخيم من شأ ا؛ إذ أوحى أ ا بم لة الغائب المنتظر والمتوقع حضوره[4]، وفيه ترغيب في النظر والاستبصار ا؛ فها هي جاءت فأقبلوا عليها واحتفوا ا وانتفعوا بما فيها.

وفي التعبير عن الحجج بالبصائر فيه دلالة قوية على وضوحها، وفيه تعظيم لها وتشريف؛ إذ جعلت وسيلة للاهتداء ـ بإذن الله ـ ، من استبصر ا خرج من الظلمات إلى النور، ومن تعامى عنها وأعرض خسر الدنيا والآخرة، وفيه ـ أيضاً ـ ترغيب ا.

ولم تقف البلاغة القرآنية عند الترغيب بالانتفاع بالحجج والاستدلال ا على توحيد الله ـ تعالى ـ وصدق نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما معه من كتاب عند التعبير عنها بالبصائر، وإسناد ا يء إليها، بل زيد على ذلك حين أُشير إلى مصدرها بقوله تعالى: (مِن

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٩/٥) .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (١٢٤/٦)، و: التحرير والتنوير (٤١٩/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٩/٥) .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .

رَّبِّكُمۡ)؛ فقد أظهر التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين كمال اللطف م والإحسان إليهم[١].

وفي الآية دلالة على أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ولم يقصر في تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها[٢].

ومن المحسنات البديعية في الآية: ما بين كلمتي (بَصَآئِرُ) و (أَبۡصَرَ) من محسن لفظي؛ وهو جناس اشتقاق[٣]. ومزية هذا المُحسن إضافة إلى ما فيه من حسن لفظي، أنه يوحي بأن ذلك الإبصار ـ أو الاهتداء ـ الذي يتمتع به المؤمن، قد ناله واقتبسه ـ بعد هداية الله تعالى له ـ من تلك البصائر النيرة التي دي ـ بإذن الله ـ من رام الهدى بالنظر فيها.

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَمَا أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ)؛ أي: وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم أعمالكم، إنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله ـ تعالى ـ هو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم[٤].

ومن اللطائف البلاغية في الآية: تقديم (عَلَيۡكُم) على (بِحَفِيظٍ)، ولعل هذا للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر، ولرعاية الفاصلة[٥]. وأكد النفي في الجملة بالإتيان بالباء في قوله: (بِحَفِيظٍ)[٦].

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (٣/١٧٠) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٥/١٠٤) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٧/٤٢٠) .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٢٩٩) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٧/٤٢١) .

(٦) ينظر : نظم الدرر (٧/٢٢٣) .

مراعاة النظير

الجمع بين الكلمات المتناسبة، أو المعاني المتقاربة، أو بين الكلمات والمعاني المتآلفة، سواء كان الكلام شعراً أم نثراً.. من المحسنات البديعية المعنوية، وهو المسمى مراعاة النظير[(١)].

ومن مراعاة النظير: "تشابه الأطراف"؛ وهو: أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى[(٢)].

وكون "مراعاة النظير" محسناً بديعياً؛ لا يعني هذا، أنه نافلة أو حلية يمكن الاستغناء عنها..، إنما هو عنصر أساس في مكونات البلاغة في أصل تعريفها، ثم إن له مساساً بالفصاحة في شروطها، وعناصر تكوينها..؛ لذا فإن الكلام الذي يجنح عن هذا الصراط، يفقد صلته بالبلاغة، وينظر إليه على أنه أقل الكلام شأناً..![(٣)].

وهذا النوع من المحسنات البديعية تألق حسنه في النظم القرآني، حتى كان آخر آية ـ من آيات القرآن الكريم ـ امتداداً بليغاً لمعناها كله..؛ بلاغة أخرست لسان كل فصيح..!.

ومن شواهد "مراعاة النظير" في آيات العقيدة في سورة الأنعام؛ قوله تعالى:

(لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ) [الأنعام:١٠٣].

والآية تأتي في سياق بسط فيه تنزيه الله ـ تعالى ـ، فبعد أن نزه ـ سبحانه ـ عن الولد والشريك، وصل بذلك من وصفه ما اقتضاه المقام من تنزيهه[(٤)]؛ فقال: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ).

---

(١) ينظر: الإيضاح (٣٠٥)، و: البلاغة في ثوبها الجديد (٦٥/٣) .

(٢) ينظر: الإيضاح (٣٠٦) .

(٣) ينظر :البلاغة في ثوبها الجديد (٧٦/٣) .

(٤) نظم الدرر (٢١٩/٧) .

والجملة ابتدائية، سيقت لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه، فلعظمته جل عن أن يحيط به شيء من أبصار المخلوقين، وذلك تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام؛ فهي مدركة بالأبصار، وهذا لا يليق بالإلهية، ولو كانت آلهة لكانت محتجة عن الأبصار، وكذلك الكواكب التي عبدها بعض العرب، وأما الجن والملائكة ـ وقد عبدوهما ـ فإ ما وإن كانا غير مدركين بالأبصار في كل الأوقات ـ كما هو متعارف لدى كل الناس ـ إلا أن المشركين يزعمون أن الجن تبدو لهم تارات في الفيافي وغيرها. ويتوهمون أن الملائكة يظهرون لبعض الناس، يتلقون ذلك عن اليهود..![(١)].

"وتمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع؛ وهم الخوارج، والمعتزلة، وبعض المرجئة، وقالوا إن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً؛ لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه، وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار، وهذا يفيد العموم."[(٢)].

ونقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: "أنا التزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله، إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها."[(٣)].

وقد كان للدقة في الألفاظ القرآنية، وكذا موقع المحسنات البلاغية ـ في هذا المقام ـ إسهام بين في تجليه المعنى المراد؛ فالمقام ـ أولاً ـ مقام تـ يه وتعظيم وتمدح؛ فهذه الآية: (لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) إنما سيقت للتمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب ـ تبارك وتعالى ـ بالعدم إذا تضمن أمراً وجودياً؛ كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٤١٣/٧-٤١٤) .

(٢) تفسير الخازن (١٦٦/٢) .

(٣) الضوء المنير على التفسير (٦٩/٣) .

ربوبيته وإلهيته وقهره... وغيرها؛ ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً؛ فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه. فلو كان المراد بقوله: (لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) أنه لا يرى بحال؛ لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك؛ فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب ـ جل جلاله ـ يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض[١].

ثانياً: الدقة في اصطفاء الكلمة القرآنية؛ فقد اصطفيت كلمة (تُدْرِكُهُ) دون غيرها؛ ككلمة "تراه". وبيان ذلك: أن من يرجع إلى معنى "الدرك"، يجد أنه بمعنى: اللحاق؛ يقال: تدارك القوم إذا أدرك بعضهم بعضاً، وفي التنزيل قوله تعالى: (لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ)[طه:٧٧]؛ أي: لا تخاف أن يدركك فرعون ولا تخشاه. والدرك: أقصى قعر الشيء[٢]. "ففي الإدراك معنى اللحوق ومعنى بلوغ غاية الشيء. ومن هنا فسر الجمهور الإدراك في الآية برؤية الإحاطة"[٣].

قال ابن تيمية: "والآية تنفي الإدراك مطلقاً دون الرؤية كما قال ابن كلاب، وهذا أصح. وحينئذ، ...تكون الآية دالة على إثبات الرؤية؛ وهو أنه يرى ولا يدرك؛ فيرى من غير إحاطة ولا حصر، وبهذا يحصل المدح؛ فإنه وصف لعظمته أنه لا تدركه أبصار العباد وإن رأته، وهو يدرك أبصارهم. قال ابن عباس... لمن عارض بهذه الآية: "ألست ترى السماء؟"، قال: "بلى"، قال: "أفكلها ترى؟"."[٤].

فالإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية[٥]؛ قال ابن عباس: (لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ): لا يحيط بصر أحد بالملك. وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال عطية في قوله تعالى:

---

(١) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٦٩/٣) .

(٢) ينظر : لسان العرب . مادة (درك) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٦٥٢/٧) .

(٤) مجموعة الفتاوى (٥٩/١٦-٦٠) .

(٥) ينظر : الضوء المنير (٧٠/٣) .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:٢٢-٢٣]؛ قال:هم ينظرون إلى الله ـ تعالى ـ ، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط م، فذلك قوله: (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) الآية[١]. فالمؤمنون يرون ر م ـ يوم القيامة ـ بأبصارهم عياناً، ولا تدركه أبصارهم؛ بمعنى: لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله ـ عز وجل ـ بأن شيئاً يحيط به وهو بكل شيء محيط[٢].

ورؤية الله ـ جل وعلا ـ في الدنيا مستحيلة؛ لقوله تعالى لموسى وقد طلب رؤية الله: (لَن تَرَانِي)[الأعراف:١٤٣]، أما رؤيته ـ سبحانه وتعالى ـ في الآخرة، فثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف. من ذلك قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال للكفار: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) [المطففين:١٥] ، فلما حجب الفجار عن رؤيته، دل على أن الأبرار يرونه، وإلا لم يكن بينهما فرق..!.

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته"[٣]. وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ ليس كمثله شيء. وأجمع السلف على رؤية المؤمنين لله ـ تعالى ـ دون الكفار بدليل الآية الثانية؛ فالمؤمنون يرون الله ـ تعالى ـ ، في عرصات القيامة وبعد دخول الجنة كما يشاء الله ـ تعالى ـ ، وهي رؤية حقيقية تليق به ـ سبحانه وتعالى ـ [٤].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٤/٥) بتصرف .

(٢) الضوء المنير (٧٠/٣) بتصرف .

(٣) رواه البخاري في صحيحه. كتاب: التوحيد. باب: قول الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:٢٢-٢٣]. (١٤١٦)، حديث رقم: (٧٤٣٤). ومعنى: "لا تضامون": "أي لا يلحقكم ضيم في رؤيته، كما يلحق الناس عند رؤية الشيء الحسن كالهلال، فإنه قد يلحقهم ضيم في طلب رؤيته حين يرى، وهو ـ سبحانه ـ يتجلى تجلياً ظاهراً، فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيم يلحقهم في رؤيته." مجموعة الفتاوى (٥٨/١٦) .

(٤) شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (٥٥-٥٦) بتصرف.

ومن المحسنات البديعية التي ظهرت في الآية، وأسهمت في تعظيم الله ـ تعالى ـ؛ طباق السلب الذي انتظم في قوله تعالى: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ)؛ فقد طوبق سلباً بين عدم إدراك الأبصار لله ـ تعالى ـ، وبين إدراكه ـ جل وعلا ـ للأبصار. ودعا ابن القيم إلى تأمل حسن الطباق هنا؛ فقال: "وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى، بين قوله: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ)؛ فإنه ـ سبحانه ـ لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه، فهو: العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير."[(١)].

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ)؛ وختمها بهذين الوصفين، يكشف عن بلاغة يعجز عن إدراك جزء منها بلغاء العرب المفوهون..!؛ فقد ختمت بما يناسب أولها؛ وهذا من "تشابه الأطراف". فـ(ٱللَّطِيفُ) يناسب قوله: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ)، و(ٱلۡخَبِيرُ) يناسب قوله: (وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ).

و(ٱللَّطِيفُ) صفة من صفات الله ـ تعالى ـ؛ وهي صفة تدل على تنزيهه عن إحاطة العقول به، أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته[(٢)]. قال الطبري: "لطف بقدرته، فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه"[(٣)]. وعليه فإن اختيارها للتعبير عن هذا الوصف في جانب الله ـ تعالى ـ هو منتهى البلاغة والرشاقة في الكلمة. وبهذا فهي أعم من مدلول جملة: (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ)، فيكون الوصف قبلها قد زاد تمكناً بها[(٤)].

---

(١) الضوء المنير (٧١/٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٤١٧/٧) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٩/٥) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٤١٧/٧) .

و(الْخَبِيرُ) صفة أخرى له ـ جل وعلا ـ ؛ بمعنى العليم[١]. وناسب الختم ا قوله: (وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ)؛ أي هو الخبير بدقائق الأشياء ولطائفها، فلا يعزب عن إدراكه ألطف الأشياء ولا أدقها[٢].

ومن شواهد مراعاة النظير قوله تعالى :

(قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام:١٤٩].

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ)[الأنعام:١٤٨]؛ أنه لما انتفى أن يكون لدى المشركين أدنى علم، أو حجة تثبت أن ما هم عليه من معتقد فاسد إنما هو من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ثبت أنه ـ جل وعلا ـ هو المختص بالحجة الواضحة، فقال: (قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) [٣].

وافتتحت الآية بتكرار الأمر بالقول، بجرسها القوي الذي يهز المتلقي، ولعل ذلك لاسترعاء والأسماع لما سيرد بعد الفعل: (قُلْ)[٤].

والمعنى: قل لهم إن عجزوا عن إقامة الحجة عند قيلك لهم: (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ) بما تدعون على ربكم (فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)،ـ وهم لا شك عن ذلك عجزة ـ إن الله

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩٩/٥) .
(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٥٣/٧) .
(٣) ينظر : نظم الدرر (٣١٣/٧)، و: تفسير القرآن الحكيم (١٧٧/٨) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٨) .

الذي حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً، وأن تتبعوا خطوات الشيطان في أموالكم من الحروث والأنعام له الحجة البالغة دونكم المشركون[١].

وقد أسهم تقديم الجار والمجرور: (لِلَّهِ) على المبتدأ في تأكيد المعنى المراد؛ إذ أفاد هذا التقديم الاختصاص؛ أي: لله الحجة البالغة، لا لكم[٢]. وحسن هذا الأسلوب يكمن في قيام جملة واحدة مقام جملتين، مع ما فيها من إيجاز وتأكيد.

والحجة: "الدلالة المُبينة للمحجة؛ أي المقصد المستقيم، والذي يقتضي صحة أحد النقيضين[٣]".

وقيدت الجملة بالصفة بقوله: (الْبَالِغَةُ)؛ ولعل هذا للتأكيد؛ أي أن حجة الله ـ تعالى ـ على خلقه؛ هي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة في الدلالة على الحق، والتي تقطع عذر كل محجوج..، ولا عجب في ذلك؛ إذ إنها حجة الله العظيم ـ عز وجل ـ المتصف بكامل القدرة، وكامل العلم[٤].

وحجة الله ـ تعالى ـ عليهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب معهم، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وبإعطائهم الأسماع والأبصار والعقول، وبذلك ثبتت حجته البالغة عليهم، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه والتي احتجوا بها عناداً ومكابرة، قال تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) [الأنعام:١٤٨][٥].

وشاهد مراعاة النظير؛ هو ما في الآية من "تشابه الأطراف"، فقد بدا في مناسبة آخر الآية، وهو قوله تعالى: (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) لأولها؛ وبيان هذا أن جملة "فلو شاء لهداكم أجمعين" تضمنت أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٨٨/٥) .
(٢) ينظر : نظم الدرر (٣١٣/٧)، و: التحرير والتنوير (١٥١/٨) .
(٣) المفردات (١٠٧) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٢٨/٧)، و: أنوار التنزيل (٤٦٣/٢)، و: نظم الدرر (٣١٣/٧) .
(٥) ينظر : معالم التنزيل (١٤٠/٢)، و: الضوء المنير (١٠٩/٣)، و: نظم الدرر (٣١٣/٧) .

غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهاً غيره، فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله ـ تعالى ـ ، وأن كل شيء ما خلا الله باطل؛ فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد، فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله ـ جل وعلا ـ هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة[1]. فآخر الآية ـ كما اتضح ـ انتظم ببلاغة لفظاً ومعنى، فكان امتداداً محكماً متناسباً مع أولها.

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

تقييد الجملة بالشرط؛ قال تعالى: (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)؛ وقيدت بـ(لو) دون غيرها، لما تحمله من دلالة؛ فـ(لو) إذا دخلت على الفعل المثبت نفته؛ فالله ـ جل وعلا ـ لما قال: (فَلَوْ شَاءَ)، لم يكن الواقع أنه ـ تعالى ـ شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت. وفي هذا إبطال لمعتقد المعتزلة القائل: بإن الله ـ تعالى ـ شاء الهداية من الناس أجمعين، لكنها لم تقع من أكثرهم. ففي الآية إبطال لمزاعم طائفتين من أهل البدع الأولى: المُجبرة، والثانية: المعتزلة؛ فأول الآية رد على المجبرة الذين يحتجون بالقدر على فعل الشر. وآخرها نقض لمعتقد المعتزلة الذي يزعمون فيه أن الله ـ تعالى ـ ليس له مشيئة على فعل القبيح[2].

ومذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد، وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً والمصلي مصليا، والمتقي متقياً، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وأئمة الضلالة يدعون إلى النار، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها، وأنه يهدي من يشاء بفضله ورحمته ويضل من يشاء بعدله وحكمته. وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه، ولو شاء لخذلهم بحكمته فعصوه، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم، فكفروا به، ولو شاء لوفقهم، فآمنوا به وأطاعوه، وأنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا

---

(١) الضوء المنير (١٠٩/٣) بتصرف .

(٢) ينظر : الانتصاف. حاشية الكشاف (٤٧/٢) .

هادي له، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً إيماناً يثابون عليه، ويقبل منهم ويرضى به عنهم[١].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

تقييد الجملة بالتوكيد اللفظي (أَجْمَعِينَ) من قوله تعالى: (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)، ولعل الغرض منه ترسيخ المعنى في ذهن السامع، مع ما في هذه الكلمة من شمول فالله "سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ولكن حكمته تأبى ذلك"[٢].

---

(١) طريق الهجرتين (٨٩-٩٠) بتصرف.

(٢) الضوء المنير (١٠٧/٣) .

المشاكلة

لغة: الشكل: الشبه والمثل، وتشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه. والمشاكلة: الموافقة، والتشاكل مثله .[١]

وفي البلاغة: "ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً.".[٢]

و للمشاكلة أغراض بلاغية يكشفها السياق، وهي تختلف من مقام إلى آخر، ومن يستقرئ شواهدها في النثر والشعر، يجدها في كل المقامات، تؤدي غرضاً بارزاً يتمثل في جذب انتباه السامع، واستثارة ذهنه، للنظر في الكلام والتعرف على مغزى قائله.

ومن شواهد "المشاكلة" في آيات العقيدة في سورة الأنعام؛ قوله تعالى:

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) [الأنعام:١٥٠].

مناسبة الآية لما قبلها؛ وهو قوله تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...) [الأنعام:١٤٨]؛ أنه ـ تعالى ـ لما أبطل على الكفار جميع أنواع حججهم، بين أنه ليس لهم على قولهم شهود إلا متخرصيهم..![٣]

فالله ـ تعالى ـ يوجه رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع، وهي مواجهة فاصلة. ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير خافية..؛ إن هذا الدين يسوي بين الشرك العقدي باتخاذ آلهة أخرى مع الله، وبين الشرك

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (شكل).

(٢) الإيضاح (٣٠٨) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير (١٧٦/٥)، و: نظم الدرر (٣١٤/٧) ،

الآخر الذي يتمثل في مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله، كما يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأ م يكذبون بآيات الله، ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بر م يعدلون..، وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية من هذه السورة وصفاً للذين كفروا: (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [الأنعام:١] .(١)

وشاهد المشاكلة في قوله تعالى: (فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ)؛ فقد أقيم قوله تعالى: (فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ) مقام: فلا تصدقهم، أو فلا توافقهم، أو لا تسلم لهم(٢)؛ لتشاكل قوله: (فَإِن شَهِدُواْ). والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر؛ فمن المشاهدة بالبصر قوله تعالى: (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) [الزخرف:١٩]، ومن المشاهدة بالبصيرة قوله تعالى: (مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ) [الكهف:٥١]؛ أي ما جعلتهم ممن اطلعوا ببصيرتهم على خلقها.(٣)

والمعنى: فإن جاءوك ـ يا محمد ـ بشهداء يشهدون أن الله ـ تعالى ـ حرم ما يزعمون من أنعام، فلا تصدقهم؛ فإ م كذبة وشهود زور في شهاد م.(٤)

والسر في هذه المشاكلة ـ والله أعلم ـ؛ التنبيه على عظم ما افتروا به على الله ـ تعالى ـ، وأن تصديقهم في ذلك الافتراء، أو التسليم لهم بصحته، أو عدم تكذيبهم، يجعل صاحبه ينتظم في صفهم كأنه منهم، وكأنه شهد معهم (٥)،والقرينة حالية؛ إذ لا يظن أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيشهد معهم بمثل ما قالوا. فمعنى (فَلاَ تَشْهَدْ)؛ أي لا تصدقهم، بل كذ م.

ومن أسرار التعبير البلاغية في الآية:

---

(١) في ظلال القرآن (١٢٢٨/٣) بتصرف.

(٢) ينظر : الكشاف (٤٧/٢)، و: البحر المحيط (٢٤٨/٤) .

(٣) المفردات (٢٦٨) بتصرف .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٣٨٩/٥) .

(٥) ينظر : الكشاف (٤٧/٢).

قوله تعالى: (قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا)؛ فقد أتي بكلمة (شُهَدَآءَكُمُ) معرفة بإضافتها إلى ضمير المخاطبين؛ وهم المشركون، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: هلم شهداء يشهدون؛ ولعل السر في هذا، الإشارة إلى أن ما لدى الكفار من شهداء، هم شهداء تم إعدادهم مسبقاً بما تشتهي نفوسهم، فالكفار يثقون م، ويعتضدون بشهاد م، فلذا أضيفت كلمة "شهداء" إلى ضمير الكفار.(١)

ووصف الشهداء بالموصول: (ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ...)؛ لزيادة تقرير معنى إعداد أمثالهم للشهادة،(٢)، فهم مؤمنون بالشهادة لهم وبنصرة دعاواهم الكاذبة.(٣)

وعطف على النهي عن تصديقهم، النهي عن اتباع أهوائهم بقوله: (وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا)(٤)؛ لما بينهما من تناسب؛ إذ كلاهما جملة إنشائية.

وفي نظم الآية خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ بطريق وضع المظهر موضع المضمر؛ وكان لهذا الأسلوب دلالاته؛ منها: إفادة التعميم، وتعليق الحكم بالوصف دلالة على أن من كذب بآيات الله ـ تعالى ـ ، وعدل به عن غيره، فهو متبع للهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله ـ جل وعلا ـ(٥) ،وفيه دلالة على أن القائد إلى التكذيب وكل رديء إنما هو الهوى(٦)، وفيه تذكير بأن المشركين يكذّبون بآيات الله ـ تعالى ـ، فهم ممن يجب تجنب اتباعهم.(٧)

---

(١)ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها، و: البحر المحيط (٢٤٨/٤) .

(٢)التحرير والتنوير (١٥٤/٨) بتصرف .

(٣) البحر المحيط (٢٤٨/٤) بتصرف .

(٤)التحرير والتنوير (١٥٤/٨) بتصرف

(٥) ينظر : الكشاف (٤٧/٢)، و: نظم الدرر (٣١٥/٧) .

(٦) ينظر : نظم الدرر (٣١٥/٧) .

(٧) التحرير والتنوير (١٥٤/٨) بتصرف.

فالله ـ جل وعلا ـ حكم على المشرعين للناس من عند أنفسهم، بأ م يكذبون بآياته؛ لأن آياته ـ إن كان المراد ا آياته الكونية ـ كلها تشهد بأنه الخالق الرازق الواحد..، والخالق الرازق هو المالك؛ فهو وحده الذي له التصرف والحكم..، فمن لم يفرده ـ جل وعلا ـ بالحاكمية، فقد كذب بآياته هذه. وإن كان المراد بالآيات آياته القرآنية، فالنصوص فيها حاسمة وواضحة في وجوب إفراده ـ جل وعلا ـ بالحاكمية في حياة البشر، وتعبيد الناس له وحده بالشرع النافذ.(١)

ولما وصفهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالتكذيب، أتبعه الوصف بعدم الإيمان؛ فقال: (وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ)، وفي عطف الوصفين بالواو دلالة على عراقة الموصفين ـ المشركين ـ في كل من الوصفين.(٢)

وكان مقتضى الظاهر ألا يعاد اسم الموصول؛ لأن حرف العطف مغنٍ عنه، إلا أن الكلام أجري على خلاف مقتضى الظاهر، وذلك ـ والله أعلم ـ لزيادة التشهير م(٣)، وتقبيحهم .(٤) فالذي يؤمن بالآخرة، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة، لا يمكن أن يتعدى على ألوهية الله ـ جل وعلا ـ، ويدعي لنفسه الحق الذي يتفرد به ـ تعالى ـ، وهو حق التوحيد المطلق في حياة البشر؛ ممثلاً ذلك في العبادة والقضاء والقدر، وفي الشريعة والحكم.(٥)

وزاد في تقبيحهم بأ م يعدلون بر م ـ جل وعلا ـ؛ فقال: (وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)؛ أي يجعلون له شركاء.(٦) وفي اختيار اسم الرب وإضافته إلى ضميرهم، تشنيع عليهم، فهم يشركون بمن لا نعمة، ولا خير عندهم إلا منه وحده..!.(٧)

---

(١) في ظلال القرآن (١٢٢٨/٣) بتصرف.

(٢) ينظر: نظم الدرر (٣١٥/٧) .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٥٥/٨) .

(٤) التفسير الكبير (١٧٧/٥) بتصرف

(٥) في ظلال القرآن (١٢٢٨/٣) بتصرف.

(٦) التفسير الكبير (١٧٧/٥) بتصرف.

(٧) ينظر: نظم الدرر (٣١٥/٧) .

التقسيم

وأختم المحسنات المعنوية بـ"التقسيم". والقَسم ـ في اللغة ـ مصدر قَسم الشيء يقْسِمه قَسماً. وقَسمه: جزأه. وقسمهم: فرقهم، والتقسيم: التفريق[١].

وفي البلاغة: "ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين"[٢]. وقد يطلق التقسيم على أمرين[٣]:

أحدهما: أن يذكر أحوال الشيء مضافاً إلى كل حال ما يليق بها، ومن شواهده الشعرية:

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخٍ ... كأنهم من طُول ما التثموا مُرْدُ
ثِقالٌ إذا لاقوا، خِفافٌ إذا دعوا ... كثيرٌ إذا شدُّوا، قليلٌ إذا عُدُّوا

الثاني: استيفاء أقسام الشيء بالذكر، كقوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) [فاطر:٣٢].

ومن المحسنات المعنوية ـ أيضاً ـ والتي لها صلة بـ"التقسيم": "الجمع مع التقسيم"؛ وهو: "جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه"[٤]. والجمع بين المتعدد قد يكون بالعطف أو بغيره[٥]. وأغراض هذا النوع البلاغية يكشفها السياق.

---

(١) ينظر: لسان العرب. مادة (قسم).

(٢) الإيضاح (٣١٥).

(٣) ينظر: المرجع السابق(٣١٧).

(٤) السابق (٣١٥).

(٥) ينظر: حاشية الدسوقي على شرح السعد. ضمن شروح التلخيص (٣٣٥/٤).

وقد اجتمع هذان المحسنان في آية من آيات العقيدة في سورة الأنعام؛ وهي قوله تعالى:

(هَلۡ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأۡتِيهُمُ الۡمَلآئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَانُهَا لَمۡ تَكُنۡ آمَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِي إِيمَانِهَا خَيۡرًا قُلِ انتَظِرُواۡ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) **[الأنعام:١٥٨].**

في مناسبة الآية لما قبلها قال عبد الكريم الخطيب ـ ما مفاده ـ: بعد أن أعذر الله ـ جل وعلا ـ المشركين من قريش ومن حولهم؛ بما بعث فيهم من رسول منهم، وبما أنزل إليهم من كتاب كانوا يتمنونه من قبل ليكونوا أهل كتاب كاليهود والنصارى، وبعد أن كان منهم ذلك التكذيب والعناد الذي استقبلوا به الكتاب والنبي الذي حمل إليهم الكتاب؛ بعد هذا كله لم يكن لهم أن ينتظروا إلا أن يصيروا إلى هذا المصير الذي يقودهم إليه كفرهم وضلالهم؛ إذ لا هدى لهم بعد هذا الهدى، ولا كتاب بعد هذا الكتاب..؛ ولهذا جاء قوله تعالى: (هَلۡ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأۡتِيهُمُ الۡمَلآئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...)**الآية؛ لينكر عليهم عنادهم، وليدخل اليأس عليهم من أن ينتظروا جديداً، يطلع في أفقهم بدعوة تدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ، إذ ليس هناك دعوة أبلغ ولا أبين من هذه الدعوة التي بين أيديهم، وأ م إن كانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة، أو يأتيهم الله، أو تأتيهم بعض آيات الله..، فلينتظروا..![1].**

وشاهد "التقسيم" في قوله تعالى: (هَلۡ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأۡتِيهُمُ الۡمَلآئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ)**. وجملة "هل ينظرون" استئناف سيق لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى، وأ م لا يرعوون عن التمادي في المكابرة، واقتراح ما ينافي الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة، وأن الإيمان عند إتيا ا مما لا فائدة منه أصلاً..، مبالغة في التبليغ والإنذار، وقطعاً للأعذار[2].**

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٥٢/٢-٣٥٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣) بتصرف .

وصدرت الجملة بالاستفهام بـ(هل)، وقد خرج الاستفهام فيها عن معناه الأصلي إلى آخر فُهم من السياق؛ وهو الإنكار[١]. فالمعنى المراد ـ والله أعلم ـ إنكار عدم إيمانهم بالله ـ تعالى ـ ، ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وما أنزل معه من الحق، وتعليق إيمانهم بإتيان ما ذكر في الآية.

و(يَنظُرُونَ)؛ بمعنى ينتظرون؛ جاء في لسان العرب: "النظَر: الانتظار. يقال: نظَرت فلاناً وانتظرته بمعنى واحد"[١]. وهنا يلوح سؤال؛ وهو: لم قال تعالى: (يَنظُرُونَ)، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: "ينتظرون"؟.

وكلمة (يَنظُرُونَ) نفسها، توحي بسر اصطفائها في التعبير القرآني؛ فهي أقل حروفاً، وأسهل نطقاً من كلمة "ينتظرون"، وذلك يعود إلى الصيغة التي بنيت عليها كُلٌ منهما. ولعل هذا يوحي بأن أولئك المشركين لم يكلفوا أنفسهم عناء الانتظار (الجاد)..، وكأن أمر إيمانهم لا يعنيهم هم، بل يعني أشخاصاً غيرهم..!. وهذا يوحي بأن دعاواهم الصارخة برغبتهم في الإيمان ـ وفق ما اشترطوا ـ ما هي إلا دعاوى هشة..، تفتقر إلى الجدية والصدق..!. لأنهم عندما شرطوا إيمانهم بإنزال المعجزات، لم يروموا بذلك إيماناً، بل جعلوهاس أعذاراً، تبرهن على صدق عزمهم ورغبتهم أمام الجميع، فيعذروا إذا لم يأت ما طلبوه في عدم إيمانهم..، ولا عذر لهم عند الله ـ تعالى ـ. فالكلمة القرآنية (يَنظُرُونَ)، أوحت بأنهم لم يكونوا ينتظرون ـ حقاً ـ أي شيء مما اقترحوه..، إنما أرادوا إيهام الناس بذلك..؛ ربما لأنهم كانوا مدركين بأن ما أوتي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاف في النطق بصدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ . كما توحي ـ أيضاً ـ بأن إيمان أولئك الكفار ميئوس منه..؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ كتب عليهم الكفر والضلال، وهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب وآيات الساعة حين لا ينفعهم الإيمان..!.

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣)، و: التحرير والتنوير (١٨٤/٨) .

(٢) لسان العرب. مادة (نظر) .

وفي الآية (قسم) ما ينتظره المشركون العادلون بربهم أصناماً، المكذبون بدعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ثلاثة أقسام؛ هي ـ كما قال تعالى ـ: (أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ)، : (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ)، : (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ).

قوله: (أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ)؛ أورد المفسرون في إتيان الملائكة أقوالاً؛ منها:

١- أن تأتيهم ملائكة الموت، فتقبض أرواحهم؛ وهذا قول الطبري، ذكره في تفسيره، ولم يذكر غيره[(١)].

٢- إتيان الملائكة يحتمل أمرين؛ هما: ملائكة الموت، أو ملائكة العذاب[(٢)].

٣- إتيان الملائكة الذين طلبوهم دلالة على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أو ليبلغوهم رسالة ربهم ـ عز وجل ـ؛ كما قال تعالى حكاية عن قولهم: (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام:٨][(٣)]. وقد بين الله ـ تعالى ـ أن السبب في عدم تقبل الكفار دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان بما جاء به من ربه، هو إرساله ـ جل وعلا ـ بشراً لأداء هذه المهمة، وقد حكى الله ـ تعالى ـ شبهتهم هذه ورد عليها؛ قال تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً۝ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً) [الإسراء:٩٤-٩٥]، فالملائكة مع هذا القول لن يأتوا أبداً؛ للسبب المذكور في الآية[(٤)].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٠٤/٥) .

(٢) ينظر : الكشاف (٤٩/٢) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣)، وقد أضاف أبو السعود لقوله احتمالاً آخر؛ وهو: أن يكون المراد إتيان ملائكة العذاب.

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٥٣/٢) .

(أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ)؛ وإتيان الرب ـ جل وعلا ـ كما قال الطبري: "أن يأتيهم ربك ـ يا محمد ـ بين خلقه في موقف القيامة"[1]، فهو إتيان على حقيقته، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة. وقد وردت نصوص قرآنية ونبوية صحيحة تثبت إتيان الرب يوم القيامة؛ من ذلك قوله تعالى: (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا) [الفجر:٢١-٢٢]، وقوله: (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ) [الحاقة:١٣-١٨].

ومن الأحاديث الصحيحة ما رواه أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وجاء فيه: "أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "هل تضارون في القمر ليلة البدر". قالوا: لا يا رسول الله. قال: "فهل تضارون في الشمس ليس دو ا سحاب". قالوا: لا يا رسول الله. قال: "فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت.

وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها، أو منافقوها ـ شك إبراهيم ـ فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه."[2]

والإتيان وا يء من الله ـ تعالى ـ نوعان :

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٤٠٤) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه. كتاب: التوحيد. باب: قوله تعالى: (وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ) [القيامة:٢٢-٢٣]، (١٤١٦)، حديث رقم (٧٤٣٤) .

مطلق ومقيد؛ فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه، كان مقيداً؛ كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ) [الأعراف:٥٢]، وقوله: (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) [المؤمنون:٧١]. ومن ا يء المقيد قوله تعالى: (فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ) [النحل:٢٦]، فقيد الإتيان بالمفعول وهو البنيان، وبا رور وهو القواعد، فدل ذلك على المعنى؛ وهو: مكره من قبل قواعد بنيا م؛ إذ من المعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا جاء بنفسه، لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها.

أما ا يء والإتيان المطلق، كقوله تعالى: (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)[الفجر:٢٢]، وقوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ) [البقرة:٢١٠] وهذا لا يكون إلا مجيئه ـ سبحانه ـ [(١)].

وفي "نقضه" على المريسي الجهمي، قال سعيد الدرامي ـ ما مفاده ـ: إن الكمة من المسلمين اتفقت أن الله ـ تعالى ـ فوق عرشه، فوق سماواته، وأنه لا ي ل قبل يوم القيامة إلى الأرض لعقوبة أحد من خلقه، ولم يشكوا أنه ي ل يوم القيامة؛ ليفصل بين عباده، ويحاسبهم، وتشقق السماء يومئذ ل وله، كما قال الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ[(٢)] .

ومع كون إتيان الرب يوم القيامة حقيقة، إلا أن بعض المفسرين تأوله، ووجه إسناد الإتيان له ـ تعالى ـ في هذه الآية توجيهاً بلاغياً..!. فمن المفسرين من ذكر أن الكلام على تقدير مضاف محذوف؛ وهو: عذاب ربك، أو بطش ربك[(٣)]؛ فهذا العذاب لعظم هوله، جعل إتيانه مسنداً إلى الآمر به أمراً جازماً؛ ليعرف مقدار عظمته، بحسب عظيم قدرة فاعله وآمره، فالإسناد مجازي من باب: بني الأمير المدينة؛ وهو مجاز عقلي[(٤)].

---

(١) ينظر : نقض عثمان بن سعيد (١٥٥)، و: الضوء المنير (١١٧/٣) .

(٢) ينظر : نقض عثمان بن سعيد (١٥٤-١٥٥) .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز (١٨٦/٦)، و: الجامع لأحكام القرآن (١٤٤/٧)، و: إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣)، و: التحرير والتنوير (١٨٥/٨) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٥/٨) .

وجوز ابن عاشور أن يكون إتيان الرب المراد؛ هو إتيان أمره بحساب الناس يوم القيامة[١].

ففيما سبق سخر بعض المفسرين البلاغة التي تنطق بإعجاز القرآن الكريم؛ سخروها ـ تأولاً ـ، فأفضت إلى تحريف كلام الله ـ جل وعلا ـ عما أراده؛ وانتهت إلى تعطيل صفة أثبتها الله ـ تعالى ـ لنفسه. وفا م أن البلاغة في كلام الله تعالى؛ وهي الأعلى شأناً، والأرفع بياناً؛ إنما جاءت لتعريف العباد بخالقهم؛ وذلك بإثبات ما أثبت في حقه تعالى، ونفي ما نفاه مما لا يليق به ـ عز وجل ـ، من غير تعطيل ولاتأويل ولا تحريف ولا تبديل.

فالمحسن البديعي الذي انتظم في الآية؛ وهو "التقسيم" كانت له فائدة معنوية عميقة، تبطل تلك التأويلات..!. ففي الآية "... عطف مجيئه [جل وعلا] على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه"[٢]، "فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصاً صريحاً في معناه لا يحتمل غيره"[٣].

وثمة خلل في المعنى وقع فيه من تأول إتيان الرب بإتيان عذابه ـ مع المحذور العقدي ـ؛ وهو التكرار. فابن عاشور ـ مثلاً ـ فسر إتيان الملائكة؛ بأ م ملائكة العذاب، ثم فسر إتيان الرب، بإتيان عذابه، وفسر بعض آيات الرب ـ في خطاب المشركين ـ؛ بآيات عذاب خارقة للعادة عقوبة على تكذيبهم وصدفهم[٤]. فأين فائدة التقسيم البلاغية مع هذا التكرار العجيب..؟!. والذي يغلب على الظن أن الزمخشري قد فطن لهذا الخلل ـ المخل بالمعنى ـ فنأى بنفسه عنه، وتأول إتيان الرب ـ عز وجل ـ بما رآه متسقاً مع نظم الآية، فقال: "(أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله: (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)؛ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراط

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٨/٨) .

(٢) الضوء المنير (١١٧/٣) .

(٣) المرجع السابق (١١٤/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٥/٨-١٨٦).

الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك"[1]. فراعى الزمخشري العطف في الآية، وجعل الكلام من باب الإطناب بطريق ذكر الخاص بعد العام. والإشارة بفطنة الزمخشري لا تعني موافقته فيما ذهب إليه، بل القول الواضح والصريح في إتيان الرب، ما أثبت في مطلع تحليل قوله: (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) من أنه إتيان على حقيقته، وذلك يوم القيامة.

وشبهة من تأول إتيان الرب ـ عزوجل ـ أشار إليها ابن عطية بقوله: "الإتيان المفهوم من اللغة مستحيل في الله تعالى"[2].فهم فهموا من مجيء الرب وإتيانه، ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه، وهو أن يفرغ مكان ويشغل أخر؛ لذا نفوا حقيقة ذلك، فوقعوا في محذورين: محذور التشبيه الذي فروا منه، ومحذور التعطيل الذي وقعوا فيه. ولو علموا أن مجيئه وإتيانه لا يشبه مجيء المخلوق وإتيانه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك، بل يداه ووجهه كذلك، فهو ـ جل وعلا ـ ليس كمثله ذات، وليس كمثل صفاته صفات، فكيف ينفون ـ بعد هذا العلم ـ حقيقة صفة الإتيان؟!. فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية، وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ـ تعالى ـ ما أثبته لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً..![3].

ومن لوازم نفي حقيقة إتيان الرب يوم القيامة ـ وغيرها من صفاته تعالى ـ؛ أن يكون المعطلة النفاة أعلم بالله منه أو أنصح. ومن لوازمه أن يكون أشرف الكتب وأشرف الرسل قد قصر في هذا الباب غاية التقصير؛ وأفرط في التجسيم والتشبيه غاية الإفراط[4]، فعلى أصحاب هذا المذهب الحذر من مغبة أقوالهم.

قوله تعالى: (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)؛ قال أهل التأويل: "طلوع الشمس من مغربها"[5]. وهذا القول منهم مستند لما جاء عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد قال ـ عليه

---

(١) الكشاف (٢/٤٩-٥٠) .

(٢) المحرر الوجيز (٦/١٨٦) .

(٣) ينظر : الضوء المنير (٣/١١٩) .

(٤) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة (١/١٥١-١٥٢) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٥/٤٠٤) .

الصلاة والسلام ـ: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغر ا، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: (لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَانُهَا لَمۡ تَكُنۡ آمَنَتۡ مِن قَبۡلُ)"(١).

والتعبير بـ(بعض) من قوله: (بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ)؛ فيه ويل وتعظيم لإتيا ا(٢). وفي إضافة الآيات إلى اسم الرب دلالة على الملكية الكلية لذلك، كما أضيف اسم الرب إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشريفاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ (٣).

وفي قوله: (يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَانُهَا لَمۡ تَكُنۡ آمَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِي إِيمَانِهَا خَيۡرًا) شاهد المحسن البديعي الثاني في الآية؛ وهو "الجمع مع التقسيم"؛ فالجمع في كلمة (نَفۡسًا)، وأريد ا كل النفوس المؤمنة والكافرة، وفُهم هذا المعنى من تنكير كلمة (نَفۡسًا)؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم(٤). ثم قُسم هذا الجمع بقوله: (لَمۡ تَكُنۡ آمَنَتۡ مِن قَبۡلُ)، ودخل تحت هذا القسم كل النفوس الكافرة التي لم تؤمن بوحدانية الله ـ تعالى ـ قبل طلوع الشمس من مغربه، فهذه الآية حين تأتي لا ينفع من كان مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيئها(٥).

والقسم الثاني قوله: (أَوۡ كَسَبَتۡ فِي إِيمَانِهَا خَيۡرًا)؛ وحرف العطف (أو) للتقسيم(٦). والمعنى: "ولا ينفع من كان بالله وبرسله مصدقاً، ولفرائض الله مضيعاً، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغر ا، أعماله إن عمل، وكسبه إن كسب؛ لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك"(٧).

(١) رواه البخاري في صحيحه. كتاب: التفسير. باب: (لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَانُهَا) [الأنعام:١٥٨]، (٨٨٢)، حـديث رقم (٤٦٣٥) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣٣٢/٧) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (٢٠٣/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٧/٨) .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٤٠٥/٥) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٧/٨) .

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٢/٥) .

وقد علم من التقسيم أن هذه النفوس لا ينفعها اكتساب الخير من بعد مجيء الآيات، ولا ما يقوم مقام اكتساب الخير، وهو ما من به على هذه الأمة من غفران السيئات عند التوبة. وليس المراد أنه لا ينفع نفساً مؤمنة إيما ا إذا لم تكن قد كسبت خيراً، فيضيع الإيمان إذا لم يقع اكتساب الخير؛ لأنه لو أريد ذلك لما كانت فائدة للتقسيم، ولكفى أن يقال: لا ينفع نفساً إيما ا لم تكسب خيراً؛ ولأن الأدلة القطعية ناهضة على أن الإيمان الواقع قبل مجيء الآيات لا يدحض إذا فرط صاحبه في شيء من الأعمال الصالحة[(١)].

ولما كان ما سبق ـديداً هائلاً وعنيفاً، أتبعه بما هو أشد منه، فقال تعالى في ختام الآية: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[(٢)]. والمعنى: قل لهم ـ يا محمد ـ: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت، فتقبض أرواحكم، أو أن يأتيكم ربكم لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغر ا، فتطوى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمان حينئذ إن آمنتم، وتعلموا في ذلك الوقت من المحق من المبطل، الصادق من الكاذب، ومن الناجي منا ومنكم ومن الهالك، إنا منتظرو ذلك؛ ليجزل الله لنا ثوابه على إخلاص العبادة له، وعلى الطاعة، وإفرادنا إياه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين[(٣)].

ومن المحسنات البديعية في الآية: الإرصاد، ويسمى التسهيم؛ وهو: "أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي"[(٤)]، في الشعر والفاصلة في الآية[(٥)]. ولعل مزية هذا المحسن أن يضفي على النظم القرآني سلاسة..، مما يجعل القارئ يكمل الآية قبل إتمام قراء ا، فيحسن بلذة إذا أصا ا، وهذا يترك تأثيراً للكلام في

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٧/٨-١٨٨) بتصرف.

(٢) ينظر : نظم الدرر (٣٣٣/٧) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٢/٥) بتصرف .

(٤) الإيضاح (٣٠٨) .

(٥) المرجع السابق . الحاشية (٣٠٨) .

نفسه؛ فيرسخ فيها أن الفريقين ـ المؤمن والكافر ـ كليهما ينتظر، لكن ثمة بون شاسع بين الانتظارين..!.

ويلحظ في التعبير عن الانتظار هنا، أنه أتى به الصيغة (انتظر)، وليس من (نظر) التي أتت في مطلع الآية بقوله: (هَلۡ يَنظُرُونَ)، فقال تعالى هنا: (انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ)، ولعل ذلك لحثهم على الانتظار، ربما من باب التحدي، فأنتم انتظروا بكل ما لديكم من جهد وطاقة، ونحن كذلك..![1].

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٣٤/٧) .

المبحث الثاني

البديع اللفظي

- الجناس

- رد العجز على الصدر

الـجـنـاس

الجنس في اللغة: الضرب من كل شيء، وهو أعم من النوع، ومنه ا انسة والتجنيس. يقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله[(١)].

والجناس في البلاغة: عرفه الخطيب القزويني بقوله: "الجناس بين اللفظين..هو: تشا ما في اللفظ"[(٢)]. فاللفظ واحد والمعنى مختلف[(٣)].

وعرفه العلوي بقوله: "أن يتفق اللفظان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما"[(٤)].

"وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً؛ لأن حروف ألفاظه يكون تركيبهما من جنس واحد"[(٥)]، فبينهما مماثلة لفظية[(٦)].

والمتلقي لا يستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً[(٧)].

وجاء في "الإتقان" أن فائدة هذا الأسلوب في الكلام تكمن في الميل إلى الإصغاء إليه، إذ إن تشابه الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها؛ لأن اللفظ المتشابه إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر كان للنفس تشوق إليه[(٨)].

والذي صير الجناس مذكوراً في أقسام البديع ـ كما بين عبدالقاهر الجرجاني ـ؛ أن المتكلم يعيد اللفظة كأنه يخدع المتلقي عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمه كأنه لم يزده

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (جنس).

(٢) الإيضاح : (٣٣٣) .

(٣) المثل السائر (٣٧٩/١) بتصرف .

(٤) الطراز (٣٥٦/٢) .

(٥) المثل السائر (٣٧٩/١) .

(٦) الطراز (٣٥٥/٢) بتصرف .

(٧) أسرار البلاغة : (٧) بتصرف .

(٨) ينظر : الإتقان في علوم القرآن (١٩٦/٢) .

وقد أحسن الزيادة ووفاها؛ فبهذه السريرة صار "التجنيس" ـ خاصة المستوفى من المتفق في الصورة ـ من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع[1].

والجناس قسمان[2]:

١- الجناس التام: وهو أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئا ا، وترتيبها.

٢- الجناس الناقص: وهو أن يختلف اللفظان في أنواع الحروف، أو في أعدادها، أو هيئا ا، أو ترتيبها.

ولكل من القسمين السابقين تقسيمات يطول المقام بذكرها[3]، ولعله يغني عن الاستفاضة بذكرها الإشارة إلى ما قد يرد منها في الشواهد المختارة.

والجناس في البلاغة القرآنية ليس حلية لفظية يمكن الاستغناء عنه، ووضع غيره مكانه..!، بل هو وارد وفق ما يقتضيه المعنى، وفيه جمعت الكلمات بين حسن اللفظ وحسن المعنى، كما سيظهر بعض ذلك ـ بإذن الله ـ من خلال تحليل شواهده في آيات العقيدة من سورة الأنعام.

وأفتتح شواهد الجناس بقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) [الأنعام:٢].

لما أثبت ـ سبحانه وتعالى ـ أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور..، أتبع ذلك اختصاصه بخلق الإنسان؛ فقال: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ...)[4].

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة : (٨) .

(٢) ينظر : الإيضاح : (٣٣٣) وما بعدها .

(٣) ينظر في هذه التقسيمات : المرجع السابق : (٣٣٣-٣٣٨)، و: المثل السائر : (٣٨٦-٣٩٣) وغيرها .

والجملة خبرية قد يكون الغرض منها ذكر دليل آخر من دلائل إثبات الصانع ـ جل وعز ـ؛ أو أن يكون ذكر الدليل على صحة المعاد والحشر؛ وبيان هذا أنه لما ثبت أن تخليق بدن الإنسان كان من طين، وأن الذي أنشأ الإنسان من هذه المادة بقدرته ـ جل وعلا ـ؛ قادر ـ بعد إماتته ـ على إعادته للحياة بعد أن تتحول عظامه إلى رميم، وتختلط بالتراب..![1].

والشاهد في قوله تعالى: (ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّىٰ عِندَهُ)؛ فقد جونس بين قوله: (أَجَلاً) و(وَأَجَلٌ)؛ واتفاق الكلمتين لفظاً ظاهر، أما اختلافهما معنى؛ فنقلته الكثير من كتب التفسير، ففيها إن المراد بالأجل الأول: هو الحياة الدنيا، والأجل الثاني: البعث أو الساعة[2].

وهذا الجناس الذي اتفقت فيه الكلمتان في نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها، هو الجناس التام، ويلحظ هنا تماثل الكلمتين في النوع، إذ كلاهما "اسم"؛ لذا سمي هذا النوع بالجناس المماثل[3].

ومزيته اللفظية تظهر في سلاسة النطق بكلمتي الأجل على اللسان، مع الحسن الذي يوقعه جرسها على الأذن، مما يجعل المتلقي يصغي للكلام؛ إصغاء يمكنه من أن يلحظ أن لفظ الجناس الثاني الذي أعيد على سمعه ليس عين الأول في المعنى، إنما أفاد معنى آخر. فمع المماثلة التامة بين كلمتي الأجل، إلا أن بينهما بوناً شاسعاً، يلقى ضوءاً باهراً على فائدة عقدية؛ فمما لا شك فيه أن كلا الأجلين في علم الغيب، ويظل الغموض ملازماً لهما؛ لكن أحدهما؛ وهو الأجل الأول يتكشف للإنسان جانب من غموضه في الحياة الدنيا؛ فالموت عندما يقع بشخص ما، فالإنسان يتعرف لحظتئذ على أجل ذلك

---

(٤) ينظر : نظم الدرر (٧/٧) .

(١) ينظر : التفسير الكبير (٤/٤٧٩)، و: نظم الدرر (٧/٨) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥/١٤٧-١٤٨)، و: الكشاف (٢/٣)، و: المحرر الـوجيز (٦/٤)، و: تفسير القرآن العظيم (٢/١١٧)، و: نظم الدرر (٧/٩)، و: إرشاد العقل الـسليم (٣/١٠٧)، و: التحريـر والتنوير (٦/١٣١) وغيرها .

(٣) ينظر : الإيضاح (٣٣٣) .

الشخص[١]. غير أن الغموض يبقى ملازماً للأجل الآخر؛ وهو البعث أو الساعة، وليس بإمكان أي إنسان كائناً من كان أن يعرف، أو حتى يتعرف في لحظة ما على وقت وقوعه وهو في الحياة الدنيا، أو في برزخه؛ إذ العلم به مما استأثر الله ـ تعالى ـ به، وهو ـ سبحانه ـ لم يطلع عليه نبياً ولا ملكاً. فالألفاظ تتشابه، لكن يبقى الغموض ملازماً لأحدهما؛ فكأن في هذه المجانسة اللفظية إظهاراً لعظمة الله ـ جل وعلا ـ، والكشف عن خاصية من خصائص الألوهية؛ وهي استئثاره ـ تعالى ـ بعلم الغيب عامة، وعلم الساعة خاصة، وقد قال تعالى: (وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [الزخرف:٨٥].

وكان للتقديم الوارد في نظم الآية أثر في إضفاء مزيد حسن على جملة الجناس؛ ففي الكلام السائر يقال: "عندي ثوب جيد"، وعليه فإن الأصل في الكلام ـ في غير القرآن ـ أن يقال: "وعنده أجل مسمى"، لكن التعبير القرآني أتي فيه بالتقديم؛ فقال تعالى: (وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ)، فأي نكتة لهذا التقديم..؟![٢].

لعل أول النكت التي تسترعي المتلقي؛ هي النكتة اللفظية؛ إذ إن الإتيان بالكلمتين المتجانستين ردف بعض له وقع مؤثر في أذن المتلقي يدفعه إلى استحسانه والميل إليه، كما فيه خفة وعذوبة على لسان الناطق، أما لو تباعدتا نظماً، فلربما خف حسن جناسهما.

ومن نكت تقديم كلمة (أَجَلٌ) في هذا المقام؛ تعظيم شأن الساعة[٣]، و ويل أمرها[٤].

---

(١) ينظر : حاشية الصاوي (٣/٢) .

(٢) ينظر : الكشاف (١٣/٢) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٧/٣) .

ولم يكن "التقديم" في نظم الآية هو ما دل على تعظيم أمر الساعة و ويله فحسب، بل سخر لذلك تنكير كلمة (أَجَلٌ)، ووصفه بأنه (مُّسمًّى)، والإخبار عنه بأنه عند الله ـ تعالى ـ [(١)].

ويلحظ في التعبير القرآني المغايرة في أسلوب التعبير عن الأجلين؛ فالأول عبر عنه بالجملة الفعلية، قال تعالى: (ثُمَّ قَضَى أَجَلا)، أما الثاني فعبر عنه بالجملة الاسمية: (وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ)؛ والتعبير بالجملة الاسمية عن أجل الساعة فيه إشارة إلى ثبات اختصاصه ـ جل وعلا ـ بعلم الساعة[(٢)].

ومن اللطائف البلاغية في الآية الكريمة :

قوله تعالى: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ) جملة استئنافية سيقت لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدهم لما يوجب الإيمان به[(٣)]. ولعل فيها تعجيباً من حال المشركين إذ أنكروا البعث، فذُكروا بخلقهم الأول، وعجب من حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأن الله ـ جل وعلا ـ هو خالقهم الخلق الأول، وبين إنكار الخلق الثاني؟![(٤)].

وأشار ابن عاشور إلى أن تعريف المسند والمسند إليه في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم) أفاد القصر في ركني الإسناد ومتعلقها أي هو خالقكم لا غيره، من طين لا غيره. ولعل الداعي لتأكيد المعنى السابق بأسلوب القصر؛ هو حالهم المنكرة للبعث؛ فهم لما أنكروا الخلق الثاني نزلوا منزلة من أنكر الخلق الأول، إذ لا فرق بين الخلقين، بل الإعادة في متعارف الصانعين أيسر، كما قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) [الروم:٢٧][(٥)].

---

(١) ينظر : حاشية زاده (١٥١/٢) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (٩/٧) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٠٦/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٩/٦) .

(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

ومن بلاغة النظم في الجملة؛ خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ بأسلوب الالتفات، عدل فيه عن ضمير الغائب الذي في قوله تعالى: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعۡدِلُونَ) [الأنعام:١]، إلى الخطاب بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم)، ومع أن الخلق، وقضاء الأجل ليس مختصاً بالكفار وحدهم ـ إذ يشترك معهم المؤمنون ـ إلا أ م في هذا المقام اختصوا بالخطاب به لنكتة؛ لعلها توجيه أنظارهم إلى أصل خلقهم، وقدرة الله ـ تعالى ـ وقضائه فيهم[١]؛ لأ م هم من ينكر البعث. وكان أسلوب الالتفات ـ والله أعلم ـ لمزيد التشنيع والتوبيخ[٢].

وإنما قيل إن قوله تعالى: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ) من باب الالتفات؛ لأن فاصلة الآية؛ وهي قوله تعالى: (ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ) لا يمكن أن يندرج في خطا ا من اصطفاه الله ـ جل وعلا ـ بالنبوة والإيمان[٣].

وقيدت الجملة بقوله تعالى: (مِّن طِينٍ)، وكان لهذا التقييد دور بارز في أداء المعنى على النحو الأكمل؛ فالكفار كانوا ينكرون البعث لصيرورة الأموات تراباً، واختلاط رفات الكل بعضه ببعض، وبتراب الأرض حتى استحال التمييز بين رفات العظام وتراب الأرض متعذراً[٤]. وفي هذا المعنى حكى الله ـ جل وعلا ـ عن الكفار بعضاً مما قالوه؛ من ذلك ـ مثلاً ـ قوله تعالى: (وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا)[الإسراء:٤٩]، وقوله تعالى: (قَالُوٓا أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ)[المؤمنون:٨٢]، وقوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ قَالَ مَنۡ يُحۡيِ الۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ)[يس:٧٨].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٧١/٤) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٠٦/٣) بتصرف .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٧١/٤) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٨/٧) .

فكان في تقييد الخلق بذكر ما منه مادة الخلق؛ وهو قوله تعالى: (مِّن طِينٍ) إظهار لفساد ما استدل المنكرون به على إنكار البعث؛ وهو استبعاد إعادة خلق الإنسان بعد أن صار تراباً[(١)]. وفيه ـ أيضاً ـ إظهار لتمام قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ إذ إن تمييز الطين أعسر من تمييز التراب؛ لشدة اختلاط أجزائه بالماء[(٢)]، فالذي ابتدأ خلقكم من طين، فجعلكم أجساماً حية، بعد أن كنتم طيناً جماداً، ثم هو يميتكم ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم من قبل أن ينشئكم..، أيعجزه إعادتكم للحياة مرة أخرى..؟![(٣)]. فالآية رد على منكري البعث[(٤)]، فيها نبه ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم، وذلك نظيرقوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[البقرة:٢٨][(٥)].

ومن لطائف العطف البلاغية في الآية؛ ما جاء في قوله: (ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)؛ فالعطف بـ(ثم) في هذا المقام أفاد ـ والله أعلم ـ استبعاد شكهم في البعث بعد أن ثبت لهم أنه ـ جلَّ وعلا ـ هو محييهم، ومميتهم،وباعثهم[(٦)]. كما فيه توبيخ لهم، وتشنيع عليهم سوء فعلهم بعد وضوح الحجج الناطقة بصحة البعث[(٧)].

ومن دقائق التعبير في الجملة؛ الإتيان بالمسند إليه في قوله تعالى: (ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) ضميراً بارزاً، وقد أسهم هذا في تغليظ توبيخهم[(٨)].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٠/٦) .
(٢) ينظر : نظم الدرر (٨/٧) .
(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٨/٥) .
(٤) ينظر : حاشية الصاوي (٤/٢) .
(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٨/٥) بتصرف .
(٦) ينظر : الكشاف (٣/٢) .
(٧) ينظر : المحرر الوجيز (٥/٦) .
(٨) ينظر : التحرير والتنوير (١٣١/٦) .

وكان ميء الفعل (تَمْتَرُونَ) بصيغة الافتعال إيحاء لطيف؛ إذ أوحت الكلمة بأ م يكلفون أنفسهم أمراً لا تطيقه نفوس أهل النهى؛ يكلفو ا الشك في قدرة الله ـ تعالى ـ على الإعادة والبعث، مع أن الإعادة ـ كما تعارفوا عليه ـ أهون من الابتداء..، لكنهم يصرون على تجاهل هذه الحقيقة النيرة..، ويسوقون أنفسهم سوقاً لاقتفاء خطى الآباء والأجداد، ويركنون للهوى، ويعرضون عن أدلة هي أظهر من ساطع الضياء..![(1)].

ومن شواهد الجناس قوله تعالى:

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام:٢٦].

في مناسبة الآية لما قبلها قال الفخر الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بين أ م طعنوا في كون القرآن معجزاً بأن قالوا: إنه من جنس أساطير الأولين وأقاصيص الأقدمين؛ بين في هذه الآية أ م ينهون عنه وينأون عنه"[(2)].

وجاء في تفسير الطبري أن أهل التأويل اختلفوا في تأويل قوله: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ)؛ فمنهم من قال: إن المشركين المكذبين بآيات الله ـ تعالى ـ ، ينهون الناس عن اتباع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والقبول منه، ويتباعدون عنه. ومنهم من قال: ينهون عن القرآن أن يسمع له ويعمل بما فيه، ويتباعدون عن الاستماع إليه[(3)].

لكن لعل المراد بضمير الغائب في الآية القرآن الكريم؛ لأن هذا المعنى هو الأقرب لسياق ما قبلها؛ فقد قال تعالى: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) [الأنعام:٢٥]؛ ولما

---

(١) ينظر : نظم الدرر (١٠/٧) .

(٢) التفسير الكبير (٥٠٧/٤) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧١/٥) .

بعدها قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧][1].

والشاهد في قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾؛ فبين ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ و ﴿يَنۡـَٔوۡنَ﴾ جناس ناقص مضارع؛ لاختلاف الكلمتين في حرف من الحروف؛ وهو عين الكلمة؛ "الهاء" في الكلمة الأولى، و"الهمزة" في الثانية، وهما من الحروف المتقاربة في المخرج؛ لذا سمي هذا النوع من الجناس بالمضارع[2]. ولا يخفى جمال هذا الجناس؛ فهو ينساب على اللسان بسلاسة وعذوبة؛ انسياباً تستعذبه الأذن، ويطرب له القلب، فتقبل النفس على الكلام بكُليتها، وتنصت بإمعان..!. ومزية هذا الجناس ليست لفظية فحسب، بل له مزية معنوية؛ لعلها للدلالة على أن هذين الفعلين: ي الناس عن القرآن، ونأيهم بأنفسهم عنه..قد تشا ا في عظم الإجرام والجناية ما؛ فإلحاق المرء الضر بنفسه؛ بصدها عن القرآن استماعاً واتباعاً يشبه في ضرره، وسوئه، وقبحه، بل وعظمه إلحاقه بغيره؛ بمنعه الناس عن الاستماع إلى القرآن، ومعرفة الحق الذي فيه..!.

كما يدل ــ والله أعلم ــ على تشابه قلوب الكفار في موقفها من هذا القرآن؛ فهم بين ي ونأي ولا ثالث لهما؛ لشدة ما رسخ في قلو م من حقد، وبغض، وحسد لنبي الرحمة ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

ولعل في الخبر الذي رواه ابن هشام في السيرة النبوية ما يدل على ذلك ــ أي تشابه قلوب الكفار في موقفها من القرآن ــ؛ فقد ذكر: "أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية،

---

(١) ينظر : حاشية الصاوي (٢/ ١٠)، و: إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٢)، و: التحرير والتنوير (٦/ ١٨٢) .

(٢) ينظر : الإيضاح : (٣٣٥) .

عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفّرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفّرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ثم تفّرقوا.

... فلما أصبح الأخنس بن شريق...خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد ا، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد ا؛ فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا،وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فما ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه."[1].

ومن أسرار التعبير القرآني في الآية؛ تقديم قوله: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ) على قوله: (وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ)، وفي سر هذا التعبير قال عبد الكريم الخطيب ـ ما معناه ـ: إن جناية هؤلاء المشركين جناية شنيعة، فهم لم يكتفوا بأن يكفروا بالقرآن، ويقولوا فيه ما يقولون، من زور و تان، وإنما وقفوا في وجه من يريدون الهدى منه، وحالوا بينهم وبين الاستماع له، فكان أن قُدم يهم للناس عنه على نأيهم هم بأنفسهم عنه، مع أ م صدوا أولاً وكفروا، ثم كانت فعلتهم بعد هذا هي ي غيرهم..، ولكن لما كان صدهم لأنفسهم أمراً واقعاً، ولم يكن مستحدثاً منهم، وإنما الذي استحدثوه بعد أن أخذوا ذلك الموقف لأنفسهم، هو أ م جاءوا إلى غيرهم ليأخذوا معهم هذا الموقف الذي هم فيه، فكان من الحكمة في مواجهة المشركين بجرمهم، أن يواجهوا أولاً بما أحدثوا من جرم؛ وهو صد

(١) السيرة النبوية (٣٤٣/١) .

الناس، ثم يساق إليهم بعد ذلك ما كان لهم من سابقة في هذا المضمار وهو صد أنفسهم[(١)].

وقال أبو السعود ـ ما معناه ـ: إن نكتة تأخير قوله: (وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ)؛ لإظهار غاية نفورهم من القرآن؛ ولتأكيد نهيهم عنه؛ إذ إن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي[(٢)].

ولعل من نكت تقديم نهيهم الناس عن القرآن على نأيهم هم بأنفسهم؛ للدلالة على شدة بشاعة هذا الفعل؛ فهو محاربة لله ـ تعالى ـ ولرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فإلحاق الشخص الضرر بنفسه؛ بمنعها عن الاستماع إلى القرآن وآياته البيانات من الأمور المستبشعة، لكن أشد منه بشاعة منع الناس من هذا القرآن، وتغييبهم في ظلمات الجهل، والكفر، والضلال..و بهذا يشيع الفساد في الأرض، وتنتفي عندئذ الحكمة من استخلاف البشر فيها؛ وهي إعمار الأرض بلا إله إلا الله..؛ فلذا قُدم ما قدم والله أعلم.

ومن اللطائف البلاغية في الآية؛ التعبير بالجملة الفعلية بقوله تعالى : (يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ)؛ ولعل هذا للدلالة على تجدد هذين الفعلين منهم؛ فكل يوم لهم مكيدة وطريقة في النهي والنأي؛ إما بالفعل أو القول، أو بهما معاً. ولعل فيه ـ أيضاً ـ بياناً لشدة حرصهم على هذا النهي والنأي؛ فكأنه هدفهم في هذه الحياة، وهمهم الأوحد الذي سخروا حياتهم وما يستطيعون في سبيل تحقيقه؛ نصرة لأهوائهم ولباطل يتمسكون به..، وفي هذا ذم وتقبيح لهم.

وختمت الآية بقوله تعالى: (وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)؛ أي إن أولئك المشركين بصدهم عن سبيل الله ـ تعالى ـ، وإعراضهم عن تنزيله ما يهلكون إلا أنفسهم لا غيرها؛ بتعريضها لسخط الله ـ جل وعلا ـ وأليم عقابه عاجلاً وأجلاً [(٣)].

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (١٥١/٢) وما بعدها .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٢٢/٣) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٧٣/٥) .

وأتي بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء للتعبير عن المعنى السابق؛ ولعل ذلك لما يتميز به هذا الأسلوب وهذا الطريق من قوة تمكنه من مجا ة المُنكر ورد ما لديه من اعتقاد..مع ما فيه من إيجاز. فالقصر في الجملة ـ والله أعلم ـ إضافي، وأفاد قلب اعتقاد المشركين؛ لأ م كانوا يظنون أ م بنهيهم ونأيهم عن القرآن؛ أ م ـذا يضرون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وأ م يطفئون نور الإسلام..![1]. فكان الإتيان بالقصر للتأكيد على أن أولئك بإضلالهم الناس وبضلالهم لن يضروا الله ـ تعالى ـ، ولا رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا المؤمنين، بل هم يضرون أنفسهم[2]؛ لأ م بضلالهم يحملون أوزاراً، وبإضلالهم الناس يحملون أوزاراً مع أوزارهم..، وهذا يدل على أن عقاباً شديداً ينتظرهم، وفي هذا تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ [3]. ولعل مما يؤيد المعنى السابق؛ قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ۞ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ۞ ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)[فصلت:٢٦-٢٨].

ومما آزر جملة القصر في تأكيد المعنى إردافها بقوله تعالى: (وَمَا يَشْعُرُونَ)؛ إذ فيها زيادة تحقيق الخطأ في اعتقادهم[4].

ونفي الشعور عنهم بإهلاكهم أنفسهم أبلغ ـ في هذا المقام ـ في نفي العلم؛ لأنه نفي عام يقتضي أن صاحبه لا يعلم ولا يحس[5]. وفي هذا مذمة عظيمة لهم؛ إذ بلغ م

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٣/٦) .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٣٨٨/٢) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٨٣/٦) .

(٤) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٠٠/٤)، و: الجواهر الحسان (٤٧١/١) .

الحال إلى أن صاروا أحط شأناً من البهائم؛ إذ البهائم تشعر وتحس، أما هؤلاء فلا..![١]. كما فيه إظهار لضعف عقولهم مع أ م كانوا يعدون أنفسهم سادة الناس وقاد م![٢].

ومن شواهد الجناس في الآيات ما ورد في قوله تعالى:

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ۞ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) **[الأنعام:٦٣-٦٤].**

لما تقدم ذكر دلائل على ألوهيته ـ سبحانه وتعالى ـ من العلم التام، والقدرة الكاملة.. ذُكر هنا نوع من أثرهما؛ وهو الإنجاء من الشدائد[٣].

وفي الآية الأولى يستفهم عمن به يستعين المشركون ويدعونه عند نزول الكربات م في البر والبحر.. مع التعهد ـ إن أنجاهم من هذه الشدة ـ أن يخلصوا له العبادة، ويوحدوه بالشكر..!. وتأتي الآية الثانية تحمل جواباً لذلك السؤال؛ فالله ـ تعالى ـ هو القادر على تفريج كربا م كلها لا ما أشركوا في عبادته، ثم هم بعد تفضله عليهم؛ بكشف ما م من سوء وكرب يعدلون به الأصنام والأوثان، ويشركو ا في عباد م إياه[٤].

وللجناس هنا شاهدان؛ هما:

١ ـ في قوله تعالى: (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) من قوله: (مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)؛ وهو جناس ناقص، اتفقت فيه كلمتا (الْبَرِّ) و (الْبَحْرِ) في نوع الحروف، وهيئتها، وترتيبها..، واختلفتا في عدد الحروف؛ فقد زادت كلمة "البحر" على كلمة

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٠٠/٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٣/٦) بتصرف .

(٣) المحرر الوجيز (٦٨/٦) بتصرف .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥١٦/٥) وما بعدها .

"البر" حرفاً في وسطها؛ وهو "الحاء". ولعل مزية هذا الأسلوب؛ جريان هذا الكلام المتجانس على اللسان بعذوبة، وسلاسة، وحلاوة حال النطق به، ويمتد تأثيره إلى الأذن والنفس؛ فالأذن تتلقاه في أحسن موقع، أما النفس فتفتح له باب القبول بما يمنحها من ارتياح وأنس به..!.

ولم يكن الجناس هو المحسن البديعي الوحيد الذي تألق بين كلمتي "البر" و "البحر"، بل هناك طباق التضاد بجماله وبلاغته؛ فقد سخر ـ والله أعلم ـ لدعم الغرض الذي سيقت له الآيات؛ وهو الاستدلال على استحقاق الله ـ جل وعلا ـ للعبادة وحده دون ما سواه.. بأمر لا تنكره الفطر السليمة؛ ففي "البر" حيث يستقر المرء على أرض صلبة، وهو بين أهله، وحوله أصحابه، ولديه من القوة والأزر ما يشد به العضد.. . أو حين ينأى عن ذلك كله.. ـ في كلا الحالين ـ تصيبه الكروب..، وتتقطع به السبل؛ فيجد نفسه تائهاً..، لا طريق يوصله، ولا ملجأ يلوذ به..!. قوته تغدو ضعفاً، وأنسه هما وضيقاً..، يستنجد بمن ينصره..، فلا يسمع لصيحاته صدى..، يتلفت، فلا يرى حوله أحداً..، ولحظتها تصغر في عينيه الدنيا وما فيها..، وتتهادى بين عينيه نهايته..!. وعندها ينسى ما كان يشرك ويعبد من دون الله ـ تعالى ـ إن كان من المشركين..، وتتحرك فطرته..، ويرفع رأسه نحو الأعلى، وتتعلق عيناه، بل كل ما فيه بالسماء..، ويبتهل من أعمق أعماق قلبه إلى الرب الرحمن الرحيم..، إلى الله العظيم..؛ ليكشف الكرب، ويفرج الهم..!.

..فالإله الذي ينجي ـ بقدرته ورحمته ـ من كربات (الْبَرِّ)، هو نفسه الذي ينجي من كربات (الْبَحْرِ) إن ركبوه حيث تتقاذفهم أمواجه الهائجة، وتنقطع أمامهم سبل النجاة..، فلا شاطئ يقترب..، ولا يابسة تلوح من بعيد..!.

..فمع التناقض القائم بين هذين المكانين (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) إلا أن الذي ينجي من شدائدهما إله واحد.. لا يعجزه شيء..!. فحصل بجملة الطباق ـ والله أعلم ـ إثبات تمام قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي من صورها الإنجاء من الشدائد كلها في أي مكان

كانت. فكيف إذاً يترك الإنسان عبادة هذا الإله القادر الرحمن الرحيم..، ليعكف على عبادة من لا يملك دفع الضر عن نفسه، أو جلب الخير لها فضلاً على إلحاقهما بغيره..؟!.

وشاهد الجناس الآخر أتى في فاصلة الآيتين؛ قال تعالى: (لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)، وقال: (ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ)؛ فبين (الشَّاكِرِينَ) و (تُشْرِكُونَ) جناس، وممن أشار إليه ابن عاشور بقوله: "وبين "الشاكرين" و"تشركون" الجناس المُحرف"[(١)].لكن الجناس المحرف عند أهل البلاغة؛ هو اختلاف الكلمتين في هيئات الحروف فقط، كقولهم: "الجهول إما مفْرط أو مفَرط"[(٢)]. فعليه فإن الجناس الوارد في الآية ليس من هذا النوع، بل هو من جناس القلب؛ وهو ـ كما جاء في الإيضاح ـ: اختلاف الكلمتين في ترتيب الحروف كلها، أو بعضها[(٣)]. وهذا ما جرى هنا؛ فقد اختلفت كلمة (الشَّاكِرِينَ) و (تُشْرِكُونَ) في ترتيب بعض حروفهما.

ولهذا الجناس حسن لا يكاد يخفى؛ فالجرس الناشيء من النطق بهاتين الكلمتين (الشَّاكِرِينَ) و(تُشْرِكُونَ) جرس لطيف تميل إليه النفس، وتأنس به، وتتلقاه بالقبول والرضا. وحسن هذا الجناس ليس لفظياً فحسب، إنما يضاف إليه حسن آخر؛ وهو الحسن المعنوي؛ فقد حمل الجناس هنا فائدة معنوية عميقة..، عرت حقيقة المشركين وفضحتهم، وأبانت عما تنطوي عليه نفوسهم من فساد..!. ففي وقت الشدة تبرز الحقيقة التي يصرون على تغييبها، وعلى تناسيها؛ تلك الحقيقة التي لا ينكرها إلا مكابر..؛ وهي أن الله ـ جل وعلا ـ هو الخالق الرازق، المعطي المانع، الضار النافع، المدبر، المحيي المميت..؛ لذا كان المستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه..، وأن آباءهم وأجدادهم كانوا على جهل وضلال حين عبدوا غيره..!. فما كان منهم في لحظات الكرب العصيب، ولحظات استيقاظ فطرهم إلا أن عقدوا العزم على إصلاح ذلك الفساد، والخروج من ظلمات الشرك والضلال، والتوجه إلى الرب الرحيم الذي له

---

(١) التحرير والتنوير (٧/٢٨٣) .

(٢) ينظر : الإيضاح (٣٣٤) .

(٣) ينظر : المرجع السابق (٣٣٦) .

التصرف في ملكوت السموات والأرض، وإخلاص الشكر ـ قولاً وعملاً ـ له وحده..!. وإذا كشف ـ سبحانه وتعالى ـ ما م من ضر ـ بقدرته، ورحمته، وحكمته ـ (انقلب) حالهم، كما (انقلبت) وعودهم.. من شكر إلى شرك..؟!.؛ فنعي ـ والله أعلم ـ بجناس القلب الواقع بين كلمتي (الشَّاكِرِينَ) و (تُشْرِكُونَ) حالهم القبيحة..!. ولعل مما حسن هذا الجناس مجيئه فاصلة آية.

ومما زاد تقبيحهم ـ أيضاً ـ والتشنيع عليهم ما انتظم في قوله تعالى ـ حكاية عن قولهم ـ: (لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) من قسم أكدوا به صدق عزائمهم ونيا م، وقد كان لهذا التعبير إيحاءات عميقة..!؛ منها أ م لم يكونوا قبل الوقوع في هذه الشدة شاكرين لأنعمه ـ جل وعلا ـ [1]؛ إذ الشكر "معرفة النعمة مع القيام بحقها"[2]، والشاكر " هو الذي يراعي نعمة المنعم، فيحسن معاملته كلما وجد لذلك سبيلا"[3]. والمشركون كانوا يعرفون أنه ـ جل وعلا ـ هو الذي ينعم عليهم ويرزقهم، لكنهم يقابلون ذلك بالجحود والكفران؛ كما قال تعالى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) [النحل:٨٣].

يضاف إلى ذلك إتيان التعبير القرآني بقوله تعالى: (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)؛ وهذا أبلغ من أن يقال ـ كما في غير القرآن ـ: "لنكونن شاكرين"، فقد أفاد التعبير القرآني أ م سيكونون من الفئة المعروفة بالشكر، العريقة فيه[4].

وكان في نظم قوله تعالى: (ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) ما كُشف به عن قبحهم وقبح فعلتهم؛ وسخر لذلك العطف بـ"ثم" ـ دون غيرها ـ في هذا الموضع، والتعبير عن المعنى بالجملة الاسمية. ودلالة العطف بـ"ثم"؛ أنه بعد معرفتكم بأن الله ـ تعالى ـ هو

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٥٠/٤) .

(٢) معالم التن يل (١٠٣/٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨١/٧) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٤٢/٧)، و: التحرير والتنوير (٢٨١/٧) .

الذي تدعونه عند الشدائد، وهو الذي ينجيكم منها؛ بعد معرفتكم بهذا كله أنتم تشركون معه الأصنام التي علمتم أنها لا تضر ولا تنفع..![1].

وكأن في العطف بـ "ثم" هنا تقريعاً وتوبيخاً لهم، مع استبعاد لنقضهم ما عاهدوا الله ـ تعالى ـ عليه؛ لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص، بينما هم جعلوا للإخلاص بدلاً؛ وهو الإشراك، فحسن لذلك أن يوبخوا وإن كانوا قبل النجاة مشركين[2].

أما دلالة الجملة الاسمية على التقبيح عليهم فظاهرة؛ إذ ووجهوا بفعلتهم بقوله تعالى: (ثُمَّ أَنتُمۡ)[3]؛ أي: أنتم يا من تتعهدون بالتزام الشكر وقت النجاة.. تشركون به من قبل ومن بعد..![4].

ولعل الإتيان بالمسند فعلاً مضارعاً؛ للإشعار باستمرارهم على ذلك الشرك مع تجدده في المستقبل كما كانوا عليه فيما مضى، وهذا من أعجب الأمور[5].

ومن اللطائف البلاغية في نظم الآيتين؛ ما يلي:

قوله تعالى: (قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ)؛ خرج الاستفهام في الآية عن معناه الأصلي إلى آخر فُهم من السياق، لعله تبكيت العادلين بالله ـ تعالى ـ الأصنام وتوبيخهم على ذلك، وتوقيفهم على سوء فعلهم؛ فهم يعبدون الأصنام، ويتركون إخلاص العبادة لمن ينجي من المهلكات، ويلجأ إليه لكشفها..![6].

وفي الآية استعيرت لفظة (الظلمات) للشدة؛ بجامع الهول وعدم الاهتداء في كل منهما، على سبيل الاستعارة التصريحية[7].

---

(١) ينظر : معالم التنزيل (١٠٤/٢)، و: المحرر الوجيز (٦٩/٦) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٨/٧)، و: نظم الدرر (١٤٢/٧) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٥٠/٤) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (١٤٣/٧)، و: التحرير والتنوير (٢٨٣/٧) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١٥٠/٤)، و: التحرير والتنوير (٢٨٣/٧) .

(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٦٨/٦) .

(٧) ينظر : الكشاف (١٩/٢)، و: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤١٧/٢).

وجوز بعض المفسرين أن يكون المراد بالظلمات هنا معناها الحقيقي؛ فمن ظلمات البحر أن تجتمع ـ مثلاً ـ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، بالإضافة إلى الرياح الصعبة، والأمواج المتلاطمة، فلا يعرف مع ذلك طريق الخلاص، ومن عظم الخوف..!. أما ظلمات البر فهناك ـ مثلاً ـ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، مع ما يقع في القلب من خوف شديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، والخوف من هجوم الأعداء..![1].

وسواء أريد بـ(الظلمات) تلك المجازية، أو الحقيقة، فالمقصود ـ والله أعلم ـ أنه عند اجتماع الأسباب الموجبة للخوف الشديد، فالإنسان لا يرجع عندها ـ ظاهراً وباطناً ـ إلا إلى الله ـ تعالى ـ[2].

ولعل اختيار كلمة (الظلمات) ليعبر بها عن الشدة والكرب؛ لما تقرر في النفوس من هول الظلمة[3]؛ فذكرها يعيد إلى نفس المتلقي القلق، والاضطراب، والمخاوف التي كانت تضطرم في نفسه عندما تأسره الشدة..، ولعل هذا الاستشعار يدفع المتلقي إلى التقرير والتسليم بصحة ما ووجه به.

وفي قوله تعالى: (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) ثمة محسن بديعي، وقع بين قوله: (تَضَرُّعا) و (وَخُفْيَةً)؛ وهو طباق التضاد؛ إذ إن معنى: (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً)، أي: جهراً وإعلاناً، أما (وَخُفْيَةً)؛ فسراً وإخفاء[4]. ولعل من أسرار التعبير عن المعنى بهذا الطباق؛ الاشعار بشدة الكرب الذي يجعلهم يتوجهون إلى الله ـ تعالى ـ بإخلاص عميق؛ فهم يلهجون بالدعاء له ـ تعالى ـ بقلوب متكسرة، حتى تتعثر ألسنتهم، وتعجز عن النطق، فيدعونه ـ جل وعلا ـ خفية؛ وهذا الإخفاء يدل ـ والله أعلم ـ على أنهم بلغوا في الخشوع والذلة

---

(١) ينظر : الكشاف (٢٠/٢)، و: التفسير الكبير (١٩/٥) .
(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٩/٥) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز (٦٩/٦) .
(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢١٦/٥)، و: معالم التنزيل (١٠٣/٢) .

أقصى الغايات..!. فبالطباق كُشف للقارئ ـ والله أعلم ـ عن شدة الكرب الذي يوقظ فطرهم، وعن شدة إخلاصهم ـ في تلك اللحظات العصبية ـ لله ـ جل وعلا ـ .

في **قوله:** (قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ) **أمر النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **بالجواب؛ ولعل ذلك ليكون** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أسبق إلى الخير، وإلى الاعتراف بالحق**[1].

ومن اللطائف البلاغية ـ أيضاً ـ ما أفاده تقديم المسند إليه في قوله: (اللّهُ يُنَجِّيكُم) **على الخبر الفعلي؛ إذ أفاد الاختصاص؛ أي الله ينجيكم لا غيره**[2].

وقيدت الجملة بقوله تعالى: (وَمِن كُلِّ كَرْبٍ)**؛ ولعل هذا لإفادة التعميم بعد التخصيص الوارد في قوله:** (مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)[3]**؛ وللإشارة إلى أن الاقتصار على ظلمات البر والبحر كان على سبيل التمثيل**[4]**، والتنصيص عليهما ـ والله أعلم ـ لهولهما**[5].

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٥٠/٤) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٢/٧) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (١٥٠/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٢/٧) .

(٥) المحرر الوجيز (٦٩/٦) بتصرف .

رد العجز على الصدر

رد العجز على الصدر من المحسنات اللفظية التي ترد في النثر والشعر على حد سواء. وقد بين الخطيب القزويني صورته في النثر بقوله: "أن يجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما، في أول الفقرة، والآخر في آخرها."[(١)].

وفائدته في الكلام جليلة؛ فهو يدل بعضه على بعض، مما يمكن المتلقي من استخراج الفواصل في النثر، كما يضفي على الكلام الذي ينتظم فيه أبهة، ويكسوه رونقاً وديباجة، ويزيده مائية وطلاوة[(٢)].

ولرد العجز على الصدر شواهد في آيات العقيدة في سورة الأنعام، جمعت بين الأثر الصوتي والأثر المعنوي؛ من ذلك قوله تعالى :

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[الأنعام:١٠].

بعد أن ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ **فيما سبق مقترحاتهم على النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **؛ بطلب إنزال ملك معه** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **، أو إنزال ملك بالرسالة، وقصدهم بهذه المقترحات الاستهزاء والتعجيز معاً، وكانت مقولاتهم تلك تؤذي الرسول** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **؛ ذكر هنا ما يخفف عنه** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **ما يلاقيه من مكذبي قومه من استهزاء وسخرية، وسوء أدب[(٣)]. فالآية تسلية منه** ـ جل وعلا ـ **لنبيه محمد** ـ عليه الصلاة والسلام ـ **[(٤)].**

---

(١) الإيضاح (٣٣٨) .

(٢) ينظر : العمدة (٣/٢) .

(٣) ينظر : تفسير المراغي (٨٢/٧)، و: التحرير والتنوير (١٤٧/٦) .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٣/٥) بتصرف .

والشاهد في رد فاصلة الآية؛ وهي قوله تعالى: (مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) من قوله تعالى: (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)، على أولها؛ وهو قوله تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ)؛ بمادة "الهزؤ" بطريق جناس الاشتقاق.

والهُزؤ: مزح في خفية، يقال: هزئْت به واستهزأت. والاستهزاء ارتياد الهزؤ، وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ[1]. وثمة فرق دقيق بين الاستهزاء والمزاح؛ إذ المزاح لا يقتضي تحقير الممازح، وبضده الاستهزاء، فهو يقتضي تحقير المستهزأ به[2].

وعليه فإن استهزاء مكذبي الرسل برسلهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مبعثه التحقير من شأنهم، والتنقص من قدر من كرمهم الله ـ جل وعلا ـ، وشرفهم بحمل الرسالة، وهداية الناس إلى صراط الله المستقيم. في الوقت الذي كان من المتعين عليهم تصديقهم، واتباعهم، وإكرامهم، ونصرتهم..!.

ثم إن الاستهزاء بالرسول ينطوي تحته أمر جد خطير؛ وهو تحقير المرسل..!. فكأنهم حين استهزؤوا برسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ نالوا من قدر الله ـ جل وعلا ـ، وعظمته، وقدحوا في حكمته، ورحمته، وقضائه..، فاستحقوا بهذا الاستهزاء العذاب الشديد.

وكان للتعبير عن فعل الاستهزاء بقوله تعالى: (اسْتُهْزِئَ) ـ ببنائه للمجهول ـ لطائف بلاغية؛ لعل منها: التنبيه على أن مدار الاهتمام هو الفعل نفسه، وبيان أثره، لا كونه من معين[3]. والإشارة إلى العموم؛ أي أن الفعل كان يقع من الناس عامة أعلاهم وأدناهم[4]. وقد يكون في بناء فعل الاستهزاء للمجهول وعدم التصريح بفاعله؛ تحقير للمستهزئ، فالتعبير القرآني يوحي بأنه أقل شأناً من أن يذكر ردف رسل الله الذين كرمهم الله ـ تعالى ـ .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٥٤٢) بتصرف .

(٢) ينظر : الفروق اللغوية (٢١٠) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٢٨/٧)، و: التحرير والتنوير (١٤٧/٦) .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٢٨/٧) .

وفي قوله: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ) صدرت الجملة باللام الموطئة للقسم، وبـ(قد) الدالة على التحقق؛ للاعتناء بالخبر وتأكيده[١]. ولعل الغرض من هذا الاعتناء والتأكيد؛ إثبات ما تفرع عنه وتأكيده؛ وهو قوله تعالى: (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)؛ لأن حال المشركين ـ والله أعلم ـ حال من يشك في أن سبب هلاك الأمم السابقة، هو الاستهزاء برسلها، ولولا هذا الشك لاتخذوا لأنفسهم موقفاً مغايراً لما ساروا عليه، وللزموا الحذر والحيطة مع الرسول الذي أرسل إليهم، فنظروا في دلائل صدقه؛ ليستبرئوا لأنفسهم من عذاب متوقع. أو لعلهم نزلوا منزلة الشاك المتردد ـ إن كانوا يعلمون ذلك ـ ؛ لعدم اتخاذهم موقفاً يتناسب وعلمهم[٢].

فالآية تضمنت تهديداً ووعيداً لمكذبي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمستهزئين به[٣]. فمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء، والسخرية، والتكذيب[٤].

ومن الأسرار البلاغية للتنكير في الآية؛ ما أفاده تنكير كلمة "رسل"، من قوله تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ)؛ إذ أفاد تكثير الرسل المستهزأ بهم، وتفخيم شأنهم[٥]، فهم رسل الله ـ جل وعلا ـ والواجب تجاههم التصديق بما جاءوا، والاتباع، لا التكذيب والاستهزاء والإعراض. وفي هذا مزيد تسلية له ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فتكثيرهم فيه إشارة إلى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن بدعاً من الرسل، فقبله الكثير منهم ممن كذب واستهزأ بهم أقوامهم. وتفخيمهم فيه إشارة ـ والله أعلم ـ إلى عظم العذاب الذي يلحق من يستهزئ بهم، فسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، فهو ـ جل وعلا ـ ناصر أنبيائه، ومؤيدهم، وهو ـ سبحانه ـ لمن استهزأ بهم، وبغى عليهم بالمرصاد.

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٤/٣) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير (١٤٧/٦) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز (١١/٦) .
(٤) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٤٥/٢) .
(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٤/٣) .

وكلمة (حاق) من قوله تعالى: (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم) فيها إيحاء؛ و(حاق)؛ أي: نزل وأحاط[(١)]، ومعناها يدور على الشمول واللزوم[(٢)]؛ فالتعبير بها أوحى بأن العذاب النازل بالمستهزئين ـ عقاباً على استهزائهم ـ قد تمكن منهم، ولم يكن في مقدور أحدهم الإفلات منه[(٣)].

وعبر بالموصول بقوله تعالى: (بِالَّذِينَ سَخِرُواْ)، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: "بالساخرين"؛ ولعل ذلك للإيماء إلى تعليل الحكم؛ وهو قوله تعالى: (فَحَاقَ)[(٤)].

وقوله: (بِالَّذِينَ سَخِرُواْ) متعلق بقوله: (فَحَاقَ)، ويلحظ في نظم الآية تقديم المتعلق على فاعله، وهو قوله تعالى: (مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ)، وهذا ـ والله أعلم ـ للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم[(٥)].

ورد فاصلة الآية: (مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) على أولها: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ) له نكتة بلاغية، تؤتي ثمارها في قلب من ألقى السمع وهو شهيد. فالمكذبون ابتدؤوا رسلهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالاستهزاء؛ ليغيظوهم، ويضعفوا همتهم، وقد صغرت عاقبة الاستهزاء في أعين متعاطيه، حتى تجرؤوا على التمادي فيه..!. فكان في رد فاصلة الآية محملة بذكر عاقبة استهزائهم؛ استعظام للاستهزاء بالرسل؛ و بيان لعواقبه الوخيمة، وتحذير للمكذبين بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ المستهزئين به من التمادي فيما هم عليه.

يضاف إلى ذلك الأثر الصوتي الذي تركه هذا المحسن البديعي في الآية؛ فقد أضفى على الآية انسياباً جرسياً، له وقعه في الأذن، وسلاسته على اللسان.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١٥٣/٥) بتصرف .

(٢) إرشاد العقل السليم (١١٤/٣) بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٤٨/٦) .

(٤) ينظر : المرجع السابق. الصفحة نفسها .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم (١١٤/٣) .

ومن دقائق التعبير في نظم الآية الكريمة؛ أنه ذكر الاستهزاء أولاً بقوله تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ)، ولما أعيد معناه عبر عنه بقوله: (سَخِرُواْ)، ولم يكن التعبير ـ كما في غير القرآن ـ: "استهزؤوا"؛ ذلك لثقل استفعل من فعل الهزؤ، ولما أعيد ثالثة رجع إلى فعل (يستهزئون)، لأنه أخف على اللسان وعلى الأذن من "يستسخرون"، وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجز[1].

ومن شواهد رد العجز على الصدر في الآيات قوله تعالى :

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:٨٢].

في مناسبة الآية لما قبلها قال الطبرسي: "لما تقدم قوله ـ سبحانه ـ: (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنعام:٨١]؛ أي بأن يأمن من العذاب الموحد أم المشرك؟. عقبه ببيان من هو أحق به، فقال: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ...)"[2].

والآية خبر من الله ـ جل وعلا ـ عن أولى الفريقين بالأمن، وهي فصل قضاء منه ـ تعالى ـ بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين قومه[3] .

والشاهد في قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ)؛ ففيه رد العجز على الصدر بمادة "الأمن"؛ بطريق جناس الاشتقاق، فقد جونس بين (الأمن) و (آمنوا) المشتقة من الأمن.

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٨٠/٤)، و: التحرير والتنوير (١٤٧/٦) .

(٢) مجمع البيان (٥٠٦/٤) .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥١/٥) بتصرف .

والأمن: "طمأنينة النفس، وزوال الخوف"[١]. والإيمان: "قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان"[٢]، وهو مأخوذ من الأمن[٣]. وقد بينه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ : "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[٤].

ولعل السر البلاغي في تسخير رد العجز في الآية على صدرها؛ الدلالة على عظم هذا المطلب؛ وهو "الأمن"؛ إذ كل النفوس تنشده وتفتش عنه؛ لأن غيابه يعني لها الشيء الكثير؛ فبغيابه تفقد الحياة هدوءها..، وتستحيل زلزالاً مؤرقاً..، يسلب من العين غمضها، ويمنحها سهاداً لا يرحم..!؛ ويعكر صفاء النفس..، ويغرس في أعماقها اضطراباً، وحيرة، وضياعاً .. يسلمها إلى مهاوي الضلال والردى..!.

وكان لختم مقطع الآية بكلمة (الأَمۡنُ) وردها على أولها؛ وقع صوتي ذو تأثير بليغ على نفس المتلقي؛ إذ تهتز نفسه..، وتشرئب متطلعة بلهفة إلى أهل الأمن مرة ثانية..، ولكن بوعي آخر؛ وعي شخص يبحث عن نفسه بين أولئك الذين وعدوا بهذا الأمن الكامل في الدنيا والآخرة: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَانَهُم بِظُلۡمٍ). فالأمن الموعود حاصل لتلك النفوس التي تأوي إلى ركن شديد، وحصن منيع..؛ حصن الإيمان. فهو وحده الذي يورث صاحبه أمناً في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا له أمن داخلي وآخر خارجي. فالداخلي يجده العبد في نفسه؛ فعندما يؤمن ـ مثلاً ـ بأن ما أصابه ما كان ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، تطمئن نفسه وتهدأ..؛ ثقة منه بالله ـ جل وعلا ـ ، وبحكمته، وعدله، وجزائه. وكذا عندما يؤمن بأن الخلق.. كل الخلق لو اجتمعوا كي يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء كتبه الله عليه، وأنهم لو اجتمعوا لينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له. ولو عدم هذا الإيمان من نفس العبد أو ضعف، فلن يجد

(١) المفردات (٢٥) .

(٢) مجموعة الفتاوي (٣١٠/٧) .

(٣) المرجع السابق (٣٢٥/٧) بتصرف .

(٤) سبق تخريجه ينظر : ص .

الأمن النفسي حتى وإن كان في حصن حصين، وحوله الحرس بأسلحتهم، وقو م، وكثر م..؛ إذ لا أمن نفسي لمن لا إيمان له..!.

أما الأمن الخارجي؛ فيجده العبد المؤمن في مجتمعه، يأمن على نفسه، وماله، وعرضه، وأرضه... وهذا من أعظم آثار الإيمان، عبودية خالصة لله، تورثه سيادة، وعزة، وأمناً..، وكلما قوي الإيمان في قلبه، وظهرت آثاره على جوارحه..، قوي أمنه، وكلما ضعفت إيمانه، ضعف أمنه..!.

ومن أروع الأمثلة التي جسدت ترتب الأمن على الإيمان؛ قصة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين طلبه كفار قريش ليقتلوه، فهرب مع صاحبه أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، وتواريا في الغار، والكفار يتعقبو ما، حتى دنوا منهما، فلم يكن بين كفار قريش والإمساك بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه ـ رضي الله عنه ـ سوى نظرة واحدة..! فأي نفس لا تز أمام هذا الموقف العصيب؛ قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في ذلك: "كنت مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما"[١]. وفي هذا أنزل الله ـ جل وعلا ـ قرآناً، قال تعالى: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[التوبة: ٤٠]. فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قوياً بإيمانه بالله ـ جل وعلا ـ، فأمنه الله ـ تعالى ـ . فمن كان الله بعظمته، وقوته، وجبروته، وعزته، وقهره.. معه..، فكيف يخاف..؟!.**

فالأمن مطلب عظيم؛ لأن به تستمر الحياة على الأرض كأجمل ما تكون.. نابضة بالاطمئنان، مشرقة بالهدوء والراحة..، فيتمكن أهل الإيمان من قيادة أمتهم مم وثابة

---

(١) **رواه البخاري في صحيحه. كتاب: التفسير. باب: قوله:** (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا)، **(٨٨٩)، حديث رقم (٤٦٦٣).**

إلى أسمى المنازل، تحدوهم غايا م النبيلة..!. وفي ا تمعات المؤمنة لن نجد مؤمناً يخلص إيمانه لله ـ تعالى ـ يقتل ولده من إملاق، أو خشية إملاق.. . أو من يقتل نفسه خوفاً من مستقبل غامض ومكروه، أو هرباً من واقع مرير..!، لذا سخرت بلاغة رد العجز على الصدر لإبراز ذلك.

ثم **إن المؤمن آمن ـ أيضاً ـ في الآخرة على الصراط، ومن غضب الله ـ تعالى ـ، وعذابه[1]؛ لأنه في دنياه كان يتقي الله ـ جل وعلا ـ خوفاً من غضبه وعذابه؛ وقد جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه: "قال الله ـ تعالى ـ: "وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إنْ هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي"[2].**

"ولما نزلت: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ) [الأنعام:٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "ليس هو كما تظنون. إنما هو كما قال لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[لقمان:١٣]."[3]. والذين شق عليهم ذلك ظنوا أن الظلم المشروط في الآية هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله ـ تعالى ـ ، وحينئذ فإن الأمن والاهتداء لا يحصلان إلا لمن لم يلبس إيمانه ذا الظلم[4]. وهذا هو الجواب الذي يشفي العليل ويروي الغليل؛ فإن الظلم المطلق التام؛ هو الشرك الذي يعرف بوضع العبادة في غير موضعها. والأمن والهدى المطلق؛ هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم[5].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٥/٥) .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) (٧٩٨/٢) حديث رقم (٤٣٣٢) .

(٣) صحيح مسلم. كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، (٧٦)، حديث رقم (١٢٤) .

(٤) مجموعة الفتاوى (٥٦/٧) بتصرف .

(٥) الضوء المنير (٤٥/٣) بتصرف .

ومن اللطائف البلاغية في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾؛ اللبس؛ أي: الخلط، والمعنى: لم يخلطوا إيمانهم بشرك[1]. وفي نكتة تنكير (بظلم) ذكر البقاعي ـ ما معناه ـ: أن تفسير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الظلم الوارد في الآية بالشرك الموصوف بالعظم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]؛ فيه تنبيه لأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ على أن هذا التنكير للتعظيم. وأضاف البقاعي: وإنه ما من شك في أن السياق كله وارد في التنفير من الشرك، فيكون التنكير فيه ما يدل على الحث على التبريء من الشرك قليله وكثيره، فآل الأمر إلى أن المراد: ولم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك؛ فالتنكير حينئذ للتحقير كما هو للتعظيم[2]. لكن لعله يقال ـ استناداً على تفسيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ للظلم هنا بالشرك ـ أن تنكير قوله تعالى: ﴿بِظُلۡمٍ﴾؛ لإفادة عموم الشرك، فيدخل تحت هذه الكلمة الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر، وبشتى صوره، فيكون الأمن التام والاهتداء التام لمن نجا من الشرك بأنواعه، ومن وقع في شيء من الشرك الأصغر من الموحدين نقص أمنه واهتداؤه بحسب ما ارتكبه ـ والله أعلم ـ. والشرك الأكبر "لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده."[3].

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٥/٥) .

(٢) ينظر : نظم الدرر (١٦٧/٧-١٦٨) .

(٣) مدارج السالكين (٣٣٨/١) .

أما الشرك الأصغر؛ فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: "ما شاء الله وشئت"، و"هذا من الله ومنك"، و"مالي إلا الله وأنت"، و"أنا متوكل على الله وعليك"، و"لولا أنت لم يكن كذا وكذا"؛ وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب حال قائله ومقصده.

ومن أنواع الشرك الأكبر: النذر لغير الله، وهو أعظم من الحلف بغير الله. ومنه: صرف الخوف لغير الله مطلقاً، والتوكل عل غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى والغنية بذلك عن حمده ـ سبحانه ـ، والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجر به القدر، واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة م، والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً لمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له عند الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده؛ فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله ـ جل وعلا ـ لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بما يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذا عند زيارة القبور، والمشركون عكسوا هذا، وزاروهم زيارة العبادة، واستقصاء الحوائج، والاستغاثة م، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، وسموا قصدها حجاً، واتخذوا عندها الوقْفَة وحلقوا الرؤوس، فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه ـ الموحدين له، الذين لم يشركوا به شيئاً ـ بذمهم وعيبهم ومعادا م، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أ م راضون منهم ذا وأ م أمروهم به. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل مكان وزمان، وما أكثر المستجيبين لهم!.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاؤه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستغاثته بالله..، وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته..، فهو لله وبالله ومع الله. والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله[(١)]، إن أنواعه خفية، تتسلل إلى قلب العبد دون أن يشعر، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذُ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم"[(٢)].

ومن أسرار التعبير القرآني في الآية الكريمة :

في قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ)؛ الإشارة بـ(أُوْلَٰٓئِكَ) إلى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة في قوله: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ)، وفي الإشارة إليه بعد وصفه بما ذكر إيذان بأ م تميزوا بذلك عن غيرهم، وانتظموا في سلك الأمور المشاهدة، أما ما في اسم الإشارة من بعد؛ فهو ـ والله أعلم ـ للإشعار بعلو درجتهم، وبعد م لتهم في الشرف[(٣)].

(لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ)؛ اللام للاختصاص، والتعبير ا أفاد أن الأمن مختص م وثابت لهم، وهو أبلغ من أن يقال ـ كما في غير القرآن ـ: آمنون[(٤)].

(وَهُم مُّهۡتَدُونَ)؛ عرف المسند إليه بالإضمار؛ ولعل في هذا مدحاً لهم؛ إذ يؤمئ بعلو شأ م، وارتفاع م لتهم.

---

(١) مدارج السالكين (٣٤٢/١) وما بعدها، بتصرف.

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) (٦٩٤/١) حديث رقم (٣٧٣١) .

(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٦/٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٣/٧) .

المبحث الثالث

الفاصلة القرآنية

الفاصلة القرآنية

لغة: الفَصل من الجسد موضع المَفْصل، وبين كل فصلين وصل. والفصل: الحاجز بين الشيئين. وفَصلْت الشيء، فانفصل؛ أي قطعته فانقطع. والمَفْصل: كل ملتقى عظمين من الجسد. والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام. وعقد مفصل؛ أي جعل بين كل لؤلؤتين خرزة. وفي القرآن الكريم؛ قوله تعالى: (آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ) [الأعراف: ١٣٣]؛ أي بين كل آيتين فَصل تمضي هذه وتأتي هذه، وبين كل آيتين مهلة، وقيل مفصلات مبينات، والله أعلم. وسمي المفصل مفَصلاً؛ لقصر أعداد سورة من الآي(١).

وفي الاصطلاح: "كلمة آخر الآية"(٢). وفاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر، وقافية البيت في الشعر، إلا أن ما يعيب الفاصلة من اختلاف الحركة والإشباع والتوجيه، لا يعد عيباً في الفاصلة(٣).

وتسمية أواخر الآيات فواصل، أخذت من قوله تعالى: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) [فصلت:١]؛ فآخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها(٤).

وللفاصلة في النظم القرآني قيمة بالغة الأهمية؛ فمن ذلك أ ا تقع لتحسين الكلام ا، وهي طريقة باين القرآن ا سائر الكلام(٥). ليس ذلك فحسب، بل إن المتأمل في النظم القرآني يجد الفاصلة قد اختيرت بعناية، حتى إن ما قبلها يمهد لها تمهيداً، يجعل منها ممكنة في مكا ا، مستقرة في قرارها، مطمئنة في سياقها، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، ولو طُرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم(٦).

---

(١) ينظر : لسان العرب . مادة (فصل) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢٠٩/٢) .

(٣) المرجع السابق .(٢١٠/٢) بتصرف .

(٤) ينظر : السابق . نفسها .

(٥) ينظر : السابق . نفسها . و: التناسب البياني في القرآن (٣٥٢) .

(٦) ينظر : البرهان في علوم القرآن (٧٩/١)، و: التناسب البياني في القرآن (٣٥٢) .

لذا كان للكلمة، أو الجملة، أو المقطع الذي تختم به الآية قيمة خاصة؛ لأنه عنصر يؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية؛ فهو من ناحية يتصل بالمعنى ويتممه. ومن ناحية أخرى يتصل بنظام الفواصل وينسقها[(١)].

ولكي تتضح صلة الفاصلة القرآنية بالمعنى، وقيمتها البلاغية في نظم الآية؛ سأعرض هنا لشواهدها، مبتدئة بتحليل ما يتيسر من كلمات الآية وجملها إلى أن أصل إلى فاصلتها.

ومن شواهد الفاصلة القرآنية قوله تعالى:

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ **) [الأنعام:٨٩] .**

في مناسبة الآية لما قبلها قال أبو حيان ـ ما معناه ـ: أنه لما ذكر ـ تعالى ـ أنه فضل من سبق ذكره من الأنبياء، واجتباهم، وهداهم في قوله تعالى: (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ۝ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) [الأنعام:٨٧-٨٨]؛ ذكر هنا ما فضلهم به[(٢)].**

قوله: (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**)؛ الإشارة بـ(**أُوْلَـئِكَ**) إلى من سبق تسميتهم، الذين هداهم ـ جل وعلا ـ لدين الإسلام، واختارهم لتبليغ رسالته إلى خلقه[(٣)].**

وفي التعبير عن المسند إليه باسم الإشارة مزية بلاغية، إذ أفاد زيادة الاعتناء به، فبه تم تمييز الأنبياء المذكورين، واستحضار شيء من سيرهم في الأذهان[(٤)]. والبعد الذي في (أُوْلَـئِكَ**)؛ يوحي ببعد منزلتهم، ورفعتهم، وعلو شأنهم.**

---

(١) ينظر: التناسب البياني في القرآن (٣٥٢) .

(٢) ينظر: البحر المحيط (١٧٥/٤) .

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٩/٥) .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٣٥٢/٧) .

ومن الإيحاء ـ أيضاً ـ ما توحيه كلمة (آتَيْنَاهُمُ)؛ إذ توحي بتفضل الله ـ جل وعلا ـ على أولئك الأنبياء، وتفضيله، لهم وتكريمه إياهم على سائر خلقه.

ومما اختصهم به (الْكِتَابَ)؛ والتعريف فيه للجنس(١)؛ أي جنس الكتب الإلهية، التي منها صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، والتوراة، والزبور، والإنجيل(٢).

و(الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ)، والحكم: أي العلم بالكتاب، والفقه بما فيه من أحكام(٣). ومن أسرار التعبير القرآني في الآية تقديم (الْكِتَابَ) و (الْحُكْمَ) على النبوة، مع أ ا هي الأصل، وهما فرع عنها. ولعل السر في هذا؛ أنه لما كانت (النُّبُوَّةَ) أشرف المراتب، مهد لها بذكر (الْكِتَابَ) أولاً، و(الْحُكْمَ) ثانيا؛ لأ ما يدلان عليها(٤).

قوله: (فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء)، قال "الطبري" في معنى الآية: "فإن يكفر ـ يا محمد ـ بآيات كتابي الذي أنزلته إليك، فيجحد هؤلاء المشركون العادلون بر م"(٥). فأعاد "الطبري" الضمير في (بِهَا) لآيات القرآن الكريم. لكن لعل الناظر إلى السياق الذي وردت فيه الآية يستبين له أن المراد شيء أكثر شمولاً مما ذكر الطبري؛ وهو وحدانية الله ـ تعالى ـ ، والدلائل الناطقة باستحقاقه العبادة وحده. ثم إن الإيمان بوحدانيته ـ جل وعلا ـ يستلزم الإيمان برسله الذين أرسلهم لتبليغ رسالته لخلقه، وهدايتهم إلى صراطه المستقيم، وآخر الأنبياء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويستلزم ـ أيضاً ـ الإيمان بما أنزله ـ تعالى ـ معهم من كتب، وآخرها القرآن الكريم. قال "الخازن": "(فَإِن يَكْفُرْ بِهَا

---

(١) ينظر : الكشاف (٢٦/٢) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٧٥/٤) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٠/٥)، و: معالم التن يل (١١٣/٢) .

(٤) ينظر : تفسير الخازن (١٥٦/٢) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٥٩/٥) .

هَؤُلاءِ)؛ يعني إن يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش"[١]. وقد يكون الضمير في (بِهَا) عائداً على (النبوة)؛ لأ ا أقرب مذكور[٢] .

ودعوة النبي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ هي دعوة جميع المرسلين قبله، من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته، مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب؛ فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله ـ تعالى ـ، وكل كتاب أنزله. ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به من قبله صدق، وأنه هو كاذب مفتر على الله، وهذا بم لة شهود شهدوا بحق، فصدقهم الخصم قال: هؤلاء كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهاد م سواء، فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة، وكذب لا أصل لها..!. وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً، ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهاد م، وأ ا شهادة حق مع قوله: إن الشاهد ا كاذب فيما شهد به[٣].

فقوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكفرهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعاً[٤].

ومن اللطائف البلاغية في الآية :

تقديم المتعلق (بِهَا) على المسند إليه (هَؤُلاءِ)، وكان مقتضى الظاهر أن يتأخر، ولعل السر البلاغي فيه؛ الاهتمام بالمتعلق المقدم، والتشويق إلى المسند إليه المؤخر، حتى إذا ذكر كان لذكره وقع ذو تأثير في نفس المتلقي[٥].

ومنها التعبير عن المسند إليه المؤخر بقـوله: (هَؤُلاءِ)، وتكاد تتفق أقوال كثير مـن

---

(١) تفسير الخازن (١٥٦/٢) .

(٢) ينظر : البحر المحيط (١٧٥/٤)، و: التحرير والتنوير (٣٥٤/٧) .

(٣) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٥٥/٣) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٩/٣) .

(٥) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

المفسرين في أن كفار قريش؛ هم المعني بالإشارة[١]، وإذا كانت الإشارة بـ (هَٰٓؤُلَآءِ) إلى من كفر من قوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصلاً، فإن كل من عداهم ممن كفر بما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدخل فيها تبعاً[٢].

وكان التعبير عن المسند إليه المؤخر بقوله: (هَٰٓؤُلَآءِ) مزية على غيره؛ إذ أفاد ـ والله أعلم ـ التحقير، ودلالته على التحقير أتت من جهتين:

الأولى : تأخير المسند إليه، وكأن تأخيره في النظم القرآني فيه دلالة على حقار م، وأ م شيء لا يعبأ به، ولا يلتفت إليه، وحظه من الذكر أن يؤخر؛ لنفرة النفس منه.

الثانية : التعبير عنه بالاسم الذي يشار به إلى القريب؛ وفي هذا ـ أيضاً ـ تحقير لشأن الذين كفروا، والحط من قدر م.

: (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا)، واختلفت أقوال المفسرين في القوم الذين وكلهم الله ـ جل وعلا ـ، من ذلك [٣]:

١- أريد ا الأنصار؛ أهل المدينة .

٢- الملائكة .

٣- الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله ـ تعالى ـ فيما سبق هذه الآية من آيات.

أما القول الشافي؛ فهو الذي قال به ابن القيم؛ و نصه:"القوم الموكلون ا هم: الأنبياء أصلاً، والمؤمنون م تبعاً؛ فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها."[٤]. وقول من قال: إ م الملائكة؛ ضعيف جداً؛ لأن السياق لا يدل عليه، كما أن لفظه (قَوۡمًا) تأباه؛ إذ الغالب في القرآن، بل المطرد تخصيص "القوم" ببني آدم دون

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦١/٥)، و: معالم التنزيل (١١٤/٢)، و: تفسير الخازن (١٥٦/٢)... وغيرها .

(٢) ينظر : الضوء المنير على التفسير (٥١/٣) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦٠/٥) وما بعدها، و: معالم التنزيل (١١٤/٢)، و: الكشاف (٢٦/٢)... وغيرها .

(٤) الضوء المنير (٥١/٣) .

الملائكة. أما قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم: (قَوْمٌ مُّنكَرُونَ) [الذاريات:٢٥]، فإنما قاله لما ظنهم من الإنس. ثم إن فخامة المعنى ومقصوده يخبو؛ ولهذا لو أظهر ذلك، وقيل: فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة، فإنهم لا يكفرون بها؛ لم نجد في هذا تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتحقيراً للمشركين.

٤- شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم؛ لكونهم أحق بها وأهلها، والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء[1].

وتصدير الجملة بـ(قَدْ) ذات الجرس القوي، والتي تفيد التحقيق؛ أكد مضمون الجملة.

و: (وَكَّلْنَا)؛ توكيلهم بها يتضمن توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها، وحفظها، ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها[2].

وهذا التوكيل خاص بمن قام بها؛ علماً وعملاً، وجهاداً لأعدائها، وذباً عنها، ونفياً لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. وهو ـ أيضاً ـ توكيل رحمة، وإحسان، وتوفيق، واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الشخص من يتصرف عنه في غيبته لحاجته إليه[3].

وقُيد التوكيل هنا بقوله: (بِهَا)، فعليه لا يصح أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق؛ فيقال لأحد هؤلاء الموكلين: إنه وكيل الله، كما يقال: ولي الله.كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد؛ أن يقال: خليفة الله؛ لقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) [النور:55]، ولما قيل للصديق ـ رضي الله عنه ـ : يا خليفة الله!، قال: "لست بخليفة الله، ولكني خليفة

---

(١) ينظر : الضوء المنير (٥٢/٣) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٦١/٥)، و: الضوء المنير (٥٣/٣) .

(٣) الضوء المنير (٥٣/٣) بتصرف .

رسول الله، وحسبي ذلك". ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالى: (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا). وقد قال بعض السلف في معنى الآية: أي رزقناها قوماً؛ فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم ا: إنه وكيل لله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة؛ فإ ا من المحبة والقرب، فكما يقال: عبدالله وحبيبه، يقال: وليه[١].

وفي النظم القرآني قُدم الجار وا رور (بِهَا)؛ من قوله تعالى: (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا) على المفعول الصريح (قَوۡمًا)، و لعل النكتة فيه الاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر. يضاف إليه أن المؤخر فيه طول ربما يؤدي تقديمه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم، أو إلى الفصل بين الصفة (لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)، والموصوف (قَوۡمًا)[٢].

ومن لطائف التنكير؛ ما أفاده تنكير كلمة (قَوۡمًا)؛ إذ أفاد التفخيم[٣]؛ تفخيم شأن الموكلين بالإيمان بوحدانية الله ـ جل وعلا ـ ، ونبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وآيات القرآن الكريم، ورفع قدرهم.

ومن دقائق التعبير القرآني في نظم الآية؛ ما ازدان فيها من طباق (خفي) بين قوله تعالى: (فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ)، وقوله: (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا)؛ فالكفر ا يعني إنكارها، ونبذها، وتضييع حدودها. أما الوكالة ـ كما مر ـ؛ فتعني القيام بحقها، وحفظها، ومراعا ا، والذب عنها. فكلتاهما ضد للأخرى، وانتظامهما في الآية على هذه الصورة، كان له نصيب في إثرائها باللطائف، وإحداث بليغ الأثر في نفس المتلقي؛ وبيان ذلك، أنه "إذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره، ولم يلتفتوا إلى عهده، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره؛ فنظر إليهم، وقال: إن يكفر هؤلاء بنعمي ويعصوا أمري، ويضيعوا عهدي؛ فإن لي عبيداً سواهم؛ وهم أنتم: تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدون حقي؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور، والنشاط وقوة العزيمة، ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام بحق العبودية،

---

(١) الضوء المنير (٥٣/٣) .

(٢) ينظر : روح المعاني (٢٠٥/٤) .

(٣) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم. وهذا أمر يشهد به الحس والعيان."[(١)]، فهذا الأسلوب تضمن تحريض العباد المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وتنبيههم على محبته ـ سبحانه وتعالى ـ لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين[(٢)].

ولعل المتأمل في نظم الآية يجد أن سياقها قد أفضى، ومهد لفاصلتها؛ فالله ـ تعالى ـ أرسل الرسل؛ لإثبات وحدانيته، وإرساء قواعد لا إله إلا الله في النفوس، وكان حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، لكن الذي شهده واقع مشركي العرب، كان مخالفاً لذلك؛ فهم ـ وغيرهم ـ كفروا بـ"لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، فبين الله ـ تعالى ـ أنه قد اختار لها أفضل خلقه، وأكرمهم، وأعلاهم شأناً، وإن يكفر بها طائفة من العرب، فقد شرف الله ـ جل وعلا ـ قوماً آخرين بالإيمان بها، وحملها على مدى العصور، وأتت فاصلة الآية مؤكدة ومقررة المعنى السابق بقوله تعالى: (لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ).

وتقييدها بالصفة؛ للدلالة ـ والله أعلم ـ على أن القوم الذين شرفهم الله، وكرمهم.. قد سارعوا إلى الإيمان بمجرد دعوتهم إلى ذلك[(٣)]، وفي هذا ثناء عليهم بالخير، وإعلاء من شأنهم.

والمجيء في وصفهم بالجملة الاسمية ـ باعتبار الأصل ـ المؤلفة من اسم (ليس) وخبرها، أكد مضمون الجملة؛ وأفادت أنهم مستمرون على الإيمان بها؛ لأن الجملة الاسمية الإيجابية كما تفيد دوام الثبوت، كذلك السلبية تفيد دوام النفي بمعونة المقام، لا نفي الدوام، فهي هنا تفيد دوام نفي الكفر عنهم، الذي يفهم منه أنهم مستمرون على الإيمان[(٤)].

---

(١) الضوء المنير (٥٢/٣-٥٣) .

(٢) ينظر : المرجع السابق . الصفحة نفسها .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٥٤/٧) .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٥٩/٣)، و: التحرير والتنوير (٣٥٤/٧) .

وأدخلت "الباء" في خبر "ليس" (بِكَافِرِينَ)؛ وهذا لتأكيد النفي؛ فصار دوام نفي مؤكد[١].

ويلحظ في نظم الآية تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله: (لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ)، وفي عناية بالآيات ومضامينها [٢]، ومراعاة للفاصلة[٣].

وفي الآية إشارة وبشارة بحفظ هذا الدين، وأنه محفوظ بحفظ الله تعالى، وأن (هَٰٓؤُلَآءِ) وإن ضيعوه ولم يقبلوه، فإن له (قَوۡمًا) غيرهم يقبلونه، ويحفظونه، ويرعونه، ويذبون عنه، فكفر الكفرة لا يضيعه، ولا يزيله، ولا يضره شيئاً[٤]، بل إن دين الله ـ جل وعلا ـ غني عنهم، والأنبياء الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين..!. وهذا المعنى الشريف يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلوب العصبة المسلمة ـ أياً كانت وكان عددها ـ إن هذه العصبة ليست وحدها؛ إنما فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله ـ تعالى ـ وهداه[٥].

ومن شواهد الفاصلة آيات تأتي في سياق يعرض على القلب البشري صفحة من الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته، وقدرته، وتدبيره..[٦]؛ قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الۡبَرِّ وَالۡبَحۡرِ قَدۡ فَصَّلۡنَا الآيَاتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۞وَهُوَ الَّذِىَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسۡتَقَرٌّ وَمُسۡتَوۡدَعٌ قَدۡ فَصَّلۡنَا الآيَاتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ۞ وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخۡرَجۡنَا بِهِ نَبَاتَ

---

(١) ينظر : الكشاف (٢/٢٦)، و: التحرير والتنوير (٧/٣٥٤) .
(٢) ينظر : نظم الدرر (٧/١٨٢) .
(٣) روح المعاني (٤/٢٠٥) بتصرف .
(٤) ينظر : الضوء المنير (٣/٥٢) .
(٥) ينظر : في ظلال القرآن (٢/١١٤٤) .
(٦) ينظر : المرجع السابق (٢/١١٦١) .

كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) **[الأنعام:٩٧-٩٩].**

ومع أن الآيات يجمعهن سياق واحد، ولهن غرض واحد، إلا أن فاصلة كل آية منهن غايرت الأخرى؛ فالأولى أتت فاصلتها بقوله تعالى: (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**، والثانية:** (لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)**، والثالثة:** (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**. وحتى يستبين للقارئ سر المغايرة بينهن؛ يحسن التمهيد لكل فاصلة بتحليلٍ لآيتها التي انتظمت فيها.**

قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) **[الأنعام:٩٧].**

والآية تحمل نوعاً ثالثاً من الدلائل الدالة على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ ، ورحمته، وحكمته؛ وهو أنه ـ تعالى ـ خلق النجوم لمنافع العباد(١).

وجملة: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا...) **عطف على جملة:** (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)**؛ لاتفاقهما في الخبرية، مع التناسب؛ إذ إن كلتيهما تذكير بوحدانية الله ـ تعالى ـ ، وبعظيم خلقه، ونعمه(٢).**

وصيغ الخبر بصيغة القصر؛ بطريق تعريف المسند (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ)**، والمسند إليه** (هُوَ)**؛ أي هو الذي خلق لكم النجوم.. لا غيره، والغرض منه الاستدلال على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالإلهية؛ لأن كون خلق النجوم من الله، وكو ا مما يهتدى**

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٧٩/٥). وللوقوف على النوع الأول من هذه الدلائل.. ينظر في هذا البحث: تحليل الآية (٩٥)ص٢١٧، وأما النوع الثاني، فينظر: تحليل الآية (٩٦)ص ٤٦٤.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٢/٧) .

ا، معلوم للمخاطبين، ولا ينكرونه، إلا أ م لم يعلموا بما يقتضيه؛ وهو إفراد هذا الخالق ـ جلَّ وعلا ـ بالعبادة دون ما سواه(١).

وقدم الجار وا رور (لَكُمُ) من قوله: (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ) على المفعول به الصريح، و من نكتة الاهتمام بالمخاطبين، وكمال العناية م(٢)؛ وفي هذا مزيد إظهار لامتنانه وتفضله عليهم، فحقه ـ جل وعلا ـ عليهم إخلاص الشكر لا الشرك.

والخطاب بـ (لَكُمُ) يهم المؤمنين والكافرين؛ فالحجة بالمخاطبة على الكافرين قائمة، والعبرة ا للمؤمنين مستخلصة(٣).

و(النُّجُومَ)؛ جمع نجم؛ وهو الكواكب الطالع(٤). فتلك النجوم التي تتلألأ في كبد السماء، هي من خلق الله؛ وهي وإن كانت آية ناطقة بوحدانيته ـ جل وعلا ـ ؛ إلا أن لها فائدة لا ترتقي لإدراكها بعض العقول؛ لما ترسخ فيها من جهل مطبق..!؛ فمن فوائدها ما نقلته الآية هنا، بقوله تعالى:

(لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الۡبَرِّ وَالۡبَحۡرِ)؛ فاللام في (لِتَهۡتَدُواْ) سخرت لتدل على حكمة لجعل النجوم، وسبب الامتنان؛ وهو ذلك النفع العظيم(٥). فالله ـ جل وعلا ـ هو الذي جعل لكم ـ أيها الناس ـ النجوم أدلة في ظلمات البر والبحر، تستدلون ا على المحجة إذا ضللتم، فتهتدون إلى الطريق الصحيح، وتنجون من ظلمات أغرقتكم(٦).

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٢٠٢/٧)، و: التحرير والتنوير (٣٩٣/٧) .
(٢) ينظر : نظم الدرر (٢٠٢/٧) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز (١١٦/٦) .
(٤) ينظر : المفردات (٣٨٣) .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٣/٧) .
(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨١/٥) .

وهذه فائدة للنجوم من بين ثلاث فوائد؛ أما الثانية: فهي زينة للسماء، قال تعالى: (وَلَقَدۡ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنۡيَا بِمَصَابِيحَ) [الملك:٥]، والثالثة: أ ا رجوم للشياطين، قال تعالى: (وَجَعَلۡنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ) [الملك:٥][1].

وقد "قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ وكذب على الله ـ سبحانه ـ؛ أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدي ا في ظلمات البر والبحر."[2]. فهو ـ جل وعلا ـ لم يخلقها لتعبد من دونه ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا ليعتقد أن لها تصرفاً في الكون من دونه ـ تعالى ـ، كما أنه ـ جل وعلا ـ لم يخلقها للتنجيم ا عن حظ الإنسان ومستقبله الغيبي..!. وهذا الدجل والإدعاء عم في ا تمعات الإسلامية، وسرى فيها سريان النار في الهشيم..!. ومع تطور وسائل الإعلام والاتصال بين الشعوب، لم تعد كثير من ا لات والصحف السيارة، هي فقط من تروج لمطبوعا ا ذا الدجل، بل خرجت على العالم قنوات فضائية، صارت تروج لنفسها؛ باستجذاب السذج من الناس، ببرامج تستضيف فيها منجمين..، يقرأون للمشاهدين طالعهم..!!. ويمارس أولئك المنجمون كذ م أمام العالم أجمع؛ فيزعمون ـ لهذا المُشاهد أو ذاك ـ: أن النجم الفلاني يقول: إن حظك هذا اليوم كذا وكذا، وإن اليوم الفلاني نحس عليك..، وبعد شهر سيحصل لك كذا وكذا... إلخ، وكثر المتهافتون عليهم، وهذا من أبشع صور الجاهلية؛ إذ كل ما في جعبة أولئك هو الكذب والافتراء على الله ـ تعالى ـ، ثم على النجوم..!. وما ممارسا م تلك إلا من ادعاء علم الغيب؛ لأن العلم به من خصائص الألوهية؛ كما قال تعالى: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الۡغَيۡبِ لاَ يَعۡلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) [الأنعام:٥٩]، فمن قال به فقد بغى، وتعدى على حدود الله ـ تعالى ـ، ولم تنتشر مثل هذه المخالفات الصارخة، والتي تطعن في كمال توحيد العبد ـ إن لم تخرجه منه ـ إلا للجهل بصحيح المعتقد، وبضعف الإيمان؛ إذ لو اعتقد المسلم اعتقاداً جازماً؛ بأنه لا

---

(١) ينظر : معالم الت يل (١١٧/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٥١/٢) .

يعلم الغيب إلا الله ـ تعالى ـ ، وأن النجوم لا يمكن أن يقرأ ا حظ الإنسان وما غاب عنه، وأ ا من هذه الادعاءات بريئة؛ لو اعتقد المسلم ذا اعتقاداً جازماً لما قصد مثل أولئك، ولا استمع لهم، بل لسلم أمره لله وحده، ورضي بقضائه وقدره.

ومن لطائف "الجمع" في الآية؛ جمع كلمة (ظُلُمَاتِ)، من قوله تعالى: (لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ)؛ بصيغة الجمع؛ لتضم الكلمة جميع أنواع الظلمة، كظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض، أو الماء..، فالعباد في كل هذه الظلمات والمتاهات بحاجة إلى الاهتداء، فجعل ـ تعالى ـ لهم النجوم؛ ليهتدوا ا[(١)]، وفي صيغة الجمع ـ أيضاً ـ إشارة إلى قوة هذه الظلمات، وشد ا، وإحاطتها، وتمكنها[(٢)]. وهذه الكثرة، والقوة، والإحاطة.. توحي بضعف الإنسان، وجهله، وحاجته الماسة في هذا الكون الفسيح إلى من يرشده ـ إن هو ضل طريقه ـ ، وأنه وإن طغى وتجبر، فهو لا شيء أمام قدرة الله ـ تعالى ـ ؛ وأنه في لحظة ما سيضطر إلى أن يرفع عينيه إلى (الأعلى)، يستجدي النجوم اهتداءً، وحري به أن يرفعهما وهو عزيز بإيمانه بالله وبدينه الإسلامي؛ وهو يستشعر عظمة الله الذي خلق، ورحمته إذ سخر. لا أن يرفعهما يستجدي اهتداءً، وهو يشتم الظلام، وينسى ظلمة الكفر التي تجثم على صدره..!.

وفي نظم الآية أضيفت كلمة (الظلمات) إلى (البر والبحر)؛ لملابستها لهما[(٣)]؛ ففيها إشارة إلى أن الظلمات هي التي تلبسهما، وتستولي عليهما، فكأن السائر في الليل يقطع قطعاً من الظلمات، سواء أكان في البر والبحر[(٤)]. وفي هذا التعبير إظهار مزيد امتنانه ـ جل وعلا ـ على عباده إذ سخر لهم النجوم ليهتدوا ا.

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨١/٥) .

(٢) ينظر : الكشاف (٣٠/٢) .

(٣) ينظر : المرجع السابق ،الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٤٧/٢) .

وبعد أن ذكر الاستدلال بأحوال تلك النجوم، ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا الۡآيَاتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[(١)]. والجملة مستأنفة؛ للتبليغ، وقطع معذرة من لم يؤمنوا[(٢)]. وتصديرها بـ﴿قَدۡ﴾ أكد مضمو ا.

ومن الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ اختيار كلمة ﴿فَصَّلۡنَا﴾ في هذا المقام؛ ومعنى ﴿فَصَّلۡنَا﴾؛ أي: بيناها بياناً شافياً، وميزنا كل نوع منها عن الآخر، به صارت آيات الله ـ تعالى ـ ظاهرة بلا لبس[(٣)]. وهذا التفصيل يتناسب وسياق الآيات الذي يعرض لدلائل وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وحكمته، وقدرته، وعلمه..، كما يتناسب ومقصد السورة؛ وهو عرض دلائل التوحيد في الكون، والإنسان، والحيوان، والنبات..؛ لأن ذلك كله يحتاج إلى تفصيل الآيات تفصيلاً شافياً، تستوعبه العقول كافة على اختلاف قدرا ا، ومداركها، وتفصيلها على النحو المذكور لا يقدر عليه إلا الله ـ تعالى ـ ، الذي خلق الإنسان، وهو بمن خلق أعلم .

وأتت فاصلة الآية بقوله: ﴿لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾، فما سر ختمها بتفصيل الآيات لأهل العلم دون غيرهم؟!.

قبل الإجابة عن السؤال يحسن معرفة معنى العلم؛ قال الأصفهاني: "العلْم إدراك الشيء بحقيقته"[(٤)]، فالذي يقبل على الشيء بعقله يدرك ماهيته وحقيقته. وآيات الله الدالة على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وعلمه، وفضله، وخلقه، وحكمته.. لا يستخرجها من النظر في النجوم إلا أهل العلم الذين يقبلون عليها، والذين يقرنون العلم بالاعتبار، ولا يكتفون بأن يقولوا بعد النظر والحساب: إن هذا لشيء عجاب..![(٥)].فهؤلاء هم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله ـ

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٨٠/٥) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٤/٧) .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٢٠٢/٧)، و: تيسير الكريم الرحمن (٤٤١/٢) .

(٤) المفردات (٣٤٣) .

(٥) ينظر : تفسير المراغي (٢٠١/٧) .

تعالى ـ ، والاستدلال ا، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فالبيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً[(١)]. وفي هذا تعريض بمن لم ينتفعوا من هذا التفصيل بأ م قوم لا يعلمون[(٢)].

قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) [الأنعام:٩٨].

بعد أن ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ عباده ببعض آياته الكونية في ملكوته الأراضي والسماوي، أتبعه ـ تعالى ـ بتذكير ببعض آياته في الإنسان[(٣)]. ومن دلائل كمال قدرته ـ جل وعلا ـ ؛ أن عالم الإنسان ـ وهو واحد من عوالم كثيرة لا تحصى ـ هو ثمرة نفس واحدة، منها كان هذا العالم الإنساني كله، في أممه، وشعوبه المنتشرة في آفاق الأرض قاطبة[(٤)]؛ فالإنسان هو النوع الرابع الذي أستدل ـ في هذا السياق ـ بإنشاء عالمه، وبثه على وجه الأرض؛ لإثبات وجود الخالق ـ جل وعلا ـ ، ووحدانيته، وكمال قدرته، وعلمه، وحكمته[(٥)].

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)؛ والجملة خبرية، عبر عنها بالجملة الاسمية، وقد أسهم الإتيان بالمسند جملة فعلية بقوله تعالى: (الَّذِيَ أَنشَأَكُم) في تقوية الحكم؛ لأن الفعل أسند ذا مرتين للمسند إليه (هُوَ)؛ مرة حين وقع خبراً عنه، وأخرى حين أتى فاعلاً مستتراً للفعل (أَنشَأَكُم).

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٨٨/٤)، و: تيسير الكريم الرحمن (٤٤١/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٩٥/٧) بتصرف .

(٣) ينظر : نظم الدرر (٢٠٦/٧)، و: تفسير القرآن الحكيم (٦٣٨/٧) .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٤٧/٢) .

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٨٠/٥)، و: حاشية زاده (١٩١/٢) .

وتعريف المسند والمسند إليه أفاد القصر؛ قصر إنشاء الناس على الله ـ تعالى ـ ، والغرض منه ـ والله أعلم ـ التعريض بالمشركين؛ إذ أشركوا في عبادتهم مع خالقهم غير من خلقهم[١]. فالذي ابتدأ خلق الإنسان من نفس واحدة؛ نفس آدم ـ عليه السلام ـ، وأوجدها بعد أن لم تكن شيئاً، ثم أنشأ من نسله الأمة الإنسانية؛ هو الحقيق بعبادتهم دون غيره مما أشركوا به[٢].

ومن الدقة في اختيار الكلمة في النظم القرآني؛ اختيار كلمة: (أَنشَأَكُم) للتعبير عن خلقه ـ تعالى ـ لهم؛ والإنشاء: "إيجاد الشيء وتربيته"[٣]، وقد حملت هذه الكلمة بما دلت عليه من معنى إيحاءً قوياً، ما كان ليتألق لو رفعت من هذا المقام، ووضع مكانها كلمة أخرى كـ"خلقكم"؛ فمن إيحاءات قوله: (أَنشَأَكُم)، أنه ـ تعالى ـ حين خلقكم، لم يسلمكم للجوع، ولا للعري..، بل تعهدكم ـ جل وعلا ـ بالتربية والإصلاح، فأطعمكم من جوع، وكساكم من عري..، ثم إن تربيته ـ تعالى ـ لكم لم تكن تربية جسدية ـ أو مادية ـ فحسب، بل فاقت ذلك لتسمو بأرواحكم وأنفسكم تربية إيمانية؛ فهو ـ تعالى ـ لم يترككم هملاً، تأكلون وتتمتعون كما تأكل الأنعام، بل ربى أرواحكم، وسما بها بالإيمان به ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأرسل إليكم رسلاً يدلونكم على طريقه؛ آخرهم نبيكم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي دلكم على المحجة الواضحة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. هذا هو الإيجاد والتربية، وهذه النعمة من أجل النعم وأعظمها..!.

وقيدت الجملة بقوله تعالى: (مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ)؛ ولهذا التقييد عدة مزايا؛ منها: فتح للأعين على تلك الحقيقة الباهرة؛ أن تلك الأمم وهذه الشعوب الإنسانية منشؤها من نفس واحدة؛ هي نفس آدم ـ عليه السلام ـ، وفي إنشاء البشر منها جميعاً، آيات بينات

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٥/٧) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨١/٥)، و: التحرير والتنوير (٣٩٥/٧) .

(٣) المفردات (٤٩٣) .

على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ ، وعلمه، وحكمته، ووحدانيته، وفي التذكير ا إرشاد إلى ما يجب عليهم تجاه هذه النعمة من إخلاص الشكر له ـ جل وعلا ـ ، ومن ضرورة التعارف والتآلف والتعاون بين البشر، وعدم جعل تفرقهم إلى شعوب وقبائل، مدعاة للتعادي والتقاتل..![1].

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ)؛ والفاء للتفريع عن (أَنشَأَكُم)[2]. وفي "المفردات" : "قر: في مكانه يقر قَراراً إذا ثبت ثُبوتاً جامداً، وأصله من القُر وهو البرد، وهو يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة."[3]، ومستودع: يقال: استودعه مالاً إذا جعله عنده وديعة، فالاستيداع مؤذن بزمن مؤقت، والاستقرار مؤذن بزمن دائم أو طويل[4].

وتعددت تأويلات المفسرين في المراد بالكلمتين في الآية، وقد بسط الطبري صفحات عدة من تفسيره؛ لعرض أقوال العلماء فيهما[5]؛ منها:

١- منكم مستقر في الرحم، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثه الله ـ تعالى ـ لنشر القيامة.

٢- المستقر ما كان في بطون النساء، وبطون الأرض، أو على ظهرها، والمستودع ما كان في أصلاب الآباء.

٣- المستقر ما كان في الأرض أو على ظهرها، ومستودع عند الله ـ تعالى ـ . وختم الطبري عرضها؛ بترجيح ما رآها رأياً صائباً؛ مفاده: أن كلمتي (مستقر ومستودع)، تعم الأقوال السابقة كلها، وتحتملها ـ أيضاً ـ في وقت واحد، ولم يرد خبر يجب التسليم له بأن المراد من هذه الآية معنى دون معنى، وخاص دون عام[6].

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٣٩/٧) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٦/٧) .

(٣) المفردات (٣٩٧) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٩٦/٧) بتصرف .

(٥) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨١/٥-٢٨٦) .

(٦) ينظر : المرجع السابق (٢٨٦/٥) .

لكن من المفسرين من اجتهد في الوقوف على المعنى المراد؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن السعدي، والذي يقرأ ما قاله الشيخ، يجد أن قوله قد بلغ أعلى درجات الإقناع، فلا يملك القارئ أمامه إلا التسليم بصحة اجتهاد الشيخ ورؤيته. قال السعدي: "جعل الله لهم مستقراً؛ أي منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها؛ وهي: دار القرار، التي لا مستقر وراءها ولا غاية فوقها. فهذه الدار، هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا؛ ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها. وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ؛ كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر."[١]. وقد وافق الشيخ بهذا قولاً أورده الأصفهاني في المفردات: "قال الحسن: مستقَر في الآخرة ومستودع في الدنيا"[٢]. وأضاف الأصفهاني: "وجملة الأمر أن كل حال ينقَل عنها الإنسان، فليس بالمستقر التام"[٣].

ولعل التعبير عن الاستقرار والاستيداع بالمصدر؛ للمبالغة في إثبات الصفة؛ فصفة الاستيداع هذه تلازم الإنسان في حياته الدنيوية كلها، دون أن تفارقه. وكذا صفة الاستقرار؛ فهي ملازمة له في حياته الآخروية؛ فهو في جنة، أو في نار.

وشاهد الفاصلة في ختام الآية بقوله تعالى: (قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ). وابتدئت الفاصلة هنا ـ كما في سابقتها ـ بقوله : (قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ)؛ ومن أسرار هذا التكرار الحث على النظر، والتنبيه على أن كُلّاً مما ذُكر آية ودلالة تدل على توحيده ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته العلى[٤].

غير أن هذه الفاصلة لم تختم بما ختمت به سابقتها؛ فهذه ختمت بقوله: (لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)، وتلك بقوله: (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ). يعلل لهذا التغاير "ابن المنير" ـ بما مفاده ـ: أنه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/٤٤١) .

(٢) المفردات (٣٩٨) .

(٣) المرجع السابق .الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : مجمع البيان في تأويل القرآن (٤/٥٢٦) .

عدلَ عن فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ؛ لما في ذلك من التكرار؛ فكان الإتيان بفاصلة مخالفة تحسيناً للنظم واتساقاً في البلاغة[1]. وهذا القول ـ كما يبدو ـ يسلط الضوء، ويلفت الأنظار إلى ظاهر النظم الحكيم..، دون محاولة التعرف على ما يمكن فيه من أسرار ولطائف أكثر عمقاً..!. إلا أن بعض المفسرين كانت لهم محاولات عميقة؛ لتلمس سر اختلاف الفاصلتين هنا، خلاصة ما وصلوا إليه: أن فاصلة الآية السابقة ختمت بقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مع ذكر النجوم؛ لأن الاهتداء بالنجوم من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى كثير تأمل، وإعمال فكر..، فمن لديه أدنى إدراك، يستطيع الانتفاع بالنظر إلى النجوم؛ لذا ختمت بقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾. أما هذه الآية، فالشأن معها مختلف؛ إذ إن إنشاء الناس من نفس واحدة، وتصريفهم على أحوال مختلفة، والوقوف على مواضع العبر من ذلك..، ألطف وأدق صنعة وتدبراً، فهو يحتاج إلى فكر وفطنة وتدقيق نظر؛ لذا ختمت بقوله: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾؛ بالفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر وفكر. فتناسبت فاصلة كل آية منهما مع ما صدرت به[2].

فهؤلاء القوم الذين يفقهون مواضع العبر، ويفقهون الآيات والذكر، إذا اعتبروا بما نبهوا عليه من إنشائهم من نفس واحدة، وخلقهم على صور وألوان متباينة عجيبة؛ علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك، وأنه وحده المستحق للعبادة[3].

ثم يمضي السياق إلى مشاهد "الحياة" المتفتحة في جنبات الأرض..، لتراها الأعين، وتستجليها الحواس، وتتدبرها القلوب. وترى فيها بدائع صنع الله ـ تعالى ـ . والسياق يعرضها ـ كما هي في صفحة الكون ـ، ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها،

---

(١) ينظر : الانتصاف . حاشية الكشاف (٣٠/٢) .

(٢) ينظر : الكشاف (٣٠/٢)، و: البحر المحيط (١٨٨/٤)، و: نظم الدرر (٢٠٨/٧)، و: تفسير المراغي (٢٠١/٧) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٦/٥) .

وأشكالها، وأنواعها، كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال..[(١)]؛ قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) **[الأنعام:٩٩].**

وهذا النوع الخامس من الدلائل الناطقة بكمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وحكمته، ورحمته، ووجوه إحسانه إلى خلقه[(٢)].

(وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء)**؛ تعريف المسند والمسند إليه أفاد القصر؛ قصر إنزال المطر على الله ـ جل وعلا ـ [(٣)]. وفي نظم الآية قُدم الجار والمجرور** (مِنَ السَّمَاء) **على المفعول الصريح** (مَاء)**؛ ربما لحثهم على رفع أبصارهم إليها بعلوها؛ إلى تلك السماء التي يؤمنون بأن الله ـ تعالى ـ قد خلقها؛ لتمتلئ قلوبهم رهبة من ذاك الإله العظيم الذي خلق، وكأن فيها احتجاجاً عليهم بما يؤمنون به. وبهذا يكون قد جمع بين الخلق والرزق من مبتدأ الآية في إطار واحد؛ للتنبيه على حقيقة تغيب عن أذهانهم ـ دوماً ـ؛ أن الإله الخالق الرازق..، بما له من صفات كمال قدرة، ورحمة، وإحسان، وحكمة..؛ هو وحده المستحق للإفراد بالعبادة دون ما سواه.**

"ومن مبدعات هذه القدرة، هذا الماء النازل من السماء...، فمن هذا الماء يخرج كل حي؛ من إنسان وحيوان ونبات.. كما يقول سبحانه وتعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) **[الأنبياء:٣٠]"[(٤)].**

---

(١) في ظلال القرآن (٢/١١٦٠) بتصرف .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٨٦/٥) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٨/٧) .

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٢٤٨/٢) .

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ)؛ **وخرج الكلام في الجملة على خلاف مقتضى الظاهر؛ بطريق الالتفات، من الغيبة في قوله: (وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ...) إلى التكلم؛ ونكتته ـ والله أعلم ـ لإظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الله ـ تعالى ـ الماء لأجله**[(١)]**.**

والنون في قوله: (فَأَخْرَجْنَا) ليست نون الجمع؛ إذ الله واحد فرد لا شريك له، إنما هي نون العظمة؛ أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته (نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ)[(٢)]**.**

وللمفسرين في معنى قوله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ) قولان، هما :

١ - أي أخرجنا بالماء غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش، وأرزاق بني آدم وأقوا م، الذي يتغذون به ويأكلونه، فينبتون عليه وينمون؛ فـ(نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ) بمعنى ما ينبت به كل شيء، وينمو عليه ويصلح[(٣)]**، وهذا القول ارتضاه "الطبري".**

٢- أي فأخرجنا نبات جميع أنواع النبات، فيكون قوله: (كُلِّ شَىْءٍ)؛ هو أصناف النبات[(٤)]**. "وحسن إطلاق العموم في كل شيء؛ لأن ذكر النبات قبله قد قيد المقصد"**[(٥)]**. والنبات له أنواع كثيرة؛ فمنه زرع؛ وهو ما له ساق لينة كالقصب؛ ومنه شجر وهو ما له ساق غليظة كالنخل، والعنب؛ ومنه نجم وأب وهو ما ينبت لاصقاً بالتراب، وهذا التعميم يشير إلى أ ا مختلفة الصفات والثمرات والخصوصيات والمذاق، وهي كلها نابتة من ماء السماء الذي هو واحد، وذلك آية دالة على عظم القدرة الإلهية، كما قال تعالى:** (يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٨٤/٥)، و: البحر المحيط (١٨٩/٤)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٦/٣) .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (٨٤/٥)، و: البحر المحيط (١٨٩/٤)، و: حاشية زاده (٩٩٢/٢)، و: إرشاد العقـل السليم (١٦٦/٣) .

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٧/٥) .

(٤) المرجع السابق . الصفحة نفسها، بتصرف .

(٥) المحرر الوجيز (١١٨/٦) .

الأُكُلِ) [الرعد:٤]، وهو تنبيه للناس ليعتبروا بدقائق ما أودعه الله ـ تعالى ـ فيها، وكانت سبباً في اختلاف أحوالها[١].

ولعل تخصيص عالم النبات بالانتفاع بالماء؛ لأنه أكثر الكائنات الحية تفاعلاً مع الماء واعتماداً عليه..، إذ هو غذاؤه وحياته، به يحيا، وبفقده يذبل ويموت.. أما الكائنات الأخرى، وإن كان الماء حيا ا كالنبات ـ تماماً ـ، إلا أ ا تعتمد على أشياء أخرى تقوم إلى جانب الماء لتمسك عليها الحياة، وهو ما يتغذى من طعام..![٢]. وربما لأن حيا م هم تقوم على هذا النبات بطريق مباشر أو غير مباشر، فتوجيه أنظارهم إليه؛ للتنبيه على ما في النبات من دلالات عظيمة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وفيه حث لاستشعار هذه النعمة العظيمة..، حتى تمتلئ القلوب محبة لهذا الإله الرازق المنعم، وتتعلق به، وتخلص العبادة له وحده.

قوله: (فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا)؛ إطناب بطريق التفصيل بعد الإجمال، فهنا شرع في تفصيل ما أجمل في قوله: (فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ)، وأبتدئ بتفصيل حال "النجم"؛ أي فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً أخضر[٣]. ولهذا الأسلوب مزية؛ إذ يترك أثراً في نفس المتلقي؛ لأن المعنى حين يساق إليه مجملاً، قد تتطلع نفسه بشغف إلى الإلمام بتفاصيله، فإذا عقب بذكره مفصلاً تمكن في نفسه، ومنحه لذة العلم به..!.

وفي كلمة (خَضِرٗا) برزت سمة من سمات النظم القرآني؛ وهي الدقة في اختيار الكلمة القرآنية؛ دقة يستحيل معها رفع هذه الكلمة، ووضع أخرى لتحل مقامها كـ"أخضر"، والخَضِر: "الشيء الذي لونه أخضر، يقال: أخضر وخضر،...، ويطلق

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٩٩/٧) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٤٨/٢) .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم (١٦٦/٣) .

الخضر اسماً للنبت الرطب الذي ليس بشجر"[١]. ومما تميز به لفظ "خضر"؛ أنه أرق ظلاً، وأكثر رشاقة، وأعمق ألفة من لفظ "أخضر"[٢].

(نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا)، وأتي بالفعل (نُّخۡرِجُ) بصيغة المضارع، والسر في هذا التعبير ـ والله أعلم ـ ؛ لاستحضار هذه الصورة لما فيها من الغرابة والإبداع؛ أي نخرج من ذلك الخضر (حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا)؛ هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة؛ كسنابل القمح والشعير[٣].

(وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ)، لما ذكر ما ينبت من "الحب"، أتبعه بذكر نوع آخر؛ وهو ما ينبت من النوى[٤]. ومعنى قنوان: العذْق، ودانية: قريبة[٥].

وفي النظم القرآني للجملة إيجاز بالحذف؛ والمعنى: ومن النخيل ما قنوا ا دانية، ومنها ما هي بعيدة، فاكتفي بذكر القنوان القريبة عن البعيدة؛ لسبقه إلى الأفهام[٦]. وتخصيص القنوان الدانية بالذكر، يعلل له الزمخشري بقوله: "ذكر القريبة وترك البعيدة، لأن النعمة فيها أظهر، وأدل بذكر القريبة على ذكر البعيدة"[٧]. وهذا يخدم الغرض الذي سيقت له الآية، والذي منه ذكر القدرة، والامتنان بالنعمة، والامتنان فيما يقرب تناوله أكثر[٨].

وقدم "الزرع" على ذكر "النخل"؛ وفي هذا دلالة على أن الزرع له فضل يفوق النخل؛ إذ له أهميته التي لا تنكر لدى العرب[٩]؛ وتقديمه لهذا السبب فيه ـ والله أعلم ـ الامتنان عليهم، وتذكيرهم بتفضل يتطلب منهم إيماناً وشكراً.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٩٩/٧) .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١١٦١/٢) .

(٣) ينظر : معالم التنزيل (١١٨/٢)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٦/٣) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (٨٥/٥) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٧/٥) بتصرف .

(٦) معالم التنزيل (١١٨/٢) بتصرف .

(٧) الكشاف (٣١/٢) .

(٨) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤٨/٧) .

(٩) ينظر : التفسير الكبير (٨٥/٥) .

(وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ)؛ والجملة معطوفة على قوله: (نَبَاتَ)؛ من عطف الخاص على العام؛ وهذا من الإطناب، ونكتته التنبيه على شرفه، وبيان فضله من بين سائر النبات[1].

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ)؛ أطلق لفظ الثمر، وأريد شجرة؛ أي: شجر الزيتون والرمان، فاكتفى من ذكر الشجر بذكر ثمره، كقوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) [يوسف:٨٢] إذ اكتفي بذكر (الْقَرْيَةَ) من ذكر أهلها؛ لمعرفة المخاطبين بالمعنى[2].

واجتمع في قوله تعالى: (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) عدد من الفنون البلاغية؛ منها: أنه حال من (الزيتون والرمان) قيدت به الجملة، وبين (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) طباق سلب، وبينهما ـ أيضاً ـ جناس اشتقاق..؛ ولعل هذه الفنون البلاغية تآزرت؛ للتنبيه على أن تلك النباتات المذكورة مخلوقة بالقصد والاختيار، لا بالصدفة[3]. وفي هذا دلالة على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ فهو قادر على كل شيء؛ على خلق الشيء وضده، خلق ما تشابه في الشكل واختلف في الطعم..، أفمن يخلُق كمن لا يخلُق..؟!.

والناظر في نظم الآية، يجد ذكراً لأربعة أنواع من الأشجار؛ النخل والعنب والزيتون والرمان. وقد قدم الزرع على الشجر؛ لأن الزرع غذاء لا يمكن الاستغناء عنه، بينما ثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفاكهة. وقدم النخل على سائر الفواكه؛ لأن التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة للعرب، كما أنه يجمع بين القوت ـ الغذاء ـ والتفكه، إضافة إلى ما في شجره من منافع وخواص، ليست في غيره من الأشجار. وذكر العنب عقيب النخل؛ لأن العنب أشرف أنواع الفواكه؛ لأنه منتفع به من أول ظهوره إلى آخر حاله. وأما الزيتون فهو كثير النفع والبركة، وعطف عليه الرمان؛ لأن الرمان فاكهة ودواء؛ ففيه النفع الكثير[4]. "وهاتان الشجرتان وإن لم تكونا مثل النخل في الأهمية عند

---

(١) ينظر : البحر المحيط (١٨٩/٤)، و: الفتوحات الإلهية (٦٩/٢) .

(٢) ينظر : معاني المفردات (٣٤٨/١)، و: جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٩/٥).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨٩/٥)، و: التحرير والتنوير (٤٠٢/٧) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (٨٦/٥)، و: تفسير الخازن (١٦٥/٢) .

العرب إلا أ ما لعزة وجودهما في بلاد العرب، ولتنافس العرب في التفكه بثمرها والإعجاب باقتنائهما؛ ذكرا في مقام التذكير بعجيب صنع الله ـ تعالى ـ ومنته."[(١)].

ثم قال تعالى: (انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ)؛ والأمر بالنظر إلى الثمر يراد به: "نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى حال إلى حال"[(٢)]، فانظروا إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به، وانظروا إلى حال ينعه ونضجه؛ كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ كثيرة[(٣)]، وكل ذلك يظهر للناظر لطف الله ـ تعالى ـ وتدبيره، وحكمته في تقديره، وفي هذا دلالة واضحة على وجوب توحيده ـ جل وعلا ـ [(٤)].

وأتت فاصلة الآية بقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)؛ والإشارة بـ(ذَٰلِكُمۡ) لما سبق من إنزال الماء من السماء، وإخراج النبات من الأرض، وما في اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيذان بعلو رتبة المشار إليه، وبعد م لته، وعظمته في الدلالة على وحدانية الله ـ عز وجل ـ [(٥)]، فإنزال الله ـ سبحانه وتعالى ـ الماء من السماء، وإخراج نبات كل شيء به، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من صنوف خلقه، واختلاف أحواله، وتصرفه في زيادته ونموه على نمط بديع محكم..، في ذلك كله آيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكم ووحدانيته، فهو الإله الذي ليس كمثله شيء، والعبادة لا تصلح إلا له دون الآلهة والأنداد[(٦)].

لكن ليس كل من يمر ذه الآيات يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر، أدرك المعنى المقصود..؛ ولهذا سيقت فاصلة الآية مقيدة الانتفاع بالآيات بالمؤمنين: (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ

---

(١) التحرير والتنوير (٤٠٢/٧) .

(٢) الكشاف (٣١/٢) .

(٣) المرجع السابق . الصفحة نفسها. بتصرف .

(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٦٤٣/٧) .

(٥) ينظر : نظم الدرر (٢١٤/٧)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٧/٣) .

(٦) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩١/٥)، و: إرشاد العقل السليم (١٦٧/٣) .

﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكر في آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، والاستنتاج منها، ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً، وفطرة، وشرعاً..![1]، فهم المنتفعون بحجج الله ـ تعالى ـ ، والمعتبرون بها، دون من قد طبع الله على قلبه.[2] والإيمان هو الذي يفتح القلب ـ بإذن الله ـ ، وينير البصيرة، وينبه الفطرة، ويصل الإنسان بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان الراسخ بالله خالق الجميع..![3].

وفي الآية دلالة على أن الآيات لا تنفع من أراد الله إضلاله[4]، فكم من قلب مغلق، وبصيرة مطموسة، وفطرة منتكسة..، تمر بهذا الإبداع كله، وبهذه الآيات العظيمة..، فلا تحس بها، ولا تستجيب..، إنما يستجيب الذين يسمعون..![5].

فهذه الآيات الثلاث اختلفت ـ كما مر ـ فواصلها..؛ فالنجوم..."لقوم يعلمون"، وخلق الناس من نفس واحدة..."لقوم يفقهون"، والماء وأثره في الحياة وفي عالم النبات... "لقوم يؤمنون"، وقد كان لهذا الاختلاف سببه..، الذي جعل من كل فاصلة منهن متناسبة مع آيتها. ليس ذلك فحسب، بل ثمة نظام بديع يؤلف بينهن؛ فتلك النظرات المرددة في الكون..، تجيء أول ما تجيء بالعلم، فإذا كان لصاحب هذا العلم نظرة تجمع الحقائق الجزئية، وتقيم منها حقائق كلية..، كان علمه هذا فقهاً. فإذا اتخذ من هذا الفقه مادة لجمع الحقائق الكلية، ودرجها تحت حقيقة كُلية كبرى، كان فقهه هذا هو الإيمان..؛ الإيمان الراسخ القائم على النظر الاستدلالي، والبحث الاستقصائي، لا الإيمان الواهي الضعيف الذي ينهار عند أول هزة تمر به[6].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٤٤/٢) .

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٩١/٥) .

(٣) في ظلال القرآن (١١٦١/٢) بتصرف .

(٤) ينظر : نظم الدرر (٢١٤/٧) .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن (١١٦١/٢).

(٦) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٢٥١/٢) .

التناسب والسياق في السورة وأثره في إبراز العقيدة

توطئة :

التناسب في اللغة : التقارب . والنسب : القرابة ، ونسبت فلاناً إلى أبيه أنسبه إذا رفعته إلى جده الأكبر.[1]

وفي الاصطلاح :" ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر".[2]

وهو من محاسن الكلام ؛لأنه يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، وبذلك يصير التأليف كالبناء المحكم ، المتلائم الأجزاء.[3]

وقد عنيت طائفة من علماء المسلمين؛ من المفسرين والبلاغيين بالتناسب القرآني؛ لصلته الوثيقة بالتفسير والبلاغة .[4]

وفائدته في القرآن جليلة ؛إذ به يقوى ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني .[5]

وفي هذا الفصل سأحاول تلمس ما في سورة الأنعام من تناسب وأثره في أبراز العقيدة .

---

(١) ينظر: لسان العرب. مادة (نسب).

(٢) الفوائد المشوق (٩٨).

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن (٣٦/١).

(٤) ينظر : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم (١٦٣).

(٥) ينظر : البرهان في علوم القرآن (٣٦/١).

المبحث الأول

الاستفتاح ودلالاته

الاستفتاح ودلالاته

إن براعة الاستهلال أو حسن الابتداء ركن من أركان البلاغة؛ وبيانه أن كـل مـن تصدى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام ، فعليه أن يفتتح كلامه بما يلائم ذلك المقصد ويدل عليه . وهذا مما ينبغي مراعاته في الشعر والنثر جمعياً.[1]

وإنما خصت الابتداءات بذلك الاهتمام ؛ لأ ا أول ما يطرق السمع من الكلام ؛ فـإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوراد بعده ، مالت النفس إليه ، وأصغت باهتمام .[2]

والقرآن الكريم بإعجازه البلاغي قد بلغ كمالاً ، أخرس فصحاء العرب ، وأوقفهم على ضآلة قدرا م البلاغية . وقادهم ذلك الإعجاز القرآني ، وعجزهم عن الإتيـان بمثلـه إلى حقيقة أبى كبرياؤهم أن تنطق ا ألسنتهم ؛ وهي أن ما يشنف سمعهم من آيات قرآنية ، قد سما وتألق ببلاغة تعلو ولا يعلى عليها . ولم تخرج فواتح السور القرآنية عن ذاـك الإطـار البلاغي المعجز ، بل هي من جنس البلاغة القرآنية المعجزة.

وتعددت استفتاحات السور القرآنية ، وتجاوزت النمطية التي عهدها العرب في فـواتح قصائدهم . وقد أحصى العلماء ما افتتح الله ـ جلاوعلا ـ سور كتابه العزيز ، فوجـدوها عشرة أنواع ، لا يخرج شيء من السور عنها .[3] وفي كل استفتاح كان ثمة تناسب قوي بين السورة وفاتحتها .

وفي هذا المبحث ـ بإذن الله ـ سأحاول الوقوف على مابين استفتاح سورة الأنعـام والسورة نفسها من تناسب ، أبرز المقصود من السورة ابتداءً.

قال تعالى في فاتحة سـورة الأنعـام :(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن

(١) ينظر : الطراز (٢٦٦/٢).
(٢) ينظر : المثل السائر (١٢٠/٣).
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن (١٦٤/١-١٨١).

طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ۞وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)[الأنعام :١-٣].

أُستهلت السورة بحمد الله ـ تعالى ـ والثناء عليه ، وبيان أنه ـ سبحانه ـ مستحق لذلك الحمد ؛ لأنه هو الذي خلق وأبدع . وفي هذا تصريح بألوهيته ـ جل وعلا ـ المتجلية في الخلق والإنشاء ، فجمع في استفتاحها بين الألوهية المحمودة وخاصية من خصائصها ؛ وهي الخلق والإيجاد .[١]

والحمد هو الثناء على النعمة وغيرها.[٢] والمعنى : الحمد الكامل له - سبحانه وتعالى– وحده لا شريك له ، دون جميع الأنداد والآلهة ، ودون ما سواه مما يعبده كفار خلقه من الأوثان والأصنام .[٣]

وربما تبادر سؤال إلى الذهن مفاده : لمَ افتتحت السورة بالثناء بكلمة الحمد دون الشكر ..؟! . ومما قيل إجابة عن هذا السؤال :

إن الحمد أليق بالمعنى المراد في هذا المقام ؛ إذ إن من الفروق بين الحمد والشكر : أن الحمد تعظيم الفاعل ؛ لأجل ماصدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلاً إليك، أو إلى غيرك . وأما الشكر : فهو تعظيم الفاعل ؛ لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك ؛ فلذا قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلّهِ) ؛للدلالة ـ والله أعلم ـ أن العبد يحمده ـ تعالى ـ ـ لكونه مستحقاً للحمد ، لا لأنه ـ جل وعلا ـ أوصل إليه النعمة ، فيكون الإخلاص والتعظيم أكمل .[٤] وقد قيل : " ما من نعمة عظمت إلا والحمد لله أعظم منها " .[٥]

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٠/٢).

(٢) ينظر : الكشاف (٧/١).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٣/٥).

(٤) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٢/٤).

(٥) ينظر :الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤٦٣/١).

ولم يقل : المدح لله ؛ لأن المدح كما يحصل للفاعل المختار ، فقد يحصل لغيره . أمـا الحمد ، فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، فكان قوله : (الْحَمْدُ لِلّهِ) تصريحاً بأن خـالق هذا العالم فاعل مختار ، له قدرة ومشيئة .[١]

والتعريف في (الْحَمْدُ) ؛ لاستغراق الجنس ؛ فهو أهل للمحامد على ضرو ا ، ول ـه الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بالإنعام .[٢]

وجاء في تفسير الطبري ـ وغيره ـ أن قوله : (الْحَمْدُ لِلّهِ) جملة خبرية لفظـاً ، إلا أ ا إنشائية معنى ؛ نحي ا نحو الأمر ؛ أي : أخلصوا الحمد والشكر ـ أيها الناس ـ لله ، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً.[٣]

وكان التعبير عن ذلك المعنى بلفظ الخبر فوائد عدة ؛ منها :

١. أن قوله : (الْحَمْدُ لِلّهِ) يفيد تعليم اللفظ والمعنى معاً ، ولو قيل ـ كما في غير القرآن ـ : "احمدوا الله " ، لم يحصل مجموع هاتين الفائدتين ، فالتعبير القرآني أبلغ في البيان ؛ لأنه جمع الأمرين .[٤]

٢. أن التعبير القرآني عن المعنى المراد بلفظ الخبر يفيد أنه ـ سبحانه وتعالى ـ مستحق للحمد سواء حمد أم لم يحمد [٥]ففيه تعريض باستغنائه ـ جل وعلا ـ عـن حمـد الكفار ؛ أي : الحمد له وإن لم تحمدوه .[٦]

٣. أن المقصود ـ والله أعلم ـ ذكر الحجة على الذين بر م يشركون ، فـذكره بصيغة الخبر أولى .[٧]

---

(١) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٢/٤).

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (٢/٦).

(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١٤٣/٥)، و:التفسير الكبير (٤٧٥/٤)، و:تفسير الخازن (١١٧/٢)... وغيرها .

(٤) ينظر : التفسير الكبير (١٤٣/٢) ، و: تفسير الخازن (١١٧/٢).

(٥) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٥/٤) و: أنوار الت يل وأسرار التأويل (٣٨٧/٢).

(٦) تفسير النسفي (٢/٢) بتصرف.

(٧) ينظر : التفسير الكبير (٤٧٥/٤).

ومن المفسرين من ذكر أن جملة "الْحَمْدُ لِلَّهِ" هنا خبرية لفظاً ومعنى ، وليس ثمة ما يدعو إلى صرفها إلى قصد إنشاء الحمد ، وأن من جوز إنشائيتها معنى ، لم يجد التأمل.[١] وعلل الألوسي لخبريتها لفظاً ومعنى ؛ بأن السورة نزلت لبيان عقيدة التوحيد، وردع الكفرة، والإعلام بمضمونها على وجه الخبرية يناسب المقام ، وجعلها لإنشاء الثناء لا يناسبه،[٢] والله أعلم بمراده .

ويلحظ أن حمد الله – تعالى – على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء ، قد ابتدئ بذكر خلق " السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ " ، أضخم مافي الوجود ، ثم بذكر أضخم الظواهر الناشئة عن خلقهما وفق تقدير العزيز الحكيم ؛ وهي " الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ " .[٣]

وكان للاقتصار في التعبير القرآني على حمد الله – تعالى – على خلقه للسموات والأرض والظلمات والنور دون غيرهما مناسبة مع ماتضمنته السورة ؛ إذ إن السورة تناولت ذكر عبدة الأنوار الذين جعلوا الخير من النور ، والشر من الظلمة ، فذكر – تعالى – أنه خالق الأنوار والأجرام التي ينشأ عنها النور والظلمة ، وفي ثنايا السورة ذكر – سبحانه وتعالى – ما يدل على بطلان مذهب من عبد الكواكب والنيرات ، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۞فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ۞إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٥/٦).
(٢) ينظر : روح المعاني (٧٤/٤).
(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٠/٢).

أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[الأنعام :٧٥-٧٩].[1]فالله ـ سبحانه وتعالى ـ استفتح السورة بإبطال قول أهل الشرك أجمعين ؛ ومنهم الثنوية المجوس الذين ألهوا النور والظلمة ، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه وحده رب النور والظلمة وخالقهما ، كما أنه وحده خالق السموات والأرض[2]

ولم يكن المجوس الذين ألهوا النور والظلمة ، هم وحدهم الذين عرض ببطلان عقيدتهم هنا ، بل عرض ببطلان عقائد كفار العرب كلهم ؛ من المشركين الذين أثبتوا لأنفسهم آلهة من الأرض ؛ وهي ما اتخذوه من أصنام وأوثان . واالصابئة الذين عبدوا الكواكب السماوية .والنصارى الذين ألهوا عيسى –عليه السلام - ، أو عيسى ومريم ؛ وهما من الموجودات الأرضية ..،فكان في إخباره –جل وعلا- بأنه خالق السموات والأرض تعريض ببطلان تلك العقائد الضالة ؛أي أنه -تعالى – خالق السموات والأرض بما فيهن ، فهو وحده المستحق للعبادة دون ماسواه ،[3] ثم تتابعت آيات السورة مثبتة استحقاقه –جل وعلا- للعبادة وحده.

وهذه الدلالة الأولى التي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة ، والتي شملت الأجرام الضخمة في الكون المنظور ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورانها في الأفلاك ..؛ ولتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الشاملة ، وهي تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ، ولا يوحدون ، ولا يحمدون ؛ بل يجعلون لله -تعالى- شركاء يساوونهم به ؛: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ).إنها مفارقة هائلة بين دلائل وحدانيته –جل وعلا- الناطقة في الكون ..، وآثارها الضائعة في النفس..!؛ مفارقة تزيد ضخامتها على الأجرام الضخمة ، والمسافات الشاسعة..!.[4] وبهذا ظهر وجه مناسبة ما افتتحت به السورة من وصف الله –جل وعلا- بالانفراد بخلق السموات والأرض والظلمات والنور .[5]

---

(١) ينظر : التناسب البياني في القرآن (٦١).

(٢) الضوء المنير (٤/٣) بتصرف .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٢٧/٦).

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٠/٢).

(٥) التناسب البياني في القرآن (٦١) بتصرف .في بلاغية هذه الآية ينظر من هذا البحث:(٩٣ـ ١٠٠)

وأردف وصف الخالق ـ تعالى ـ بما دل على حمده وتوحيده، بخطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة ، يذكرهم ـ جل وعلا ـ بما هو ألصق م مـن دلائـل التوحيـد والبعث؛ وهو خلقهم من الطين ؛ وهو التراب الذي يخالطه الماء ، فيكون كـالعجين ؛[١] قال تعالى : (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)[الأنعام : ٢] . وتخصيص خلقهم بالذكر؛ لأن دليل الأنفس ـ والله أعلم ـ أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذي في الآية السابقة .[٢]

وهي نقلة بديعية من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج ؛ تناسقت تناسـقاً فنيـاً جميلاً مع " الظلمات والنور "، وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة : لمسة الأجل الأول المقضي للموت ، والأجل الثاني المُسمى للبعث..؛ لمستان متقابلتان في الهمود والحركـة ، كتقابـل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة ، وبين كل متقابلتين مسافة هائلة في الكنه والزمن ..!، وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله ـ جل وعلا ـ ، واليقين بلقائه ..، إلا أن المخاطبين بالآيات يشكّون في هذا ولا يستيقنون..!.[٣] فكان أن أُتبعـت هذه الآية بأخرى ، أثبت فيها ألوهيته ـ جل وعلا ـ في السموات وفي الأرض، وبذكر خاصية من خصائص الألوهية ـ غير الخلق ـ؛ وهي علم الغيب ؛ قـال تعـالى:(وَهُوَ اللّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)[الأنعام : ٣] .

فالله ـ جل وعلا ـ نبه على فساد اعتقاد الذين أثبتوا الإلهية لغيره -تعالى- وحمدوا آلهتهم ؛ بأنه خالق الأكوان وخالق الإنسان ومعيده ، ثم أعلن أنه المتفرد بالإلهية في السموات وفي الأرض، إذ لا خالق غيره ، وإذ هو عالم السر والجهر ، وغيره لا إحساس له فـضلاً عـن

---

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (٢٩٦/٧).

(٢) ينظر : روح المعاني (٨٣/٤).

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣٠/٢) وما بعدها . و للوقوف على المزيد من أسرار الآية البلاغية ينظر من هذا البحث:(٥٨٤ ـ ٥٨٩).

العقل، فضلاً عن أن يكون عالماً،[1] فكيف بعد هذا لا يوحد الله ـ جل وعلا ـ ـ وينبذ الشرك..؟!.

وإن دليل " الخلق " ، ودليل " الحياة " وهما يتمثلان في الآفاق وفي الأنفس ، واللذان تفتح بهما السورة ..، كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويبث فيها اليقين بوحدانية الله ـ تعالى ـ والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها إثباتها . ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم لم يكونوا يجحدون وجود الله ـ تعالى ـ ؛ بل كانوا يقرون بوجوده ـ سبحانه ـ ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي والمميت...إلى غيرها من الصفات، ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك ؛ هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك ..!؛ من إفراده ـ جل وعلا ـ بالعبادة ، ونفي الشركاء ؛ واتخاذ شريعته وحدها قانوناً .

ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الخلق للكون وللإنسان ، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان ، ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم ..، إنما هو المقدمة التي يترتب عليها ضرورة إفراده ـ جل وعلا ـ بالعبادة، وبالحاكمية والتشريع.[2]

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٢/٦).

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١٠٣١/٢) وما بعدها.وللوقوف على شيء من أسرار الآية ينظر من هذا البحث:(٥٤٠ ـ ٥٤٤)

المبحث الثاني

المقصود الكلي للسورة

المقصود الكلي للسورة

القرآن الكريم "حياة " القلوب، و"شفاؤها". وهو" بصائر للناس"، و"بيان" لهم، و"بلاغ "، و"تذكرة".

وهداية الناس إلى الصراط المستقيم؛ هو والله أعلم ـ المقصد الأعظم لهذا الكتاب ا يد؛ كما قال تعالى:(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**)[الإسراء:٩].**

ولعله يمكن أن تفرع هذه الهداية إلى: هداية العقيدة الصحيحة، وهداية العبادات المشروعة، وهداية الفضائل النفسية والاجتماعية، وهداية النظم والتشريع لجميع نواحي الحياة.(١)

وسورة الأنعام لم تخرج عن هذا المقصد العظيم، بل انتظمت من أولها إلى آخرها؛ لتبين للناس صراط الله المستقيم، و ديهم إليه ـ بإذن الله ـ، وقد قال ـ سبحانه وتعالى **ـ في ثناياها:(**وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ **) [الأنعام:١٢٦]. قال الطبري في معناها ـ ما مفاده ـ: هذا الذي بينا لك ـ يا محمد ـ في هذه السورة ـ وغيرها ـ؛ هو دين ربك الذي ارتضاه لنفسه ديناً، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه، فاثبت عليه.**(٢)

وقال تعالى ـ أيضاً ـ:(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ **) [الأنعام: ١٥٣].**

وفي ختامها أمر ـ سبحانه وتعالى **ـ نبيه محمداً ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ أن يعلن للناس جميعاً أنه على هذا الصراط المستقيم؛ فقال تعالى:(**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ

---

(١) ينظر: الظاهرة الجمالية في القرآن (١٧٦).

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٣٤١/٥).

مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[الأنعام:١٦١].

فهذه السورة نزلت، وهي تحمل تعريفاً بالدين الذي ارتضاه ـ جلَّ وعلا ـ لعباده، وتبين لهم أصول هذا المعتقد؛ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

فوحدة مقصدها جعل آيات السورة تنتظم بتسلسل مقدر من عزيز حكيم، يربط بينها تناسب معنوي محكم، يفصح عن بلاغة القرآن الكريم عامة، وسورة الأنعام خاصة.

وقد ربط فيها بين الإيمان بالله والإقرار بربوبيته ووحدانيته، واليوم الآخر بما فيه من بعث وجزاء، والرسالة والنبوة من جهة، وبين الآيات الكونية المبثوثة في الآفاق والأنفس من جهة أخرى. حتى إن القارئ يجد أن الآيات التي تقرر أصول العقيدة، تقترن بصورة مطردة بالآيات التي تتحدث عن الكون، ومافيه من السموات والأرض، والكواكب والنجوم، والبحار والقفار، والجن والإنس، والطيور والدواب، والظواهر الطبعية كالرياح والسحاب والمطر، والرعد والبرق، وبالأ ار والجبال، والشمس والقمر، والليل والنهار..، وتبين مافي ذلك كله من منافع وحكمة موافقة لحياة الناس على الأرض. وهذا الاقتران يدل على تناسب قوي بين أصول العقيدة وبعض المعاني.(١)

ولعله يحسن عرض آيات من سورة الأنعام، تدل على ما سبق؛ فالإيمان بالله؛ هو الأصل الأول من أصول العقيدة الإسلامية. وهو الأصل الذي عني بالحديث عنه في هذه السورة عناية فائقة؛ وكل ذلك لتعريف العباد بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ لتتعلق القلوب به ـ جل وعلا ـ؛ لما له من صفات الجلال والكمال.

وقد استدل ـ سبحانه وتعالى ـ على ألوهيته ببيان انفراده ـ جل وعلا ـ بالخلق؛ فهو الذي خلق السموات والأرض؛ قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [سورة الأنعام:١].وقال:(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ

---

(١) ينظر: التناسب البياني في القرآن (٧٣).

وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)[سورة الأنعام:٧٣]،و:(وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَلأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[الأنعام:٧٥]

وفي رحلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الإيمانية بحثاً عن الإله الحق؛ وصل إلى أنه ذلك الذي خلق ما تراه عيناه؛ قال تعالى حكاية عن قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ:(إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام:٧٩].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ نزه نفسه عن الشركاء بالاستدلال بخلقه السموات والأرض؛ فقال:(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) [الأنعام:١٠١].

وهو ـ سبحانه ـ الذي خلق الناس؛ قال تعالى:(.هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)[الأنعام:٢]، وقال ـ أيضاً ـ:(وَهُوَ الَّذِىَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) [الأنعام:٩٨]، ففي الآيتين دلائل توحيد تخاطب الإنسان، و تلفت نظره إلى خلقه الذي بدأه الله ـ تعالى ـ من طين..، فبعث فيه الحياة، فإذا به كائن آخر..، تميز عن الجمادات وبقية الأحياء بالحياة الكاملة..، و خالق هذا الإنسان هو خالق الكون الذي سخره له؛ فهو وحده المستحق للعبادة، لا تلك الأصنام التي لم تخلق شيئاً.[1]

كما استدل ـ جل وعلا ـ على ألوهيته بإنزاله المطر، وخلقه للنبات؛ قال تعالى:(وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[الأنعام:٩٩]، وقال:(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

---

(١) ينظر: تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام (٤٠) .

الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[الأنعام:٩٥]، وقال ـ أيضاً ـ: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[الأنعام:١٤١].

وبخلقه للحيوان؛ قال تعالى:(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ۞ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الأنعام: ١٤٢ـ١٤٤].

والإله الذي خلق ذلك كله، لم يخلقه عبثاً ـ تعالى الله علواً كبيراً ـ، بل لحكمة نطقت ا الآيات بتناسب معنوي بديع؛ قال تعالى:(فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[الأنعام:٩٦ـ٩٧].وفي هذا دلالة على العناية الإلهية بالإنسان؛ إذ سخر له ربه ـ جل وعلا ـ الليل و النهار، والشمس والقمر، والنجوم..؛ فالليل ليخلد فيه للراحة بعد عناء طلب الرزق في النهار، والشمس والقمر؛ ليحسب ما الساعات والأيام والشهور والسنين..؛ لإدراك مصالحه الدينية والدنيوية، وكل ذلك وفق نظام محكم بتقدير العزيز العليم، أما النجوم فلهدايته إن هو تاه وضل في ظلمات البر والبحر..، فكيف يعرض الإنسان الضعيف عن عبادة هذا الرب الحكيم الرحيم، ويعبد ما لا يملك نفعاً ولا ضراً..؟!.

والقارئ لسورة الأنعام يجد أن فيها إثباتاً ليوم القيامة، وأن ذلك الإثبات اقترن بقدرته ـ جل وعلا **ـ على خلق السموات والأرض، وملكيته لما فيهما؛ قال تعالى:**(قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)**[الأنعام:١٢].وقال:**(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)**[الأنعام:٧٣].**

كما اقترن إثباته للبعث بقدرته وقهره لعباده؛ ومن صور قهره لعباده إرساله ـ سبحانه **ـ الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم وأقوالهم، وقبض أرواحهم إذا جاء أجلهم بأيدي ملائكة لا يفرطون، قال تعالى:**(وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)**[الأنعام٦٠ ـ ٦٢].**

وفي السورة أثبت الله ـ سبحانه وتعالى **ـ صدق رسله ـ** عليهم السلام **ـ، وصحة ما أنزل إليهم من كتب؛ عن طريق الاستدلال بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله،**[1] **فقال:**(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)**[الأنعام:٩١].**

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٣/٤٠٦) .

و بعد أن تتابعت الآيات وفيها ذكر لدلائل وحدانيته ـ جل وعز **ـ؛ صرح بالمقصد الأعظم من ذكرها؛ وهو عبادته وحده، قال تعالى:**(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)**[الأنعام:١٠٢]، وأكد ذلك** في **أواخرها؛ من ذلك قوله:**(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)**[الأنعام:١٦١ـ١٦٣].**

المبحث الثالث

النظم الترتيبي لآيات السورة

النظم الترتيبي لآيات السورة

عرض في المبحث السابق المقصود الكلي للسورة؛ فالسورة كانت تعالج قضية العقيدة ..، قضية الألوهية والعبودية ، وقد انتظمت آيا ا لإبراز ذلك بأبرع الأساليب..، وأرقى الأفانين البلاغية.

وفي هذا المبحث ـ بإذن الله ـ سأعرض لنظم آيات السورة مبتدئة بفاتحتها .. حتى أصل إلى خاتمتها ؛ ليستبين للقارئ جملة من المعاني العقدية التي أبرزت في السورة ، والتي تناول البحث كثيراً منها بالتحليل البلاغي .

تبدأ السورة بمواجهة المشركين، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى، بينما دلائل التوحيد تحيط م وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم ..؛ تبدأ بمواجهتهم بمعنى الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الكون بكل ما فيه، وهم منه، تبدأ بلمسات ثلاث تتناول الوجود الكبير على أقصى عمق واتساع. (١)

افتتح ـ سبحانه وتعالى ـ السورة بالإخبار بأن الحمد مستحق له استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أو كفروه؛ لما له ـ جل وعلا ـ من صفات الجلال والكمال ، وأتي بذلك المعنى بالجملة الاسمية المفتتحة بالحمد الكلي الجامع لكل أنواع الحمد .(٢)

وكثير من الناس يرى ويبصر ويعقل، ولكنه حين يمر بالآيات الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ؛ كخلقه السموات والأرض، وجعله الظلمات والنور؛ يمر عليها.. كأنه لا يراها ولا يعقلها..!، بل هو يعدل بربه رب هذا الكون الأنداد، ويشركهم في العبادة..!.

وفي العطف بـ(ثم) ما يشير إلى التهديد و الوعيد لهؤلاء الذين كفروا بالله ـ تعالى ـ، بعد أن ملأ ـ سبحانه ـ عليهم هذا الوجود بالآيات الناطقة بوحدانيته، الدالة على قدرته، وشمول علمه، وسعة سلطانه.. هم يشركون به؛ ففي هذا العطف تعقيب على المعطوف،

---

(١) في ظلال القرآن (١٠٢٢/٢) بتصرف.

(٢) ينظر: نظم الدرر (٣/٧).

وهو تعقيب فيه تراخ وامتداد في مسافات الزمان والمكان بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا يؤذن بالمفارقة البعيدة بين المتعاطفين اللذين كان من شأ ما التشاكل والتلاحم .. ولكن عناد الكافرين وكفرهم يجعلهم أبعد من أن يتعاطفوا مع آيات الله ـ تعالى ـ، وأن ينتفعوا ا، ويهتدوا ديها،[1] قال تعالى :(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [الأنعام :١].

ولما أثبت أنه هو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق السموات والأرض اللتين منهما وفيهما الأصنام والكواكب والأجرام التي عنها النور والظلمة، فثبت وجوده ـ تعالى ـ على ماهو عليه من الإحاطة بأوصاف الكمال التي قررها الحمد، فبطلت جميع مذاهبهم، ثم عجب منهم بكو م يعدلون به غيره ، أتبع ذلك اختصاصه بخلق الإنسان؛[2] فقال:(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)[الأنعام:٢].

فذكرهم بما هو ألصق م من دلائل التوحيد والبعث، وهو خلقهم من طين. وفي التنصيص على ما منه مادة خلقهم إثبات لتمام قدرته ـ جل وعلا ـ على بعثهم بعد مو م. وأشار ـ سبحانه ـ في الآية إلى اختصاصه بعلم الغيب الذي منه علم موعد وقوع يوم القيامة..، فدل ذلك على قدرته وحكمته وعلمه دلالة لا تبقي لاستبعاد البعث وجهاً.[3]

وقوله تعالى:(وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)[الأنعام:٣]، هو استعراض لقدرته ـ جل وعلا ـ وعلمه، وأنه هو الإله المعبود في السموات والأرض، والمالك لهما، والمتصرف فيهما، لا يملك أحد معه

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (١٢٥/٢-١٢٦).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٧/٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٩٦/٧-٢٩٨).

شيئاً..، وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى **ـ على تلك الصفة، فإنه يعلم كل شيء** في **هذا الوجود؛ الظاهر والباطن، الجلي والخفي..على ما بينهما من تضاد وتناقض.**(١)

وبجملة الطباق؛ (يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ **) نقلَ للمتلقي عظيم قدرة الله ـ** تعالى **ـ وكمال علمه. وقوله تعالى:(** وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ **) أفاد إثبات صفتي السمع والبصر مع إثبات العلم..**(٢) **، فكان إنكارهم بعد ذلك كله لوحدانيته ـ** جل وعلا **ـ من الأمور المستبعدة والعجيبة** في **الوقت نفسه..!**

ثم **تعرض الآيات موقف المكذبين بآيات الله المبثوثة** في **الكون والحياة، ومع عرض هذا الموقف المنكر العجيب،** يجيء **التهديد، وتعرض مصارع الغابرين، فيبدو تعنت المنكرين أشد عجباً، وأن ما ينقصهم للإيمان والتصديق ليس الدليل، بل صدق النية، وانشراح القلب لتلقي الدليل، قال تعالى:(** وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ آيَةٍ مِّنۡ آيَاتِ رَبِّهِمۡ إِلاَّ كَانُواۡ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ۞ فَقَدۡ كَذَّبُواۡ بِالۡحَقِّ لَمَّا جَاءهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنبَاء مَا كَانُواۡ بِهِ يَسۡتَهۡزِؤُونَ۞ أَلَمۡ يَرَوۡاۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّاهُمۡ فِى الأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا السَّمَاء عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا وَجَعَلۡنَا الأَنۡهَارَ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَاهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنۡشَأۡنَا مِن بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا آخَرِينَ۞ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَابًا فِى قِرۡطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواۡ إِنۡ هَذَا إِلاَّ سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۞وَقَالُواۡ لَوۡلا أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الأَمۡرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ۞ وَلَوۡ جَعَلۡنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلۡنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ۞ وَلَقَدِ اسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواۡ مِنۡهُم مَّا كَانُواۡ بِهِ يَسۡتَهۡزِؤُونَ۞ قُلۡ سِيرُواۡ فِى الأَرۡضِ ثُمَّ انظُرُواۡ كَيۡفَ كَانَ عَاقِبَةُ الۡمُكَذِّبِينَ **)[الأنعام:٤-١١].**

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (١٢٩/٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر(٢٠/٧).

فالآيات التي تأتيهم من ر م المحسن إليهم العالم بمصالحهم..، متجددة ومتنوعة باستمرار؛ بدلالة التعبير عن إتيا ا بالجملة الفعلية. وفي المقابل هم ـ دائما ـ معرضون عنها؛ هذه هي صفتهم الملازمة لهم التي لا تنفك عنهم؛ بدلالة الجملة الاسمية. والذي دفعهم للإعراض هو العناد والكبر والحسد. وإعراضهم جعلهم يكذبون بالحق الذي جاءهم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم **ـ من ربه خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور، وخالق الإنسان من طين، من الإله المعبود في السموات والأرض، الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون.، إنه الحق وقد كذبوا به؛ لذا استحقوا الوعيد والتهديد. (**فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ **)**[1]**.**

واستدل ـ سبحانه وتعالى **ـ على قدرته على إنزال العذاب م، وعلى قدرته على بعثهم بعد مو م ازا م على ما كانوا يعملون بحقيقة لا يمكنهم إنكارها؛ بمصارع الأمم التي كانت أكثر منهم أموالاً وأولاداً وتمكيناً في الأرض،وقد أنكر عليهم تعنتهم وتماديهم في الإعراض والتكذيب ، ووبخهم ، وعجب من موقفهم ذلك بالجملة الاستفهامية :(** أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ **)**. **فسنة الله ـ** تعالى **ـ في خلقه ماضية؛ فالذنوب لك أصحا ا، بل هي خراب الشعوب.**

ثم يمضي السياق ويصور فيه طبيعة العناد التي ينبعث منها ذلك الإعراض، إنه إنموذج عجيب من النفوس البشرية، لكنه مكرور ، يجده الإنسان في كل زمان ومكان ؛ النفس المكابرة التي يخرق الحق عينيها ولا تراه ، والتي تنكر مالا ينكَر ؛ لأنه الشمس وضوحاً، فلو أن الله ـ تعالى **ـ نزل على رسوله ـ** عليه الصلاة والسلام **ـ كتاباً، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه ، ولكن في ورق منظور ملموس ، ثم لمسوه بأيديهم ، لا سماعا عن غيرهم ، ولا رؤية بعيو م فحسب ..، ما سلموا ذا الذي يرونه ويلمسونه، و لقالوا جازمين مؤكدين بجملة القصر الذي هو من أقوى أساليب التأكيد: "**إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ**"..! ومن إيحاءات هذا التصوير؛ حلم الله ـ** تعالى **ـ على عباده، فهو ـ**

(١) ينظر: نظم الدرر (٢٠/٧ - ٢١)، و: في ظلال القرآن (١٠٣٧/٢).

تعالى ـ لم يعجل العذاب لهؤلاء المعارضين المكذبين، مع أ م بلغوا من العناد والكبر شأواً بعيداً. [(١)]

بعد ذلك يعرض في السياق لأنموذج من اقتراحات المشركين التي يمليها عليهم الكبر والعناد، كما يمليها الجهل وسوء التصور؛ فهم يقترحون أن ي ل الله ـ تعالى ـ على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملكاً يصاحبه في تبليغ الدعوة، ويصدقه في أنه مرسل من عند الله ـ تعالى ـ ثم يبين لهم ما في هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة، وبسنة الله في إرسالهم، كما يبين لهم رحمته ـ تعالى ـ م في عدم استجابته لهم فيما يقترحون؛ إذ لو أنزل ـ تعالى ـ ملكاً لقضي الأمر، وتحقق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار، فالسياق يقف بالمشركين وجهاً لوجه أمام رحمة الله م، وحلمه عليهم، وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم، وجهلهم بسنة الله في ت يل الملائكة، وهم ذا الجهل يرفضون الهدى والرحمة ويتعنتون في طلب الدليل..![(٢)]

ولما قطع الرجاء من هداية من حكم بشقاوته، وكان طلبهم لإنزال الملك ونحوه إنما هو على سبيل التعنت والاستهزاء، وكان ذلك يشق على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين غاية المشقة، وتاقت النفس إلى الخلاص منهم، وتوقعته لما تقدم من دلائل العظمة والقدرة ، أخبر ـ تعالى ـ أنه فاعل ذلك في سياق أتي به تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ فقال : (ولقد استهزئ برسل من قبلك .) الآية .[(٣)]

ومما يلفت الانتباه ذلك التوجيه الرباني: (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)، والسير في الأرض للتدبر و الاعتبار، ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث والوقائع، مسجلة في الآثار الشاخصة..، أمر جديد على العرب، لقد كانوا يسيرون في الأرض، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش، أما أن يسيروا وفق منهج

---

(١)) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٣٩/٢).

(٢) ينظر المرجع السابق . الصفحة نفسها.

(٣) ينظر:نظم الدرر (٢٨/٧).

معرفي تربوي فهذا جديد عليهم، وهذا المنهج القرآني يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية.. إلى القمة السامقة.[١]

ولما أمرهم ـ جل وعلا ـ بالسير، سألهم هل يرون في مسيرهم و تطوافهم شيئاً لغير الله ؟، تذكيراً لهم بما رحمهم به من ذلك في إيجاده لهم أولاً، وبالإنعام عليهم بتيسير المنافع لهم، ودفع المضار عنهم ثانياً؛ استعطافاً لهم إلى الإقبال عليه والإعراض عن الخضوع لما هو مثلهم أو أقل منهم، وهو في ملكوت الله ـ تعالى ـ وتحت قهره، وتقبيحاً أن يأكلوا خيره ويعبدوا غيره، فقال مقرراً لهم على إثبات الصانع والنبوة والمعاد، ومبكتاً بسفههم وشدة جهلهم[٢]**:** (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ ۞ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۞ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدُيرٌ ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)**[الأنعام:١٢-١٨]، والسياق الذي تتصدره هذه الآية يعرف بحقيقة الألوهية ، متجلية في ملكية الله ـ تعالى ـ لما في السموات و ما في الأرض ، ولما سكن بالليل والنهار ، ومتجلية في كونه الرزاق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره، الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده. وهو ـ أيضاً ـ الذي يعذب العصاة في الآخرة وهو الذي يملك الضر والخير، وهو على كل شيء قدير، وهو القادر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.**

---

(١) ينظر:في ظلال القرآن (١٠٤٥/٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٣٠/٧).

وإذا كان هذا شأن ذلك الرب وهذه صفاته فلا ينبغي للعبد أن يتخذ آلهة يعبدها من دون الله هي مقهورة تحت سلطانه.

وختم السياق بإيراد شهادة الله ـ تعالى ـ وشهادة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ شهادة هي إعلان للتوحيد، والتبرؤ من الشرك، في كلمات صريحة قوية[1] ؛ قال تعالى: (قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) **[الأنعام:١٩]؛ فأثبتت وحدانيته ـ جل وعلا ـ بأقوى الأساليب ؛ وهو القصر (إنما هو إله واحد)؛ لما يتميز به هذا الأسلوب من قوة في التأكيد مع الإيجاز ، ويضاف إلى ذلك ما حملته (إنما) هنا من تعريض بضلال المشركين الذين يعددون الآلهة التي يعبدو ا ، وهذا من أدلة بطلا ا إذ لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لفسدتا ، بل هو إله واحد لا شريك له .**

وأتبع ذلك بالحديث عن معرفة أهل الكتاب بصدق النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبالحق الذي معه؛ وبتعظيم الشرك باستفهام إنكاري؛ إذ لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذب بآياته. ويصور في الآيات موقف المشركين يوم الحشر حين يوبخون بالجملة الاستفهامية: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ .فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء؛ لذلك يعجب ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أمر هؤلاء كيف كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا الشركاء..؟ كما يصور في السياق حال فريق من المشركين، وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك، مطموسي الفطرة، يجادلون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدعون أن هذا القرآن الكريم أساطير الأولين، وينأون عن سماعه، وينهون ـ أيضاً ـ غيرهم..!، يصور حالهم في هذه الدنيا في صفحة، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهداً كئيباً مكروباً، وهم موقوفون على النار محبوسون

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٢٣/٢) و:تفسير القرآن الحكيم (٣٣٦/٧).

عليها، وهي تواجههم ول المصير، وهم يتهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا، فيكون لهم موقف غير موقفهم السابق، والذي انتهى م إلى هذا المصير.

إ ما صفحتان متقابلتان: صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض، وصفحة في الآخرة يرتسم فيها الندم و الحسرة، ترسمان في السياق القرآني وتعرضان بصورة موحية مؤثرة، تخاطب الفطرة ا، لعل الركام الذي ران عليها يتساقط، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.(١)

ويعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ر م، وهم يسألون عن هذا الإنكار، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم. ويختم السياق بالإخبار عن خسارة المكذبين بلقاء الله، وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخر للذين يتقون؛(٢)

قال تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُون ۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۞ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٦٤/٢-١٠٦٥).و:تفسير القرآن الحكيم (٣٤٤/٧).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (٢ /١٠٢٤).

قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ۞ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) **[الأنعام: ٢٠-٣٢]**

وفي السياق التالي تعرض الآيات ما يسلي الرسول -عليه الصلاة والسلام. **ويسري عنه ما يحزنه من تكذيب قومه له ولما جاءهم به من عند الله، فله مثل أعلى في الرسل من قبله ممن صبروا على تكذيب أقوامهم وإيذائهم حتى أتاهم نصر الله، وهذه سنة إلهية لا تتبدل، كما أ ا لا تستعجل، فإن كان النبي** ـ صلى الله عليه وسلم ـ **عظم عليه إعراضهم، فليبذل جهده البشري في إتيا م بآية خارقة، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، إذ اقتضت مشيئته في خلقه أن يستجيب أصحاب الفطر السليمة الذين يقبلون على الحق ويستمعونه، أما الموتى فلا يستقبلون موجبات الهدى ولا يستجيبون، والله يبعثهم، وهم إليه يرجعون.**[1] **قال تعالى:**(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ۞ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) **[الأنعام: ٣٣-٣٦].**

ولما سلّى ـ سبحانه وتعالى ـ **نبيه** ـ عليه الصلاة والسلام ـ**، وأعلمه** ـ تخفيفاً **عليه ـ أن أمر المكذبين إنما هو بيده، ذكره بجهالة قومه المكذبين، الذين يقترحون الآيات، دون أن يدركوا سنة الله في إنزالها، ولا رحمته في عدم استجابته لمقترحا م. ويعرض في السياق**

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٢٤/٢).

دقة التدبير الإلهي، وحكمته، وعلمه بكل الأحياء، كما ذُكّر أولئك المكذبون ـ بإيجاز قصر بليغ ـ بآية من أعظم الآيات لو تفكروا فيها لكفتهم، فهم ليسوا وحدهم في هذا الكون، إن حولهم أحياء أخرى كلها ذات أمر منتظم، يوحي بالقدرة والتدبير والحكمة والعلم والرحمة، ويوحي كذلك بوحدة الخالق؛ فما من دابة وما من طائر يطير بجناحيه إلا وينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة وذات طريقة في الحياة واحدة..شأ ا في هذا شأن أمة الناس.. وما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله، وعلم يحصيه..، وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ر ا، فيقضي في أمرها بما شاء. ويهتز القلب بما توحيه هذه الآية من صفات الله ـ جل وعلا ـ؛ فهو المدبر والعليم والقدير والحكيم والرحمن الرحيم، والرزاق.. ولكن الذين كذبوا بالآيات صم وبكم في الظلمات..، وكل ذلك بمشيئة الله ـ تعالى ـ [(1)]؛ قال سبحانه: (وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[الأنعام:٣٧-٣٩]

ثم ينتقل السياق إلى عرض طرف آخر من وسائل المنهج الرباني في خطاب الفطرة الإنسانية ذه العقيدة؛ فبعد أن خاطبها بما في عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهي والتقدير، وبما في علم الله من إحاطة وشمول..، خاطبها هنا ببأس الله، وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها في صورة من صوره الهائلة، التي ز القلوب، فيتساقط عنها ركام الشرك، وتنهض فطرهم التي أودع التوحيد فيها، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض دخيل يسيطر عليهم وقت الرخاء، وما يخف حمله من البلاء، حتى إذا نزل م ما لا يطاق من المصائب تضرعوا لله مخلصين له الدين، وضل عنهم ما كانوا يدعون

(١) ينظر: نظم الدرر (١٠٢/٧-١٠٤)، و:في ظلال القرآن (١٠٨٠/٢).

فيكشف ما يدعون إن شاء، وهذا المعنى نقل إليهم بجملة استفهامية إنكارية: " أغير الله تدعون إن كنتم صادقين " ؟!. وأتبع ذلك السؤال بالجواب : "بل إياه تدعون ".[١]

ويوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم، ويخبرهم كيف تجري سنة الله ـ تعالى ـ ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم بعد تكذيبهم برسل الله، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء؛ الابتلاء بالبأساء والضراء، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء، وكيف أتاح لهم فرصاً؛ لعلّهم ينتبهون من غفلتهم، حتى إذا استنفذوا الفرص كلها، وغر م النعمة في حين أن الشدة لم توقظهم، جرى قدر الله، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ".

وفي أعقاب هذا المشهد المؤثر؛ يجيء مشهد آخر، مشهد هؤلاء المكذبين وهم يتعرضون لبأس الله ـ أيضاً ـ؛ فيأخذ سمعهم وأبصارهم ، ويختم على قلو م ، ثم لا يجدون إلهاً غير الله يرد عليهم ما أخذ منهم .

وفي مواجهة هذين المشهدين الهائلين يخبرهم بوظيفة الرسل؛ بجملة قصر تؤدي المعنى بإيجاز وتأكيد؛ إ ا البشارة والنذارة..، ليس لهم أن يأتوا بالخوارق، ولا أن يستجيبوا لمقترحات المقترحين..، ثم يؤمن فريق من الناس، ويعمل صالحاً، فيأمن الخوف، وينجو من الحزن. ويكذب فريق، ويعرض فيمسه العذاب جزاءً وفاقاً..، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر..فهذا هو المصير؛[٢] **قال تعالى: (** قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٤٠٦/٧-٤٠٧) و: في ظلال القرآن (١٠٨٦/٢).

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٢ /١٠٨٦).

بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۞ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) [الأنعام :٤٠-٤٩].

ويواجه النص الحكيم المشركين بحقيقة الرسالة، وطبيعة الرسول..التي خالطتها في تصورا م الخرافة والأوهام، فالنبوة عندهم مقترنة بالسحر والكهانة، والوحي بالجن والجنون، وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب، وأن يأتي بالخوارق، فجاءت العقيدة الإسلامية لتقذف الحق على الباطل فتدمغه، فإذا هو زاهق، ولتخلص صورة النبوة والنبي من تلك الخرافات والأساطير، التي شاعت في الجاهليات كلها.وبعد بيان حقيقة الرسالة والرسول، تقدم الآيات العقيدة الإسلامية للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها، فالرسول الذي يدعو إليها بشر، لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يقول لهم: إني ملك..وهو لا يتلقى إلا من ربه، ولا يتبع إلا ما يوحى منه..، والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله " أليس الله بأعلم بالشاكرين " ؟؛ وفي هذه الجملة إيحاءات وإيماءات جليلة؛ منها: أن الهدى جزاء يجزي به الله من يعلم من أمرهم أ م إذا هدوا سيشكرون هذه النعمة، التي لا كفاء لها من شكر العبد، ولكن الله يقبل منه جهده ويجزي عليه هذا الجزاء الهائل الذي لا يعدله جزاء. وأن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التي تسود في الجاهليات البشرية، إنما يختص الله ا من يعلم أ م شاكرون عليها، حتى وإن كانوا من الموالي أو الضعفاء أو الفقراء، فميزان الله لا مكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التي يتعاظمها الناس في الجاهليات. وفيها إيحاء بأن من يعترض على فضل الله على بعض البشر، إنما يمارس سوء أدب مع الله ويقع في الجهالة، في الوقت الذي يتعين عليه الرضا والتسليم بما قسم الله وقدر. ثم إن عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن

يلزمهم، وأن يهش لهم، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة، كما أن عليه أن ينذر الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة؛ ليصلوا إلى مرتبة التقوى، وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ثم إنه ذا التصحيح، و ذا الإنذار، تستبين سبيل ا رمين، و يتضح الحق من الباطل.

وفي أثناء الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية، وعلاقة الرسول ا، وعلاقة الناس جميعاً، ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال؛ فالهدى إبصار والضلال عمى. والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده بالمغفرة ـ على معاصيهم التي يرتكبو ا بجهالة ـ متى تابوا وأصلحوا بعدها. وهو ـ تعالى ـ يريد أن تستبين سبيل ا رمين، فيؤمن من يؤمن عن بينة، ويضل من يضل عن بينة، ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا يشوبه أوهام أوظنون،[1] قال تعالى:(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ۞ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۞ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)[الأنعام: ٥٠-55].

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٩٤/٢-١١٠١).

بعد ذلك يعود السياق إلى "حقيقة الألوهية "؛ بعد بيان حقيقة الرسالة والرسول، وبعد استبانة سبيل المجرمين، تتجلى حقيقة الألوهية في هذا السياق في جوانب شتى؛ فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجد في نفسه بينة من ربه، وهو منها على يقين، لا يتزعزع. يخلص نفسه لربه، ويواجه قومه مواجهة المستيقن من ضلالهم ؛ قال تعالى: (قُلۡ إِنِّى نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ۞ قُلۡ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبۡتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ) **[الأنعام:٥٦- ٥٧].**

وتتجلى في حلم الله على المكذبين ورحمته بهم، إذ لم يستجب لاقتراحاتهم لئلا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها، وهو القادر على ذلك. ولو كان رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يملك هذا الذي يستعجلون به؛ لضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم، ولما أمسكه عنهم؛ فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلمه ـ تعالى ـ ورحمته، كما أنه تتجلى فيه ألوهيته؛ قال تعالى:(قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِى مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِى وَبَيۡنَكُمۡ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ)[1]**[الأنعام:٥٨]، وفي قوله:**(وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ)**؛ تهديد ووعيد لهؤلاء المعاندين ؛ ليصححوا عقيدتهم ، ويعودوا إلى ربهم.[2]**

ولما كانت تلك الآيات مثبتة لدقائق من علمه تعالى وقدرته، وكان ختامها العلم بالظالم وغيره، أتبع ذلك الاختصاص بما هو أعم؛ وهو علم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية، ولعل إثبات ذلك بهذا الأسلوب من باب الترقي في مراقي الاعتقاد من درجة كاملة إلى أكمل منها؛[3] قال تعالى:(وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعۡلَمُ مَا فِى

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١١٠٨/٢).

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (١٩٩/٢).

(٣) ينظر: نظم الدرر (١٩٩/٢).

ﭐلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ) [الأنعام:٥٩].

ولما أخبر ـ سبحانه ـ بتمام العلم والقدرة، أخبر بغالب سلطانه وعظيم جبروته، وأن أفعاله ـ جل وعلا ـ لا يستطيع أحد مخالفتها؛ إذ هو القاهر فوق عباده،[1] كما قال: (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۞ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ) [الأنعام:٦٠-٦٢]، وبعد أن عرف بأفعاله ـ سبحانه ـ حتى اتضحت وحدانيته، ذكرهم بأحوالهم وقت الشدائد في إقرار التوحيد والرجوع عنه بعد الإنجاء منها؛ فكانوا كمن طلب من شخص شيئاً وأكد له الميثاق على الشكر، فلما أحسن إليه بإعطائه سؤاله نقض عهده وبالغ في الكفر، وذلك عندهم في غاية القبح الذي لا يوصف؛[2] وهذا الإله الذي يدعونه وقت الشدائد قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب، فلا يجدون لها دافعاً غيره ـ جل وعلا ـ[3]، قال تعالى: (قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۞ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ)[الأنعام:٦٣-٦٥].

ثم يأتي السياق بتقرير ما انتهى به السياق السابق؛ فقوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم الذين كذبوا بما جاءهم ـ وهو الحق ـ، ومن ثم انفصل مابينه وبينهم، وأمر أن يعلن

(١) ينظر: نظم الدرر (١٣٩/٧).

(٢) ينظر:المرجع السابق (١٤١/٧)

(٣) ينظر: في ظلال القرآن (١١٠٩/٢).

أنه ليس عليهم بوكيل، وأن يتركهم لمصيرهم الذي لابد آت، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون في الدين، ويتخذونه لعباً ولهواً، وأمر أن يذكرهم وينذرهم، ولكن يبقى هو ومن آمن معه فريق، وكفار قومه فريق آخر، فلا قوم ولا جنس، ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام..إنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق، وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى، وحين تنفصم هذه العروة تنقطع الروابط كلها،[1] **قال تعالى:(وكذب** بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ۝لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ۝وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ۝وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ) **[الأنعام:٦٦-٧٠].**

ولما تقرر أنه لا أحد غير الله ـ تعالى ـ يمنع عذابه، لا آلهتهم التي زعموا أ ا شفعاؤهم ولا غيرها؛ ثبت أ م على غاية البينة من أن كل ما سواه لا ينفع شيئاً ولا يضر، فكان تبكيتاً لهم قوله تعالى [2]**:**(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ۝وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٠٢٦/٢).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٥٠/٧).

الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[الأنعام:٧١-٧٣].

إنه بيان قوي ينطق بحقيقة الألوهية وخصائصها؛ و باستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى، وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتداً عن دين الله، وحيرته في التيه بلا اتجاه، وبتقرير أن هدى الله هو الهدى، ويختم هذا المقطع بإيضاح لسلطان الله المطلق؛ في الأمر والخلق، وعن انكشاف هذا السلطان وتفرده بالظهور ـ حتى للمنكرين ـ يوم ينفخ في الصور، ويبعث من في القبور، ويستيقن من لم يكن كذلك أن الملك لله وحده وأن إليه المصير.[1]

ولما كان مضمون الآيات الثلاث المفتتح ا السورة يهدم مذهب عبدة الكواكب والأنوار، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعرف فضله جميع الطوائف؛ لأن أكثرهم من نسله كاليهود والنصارى، والمشركين من العرب والمسلمين لما يعلمون من إخلاصه لله تعالى، وتصديه لمحاجة من أشرك بالله، واحتمال الأذى فيه ـ سبحانه ـ، أورد محاجته لقومه بما أبطل مذهبهم ودحض حججهم؛ لمناسبة قصته ـ عليه السلام ـ لمقصد السورة عامة والسياق خاصة؛[2] فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ۞ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ۞وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٢/ ١٠٣١).
(٢) ينظر: نظم الدرر (١٥٥/٧).

تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ۞وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ۞الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ۞وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)**[الأنعام:٧٤-٨٣].**

ففيها عرض لحقيقة الألوهية، ولكن بأسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة؛ يعرضها هنا في أسلوب قصصي مع التعقيب عليها. وتعرض هنا كما تجلت في فطرة عبد من عباد الله الصالحين؛ إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وفي الآيات يرسم مشهد مؤثر للفطرة السليمة، وهي تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في أعماقها، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصورا ا..، إلى أن يخلص لها تصور حق..، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق .[1]

ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان الموصول، يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور؛ فيبدو شرك المشركين، وتكذيب المكذبين لغواً لا وزن له يتناثر على جانبي الموكب الجليل، الذي يلتحم آخره مع أوله؛ فيؤلف الأمة الواحدة، يقتدي أخرها بالهدى الذي اهتدى به أولها.[2] **قال تعالى :** (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۞وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ۞وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ۞وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ۞ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۞أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١١٣٧/٢).

(٢) ينظر: المرجع السابق .الصفحة نفسها.

هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ۞أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)[الأنعام:٨٤-٩٠].

وذكر هنا أربعة من الأنبياء؛ هم: نوح، ولإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء، هم: داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون،وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط وا موع ثمانية عشر؛ و لعل المراد من ذكرهم بيان أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أشرف الأنساب؛ لأنه رزقه أولاداً مثل إسحاق، ويعقوب.وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب أباء طاهرين مثل نوح، فالمقصود ـ والله أعلم ـ بيان كرامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بحسب الأولاد وبحسب الآباء، وفي هذا تعداد لأنواع النعم التي أنعم الله ـ تعالى ـ على إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ جزاء قيامه بالذب عن التوحيد.(١)

وذُكر هؤلاء الأنبياء ـ عليه السلام ـ في هذه الآيات من غير ترتيب لا بحسب الزمان، ولا الفضل؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب..،(٢) وقد حاول بعض المفسرين تلمس لطائف لترتيبهم على النحو المذكور في الآيات؛ منهم أبو حيان إذ قال ـ ما معناه ـ: إنه أولاً ذُكر شرف أبناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ إسحاق و يعقوب؛ ثم أتبع بشرف آبائه؛ فذكر نوحاً، وقال: (من قبل) تنبيهاً على قدمه، وفي الإشارة إليه هنا لطيفة؛ وهي أن نوحاً ـ عليه السلام ـ عبدت الأصنام في زمانه، وقومه أول من عبد الأصنام، أما هو فقد وحد الله ـ تعالى ـ ودعا إليه ورفض عبادة الأصنام فكان في ذكر نوح ـ عليه السلام ـ وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هداه مناسبة لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

ولعل تقديم (داود)؛ لتقدمه في الزمان، ولكونه صاحب كتاب، ولكونه أصلاً لـ(سليمان)، وهو فرع منه. وقرن (أيوب ويوسف) بالذكر، ولعل ذلك لاشتراكهما

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٥/٥١-٥٢).

(٢)ينظر:تفسير الخازن (١٥٦/٢).

في الامتحان؛ أيوب في البلاء في جسده، ونبذ قومه له، ويوسف أبتلي بالسجن، ولغربته عن أهله؛ ولاشتراكهما في العاقبة؛ السلامة والعافية.

وقرن (موسى وهارون)؛ لاشتراكهما ـ والله أعلم ـ في الأخوة، وقدم موسى ـ عليه السلام ـ؛ لأنه كليم الله .(١)

وأتبع أولئك بـ(زكريا ويحيى وعيسى و إلياس)؛ ولعل الجمع بينهم في الذكر؛ لاشتراكهم في الزهد والإعراض عن الدنيا، وبدأ بزكريا ويحيى ـ والله أعلم ـ ؛ لتقدمهما على عيسى في الزمان، وقدم زكريا ؛ لأنه والد يحيى فهو الأصل ويحيى الفرع.(٢)

وبعد هؤلاء الأنبياء ذكر من لم يبق له أتباع ولا شريعة؛ وهم إسماعيل و اليسع ويونس ولوط، وعلى ما قيل يكون ذكرهم على هذا الوجه من الترتيب من محاسن النظم القرآني والله أعلم بأسرار كتابه.(٣)

وبعد ذلك يجيء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلاً، ولم ي ل على بشر كتاباً، إ م لم يقدروا الله حق قدره، إذ يعني هذا أنه ترك عباده هملاً..، وهذا لا يليق بألوهية الله وربوبيته وعلمه وحكمته وعدله ورحمته..؛ إنما اقتضت رحمته ـ تعالى ـ وعلمه وعدله أن يرسل إلى عباده رسلاً، وأن ي ل على بعضهم كتباً؛ ليهدوا الناس بمشيئته، وقد استدل ـ سبحانه ـ على ألوهيته بالكتاب الذي أنزل على موسى، وبالقرآن الذي يصدق مابين يديه من الكتب جميعاً، قال تعالى :(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ۝وَهَذَا كِتَابٌ

(١) ينظر:البحر المحيط (١٧٢/٤).

(٢) ينظر:المرجع السابق (١٧٣/٤).

(٣) ينظر: تفسير الخازن(١٥٦/٢).

أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)[الأنعام:٩١-٩٢].

وينتهي السياق المتلاحم باستنكار الافتراء على الله، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ـ تعالى ـ، وادعاء القدر، على تـ يل مثل ما أنزل الله؛ فلا أحد أظلم ممن تقول هذا.وكل ما سبق دعاوى كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية .

وبمشهد الاحتضار المكروب للمشركين؛ وهو مشهد كئيب يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب؛ جزاء الاستكبار و الإعراض والافتراء والتكذيب ،[١] قال تعالى:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ۞وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)**[الأنعام:٩٣-٩٤].**

ولما ثبتت الوحدانية لله ـ جل وعلا ـ والنبوة والرسالة لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وانتهى الكلام هنا إلى ما يبرز مقام العظمة والحكمة، أردف بذكر دلائل أخرى لوحدانيته ـ تعالى ـ ؛ إعلاماً بأن دلائل الجلال والوحدانية تفوق عدد الرمال ؛ وتنبيهاً على أن المقصد الأعظم لإيراد مثل هذه الآيات ، هو معرفة الله ـ تعالى ـ بذاته وصفاته ؛[٢] فقال تعالى :(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ۞ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١١٣٧/٢) وما بعدها.

(٢) ينظر: نظم الدرر (١٩٤/٧).

النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞وَهُوَ الَّذِىَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۞وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ۞ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ۞لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[الأنعام:٩٥-١٠٣].

ففي هذا السياق يعرض للمنكرين كتاب الكون المفتوح، الذي يمر به الغافلون في كل لحظة، فلا يقفون أمام خوارقه وآياته، يأخذهم النسق القرآني العجيب؛ ليرتاد بهم هذا الوجود، يقف بهم أمام الآية التي تقع في كل لحظة من الليل والنهار؛ آية انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد، وأمام دورة الفلك العجيبة التي تجري بتقدير العزيز العليم، وأمام النفس البشرية ذات الأصل الواحد.(١)

ويمضي السياق وفيه يعرض لمشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض، تعرض كما هي في صفحة الكون، ويلفت النظر إلى أطوارها، شتى أشكالها..، وما فيها من دلائل القدرة الإلهية، كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال والتفكر فيه.

وبعد ذلك العرض الحافل بدلائل وجود الله ووحدانيته، وقدرته، وتدبيره، يعرض شرك المشركين وأوهامهم، فإذا هو منكر في هذا الجو المؤمن، وسخف تشمئز منه النفوس، كيف جعلوا لله شركاء ؟ وخرقوا له البنين والبنات..، سبحانه وتعالى عما يصفون..!. وهذه الغرابة تواجه بالحقيقة الإلهية إنه "بديع السموات والأرض أنى يكون

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١١٥٢/٢-١١٥٩).

له ولد ولم تكن له صاحبة. وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم "، فبديع السموات والأرض، والذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم..ما حاجته إلى الولد..؟!.[١]

وبعد أن ثبت أنه لا كفوء له بما ذكر من صفاته وأفعاله، وبين فساد أقوال المشركين، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه، وبين فساد كل واحد منها بأقوى الحجج، فثبت بذلك ما افتتح السورة به من إحاطته بصفات الكمال، عقب ذلك بقوله[٢]:(ذَٰلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ۝لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[الأنعام:١٠٢ـ١٠٣].

ثم قال تعالى:(قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الأنعام:١٠٤ـ١٠٦].

فما مضى من آيات كانت كلها في إثبات ألوهيته ـ جل وعلا ـ وهذه الآيات في التنبيه لمكانتها من العلم والهداية، وفي المبلغ لها عن الله تعالى وما يقول المشركون فيه وإعلامه بسنة الله فيهم، وما يجب عليه وما ينفى عنه.[٣]ومع أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عن المشركين، وجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع المؤمنين بألا يسبوا آلهة المشركين؛ لئلا يسبوا الله ـ جل وعلا ـ، وهم لا يعلمون جلال قدره وعظيم مقامه. وأخيراً يختم السياق بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد أيما م أن لو جاء م آية ليؤمنن ا، ثم يجيء الرد الحاسم ببيان طبيعة التكذيب في هؤلاء المكذبين،[٤]وفي ذلك قال تعالى:(وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

---

(١) ينظر:في ظلال القرآن (١١٦١/٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٢١٨/٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٦٥٧/٧).

(٤) ينظر: في ظلال القرآن (١١٦٩/٢) وما بعدها .

وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۞ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[**الأنعام:١٠٧ ـ ١١٠].**

ولما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أ م لا يؤمنون عند إتيان الآية المقترحة، أتبع ذلك بآيات تفضح حقيقتهم، كانت من الإطناب بطريق التفصيل بعد الإجمال؛ فُصل فيها ما أجمل في **الآيتين السابقتين.**[١] **قال تعالى:**(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)**[الأنعام:١١١ ـ ١١٣].و**في **هذه الآيات دلالة على أن الإيمان والهدى لا يكون بالآيات المقترحة، إنما هو** بمشيئة الله **ـ تعالى ـ وكذا الضلال والكفر.**

ثم **ينتقل السياق** إلى **تقرير جهة الحاكم** في **أمر العباد كله ـ** تمهيداً **لتقرير مصدر التحليل والتحريم** في **الذبائح، الأمر الذي يزاول فيه المشركون هذا الحق افتراء على الله واعتداء على سلطانه ـ ويمهد لهذا الأمر** تمهيداً **طويلاً كما يلحظ من سياق الآيات** في **هذا الموضع؛ قال تعالى:(أفغير** اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۞ وَإِن

---

(١) ينظر: نظم الدرر (٧/٢٣٠).

تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) **[الأنعام:١١٤ـ ١١٧].**

ثم **يربط هذا التمهيد ربطاً مباشراً بقضية الإيمان أو الكفر؛ قال تعالى:**(فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)**[الأنعام:١١٨ـ ١١٩].**

وقبل الانتهاء من عرض قضية التحليل والتحريم ـ بعد ذلك التمهيد كله ـ يفصل بين **فقرتين** بتوجيهات **وتعقيبات أخرى،** تحوي **مؤثرات قوية من الأمر والنهي والبيان والوعيد؛ قال تعالى:**(وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ۞ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ)**[الأنعام:١١٩ـ ١٢٠].**

ثم **يستأنف الحديث** في **قضية التحليل والتحريم، فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك؛ قال تعالى:**(وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)**[الأنعام:١٢١].**

ويمضى السياق بعد ذلك شوطاً آخر في **الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان..؛ شوطاً كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحريم**[(١)]**؛ قال تعالى:**(أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۞وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ۞وَإِذَا

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١١٩٣/٢).

جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ۞فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)[الأنعام :١٢٢ ـ ١٢٥].

ويجيء التعقيب الأخير في **هذا المقطع، يربط قضية التشريع بقضية الإيمان، فهذه وتلك صراط** الله **المستقيم، والخروج** في **واحدة منهما، هو خروج عن هذا الصراط المستقيم، والاستقامة عليهما معاً؛ العقيدة والشريعة، هي الاستقامة على الصراط المؤدي إلى دار السلام، وولاية الله لعباده الذاكرين؛ قال تعالى**:(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يعملُونَ)[الأنعام:١٢٦-١٢٧].

إنه الصراط؛ صراط ربك..؛ ذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة؛ المبشرة بالنهاية، هذه هي سنته في **الهدى والضلال، وتلك هي شريعته** في **الحل والحرمة، كلاهما سواء** في **ميزان الله، وكلاهما لحمة** في **سياق قرآنه.**(١)

ويجد القارئ أن سياق الآيات السابقة اشتمل على وعيد بما أعده الله ـ جل وعلا ـ من العذاب للمجرمين، ووعد بالنعيم في **دار السلام للمؤمنين** في **إثر بيان أحوالهم وأعمالهم التي استحق ا كل منهما جزاءه.** ثم **ففى عليه ذه الآيات بذكر ما يكون قبل ذلك الجزاء من الحشر، وبعض ما يكون** في **يومه من الحساب، وإقامة الحجة على الكفار، وسنة الله** في **إهلاك الأمم، وجعل درجات الجزاء بالعمل؛**(٢) **قال تعالى**:(وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ

(١)ينظر: في ظلال القرآن (١٢٠٥/٢).
(٢) ينظر:تفسير القرآن الحكيم (٦٤/٨).

فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ۞وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۞ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ۞ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۞وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)**[الأنعام:١٢٨-١٣٢].**

وأتبعت هذه الآيات بما **يؤيدها، ويتمم بيان** المعنى المراد **منها؛ بأخرى ذُكر** فيها **بيان عقاب الأمم** في **الدنيا** بالهلاك الحسي والمعنوي، **و**تحقيق **وعيد الآخرة، وكون كل منهما مرتباً على أعمال** المكلفين **لا** بظلم **منه ـ** سبحانه **ـ،ولا** لحاجة **له ـ** تعالى **ـ فيه؛لأنه** غني **عن** العالمين **،بل إن عقابه مع كونه مقتضى** الحق **والعدل، هو مقرون** بالرحمة **والفضل؛**[1] **قال تعالى** :(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ۞إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) **[الأنعام:١٣٣-١٣٥].**

ولما بين في **الآيات قبح طريقة** المشركين في **إنكار البعث، وحسن طريقة الإسلام، بذلك الأسلوب البليغ ، وختمت** بحال **الظالمين ، شرع** في **تفصيل قوله :** (قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)**[الأنعام:١٤]، بأسلوب آخر** ابتدئ **ببيان ظلمهم وجهالا م وأباطيلهم؛ تنبيهاً على قصور عقولهم، وتنفيراً منهم لوضعهم الأشياء** في **غير مواضعها، وإخراجها عما هي له، ونسبتها** إلى **من لا** يملك **شيئاً، وقتل الأولاد، وتسييب الأنعام ..وغير ذلك؛**[2] **قال تعالى**:(وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (١١٣/٨).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٢٧٨/٧).

فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ۞وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ۞وَقَالُواْ هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ۞وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ۞قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاء عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)**[الأنعام:١٣٦-١٤٠].**

ثم **يلفت السياق أنظار** المشركين إلى **أن الله هو الذي أنشأ** لهم **هذه النعم** التي **يتصرفون** فيها بجهالا م ، **هو الذي أنشأ** لهم **جنات معروشات وغير معروشات ، وهو الذي خلق** لهم **هذه الأنعام ، والذي يرزق ، وهو وحده الذي** يملك **، والذي يشرع للناس** فيما **يرزقهم من هذه الأموال ،** وفي **هذه اللفتة سخر حشد من** المؤثرات الموحية **من مشاهد الزروع والثمار،** والجنات المعروشات **وغير** المعروشات **، ومن نعمة** الله **عليهم** في **الأنعام** التي **جعل بعضها** حمولة **لهم يركبو ا** ويحملون **عليها ،وبعضها** فرشاً **؛ يؤكل** لحمه **ويفرش جلده وصوفه وشعره،ومن** الإيحاءات في **هذه السياق، التذكير بالعداء** المتأصل بين بني **آدم والشيطان ؛ فكيف يتبعون خطواته، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو** المبين**..؟!؛ قال تعالى:**(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ۞وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مبِين)**[الأنعام:١٤١-١٤٢].**

بعد ذلك عرض في **تفصيل** لجاهليتهم فيما يختص **بالأنعام، الخالية من كل منطق..! وألقى الضوء على ظلمات تصورا م** حتى **لتبدو تافهة مهلهلة..، وفي ـاية هذا العرض، يرد سؤال مبكت فيه ـكم:" أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله ـذا؟"،،ويشنع** بجريمة **الافتراء على الله، وإضلال الناس بغير علم ؛**[1] **قال تعالى:**(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۝وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظالمين)**[الأنعام:١٤٣-١٤٤].**

ولما تقرر في **الآيات السابقة أنه ليس لأحد أن يحرم على أحد شيئاً من الطعام ــ وكذا** غيره **ــ، إلا بإذن من** الله **ــ تعالى ــ** في **وحيه** إلى **رسله، وأن من فعل ذلك فهو مفتر على** الله **ــ تعالى ــ، معتد على مقام الربوبية إذ لا** يحرم **على العباد إلا ر ـم، وأن من أطاعه** في **ذلك، فقد** اتخذه **شريكاً** لله **ــ تعالى ــ** في **ربوبيته؛ ختم السياق ببيان ما حرمه ــ سبحانه ــ على عباده من الطعام على لسان** خاتم **رسله، وشرع من قبله،**[2] **قال تعالى:**(قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ۝وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ۝فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)**[الأنعام:١٤٥-١٤٧].**

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٢١٥/٣).

(٢) ينظر تفسير القرآن الحكيم (١٤٧/٨-١٤٨).

ولما علم أن إقدامهم على الأحكام الدينية وقع بغير حجة أصلاً، اقتضى الحال أن يقال: إنه قد بطل بالعقل والنقل جميع ما قالوه في التحريم على وجه أبطل شركهم، فهل بقي لهم من مقال ؟، فأخبر ـ سبحانه ـ بشبهة يقولو ا اعتذاراً عن جهلهم على وجه هو وحده كاف في الدلالة على أحقية ما يقوله من الرسالة؛ فقال ـ سبحانه ـ مخبراً بما سيقوله قبل وقوعه ـ وفي هذا دلالة على صدق رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكذب المشركين فيما يخالفو م فيه ـ[1]:(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ)[الأنعام:١٤٨].

وبعد أن نفى عنهم ـ سبحانه وتعالى ـ أدنى ما يقال له علم، وحصر ما هم عليه من الدين في أدنى مراتب الظن، مع أن أعلاها لا يغني من الحق شيء، أثبت ـ سبحانه ـ لذاته العلية في مقابل ذلك الحجة العليا التي لا تعلوها حجة؛[2] فقال:(قُلْ فَلِلّه الْحجةُ الْبالغةُ فَلَو شاء لَهداكُم أجمعين)[الأنعام:١٤٩].

ثم ينهي مناقشتهم في هذا الشأن بدعو م إلى موقف الإشهاد ـ تماماً كما دعاهم إلى هذا الموقف في أول السورة في شأن أصل الاعتقاد ـ قال تعالى:(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)[الأنعام:١٥٠]، فالذين يزاولون هذه التشريعات هم الذين يتبعون أهواءهم، وهم الذين كذبوا بآيات الله، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، فلو أ م صدقوا بآيات الله،واليوم الآخر،واتبعوا هدى الله ما شرعوا لأنفسهم وللناس من دون الله، وما حرموا وحللوا بغير إذنه ـ جل وعلا ـ.[3]

---

(١) ينظر: نظم الدرر(٣١٠/٧).

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (١٧٧/٨).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن (١٢١٥/٣).

ولما بطل دينهم كله أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبين فساده بأقوى الأدلة؛ ناسب أن يخبرهم بالدين الحق، وما حرمه الملك الذي له الخلق والأمر؛[١] **فقال ـ سبحانه وتعالى ـ:**(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۞وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) **[الأنعام:١٥١-١٥٢].**

فتلك هي قاعدة العقيدة ومبادئ الشريعة؛ اللتين تجتمعان في السياق، وتعرضان جملة واحدة، بصورة لا تخفى دلالتها، وفي اية هذا السياق يقول تعالى:(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**[الأنعام:١٥٣]، وذلك لإبراز تلك الدلالة المستفادة من السياق كله، وصوغها في تقرير واضح؛ إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام.**[٢]

وبعد أن كملت حجج السورة وبيانتها، حسن أن ينبه هنا على مكانة القرآن في جملة من الهداية ووجوب اتباعه، وإعذار المشركين بما يعلمون به أنه لن يكون لهم عذر عند الله تعالى على ضلالهم بالجهل، وعدم إرسال رسول إذا هم لم يتبعوه.وقد افتتح هذا التنبيه والتذكير والإعذار بذكر ما يشبه القرآن في شرعه ومنهاجه مما اشتهر عند مشركي العرب؛ وهو كتاب موسى ـ عليه السلام ـ[٣]**،فقال تعالى :**(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى

---

(١)ينظر: نظم الدرر (٣١٦/٧).

(٢)ينظر: في ظلال القرآن (١٢١٥/٣-١٢١٦).

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٢٠٠/٨) بتصرف

الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ۞وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۞أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ۞أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ)**[الأنعام:١٥٤-١٥٧].**

وقرن ذلك الإعذار بالإنذار الشديد والوعيد بسوء العذاب في الآية الأخيرة وفي الآية التي تلتها؛[(١)] **قال تعالى:**(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ) **[الأنعام:١٥٨].**

بعد ذلك ينتقل السياق إلى خطاب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة في الأرض ـ بما فيها ملة المشركين العرب ـ، قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)**[الأنعام:١٥٩].**

وبمناسبة الحساب والجزاء أخبر ـ سبحانه ـ ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده؛ فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها؛[(٢)] **قال تعالى:**(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)**[الأنعام:١٦٠].**

وتختم السورة بتعقيب يتناسق مع مطلع السورة؛ هو تعقيب ينتهي به الحديث عن الذبائح والنذور والثمار، وما تزعمه الجاهلية بشأ ا من شرائع، تزعم أ ا من شرع الله

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٠٨/٨).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (١٢٣٩/٣-١٢٤٠).

افتراء على الله؛ قال تعالى:(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ۝قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ۝قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ۝وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)**[الأنعام:١٦١-١٦٥].**

وهو إعلان يوحي بالشكر، وبالثقة، واليقين؛ اليقين في بناء العبادة اللفظي ودلالتها المعنوية، والثقة بالصلة الهادية؛ صلة الربوبية الراعية، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم، الذي لا التوء فيه ولا عوج.(١)

وهذا الإعلان يجيء بعد تصحيح التوحيد والتعريف به بالأدلة القاطعة، وتحقيق أمر القضاء والقدر، وإبطال جميع أديان الضلال ووصفها بتفريق أهلها الدال على بطلا ا واعوجاجها، فكانت هذه الخاتمة كالنتيجة لهذه السورة.(٢)

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١٢٤٠/٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٣٣٧/٧).

المبحث الرابع

علاقة الخاتمة بالسورة

علاقة الخاتمة بالسورة

إن من التناسب بين آيات السورة الواحدة ـ غير ما سبق بيانه في المباحث السابقة ـ؛ مناسبة خاتمتها للسورة نفسها، وهذا من مظاهر وحد ا.

ولخواتيم السور من الحسن مثل ما لفواتحها؛ لأ ا آخر ما يطرق الأسماع، فلذا تجئ ـ غالباً ـ متضمنة معاني بديعة..، ذات صلة بمطلع السورة، أو بموضوع السورة العام، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام؛ حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى ما يذكر بعد.(١)

و الله ـ جل وعلا ـ ختم هذه السورة بآيات كريمات جامعة، قال تعالى:(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[الأنعام:١٦١ ـ ١٦٥].

فكانت هذه الآيات من أبدع الخواتيم في براعة المقطع؛ لقوة التناسب بينها وبين السورة؛ ففي خمس آيات تم عرض ما اشتملت عليه السورة من أغراض، فجاءت الخاتمة خلاصة في غاية الإيجاز،(٢) كما أ ا مناسبة لها في الأسلوب؛ إذ كان مما تميزت به السورة كثرة بدء الآيات فيها بخطاب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلمة "قل"؛ بإيقاعها القوي الموحي في كل آية؛ ولعل إيثارها في تلك المقامات؛ لأ ا هي الأنسب لتبليغ الدعوة.(٣)

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١٨٢/١) ، و: التناسب البياني في القرآن (٦٦) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٣٨/٨) ، و من لطائف التفسير (٣٧٦/١) .

(٣) ينظر:تفسير القرآن الحكيم (٢٣٨/٨) .

كما كثر فيها حكاية أقوال المشركين والكفار مبتدئة بـ"وقالوا"، مع التعقيب عليها بكشف الشبهة وإقامة الحجة، ثم جاءت هذه الخاتمة بالأمر الأخير له - عليه الصلاة والسلام-؛ بأن يقول لهم الأمر الجامع لجملة ما قبله؛ وهو أن ما فُصل في السورة هو صراط الله المستقيم، ودينه القويم الذي هو ملة إبراهيم - عليه السلام -، دون ما يدعيه مشركو العرب، وأهل الكتاب المحرفين، وأنه - عليه الصلاة والسلام -إنما يدعو إليه وهو معتصم به قولاً وعملاً، وإيماناً وتسليماً على أكمل وجه؛ فهو أول المسلمين، وأخلص الموحدين، وأخشع العابدين. وأن توحيد الألوهية الذي أنكره المشركون مبني على توحيد الربوبية الذي هم به يؤمنون. وأن الجزاء عند الله - تعالى - على الأعمال قائم على العدل فلا تجزى نفس إلا بما كسبت، ولا تؤاخذ بعمل غيرها، وأن المرجع إلى الله - تعالى - وحده، وأنه - تعالى - له سنن في استخلاف الأمم و ابتلائها بالنعم والنقم، وأنه - جل وعلا - هو الذي يتولى عقاب المسيئين، والمغفرة للتائبين..، وكل ذلك مما يهدم أساس الشرك الذي عليه مشركو العرب؛ والذي هو الاتكال على الوسطاء في غفران ذنو م وقضاء حوائجهم.(١)

فقوله:(:﴿قُلۡ إِنَّنِی هَدَىٰنِی رَبِّیۤ إِلَىٰ صِرَ ٰطࣲ مُّسۡتَقِیمࣲ دِینࣰا قِیَمࣰا مِّلَّةَ إِبۡرَ ٰهِیمَ حَنِیفࣰاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِینَ﴾[الأنعام:١٦١]، أمر من الله - تعالى - لنبيه - عليه الصلاة والسلام - بأن يعلن للبشرية كلها، وعلى رأسهم هؤلاء العادلون بر م الأوثان والأصنام؛ أن الدين الذي بعث به - عليه الصلاة والسلام -؛ هو الطريق القويم الذي هداه الله - سبحانه وتعالى - إليه، وهو الدين الذي بعث به إبراهيم - عليه السلام -؛ الحنيفية المسلمة المطهرة من الشرك، دين يجمع بين الإيمان الخالص لله - تعالى - قولاً وعملاً، والاستقامة عليه؛ كما قال تعالى:﴿فَلِذَ ٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَاۤ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَاۤءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَاۤ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبࣲۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَیۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَاۤ

---

(١) ينظر:تفسير القرآن الحكيم (٢٣٨/٨) وما بعدها .

أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)[الشورى:١٥].(١)

وفي هذه الآية مدح لدين الإسلام؛ بأنه الطريق الواضح البين الذي لا يضل من سلكه، والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فلا يلحق السائر عليه تعب؛ فهو الدين القيم، الذي يصلح ويقوم به أمر الناس في الدنيا والآخرة، وزيد مدحاً بالتذكير بأنه دين أبيهم إبراهيم "خليل الرحمن" ـ عليه السلام ـ بقوله:(مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)؛ أي ملة إبراهيم حال كونه مائلا عن الشرك والباطل والعوج والضلال مستقيماً عليه.(٢)

وأكد المعنى السابق بقوله:(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؛ إذ إن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لدعاوى المشركين بأ م على ملة إبراهيم،(٣) وتعريض بضلالهم.

وكان هذا مدحاً للدين الذي هدي إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه الدين الذي اختاره ـ سبحانه ـ لخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ رجوعاً إلى قوله تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)[الأنعام:٧٤]الذي استدل بذكر قصته مع أبيه وقومه لبيان استحقاقه ـ جل وعلا ـ للعبادة دون ما سواه..، و لعل التعبير عنه بـ(مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)؛ للترغيب في هذا الدين؛ لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو النبي المرسل الذي أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه وحسن هديه العرب ومن حولهم من أهل الكتابين؛ ولأ م كانوا يتشبثون بأذيال إبراهيم ـ عليه السلام ـ بنسبة الأبوة.(٤)

وكما عرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الدين المستقيم، عرفه كيف يؤديه ويقوم به؛ فقوله:(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٤١٩/٥) ،و: من لطائف التفسير (٣٧٧/١) .

(٢) ينظر: نظم الدرر (٣٣٧/٧) وما بعدها ، و: تفسير القرآن الحكيم (٢٣٩/٨) .

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٣٩/٨) .

(٤) ينظر: نظم الدرر (٣٣٨/٧) ، و: تفسير القرآن الحكيم (٢٤٠/٨) .

الْعَالَمِينَ)[الأنعام:١٦٢]، يدل على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤديه مع الإخلاص.[١] فالآية بيان إجمالي لتوحيد الألوهية بالعمل؛[٢] إنه التجرد الكامل لله ـ تعالى ـ؛ بالشعائر التعبدية؛ بالصلاة والذبح، وبالحياة، وبالممات وما وراءه، توحيد مطلق وعبودية كاملة تخلص لله وحده رب العالمين.[٣]

فمن آمن بهذا الدين ينبغي عليه أن يستقيم على هذا المنهج؛ عمله كله لله، فلا يسجد ولا يركع إلا له ـ تعالى ـ، ولا يتقرب بالطاعات والقربات إلا إليه وحده، وأن تكون حياته كلها لله، مسلماً له وجهه، مفوضاً إليه أمره..، في إسلام كامل لا يستبقي في النفس، ولا في الحياة شيئاً لا يعبده لله، حتى إذا مات كان إلى الله مصيره، وبين يدي الله ـ جل وعلا ـ موقفه وحسابه..؛ وهذه هي عقيدة التوحيد.[٤]

وأتبع هذا المعنى بما أكده؛ بقوله تعالى:(لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[الأنعام:١٦٣]، فلا يكفي في العبادات أن تؤدى فحسب، بل يجب أن تكون خالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ.[٥]

ولقد غاب هذا الأمر عن أذهان بعض المسلمين اليوم، فوقعوا في عظائم يندى لهـا الجبين، وتتفطر منها القلوب؛ لأنهم فاقوا مشركي الجاهلية في شركهم وإعراضهم عن الله ـ تعالى ـ؛ إذ إن مشركي الجاهلية كانوا إذا سئلوا من الرازق المعطي المانع الذي بيـده كشف الضر؛ قالوا: "الله"، ثم هم مع هذا الإقرار يعكفون على عبادة الأصنام، ويتقربون إليها بأنواع القرابين..، إلا أنهم حين يحل بهم الكرب، ينسون ما كانوا يشركون به من دون الله، ويفزعون، ويستغيثون بالله ـ جل وعلا ـ، وقد احتج ـ تعالى ـ بمثل هذا علـى ألوهيته في هذه السورة، وغيرها ؛ قال تعالى:(:(قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (١٩١/٥) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٤١/٨) .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن (١٢٤٠/٣) وما بعدها .

(٤) ينظر: المرجع السابق (١٢٤١/٣)، و: التفسير القرآني للقرآن (٣٥٦/٢) .

(٥) ينظر: التفسير الكبير (١٩١/٥) .

أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)[الأنعام: ٤٠ ـ ٤١]، وقال :(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ)[الأنعام:٦٣ ـ ٦٤].

ذاك حال المشركين في الجاهلية، أما الذي عليه فئة من المسلمين اليوم فأشد عجباً؛ فهؤلاء إذا سئلوا من الرازق المعطي المانع الذي بيده كشف الضر؛ لقالوا مثل مقولة أولئك: "الله، وهم مع هذا الإقرار يصرفون لله ـ تعالى ـ أنواعاً من العبادات كالصلاة، والصيام...وغيرها، لكنهم حين يحيط بهم الكرب، وتنزلزلهم المصيبة، ينسون الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويفزعون للقبور..!!؛ يدعون أصحابها، ويستغيثون بهم، ويقدمون لهم القرابين والنذور..، وهل يملك صاحب القبر لنفسه شيئاً..؟!؛ كيف إذاً يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله وحده..؟!.وكلما اشتد الكرب..زاد تعلقهم بالقبور وأصحابها، يمرغون أمامها الجبين، وتمتزج عندها دموعهم مع دماء قرابينهم!!.

فصارت تلك القبور عند هذه الفئة مشاهد ومزارات، يدعى أصحابها في الشدائد والكُربات، والدعاء نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله، بل إنه تعالى قال:(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[غافر: ٦٠]، فسمى الدعاء عبادة.

ثم صارت أوثاناً، يسجد عندها ويركع، و تهدى لها النذر و تنحر لها القرابين، والله تعالى يقول:(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[الكوثر:٢]، و يحج إليها، و يطاف حولها كما يحج للبيت الحرام، ثم اتخذت عيداً يعاد..!!.

و كل هذا من أعظم أنواع الشرك الذي لا يغفره الله إلا بتوبة، قال سبحانه وتعالى:(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ

فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)[النساء:٤٨]، وقال:(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا)[النساء:١١٦].

ففاقوا بشركهم هذا شرك الجاهلية؛ لأ م يعرفون الله ولا يدعونه، يؤمنون بالقرآن ويحملونه، لكنهم لا يقرأون آياته، وإن قرأوها لم يتدبروا معانيها..!، والله تعالى يقول في خاتمة هذه السورة:(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)، وهم يؤمنون بالنبي محمـد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا يتبعونه، بل يخالفون هديه، ألم يحذر من اتخاذ القبور مساجد وهو في شدة مرضه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال الـنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مرضه الذي لم يقم منه:"لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبـور أنبيائهم مساجد".[1] فأين المسلمون اليوم عن هذه العقيدة الصحيحة، المطهرة من أدران الشرك والضلال..؟!

ثم كيف يطلب العبد رباً آخر، يشركه في العبادة، يبتغي منه جلب النفع، أو دفـع الضر، أو أن يقربه من الله زلفى، ويشفع له عنده..، والحال أنه ـ تعـالى ـ رب كـل شيء مما عبد وما لم يعبد؛ فهو الذي خلق الملائكة، والأنبيـاء، و الـشمس والقمـر، والكواكب، و الصالحين، والأصنام، وصانعيها، كما قال:(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)؛ فإذا كان ـ تعالى ـ هو الخالق المقدر، وهو السيد المالك المـدبر، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وفضل بعض المخلوقات على بعض..، فكيف يسفه العبد نفسه، ويشرك بربه مربوباً مثله..؟!.[2]

وهو ـ سبحانه ـ الذي إليه المعاد وعليه الحساب والجـزاء:(وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[الأنعام:١٦٤]، فمن يؤمن ـذه الحقيقة لن يعبد إلا الله وحده، ولن يحكم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه،كتاب: الجنائز، باب : موت الفجأة البغتة (٢٧٠) حديث رقم (١٣٩٠) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٤٥/٨) .

إلا بشريعته، ولن يثنيه عن المضي في درب الحق كثرة الضالين والمضلين، فغداً بعث وبعده حشر وحساب وجزاء، فجنة أو نار.وفي هذه الآية تذكير للناس جميعاً بربهم الذي أنشأهم، ورباهم، وأنهم سيعرضون عليه بأعمالهم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.[1]

وختمت السورة بالتذكير بما امتن به - سبحانه - على هذه الأمة؛ بقوله تعالى:(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)**[الأنعام:١٦٥].أي: أن ربكم الذي هو رب كل شيء، هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم سبقت،لكم في سيرها عظة وعبرة، كما قال - سبحانه - في أول السورة:**(أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)**[الأنعام:٦]، وقال:**(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)**[الأنعام:١١]، ومن تلك العبر أن الذي استخلفكم في الأرض بعد تلك الأمم قادر على بعثكم بعد الممات؛ للحساب.**

ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الخَلق والخُلق، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل...وغيرها؛ ليبتليكم فيما أعطاكم، وعلى أعمالكم يجازيكم، وسعادة الناس أفراداً وأمماً وشقاوتهم في الدنيا والآخرة مترتبة - بعد رحمة الله تعالى - على أعمالهم وتصرفهم فيما وهبهم الله - تعالى -، فهذه الهداية الربانية مقررة لعقيدة التوحيد وهادمة لقواعد الشرك التي تقوم على اتكال الناس واعتمادهم على ما اتخذوه شريكاً وسيطاً بينهم وبين الله؛ ليقربهم إليه..!، ولهذا يرى المتأمل أن هؤلاء المشركين من حيث يشعرون أو لا يشعرون..أشقى الناس وأبعدهم عن نيل مآربهم، وأن خصومهم دائما ظافرون بهم.[2]

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (٣٥٨/٢) .

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (٢٥٠/٨) و ما بعدها .

وذيلت الآية بجملة تضمنت وعداً ووعيـداً ..(إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)،فهو ـ تعالى ـ (سَرِيعُ الْعِقَابِ) لمن أسخطه بارتكاب المعاصي والذنوب، ولمن أعرض وأدبر عنه مع إنعامه ـ تعالى ـ عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السابقة،(وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ) لمن أقبل إليه تائباً مستغفراً، (رَّحِيمٌ) بتركه عقوبته على سـالف ذنوبه، إذا تاب وأناب إليه قبل لقائه ورجوعه إليه.(١)

و في الآية إشارة إلى أن كل عمل يحمل جزاءه معه؛ جزاء معجلاً، يجده الإنسان في الدنيا، قبل الآخرة، وآخر مؤجلاً إلى يوم القيامة. وهذا الجزاء المعجل والمؤجل معاً، تحفه مغفرة الله، و رحمته..، ولولا ذلك لهلك الناس جميعاً، ولما نجا منهم أحد.(٢)

ولعل تأكيد جملة (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) بأكثر من مؤكد(٣)؛ من معنى قوله سـبحانه وتعالى:(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) [الأنعام :١٢]؛وقولـه:(وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنعام:٥٤]؛ فهو ـ سبحانه ـ كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه وغلبته، ووسعت كل شـيء، ولم يسع غضبه وعقابه كل شيء..، وخلق الخلق؛ ليرحمهم لا ليعاقبهم، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة عنده آثر من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل؛ ولهذا لا يخلد في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، وجعل جانب الفضل الحسنة بعشر أمثالهـا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثرة، وجانب العدل السيئة بمثلها، وهي معرضة للزوال بأيسر شيء (٤)؛ و لأن السياق هنا؛ سياق تأديب لهذه الأمة، والتذكير بالإنعام علـيهم بالاستخلاف، رغب ـ سبحانه ـ عباده بالتوبة، فمع غنـاه عـن الجميـع، وخلقـه للسموات والأرض، وجعل الظلمات والنور منافع لهم، ثم هم به يعـدلون..!، هـو ـ

---

(١) ينظر :جامع البيان في تأويل القرآن (٤٣٢/٥) و ما بعدها .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٦٠/٢) و ما بعدها .

(٣) سبق بيا ،ا، ينظر في هذا البحث :(٢٠٠) .

(٤) ينظر :مختصر الصواعق المرسلة (٢١٤/١) .

سبحانه وتعالى ـ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنـهار ليتـوب مسيء الليل، ولولا غفرانه، ورحمته ... لأسرع عقابه لمن عدل به غيره، فأسقط عليهم السموات وخسف م الأرض، التي أنعم عليهم بالخلافة فيها، وأذهب عنـهم النـور، وأدام عليهم الظلام.. .[1]

و ذا يكون ـ سبحانه وتعالى ـ قد ختم الـسورة في المعـنى بمـا بـدأها بـه؛ فقوله:(.هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَيِفَ الأَرْضِ **)؛ هو المراد بقولـه:(**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)**[الأنعام:٢]، وقولـه:(**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ **) هو من معنى قوله:(**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَ الـسَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّـورَ ثُـمَّ الَّـذِينَ كَفَـرُواْ بِـرَبِّهِم يَعْدِلُونَ)**[الأنعام:١].**[2]

إنه الإيقاع الأخير في السورة..، والذي جاء متناسقا مع الإيقاعات الأولى لها؛ تلك التي استهدفت العقيدة والإيمان،[3] **والدعوة لتوحيد الله ـ تعالى ـ، وبيـان قدرتـه، وعلمه، وحكمته..، والسورة ـ وإن اختلفت صور الدعوة فيها إلى الله ـ جل وعلا ـ تمثل جميعها موقفاً واحداً، ينتهي النظر بعد تردده فيها؛ إلى التسليم بأن لهذا الوجود رباً، وأن لهذه الموجودات خالقاً مبدعاً، قائماً على كل كبيرة وصغيره منها..؛ ينتهي النظـر وقد امتلأ قلب المؤمن إيماناً بالله، وخشية لجلاله، ولعظمته وقدرته.. .**[4]

---

(١) ينظر : نظم الدرر (٣٤٥/٧) و ما بعدها .

(٢) ينظر : المرجع السابق (٣٤٦/٧) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٣٤١/٣) .

(٤) ينظر : التفسير القرآني للقرآن (٣٥٥/٢) .

الخـــاتمـة

وبعد هذه الرحلة العلمية مع بلاغة آيات العقيدة في سورة الأنعام، يصل المسير بالبحث إلى خاتمتها. أقف عندها أقلب طرفي في رحلي.. بحثاً عن نتاج رحلتي؛ وكان مما ألفيته، ما يلي:

١ ـ أن أهل السنة والجماعة لم يعتقدوا ما اعتقدوه من فراغ، ومما يشهد بذلك ما ورد في معظم سورة الأنعام من آيات أصلت لأهل السنة والجماعة مذهبهم، مع ما ثبت من صحيح الأحاديث.

٢ ـ أن ألفاظ القرآن الكريم مختارة جرساً وإيحاءً ، تذكيراً وتأنيثاً ، جمعاً وإفراداً ، تنكيراً وتعريفاً بحسب المناسبات وعلى وفق المقامات ؛ وهي بهذا تسهم في أداء المعنى المراد ، وإيصاله إلى المتلقي بأدق كلمة وأبلغ عبارة .

٣ ـ أن التحليل البلاغي لجرس ألفاظ القرآن ، والوصول إلى أسراره وإيحاءاته ، ينطلق من ذوق لغوي ذاتي ، فلا يمكن الجزم بصحته أو خطئه .

٤ ـ أن تنويع المخلوقات في هذا الكون ؛ هو من موجبات "الحمد" ، وهو ـ أيضاً ـ من لوازم ربوبيته، وملكه ، وحكمته .

٥ ـ كل قيد يضاف إلى الجملة، فإن المعنى يزداد به قوة وتمكناً ، ولو رفع هذا القيد أو ذاك ، فإن بلاغة الجملة تخبو، وحسنها يتوارى .

٦ ـ لُحظ كثرة أساليب القصر في الآيات ؛ ولعل مرد ذلك، لكونه ـ كما اتضح ـ وسيلة لتقرير القضايا العقدية وتأكيدها ، فحسن الإتيان به في هذه السورة ؛ لتأسيس المعاني العقدية وتقريرها في النفوس؛ لما تتميز به أساليب القصر من قوة في إثبات المعنى العقدي المراد ونفي ما سواه مع الإيجاز الدال .

٧ ـ مما تقرر في الآيات أن الغيب لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولازم هذا أن الطرق التي يراد التوصل بها إلى شيء من العلم القطعي بالغيب ـ بغير طريق الوحي ـ هي من الضلال ، والخوض فيها خوض بغير علم ولا برهان .

٨ ـ لاحظت أن من طرق إثبات يوم القيامة في الآيات التعبير عن وقوعه وعن بعض ما فيه من أحداث مستقبلية بصيغ الأفعال الماضية ؛ لغرض إثبات أمر وقوعها على سبيل القطع واليقين، بأسلوب واقع محقق، وهذا مفاد من دلالة التعبير بالفعل الماضي.

٩ـ تبين بطلان كثير من تأويلات أهل البدع ، وتحريفهم كلام الله ـ تعالى ـ وذلك باحتكامهم إلى العقل، واستنادهم إلى اللغة فقط، وبان هذا بجلاء في كثير من آيات الصفات وآيات القدر؛ فخرجوا ا عما أراده الله ورسوله .

١٠ـ ا از في كتاب الله واقع، قياساً على وقوعه في لسان العرب متى وجد شرطه، ولكن اتخاذه وسيلة لإنكار صفات الله ـ تعالى ـ باطل، ولا حجة لمتخذه لا في المنطق، ولا في اللغة، ولا في الشرع؛ وقد أثبتت الرسالة ما أثبته ـ تعالى ـ لنفسه من صفات في آيات السورة ، وردت على من تأولها ـ قدر الإمكان ـ في موضعها .

١١ـ تنوع الأدلة الدالة على الله ـ تعالى ـ في السورة ؛ والتي تعرف العباد به ؛ وذلك ليقيم عليهم الحجة البالغة، ويتم عليهم نعمته، ويهديهم إليه .

١٢ـ توظيف صور البيان من خلال التشبيه الوارد في الآيات لإثبات المعاني العقدية، وللترغيب في الإيمان والتنفير من الشرك وأهله .

١٣ـ ظهرت في الآيات خاصية من خصائص الاستعارة القرآنية؛ هي تجديد معاني الكلمات وإثراؤها ، وإكسا ا معنى عقدياً جديداً. كما أسهمت الاستعارة في عرض صورة تقريبية لكيفية البعث التي حارت فيها عقول الكفار، فعمدت إلى إنكاره .

١٤ـ كان النيل من آلهة المشركين ، وإبطال عقائدهم الفاسدة ، وإظهار ضلالهم.. في صورة رفيعة ، تنأى عن أسلوب التجريح والإهانة المباشرة ؛ وذلك بطريق الكناية والتعريض.

١٥ـ أن المحسنات البديعية في الآيات لم تكن حلية جمالية يمكن الاستغناء عنها ، بل وقعت لتأدية معنى لم يكن لغيرها أن يؤديه بنفس بلاغتها ، كما أن المحسنات اللفظية ليست مجردة من الحسن المعنوي ، بل كان الحسن في اللفظ موظفاً لإيصال المعنى المراد إلى المتلقي مع التأثير فيه.

١٦ـ أن ا يء بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في رحلة بحثه عن الإله المعبود بحق كان متناسباً ـ تماماً ـ مع مقصد السورة ؛ وهو التعريف بالإله المعبود وإثبات وحدانيته واستحقاقه العبادة المطلقة ؛ وحده لا شريك له .

١٧ـ براعة الاستهلال وحسن الختام في سورة الأنعام؛ فقد استهلت بما يدل على موضوعها والغرض منها ، ثم ختمت بما يتناسب مع مطلعها ومقصدها العام، وذلك بأبلغ الأساليب وأرفع المعاني .

وإن كان ثمة اقتراح يقدم في هذا المقام..، فلقسم "البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي" في الجامعة؛ وهو تحرير الدراسة البلاغية للموضوعات القرآنية من الخطة التي تقوم على تقسيم الفنون البلاغية على الفصول؛ بأن تقوم الخطة على تقسيم البحث إلى موضوعات توزع على فصول ، ويدرس فيها كل ما يمكن من فنون بلاغية انتظمت في الآيات دون حصر أو تحجيم ، أما التعريف بالفنون البلاغية ، فيستحسن أن يكون خارج متن الدراسة التحليلية ؛ كأن يفرد له فصل، أو يشار إليه في التمهيد، أو في الحاشية بحسب موضع كل فن عند العرض لأول مرة؛ وبذلك تكون الآيات هي الأصل والفنون البلاغية خدماً لها ، وتسلم الآيات من التقطيع والتنقيل بين مباحث الفصول ، ومن ثَم يتسنى للباحث إطلاق العنان لبيانه؛ لاستخلاص المزيد من الأسرار الإعجازية واللطائف البلاغية ..، في أدب جم مع كلام الله ـ تعالى ـ .

وقبل أن أختم هذه الأسطر، أوصي الباحثين المقبلين على دراسة البلاغة القرآنية؛ أن يتعرفوا على مذاهب المفسرين الذين يتعاملون مع كتبهم، وأن يتنبهوا إلى ألفاظهم، وأن يحذروا أساليبهم التي يسلكو ا لخدمة معتقدا م المخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة الذي دل عليه صريح القرآن وصحيح السنة؛ لئلا ينساق الباحث وراء معتقد باطل فيهوي دون أن يدري .

وختاماً ، فإني أحمد الله على ما من علي به من إتمام هذا البحث ، وأحمده على ما هداني إليه ، وإن كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان واستغفر الله من زلتي فإني محل الزلل .

وأسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يعفو عن تقصيري ، ويغفر هفوتي ،وأن يأجر من أشرف عليه ، ومن سدد وقارب ونصح .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى من سار على هديه بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس الآيات القرآنية

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الأنعام	١٥٧	٦٨٩
	١٥٨	٥٧٩، ٦٨٩
	١٥٩	٥٠، ٦٨٩
	١٦٠	٦٨٩
	١٦١	١٩٤، ١٩٩، ٦٥١،٥٠٣،٣٣٢، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٣
	١٦٢	١٩٤، ٢٥٠، ٦٥٦، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٤، ٦٩٥
	١٦٣	١٩٤، ٦٥٦، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٥
	١٦٤	١٩٨، ١٩٩، ٢٥٠، ٣٦٠، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٧
	١٦٥	١٩٨، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٨
الأعراف	٣٤	٢٢٩
	٥٢	٥٧٦
	٥٤	٨
	٩٤	٤٦
	١٣٠	٤٤، ٤٥
	١٣١، ١٣٢	٤٤
	١٣٣	٤٤، ٦١٤
	١٤٣	٥٦١
	١٤٦	١٣٠
	١٨٠	٩، ٣٣
	١٨٩	٩٨

فهرس الأحاديث النبوية

٢- فهرس المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت،تاريخ الطبـع - بدون.

ـ الإرشادات والتنبيهات في علم البلاغة، تصنيف:محمد بن علي محمد الجرجاني ٧٢٩هـ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

ـ الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد. والرد على أهل الـشرك والإلحاد. د.صالح الفوزان. مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

ـ **أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق ودراسـة:كمـال بسيوني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.**

ـ **أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني - جدة الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ٩٩١م**

ـ أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطردي، الدار الجماهيرية العربية للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس . الطبعة الأولى، ١٩٨٦م .

ـ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ،د. حسن طبل، دار الفكر العـربي - القـاهرة، الطبعة الأولى،١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

ـ **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، دار الكتـب الوطنية - بنغازي الطبعة الأولى.تاريخ الطبع - بدون.**

ـ **أسماء الله الحسنى، عبدالله بن صالح بن عبد العزيز الغصن ، دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.**

ـ أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

ـ **الأشباه والنظائر** في **النحو، السيوطي،** تحقيق: **د. عبد العال سالم مكـرم، مؤسـسة الرسالة ـ** بيروت. **الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.**

ـ **أضواء البيان** في **إيضاح القرآن بالقرآن. الشنقيطي. مكتبة ابن تيمية ـ القـاهرة. الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م.**

ـ الإعجاز البياني دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د.محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبـة ـ القاهرة ،الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

ـ الإعجاز الفني في القرآن. عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم بن عبدالله – تـونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

ـ إعجاز القرآن ، الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، قدم له وشرحه وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم ـ بيروت ،الطبعة الثالثة،١٤١٥هـ ـ ـ ١٩٩٤م .

ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي، دار الفكر العربي ـ القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٩٥م .

ـ إعراب القرآن الكريم وبيانه. محيي الدين الدرويش. دار ابن كثير ـ دمـشق. الطبعـة الخامسة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

ـ أيسر التفاسير لكلام العلي القدير.لأبي بكر الجزائري ، راسم للدعايـة والإعـلان ـ جدة، الطبعة الرابعة،١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، حققه وعلق عليه د.عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ـ القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ١٩٩٩م.

ـ البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم ،د.شفيع السيد، دار الفكر العربي ـ القاهرة ،الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .

ـ بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية. جمعه ووثـق نـصوصه وخـرج أحاديثه: يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي ـ الدمام. الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

ـ بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية ،دار الكتاب العربي ـ بيروت، تـاريخ الطبـع ـ بدون.

ـ البرهان في علوم القرآن، الزركشي ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعرفـة ـ بيروت، تاريخ الطبع ـ بدون.

ـ البرهان في متشابه القرآن . للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، تحقيق : أحمد عـــز الـــدين عبـــدالله خلـــف الله ، دار صـــادر ـ بـــيروت الطبعـــة الثانية،١٤١٧هـ ـ١٩٩٦م.

ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. عبد المتعـال الـصعيدي. مكتبـة المعارف ـ الرياض. مكتبة الأدب ـ القاهرة. الطبعة الأولى،١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ـ البلاغة الاصطلاحية، د.عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العـربي ـ القـاهرة ، الطبعة الثالثة ،١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٢م

ـ البلاغة العربية في ثو ا الجديد علم البديع. د.بكري شيخ أمين، الجزء الثالـث، دار العلم للملايين ـ بيروت. الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

ـ البلاغة العربية في ثو ا الجديد علم البيان. د.بكري شيخ أمين. الجـزء الثـاني. دار العلم للملايين ـ بيروت. الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م.

ـ البلاغة العربية في ثو ا الجديد علم المعاني. د.بكري شيخ أمين، الجـزء الأول، دار العلم للملايين ـ بيروت. الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م.

ـ البلاغة العربية قراءة أخرى. د. محمد عبد المطلب. مكتبة لبنان ـ سرون الـشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجان ،١٩٩٧م .

ـ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني. الدكتور فاضل صالح الـسامرائي، دار عمـار ـ عمان، الطبعة الأولى،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

ـ بلاغة الكلمة والجملة والجمل. د.منير سلطان، منشأة المعـارف ـ الاسـكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.
ـ البلاغة فنو ا وأفنا ا (علم البيان والبديع). د.فضل حسن عباس، دار الفرقـان ـ عمان ـ الأردن ، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ البلاغة فنو ا وأفنا ا(علم المعاني). د.فضل حسن عباس، دار الفرقـان عمـان ـ الأردن ، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
ـ البيان في إعجاز القرآن . د.صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار ـ عمان، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم. د.عبد الفتاح لاشين. دار الفكر العـربي ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
ـ التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي ، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، مؤسسة التاريخ ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .
ـ تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ، فوز بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي، دار طيبة ـ الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ.
ـ تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن. لسيد قطب. علـوي الـسقاف. دار الهجرة ـ الرياض. الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
ـ التدمرية تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع . لابـن تيمية ، تحقيق محمد بن عودة السعوي ، العبيكـان ـ الريـاض، الطبعـة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
ـ التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د.محمد أبو موسى. مكتبـة وهبـة ـ القاهرة ، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .
ـ التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب، دار الشروق ـ القاهرة ، الطبعة الـشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٩هـ ـ١٩٨٩م.

ـ التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية .د.شفيع السيد، دار الفكـر العـربي ـ القـاهرة الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

ـ التعبير الفني في القرآن .الدكتور بكري شيخ أمين ، دار الشروق – بيروت، الطبعة الرابعة،١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

ـ تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء القرآن العـربي ـ بـيروت، الطبعـة الثانيـة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

ـ تفسير أسماء الله الحسنى .لأبي إسحق إبراهيم بن السري الزجاج . تحقيـق :أحمـد يوسف الدقاق ، دار الثقافة العربية ـ دمشق ، الطبعـة الخامـسة ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

ـ تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلـسي الغرنـاطي، دار الفكر ، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل. إعداد وتحقيق: خالد العك، و: مروان سـوار. دار المعرفة ـ بيروت، تاريخ الطبع ـ بدون.

ـ التفسير البياني للقرآن الكريم. د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي. دار المعارف ـ القاهرة ، الطبعة السابعة، تاريخ الطبع ،بدون.

ـ تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام القاضي ناصر الـدين أبي سعيد عبدالله البيضاوي و امشه: حاشية العلامة أبي الفضل القرشي الـصديقي الخطيب المشهور بالكازروني ، حققه الشيخ: عبد القادر عرفان حسونه ، دار الفكر ـ بيروت ،الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

ـ تفسير التحرير والتنوير، سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد ابن عاشور، دار سحنون ـ تونس ، تاريخ الطبع ـ بدون. الجزء : (٦) و(٨) .

ـ تفسير التحرير والتنوير. لابن عاشور .الدار التنوسية للنشر ـ تونس الطبعة الأولى، ١٩٧١م، الجزء: (٧) .

ـ تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل. الخازن ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ، راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور.أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم ـ مصر ، تاريخ الطبع ، بدون.
ـ تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن. الإمام الطبري، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
ـ تفسير القرآن .للشيخ الإمام سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، حققه وعلق عليه الدكتور: عبدالله بن إبراهيم الوهيبي، الناشر المحقق ـ الأحساء الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
ـ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار. محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى ،١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .
ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، قدم له: د.يوسف المرعشلي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
ـ التفسير القرآني للقرآن ،عبد الكريم الخطيب ،دار الفكر العربي ـ بيروت، تاريخ الطبع ،بدون.
ـ التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي، إعداد : مكتب تحقيق دار إحياء التراث، دار إحياء التراث ـ بيروت الطبعة الثانية ،١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
ـ تفسير المراغي. دار الفكر ـ بيروت. الطبعة الثالثة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
ـ تفسير النسفي. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، تاريخ الطبع،بدون .
ـ تفسير النهر الماد من البحر المحيط. لأبي حيان الأندلسي ، تقديم وضبط: بوران وهديان الضناوي، دار الجنان ـ بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

ـ التمهيد في علم التجويد محمد بن محمد الجزري ، تحقيق :علي حسين البواب ، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

ـ التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي. أحمد أبو زيد، مطبعـة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء الطبعة الأولى،١٩٩٢م .

ـ التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم دار غريب .د. صبري المتولي المتولي، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ ـ ١٩٩٨م .

ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. للشيخ: محمد بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، تاريخ الطبع ،بدون .

ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. للعلامة الشيخ: عبد الحمن بـن ناصـر السعدي، حققه وضبطه: محمد زهري النجار ، مكتبة الهدى الإسـلامية – الخـبر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجـاني ، حققهـا وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد، د.محمد زغلول سلام. دار المعارف ـ القـاهرة، الطبعة الرابعة، تاريخ الطبع ، بدون .

ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي، دار الفكر ـ بيروت، تاريخ الطبع ، بدون .

ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة. محمود صـافي، دار الرشيد ـ دمشق، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

ـ جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي. د. فـايز الدايـة ، دار الفكـر المعاصر ـ بيروت الطبعة الثانية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. الهاشمـي .تحقيـق وشـرح :د.محمـد التونجي مؤسسة المعارف ـ بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن. الثعالبي. تحقيق: محمد الفاضلي. المكتبة العـصرية ـ صيدا ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. لابن قيم الجوزية، تحقيق ودراسة الدكتور: السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .

ـ حاشية ثلاث الأصول. محمد بن عبد الوهاب، بقلم: عبد الرحمن النجدي، الطبعـة الخامسة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، للعلامة الشيخ: أحمد الصاوي المـالكي ، دار الفكر ـ بيروت ، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي. المكتبة الإسـلامية ـ تركيا، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ الحجة في القراءات السبع .للإمام ابن خالويه ، تحقيق وشرح الدكتور: عبد العـال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
ـ الخصائص .لأبي الفتح عثمان بن جني. تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ـ بيروت، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ خصائص التراكيب "دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني". د.محمد حسنين أبو موسى، منشورات جامعة قاريونست ، الطبعة الأولى ،١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
ـ خصائص القرآن الكريم. د.فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ،الطبعة الثامنة، صفر ١٤١٤هـ .
ـ خلاصة معتقد أهل السنة. عبد الله بن سليمان بن عبدالله المشعلي.تحقيق وتعليـق: عبدالله بن جار الله الجار الله ، وخرج أحاديثه: محمد بن صالح الدحيم. مكتبة ابـن خزيمة ـ الرياض، الطبعة الثالثة،١٤١٠هـ .
ـ دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في " توظيف اللغة". د.عبد العظم ابراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة ـ القـاهرة ، الطبعـة الأولى، ١٤١٧هـ ـ - ١٩٩٦م.
ـ دراسات حضارية في القرآن الكريم الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم. نذير حمدان، دار المنارة ـ جدة ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
ـ دراسة بيانية في الأسلوب القرآني " التعبير القرآني" . د.فاضل صالح السامرائي، دار عمار ـ عمان ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

ـ دفع إيهام التشبيه عن أحاديث الصفات ونقد كتاب "تأويـل الأحاديـث الموهمـة للتشبيه". المنسوب للحافظ السيوطي ، أ.د محمد بن عبدالله السمهري .دار بلـسنية ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ .

ـ دلائل الإعجاز .عبد القاهر الجرجاني .قرأه وعلق عليه :محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ ديوان زهير بن أبي سلمى. دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت. الطبعـة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.

ـ ذم التأويل . الإمام موفق الدين ابن قدامه المقدسي ، حققه وخرج أحاديثه: بدر بن عبدالله البدر، دار الفتح ـ الشارقة، الطبعة الأولى،١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

ـ رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن ا يد وتـ يـه الباري عن الحصر والتمثيل والكيفية. للشيخ العلامة: أبي محمد بن يوسف الجويني ، تحقيق د. أحمـد معـاذ بـن علـوان حقـي، دار طويـق ـ الريـاض، الطبعـة الأولى،١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

ـ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة. القيسي. تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار ـ الأردن، الطبعة الثالثة،١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. الألوسي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ١٩٩٤م.

ـ زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة السادسة والعشرون، ١٤١٢هـ ـ، ١٩٩٢م.

ـ زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، أحمد الحملاوي ، الطبعة السابعة، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

ـ سر صناعة الإعراب .لأبي الفتح عثمان بن جني، دراسة وتحقيق: الـدكتور.حـسن هنداوي، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الثانية،١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

ـ سنن أبي داود، دار ابن حزم ـ بيروت ، الطبعة الأولى،١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

- سنن النسائي الصغرى. بإشراف ومراجعة فضيلة الشيخ: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
- السيرة النبوية. ابن هشام، علق عليها، وخرج أحاديثها، وصنع فهارسها: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- شرح ألفية ابن معطي. تحقيق ودراسة: د. علي موسى الشوملي، مكتبة الخريجي ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب "لابن هشام الأنصاري" ومعه كتاب منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب. محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ـ صيدا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.
- شرح العقيدة الطحاوية. لابن أبي العز الدمشقي. حققه وعلّق عليه وخرج أحاديثه: د.عبدالله بن المحسن التركي ، شعيب الأرنووط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة التاسعة،١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.
- شرح العقيدة الواسطية. لابن تيمية. شرحه فضيلة الشيخ: محمد الصالح العثيمين، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي ـ الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ .
- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. عبدالله الغنيمان، دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- شرح المفصل لابن يعيش النحوي، عالم الكتب ـ بيروت، تاريخ الطبع ،بدون .
- شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، تاريخ الطبع ،بدون .

ــ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. لابن قيم الجوزيــة، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، الطبعة الأولى،١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .

ــ صحيح البخاري. بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ــ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م.

ــ صحيح "الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألباني ، المكتــب الإســلامي ــ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

ــ صحيح مسلم. دار المغني ــ الرياض الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م.

ــ الصورة الأدبية في القرآن الكريم. د. صلاح الدين عبد التواب، الشركة المــصرية العالمية للنشر ــ مصر .الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

ــ الضوء المنير على التفسير من كتب الإمام: ابن قيم الجوزية. جمعــه: علــي الحمــد الصالحي، مؤسسة النور ــ عنيزة، الطبعة الأولى ، تاريخ الطبع ،بدون .

ــ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. العلوي. مكتبــة المعــارف الرياض. دار الكتب العلمية ــ بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

ــ طريق الهجرتين وباب السعادتين. لابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية ــ بيروت. تاريخ الطبع ،بدون .

ــ الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم، نذير حمدان، دار المنار ــ جدة، الطبعــة الأولى، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م.

ــ العبودية، لابن تيمية، علق عليه وصحح أصوله:محمد مــنير الدمــشقي ، تــاريخ الطبع،بدون .

ــ العبودية مسائل وقواعد ومباحث. جمع وإعداد : عبد العزيز بن محمد بن علــي آل عبد اللطيف ، دار الوطن للنــشر ــ الريــاض ، الطبعــة الأولى ١٤٢٠هــ - ١٩٩٩م.

ــ عجائب القرآن. الرازي ، تحقيق: د.السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ــ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

ـ العقيدة في الله. د.عمر الأشقر، مكتبة الفلاح ـ الكويت، الطبعة السادسة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

ـ علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين. د. رضا بن نعسان مقطعي، تقديم سماحة الشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز. دار الهجرة ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

ـ علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع. المراغي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

ـ علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات علم أصوات اللسان العربي. الدكتورة: نشأة محمد رضا ظبيان، دار ابن حزم ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ - ١٩٩٧م.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. لابن رشيق.حققه: محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجبل ـ بيروت ، الطبعة الخامسة،١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ غاية المريد في علم التجويد. عطية قابل نصر ، مكتبة كنوز المعرفة ـ جدة ، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ الفاصلة في القرآن. محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

ـ فتح الرحيم الملك العلاّم في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن. الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تقريظ فضيلة الشيخ: عبدالله ابن عبد العزيز بن عقيل. اعتنى به: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، دار الوطن للنشر ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

ـ فتح القدير. محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب ـ بيروت، تاريخ الطبع ،بدون .

ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر الجمل، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تاريخ الطبع ،بدون .

ـ الفروق اللغوية، للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، تاريخ الطبع ،بدون .

ـ الفوائد . الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزيـة ، تقـديم وتحقيـق وتعليق: محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العـربي ـ بـيروت ، الطبعـة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان.[المنسوب] لابن قيم الجوزية، دراسـة وتحقيق :محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن ـ القاهرة، تاريخ الطبع ،بدون .

ـ في البلاغة العربية علم البديع. د.عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية ـ بـيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

ـ في البلاغة العربية علم البيان. د. محمد مصطفى هدارة، دار العلوم العربية ـ بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

ـ في البلاغة العربية علم المعاني. د.حسن البنداري ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة. الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م.

ـ في البلاغة العربية علم المعاني. د.عبد العزيز العتيق .دار النهضة العربية ـ بـيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ في البلاغة العربية علم المعاني. د.محمود نحلة، دار العلوم العربية ـ بيروت، الطبعـة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

ـ في ظلال القرآن. سيد قطب، دار الشروق ـ بيروت ، الطبعة الشرعية التاسـعة، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

ـ القرآن والصورة البيانية. د. عبد القادر حسين، عالم الكتب ـ بـيروت ، الطبعـة الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

ـ القول المختصر المبين في مناهج المفسرين. لأبي عبدالله محمد الحمود النجدي، مكتبة دار الإمام الذهبي ـ بيان .الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

ـ القول المفيد على كتاب التوحيد. شرح فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين. جمعه وخرج أحاديثه د.سليمان أبا الخيل، و: د.خالد المـشيقح ، دار ابـن الجـوزي ـ الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.

ـ كتاب الصناعيتين الكتابة والشعر. لأبي هلال العسكري، حققه: د. مفيد قمحة، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩م.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. لأبي القاسم جاراالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. ويليه الكافي الشامي في تخريج أحاديث الكشاف ، للإمام الحافظ أحمد بن حجر ، دار المعرفة ـ بيروت، تاريخ الطبع،بدون.

ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ لسان العرب. للإمام العلاّمة ابن منظور، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. د.فاضل صالح السامرائي .دار عمار ـ عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

ـ مباحث في العقيدة في سور الزمر. ناصر بن عايض حسن الشيخ .مكتبة الرشد ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

ـ المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب. لابن الأثير ، حققه: د.أحمد الحوفي، و: د.بدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي ـ الرياض. الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

ـ مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبرسي. تصحيح وتحقيق وتعليق: السيد هاشم الرسولي، و: السيد فضل الله اليزدي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.

ـ مجموعة الفتاوى. لابن تيمية ، اعتنى بها وخرج أحاديثها: عامر الجزار ، أنور الباز، مكتبة العبيكان ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

ـ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ا لمد الرابع، فتـاوى العقيدة، جمع وترتيب: فهد السليمان، دار الوطن للنشر ـ الرياض، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ .

ـ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ا لمد السابع، فتاوى العقيدة، جمع وترتيب: فهد السليمان. دار الثريا للنشر ـ الرياض، الطبعـة الأولى، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م.

ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالـب بـن عطية الأندلسي، ا لمس العلمي بفاس، مطبعة فـضالة ـ فـاس، الطبعـة الأولى، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . لابن القـيم ، اختـصره الـشيخ الفاضل: محمد بن الموصلي ، دار الكتب العلميـة ـ بـيروت، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ مختصر تفسير الطبري، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني ، د. صالح أحمد رضا، عالم الكتب ـ بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. لابن قيم الجوزية ،حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ـ دمشق الطبعـة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

ـ مسند الإمام الحافظ أبي عبدالله أحمد بن حنبل ، بيت الأفكار ـ الريـاض .الطبعـة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

ـ مشاهد القيامة في القرآن . سيد قطب. دار المعارف ـ الطبعة الـسابعة ، تـاريخ الطبع، بدون .

ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد. حافظ الحكمـي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٣م.

ـ المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم. د.عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العـربي ـ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

ـ معاني القرآن. الفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، و: محمد علي النجار، دار السرور، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها. عواد بن عبدالله المعتق، مكتبة الرشد ـ الرياض ، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
ـ المعجزة الكبرى القرآن. الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ـ القاهرة، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف. وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث ـ القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
ـ معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. جمال الدين ابن هشام الأنصاري ،حققه وعلق عليه : د.مازن المبارك محمد علي حمدالله، راجعه : سعيد الأفغاني ، دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ مفتاح العلوم. . الإمام أبي يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
ـ المفردات في غريب القرآن. لأبي القاسم بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ـ بيروت، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. العلامة الشيخ محمد عبد الرحمن السخاوي، دراسة وتحقيق : محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .
ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل. للإمام الحافظ العلاّمة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي ، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ من أسرار التعبير في القرآن(صفاء الكلمة). د.عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
ـ من بلاغة القرآن. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر ـ القاهرة، تاريخ الطبع ،بدون.
ـ من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث. بدرية العثمان، دار الراية ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ .
ـ مناهل العرفان في علوم القرآن. محمد عبد العظيم الزرقاني. خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه:أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .
ـ من لطائف التفسير. أحمد عقيلان، دار اليقين ـ مصر ـ المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
ـ الموزانة بين أبي تمام والبحتري، للآمدي، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، الكتب العلمية ـ بيروت، تاريخ الطبع ، بدون .
ـ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن. د.محمد عبدالله دراز ، دار القلم ـ الكويت ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م .
ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. البقاعي، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ النظم القرآني في آيات الجهاد. د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين، مكتبة التوبة ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .
ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه .سيد قطب، دار الشروق ـ القاهرة ، الطبعة الشرعية السابعة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
ـ نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله في التوحيد. للإمام عثمان بن سعيد الدارمي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: منصور بن عبدالعزيز السماري ، مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

ـ اية الإيجاز في دراية الإعجاز. فخر الدين الرازي ، تحقيـق وتقـديم: د.ابـراهيم السامري ، د. محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر للنشر ـ عمـان ، الأردن ١٩٨٥م.

ـ نواقض توحيد الأسماء والصفات. د. ناصر القفاري، دار طيبة ـ المملكة العربيـة السعودية ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

ـ الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع. عبد الفتاح عبد الغني القاضي، مكتبة السواري ـ جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

الفهرس التحليلي لمحتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة

المبحث الخامس: القصر

الفصل الرابع : خصائص التصوير البياني

ملحق تصويبات (آيات العقيدة في سورة الأنعام " دراسة بلاغية تحليلية ")

الرسالة العلمية المقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

الجزء	الصفحة	الموضع	الخطأ	التصويب
الأول	١٢٨	السطر السابع	المعذورة	المعذرة
≈	١٢٨	الثاني من أسفل	البترؤ	التبرؤ
≈	١٢٨	السطر الأخير	البترؤ	التبرؤ
≈	١٣٠	≈ الثالث	المل	المِلل
≈	١٣٠	≈ الثامن	اسندوا	أسندوا
≈	١٣٠	الرابع من أسفل	فتذكر	فتذكير
≈	١٣١	السطر التاسع	المنزل	المُنزَّل
≈	١٣٦	≈ الرابع	عطفت	عَطفٌ
≈	١٣٨	≈ الثاني	إضافية	إضافة
≈	١٣٩	الخامس من أسفل	العمة	العمه
≈	١٤١	الحاشية (١)	صمن	ضمن
≈	١٤١	السابع من أسفل	وهي	هي
≈	١٤١	الخامس من أسفل	بالعملية	بالعلمية
≈	١٤٤	الخامس من أسفل	إليهما	إليها
≈	١٤٨	السادس من أسفل	المعلق	المتعلِّق
≈	١٥٤	السابع من أسفل	مناسية	مناسبة
≈	١٥٥	التاسع	له الغني	له الغنى
≈	١٥٥	الخامس من أسفل	بعدهم	يعدهم

الجزء	الصفحة	الموضع	الخطأ	التصويب
≈	١٥٦	الثامن	هو الغني	هو الغنى
≈	١٥٦	السطر الثامن	ليس الغني	ليس الغنى
≈	١٥٦	≈	إنما الغني	إنما الغنى
≈	١٥٨	السطر الرابع	رحمنه	□رحمته
≈	١٦٠	الخامس من أسفل	والتعرض لوصف	والتعبير بوصف
الأول	١٦١	السطر الثاني	يخبر	بخير
≈	١٦١	≈ الرابع	بالتمييز	بالتميز
≈	١٦١	≈ السابع	ونعمه	ونعمة
≈	١٦١	السابع من أسفل	إتباعه	اتباعه
≈	١٦١	السادس ≈	الاتيان	الإتيان
≈	١٦١	الرابع ≈	بهدية	بهديه
≈	١٦٣	الحاشية (٦)	كلمة بتصرف ساقطة	(١٨٣/٨) بتصرف .
≈	١٧٠	السطر السادس	لتتبيه	لنبيه
≈	١٧٠	السادس من أسفل	أمره للّه	أمره له
≈	١٧٢	السطر العاشر	معنياً	معيناً
≈	١٧٢	السادس من أسفل	بالتكليف عليه	بالتكلف .
≈	١٧٢	الحاشية (٥)	السكاكين	السالكين
≈	١٨٥	الثاني من أسفل	انتقاض	انتقاص
≈	١٨٩	السطر الأول	الآمرين	الأمرين
≈	١٩٧	≈ الثالث	ربوتيه	ربوبيته
≈	١٩٧	≈ الخامس	يكتفي	يُكتفى
≈	٢٠١	الحاشية (٥)	في الفصل السادس من البحث	في الفصل السادس؛ المبحث الرابع: علاقة

				الخاتمة بالسورة من هذا البحث.
≈	٢٠٣	السطر الأخير	أما إذا كان خبرها مفرداً، أو جملة اسمية	جمل زائدة تُحذف
≈	٢٠٥	السطر الثاني	اعتزازاً	اغترارا ً
≈	٢٠٧	الحاشية (٤)	المرجعِ	المرجع
≈	٢١٦	السطر التاسع	وعلى	على
≈	٢١٧	≈ الرابع	جيْ	جيء

الجزء	الصفحة	الموضع	الخطأ	التصويب
الأول	٢١٨	السطر الحادي عشر	لازالة	لإزالة
≈	٢٢٧	≈ الرابع	كلمة "فكل" ساقطة.	فكل مؤاخذ بحساب عمله دون غيره.
≈	٢٢٧	الخامس من أسفل	هم الضعفاء	هم والضعفاء
≈	٢٢٩	السادس من أسفل	تقريرأ	تقريراً
≈	٢٣٠	السطر الثامن	إجابة	الإجابة
≈	٢٣٢	≈ السادس	اثبتت	ثبتت
≈	٢٥٣	الحاشية (٤)	ستته	سننه
≈	٢٤٠	السادس من أسفل	لأفادة	لإفادة
≈	٢٤٢	الحاشية (٦)	٠٦٥٠٧٩)	(٦٥٠٧٩) .
≈	٢٤٤	الحادي عشر	"التقديم	التقديم
≈	٢٥٩	الحاشية (٣)	بتصرف	كلمة زائدة تحذف
≈	٢٦٠	السطر الخامس	إذإن	إذ إن
≈	٢٦٠	≈	فبله	قبله
≈	٢٦٥	الحاشية (١)	ينظر الكشاف	ينظر : الكشاف
≈	٢٦٦	الحاشية (٢)	ينظر التحرير	ينظر : التحرير

≈	٢٧٣	السطر السادس	أعلم	اعلم
≈	٢٧٣	≈ الثامن	وحيٌّ	وحيٌّ
≈	٢٧٤	≈ الثاني	انكار	إنكار
≈	٢٧٤	الحاشية (٣)	ينظر نظم	ينظر : نظم
≈	٢٧٧	السطر الثاني	بعباده	بعبادة
≈	٢٨١	الثامن من أسفل	لم تقييد	لم تقيد
≈	٢٨٥	الحاشية (١)	ينظر تفسير	ينظر : تفسير
≈	٢٩٥	السطر الحادي عشر	إنما اللهو	بينما اللهو
≈	٢٩٧	الرابع من أسفل	ما يسمعون،	ما يسمعون من الحق ،
≈	٢٩٨	السطر السابع	يرضى	يُرضي

الجزء	الصفحة	الموضع	الخطأ	التصويب
الأول	٢٩٩	الحاشية (٢)	ينظر معاني	ينظر : معاني
≈	٣٠١	الخامس من أسفل	وقفوا	وقعوا
≈	٣٠١	الحاشية (١)	ينظر التحرير	ينظر : التحرير
≈	٣٠١	الحاشية (٧)	كلمة بتصرف ساقطة	(١٠٨٧/٢) بتصرف .
≈	٣٠٢	السطر الرابع	إلهة	آلهة
≈	٣٠٦	≈ السادس	الحلف	بالحلف
≈	٣٠٨	≈ الثالث	بأن الآيات	لأن الآيات
≈	٣١١	الثالث من أسفل	يغيرها	بغيرها
≈	٣١٥	الثاني من أسفل	المفرع	المفرغ
≈	٣١٨	السطر الثالث	فقال تعال:(قل لهم لست من الملائكة)	فقال تعالى ـ ما معناه ـ: قل لهم لست من الملائكة
≈	٣٢٠	السطر الثامن	ـ كما ذكرـ ابن عاشور	ـ كما ذكر ابن عاشور ـ

≈	٣٢٠	الحاشية (٣)	ينظر التحرير	ينظر : التحرير
≈	٣٢٢	السطر العاشر	أعلم	اعلم
≈	٣٢٧	الحاشية (٢)	ينظر التفسير	ينظر : التفسير
≈	٣٢٩	السطر الأول	السطر بجمله زائد	يُحذف كُلّه
≈	٣٣٦	≈ السادس	مشركوا العرب	مشركو العرب
≈	٣٣٧	الخامس من أسفل	رسول	رسوله
≈	٣٣٨	السطر الحادي عشر	لاصابتهم	لإصابتهم
≈	٣٣٩	السابع من أسفل	نولى	نولي
≈	٣٤٣	السادس من أسفل	غيبهم	غيِّهم
≈	٣٥١	السطر الرابع	يبثت	يبث
≈	٣٥٣	≈ الثامن	إدعاء	ادعاء
≈	٣٥٣	الثامن من أسفل	أو قال ..	أو قال كذباً ..
الجزء	**الصفحة**	**الموضع**	**الخطأ**	**التصويب**
الأول	٣٥٥	السطر السادس	لكم	لكل
≈	٣٥٩	≈ الخامس	ـ أمر	ـ وأمر
≈	٣٦١	≈ العاشر	أورد تفصيل	أُورد تفصيل
≈	٣٦٨	الثالث من أسفل	المضى	المضي
≈	٣٧٠	الخامس من أسفل	ابتداءهم	ابتداءً هم
≈	٣٧٢	الحاشية (٥)	مختصر جامع البيان	مختصر الطبري
≈	٣٧٦	السطر الرابع	يجازي	يجازى
≈	٣٧٦	الحاشية (٢)	مختصر جامع البيان	مختصر الطبري
≈	٣٧٩	الحاشية (٥)	مختصر جامع البيان	مختصر الطبري

≈	٣٨٣	السطر الخامس	اخلال	إخلال
≈	٣٨٨	الخامس من أسفل	أصلية	أصيلة
≈	٣٩٠	السطر الحادي عشر	لعنا	لعلنا
≈	٣٩٣	الحاشية (٤)	مختصر جامع البيان	مختصر الطبري
الثاني	٤٠٤	السطر الأخير	بدالهم	بدا لهم
≈	٤١٩	الثامن من أسفل	الذهبي	الذهني
≈	٤٢٠	السطر الأول	تشبيهيه	تشبيهية
≈	٤٢١	≈ العاشر	فلأ يا	فلأياً
≈	٤٢٢	الرابع من أسفل	يعملون	يعلمون
≈	٤٢٣	السابع من أسفل	قلت ؟ بلى	قلت ؟. قال: بلى
≈	٤٢٤	السطر العاشر	عارفِون	عارفون
≈	٤٣٤	≈ السابع	مشية	مشيته
≈	٤٣٦	الحاشية (٥)	كلمة بتصرف ساقطة	(٧٨/٦) بتصرف .
≈	٤٤٢	السادس من أسفل	ولهل	ولعل
≈	٤٤٣	السطر الأول	إتباع	اتباع
≈	٤٤٩	الحاشية (٤)	كلمة بتصرف ساقطة	(٩١/٣) بتصرف .
≈	٤٥٦	السطر السابع	تلا	تلى
الجزء	**الصفحة**	**الموضع**	**الخطأ**	**التصويب**
الثاني	٤٦٠	الخامس من أسفل	"بكم"	"كم"
≈	٤٦٢	الرابع من أسفل	الصحية	الصيحة
≈	٤٨٩	السطر السادس	خاصة	خاصية

≈	٤٩٤	≈ السادس	بإتباع	باتباع
≈	٤٩٩	الثالث من أسفل	من اللّه	من هداه اللّه
≈	٥٠٢	السطر التاسع	به الناس	به بين الناس
≈	٥١٥	السادس من أسفل	مصوره	مصورة
≈	٥٢٠	الثاني من أسفل	**التعبير**في	**التعبير** في
≈	٥٢٠	السطر الأخير	فعليه	فعلية
≈	٥٣٧	≈ الأخير	المقام المعنى	المقام والمعنى
≈	٥٥١	الثالث من أسفل	قبلها	قلبها
≈	٥٥٨	السطر العاشر	آخر آية ـ من آيات القرآن الكريم ـ	آخر الآية القرآنية
≈	٥٥٨	الحاشية (٤)	كلمة بتصرف ساقطة	(٢١٩/٧) بتصرف .
≈	٥٥٩	السطر الثالث	محتجة	محتجبة
≈	٥٦٤	≈ الثاني	دونكم المشركون	دونكم أيها المشركون
≈	٥٦٩	الرابع من أسفل	به عن غيره	به غيره
≈	٥٧٣	السابع من أسفل	جعلوهاس	جعلوها
≈	٥٧٩	السادس من أسفل	مغربه	مغربها
≈	٦٠٦	السطر الثالث	؛ ذلك	؛ ولعل ذلك
≈	٦٠٧	الحاشية (٤)	ينظر: ص	ينظر: ص (٥) من هذا البحث
≈	٦١٤	السطر الثامن	الفاصلة	القافية
≈	٦١٨	السابع من أسفل	بها	بهم
≈	٦١٩	السطر الرابع	وتحقيراً	وتحقيراً للكفرة بها ،

للمشركين ولشأنهم

٤ـ شأن..

الجزء	الصفحة	الموضع	الخطأ	التصويب
الثاني	٦٢٢	السطر الرابع	وفي عناية	وفي هذا عناية
≈	٦٢٤	≈ الرابع	نكتة	نُكَته
≈	٦٢٤	≈ السادس	يهم	يعم
≈	٦٢٨	≈ السابع	الأراضي	الأرضي
≈	٦٣٠	≈ السادس	ثتت	ثبت
≈	٦٣٢	≈ الثالث	يمكن	يكمن
≈	٦٧٦	≈ الثالث	لإبراهيم	إبراهيم
≈	٦٨٧	≈ الخامس	سيقوله قبل	سيقوله المشركون قبل
≈	٦٩٦	≈ الرابع	سقوط الرمز الفاصل بين الآيتين	(... مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم ...)
≈	٧٢٣	السطر الحادي عشر	حديث ساقط	"كل مولود يولد على الفطرة..." ص ٣١٨
≈	٧٤١	السطر السادس	خطأ في الترتيب الهجائي لكتاب هذا السطر:" مناهل العرفان ..."	يُنقل إلى السطر الثالث موضع كتاب:" من بلاغة القرآن ..."، ويعقبه كتاب:" من بلاغة القرآن ..."، ويبقى ترتيب بقية الكتب كما هو.

كتب ساقطة من فهرس المصادر والمراجع

الجزء	الصفحة	السطر	الكتاب وبياناته
الثاني	٧٣١	الأول	التفسير الوسيط للقرآن الكريم . د. محمد سيد طنطاوي ، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، يناير ١٩٩٧م .

الجزء	الصفحة	السطر	الكتاب وبياناته
الثاني	٧٣١	السابع	التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تصحيح وتخريج: عبدالله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله، دار الحميضي للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
≈	٧٣٢	التاسع	حسن التوسل إلى صناعة الترسل. الحلبي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
≈	٧٣٤	الخامس من أسفل	شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد. محمد بن صالح العثيمين، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

برامج حاسوبية ساقطة من فهرس المصادر والمراجع

الجزء	الصفحة	الموضع	البرنامج وبياناته
الثاني	٧٤٢	في نهاية قائمة أسماء الكتب،	- قالون، إصدار مجموعة سيمافور، إصدار رقم: ١,٠ ـ رمضان، ١٤٢١هـ .
		يوضع عنوان	- مكتبة الشيخ وتلميذه ابن القيم،

جانبي: برامج الحاسب الآلي:	إعداد: الخطيب للتسويق والبرامج — الأردن، عمان، إشراف: مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار الأول، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م. - الموسوعة الذهبية الميسرة للحديث النبوي وعلومه، عبداللطيف للمعلومات، الإصدار الثاني، ١٤٢٠هـ — ١٩٩٩م.